البدايات والنهايات

قراءة أخرى للقصص القرآني

"من نوح إلى لوط"

الجزء الأول

محمد القلاوي

البـديـل للنشـر و التـوزيع

Al-Badeel Publishing and Distribution

الطبعة الأولى

2024

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 2023/12/6531

البدايات والنهايات – قراءة أخرى للقصص القرآني

الكاتب/ محمد محمد القلاوي - البديل للنشر والتوزيع

تقديم السادة : / د. محمد زكّاري ، د. إحسان محمد التميمي، محمد بصري.

رقم التصنيف: 228.2

الواصفات: قصص القرآن/ النبوءات / أمثال القرآن / القرآن الكريم

* يتحمل المؤلف كامل المسئولية القانونية عن محتوى مصنفه، ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ردمك ISBN 9789923551523

جميع الحقوق محفوظة

البديل للنشر و التوزيع

Al-Badeel Publishing and Distribution

عمان – الجبيهة –شارع أحمد الطراونة

مقابل البوابة الشمالية للجامعة الأردنية – بناية رقم 25

هاتف:00962790088632

Publishing@albadeelpublishing.com

❖ لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright ©

❖ All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher

المحتويات

الجزء الأول

قراءة أخرى للقصص القرآني "من نوح إلى لوط" 7
تقديم (1) 9
تقديم (2) 21
تقديم (3) 27
مقدمة المؤلف 31
معالمُ العقيدة الإلهية القديمة كما اعتقدها النبي 49

الفصل الأول

قصة نوح 80
المبحث الأول: نوح التوراتي 82
اولا: تاريخ الجماعة البشرية وفق التوراة. 82
ثانيا: تعقيب على تاريخ البشر في الكتب الدينية. 102
ثالثا: نوح التوراتي. 108
رابعا: مشكلات الطوفان العام والحلول الكتابية لها.! 126
خامسا: تعقيب على الطوفان. 138
سادسا: الكتاب المقدس والتاريخ (برج بابل نموذجًا). 143
المبحث الثاني: من آدم الي نوح في الأساطير التلمودية 161
أولا: من آدم إلى نوح في الأساطير التلمودية. 161
ثانيا: من خلق العالم إلى وفاة آدم. 164
ثالثا: بين آدم ونوح. 188
المبحث الثالث: من آدم إلى نوح في القرآن الكريم 225
أولا: من آدم إلى نوح في القرآن الكريم. 225
ثانيا: قصة نوح كما جاءت في القرآن الكريم. 239

ثالثا: الطوفان في القرآن الكريم. 249
رابعا: هل كان الطوفان القرآني عاما؟........................ 269
خامسا: المفردات الإسلامية في قصة نوح. 276
سادسا: سورة نوح - التقرير الأخير! 293

الفصل الثاني

قصتا هود وصالح 313
تمهيد 315
المبحث الأول: عاد وثمود بين القرآن والتاريخ........................ 317
أولا: قوم عاد في المصادر الاسلامية القديمة. 319
ثانيا: من أين أتت تلك الطريقة؟........................ 324
ثالثا: عاد وثمود عند المؤرخين المحدثين. 332
رابعا: متابعون ومؤولون........................ 340
خامسا: هل عرف النبي موسى قصة عاد وثمود؟ 363
سادسا: قصة مؤمن آل فرعون وقصص أخرى. 367
سابعا: هل عرف المصريون حقا قصص نوح وعاد وثمود؟ 386
ثامنا: صحف إبراهيم وموسى........................ 388
المبحث الثاني: اولا: هود وقومه في القرآن الكريم. 400
ثانيا: النبي محمد وخصومه من خلف قناع هود ومعارضيه. 410
ثالثا: الرسالات الإلهية في القرآن بين العموم وبين الخصوص. 439
رابعا: أين إذن ذهبت عاد وثمود؟!. 450
خامسا: قوم عاد عند المفسرين والمحدثين. 460
سادسا: هل كان هود وصالح نبيين افتراضيين؟........................ 470
سابعا: قصة صالح في القرآن الكريم. 474
ثامنا: قصة لقمان. 493

الفصل الثالث

قصة لوط بين التوراة والقرآن 509

المبحث الأول: لوط التوراتي 510

المبحث الثاني: لوط القرآني.. 538

المبحث الثالث: الاتفاق والاختلاف بين الروايتين.. 558

أولا: ملامح القصة القديمة خلف الرواية القرآنية.. 558

ثانيا: الفروق بين الروايتين وأسبابها. 570

ثالثا: ظواهر قرآنية: 578

لماذا هلكت امرأة لوط؟ 588

لوط وقومه 594

فهرست المراجع والمصادر.. 598

الجزء الأول

1

قراءة أخرى للقصص القرآنى

"من نوح إلى لوط"

تقديم (1)

أتوقع - بل أرجو - أن يكون هذا الكتاب بمثابة حجر ثقيل يُلقى في بحيرة حياتنا الدينية الراكدة، فقد مضت سنون كثيرة قبل أن يخرج علينا كاتب بمنظور تفسيري جديد يحرضنا على إعادة قراءة القرآن المجيد - كتاب عربيتنا الفريد - لننظر إليه من زاوية جديدة ، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يسعى جاهدا في سبيل ذلك .

في رحلةٍ عبر صفحات كتاب **"البدايات والنهايات"** لمؤلّفه الأستاذ محمد القلاوي، نجد أنفسنا أمام عملٍ فريدٍ من نوعه، يجمعُ بين دقة البحث العلميّ وعمق الإلمام بتاريخية القصص في القرآنيّ. صدر الكتاب 2024، مقسمًا إلى جزئين ضخمين، يضمّ كلّ واحد منهما ما يزيدُ على الستمائة صفحة. يُقدّم الكتابُ مراجعةً نقديةً للقصص القرآنيّ، مقارنًا إيّاه بالقصص الكتابيّ. ويُعيدُ المؤلّف بناء العمارة القصصية على منوال جديد ومختلف عمّن سبقوه من المؤلّفين، بل واختلف مضمونه عمّا جاءت به الكتابات الكلاسيكية.

تبدّت ضرورة نقد التأويلات والتمثلات التي أُقِيمَتْ حَوْلَ النّصِ المقدّس ملحّة في مراحل مختلفة من تاريخ تطور الفكر الإنساني؛ فالنقد الذي وجّهه **باروخ سبينوزا** لتأويلات النصّ التوراتي لا يمكن أن يُصَاعَرَ لَه الخدّ، وقد عرف هذا النقد أوجّه في رسالته الموسومة ب: **"رسالة في اللاهوت والسياسة"**، حيث يركز في جوهره على تعيين مكامن الجهالة والخرافة في تفسيرات النصّ التوراتي، لا سيما مع تراكم شروحات الربيين واستحكامها بواقع اليهود لمراحل طويلة، وقد لا تخلو من زلات وأعطاب. فما لم يستَعِن الشّارح بعُدّة منهجية ومعرفية يكون العقل سنداً لها، فلا يسلم من أن تقع إليه بعض الجهالات والمزالق في ما هو مُقدم عليه. ومع العلم أنه ما كان ليقبل مثل هذا الخطاب النقدي من لدن سدنة المعنى وحفّاظه، فكل محاولة للتجديد والنقد، هي محاولة لإخراج النصّ من سياج الوثوقية، نحو أفق جديد للتلقي.

ومع ما يمدّنا به الدرسُ في مجال العلوم الإنسانية، وما يُمدّنا به، أيضاً، تقدّمها المنهجي، فإن المعنى الذي به نسعى إلى إقامة الفصل بين الذات والموضوع، هو الذي طغى على أصول المعرفة في هذا الحقل، حتّى ما عاد الحديث عن الحقيقة والموضوعية إلا بتلمّس هذه الشرعة، وقد بلغ نقدُ الخطاب الديني مداهُ بتوسل تلك المناهج في تحليل الظواهر الدينية، وتحليل مدى تأثيرها على الإنسان. والنصّ المقدس في ذلك الكّل ليس استثناءً، بل على النقيض من ذلك، فأمره غاية الاعتبار لدى المشتغلين والدارسين ضمن المجال

الواسع لحقول العلوم الإنسانية المختلفة نفسيةً كانت أم اجتماعية، اقتصادية كانت أم سياسية. ينفل القول في هذا المعرض، بأن النصّ القرآني نفسه، قد تُنُووِلَ بالطّريقة عينها مع جملة من المفكرين المعاصرين، سعت مشاريعهم إلى تجديد فهم النصّ وتوسيع مجال إدراكه، بل وتحرير القارئ من السياج الذي أقيم حول هذا النصّ عبر تاريخ تشكل المعنى؛ فما قدّمه محمد أحمد خلف الله حول القَصَص القرآني ومجازيته، في أواسط القرن العشرين لم يكن ليقبل بصدر رحب لدى تيار المحافظين، وهو الذي استفاد من درس العلوم الاجتماعية. ونفس الأمر كذلك بالنسبة إلى نصر حامد أبو زيد في عمله التأويلي على النص القرآني، ومحمد أركون في قراءاته للقرآن في ضوء العلوم الإنسانية أيضاً.

امتازت المقاربات الغربيَّة للظاهرة القرآنيَّة بنوع من التَّحرُّر في التّعاطي مع المشكلات الأساسيَّة التي واجهت العقل الإسلاميّ، ولكن لم تمثّل، في كلّيتها، تعاطيًّا موضوعيًّا مع القرآن، وهو ما ألزم كثيراً من المستشرقين بمراجعة أدبياتهم بخصوص الموضوع. لقد كانت الترجمةُ أداةَ وصلٍ بينَ السِّيَاقين الإسلاميِّ والغَربيّ. غير أنَّ التَّرجمةَ خِيَانَةٌ للنَصِّ، فَلَئنْ نقَلَ المترجمُ معانيَ النصِّ، فليس في وسعه نَقْلُ التَّجربة الروحيَّة والوجدانيَّة التي يختبرها المسلمون أمام نصِّهم المقدّس. أدَّى التحوُّلُ التدريجيُّ لتلقّي النصِّ القرآني، في ميادين الدِّراسات الغربيّة، إلى دراساتٍ أكاديميَّةِ التي بلغتْ ذروتها في القرن التاسعِ عشرْ. لقد حَظِي القرآنُ بِمكانَةٍ، هامَّةٍ، سمحت بإعادةِ استحضارهِ ضمن مجال معرفيٍّ مغايرٍ للمجال الذي سادَ في القرون الوسطى، وحلَّ البحثُ المنهجيُّ محلَّ الجدل والسجال.

يلحظُ المتتبِّعُ لمجَالِ الدّراسَاتِ القرآنيّةِ حجم الازدهار الذي آل إليه، بعدَ أنْ خرج من سيطرةِ الفوضى والرّكون خلالَ أواسط القرن العشرين. حتى على مستوى التنظيرِ، فإنَّ ما قدّمتهُ الدّراسات القرآنية إلى حدود ستينيات القرن العشرين، في شكل أجوبةٍ قطعيّةٍ، صارَ محط نظرٍ واستشكال في اللحظة الرّاهنة.

وبالمقابل من ذلك، ترجع الصُّعوبة في تطبيق المنهج التاريخي على النصّ التأسيسي للإسلام إلى ندرة المصادر المعاصرة لظهوره. حاول الباحثون إيجاد وسائل أخرى للتحقيق، بناءً على طريقة متعدِّدَة التَّخصصات (Interdisciplinary)، تستدعي العديد من مجالات الخبرة (مثل فقه اللغة، والدلالات، والنقوش، وما إلى ذلك). وكانَ تعدد

النَّظريات وعدم التوافق على طريق جاد يؤدي إلى استنتاج نهائي، عائقاً أمامَ دراسةِ أصل القرآن. ولا يهتم الباحثون، مع ذلك، بهذا الجانب طالما أنهم مقتنعون مسبقًا بأن القرآن هو بالضرورة عمل بشري كتبه شخص واحد أو أكثر.
أما المقاربات الحداثية في عالم الإسلام فقد تأسست كُلّ نظريات التّفسير والتأويل حول ماهية القرآن، وكانت غاية نصر حامد أبو زيد من الوقوف عند ماهية النصّ تتمثل في كشف حقيقته الكامنة وراء الممارسات التأويلية والتفسيرية التي قدمتها الاتجاهات المختلفة في تاريخ الإسلام، وهي التأويلات التي لا تزال تحْجُبُ المعنى، بالإضافة إلى الممارسات الطقوسية والشعائرية؛ وهي ما برحت تضعُ ثقلها على أيّ تفسير للنصّ.
يرى نصر حامد أبو زيد أن للنصّ كينونة، وأنّ القارئ صاحب أفق؛ فللنصّ من خلال بنيته وما يحيط به من علوم وتراث تفسيري وتأويلي، علاقة بفكر القارئ، وأما القارئ فهو يجذبُ النصّ إليه بمقتضى فاعليّته التي لا تتحقق إلا من طريق المعرفة بالواقع وفهمه، وإدراك ديناميته، فيخلصُ إلى مسألة رئيسة مقتضاها أنّ التأويل هو الوجه الآخر للنصّ، وهو يمثّل آلية من آليات إنتاج المعرفة. ولا يمكن اعتبار النصّ صالحاً لكل زمان ومكان إلا إذا أصبح مُنتجاً ثقافياً (=أي أن يصبح مدار مشروعيّة النصوص الأخرى)؛ وحين تتضافر تلك النّصوص يمكن أن يتغيّر التوظيف الإيديولوجي للتراث عموماً وللقرآن خصوصاً.
التفكيرُ في النصّ الدِّيني لغرضٍ غير فهمه، والوعي به خارج سياقات تطوّره الفكرية والمعرفيَّة، وتعاطيه مع واقعه، يسقطُ عنه تاريخيّتهُ، ويضعهُ في حقلٍ تعبّديّ ضَيّق. تلك هي حال الفقه والتفسير في الإسلام، عند عبد المجيد الشرفي. إنَّهُ يدورُ في فلك شروط تاريخيّة لا يبرحها، وليس صائباً أنْ نحاكمَهُ وفق منظورنا المعرفيِّ، ولا أنْ نتأوّله بما لا يطابق شروطه تلك. يضعنا عبد المجيد الشرفي أمامَ العوامل الرئيسة، التي ساهمت - في نظره - في تحوّل النصّ القرآني من الفضاء التاريخي إلى الفضاء التّعبُّديّ، عند خاصةِ المسلمين وعامّتهم. أوّلها؛ صُورَةُ القرآن في المنظور الإسلامي والجدل العقائدي؛ وثانيها أنَّ إجماع المسلمين لم يقع حول أمر، مثلما وقع حول نصّ القرآنِ، على اختلافٍ في مذاهبهم ومعتقداتهم؛ وثالثها ما يُثيرُه الأسلوبُ القرآني في متلقّيه، خاصّةً حين يتعلّق الأمر بقصار السور، التي تفنّن المسلمون في ترتيبها وتجويدها؛ ورابعها ما يحتويه القرآن من تعاليم تربويّةٍ وبَلاغِيةٍ تثيرُ في النّفسِ ما تثيرهُ

من استجابةٍ للتّطلّعات البشريّةِ، ولتحقيق الخير المطلق، الذي يلزمُ الإنسان بالخضوع للمقدّس؛ وخامسها يرتبط بالتوظيفات المختلفة للنصّ الديني في سياق الدّفاع عن المواقف، وتأييد الآراء المختلفة، أو تبرير السلوك الفردي أو الجماعي.
أكّد محمّد شحرور أنه لا بدَّ من أن تتوفّر قراءةٌ متجدّدةٌ للقرآن، ولا بد لها من أن تخترق المدارس الموروثة والمفاهيم التي انبنى عليها الوعي السلفي للدين وتحرره من الأغلال التي قيّد بها الإنسان ومن إكراهات الواقع، وتحرره من بلادة الفكر الديني وتزمّته الذي ما زال يُشرعن الشمولية فكراً وممارسة ويعيد إنتاج الإكراهات الاجتماعية المغلفة بعباءة الدين. لقدْ أمسى العقل الدّيني المنغلق عقلاً مأزوماً، وغير قادرٍ على مواكبة الواقع المتغيّر، وهذا ما يفسرُ الانكفاء المتواصل الذي لا يزال يغمرُه إلى يومنا الحاضر. وقد أضْفَت السلطة السياسية، في تاريخ الإسلام، نوعاً من القداسة والهيلمان على تلك النّصوص التي تؤسّسُ العقل الدّيني المنغلق، ورفعت مكانتها فوق النصوص المقدّسة نفسها.
يذهبُ طيب تيزيني إلى أنَّ جمع القرآن في «مصحف» لم يبدأ زمن النبّي، وَلَم يحصُل بصورته التي نَعْرِفُها اليوم، إلّا في زمن أبي بكر بإيعاز من عمر بن الخطّاب، بعد معركة «اليمامة» التي راح ضحيّتها كثيرٌ من الحفظة، على عكس ما تذهب إليه المدوّنة الكلاسيكية، التي تزعم أَنَّ الجمع النهائي للمصحف تمّ في العهد النبوي، وذلك مستبعدٌ. لو تمّ ذلك الأمر، فعلاً، لما احتاج الخلفاء إلى أخذ مثل هذا الأمر الجلل، وإلغاء المصحف «المحمّدي» واستبداله (=حرقه)، وإحلال المصحف «العثماني» محلّهُ. تلك من أبرز المعضلات التي واجهت «العقل الإسلامي» في بدايات تكوينه، وتنبّه إليها المستشرقون الذين عَكَفُوا على بنية النصّ الديني في الإسلام وتشكّله. ومن خلال مقارنة المخطوطات المتقدّمة والمتأخرة، التي عثروا عليها وحلّلوها. تعلنُ الاتجاهاتُ العقديّةُ كلّها انتماءها إلى النصّ المقدّس؛ فهو «الأصل» الذي متحت منهُ. وليس بوسعنا أن ننكر تلك المقدّمة، خاصةً وأنّ النصّ لا يقول شيئاً وإنما ينطق من خلال قرائه.
يرتكزُ وجيه قانصو، في بحثه، على أطروحةٍ رئيسةٍ مؤدّاها إلى إعادة تأسيس المشهد التكويني للنصّ القرآني، وإعادةِ صوغ أشكال الاستجابة له فهماً وتأويلاً، وليس ذلك من أجل إحداث قطيعة مع المقولات التي أسستها المنظومة التفسيريّة، وإنما من أجل الدّفاع عن الحاضر، والتأكيد على دوره في بناء تجربة جديدة لفهم النصّ. ثمّة مقوّمان

أساسيان ينبغي أخذهما بعين الحرص: الأوّل؛ أنّ ما أنتج حول تاريخيّة النصّ الدّينيّ يحمل هامشاً يسمح ببناء أفق تأويلي، وذلك لا يتأتى إلا من خلال المراجعة الكليّة لذلك التراكم المعرفي الذي حصل منذ اللحظة النبويّة، والثاني؛ أن الحاضر يفرض ثقله على من يسعى إلى تأويل النصّ أو تفسيره. وبهذا المعنى، لا يمكن للمفسّر أن يلقي بنفسه في أفق النصّ التاريخي الماضوي، وضمن شروطه التي تأسس ضمنها، بل عليه أن يستحضر واقعه، وتجربتها الحاضرة، وأن يفكّر في النصّ من منظور **"الهنا"** و**"الآن"**.

ينبّهنا الأستاذ محمّد القلاوي منذ مطلع عمله إلى أنّ جزيرة العرب، قد ظلت وسط صراعات الإمبراطوريات القديمة، بمثابة معقلٍ وطنيٍّ فريدٍ. فقد نجت من هجمة الهيلينية، ونجت أجزاؤها الداخلية من صراع الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية الشرقية. ساعدت جغرافيتها القاسية على مقاومة الغزو والضم، مما جعلها بمنأى عن التحديث القسري الذي فرضته تلك الإمبراطوريات على المناطق التي سيطرت عليها.

ولعب التبشير الديني دورًا هامًا في ترسيخ سيطرة تلك الإمبراطوريات، لكن جزيرة العرب بقيت بعيدة عن هذا التأثير. في القرن السابع الميلادي، كانت الروح العربية تتوق إلى عقيدة دينية تشبع احتياجاتها الروحية. واجهت الروح العربية خيارين: إما ابتكار رؤيتها الدينية الخاصة، أو تبني إحدى الرؤى الجاهزة من جيرانها. كان ظهور النبي محمد هو ما جعل الخيار الأول ممكنًا.

لم يكن محمد مجرد حنيفي متطور، بل كان عبقرية روحية أصيلة ومبدعة. واستطاع، مستفيدًا من التأثيرات الكتابية الموجودة في الجزيرة العربية قبل مولده، أن يخلق للعرب وللعالم رؤية دينية وأخلاقية تعكس الروح العربية بأفضل صورة ممكنة. من هو هذا الرجل الذي فعل ذلك؟ إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي حدثت له تجربة روحية عنيفة في غار حراء، وهو في الأربعين من عمره. كانت هذه التجربة نقطة تحول في حياته، ونقطة انطلاق لدين من أهم أديان العالم، وصارت رؤيته المرجع الروحي لربع سكان الكوكب. ما هي تلك التجربة؟ لا نعرف بالضبط ما حدث في غار حراء، لكن نعرف أن محمدًا خرج من الغار رجلًا مختلفًا. فقد أصبح نبيًا مُرسلًا من الله، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك والظلم. ما هو تأثير الإسلام على جزيرة العرب والعالم؟ كان للإسلام تأثير هائل على جزيرة العرب والعالم. فقد وحد

العرب تحت راية واحدة، ونشر القيم الإنسانية النبيلة مثل العدل والمساواة والإخاء. كما أسهم في نشر العلم والمعرفة، وساهم في نهضة الحضارة العربية والإسلامية.

البدايات والنّهايات أصول المشروع وملامحه في التعاطي مع القصص القرآني

عُنِيتْ كثير من الدراسات بالقصص القرآنيّ، والتفكير فيه من خلال علاقاته إما داخل القرآن نفسه، أو في علاقته بالقصص الكتابي. يقف هذا العملُ (= البدايات والنّهايات) في كلّيته عند تلك المصاعب التي تواجهُ التفاسير الكلاسيكية حين تعاطيها مع القرآن؛ إذ المصاعبُ ليست بالجديد الذي يذكرُ بالنظر إلى أن الأقدمين قد راهنوا في تفسيرهم على النظر إلى القرآن في علاقته بسيرة النّبي محمّد (ص)، وهو الأمر الذي لم يكُن ليسمح بفهم كثير من الأمور التي تنتمي إلى طبيعة السياق الثقافي الذي ظهر فيه القرآن ولا بفهمِ القرآن في علاقة بما قبله. وكانت هذه المساحةُ بين القرآن وحياة النبيّ هي الحيز الذي يتحرّك ضمنه المفسّرون الكلاسيكيون في إطارهم التّقليدّي، خوفاً من أن يدخلوا في ثقافتهم ما ليس منها، ولكن سرعان ما تحوّل هذا الأمرُ إلى منفذ ثقافيّ وأعاد القرآن إلى سياقه الثقافيّ، بحسبانه خطاباً موجّها إلى اليهود والنّصارى، الأمر الذي أدّى بالمسلمين إلى نقاش طويل حول الإسرائيليات وفائدتها.

يُقدّم الكتاب رحلة غنية عبر قصة نوح في التوراة، بدءًا من تمهيد شامل لتاريخ الجماعة البشرية وفقًا للنسخة التوراتية، مع تسليط الضوء على الاختلافات بين الكتب الدينية في هذا الشأن. يُناقش الكتاب أيضًا مشكلة الطوفان العام والحلول الكتابية المقترحة له، مع تحليل واقعة الطوفان ومناقشة مصداقيتها من منظور علمي وتاريخي. يُقدم الكتاب نموذجًا لدراسة التناقضات بين الكتاب المقدس والتاريخ، من خلال قصة برج بابل، التي تُعدّ مثالًا بارزًا على التباين بين الرواية التوراتية والواقع التاريخي. يُقارن الكتاب أيضًا بين رواية خلق العالم من آدم إلى نوح في الأساطير التلمودية والقرآن الكريم، مما يُثري فهمنا للتأثيرات المتبادلة بين الثقافات والمعتقدات المختلفة. يُتيح الكتاب فرصة للتأمل في دروس وعبر قصة نوح، مثل أهمية الإيمان والطاعة لله، والعدالة الإلهية، والعقاب على الفساد.

يُركز الفصل الأول على قصة نوح في القرآن الكريم، بدءًا من خلقه ورسالته إلى قومه. يُناقش الكتاب نشأة نوح وبيان صفاته، وكيف اصطفاه الله نبيًا ورسولًا ليدعو قومه إلى عبادة الله وحده. يُناقش الكتاب أيضًا واقعة الطوفان في القرآن الكريم، بدءًا من أسباب

حدوثه، مرورًا ببناء السفينة، وانتهاءً بنجاة نوح ومن آمن معه. يُقدم الكتاب تحليلًا للآيات القرآنية التي تتحدث عن الطوفان، مع التركيز على الدروس والعبر المستفادة من هذه القصة. يُناقش الكتاب أيضًا مسألة ما إذا كان الطوفان القرآني عامًا أم محليًا، مع تقديم الأدلة الداعمة لكل وجهة نظر. يُقدم الكتاب تحليلًا للآيات القرآنية التي تُشير إلى الطوفان، مع التركيز على المعاني اللغوية والسياق القرآني. يُسلط الكتاب الضوء على المفردات الإسلامية المُستخدمة في قصة نوح، ومدلولاتها في السياق القرآني. يُقدم الكتاب تحليلًا دقيقًا لهذه المفردات، مع التركيز على المعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية. يُختتم الفصل بتحليل سورة نوح، باعتبارها التقرير الأخير عن قصة نوح في القرآن الكريم. يُقدم الكتاب تحليلًا شاملًا للسورة، مع التركيز على البنية والبلاغة والأسلوب. يُقدم الفصل الأول تحليلًا دقيقًا لقصة نوح في القرآن الكريم، مع التركيز على مختلف جوانبها. يُقدم الكتاب أيضًا مساهمة علمية في فهم قصة نوح من منظور إسلامي.

يستهل الكتاب رحلته في ثنايا التاريخ، مستكشفًا قصتي نبيين عظيمين، هود وصالح، اللتين خلدّهما القرآن الكريم. ينطلق من الربط بين هاتين القصتين، من منظور إيماني وتاريخي، ليُبحر في رحلة عبر الزمن، باحثًا عن أصول عاد وثمود، هاتين القبيلتين اللتين عاشتا في شبه الجزيرة العربية قبل آلاف السنين. يتناول الكتاب أوجه الاختلاف في الروايات حول أصل عاد وثمود، مناقشًا نظريات المؤرخين حول نشأتهما ومكان سكناها. ثم يُخصص مساحة لمناقشة طريقة عيش هاتين القبيلتين، مركزًا على مظاهر القوة والازدهار التي تمتعا بها، مُسلطًا الضوء على سبب هلاكهما وعاقبة طغيانهما .يُقدم الكتاب تحليلًا عميقًا للآيات القرآنية التي تتحدث عن عاد وثمود، مستخرجًا الدروس والعِبر من قصصهم، مُبرزًا حكمة الله وعظم قدرته. يتطرق الكتاب أيضًا إلى آراء المؤرخين المحدثين حول هاتين القبيلتين، مُقارنًا بين وجهات نظرهم وتحليل نقاط الاتفاق والاختلاف بينهم. يُناقش الكتاب أيضًا موضوع المتابعين والمؤولين لقصة عاد وثمود عبر التاريخ، مُحللًا تأثيرهم على فهم هذه القصة وتطورها. يُطرح الكتاب تساؤلًا حول معرفة النبي موسى بقصة عاد وثمود، مُستندًا إلى الأدلة الدينية والتاريخية المتعلقة بهذا الموضوع. يُقدم الكتاب في النهاية رؤية شاملة لقصة عاد وثمود، مُدمجًا بين الإيمان والتاريخ والتحليل العلمي. يُشكل الكتاب مرجعًا غنيًا للباحثين والمهتمين

بفهم هذه القصة، ويُقدم رؤية جديدة تُعيد قراءة التاريخ من منظور إيماني - ونقدي - عميق.

أما الفصل الثالث من الكتاب يُخصص لقصة لوط، نبي الله الذي أرسله الله تعالى لقوم سدوم وعمورة. يُقارن الكتاب بين رواية قصة لوط في التوراة والقرآن الكريم، مع التركيز على أوجه التشابه والاختلاف بين الروايتين .يُبدأ الكتاب بتقديم نبذة عن لوط في التوراة، مع ذكر بعض التفاصيل التي تختلف عن الرواية القرآنية، مثل زواجه من ابنتيه. ثم ينتقل الكتاب إلى رواية قصة لوط في القرآن الكريم، مع تحليل الآيات التي تتحدث عن رسالة لوط، ودعوته قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونهيه عن الفواحش. يُناقش الكتاب أيضًا بعض الظواهر القرآنية التي وردت في قصة لوط، مثل قصة الملائكة الذين زاروا إبراهيم عليه السلام، وقصة عذاب قوم لوط. يُطرح تساؤل حول معنى الآية الكريمة "ما سبقكم بها من أحد من العالمين"، مع تحليل مختلف التفسيرات التي وردت حول هذه الآية. يُناقش الكتاب أيضًا موضوع هلاك امرأة لوط، مع تحليل الآيات القرآنية التي تتحدث عن هذا الموضوع. وأخيرًا، يُقدم الكتاب تحليلًا لخصائص قوم لوط، وأسباب هلاكهم من الله تعالى.

أما الجزء الثاني فيتناول قصة يوسف في المرويات القرآنية والتوراتية والتلمودية ليستخرج لنا أهم المؤثرات التي شكلت المنظور المحمدي لقصة يوسف . يتوقف الكاتب عند قضيتين هامتين أولاهما : عقيدة البعث عن المصريين القدماء ، وأما الأخرى فتتناول قضية حضور الملائكة عن المصريين وليقدم تفسيرا جديدا لتلك القضايا وسنتركه للقارئ ليرى فيه ما يشاء ثم نراه بعدها يتناول قصة الجن في القرآن ويشرح آلية المخيال النبوي في التعاطي مع تلك الكائنات الخفية . أما الفصل الأخير - وهو في اعتقادنا أهم تلك الفصول قاطبة - فيرتكز على تحليل طرائق التفكير النبوي لنرى من خلال طرق التفكير المحمدي كيف تفاعل النبي – عليه السلام - بعقله ووجدانه مع الموروث الكتابي مستعينا بكل مواهبه في هضم ذلك التراث العتيق وإعادة تشكيله وفق منظور أخلاقي رفيع .

كان المسلمون يعتبرون القصص القرآني أخبارًا صادقة أوحاها الله حرفيًا إلى النبي محمد عن أقوام عاشوا قبل عصره بقرون. ولم يجدوا صعوبة في دمج هذه القصص مع تاريخ البشر، بدءًا من آدم عليه السلام وصولًا إلى عصورهم. مع تطور المعارف

التاريخية، ظهرت مشكلات في تفسير القصص القرآني كتاريخ بشري. فكان يُنظر إلى التاريخ كمسرح لتجلي الهداية الإلهية عبر النبوة، وتدخل الله المباشر لتدمير المجتمعات المتمردة، وإسباغ البركة على أتباع الأنبياء. لذلك، ظهرت الحاجة إلى تأويل القصص القرآني ليصبح أكثر اتساقًا مع المعارف الحديثة وأكثر إقناعًا للمؤمن المعاصر. حاول بعض المفسرين التأويل مع البقاء داخل إطار الرؤية الدينية التقليدية، بينما سعى آخرون إلى قراءات مغايرة، مع التوقع بوجود عواقب وخيمة لمثل هذه القراءات.

غايتنا من هذا العرض أن نضع القارئ أمام المكانة التي يحتلُّها هذا العملُ في سياق التّعامل مع القرآن، وفي إطار المراجعات التي همّ بها صاحبهُ من أجل تجديد النظر في الموروث القصصيّ الديني، ومن أجل ذلك كان من باب أولى أن نضع هذا العمل في سياقه المنهجيّ والمعرفيّ بالتّعرف على أصول هذه المقاربة وأسسها النظريّة التي ارتأى من خلالها الأستاذ محمّد القلاوي التعامل مع القرآن بما يضمن له قداستهُ- وفق تعريفه الخاص لدلالة القداسة ، وبما يحرّرهُ من قيود التفاسير الكلاسيكية.

لا يؤدّي التَّعامُل المنهجي مع القرآن إلى إسقاط صفَةِ القُدْسيَّة عنه، بقدر ما يسعى إلى تفهُّم طبيعة تلكَ السُّلْطَة التي يفرضها النَّصّ على مجتمعه وواقعه، والكيفيَّة التي يتمُّ من خلالها انتقال تلك السلطة إلى النُّصوص الثواني. ولا يستقيمُ ذلك إلا إن نحنُ نظرنا إلى تلك العلاقة في المستويات التاليّة:

الأولُ؛ أنَّ مُجْتَمَعَات الإسْلَام تَمَثّلت النَصَّ القرآنيّ بحسبانهِ مصدراً للقوّةِ والمكانة الدينيّةِ والسياسيّة. ويمكنُ استخلاصُ هذه النتيجةِ من طبيعة العلاقة المحدّدةِ لدور الفردِ في الجانب التعبّدي والطقوسي، كأشكال التلاوة والحفظ، والترتيل، وما إلى ذلك؛ أو من خلالِ الدّور الذي تَضْطَلعُ به المكانة النبويّة في تبليغ النصّ إلى جماعة المسلمين. وهكذا يكتسبُ النصُّ سلطانه على الأفرادِ بوصفه تجسيداً يتمُ من خلال الأدوار النبويةِ على الحياة الفرديّة. لكن هذا الأمر يستلزم شيئاً آخر، هو استمراريّة الأدوار النبوية من خلال طبقة رجال الدّين، ومن ينتزعون لأنفسهم الحقّ في تفسير النصّ الديني. وبذلك، ما كان بالإمكان القول يوماً "إنَّ محمّداً قد مات"؛ لأنَّ الأدوار النبويّة تمَّ توريثها بشكل متفاوتٍ للجسد السياسي والديني لاحقاً.

والثانيّ؛ أنَّ دراسة القرآنِ، في التقليد الإسلامي، تعتبرُ من أعلى شؤون المعرفة الدّينية، وهي فريضةٌ على كلِّ مسلم؛ حيثُ يتجلّى النصُّ القرآني كَرَكِيزة لوجود الفرد وعضويته

داخل المجتمع. ويبقى القرآن بذلك مَدَاراً لتَفْكيرٍ مستمرٍ، لدى مختلف أطياف المجتمع المتنوّرة منها والمتطرّفة على حدٍّ سواء. وبيّنٌ أنَّ فهم النصِّ يستوجبُ النَّفَاذ إلى طبقاته الخفيّة، وفهم معناه العميق الذي لا يظهرُ في تجليّاته البرّانية، وقشوره؛ وهذا النّفاذ هو ما يسمحُ بتوسيع دائرة المعنى في النّصّ على حساب الحرف الذي تضيق معهُ آفاق النصّ.

والثالثُ؛ أن قراءة النّص القرآني، أو الاهتمام بتفسيره، يدخلُ في نِطَاق التجربة الدّينية. لا يسعى النصُّ إلى نقلِ القصص المقدسّ فقط أو الحكي عن تاريخ الأقوام الماضية، وإنّما هو التجسيدُ الفعلي لظهور الله نفسه في أحداث التّاريخ. غير أنَّ القراءة الثيولوجية، واللوتيرجية، تبحثان معاً عن الله في النصّ متناسيّتين تماماً، أنَّ النصَّ هو الله، وأنَّ أيّ قراءةٍ للنصّ تعدُّ بمثابة لقاءٍ مفتوحٍ معه. يُصْبحُ القرآن، بذلك، كياناً مقدّساً يتمظهر الله، من خلاله، داخل التّجربة الإيمانيّة للمسلمين.

والرَّابعُ؛ أنَّ للنصّ أَثَرَهُ على الواقع والاجتماع البشريين، ومن خلاله ترتسم حدود العلاقة بين الأفراد بعضهم البعض، وبين الأفراد والمجتمع. يبلغُ تأثيرُ النصّ مداهُ حينَ ندركُ أنَّه لا سبيل إلى فهمِ تجربته إلّا ضمن الأفق الذي تختطُّهُ المصالحُ المُتَضَاربة، التي تطمحُ إلى تملُّك زمام النصِّ وتسخيره لخدمةِ مآربها. ولئن كانَ الاختلافُ وارداً في ثقافات المجتمعات التي تأتلف حول نصٍّ واحد، فإنما مصدرُ ذلك اختلاف رؤاهم وطرقهم في قراءته وتأويله، ويبرّرون تلك المعتقدات الناجمة عن تأويلاتهم من خلاله. يؤثّرُ النصُّ الدّينيُّ في المجتمعات، ومنه تصدُر أشكالُ التبرير الممكنة جميعها، ولا سبيل إلى إنكارِ أمرٍ هامّ، وهو أنَّ تفسير النّصِّ يمثّلُ في جوهرهِ عمليّةَ تبريرٍ كليّة لطرق الفهم والاعتقاد، التي تُسَطِّرُ طُرُق المعنى في الحياة.

أخيرا ، يُقدم الكاتب نظرة ثاقبة حول طبيعة الوحي والأنبياء، مُقسّمًا أفكاره إلى ثلاث إجابات تمثل الماضي والحاضر والمستقبل .الإجابة الأولى، تمثل الماضي، وتُركز على الوحي كحدث خارق للعادة، حيث تلقى الأنبياء رسالة من الله مباشرة. يُناقش الكاتب صعوبة فهم كيفية تلقي النبي محمد للوحي بكل تلك التفاصيل الدقيقة، مما يُثير تساؤلات حول طبيعة هذا الحدث. الإجابة الثانية، تمثل الحاضر، وتُركز على فهم الوحي كإلهام داخلي ينبع من أعماق النفس البشرية. يُشير الكاتب إلى مقولة فويرباخ "الإلهيات إنما هي إنسانيات مقلوبة" لفهم طبيعة الله، حيث يرى أن البشر هم من ابتكروا

فكرة الله على صورتهم .الإجابة الثالثة، تمثل المستقبل، وهي غير معروفة لنا بعد. يرى الكاتب أن الأنبياء عبروا عن المثل العليا للبشرية في عصرهم، وربطوا الفضائل الإنسانية مثل الصدق والعدل والرحمة برسالة الدين .يُؤكد الكاتب أن النقائص في الأديان، مثل العنف والتحيز، تدل على أنها من صنع البشر، وليست من عند الله. بالتالي، يُقدم الكاتب نظرة نقدية للوحي والأنبياء، مُركزًا على دور الإنسان في تكوين هذه المفاهيم.

يقول الكاتب أن كل دين يُعد تعبيرًا عن نهاية الأفق الذي يراه أهل ذلك العصر، متجليًا في بصائر الأنبياء. مع تقدم الحياة وتغير المفاهيم، يتشكل أفق جديد يتطلب روحًا جديدة لتصوغه، واثقة من نفسها بما يكفي لاعتباره نهاية المسعى البشري. بين الأنبياء، يبرز النبي محمد كأفضل من عبّر عن هذا التفاعل. لم يكن متأملًا منعزلاً، بل امتلك حسًا دنيويًا،ورفض الاستغراقات الباطنية. تمتع برؤية واضحة للعالم، وقدم منظوراً أخلاقياً سهل المنال مستوحى من التقاليد العربية والوصايا اليهودية. جسّد النبي صورة الرجل العربي الكامل والمؤمن الصالح، ولا يمكن تقييم تجربته الدينية إلا من خلال سعيه للتعبير عن هذا المزيج .استحسن النبي محمد من التشريعات العربية ما اعتبره من شريعة إبراهيم أو الفطرة الأصلية. اعتقد بوجود شرائع دينية منذ أقدم الأزمان، جزءًا من الشريعة الإلهية القديمة التي مارسها جميع الأنبياء. يقدم القرآن الكريم منظورًا تاريخيًا بسيطًا يركز على حفنة من الأمم الهامشية. تبدأ الأحداث بمشهد ميتافيزيقي، ثم حادثة قتل، ثم سلسلة دعوات يبدأها نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، وصولًا إلى المسيح .يُركز القرآن الكريم على الصراع بين الإيمان والكفر، دون اعتبارات اقتصادية أو ثقافية .لا يوجد في القرآن أي أثر لمفهوم التطور. كل شيء كان تامًا منذ البداية، ثم يعروها الانتكاس، ويرسل الله نبياً لإعادة الناس إلى ما كانت عليه قبل السقوط. يقدم القرآن الكريم تفسيرًا بسيطًا لتاريخ الجماعة البشرية: إنسان عاقل يفهم نفسه كعبد لله، ويدخل معه في علاقة مشروطة .يؤكد النص على خطورة التمسك بالمفاهيم القديمة التي تم تجاوزها، مثل العلاقة غير المتكافئة بين الرجل والمرأة، والرق، والتفاوت بين الغني والفقير .يُعبر النص عن الإعجاب والتقدير للأرواح العظيمة التي حاولت تفسير الظواهر التاريخية والثقافية والروحية في ظل غياب الأدوات الحديثة .يُنتقد النص موقف التابعين الذين يتشبثون بالمفاهيم القديمة دون اعتبار للتطورات والتفسير

الصحيح. يُؤكد النص على أهمية التطور والتقدم في فهم الدين، وخطورة التمسك بالمفاهيم القديمة التي لم تعد صالحة لعصرنا.

د. محمد زكّاري، باحث في الفلسفة - جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء

تقديم (2)

يتوافر هذا الكتاب على صبغة جديدة ومعاصرة لم نعهدها في عدد غير قليل من المظان التي تناولت موضوع القصص القرآني . فالصبغة التي انماز بها هذا الكتاب الذي بين أيدينا تعود إلى أسلوب الكاتب محمد القلاوي في عرضه المقارن بين القصص القرآني، وقصص الكتب السماوية الأخرى، مؤكداً في ذلك على العبقرية الروحية الأصيلة والمبدعة التي انماز بها النبي الأعظم محمد(ص) . إذ يرى أنه استلهم الإرث الكتابي الحاضر في جزيرة العرب قبل مولده بقرون ليرسخ بعد ذلك الرؤية الدينية والأخلاقية منطلقاً من سجايا عربية هي سليلة إرث عظيم وكل ذلك لم يخرج من مدار الهداية والعناية الإلهية، ولم يأتِ تأثيره العميق في نفوس مريديه إلا بعد مكابدات أليمة، في ظل الفوضى الروحية التي كانت مهيمنة على عصره. .

وسم المؤلف الرؤية القديمة لقراءة القرآن بـ(التقليدية)، تلك الرؤية التي تنحو منحى المؤرخين حينما يؤرخون لقصة الإنسان على الأرض عبر التاريخ الحضاري، وهذه الرؤية التقليدية للقصص القرآني - بحسب المؤلف- تعرضت للتشكيك، بسبب ظهور المعارف التاريخية الحديثة، ولهذا لجأت تلك الرؤية لتقديم رواية أخرى عبر التأويل الذي قد يكون متكلفاً تارة وسائغاً تارة أخرى. وهذه القراءة التقليدية وجدت طريقها عبر المطابع بالمئات. ويرى المؤلف أن هناك قراءات مختلفة عمّا سبقها، سعت – وإن كان على نحو خجول ومتعثر- إلى متابعة نقد الكتاب المقدس قديمه وحديثه. وحاول مؤلف الكتاب بجزئيه (الأول والثاني) إلى تخطي ما وقعت فيه هذه الدراسات الأخيرة، وكان تأكيده على دراستين، هما: دراسة الأستاذ محمد خلف الله أحمد الموسومة بـ((الفن القصصي في القرآن))، وأما الدراسة الأخرى فهي للدكتور محمد عابد الجابري في كتابه الموسوم بـ((مدخل إلى القرآن الكريم))، فقد عُرف كتاب المرحوم محمد خلف بإثارته للجدل في الخمسينيات، أما كتاب الجابري، فيرى المؤلف أنه لا يختلف عن سابقه في الرؤية والتحليل من أن القصة القرآنية لم يكن هدفها التاريخ بل العظة والاعتبار، وأن ما ورد على لسان شخصيات القصة القرآنية، هو ما أنطقه القرآن على لسانهم، عامدا ، وهذا يحمل في طياته تكذيبا مضمرا للنبي - عليه السلام - مؤكدا على ضعف خلف الله لأنه لا يتوافق مع النصوص الصريحة التي تؤكد حرفية صدق القصص الذي يسوقه القرآن . ومن ناحية أخرى فالمؤلف يؤكد على خطل تفسير

الجابري للقصة القرآنية، من خلال الاستدلال على غياب كثير من الآفات الاجتماعية والعادات التي كانت مهيمنة على المجتمع المكي، من مثل وأد البنات، أو لعب الميسر، كما استدل على تهافت رأي الجابري بما ورد من قصص تخص بعض الأنبياء مثل لوط الذي اقتصرت دعوته على مكافحة آفة أخلاقية لم يكن من وجود ظاهر لها في المجتمع المكي أو مجتمع المدينة.

أما ما جاء هذا الكتاب لتقريره والدفاع الحماسي والرصين عنه فهو تقديم فرضية مدهشة تقول بأن النبي عليه السلام وقد تفاعل مع المرويات التلمودية التي أسبغت على الأنبياء العبرانيين مفاهيم متقدمة ومنحتهم أفكارا لم تعرفها قطُ عصورهم ، وقد اقتنع النبي بهذا ، وأنتج مخياله الخلاق بقية الصورة فاكتملت لدية معالم الرؤية الدينية التي ظن - صادقا- أنها كانت رسالة الأنبياء جميعا عبر العصور، ثم استلهم مفردات واقعه الاجتماعي والثقافي ليمنحها للأنبياء القدامي ولتكتمل الصورة النهائية لدية : عقيدة أزلية جاء بها الأنبياء وجهروا جميعا بمفرداتها .

كانت تلك بإيجاز شديد خلاصة هذا الكتاب ونحن لا نوافق الكاتب على مقدماته ولا نتبنى نتائجه ، ولكننا لا نتردد في القول بأنها نظرية تفسيرية تستحق الدراسة الجادة من الباحثين الاختصاصيين في علم الأديان المقارن ، وكذا الباحثين في علوم القرآن - نظير ما بذله المؤلف من مجهود مروع لجمع أشتات تلك الرؤية الفريدة ، وحشد البراهين الدالة - في اعتقاده - على صحتها .

أما عن قيمة تلك القصص فقد كفانا المؤلف عناء استخلاص دلالتها فيقول - مثلا - عن قصة يوسف : (ليس من المقبول أن ننهى هذا الفصل عن يوسف قبل أن نقول كلمة موجزة عن قيمة تلك القصة كما جاءت في الروايات الدينية عامة ، وكما جاءت في القرآن الكريم على وجه الخصوص - على الرغم مما قلناه عنها ومن اعتقادنا في الضعف الشديد لمصداقية أحداثها التاريخية ،- فمن المعروف أن الناظرين في تلك القصة وأمثالها في القرآن الكريم لا يخرجون عن نظرتين أساسيتين ترى أولاها في تلك القصة - مثلا - أنها قصة تاريخية بالمعنى الحرفي للكلمة ؛ أي أن القرآن يقرر حقائق تاريخية لا شك فيها ، وعلى الناظر في تلك القصة أن يستخرج منها تاريخ الأمم السابقة ، تماما كما يقرأ المرء وثيقة تاريخية لا سبيل للشك فيها ، بل إنها تفوق من تلك الناحية أي قصة أخرى أوردها المؤرخون ، وتواترت الروايات التاريخية لإثباتها

؛ لأنها كلام الله رب الزمان ، وهو الذى يقص بنفسه على عباده طرفا من علمه المحيط الشامل ، وعلى هذا فينبغي أن تصحح هي الوقائع التاريخية كما أثبتها المؤرخون ، بل وكما رآها شهود العيان لا أن تمتحن تلك القصة إلهية المصدر فيقبل منها أو يرفض في ضوء الكشوف التاريخية التي تعضدها أو توهنها ، وهذه هي النظرة التقليدية لعموم المؤمنين كما يعبر عنهم هذا المؤرخ والباحث الجليل : (وليس من شك في أن القرآن الكريم إنما يقدم لنا عن طريق القصص القرآني معلومات هامة وصحيحة تماما عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد ، وعلى سبيل المثال فانه يقدم لنا عن طريق قصة الكليم - عليه السلام - كثيرا من المعلومات الملكية الإلهية في مصر الفرعونية وعن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها والأمر كذلك بالنسبة إلى قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه حيث يقدم لنا الكثير من المعلومات عن العراق القديم وأما عن بنى إسرائيل فإنه ليس هناك من شك من أنه ليس هناك كتاب سماوي حتى التوراة نفسها قد فصل الحديث عن بني إسرائيل وأفاض في وصف يهود وأحوالهم وأخلاقهم وأبان مواقفهم من الأنبياء كما فعل القرآن الكريم وصدق الله العظيم إذ يقول (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذى هم يختلفون فيه [1])

وهناك من ينظر إلى تلك القصة باعتبارها قصة تقرأ لعبرتها ودلالاتها الأخلاقية فحسب ، ولا تراد لأخبارها التاريخية ، فهي كما يرى مفكر جليل القدر وهو الأستاذ عباس العقاد إذ يقول عنها وعن القصص القرآن عامة وعلاقته بالتاريخ : (هذا هو الشطر الأكبر من القصص القرآنية يراد به تعليم المصلحين وتربية الهداة ، ولا يراد به سرد أخبار التاريخ إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق وإن في القرآن الكريم لقصصا شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف ويصح أن تحسب منها قصة إسماعيل عليهما السلام فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس من طفولته بآفات الطبائع البشرية من حسد الإخوة إلى غواية المرأة ، إلى ظلم السجن ، إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية في عهد الطفولة كذلك فيصيبه نظام الأسرة باختلاف مكانة الزوجة السيدة

[1] دراسات تاريخية من القرآن الكريم ج1 محمد بيومي مهران – ج1- ص 9، 10

والزوجة المستعبدة ، وتصبيه الغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد وعن الماء ، وتكتب عليه ضريبة الفداء وهى في مفترق الطريق بين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا الغلام الطريد الوحيد أن ينمى إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام ويشتمل القرآن على قصص غير قصص الأنبياء في دعواتهم وغير قصص الأنبياء في تجاربهم الإنسانية ومنها قصص الملكين ، والفتية من أهل الكهف وما جاء على ألسنة النمل والنحل والطير وما ختمت به قصص الرسالة في دعوة نبي الإسلام - عليه السلام - وكلها ينبغي أن تقرا كما تقرأ عظات الهداية وأماثيل العبر، وكلها مع ذلك يحتاج إلى الفهم والبديهة من المؤرخ الأمين قبل التهجم عليه بمقياس التاريخ الناقص الذى لا يصلح لقياس الحقائق الوجدانية وأولها حقائق الأديان[2])

وقد آثرنا أن ننقل رأى المرحوم العقاد - على طوله - لأنه يلخص أفضل تلخيص رأى من قال بتلك النظرة ، رغم أن هذا الذى قاله الأستاذ عباس العقاد ما هو إلا بيان وتفصيل عميق لما سبق وأن قال به الأمام محمد عبده ، وسيبنى على أساس من قول الأستاذ الإمام - أيضا - الأستاذ محمد خلف الله ما سيبنيه من اعتبار القصص القرآني قصصا أدبيا ، ولكن سيتفق الجميع على أن الغاية منه ما هي إلا العظة والاعتبار لا أحداث التاريخ ووقائعه

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مَا مِثَالُهُ) : بَيَّنَّا غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْقِصَصَ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالْاعْتِبَارِ لَا لِبَيَانِ التَّارِيخِ وَلَا لِلْحَمْلِ عَلَى الْاعْتِقَادِ بِجُزْئِيَّاتِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ الْغَابِرِينَ، وَإِنَّهُ ليحكي مِنْ عَقَائِدِهِمُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَمِنْ تَقَالِيدِهِمُ الصَّادِقُ وَالْكَاذِبُ، وَمِنْ عَادَاتِهِمُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ، لِأَجْلِ الْمَوْعِظَةِ وَالْاعْتِبَارِ، فَحِكَايَةُ الْقُرْآنِ لَا تَعْدُو مَوْضِعَ الْعِبْرَةِ وَلَا تَتَجَاوَزُ مَوْطِنَ الْهِدَايَةِ،[3])

والحقيقة أن هذه النظرة المستنيرة لفهم القصص القرآني وإن أفادت في علاج بعض آلام العقل المؤمن بحرفية النصوص الدينية ، والذى يزعجه أيما إزعاج ما تحفل به

[2] عباس محمود العقاد - الإسلام دعوة عالمية - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999م – ص166

[3] تفسير المنار - ج1 ص 330

الروايات الدينية جميعا من تصورات خرافية ، ومفاهيم غير تاريخية لكنها برغم هذا كله - في اعتقادنا - مجرد حل هروبي لمواجهة تلك المشكلة العويصة ؛ إذ يقف دون قبول هذا الرأي حاجز لا يمكن تخطيه أو عبوره ، وهو ما نصت عليه الآيات القرآنية مرارا - وعلى نحو لا لبس فيه - على تاريخيتها الكاملة ، و لا نشك في أن النبي محمد لو سمع بشيء من تلك الآراء ، لما وجد فيها سوى كفرا بواحا ، وتكذيبا صريحا لما جاء به ؛ فلماذا إذن نأتي بحلول تتعارض مع ما نصت عليه تلك النصوص وتتعارض مع اعتقاد أصحابها فيها ؟

أما من ينطلق من اعتبار أن النبوة في جوهرها ماهي إلا وثبات إدراكية لأرواح سامية كانت تستلهم من نبع الغيوب - سبحانه- بعض الكشوف عن الحقائق الكلية ، لكنها عندما تثوب إلى نفسها فلابد لها وأن تترجم ما استلهمته ببصيرتها المسددة من رب الهداية كلها داخل أبنية معارف عصرها ، وداخل حدود مفاهيمهم الثقافية واللغوية فهي على هذا تجمع -على أقصى تقدير- بين شذرات من المعرفة الإلهية الصحيحة التي ينبغي لكل مؤمن بأي دين من تعظيمها وإجلالها ، ولكنها في النهاية تعبر أساسا عن ثقافة تلك المجتمعات التي خرجت منها والتي كانت تجمع في ثقافتها بين الصحيح والخاطئ ، وبين الحقيقي والمُتوهم

لذا ، فلا سبيل إلا بتقديم حل جذري واضح ، ولا لبس فيه لتلك الإشكالات ، ولا أوضح من أن يقول المرء - ككاتب هذه السطور - أنه وإن امتلأ قلبه بالتوقير والإجلال الكاملين لمستلهم القرآن الكريم إلا أنه يرى أن النبي - عليه السلام - وعلى الرغم نبل مقصده ، وشرافة غرضه فقد كان ينطلق من معارف تاريخية خاطئة ، كان يصدقها في نفسه تمام التصديق ، وبنى على أساس منها تصورا دينيا جليلا يستحق في كثير من جوانبه الإعجاب والتقدير ، إنما لا يصح أبدا أن يقال بأنه كان لا يعنى ما يقول ، أو أنه كان يضرب أمثالا لا يقصد من ورائها إلا العظة والعبرة ! فهذا يجانب الحقيقة الجلية التي يخرج بها كل قارئ للقرآن الكريم ، وإنما على المرء أن يبحث عن تفسير للنبوة يجمع له - عليه السلام - بين صدقه الذاتي و نبل مقاصده دون أن يتغافل في الوقت ذاته على ما تأسست عليه رؤيته من معارف تاريخية خاطئة ، ما سنحاول - رغم بؤس ملكاتنا - أن نقوم به بعد أن نفرغ من تقديم بعض النماذج التطبيقية لقصص القرآن الكريم ."

أدعو القارئ الكريم أن يبحر على مهل في هذا الكتاب ، وليتصدى له أهل الاختصاص منهم تأييدا أو تفنيدا ، فقد عرض مؤلف الكتاب بجزأيه الكبيرين، لقصص الأنبياء، موازناً تارة، ومقارناً تارة أخرى، باحثاً في متون العهد القديم وسواه مثل التلمود وغيره، عن مواطن الاتفاق والاختلاف بين مضامين القصص فيها، وبين القصص القرآني، ليعزز فرضياته الأولى التي استند إليها في مقدِّمة كتابه، ووفق فهم خاص جدا لمعنى الوحي الإلهي ودلالة النبوة ، ولم ينأى الكاتب عن الاستناد إلى كتب الحديث المشهورة، كالصحاح، وغيرها ، ليثبت أصول بعض مضامين بعض التشريعات المتعلقة ببعض القصص القرآني. بلغة مشرقة، وبصبر الكاتب الدؤوب وبدربته المتميزة. والله ولي التوفيق.

د. إحسان محمد التميمي - ناقد أكاديمي

تقديم (3)

نطرح عادة أسئلة الوعي وهي ذات براديغمات ميتافيزيقية حول بدايات الكون ونهاياته حين يكون البحث موسوما بأسئلة الدين وفق تصور رؤيوي متجدد وحداثي يراعي الطرح التقليدي للقصص القرآني كونه امتداد تاريخي لخبرات وتجارب نبوية وبشرية عاشت تجربتين الواقع بإحراجاته والغيب بأقداره .خاض الفقهاء والمؤرخون والأصوليون في مقاربات تفسيرية للمسألة القصصية في كتاب الله عز وجل وأفاضوا بكثير من الشروح والتأملات والاستنتاجات التي لم تخرج في غالبها عن الثوابت الفقهية الأصولية المعمول بها في الرواية والقراءة والتدليل بما تقتضيه تراتبية الوقائع التاريخية ونصوصها التي يقدمها التنزيل وفي وصف الأمم الماضية. إن الدين بالتصور الهيغيلي وتاريخ الرسالات هو تنقيب الوعي في المعنى والجدوى من الحياة حيث يتم كشف كل تناقضات الخليقة والعالم، إنه كشف عن المتستر من الأسباب والحجب والتي ينجر عنها سلام البشر الأبدي". التنقيب في تاريخ الأديان والحضور المكثف للشعوب وهي تخوض تجاربها العقائدية والعقدية هو شهادة وعرض نسقي لتوجهات حضارية ارتبطت بنداء السماء وهي نمط من القراءات الخصبة للوقائع والمصائر الدينية التي باتت تتردد أمام مطارق الأسئلة الميتافيزيقية الحديثة، بغية الاستمرار مع الماضي فمازال الإنسان المعاصر مُحمَّلا بالتاريخ ومهموما بتجارب سالفيه ومستقصيا عن ثيمات سوسيوثقافية ودينية عاشتها الأجيال الدينية السابقة تحت رعاية الأنبياء والرسل. الذين لازالوا يشكلون ضمير الكون وحكمه الأبدية.

الدراسة المعمقة التي يقدمها الأستاذ محمد القلاوي هي نمط جديد من التحليل الاستعراضي لسرديات مفارقة يتداخل فيه الغيبي بالواقعي بالتاريخي كونها تتحدث بلسان الحوادث القداسية وتحت شبكة مفاهيمية قرآنية مُنزّهة تترصد بدقة المطلق التمفصلات التاريخية بتدليلها بحجج برهانية قطعية وثابتة الدلالة لاكتشاف كل الأبعاد الجمالية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية في التراث البشري والتي خاضها الإنسان وهو يتوق إلى عوده الأبدي المرتبط بزمن الغيب والعالم الآخر. هي مقاربة سوسيولوجية ملتزمة بوعي النص وشهادات كبار المؤرخين في التاريخ الديني الإبراهيمي للبشرية حيث تتقاطع الأديان الكبرى وهي عالقة في وصايا رعيل طويل جليل وممتد أفقيا من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ومنتهية بجوهرة الخلق والرسالات وآخر عنقود الملكوت النبوي والإلهي المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام. كما هي قراءة يمتزج فيها الإنساني بالغيبي تحت وقع أسئلة ميتافيزيقية

تُساءل(أو مهمتها مساءلة) المرجعيات الكبرى وتوظفها كمصادر الشعر والأدب القديم والجاهلي والتراث البياني وقواعده وأمهات كتب التفسير والشراح والفقهاء على اختلاف تلاوينهم الفقهية والمذهبية ونزعاتهم المنهجية. وكل ما تواتر من أحاديث السنة وصحاحها وأسانيدها. هو بحث متكامل يجمع التاريخ النبوي بالواقع الأممي للشعوب القديمة التي تعاقبت على الشرق الأوسط و شبه الجزيرة العربية بما يشبه عبورا من النصوص التي تُصَوّر خبرات وتُحقِّق في تجارب البشر وهم يعلنون الهجرة إلى مدائن الله. تحت تأثير اختبارات قدرية وتصاريف خطتها الإرادة الإلهية.

تدور موضوعات وأطاريح هذا المنجز الثري المؤلف من جزئين حول أزمنة متعددة ومختلفة وحضارات غير متساوقة ثقافيا ومختلفة دينيا وإن كان الوازع الفطري التقليدي هو التوحيد كمصدر إلهام للملة والإيمان الكوني المنبثق عن إرادة الله وخياره المطلق ووجوده المتعالي .الكتاب فضاء معرفي تاريخي يعطي العقل الباحث فرصة التجوال في سراديب التاريخ وأقبيته وحدائقه الغناء التي باتت مقفلة نتيجة التجاوز الأبستمولوجي والإغفال المنهجي السابق لها ويُركز على أهمية النص وهيمنة النقل الحرفي الدقيق والحيادي للحادثة قصد إعطائها بعدها الموضوعي والعلمي واللغوي والمنهجي الوصفي أمام الأبحاث الكثيرة والمتنوعة خاصة الغربية منها الإخبارية والاستشرافية التي يمتلئ سقفها بالتناقضات والموارد المتشعبة والمتضاغطة إلى درجة النزوع إلى الذاتية والتمركز الغربي الذي يفتح الأبواب مشرعة حول الزيف والتدليس الذي لطالما كان منهاجا سائدا لذى المدارس التاريخية اللاهوتية التي اتخذت الأسطرة آلية من آليات قراءة الإرث الديني والحضاري للشعوب المخالفة. .مُؤلف الكتاب الأستاذ محمد القلاوي يراجع مسلمات وأسانيد إخبارية ويقابلها بأدلة وثوابث نصية ويحاججها وفق الضرورات المنطقية التي تقتضيها الحاجة المنطقية والعقلانية والعلمية للبحث. الكتاب جدير بالقراءة والتمعن فهو إضافة قويمة وغنية معرفيا وتاريخيا في المكتبة العربية والإسلامية.

محمد بصري - باحث من الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

*أم يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ
أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ
إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ
إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ
وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ
رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ
فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾* (الأَحْقَاف: 8-14).

"أوقفني وقال لي: ما أنت قريبٌ ولا بعيد، ولا غائبٌ ولا حاضر، ولا أنت حيٌّ ولا ميت، فاسمع وصيتي، وإذا سميتك فلا تتسمَّ، وإذا حليتك فلا تتحلَّ، ولا تذكرني، فإنك إن ذكرتَّني أنسيتُك ذكري، وكشف لي عن وجه كل شيء فرأيته متعلقًا بوجهه، وعن ظهر كل شيء فرأيته متعلقًا بأمره ونهيه. وقال لي: انظرْ إلى وجهي فنظرتُ، فقال: ليس غيري، فقلت: ليس غيرك. وقال لي: انظر إلى وجهِك، فنظرتُ. فقال: ليس غيرك، فقلت: ليس غيري، فقال: اخرج فأنت الفقيه، فخرجتُ أسعى في الفقه، وصحَّ لي قلبُ العين فقلبتُها بالفقه وجئتُ بها إليه فقال: لا أنظر إلى مصنوع"[4].

[4] محمد بن عبد الجبار النفري: "الأعمال الصوفية"، راجعها وقدم لها سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا، بغداد، 2007م (موقف الفقه وقلب العين) ص 123.

"لقد تدرجت الإنسانيةُ، منذ العصور التي عهدناها بها وحتى الآن، في مراقٍ متصاعدة نحو التنظيم النفسي. وإذا كان ذلك كذلك، فلن يكون هنالك سببٌ معقولٌ ما، بل سيكون من التفاهةِ بمكانٍ ألا نسلمَ بأنها تتحرك دائمًا في الاتجاه نفسه. فوراءنا، لا شك ما (دون الإنسانية)، ومن ثم فأمامنا، وبكل تأكيد، إنسانية مثالية هي الحقيقةُ الوحيدة التي بإمكانها أن تشغلَ فراغَ ملايين السنوات التي يحتاج إليها الفكر الإنساني ليكمل تطورَه على الأرض ويجد مبررًا كافيًا لها"[5].

(5) تيار دي شاردان: "العلم والمسيح"، ترجمة: المطران عبده خليفة، الأب جورج رحمة، المركز الرعوي للأبحاث والدراسات، دير مار روكز، لبنان، الطبعة الأولى 1994م - ص 242.

مقدمة المؤلف

ظلت جزيرة العرب المعقلَ الوثني الأخير بين بلدان العالم القديم، بسبب العزلةِ النسبية عن التيارات الحضارية والدينية التي اجتاحت المناطقَ المحيطة بها والقريبة منها؛ فقد كانت جزيرةُ العرب هي البقعة الوحيدة في وسط العالم التي نجت من الهلّينية، وظلت أجزاؤها الداخلية الشاسعة بمعزل عن صراع الإمبراطوريتين الساسانية والرومانية الشرقية، ومن التحديث القسري الذي يستتبعه؛ بسبب جغرافيتها القاسية التي جعلتها عصيةً على الغزو والضم إلى أيٍّ من الإمبراطوريات المتصارعة، وكان التبشيرُ الديني - كما هو معروف - أحدَ أهمِّ معالم ترسيخ السيطرة السياسية لتلك الإمبراطوريات المتناحرة، وتثبيت أقدامِها فيما يفتحون من ممالكَ وبلدان، إذا تجاوزنا عن بعض الاجتهادات الشخصية في نشر الدين، التي وقفت الحماسةُ الروحية من خلفِها.

كانت الروح العربية في القرن السابع الميلادي، التي أخذت تتململ من غياب عقيدة دينية تشبع احتياجات أذكياء أهلِها الروحية بين احتمالين لا ثالث لهما: أولهما أن تبدع رؤيتها الدينية الخاصة بها، إنْ قُيّضت لها تلك الروح الملهمة التي تستطيع أن تستجيب لهذا التحدي الكبير، وثانيهما أن تتبنى، الروح العربية، إحدى الرؤى الدينية الجاهزة من جيرانها.

لقد كان ظهور النبي محمد هو ما جعل الخيار الأول ممكنًا؛ فلم يكن النبي محمد مجرد حنيفي متطور عمن سبقه من الأحناف، بل كان عبقريةً روحية على قدرٍ هائل من الأصالة والإبداع، وقد استطاع عبر تأثرات لا شك فيها من الإرث الكتابي الحاضر في جزيرة العرب قبل مولده بقرون أن يبدع للعرب وللعالم تلك الرؤية الدينية والأخلاقية التي تعكس الروحَ العربية على أفضل صورة ممكنة.

فمن هو هذا الرجل الذي فعل ذلك؟ الحقيقة التي لا شك فيها أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي يقول لنا التاريخ إنه وفي عامه الأربعين، وبينما هو مُختلٍ للتأمل في غار قريب من مكة؛ إذ حدثت تجربةٌ روحية عنيفة لهذا التاجر المكّي الشريف، ومازالت أصداءُ نتائجها تؤثر بقوةٍ في عالمِنا، وربما لما بعد عالمِنا بقرون كثيرة، وكانت نقطة الانطلاق لدينٍ من أهم أديان العالم، وصارت رؤيته المرجعَ الروحي لربع سكانِ كوكبنا.

أما كيف انطوت تلك المسافة الشاسعة بين تاجرٍ مكّي أمّي يعيش حالة من القلقِ الروحي الشديد، ويمكننا أن نفترض أن ذلك كان قريبًا من عامِه الثلاثين، وبين محمد رسول الله، الذي وقف بعد تلك اللحظة بثلاثين عامًا أخرى ليلقى عظتَه الأخيرة في مئةِ ألفٍ من أتباعه المؤمنين برسالته؟

يمكن أن نحدسَ في البداية بأنَّ النبي لم يستسغ قط، في ظل تلك الفوضى الروحية المروعة، سبلَ الخلاص الفردي التي كان أبطالُها عامةَ الأحنافِ السابقين عليه، سواء من ارتضى منهم دينًا جديدًا، أو من ظل منهم على تحيره مكتفيًا باعتقادِه أنَّ قومَه في ضلالٍ مبين، ولكنه لايعرف سبيلاً إلى الحقيقةِ المنشودة.

ثم تقدم النبي خطوةً ثانية في انتظار الهداية التي كان يوقن من كلِّ قلبه بأنها سوف تأتي على يد نبي لهذه الأمة، والتي ظلت كما اعتقد خارج مدار الهداية والعناية الإلهية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل، لكنه كان لا يعلم من هو، ولا نشك أنه لو كان قد سبقه أحدٌ إلى تلك الرسالة لصار النبي محمد أوفى أتباعه وأعظمهم .

ثم تقدم النبي خطوةً ثالثة وحاسمة، وربما كانت هي الخطوة الأثقلَ وطأةً والأشدَّ جرأة؛ وهي تطلُّعه - الصادقُ والمتضع - في أن الرحمةَ الإلهية قد تجد فيه هو نفسه صوتًا لها، ومعبِّرًا عنها، وهو ما عبَّر عنه القرآنُ الكريم بهذه البساطة الآسرة: *إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾* القَصَص: (85 – 88).

بعد مكابداتٍ أليمة من المراوحة بين القنوطِ الحالك، ونورالرجاءِ العميق حفزَّت بداخله ما كان يجهله عن نفسه من طبيعةٍ إدراكية خاصة؛ وهي تمتُّعُه مثل غيره من الأنبياء بتلك الهبة المخيالية؛ أي رؤية المأمول فيه، وجد أنه مطالب من قِبل ربه - الذي سمع صوته في أعمق أعماق نفسه - بأن يصدع بهذا الذي ملأ عقله وقلبه، ويهتف بتلك الحقيقة التي ملأت كيانه، وعن هذا قال تعالى:*فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ

ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾* يُونُس: (94–95).

في تلك المدة الباكرة من حياتِه لم يكن النبي محمد يطمع إلا في أن يستجيبَ له قومُه في توحيد الله، ونفي بعض المظالم الاجتماعية، ثم اتسعت الدائرة من نقطة البدء الصغيرة تلك، وانتهت إلى ما صارت إليه من عمومية الرسالة، وختم النبوة، ولم تتوقف تلك الرحلةُ الشاقة والعنيفة والمثيرة إلا لمدةٍ قصيرة نسبيًّا - وقد غالى بعضُ ثقاتِ الباحثين [6] فقالوا: إنها ربما امتدت لثلاث سنوات كاملة.. فلنتوقف عندها برهة.

فترة الصمت

تحكي كتب السيرة النبوية أن النبي قد تعرض لما يمكن أن نسميه (حبسة روحية)، أو ما سُمي في تلك الكتب "فتور الوحي"، وقد تزامن هذا- كما يقولون - مع وفاةِ ورقة بن نوفل، ما جعل بعضهم يربط هذا بذاك، ويرى أن مصدر معارف النبي قد رحل، وهذا في الواقع تفسير سخيف للغاية؛ إذ كيف نفسر إذن كل هذا التدفق القرآني بعد وفاة الملهم المزعوم لما يزيد على عشرين عاما؟

في الحقيقة، إن تلك الفترةَ الحرجة إنما كانت تعبيرًا عن أزمة داخلية عميقة كان مدارها مدى وثوق النبي باطنيًّا بأن مصدر تلك التدفقات ذو طبيعة إلهية، وليست من مصدر آخر، خاصة مع وجود مزاحماتٍ كثيرة في بيئته الثقافية[7] وكان يمكنها، بمجرد

[6](وأما مدة فترة الوحى فقد اختلفت أقوال العلماء فيها، فحكى بعضهم أنها سنتان ونصف السنة، وقال آخرون، إنها ستة أشهر، وعن ابن عباس أنها أربعون يومًا، وهو الراجح): "مدخل إلى القرآن الكريم.. عرض تاريخي وتحليل مقارن" د. محمد عبدالله دراز، ترجمة محمد عبدالعظيم علي، دارالقلم 1984، الكويت، ص30. انظر أيضا: "صَحِيحُ الأَثَر وجَمَيلُ العبر من سيرة خير البشر" د. محمد بن صامل السُّلَميُّ، د. عبد الرحمن بن جميل قصَّاص، د. سعد بن موسى الموسى، د. خالد بن محمد الغيث، مكتبة روائع المملكة، جدة، الطبعة: الأولى، - 2010 م ص 101.

[7](بالنسبة إلى العرب، كانت تجربة الاستحواذ على المرء من قبل كائن خارجي - إضافة إلى النثر المموسق الطافح بالوجد الذي اتخذته النصوص الأولى للوحي - شكلاً يبدو أقرب ما يكون إلى فورات العرافين .كان يُنظر إلى هؤلاء الرجال أنهم ممسوسون بالجن، الذين يستحوذون عليهم وينطقون من خلال أفواههم. على مستوى أعلى، كان ينظر إلى الشعراء المرموقين، وعلى الرغم من أن الذي ينطقون به ليس سوى شكل أدبي متطور، فإنهم ملهمون من الجن أيضا. من ثم، فقد كان كلام الشعراء والكهنة يعد كلامًا خارقًا للطبيعة وشكلاً من الاستحواذ من قبل قوي خفية. كان محمد يُكابد آلامًا قاسية لتمييز نفسه عن الكهنة والعرافين والشعراء؛ عبر الإصرار على أن ما يستحوذ عليه ليس جنًّا عابرًا وغير مسئول، وإنما هو تمثيل كوني للإله الخالق نفسه، الملاك).

وجودها، أن تزعجَ وجدانَ النبي الحساس وتصيبيه بأشد الأذى، مثل أن يكون مصدرها الجن أو الكهانة أو الجنون. على كلِّ حالٍ، فقد ظلت تلك المزعجات تلاحق النبي من الخارج على ألسنةِ مكذبيه طوال الفترة المكِّية، وظلت تطل برأسِها من حينٍ لآخر في باطنه.

ويمكننا أن نقترح مخططًا بسيطًا للمنحنى الروحي عند النبي وفق هذه الخطوات أو شيء قريب منها:

1- في البداية لابد من الإقرار بوجود فطرةٍ دينية عميقة ومنتبهة، وذات شعورٍ بالغ القوة بالحضور الإلهي الجليل.

2- حضور واضحٌ لمعارفَ كتابيةٍ شفاهية ترسبت في أعماقِ النبي، ووعتها ذاكرتُه القويةُ قطرةً قطرة، وعبر عددٍ غير قليل من السنين حتى صارت بئرًا عميقة، أو خزانًا هائلاً امتلأ عن آخره. ولم ينكر النبي تلك المعارف قط، بل اتخذها برهانا إضافيا على صدق نبوته، وعن هذا قال تعالى: *وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾*الشُّعَرَاء: (192 -197).

وقال تعالى: *وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾*العَنكَبُوت: (47 – 49)◉ ومثلهما ما جاء في خاتمة سورة الرعد بقوله تعالى: *وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾* الرَّعۡد: (43).

"مغامرة الإسلام.. الضمير والتاريخ في حضارة عالمية" مارشال هودجسون، ترجمة: أسامة غاوجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2021م، المجلد الأول، ص 3-6- 307.

3- أوضاع دينية واجتماعية، وربما شخصية، بالغة الشدة جعلت من بقائه صامتًا أمرًا يفوق احتمالَه.

4- وجود محفزات إدراكية أعانته على أن تجدَ تلك المعارف مسربًا للظهور وهي العثور على صيغ تعبيرية تخرج من خلالها، ومنها حضور الله بصيغة المتكلم، والذي يوجه خطابَه عبر النبي سواء إلى الناس أو إلى النبي نفسه[8].

5- النجاح في العثور على إطار لغوي تترجم تلك المخاطبات الإلهية عن نفسها من خلاله، وهو شكل لطيف ورفيع من أشكال السجع الحلو، أخذ منه النبي أفضل ما فيه من النغم والمقابلة والمزاوجات، وطرح عنه ما يعيبه من غموض اللفظ، والإبهام المعتم، ووحشي الألفاظ[9].

6- التعرف إلى بعض قصص الأنبياء القدامى، وهذا هو موضوعنا، جعله يحذو حذوهم وينسج على منوالهم، ثم يستخرج من تجربته الشخصية الحية قوانين عامة يفترض بها أنهم، ولا بد، قد أحسُّوا بما أحسَّ به، وجرى لهم ما يجري له.

7- في البداية، كانت تلك التنزلات، أو لحظات الإلهام تنبثق من الباطن العميق في ذاته، وتصحبها مكابدات نفسية وجسدية وتعبيرية أليمة حقًا، ولكن وبسبب من تواتر مظاهر النجاح، وعلامات التوفيق الإلهي أصبح النبي أكثر ثقةً بمواهبه من ذي قبل، حتى صار مقتنعًا في النهاية بأن كل ما يهجس بخاطره، وما يجري في عقله هو من الله على نحو كامل.

8- على هذا، فمن غير المقبول أن يزج بأي تفسير للقصص القرآني يتقاطع أو يتعارض مع تصديقنا التام بصدق النبي، وإننا، من جانبنا، نؤمن بقوة بأن يد العناية الإلهية التي ربما أرادت للجماعة البشرية أن ترتقي خطوة فسيحة في مجال إدراكها الروحي كانت

---

[8] يرصد بعض الباحثين وجود تشابهات داخلية بين سجع الكهان وسورالقرآن الأولى تتخطى عنصرالشكل، فيقول أحد الباحثين: (بيد أن التوافق الشكلي بين سجع الكهان والوحي القرآني القديم يمضي خطوات أبعد إلى الأمام . فالصياغة تجري بضميرالمخاطب، ذلك أن المتحدث المفترض هو الهاتف أوالتابع، بينما المتحدث إليه هوالعراف (مثل محمد في القرآن). واللافت للانتباه على وجه الخصوص أن الكاهن يؤكد نبوءته بالقسم. ومثل هذه الأقسام غير المفهومة في كثير من الأحيان، تبدو في سور الوحي المحمدي الأولى. ولولا ذلك لما كان بوسع خصومه اعتباره كاهنًا) انظر: "محمد والقرآن"، رودي باريت، ترجمة: د. رضوان السيد، مؤسسة شرق غرب، ديوان المسار للنشر، دولة الإمارات العربية، الطبعة الأولى 2009م، ص 35-36.

[9] لمزيد من التعرف إلى الفروق بين السجع والفاصلة في القرآن راجع: "السجع القرآني.. دراسة أسلوبية" رسالة ماجستير غير منشورة، هدى عطية عبد الغفار، 2001م.

خلف تلك التجربة المذهلة، التي يجب، وببساطة، استبقاء أجمل ما فيها، وهو ما يشكل في الحقيقة لبابها ونسغها الحي، وإزاحة ما لم يكن من المتصور إلا أن يعلق بها من ملابسات المكان، وشرور الزمان.

القصص القرآني

فهم معاصرو النبي وجميع المسلمين من بعده إلى القرن الأخير من زماننا القصص القرآني بوصفه أخبارًا صادقة أوحاها الله حرفيا إلى النبي محمد عن أناس عاشوا قبل عصر النبي بعشرات القرون، وتناثرت أماكنهم على اتساع أرض الله الوسيعة، ولم يجدوا في ذلك أدنى صعوبة. لذا، فلا غرابة إذن أن نجدهم يفردون لتلك القصص مكانًا في عرضهم لتاريخ البشر انطلاقًا من النبي آدم، أول الخليقة، مرورًا بهؤلاء الأنبياء اللاحقين مع أقوامهم، ويصلونها في المطولات التاريخية حتى عصورهم، تمامًا مثلما يكتب المؤرخون المحدثون الآن قصة الإنسان على الأرض عبر عرض التاريخ الحضاري المتعاقب منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث، ولكن وبسبب انفساح المعارف التاريخية وظهور مشكلات جسيمة تنال من صحة تلك القراءة الدينية للتاريخ الإنساني بوصفه مسردًا لتجلي الهداية الإلهية عبر ظاهرة النبوة وتجلى الله العادل، الذي يتدخل على نحو مباشر في محق تلك المجتمعات البشرية المتمرِّدة على إرادته وتدميرها، وإسباغ البركة على أتباع الأنبياء، عليهم السلام، إلخ، حتى صار لزامًا لمن يصر على البقاء داخل الرؤية الدينية التقليدية تقديم رواية أخرى عبر التأويل - السائغ منه والمتكلف - فيعتقد أنها أكثر اتساقًا مع المعارف التاريخية الحديثة، وأكثر إقناعًا للمؤمن المعاصر من تلك القصص القديمة التي تواجه مأزقًا حقيقيًا، حتى إن حرصت بعض تلك القراءات على أن تظل داخل ثوابت تلك الرؤية الدينية وفي سياقها العام بهذا القدر أو ذاك، أو تخالفها من طرف خفي توقيًا للعواقب الوخيمة التي قد تجرها القراءة المغايرة على صاحبها.

لم تزل القراءة التقليدية العتيقة تجد طريقها إلى المطابع بالعشرات أو المئات، لتعيد رصف ما قاله السابقون دونما زيادة أو نقصان، أما تلك القراءات الأخرى، على ندرتها البالغة، فهي تتابع، وإن كان على نحو متعثر وخجول، ما حدث مع نقد الكتاب المقدس، قديمه وجديده، ومحاولة بحث مشكلاته، ولكن وبسبب من بطء وتيرة التحديث، وبسبب انغلاق الرؤى الإسلامية التقليدية، ورفضها المتشنج لأي محاولة من هذا القبيل؛

فقد ظلت تلك المقاربات ضعيفةً وهشة، وتكاد لا تلامس إلا القشورَ من خلال الالتفاف على المشكلة، وليس في محاولة إيجاد تفسير حقيقي لها.

ربما كان من الضروري أن نعرض هنا، بإيجاز شديد، لبعض تلك المحاولات التي تناولت القصص القرآني، وسيكون تركيزنا على خلاصة لدراستين مهمتين، تمت أولاهما من سبعين عامًا وهي قراءة الأستاذ محمد خلف الله أحمد في كتابه الرائد "الفن القصصي في القرآن"، والدراسة الأخرى للدكتور محمد عابد الجابري في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم".

أما عن دراسة المرحوم خلف الله، فقد منحها الدكتور الجابري في كتابه هامشًا ـ ظنه تلخيصًا كافيًا ـ لتلك الرؤية، وقد جاء في هذه السطور التالية: "من الذين كتبوا في هذا الموضوع وأثارت أقوالُهم جدلاً في الخمسينيات من القرن الماضي، كتاب المرحوم محمد خلف الله (الفن القصصي في القرآن)، وقد انتهى فيه إلى أن القصة القرآنية لم يكن هدفها التاريخ بل العظة والاعتبار، وأن هناك أقوالا جاءت على لسان بعض الشخصيات في القصة أنطقها القرآن على لسانهم، وأن مضمون القصة القرآنية هو ما يعرفه المعاصرون للنبي من تاريخ. ومع أننا لا نختلف كثيرًا حول هذه النتائج إلا أن طريقنا إليها يختلف عن طريق خلف الله، كما أنَّ دراستنا متحررةٌ تمامًا من الجدل الذي دار حول موضوع القصص القرآني في ذلك الوقت[10]".

كان إدراك وحدة الصوت هو الخطوة الأساسية التي بدأها المرحوم خلف الله، ثم خطا الأستاذ الجابري خطوةً أخرى كبيرة في إدراك تطابق منطلقات الخطاب الدعوي لكل الأنبياء مع ما جاء به النبي محمد، لكن جاء أساس تفسيره فيما نعتقد خاطئًا تمامًا؛ حيث افترض أن النبي كان يُنطق الأنبياء بمفردات دعوته، ودون أن يتوقف عند نقد تاريخية الأحداث التي يرويها القصص القرآني؛ لأنه رآها خارج خطته، ثم عاد ليدور في فلك منظور خلف الله من أن قصص القرآن هو للعظة والعبرة: "إن القرآن، كما أنه ليس كتاب قصص بالمعنى الأدبي الفني المعاصر، فهو أيضًا ليس كتاب تاريخ بالمعنى العلمي المعاصر للتاريخ. إنه مرة أخرى كتاب دعوة دينية. وبما أن الهدف من القصص القرآني هو ضرب المثل واستخلاص العِبرة؛ فلا معنى لطرح مسألة الحقيقة التاريخية.

[10] محمد عابد الجابري: "مدخل إلى القرآن الكريم"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الجزء الأول، الطبعة الأولى: 2006م، ص 259.

إن الحقيقة التي يطرحها القصص القرآني هي العبرة، هي الدرس الذي يجب استخلاصُه"[11].

إذن، فقد أصاب المرحوم الأستاذ الجابري، وغيره كثيرون، في إدراك أن خطابَ الأنبياء لأقوامهم في القرآن هو ذاته خطاب النبي محمد لقومِه وهو ما لاحظه الكثيرون قبله، وهو ما لا يدهش أصلا أحدًا من المؤمنين التقليديين لقبولهم وحدة الخطاب الرسالي في جميع العصور، بل لقد ألّف أحدُهم كتابًا ضخمًا في هذا الشأن، جمع فيه وحدةَ الخطاب الإلهي في كلِّ العصور[12] لكن الجديد هو أن الأستاذ الجابري قد قدم تفسيرًا لهذه الملاحظة، وإن كان في الحقيقة لا يفسر شيئًا؛ إذ زعم أن النبي كان يُنطِقُ الأنبياءَ بلسانه، ويتخذهم منصةً لإلقاء ما يريد قولَه لمخاطبيه، فهو يقول على لسانهم ما قالوه لأقوامهم، لكنه كان يعني قريشًا من كل هذا وفق ما سماه الأستاذ الجابري: (إياكِ أعني يا جارة)! وأما المقصد الرئيس في تصور الجابري فهو: "توظيف قصص الأنبياء في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في كفرهم وشركهم، ثم تثبيت فؤاد النبي وتقوية معنويات أصحابه، بتأكيد أن جميع الرسل قد تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاء نصرُ ربِّهم [13]".

إذا صح افتراض الجابري عن غرض القرآن من القصص النبوي فكيف يستقيم لديه أن يُثبِّتَ القرآنُ قلبَ النبي محمد إن كان النبي يعلم أن تلك القصص لم تقع على النحو الذي ساقه القرآن، بل هي قصة هو خالقها؟! وكيف يُفسر غيابَ كثيرٍ من الآفات الاجتماعية والعادات المستبشعة التي حاربها النبي، وقد كان حريًّا به أن يأتي بها إن كان هو من يضع القصص ويُنطِق الأنبياءَ بما يريد أن يقوله، مثل وأد البنات، أو لعب الميسر، أو الربا؟! وكيف نفسر أن بعض الأنبياء مثل لوط قد اقتصرت دعوتهم - أو كادت - على مكافحة آفة أخلاقية لم يكن من وجود ظاهر لها في مجتمع الدعوة المكية أو حتى في مجتمع المدينة؟! فلا علينا إذن أن نقولها بوضوح تام: إنه تفسيرٌ واهن، ويعوزه العمق الذي لم يغب قط عن كتب الأستاذ الجابري الأخرى لكنه، على عظيم فضله، رجلٌ حديثُ عهدٍ بالدراسات القرآنية وبالظاهرة الروحية على وجه العموم.

---

(11) المرجع السابق.

(12)"الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل"، د. الحاج محمد وصفي دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1997م.

(13)"مدخل إلى القرآن الكريم"، ص 292.

أما ما جاء هذا الكتاب لتقريره فهي مقاربة أخرى لدلالة الوحي ومفهوم النبوة عبر التركيز على جانبين لا بد منهما في فهم ظاهرة النبوة، وهما: فاعلية المخيال الخلاق، والصدق الباطني التام في معاناة التلقي الإلهامي والذي هو في النهاية ثمرة التفاعل بين معارف النبي التي استقاها دونما ريب من المرويات الكتابية المتطورة، وتلك الهبة الجليلة التي يتمتع بها كل الأنبياء، وهي هبة المخيال البديع، وسنعود لنخصص مبحثًا نشرح فيه آلياتِ وطرائقَ التفكير المحمدي في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

سنرى خلال هذا الكتاب أن النبي لم يُنطِق الأنبياءَ بأفكاره، ولم يضع كلامه في أفواههم كلا! بل النبي كان يعتقد أن الأنبياء جميعًا كانوا ينطلقون من مثل تصوره وعقيدته في الله، وكانوا يعيشون في واقع لا تختلف مفرداته العقدية والثقافية عن واقعه، وعلى هذا، فقد نطقوا في زمنهم بمثل ما نطق هو به في زمانه، لا أنه قد استغلهم لأغراض دعوته، فهذا اتهام للنبي بالكذب والاختلاق؛ فإذا كان النبي يعلم أنهم لم يقولوا شيئًا مما قاله على لسانهم، فلا شك في أنه كان يختلق القرآن ويلفق القصص عن الأنبياء السابقين لكي ينطقهم بما يريد أن يقوله، أو يجعلهم يرددون مثل ما قال! ورغم حذر الأستاذ الجابري من الاقتراب من تلك النقطة بالغة الحساسية في مجتمعنا الإسلامي فإننا حدسنا بأن مثل هذا التأويل لا يتأتى إلا مع من لا يثق بالصدق الذاتي للنبي، ولا ينزهه عن الاختلاق تحت مسمى "التوظيف"، وقد أفلتت بعض العبارات التي تعبر عما استبطنه الجابري، ومن ذلك - مثلاً - قوله: "وبناء عليه، فإن هذه القصة، قصة ميلاد عيسى عليه السلام من أمه مريم من غير أن يمسها رجلٌ موجهة - إلهامًا أو تخطيطًا- إلى النجاشي الذين هم على مذهبه، مذهب *الذين قالوا إنا نصارى* الذين يعارضون عقيدة التثليث، وإذا صح هذا فسيكون اختيار الحبشة لهجرة المسلمين إلى ملكها مبنيا على كون هذا الأخير كان من الموحدين الأريوسيين[14]".

أما كيف صدق النبي هذا التطابق العجيب بين معالم دعوته ومعالم دعوات الأنبياء الأقدمين؟! فقد عزز اعتقاد النبي ما سنجده في المرويات التلمودية التي أنطقت الأنبياء الأقدمين بمفاهيمَ لا علاقة لها بعصورهم الموغلة في القدم، بل قدمت على ألسنتهم ما بلغته العقيدةُ اليهودية في آخر مراحلها الكتابية قبل الإسلام بمدة يسيرة. كذلك ساعدت

[14] السابق، ص 306.

قلة معارف النبي التاريخية والجغرافية بأحوال الأمم السابقة وبأماكنها، وثقافتها المادية والروحية في تعميم تلك التصورات.

أيضا فقد أسعفت النبي فطرتُه النقية، ورفدتها قناعتُه الراسخة بتحريف تلك الكتب السابقة التي تروي أخبار الأنبياء على الخروج من تلك الإشكالات التي تصادم ذوقه الشخصي، مثل بعض السلوكيات المَشينة لبعض أنبياء العهد القديم، أو تبني بعض المفاهيم اللاهوتية المعقدة التي لم يسغها عقل النبي محمد قط؛ مثل عقائد الثالوث الأقدس والخطيئة الأصلية وعقيدة الفداء وما شابه ذلك. لذا، جاء تصور النبي الديني ترجمةً صادقة لكل ما يمكن أن يقوله نبيٌّ عظيم ينطلق من مقررات العهد القديم بعد تنقيحه من الميراث المعتم لزمن العهد القديم.

خصيصةٌ دينية

من بين خصائص الدين الإسلامي الذي يميزه عن أديان العالم القديم خصيصة مهمة، وهي أن أركانه العقدية الأساسية من التوحيد، والبعث، والملائكة، والجن، والثواب، والعقاب، والجنة، والنار، وصفات الله، وما ينبغي له، وتقرير المسئولية الشخصية للفرد عن أعماله، والشيطان وعقيدة القدر، إلى غير ذلك من مفردات العقائد الدينية قد جاءت واضحةً جليّة منذ البداية، وليس من أثر لتطور لحق بتلك المفاهيم الاعتقادية كما نجد في الأديان الأخرى السابقة عليه. فيمكن مثلا لمن يقرأ القرآن الكريم وفق ترتيب النزول أن يجد تلك العقائد حاضرة جميعها - بهذا القدر أو ذاك - في السور الأولى منه، وحتى إذا أسقطنا تلك السور المتنازع على مكيتها أو مدنيتها، بل حتى لو استبعدنا كل تلك الآيات التي قال المفسرون بتأخرها عن الفترة المكية، وأنها ألحقت بها بعد ذلك، ورغم ذلك كله، فيمكن أن يستخرج القارئ مفردات العقيدة الإسلامية كاملة قبل أن يبلغ ربع تلك السور المتفق على مكيتها الكاملة، وهذا في الحقيقة أمر طبيعي، ولا غرابة فيه؛ فهي في النهاية نتاج تفاعل وإلهامات عقل واحد، وأيضًا؛ لأن النبي لم يشرع في دعوته إلا بعد أن اكتملت لديه المعالم الأساسية لعقيدته، ويستثنى من ذلك بطبيعة الحال بابُ الشرائع والأحكام وطرائق تنفيذها؛ لارتباط ذلك بشكل مباشر بقدرة النبي - أي نبي - على أن يضعها موضع التطبيق، إن نجح في إقامة جماعة إيمان يكون

على رأسها، أو يكتفي بالتبشير والدعوة إليها كوصايا وأوامر إلهية يجب عليها أن تنفذ متى أمكن ذلك.

أضف إلى ذلك أيضًا نطاق دعوة النبي محمد وحدود رسالته، فقد نمت كذلك - وإن كان على وجه سريع خاطف لا يكاد يُلحَظ - من رسالة نبي عربي جاء كجميع الأنبياء السابقين عليه لكي يدعو قومه إلى الله وعبادته وحده، إلى إعلان النبي محم نفسه نبيا خاتما تشمل دعوته جميع البشر، ويرى أن من واجبه أن يدعو إلى عقيدته هرقل وكسرى، وجميع ملوك البلاد التي عرف بوجودها، ولكن ذلك جاء في مرحلة متأخرة جدا من دعوته، فلم يتطلع النبي للقيام بهذا الدور إلا بعد أن ظهرت في الأفق علامات النجاح والظفر التي قيضت لدعوته على خلاف غيره من الأنبياء السابقين، وربما كان الأمر الوحيد الذي تطورت فيه المفاهيم النبوية، وقطعت شوطا بعيدًا في تطورها هو مجال الأخرويات وأحداث النهاية، ولكن ذلك جانب تفصيلي ولا علاقة له بالأركان العامة الراسخة، وسنخصص القسم الثاني من هذا الكتاب لهذا المبحث، لكن النبي محمد، وهذا سبب وجود هذه الصفحات، لم يرَ فيما جاء به من عقائد شيئًا جديدًا، بل اعتقد أنها العقيدة الأبدية التي أرسل الله بها الأنبياء جميعًا، ولم يرَ كذلك أنه أتى بشريعة جديدة، بل اعتقد - صادقًا - أنه جاء متابعًا للشريعة الأزلية التي أوصى الله بها الأنبياء والمرسلين جميعًا، وإن اختلفت في بعض الملامح التفصيلية.

ربما كان من المعقول أن نشبه النبي محمد في فهمه وتقديره لما أتى به بـ كريستوفر كولومبس؛ ذلك المستكشف للعالم الجديد، الذي عاش بقية حياته ومات دون أن يعلم أنه اكتشف قارة جديدة شاسعة، بل ظل معتقدًا أنه فقط قد وجد طريقًا جديدًا إلى العالم القديم الذي كان يعرفه من قبل جميع الناس، ويمكننا أن نقول مثل هذا بالضبط عن النبي محمد؛ فقد عاش ومات معتقدًا أنه استعاد بفضل من الوحي الإلهي الصورةَ القديمة التي كان عليها الأنبياءُ القدامى، وأنه لم يفعل شيئًا سوى تخليصها مما شابها من زيغ وانحراف عن الطريق الإلهي القويم، ولكنه في الحقيقة قدَّم دينًا جديدًا لا علاقة له بأنبياء تلك العصور السابقة عليه، سواء كان ذلك من جانب عقائدهم وتصوراتهم عن الله، أو خصالهم وأخلاقهم؛ فقد قدم صورة جاءت أرقى وأجمل كثيرًا من تلك الصورة القديمة التي اعتقد اعتقادًا جازمًا في صحتها.

أما لماذا، وكيف اعتقد النبي في تطابق ما جاء به مع ما جاء به الأنبياءُ الأقدمون، فهذا ما سيسعى إليه هذا الكتاب، وذلك من خلال عرضنا لبعض قصص الأنبياء كما تجلّوا في القرآن الكريم، ووفق تفسير واضح لا لبس فيه لمعنى النبوة ومعنى الوحي.

ما النبوة؟!

"فقد قام الدليل على جواز إرسال الرسل، فإنّا لسنا نعني به إلا أن يقوم بذات الله خبر عن الأمر النافع في الآخرة، والأمر الضار بحكم إجراء العادة، ويصدر منه فعل هو دلالة بشخص على ذلك الخبر، وعلى أمره بتبليغ الخبر، ويصدر منه فعلٌ خارق للعادة مقرونًا بدعوى ذلك الشخص الرسالة، فليس شيء من ذلك محالاً لذاته؛ فإنه يرجع إلى كلام النفس، وإلى اختراع ما هو دلالة على الكلام وما هو مصدق للرسول[15]".

"وقد عرفوه شرعًا: أنه كلام الله تعالى المنزَّل على نبي من أنبيائه. أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام وجدان تستيقنه النفسُ وتنساق إلى ما يطلب على غير شعورٍ منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور [16]".

"ما النبوة؟ هي كلمة الله مرسلة في حينها الحسن تمامًا لكشف ضمير الإنسان أمام الله، أو استحضار وعيه؛ ليسلط الله عليه نورًا فاحصًا للقلب، ومعلنا فكر الله وعلمه بالأشخاص والحقائق الزمانية، وما فوق الزمان للتهذيب والإنذار والتعريف والتوبيخ والإرشاد؛ ليصير الإنسان على مستوى مشيئة الله والالتزام بنصيبه المقرر. والنبوة تأتي كدفقة من الله تسوق فكر النبي حتى تستوفي مقاصدها، لا يلوثها فكرُ الإنسان أو مزاجُه بل لا يستطيع؛ لأنها تكون كالسيف على رقبة النبي لا يحيد عنها [17]".

في مقابل تلك التعريفات السابقة نقول: النبوة - وبوضوح - هي تفاعل إنسان موهوب روحيا مع موروثه الثقافي كله، الصحيح منه والخاطئ، المتقدم والمتخلف، المضيء والمعتم، وإعماله لكيانه كله في التفاعل مع هذا الإرث الثقافي وتطويره عبر

---

[15] "الاقتصاد في الاعتقاد"، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، ص 254- 255 .

[16] "رسالة التوحيد"، الشيخ محمد عبده، تحقيق: د. محمد عمارة، الطبعة الأولى 1994م، دار الشروق، ص102.

[17] "النبوة والأنبياء في العهد القديم"، الأب متى المسكين، دار مجلة مرقص، الطبعة الثالثة 2014م – ص7.

استلهام القلب وأشواقه وإعمال للعقل إلى أقصى حدوده، والأهم من ذلك كله شحذ المخيال الخلاق، الذي لا لزوم ألزم منه في هذا المقام .

على هذا، فليست النبوة رسائل حرفية يلقيها الله في قلب النبي فتجعل منه مثل ساع للبريد بين الله والناس، ويصبح معها مضمون تلك الرسالة كماء المزن الذي يهطل من السماء دون أن يشوبه أي شيء من ثقافة النبي ومعارف عصره، كلا! فليس هذا ممكنا، ولا معقولا أبدًا؛ فكل نبي لابد من أن يكون له من إرثه المعرفي وتجاربه الخاصة نقطة انطلاق لفهم مرادات الله البعيدة، وترجمتها في حدود إدراكه، وداخل أبنية عصره اللغوية والثقافية والمعرفية. وليست النبوة - كذلك - مجرد اختلاق أو افتراء عمدى لتحقيق نفع عام أو خاص، أو مجرد هذيانات وعصابات وهلاوس سمعية وبصرية تطول بعض المرضى العقليين، كلا! بل هي تطلعات وتحديقات أرواح عظمى في هذا المجهول، المعلوم، والقريب، البعيد، الذي يدرك أضعف العقول طرفًا من مراده، ويستعصى على أعظم العقول الإحاطة بكنهه وماهيته.

هذا الذي يقال عن النبي محمد يصلح أن يقال أيضا على جميع الأنبياء الكبار الذين قدموا فتوحاتٍ جليلةً في مجال هذا الكشف عن المراداتِ الإلهية، وما زالت البشرية أمامها الكثير والكثير مما سيقال في هذا المجال الذي لاينتهي أبدًا، ولكن الآفة المحزنة هي فيمن يريد أن يؤبّد تلك الإسهامات القيّمة، والمحدودة في آن واحد، بوصفها نهاية الدهر، ويلغى جميع الفاعليات الإنسانية إلى الأبد، والوقوف كعابدي الأصنام عند مرحلة بعينها دون أن يفكر في تجاوزها والمضي إلى أبعد منها.

من يطالع كتب تاريخ الأديان فسيجد أن اليهودي التقليدي يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الله قد قال كلمته الأخيرة، وفرغ منها مع آخر نبي في العهد القديم قبل الميلاد بخمسة قرون، ومثله تمامًا في اعتقاده المسيحي بمجيء المسيح منذ ألفي سنة، والمسلم في القرن السادس بعد حضور المسيح واختفائه. وهذا أمر، فضلا عن خطئه، يثير الدهشة والعجب، وكأن التعرف إلى الله أقلُّ صعوبةً من تعرف الإنسان إلى نفسه وإلى العالم من حوله؛ بحيث تقال بشأن التعرف إليه، سبحانه وتعالى، كلمة إنسان واحد مرة واحدة وإلى أبد الدهور! وكان من بين نتائج ذلك التصور البائس أن حفلت تلك الكتب المقدسة جميعًا وهو أمر لا غرابة فيه، بما يناقض المعارف العلمية الحديثة، وأصبح هناك جيشٌ كثيف من المؤمنين بحرفية تلك الكتب من رجال الدين، مشايخ، وقساوسة،

وحاخامات، يحاولون - عبثا- العثور على مخرج من تلك المشكلة من خلال تأويلات متكلفة ساذجة، وهي لن تجدي نفعًا فى النهاية، بل ستكون من بين أقوى أسلحة الملحدين لهدم تلك الأديان جميعا إن ظلوا على هذا التصور الذي لا يمكن أن يدافع عنه أحد، ولم يعد هناك من يقنع به، اللهم إلا أتباعهم الذين تسلَّط رجال الأديان على عقولهم وقلوبهم.

من بين أهم الأسباب التي جعلت كثيرًا من الباحثين لا يلتفتون إلى هذا الاستنتاج الواضح بذاته الذي سنقدمه عبر هذا الكتاب؛ هو أنهم بين من يضمرون تكذيبَ النبي حاشاه، أو يصرحون به بلا حياء، أو بسبب من التركيز، والانشغال الدائم بقضية التوظيف؛ أي استخدام القصص القرآني كسلاحٍ كان يستخدمه النبي محمد في كل مرحلةٍ من مراحل الدعوة .

السببُ الأول لا يعنينا أصحابُه في شيء؛ لأن من يمكنه أن يصدِّقَ أن يكذبَ إنسانٌ في جلالة قدر النبي محمد ويكون دجالا طيلة حياته - حتى وهو على فراش موته - إنما ينطوي على قدرٍ غير معقول من القبح الباطني البغيض، ما يجعله ليس أهلاً لمقاربة موضوع كهذا الموضوع، إلا إذا كان متدينًا بدين آخر، ولا يستطيع أن يقبل بخرافات أخرى غير خرافاته الخاصة، أو ملحدًا معطلاً لا يملك حسَّ التدين، أي ذلك الانشداه المرهوب لما ينطوي عليه العالم من بواعثَ للدهشةِ والإعجاب، وتلك الدهشةُ المقدسة التي كما تجد توقها وإشباعها في معرفة الأسباب العلمية المباشرة والقريبة فهي - كذلك - يتردد صداها في الوقت ذاته، وبشعور لا يغالَب في كل ذاتٍ إنسانية، ولو كمجرد فرضية تستحق الاهتمام، بأن وراء العالم والكون العظيم ما هو أعظم منه.

من غير الضروري القول بأن أعظم الظواهر الإنسانية على الإطلاق هي الظاهرة الروحية، وليس أعظم بين تلك الظاهرة عميقة الغور في الكيان الإنساني من ظاهرة النبوة والأنبياء، وكما لا ينبغي لأحدٍ خلوٍ من الحسِّ الفني أن يشتغل بالنقد الموسيقي والأدبي، فأيضًا لا ينبغي لأحدٍ لا ينطوي على حس عميق بالظاهرة الروحية أن يقترب منها محللا شارحًا، مع غياب أول لوازمها في نفسه، وهو التقدير العميق لهذا النزوع الإنساني، وامتلاك الحد الأدنى من البواعث النفسية على تفهُّمِه والتعاطف المتعقل معه.

أما قضيةُ التوظيف فهي، كما سنرى، أهون وأيسر بكثير، لسبب واضح وبسيط، وهي أنها مسألة بدهية، ولا تحتاج إلى تأكيد؛ فمن الطبيعي أن يستخدم النبي محمد في

كل مرحلة من مراحل دعوته جانبًا معينًا من الإرث القصصي الذي علمه بالكامل من مصادره، أو أكمل بعضًا من جوانبه بافتراض وجوده اتساقًا مع قناعته الذاتية فهذا أمرٌ لا يحتاج إلى تأكيد ما دمنا نعلم أن القصص القرآني لم يكن قصصا تحكيه جدةٌ عجوزٌ لأحفادها أمام الموقدِ في ليالي الشتاء الطويلة، ولم يكن قصصًا يزجي به النبي فراغ أصحاب الصفة الفقراء ليلهيَهُم عن سغب بطونهم في الليالي المقمرة، وكذلك لم يكن النبي أديبًا يبدع قصصًا فنيًا غايتُه الأولى هي الإمتاع الجمالي، هذا إذا افترضنا أن هؤلاء جميعًا ليست لهم من غاية يستهدفونها من وراء القص والحكي، بل كان القصص القرآني بالتأكيد سلاحًا فعالا وظَّفه النبي لخدمة رسالته الجليلة واستمدَّ منه هو نفسه - وقبل كل أحد - العزاء والسلوى؛ لأنه لم يكن عند نفسِه بأقل من أي نبي آخر ممن صبر وناضل وتحمَّل جميعَ صنوف الأذى لما اعتقد صادقًا كل الصدق أنه مما أوجبه الله عليه [18].

من يتصفح ما جاء في القرآن الكريم من تقرير لعقيدة أصلية أزلية وجدت مع أول مخلوق بشري، وظلت تتوالى وتتكرر على مدى الأجيال والقرون بذاتها، ودون تغير، ويقرأ في المقابل أي مطول للتاريخ الحضاري للجماعة البشرية، ويعرف أي مخاضات عسيرة كان لا بد منها قبل حضور الأديان في التاريخ الإنساني أولا، وما خضعت له تلك المفاهيم من تطور مستمر، بقصد ودون قصد، برفق أو بدون رفق، حتى آلت إلى ما يمكن أن يُسمى أديان البشر العظمى لتعجب أشدَّ العجب من أن يبقى إنسانٌ واحد عاقل يمكنه الاحتفاظ بتلك الفكرة الرثة والعتيقة، كما لو أن الله أخفي عمدًا، ولتضليل البشر، أيَّ دليل على صحة هذا المفهوم، وفي المقابل فقد كدَّس الرب عشرات الألوف

[18] ساق التركيز المفرط على ربط الدلالات القصصية في القران بواقع الدعوة المحمدية الأستاذ الجابري إلى الشطح العجيب مثلما نجده في هذا المثال: "لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحيّة (أو التنين) فهي التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوي أنه من (نار) (نور) وآدم من طين (تراب). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي، وقد سمتهم "الأراذل" وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه" محمد عابد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم، ص 293.

أما الحقيقة الواضحة فهي أن قصة السجود لآدم قد جاءت من خارج الكتاب المقدس كما سنرى، ولم يكن هناك من علاقة تربط قريشًا بتلك القصة، من قريب أو من بعيد، بل جاءت القصة في سياق واضح وهو تقرير تكريم الله للمخلوق البشري، وسنخصص فصلاً كاملاً عن قصة الجن في القرآن الكريم، سيجده القارئ الكريم في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

من الكتابات التاريخية على ألسنة مختلفِ الشعوب التي لم يسمع حتى بعضها بعضا، لتأييد تلك النظريةِ الباطلة عن تطوّرِ الأديان وتنامي مفاهيمها الأساسية عبر التاريخ.

أصح ما يقال في هذا الشأن، ما أوجزه المرحوم عباس العقاد عن رؤيته لختم النبوة بالرسالة المحمدية، وإن كنا سنقدم - في موضعه - أسبابًا مختلفة تمام الاختلاف عن هذا المنظور: "وأما الحقيقة الواضحة، فلقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة من أكبر الدعوات شأنًا في تاريخ العقيدة، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها؛ لأنها جميعًا قد بدأت وانتهت قبل أن توجده في أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول على أمانة العقل والضمير؛ فنبوات بني إسرائيل لم تزل مقصورةً على سلالةٍ بشرية واحدة تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم، وعيسى قد نقل الرسالة نقلةً واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد، ولكنه أدى رسالته وبقي الإنسانُ بعده محتاجًا أشد الاحتياج إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعة صلاحِه وتربية روحِه، ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الإنسانية قبل أن يوجد الإنسانُ الذي يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ويحمل تبعاته على عاتقه، ويشترك على سواء بينه وبين إخوانه من البشر في عبادة إلهٍ واحد هو ربُّ العالمين، وليس بالرب الذي يخلق نعمته لسلالةٍ واحدة من خلقه أو لعشيرةٍ واحدة يدركها الخلاص بفضلٍ لم تفضله وحسابٍ لم تضعه في موازينها بعمل يمينِها (19)".

من بين التفسيرات الشائعة لتفسير هذا التطابق بين ما جاء به النبي وما نسبه القرآن إلى الأنبياء السابقين، ذاك المخرج الوهمي الذي حاول أصحابُه أن يفسروا لنا من خلالِه لماذا غابت جميعُ تلك المفاهيم التي منحها القرآن للأنبياء السابقين عن الكتب المقدسة السابقة، وذلك بالقول: إن جميع تلك المفاهيم والاعتقادات والوقائع كانت موجودة، ولا شك على النحو الذي ذكره القرآن، ولكنها كانت حاضرةً في كتابٍ إلهي مختلف تمامًا لكنه، وا أسفاه، قد حُرّف وبُدِّلت معالمُه منذ زمنٍ بعيد، وحلت محله تلك

(19)"الإنسان في القرآن"، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر، الطبعة الرابعة 2005م - ص20.

الكتابات التي بين أيدينا الآن، والتي تحوي بين أباطيلها وشناعاتها نتفًا من الحقائق الإلهية التي كان يحويها النصُّ الإلهي القديم.

هذا القولُ، الذي لا برهانَ عليه من ناحية، مؤسَّسٌ على خطأ معرفي فادح؛ وهو الاعتقاد بأنَّ أهلَ تلك الأزمان القديمة، وليكن مثلاً منذ قرابة خمسة آلاف عام تقريبًا التي تفصل بين زمن النبيين نوح ومحمد، كانوا قادرين بالدرجة نفسها على استيعاب تلك المفاهيم الدينية المتطورة التي ترقَّت إليها البشرية شيئًا فشيئًا بحيث يصعب بل يستحيل معه تصور أن يتلقى البشرُ في كل العصور، ورغم تباعد الزمان والمكان، خطابًا إلهيًّا واحدًا! ولكنهم يتابعون الرؤيةَ المحمدية في ذلك، ولكنهم وعلى خلافه عليه السلام غير معذورين في هذا الاعتقاد غير التاريخي والخاطئ.

لا نظن أن هناك برهانًا أقوى من حضور هذا التناغم والتساوق في مسار الدعوات الإلهية السابقة مع مثيلتها المحمدية، لبيان تلك الجدلية المعقدة التي صبغت طريقةَ التفكير المحمدي. فهناك في البداية بعضُ المعارف السماعية عن الأنبياء السابقين عرفها النبي، دون شك، من مصادر كتابية يغلب عليها الموروث التلمودي، وفي هذا الموروث المتقدم نسبيا عثر النبي على ما كان يبتغيه من نماذج الهداية، ومعالم دعوة الأنبياء السابقين الذين أبلغوا رسالة الله الواحدة إلى الناس، ثم تفاعلت تلك العناصر الموضوعية ببطءٍ شديد مع العناصر الذاتية في نفس النبي مثلما تتفاعل البذرة الصالحة للنماء مع التربة الخصيبة؛ لينفجر هذا كله في لحظة الغار المروعة، التي عصفت بكيان النبي كله؛ حيث تجلى له الملاكُ جبريل حاملا إليه رسالة الله، ولتقابله في منتصف الطريق الأرواح الظامئة إلى تلك الرسالة الإلهية، ولتبلغها بحماسة روحية مؤثرة إلى المجتمع المكِّي الذي كانت تعصف به أزمةٌ روحية واجتماعية طاحنة، ولم تكن لحظةُ الغار هذه لتحدث قط إلا بعد مكابدات باطنية أليمة، وكان من أهمِّها اهتداءُ النبي بشكل لا شعوري إلى هذا الحل العجيب الغريب؛ حيث صاغ النبي من ملامحه الذاتية الخاصة ملامحَ جميع الأنبياء السابقين عليه. ومن معالمَ عصره وثقافةِ قومه، رسم النبي صورة ذهنية مشابهة لأهل تلك العصور البعيدة التي عاش فيها هؤلاء الأنبياءُ السابقون، وعلى غرار استجابة قومِه ومن أقوالهم اعتقد النبي، صادقًا كل الصدق، في تشابه تلك الاستجابات مع أقوال الكافرين المعاندين في جميع العصور، ثم أخيرًا اكتملت الدائرة بأن رفعت تدريجيا من عقل النبي كل الحدود الفاصلة بين الحقيقي والمتخيل، فصار النبي يهيب

بنفسه كلما أدركها الوهنُ لكي تتسامى، وتتأسى بتلك النماذج النبوية الرفيعة التي وضعها نصب عينيه، التي ما كانت في النهاية سوى انعكاسٍ لصورته الذاتية المُثلى، وخلائقِه النفسية في صورتِها التامة الكاملة، ولنا عودة إلى تلك النقطة.

معالمُ العقيدة الإلهية القديمة كما اعتقدها النبي

(1)
الإسلامُ عقيدةُ الأنبياء جميعًا

قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ (آل عِمۡرَان: 84).

إذا تذكرنا أن جوهر العلاقة بين الخالق والمخلوق ومداها كما قررها الإسلامُ، علاقةُ استسلام العبد التام والمطلق لإرادة الله، والخضوع الكامل لسلطانه، فقد آمن النبي بأن تلك العلاقة دون سواها من العلاقات - كانت ولا بد - قد حكمت العلاقة بين جميع الأنبياء والمؤمنين والله في جميع العصور والأماكن، بدءًا من آدم أول البشر والأنبياء وصولاً إليه، وما لها ألا تكون كذلك؟! وطرفا المعادلة واضحان جليان؛ إذ طرفاها: ربٌ يتصف بجميع صفات الجلال والجمال من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى مخلوقٌ بشرى قادر على أن يقدِّرَ هذا الوجود الفذ حقَّ قدره، فلا يسعه سوى أن ينحنيَ خاشعًا أمام سلطان الله القاهر، وعلى هذا فقد أعلن النبي أنه مسلمٌ لله؛ أي مسترسل مع إرادة الله خاضع لها .

إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ (النَّمۡل: 91)، *قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾* (الزُّمَر: 11-12)، وكذلك أعلن النبي في يقين كامل أنّ جميع الأنبياء كانوا مثله فيذلك؛ فنوح مسلمٌ أيضًا:*فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾* (يُونُس: 72)◉ وكذلك إبراهيم: *إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾* (البَقَرَة: 131)، وكذا إبراهيم ومعه

إسماعيل: *رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨* (البَقَرَة: 128)، ولوط: *فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦* (الذَّارِيَات: 36)، *رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١* (يُوسُف: 101)◉ وجميعُ أنبياء بنى إسرائيل كانوا مسلمين: *إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤* (المَائدَة: 44)◉ المسيحُ وأتباعه: *فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢* (آل عِمۡرَان: 52)، وسحرةُ فرعون: *وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦* (الأَعۡرَاف: 126)، وكذلك مؤمنو أهل الكتاب بين المسيح ومحمد كانوا مسلمين: *ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣* (القَصَص: 52–53)، وقل مثل ذلك عن جميع الأنبياء وأتباعهم على مرِّ العصور، وعلى هذا الفهم فقد تلقت البشرية خطابًا إلهيًا واحدًا على ألسنة الأنبياء الذين أبلغوا أقوامَهم تلك الرسالة الواحدة المتطابقة في الفحوى، بل الألفاظ ذاتها أحيانًا كما سنرى، وهذا ما قبله المسلمون جميعًا كما يعبر عنهم هذا الكاتب: "إنّ جميع النبيين قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام التي كانت تتلاءم مع البشرية

الإنسانية على مرِّ القرون والعصور مع اختلاف البيئات، وبالرغم من تقلبات الزمان وتغيُّر عقليات الناس قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل [20]".

(2)
التوحيد

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ (الأَنبِيَاء: 25)◉ *وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾* (النَّحل: 36)◉ (..وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ[21]).

يشكِّلُ التوحيدُ - كما هو معلوم - حجرَ الزاوية في العقيدةِ الإسلامية كلها، وعلى الرغم من صحة القول إنّ تيارًا توحيديًّا قويًا قد شاع في جزيرة العرب قبيل الدعوة المحمدية فإن الأفق الذي رفع به الإسلام الفكرةَ الإلهية ليس من اليسير العثور على شبيهٍ له أو قريب منه قبل الإسلام؛ فلم يشع الإيمان بالوحدانية الخالصة، وما يستتبعها من عقيدة التنزيه والتجريد كما أتى به الإسلام، ولكن عامة العرب كما يقرر القرآن كانوا يعرفون الله كإله أعلى، وإلى جانبه كانوا يعبدون الأسلاف كغيرهم من الأمم الأخرى - في صور الأصنام والأوثان، التى عُدَّت بمنزلة شفعاء لهم عند الله.

لقد خطا الإسلام خطوةً فسيحة لتطوير هذا الإرث التوحيدي المشوَّش والناقص، حتى إذا فرغ النبي محمد من دعوته، بدا الفارق شاسعًا بين ما كان قبله من توحيدٍ مبهم ناقص، وما جاء به النبي محمد، فلم يجعل القرآنُ الله متلبسًا بأي عارض من عوارض المشابهة بين الخالق والمخلوق، فالله ليس كمثله شيء، وأضفى على صفات الله كما

---

[20] انظر: "الارتباط الزمنى والعقائدي بين الأنبياء والرسل"، د. الحاج محمد وصفى، دار ابن حزم - الطبعة الأولى 1997م، ص 319.

[21] انظر: صحيح الجامع الصغير - ناصر الدين الألباني- برقم (1102).

سنرى فيضا بديعا من الكمالات التي تستحق الإعجاب حقا، ولم يتهادن قط في التنديد بالشرك والمشركين، على أساس أنّ العقائد الشركية تمثل انتقاصًا مروعًا لما يجب لله من سلطان على مخلوقاته، أو غلاً ليد القدرة الإلهية عن التصرف الحر، الطليق في ملكِه، ولم يلِن الإسلام كذلك في رفض الأصنام، فلم يقبل بوجودها قط، سواء أكانت تجسيدًا، أم تقريبيًا، أو رمزًا شعائريًا .

وكما آمن النبي بالله على هذا النحو فلم تكن من قوة تستطيع أن تجعله يقبل أن الأنبياء جميعًا قد آمنوا بالله على خلاف ما آمن به، فنجد عقيدة التوحيد هي مدار الدعوات النبوية كلها .

فمثلما تجلى الله واحدًا لآدم، فقد تبعه على هذا الإيمان جميعُ بنيه من الأنبياء والمرسلين، وإليك بعضًا منهم :*لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾* (الأَعْرَاف: 59)◉ *وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾* (هُود: 50)، *وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾* (الأَعْرَاف: 73).

وكذلك إبراهيم *قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾* (المُمْتَحنَة: 4)◉ *وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ* (الأَعْرَاف: 85)، وموسى أيضًا: *إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ

ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤*

(طه: 14)◉ والمسيح *إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١*

(آل عِمۡرَان: 51).

(3)
ربُّ العالمين

إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ (التَّكۡوِير: 27-29)◉ *تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣* (الحَاقَّة: 43)،*فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦* (الجَاثِيَة: 36). كان من ثمار التصور المحمدي عن الله الخالق لكل شيء، والعالِم بكل شيء، والقادر على كل شيء، الذي يمنح هدايته لجميع خلقه؛ الاعتقاد بفكرة الإنسانية العامة، ووحدة الجماعة البشرية، وهي فكرة هائلة عرفتها البشرية في وقتٍ متأخر جدًّا من تاريخها الطويل، ولكن النبي يرجع بها إلى أقدم الأزمان، فنجد منذ الخليقة هذا التصور عن وحدة البشر حاضرًا بدءًا من أبناء آدم المباشرين وصولاً إليه هو آخر الأنبياء: *لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨* (المَائِـدَة: 28)، ثم استمرت عند نوح:*وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩* (الشُّعَرَاء: 109)، وهود:*وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧*(الشُّعَرَاء: 127)، وصالح: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥*(الشُّعَرَاء: 145)، ثم نراها بعد ذلك عند إبراهيم:*فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧* (الشُّعَرَاء: 77)، وكذا لوط: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾* (الشُّعَرَاء: 164)◉ وموسى:*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾*(الزُّخْرُف: 46)،*فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾* (القَصَص: 30)، وموسى ومعه هارون:*فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾* (الشُّعَرَاء: 16)، شعيب:*وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾* (الشُّعَرَاء: 180)- بل عند ملكة سبأ كذلك:*قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾* (النَّمْل: 44).

الحقيقةُ الواضحة، هى أن من يقرأ أسفار العهد القديم لن يجد فيها ربَّ العالمين، بل سيجد إله شعب إسرائيل، ولن يجد الوحدانية كما جاء بها الإسلام أو قريبًا منها، بل كان العبرانيون موحدين على معنى آخر مختلفٍ تمام الاختلاف؛ وهو أنهم كانوا يعبدون إلهَهم فقط دون آلهة الشعوب الأخرى المجاورة؛ لأنّ إلهَهم إلهٌ غيور، ولا يريد لهم أن يعبدوا ربًّا سواه؛ فكما هم شعبه من دون بقية الشعوب، فيجب عليهم أن يعبدوا إلهَهم الخاص وحده دون بقية الآلهة الأخرى. وأما عن الأنبياء ووظيفتهم في العهد القديم، فمن يقرأ الكتاب المقدس فسوف يجد صورةً أخرى عن الأنبياء ودورهم ووظيفتهم، وربما كانت تلك الصورة أقل جمالا من تلك الصورة الوضيئة التي منحها لهم القرآن الكريم، ولكنها على كل حال هي الأقرب إلى المعقول، والأكثر اتساقًا مع مستوى واقعهم، فمثلا إذا كان النبي في القرآن يستنكف أن يأخذ أجرًا على دعوته إلى الله، فإننا نجد النبي صموئيل عندما ذهب إليه شاول ليعرف مكان أُتُنِه الضائعة يأخذ أجرًا على كشفه عن مكانها ربما بعض الخبز، ويكتفي بربع شاقل فضي: "فقال له: هوذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم، كل ما يقوله يصير. لنذهب الآن إلى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التي نسلك فيها، فقال شاول للغلام: هوذا نذهب، فماذا نقدم للرجل؟ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا، وليس من هدية نقدمها لرجل الله. ماذا معنا، فعاد الغلام وأجاب شاول

وقال: هوذا يوجد بيدي ربع شاقل فضة فأُعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا" (1 صموئيل 9: 6-8).

كذلك من يطالع الصورة القرآنية لمعنى النبوة والرسالة فسيقع على مفهوم واضح محدد؛ فالنبي هو من يصطفيه الله بالهداية، ويُعلن له نفسه لتستضيء نفسه بالمعرفة الضرورية ليعلم حقيقة الله، وما ينبغي له من العبادة والتعظيم دون أن تناط به مهمة دعوة البشر إلى ما أطلعه الله عليه، وأما الرسول فتضاف إليه مهمة الإبلاغ، وقد يأتي بشريعة مفصلة من الأوامر والنواهي الإلهية، وأما الأنبياء في العهد القديم فهم يختلفون اختلافًا بيّنًا عن التصور القرآني في معنى النبوة اختلافًا واسعًا شاسعًا، فهي تطلق على كل من يدَّعي أنّ له اتصالاً ما بالغيب، دونما اقتصار على من يدَّعي منهم بأن الله قد اختاره ليبلغ شيئًا محددًا إلى الناس، فقد كانت النبوة امتدادًا للكهانة والعرافة والتنجيم، وليست في جوهرها وسائط بين الله بصفته إلهًا معبودًا وبين الناس لنقل المعارف والتعاليم الإلهية، وحتى بعد أن عرف العبرانيون هذا المفهوم الأخير لبرهة. فقد ظل التنبؤ بالغيب والكشف عن المفقودات والجلوس لكي يستشيرهم الناس بجميع طبقاتهم في شئون الحياة كلها، بل يستشيرهم الملوك عن أنسب الأوقات للدخول في الحروب، هو المهمة الغالبة، ويضاف إلى ذلك أيضًا أنهم عدُّوا النبوة عندهم ملكة إنسانية ويمكن استثارتها واستحثاثها بالموسيقى، وآلات الطرب، ثم صارت حرفةً يحترفها المئات حتى صار من الضروري التحذير منهم إذا ما شطحوا بعيدًا عن المبادئ الدينية القومية إن صحَّ هذا التعبير: "إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلمًا وأعطاك آيةً أو أعجوبة. ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها. فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم؛ لأنّ الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم" (تثنية 13 : 1-3)، ويمكن لمن يقرأ العهد القديم أن يميز بين طبقات النبوة ومستويات أصحابها لا على النظر في مصادرهم، بل على ما قام به بعضُهم من أدوار مهمة في توجيه الشعب وتفسيرهم اللاهوتي الشعبي للأحداث والمحن العصيبة التي أخذت تتوالى على الممالك اليهودية على يد جيرانهم الأقوياء، وأما في المسيحية فقد تطورت إلى ما عبرت عنه هذه الآية: "لم تأت نبوءة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس" (2 بطرس : 1-21).

(4)
الإيمان بالبعث والقيامة

وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ (الأَعْرَاف: 172) من العقائد الأساسية في الإسلام عقيدة البعث؛ أي إقامة الله للأموات لكي يحاسبَهم على ما قدموا من خير أو شر، وما يستحقونه في الدار الآخرة من نعيم أو عذاب، وقد جاءت تلك العقيدة في أبكر السور المكية كذلك، وحكى لنا القرآن - طويلا - ما كان من جحود بعض مشركي العرب بالبعث بعد الموت، وإنكارهم له، ومن يتأمل الآية السابقة فسيمكنه أن يرى بوضوح اعتقاد النبي في رسوخ هذا الاعتقاد من قديم الزمان، كما لو كان الإيمان بالقيامة والبعث مركوزًا في الفطرة الإنسانية، وأن الإنسان لو ترك وشأنه لكان إيمانه بالبعث والقيامة أمرًا بدهيًا لا يحتاج إلى برهان! لذا قرر الإسلام تلك العقيدة على نحو ناصع - ولم تكن إشارات مبهمة وغامضة فيقبلها من يشاء ويتجاهلها من يشاء مثلما نجد في العهد القديم؛ بل نجد القرآن دائمًا ما يقرنها بجوهر الدين كله وهو الإيمان بالله: *أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ *يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾* (المُطَفِّفِين: 4-6)، *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾*(المُدَّثِّر: 46-47)، *قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾* (الأَنْعَام: 15).

مثلما آمن النبي بالقيامة فقد آمن كذلك بأن جميع الأنبياء قد آمنوا بها أيضًا، وحضوا قومهم على التصديق بها، وإليك بعضًا منهم، ومن هؤلاء نوح:*لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾* (الأَعْرَاف: 59)، وكذلك إبراهيم: *وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾* (الشُّعَرَاء: 87)، *وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ

ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦*(البَقَرَة: 126)۞ *وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢*(الشُّعَرَاء:81-82)۞ *وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥*(العَنكَبُوت: 25)۞ *وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧* (غَافِر: 27)، وأتباع موسى آمنوا كذلك بالآخرة: *وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧* (القَصَص: 77)، ومثلهم مؤمن قوم فرعون: *يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩* (غَافِر: 39)

(5)
الجنة والنار

من عقائد الإسلام الواضحة كذلك تقريرُه المفصَّل أن مقر المؤمنين الناجين يوم القيامة هو الجنة، وأن مثوى الكافرين النار، وقد أفاض القرآنُ في وصف ما سيتمتع به المؤمنون هناك سواء أكانت متعًا حسية، كما جاء في سورتي (محمد) و(الرحمن) مثلاً، أم كانت مسراتٍ وأفراحًا روحية يأتي على ذروتها مشاهدة البهاء الإلهي، وغبطة النظر إلى وجه الرب العظيم، وكذلك أتى القرآن على ذكر النار كمثوى أبدى للكافرين الضالين، وقدم صورًا مروعة مما سيلاقيه هؤلاء من صنوف العذاب، ولكن النبي كذلك قدم تلك العقيدة بوصفها ركنًا ركينًا مما جاء به الأنبياء جميعًا من قبله، وإليك بعضًا منهم: إبراهيم *وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥* (الشُّعَرَاء: 85)، *وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ

وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥*(العَنكبُوت: 25)، وامرأة فرعون :*وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١* (التَّحۡرِيم: 11)، وسحرة فرعون:*إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦* (طه: 74-76)، والمسيح:*لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢* (المَائـِدَة: 72)، ومؤمن آل فرعون:*لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣* (غَافِر: 43).

(6)

الشيطان

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (يس 60)، *وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ* (الحَج: 52)۞ *فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ* (الأَعۡرَاف:20).

من العقائد الأساسية في الإسلام الاعتقاد بوجود الشيطان بوصفه عدوَّ الإنسان الأكبر، والعزو إليه مهمة إغواء الإنسان وتحريضه على مقارفة الشرور، وتزيين القبائح والمعاصي، وهذه العقيدة قد أوغل بها القرآن بعيدًا؛ إذ جعل التحذير من قوة الشر هذه مما عهد الله به إلى البشر، وأودعه في ضمائرهم في مقام العهد الإلهي للبشر وهم بعد في ظهور آبائهم.

وفق القرآن فقد وجدت تلك القوة الشيطانية قبل خلق الله للبشر، وظهر أول نشاطها مع الإنسان الأول؛ فقد أرجع القرآن بوضوح خطيئة آدم وعصيانه أنه كان بإغواء الشيطان ووسوسته، وحفلت الآيات القرآنية من التحذير من كيده وإغوائه، ولكن من جانب آخر، فقد أبان القرآنُ عن حدود تلك القوة، وأنها لا تعدو التزيين والوسوسة، ويمكن للعبد المؤمن أن يحتمي منها بالالتجاء والاحتماء بربه، وطلب عونه من شرِّها وخطرها، فهو قوة الشر، ولكنها قوةٌ لا سلطانَ لها على ضمير الإنسان ما لم يستسلم لها بهواه أو بضعفٍ منه على مقاومة الإغراء، وهذا المفهوم الذي أتى به الإسلام، يبعد كثيرًا عن طبيعة الشيطان ودوره في الأديان السابقة عليه كما سنرى، ومع ذلك فالقرآن يضع هذا المفهوم الخاص به على ألسنة الأنبياء السابقين، فهذا آدم *فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ* (طه: 120)، وهذا إبراهيم يحذر أباه من إطاعة الشيطان والاستجابة لندائه: *يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا* (مَرْيَم: 44)، ونجد امرأة عمران تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم من أن ينال ابنتها أو ذريتها بسوء: *فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ* (آل عِمْرَان: 36)، وهذا النبي يعقوب يوصى ولده يوسف بألّا يقصَّ شيئًا من رؤيته على إخوته خشية أن يغريهم الشيطان بالكيد له: *قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* (يُوسُف: 5)، وهذا يوسف يفسر لنا ما شجر بينه وبين إخوته من عداوة بأنه كان من نزغ الشيطان وكيده: *وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي

حَقًّاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ* (يُوسُف: 100)، وهذا موسى:*وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾* (القَصَص: 15)، وهذا فتى موسى يرجع سبب نسيانه الحوت إلى الشيطان:*قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا* (الكَهۡف: 63)، وكذلك أيوب:*وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾* (ص: 41)، بل عرفه أيضًا هدهد سليمان! *وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾* (النَّمۡل: 24).

(7)
التوازن والوسطية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (المُؤۡمِنُون: 51)

من مظاهر العقيدة الإسلامية التي تتجلى بوضوح في القرآن الكريم، كما أكدتها عشرات الأحاديث النبوية الصحيحة، ما يمكن أن نسميه (مبدأ التوازن والوسطية)، فعلى الرغم من أن الإسلام هو رؤية أخروية بامتياز؛ أي أنها تُعلي من شأن الآخرة، وتجعل معيار صلاح الأعمال ومدى جدواها هو ما تنطوي عليه تلك الأعمال والسلوكيات من نفع للروح في الدار الآخرة في المقام الأول، فإن روحًا من القصد والتوسط والاتزان قد

برزت على قدر من الوضوح بحيث يمكننا أن نعدها بلا جدال أحد مظاهر الرؤية الإسلامية للسلوك الإنساني. وإذا كان الإنسان وفق التصور القرآني هو في تعريفه البعيد روحٌ قد خلقها الله مذ قدر خلق الكائن البشري الأول، وقدَّر لها أن تهبط إلى الأرض في وقتها المعلوم كما تشير آيات سورة الأعراف، فإنّ تلك الروح متى تلبست بالجسد حتى صارت لهذا الجسد حقوقٌ مستقلة لا ينبغي للروح أن تجور عليها، بل بهما معًا صلاح الكائن البشري. ولا تكاد الشواهد تحصى لتقرير هذا الملمح في الرؤية الإسلامية، فمن ذلك:*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾* (المَائدَة: 87 - 88)، *يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾* (الأعراف: 31- 32).

تخبرنا السيرة النبوية كذلك كيف قاوم النبي الحماسة الروحية التي اشتعلت في نفوس بعض أتباعه الأولين، والتي أوعزت لبعضهم أن يتخلى عن بعض أهم الطيبات، ويوغلوا في ممارسات نسكية عنيفة فردَّهم النبي بحسم إلى جادة القصد مثل ما كان من مُتحنِّفٍ قديمٍ كعثمان بن مظعون ومن سار خلفه. ولكن تلك النظرة المتوازنة والسمحة نجد القرآن الكريم يرجع بها إلى أقدم العصور فنجدها تظلل خطابات الأنبياء جميعا، ولكنها تتجلى على أوضح ما يكون على لسان ناصحي قارون من قوم موسى:*إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى

ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧* (القَصَص: 76-77). ولا يعنينا في هذا المقام ما يثار حول شخصية قارون، ومدى موافقة القرآن أو مخالفته لما أورده المؤرخون عن أصل تلك الشخصية، إنما ما يعنينا هنا هو أن القرآن الكريم قد جعله من قوم موسى، وأنه بغى عليهم، وأن تلك الآية التي عدَّها المرحوم عباس العقاد: "قوام التبليغ للإنسان من بني آدم كافة" [22] قد جاءت هنا على لسان تلك الثُّلة الحكيمة من بني إسرائيل في معرض نصحهم لقارون، بوصفه الأنموذج النقيض لتلك النظرة الإسلامية السمحة في التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة!

(8)
اللوح المحفوظ

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩ (الأَنْعَام: 59)، *إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٦* (التَّوْبَة: 36)،*وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٦١* (يُونُس: 61)، *وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦* (هُود: 6) *وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ

---

[22] "الإنسان في القرآن"، ص 25.

حَكِيمٌ ۝٤* (الزُّخْرُف: 4)، *يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩* (الرَّعْد: 39).

من جديد التصورات الإسلامية التي أوردها القرآن الكريم مرارًا وحفلت بها الأحاديث الصحيحة ما يسمى اللوح المحفوظ، وهو وفق التصور الإسلامي كتاب شامل أودع الله فيه مقادير الخلق والخلائق قبل أن يخلقهم، فما من شيء قدَّر له الله أن يخلق إلا قد أودعه هذا الكتاب من الآجال والأرزاق والمصائر التي حددها وفق علمه الكلي والمحيط بكل شيء، ولقد حجب الله جميع البشر من الاطلاع على اللوح المحفوظ؛ فهو مستودع غيبه، وما كان لأحد سواء كان نبيا مرسلا، أم ملكا مقربا أن يطَّلعَ على هذا الكتاب المكنون *قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢* (طه:48 – 52).

لكننا نجد القرآن يورد هذا المفهوم على لسان موسى عندما سأله فرعون عن تلك الأجيال الغابرة التي عاشت بين زمنى نوح وإبراهيم، ولمَّا كان النبي محمد لا يعلم عنها شيئًا مما يُفهم من سياق هذه الآية *وقرونا بين ذلك كثيرا*، وكذلك من غياب أي إشارة إلى تلك الأقوام المجهولة، ما عدا ما أورده القرآن بشأن عاد وثمود، الذين أشار إليهم موسى، ومن آمن به كما سنرى، وأما ما سوى ذلك فلم يكن موسى كذلك يعلم شيئًا عن أخبار تلك الأمم البائدة؛ لذا نجد موسى يوكل علمها إلى الله ؛ فهي إن غابت عنه فهي لا تغيب عن علم الله الذي سجلها في اللوح المحفوظ.

(9)
خزائن الله

وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ (الحِجْر: 21)، *قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠* (الإِسْرَاء: 100)، *أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩* (ص: 9)، *أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧* (الطُّور: 37)، *هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧* (المُنَافِقُون: 7).

من التشبيهات القرآنية الخالصة التي استعملها القرآن الكريم في سياقات مختلفة لتدل على ملكية الله للأشياء جميعًا، وأنّ عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف وهي خزائن سحّاء ومليئة لا تنفد، تعبير: (خزائن الله)، وهو تشبيه يستلهم ما يكون في خزائن الملوك من النفائس المذخورة التي لا يتصرف فيها إلا بمقتضى الحكمة كما جاء على لسان يوسف *قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥* (يُوسُف:55) مع ما يستلزمه الفارق بين التعبيرين، كما هو الفرق بين المخلوق المحدود والخالق الذي لا يتصور غناه، ولا يُنقص خزائنَه عطاء ولا إنفاقٌ.

لكن القرآن يورد ذلك التعبير ذاته على ألسنة السابقين من الأنبياء مثل نوح كما جاء في سورة هود كما سنرى، وهذا يدلنا على الشعور النبوي الساطع من أن الله لا ينطق نبيَّه إلا بما أنطق به الأنبياء من قبله أو أنطق الأنبياء بمثل ما نطق به النبي ليس فقط من مضامين وتصورات، بل من تعبيرات وكلمات أيضًا.

ومما له دلالته أن هذا التعبير قد جاء في سياق من المشابهة العجيبة سواء في الأفكار أو التعبير أو سياق الدعوة، فهذا الخطاب الموجَّه إلى النبي محمد، وفي كلتا الآيتين نجد الاحتفاء بالمؤمنين مهما كانوا فقراء، والتحذير من الإصغاء إلى الملأ المترفين الذين

يحقرونهم ويزدرونهم لخلو أيديهم من الحطام الفاني الذي يُعْلِي من شأنه أهل الدنيا من المترفين.

فهنا نجد القرآن يخاطب النبي محمد بقوله: *قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢* (الأَنْعَام: 50-52)، وهذا هو ما قاله نوح لقومه: *وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١* (هُود: 31)، فكلاهما يعلن افتقاره إلى الله، وأنه مجرد نبي يبلغ رسالة ربه ولا اطلاع له على غيوب الله، ولا يملك شيئًا من خزائنه، ولا يستطيع أن يوافق قومه على انتقاص هؤلاء المؤمنين الفقراء؛ فالله هو الذي يستطيع أن يعلم ما تنطوي عليه قلوب البشر وما يستحقون من الفضل والرحمة.

إذا تأملنا هذه الآيات التي أوردها القرآن على لسان النبي محمد، وتلك الأخرى التي جاءت على لسان النبي نوح لرأينا العجب من تلك المشابهة، بل المطابقة في التعبير والمضمون مع ما بين النبيين من عشرات القرون، وما بين البيئتين الثقافيتين من فروق وتباينات تكون على قدر تلك القرون.

(10)
المسئولية الشخصية

لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ (النِّسَاء: 12). من المفاهيم التي قررها الإسلام أن كل إنسان مسئول عن أفعاله، فلا يعاقَب إنسانٌ بجريرة أحدٍ، فليست مثلا هناك خطيئة أصلية يدفع

ثمنها من لم يكن موجودًا حينما وقعت، ولا علاقة له بها، بل يمكن للإنسان أن يختار لنفسه ما ينجيه أو ما يهلكه: *وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾* (الإِسْرَاء: 13-16)، *قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾* (الأَنْعَام: 164)، *وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾*فَاطِر: 18)، *إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾* (الزُّمَر: 7).

لكن القرآن قد جعل من تلك القاعدة مما جاءت به صحف إبراهيم وموسى، التي ستقرر أيضًا قاعدة قرآنية أخرى جديدة، وهي تغليب الآخرة والعمل لها أكثر من الانشغال بحطام الدنيا: *أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾* (النَّجم: 36-42).

(11)
الملائكة

تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ (المَعَارِج: 4)، *إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧* (النَّجم: 27)، *فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧* (مُحَمَّد: 27)، *ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * (فَاطِر: 1)، *وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١* (الفُرْقَان: 21).

حضرت عقيدةُ الملائكة باكرًا في القرآن، وهذا ليس من الغريب في شيء؛ فهي تملأ صفحات الكتاب المقدس، ولكن القرآن يأتي بها هنا على ألسنة أنبياء من العرب بُعثوا إلى عاد وثمود وغيرهما، والأهم من ذلك أنها تأتي وفق الصورة المتأخرة لها؛ فهي لا تأكل ولا تشرب، ويأتي بها أيضًا وفق وظيفتها الجديدة من معنى الوحي: قوم نوح: *أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤* (الأَنبِيَاء: 24)◉ *فَوَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤* (المُؤْمِنُون: 24)، وعاد وثمود: *فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤* (فُصِّلَت: 13)، إبراهيم: *وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ

مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠* (هُود: 69 – 70)◉ ونجدها كذلك على لسان فرعون! *فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣* (الزُّخْرُف: 53)، وكذلك نجدها على ألسنة نسوة المدينة المصريات! *فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ۝٣١* (يُوسُف: 31).

من البَدَهِيِّ للتعرف إلى مفهومٍ ما أن نعرف وظيفته وضرورة وجوده؛ فليس من الغريب مثلا أن تحضر الملائكة قبل الشيطان في العهد القديم أو ربما في أي دين يؤسس على الاعتقاد في إله شخصي؛ لأن وجودها لا يستلزم سوى أن يخلق الإله مساعدين له ليوكل إليهم بعض المهام الصغرى كما لو كانوا جنودًا لملك أو حاشيةً له، وأما الشيطان فلابد من أن يسبقه الاعتقاد في وجود إله عادل وحكيم يتنزه عن الشر، ويصبح من الضروري أن تنسب تلك القوة إلى مخلوق آخر سواء كان ذلك كمهمة كونية تناط به، وسلطة مؤقتة يمنحها الله له لاختبار الناس كما في الإسلام، أو ما هو أبعد من ذلك كما في المسيحية التي نجد الشيطان يحضر فيها كما لو كان إلها موازيا يتقاسم مع الله حكم العالم، رغم أنّ الغلبة ستكون لله في النهاية. وأما في اليهودية، فكما يقول الباحثون، فالشيطان لا ضرورة له، ويمكن تفسير الأحداث بمعزل عنه؛ لذا نجد مثلاً أن تفسير الحية بأنها كانت هي الشيطان تفسيرٌ لا معنى له؛ إذ كان السياق المعرفي القديم وحدود مفاهيمه لا تستلزمها، ولا تتطلبها فضلا عن اختفائه تمامًا بعد ذلك قرابة ثلاثة آلاف عام ليظهر ثانية ليغري داود بعملٍ كان يكفي لله أن يفعله بنفسه؛ وذلك لأن صورة الله في العهد القديم، لم تكن تتنزه عن أن يوقع عباده في الخطأ لكي ينتقم منهم لأخطاء أخرى لا علاقة لها بالفعل ذاته، بل لأنه كان يحصي عليهم في نفسه الغضوب مخالفاتٍ أخرى تدعوه إلى الانتقام منهم.

لسنا بحاجة إلى التذكير أنه من الضروري هنا أن نتذكر أن مفهوم الملائكة لم يكن مفهوما أصيلا عند العبرانيين، وإنما هو مفهوم مستعار انتقل إليهم أساسا من الثقافة

الفارسية. لقد ظهر هذا المفهوم عند العبرانيين على نحو لا يجعل من الغريب أبدًا أن تتزاوج تلك المخلوقات وتتكاثر، فلم يكن هذا مما يتعارض مع صورتها، وأدوارها الوظيفية "على عكس لاهوت الشيطان الذي بقي ناقصًا وغامضًا حتى اختتام الأسفار القانونية، فإن لاهوت الملائكة يأخذ بالاتضاح تدريجيا عبر الأسفار، وذلك بتأثيرات رافيدينية وفارسية. غير أن ما يميز مفهوم الملائكة في التوراة عن مفهوم الملائكة الفارسي هو أن الملائكة التوراتية ليست كائنات نورانية خيّرة تقف في وجه الشياطين، وتكافح الشر في العالم على كل صعيد، بل هي البطانة الخاصة التي تحيط بـ (يهوه) الملك، وتحمل عرشه كلما زار الأرض، وتنفذ ما يوكل إليها من مهام، فمنها للمهام الخيّرة ومنها للمهام الشريرة، وغالبًا ما يختلط الفريقان حتى يصعب التمييز بين ملائكة النور وملائكة الظلام" [23].

(12)
وظيفة النبي ومهمته

قرَّر الإسلام بوضوح شديد مهمة النبي وهي التبشير بما يعد الله به عباده الطائعين من الثواب والرحمة والإنذار بما سيحيق بهم من عقاب ومن نقمة إن جحدوا وكذبوا، وأنه لا يستهدف من دعوته قومه إلى الله أيَّ نفع ذاتي، بل يستهدف نفعَ قومه وإخراجَهم مما هم فيه من ظلمات الجهالة والضلال إلى نور الحقيقة الإلهية، وليس من دور له بعد ذلك، فهو لا يملك لنفسه فضلا عن سواه نفعا ولا ضرًا، وسيضيف الطور الثاني من حياة النبي في المدينة مهامَّ أخرى، فسيكون من بين مهام النبي الشارع أن يقضي بين الناس بما يريه الله، ويجب أن يطيعه المؤمنون؛ فطاعته من طاعة الله: *وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤* (يُوسُف: 104)، *قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧*(ص: 86-87)، *وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

[23] انظر: "الرحمن والشيطان.. الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية"، فراس السواح، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ص 134.

سَبِيلًا ۝٥٧*(الفُرْقَان: 56-57) *قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١٨٨* (الأَعْرَاف: 188).

كالعادة، فقد أعطى القرآن الأنبياء السابقين جميعًا الدور ذاته سواء بسواء، فهذا نوح: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٩* (الشُّعَرَاء: 109)، وكذلك هود: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٧* (الشُّعَرَاء: 127)، وكذا صالح: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٤٥* (الشُّعَرَاء: 145)، لوط أيضا: *وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٤* (الشُّعَرَاء: 164)

(13)
صفات الله في القرآن

جاءت صورةُ الله فى القرآن رائعة حقا، فنجد ربًّا عالمًا يحيط علمه بكل شيء، وحكيمًا يقرر كلَّ شيء وفق حكمته البالغة، ونجد توازنًا بديعًا بين تجليات الرحمة والجمال فهو غفورٌ، رحيمٌ، رءوفٌ، وما يجب لله من سطوة ومن جلال؛ فنجده عزيزًا، قهّارًا، مُنتقمًا، جبّارًا، ونجده كذلك قريبًا حتى لهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ونجده نائيًا عصيًّا عن أن تطوله حواسُ البشر ومداركُهم؛ فهو يدرك الأبصار وحاشاه أن تدركه، ونكتفي بثلاث آياتٍ من القرآن جمعت كثيرًا من تلك الصفات:*هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤* (الحَشْر: 23–24).

لكننا نجد كذلك أنّ تلك الصفات الإلهية كلها وقد جاءت على ألسنة الأنبياء السابقين فهذا موسى:*يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩* (النَّمل: 9)، ولوط:*فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦* (العَنكَبُوت: 26)، وإبراهيم:*رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٥*(المُمۡتَحنَة: 5)، وإبراهيم وإسماعيل: *وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧* (البَقَرَة: 127)، وامرأة عمران: *إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٥* (آل عِمۡرَان: 35)، والنبي سليمان : *إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠* (النَّمل: 30)، ويوسف: *إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠* (يُوسُف: 100)۞ ولوط:*وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٧* (الأَعۡرَاف: 87)، والنبي شعيب:*قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ۝٨٩* (الأَعۡرَاف: 89)، وموسى:*قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١* (الأَعۡرَاف: 151).

(14)
تطابق أصوات المنكرين

مثلما تطابق خطابُ الأنبياء لأقوامهم مع خطابِ النبي لقومه فقد تشابهت استجابتُهم له مع استجابة الجاحدين من أقوام الأنبياء السابقين، فكما تولى الملأ المكّي المترف والمتعجرف معارضة دعوة النبي محمد: *وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ* (ص: 6 -7)، فقد تولى أمثالُهم في كل أمة قيادةَ المعارضة، فمثلاً نوح: *قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠* (الأَعۡرَاف: 60)، وملأ قوم هود:*قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦* (الأَعۡرَاف: 66)۞ وكذا ملأ قوم صالح:*قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥* (الأَعۡرَاف: 75)، وشعيب:*قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨* (الأَعۡرَاف: 88)، وموسى:*قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩* (الأَعۡرَاف:109).

(15)
مجرد بشر

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣(الأَنبِيَاء: 3)، كما استنكف أهلُ مكة من ادعاء بشر، مجرد بشر، تلك الدعوى العريضة، أن يختاره الله من بينهم، وطالبوا بأن ينزل الله ملكًا من السماء يبلغهم ما يريد، فكذا فعل الجميع من قبل! وإليك بعضًا منهم: فهنا نجد في موطن واحد أقوامَ نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ممن لا يعلمهم النبي:*أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠* (إِبْرَاهِيم: 9-10)، ونوح *بَشَرًا مِّثْلَنَا ۝٢٧* (هود:27)، وكذا أصحاب القرية :*وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦* (يس: 13-16)، وشعيب: *وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦* (الشُّعَرَاء: 186)، وصالح: *مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤* (الشُّعَرَاء: 154)، ونوح :*فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ

مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾* (المُؤْمِنُون:24).

(16)
تحقير الأنبياء

كما نُعت النبي محمد بتلك النعوت القاسية؛ من أنه ساحرٌ أو مسحورٌ أو شاعرٌ[24]، ووصِف بالكذب والاختلاق والافتراء على الله، فقد جاءت تلك النعوتُ جميعًا لوصف الأنبياءالسابقين *نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾* (الإِسْرَاء: 47): *أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾*الطُّور: 30)،*وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾* (ص: 4) .

كذا جميع الأنبياء، موسى: *إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾* (غَافِر: 24)، وصالح *أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾* (القَمَر: 25)، ونوح: *قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾* (الأَعْرَاف: 66–67)، وشعيب:*قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾* (الشُّعَرَاء: 185-186).

(24) غاب وصف الشاعر على ألسنة أهل الأمم السابقة، ولا ندري دلالة غياب وصف أي نبي سابق بأنه شاعر، وهل له دلالة في اعتقاد النبي بغياب الشعر عن الأمم الأخرى بتأثير من اعتقاد العرب أنهم من اختصوا دون بقية الأمم بالفصاحة والقدرة على الإبانة؟!

(17)
اتّباع الآباء والأجداد

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ (لُقْمَان: 21)، كما تعلّل مشركو العرب باتباع ما ورثوه من عقائدَ بأنها ميراث آبائهم، وأنهم سيلزمون تلك العقائد، وسيتمسكون بها، فكذلك فعل الجميع: *وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣* (الزُّخْرُف: 23)، *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠* (البَقَرَة: 170)، وقوم إبراهيم:*قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤* (الشُّعَرَاء: 74)، وكذلك قال المصريون لموسى وهارون: *قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨* (يُونُس: 78).

(18)
الاستخفاف بالوعيد الإلهي

أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ (الإِسْرَاء: 91–93).

أهلُ مكة:*وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢* (الأَنفَال: 32)، وشعيب *فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾* (الشُّعَرَاء: 187)، ونوح *قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾*(الأَعۡرَاف: 70)، صالح *فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾* (الأَعۡرَاف: 77)، ونوح *قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾*(هُود: 32).

(19)
عقائد الأقدمين

وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ (الزُّمَر:65).

لسنا بحاجة إلى تقرير أن عقيدة العرب كانت عقيدة إشراك آلهة أخرى مع الله، كذلك كانت في اعتقاد النبي عقيدة جميع الأمم التي أرسل الله إليها أنبياءه، كما علمنا من دلالة دعوة الأنبياء جميعًا قومهم إلى التوحيد، ولكن من الضروري أن نعرف أن تلك الأمم جميعًا كان لهم التصور الاعتقادي ذاته من وجود إله قادر، لكنهم إلى جانبه كانوا يعبدون تلك الآلهة، فنجدهم جميعا يعترفون بوجود الله، ولكنهم رغم ذلك يجعلون منها أندادًا لله! *أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾*(الزُّمَر: 3)، ولمشركي العرب قيل:*إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾* (النَّجۡم: 23)، أما قوم نوح فقد عبدوا أصنام العرب ذاتها! *قَالَ نُوحٞ رَّبِّ

إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾* (نُوح: 21-24)، وقوم هود: *قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾* (الأَعۡرَاف:71)، والمصريون:*مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾* (يُوسُف: 40)، وقوم إبراهيم: *وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ* (العَنكَبُوت: 1617).

هذه إذن أهم معالم العقيدة الدينية الواحدة كما أوردها القرآن الكريم، وهي كما رأينا دعوةٌ واحدة نراها تتكرر وتتكرر عبر التاريخ الرسالي كله، الذي يمتد وفق الرواية الدينية إلى ما يقرب من خمسة آلاف سنة. وقل مثل ذلك تمامًا عن معالم الشريعة الدينية مثل: الصلاة، والزكاة، والحج، وغير ذلك؛ حيث سنجد الأمرَ نفسه، وسنخصص الفصل الأخير لبسط معالم تلك الشريعة الأبدية كما تصورها النبي.

في مقابل تلك الرواية الجميلة والوهمية، تبرز رواية أخرى تختلف اختلافًا بعيدًا عن رواية القرآن، ولن نجد لبيانهما معًا إلا أن نقدم عرضًا مقارنًا لبعض قصص القرآن الكريم، مستهدفين الإجابة عن سؤالين مهمين، أولهما: لماذا، وكيف اعتقد النبي محمد في صحة تصورٍ كهذا؟ والآخر: ما نصيب تلك الرواية الدينية من الصحة والبطلان عبر عرضها على كتب التاريخ الحضاري؟ ولنبدأ مباشرة في عرض قصة النبي الأول.

البدايات والنهايات

قراءة أخرى للقصص القرآني

الفصل الأول
قصة نوح

المبحث الأول: نوح التوراتي.

اولا: تاريخ الجماعة البشرية وفق التوراة.

ثانيا: تعقيب على تاريخ البشر في الكتب الدينية.

ثالثا: نوح التوراتي.

رابعا: مشكلات الطوفان العام والحلول الكتابية لها.!

خامسا: تعقيب على الطوفان.

سادسا: الكتاب المقدس والتاريخ (برج بابل نموذجًا).

المبحث الأول
نوح التوراتي

اولا: تاريخ الجماعة البشرية وفق التوراة.

يمكننا أن نشبه الإيقاع الزمني لحركة أحداث سفر التكوين بإصحاحاته الخمسين بنهر يتدفق بسرعة هائلة في مراحله الأولى، ثم يتباطأ قليلا قليلا قليلا كلما تقدم هذا النهر في جريانه، فهذا السفر الذي يترجم لأحداث تستغرق مدة (2369) سنة من حياة البشر الأولين؛ أي من خلق آدم الإنسان الأول حتى وفاة يوسف، وتتفاوت فيه مساحاتُ النسب الزمنية الممنوحة للأحداث إلى حدٍّ بعيد؛ حيث نجد أن نصيب المدة الممتدة من خلق آدم إلى وفاة نوح وهي (2006) سنوات تأتي في تسعة إصحاحات فقط، تستحوذ قصة الخليقة على أربعة منها، ثم تأتي المدة بين الطوفان وإبراهيم في ثلاثة إصحاحات لا غير، ثم تتباطأ الأحداث في النهاية حتى تستحوذ قصة يوسف وإخوته على الأربعة عشر إصحاحًا الأخيرة من هذا السفر، ولا شيء يفسر هذا التفاوت البيِّن في اعتقادنا أكثر من أنه يترجم عما كان لدى الكاتب، كثرة أو قلة، ليقوله عن تلك الأحداث، ويعبر من باب أولى عن مدى أهمية تلك الأزمان وأهلها بالنسبة إلى غرض كاتب السفر ومقصده.

لمَّا كان لا يعنينا هنا سوى تأمل إجابة الكتاب المقدس عن تاريخ الجنس البشري على الأرض، فلن نتوقف عند سواه إلا بمقدار دلالته على (لا تاريخية) تلك الأحداث التي أوردتها هذه الرواية الدينية عن تطور البشر، ولأهميتها البالغة لموضوع الكتاب الأصلي؛ أي لارتباطها الواضح فيما نرى بتشكيل أساس التصور التاريخي الذي انطلق منه النبي محمد وبنى رؤيته، ويا للأسف، على أساس منه؛ فقد تابعها في الاعتقاد الخاطئ بحداثة الظاهرة الإنسانية وحضور الإنسان في العالم، ومن تلك الرواية الأسطورية ومعالمها الزمنية جاء رصف النبي لتتابع حضور الجماعات الحضارية ذات الصلة برؤيته في التاريخ؛ حيث نجد الخطوط الأساسية هي ذاتها؛ ففي البدء نجد آدم وبنيه، ثم يأتي من بعدهم جيل الطوفان الفاسد الذي لم ينجُ منه سوى نوح، وطائفة قليلة من أتباعه، ويأتي من بعده رافدٌ فرعي سرعان ما سيجف سريعًا هو خط العرب البائدة من عاد وثمود، ثم يأتي من بعدهم إبراهيم وبنوه، وهكذا حتى نصل إلى زمن بعثة النبي محمد؛

حيث يشارف نهر التجربة البشرية على الوصول إلى مصبه، ويقترب الزمان من نهايته، ولا تعجبْ فهذا ما اعتقده النبي محمد كما سنرى.

(1)
أسلاف البشر

(وَلِشِيثَ أيضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ).

يمكننا القول: إن تاريخ أسلاف البشر على الأرض وفق الرواية التوراتية يبدأ فقط من ولادة شيث، الابن الثالث لآدم؛ إذ من نسله وحده ستمتد سلسلة الأنساب البشرية لتصل إلى نوح، ومن نوح وبنيه سيأتي جميع البشر بعد الطوفان الكوني العارم الذي سيطيح بالبشر جميعا ما عدا أسرة نوح وحده؛ لذا فيمكننا إذن إسقاط قصة ابني آدم الأولين (قايين وهابيل)؛ إذ لا ضرورة لهما من هذه الناحية، فأما قايين الهارب من أشباحه، وبنوه من بعده، فسيظهرون لبرهة وجيزة على مسرح الخليقة الأولى، لكن كشخصيات شبحية غامضة لا ملامح ولا قسمات إنسانية لها، بل سيشيطنون بلا رحمة، ثم سيطويهم النسيان على صفحات الكتاب المقدس نفسه، قبل أن يغرق الطوفان بعد ذلك ذرياتهم.

الأمر أهون بطبيعة الحال مع هابيل البار الشهيد الذي عاجلته يد الاغتيال الغادر قبل أن يخلف وراءه ذرية على الأرض حتى يمكن لمن يشاء وصفهما بأنهما بطلا قصة فرعية مقحمة على قصة الخلق، فضلا عن خروج آدم وامرأته من المشهد كله بعد حضور ابنهما الثالث شيث، رغم بقائهما على قيد الحياة بعد إنجابهما لثمانية قرون كاملة، عاصر فيها آدم تسعة أجيال من سلالته، ودون أن نسمع لهما صوتًا، ولو مرة واحدة، فيما يجري حولهما من أحداث جسام![25].

لذا، نجد الإصحاح الخامس من سفر التكوين يعود ليلتقط الخيط المترهل بسبب تلك الوقائع الغامضة والملتبسة ليعيدنا إلى الخط الرئيس الذي سيمتد إلى (العصور التاريخية!)، وليس من العجيب أيضًا أن نجد حضور الرب يأتي في اللحظة ذاتها

[25] (وَعَاشَ آدَمُ مِئَةً وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ وَلَدًا عَلَى شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ وَدَعَا اسْمَهُ شِيثًا. وَكَانَتْ أَيَّامُ آدَمَ بَعْدَ مَا وَلَدَ شِيثًا ثَمَانِيَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ آدَمَ الَّتِي عَاشَهَا تِسْعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَمَاتَ..) (تك 5 الآيات -3-6)، هذا كل ما استحقته القرون الثمانية التي عاشها آدم وحواء بعد إنجابهما شيثا، فلم يكن لهما من دور فيها سوى أنهما استمرا في إنجاب المزيد والمزيد من الأبناء الذين لن نعلم عنهم شيئًا أبدًا!

ليستعلن بعد خفاء، كما لو كانت تجسداته السابقة مع آدم وبنيه تنتمي إلى تصور ألوهي مختلف، وقد آن له أن يغادر القصة لتحل محله صورة عن إله تختلف ملامحه قليلا عن الإله القديم الذي كان يتمشى في الجنة عند هبوب ريح النهار؛ حيث يطيب التنزه في الحدائق، ويكلم آدم وحواء وقايين مجابهة، وصار فيما يبدو يكلم البشر من وراء حجاب، كما سيفعل مع نوح، وإن لم تغب التجليات والظهورات والتجسدات من حين لآخر، كما سيحدث مرارًا مع إبراهيم ويعقوب وموسى![26].

من يتأمل ما خصصه الكاتب لذرية قايين، هذا الفرع المغضوب عليه، فسيجده لا يتجاوز الإصحاح الرابع فقط رغم كثرة أحداثه، ثم يحشد كاتب التوراة بعد ذلك تاريخ الأجيال العشرة من السلالة المباركة والممتدة بين آدم إلى نوح في إصحاح قصير لا يجاوز نصف صفحة؛ حيث خلت حيواتهم تمامًا من أي إشارة شخصية، فلا نعرف شيئًا عن أخلاقهم، أو طبائعهم، أو صنائعهم، أو كيف كانوا يكسبون خبزهم، فضلا عن غياب أسماء نسائهم جميعًا رغم اهتمامه بذكر اسم زوجتي لامك القيني (عادة وصلة) وابنته (نعمة من زوجته صلة) بل لم يحفل كاتب التوراة بحواء أم البشر جميعًا، فلم يخبرنا كم عاشت من السنين، ولو فعل لعلمنا يقينًا متى كان أول تأيم لرجل، أو ترمل لامرأة على وجه الأرض.

لذا، لم يفعل هؤلاء المعمرون شيئًا في أعمارهم الطويلة تلك سوى إنجاب أولادهم، ولكي يوسع الكاتب من المدة بين آدم ونوح، فقد أرجأ إنجاب أول أولادهم إلى أعمار غير معقولة، فمثلاً نجد: (وَعَاشَ آدم مِئَةً وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ وَلَداً عَلَى شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ وَدَعَا اسْمَهُ شِيثاً)، (وَعَاشَ أَنُوشُ تِسْعِينَ سَنَةً وَوَلَدَ قِينَانَ)، (وَعَاشَ قِينَانُ سَبْعِينَ سَنَةً وَوَلَدَ مَهْلَلْئِيلَ)، (وَعَاشَ مَهْلَلْئِيلُ خَمْساً وَسِتِّينَ سَنَةً وَوَلَدَ يَارِد)، (وَعَاشَ يَارِدُ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ سَنَةً وَوَلَدَ أَخْنُوخَ)، (وَعَاشَ أَخْنُوخُ خَمْساً وَسِتِّينَ سَنَةً وَوَلَدَ مَتُوشَالَحَ)، (وَعَاشَ مَتُوشَالَحُ مِئَةً وَسَبْعاً وَثَمَانِينَ سَنَةً وَوَلَدَ لاَمَكَ)، (وَعَاشَ لاَمَكُ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَوَلَدَ ابْناً. وَدَعَا اسْمَهُ نُوحا)، (وَكَانَ نُوحٌ ابْنَ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ. وَوَلَدَ نُوحٌ: سَاماً وَحَاماً وَيَافَثَ).

---

[26] مع إدراكنا أهمية دلالة تعدد مصدر الروايات في تفسير الاختلافات في الكتاب المقدس، لكننا نحدس بأن محرري السفر الأول من التوراة كانت تحركهم قصدية ما في تنسيق الأحد عشر إصحاحا الأولى وفق ما كان تحت أيديهم من المصادر المتعددة، ولم يكن توزيعا اعتباطيا للروايات كما سنرى!

الحقيقة، إنه لا دليل لمن يريد من الشراح المسيحيين أن يجعل من أسماء هؤلاء الأبكار مجرد أسماء للذرية المختارة فقط، ودون أن يعني ذلك عندهم عدم وجود أبناء سواهم، فهذا استنتاج لا نقول بغياب أي برهان عليه من نصوص الكتاب المقدس، بل إنه ليهدم ما استهدفه الكاتب التوراتي - فيما نعتقد - من إطالة المدة بين آدم ونوح، ولا برهان أوضح على تأخر إنجاب رؤساء الآباء من غياب أي قرينة مهما ضعفت على وجود أي أبناء آخرين لنوح ما عدا بنيه الثلاثة الذين أنجبهم بعد السنة الخمسمائة من عمره المديد، وأيضا ما ينص عليه الكتاب، وعلى نحو لا لبس فيه، من أن أبناء نوح الثلاثة لم يشرعوا في إنجاب أولادهم إلا بعد الطوفان، وكان أصغرهم قد جاوز المئة، وأضف إلى ذلك أن الكاتب كان ينص بوضوح على إنجاب أولاد آخرين بعد الأبكار الذين اعتنى فقط بتسجيل أسمائهم.

الأهم من ذلك، أننا نجد أن متوسط الأعمار ينخفض فجأة بعد الطوفان إلى نصف أعمار ما قبل الطوفان تقريبا، ثم نراه ينخفض تدريجيا عبر السلسلة الأبوية الممتدة من سام إلى إبراهيم حتى يصل إلى مائتي سنة أو إلى ما حولها، وأما سن الإنجاب فنراها تنخفض فجأة بداية من بكر سام - أَرْفَكْشَادَ- الذي ولد بعد الطوفان بعامين ليكون سن الإنجاب في حدود السن الطبيعية أو قريبًا منها: "وَعَاشَ أَرْفَكْشَادُ خَمْسًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ شَالَحَ. - وَعَاشَ شَالَحُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ عَابِرَ.- وَعَاشَ عَابِرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ فَالَجَ. -وَعَاشَ فَالَجُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ رَعُوَ.- وَعَاشَ رَعُو اثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ سَرُوجَ- وَعَاشَ سَرُوجُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ نَاحُورَ. -وَعَاشَ نَاحُورُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَوَلَدَ تَارَحَ- وَعَاشَ تَارَحُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ".

ومن المهم أيضا، أن كاتب هذا السفر لم يسند إليهم دورًا في الأحداث المهمة والمتلاحقة التي حدثت خلال حياتهم المديدة تلك، فقد تجاهل وجودهم بعد ذلك تمامًا وصاروا عنده أحياء كالأموات، أو أمواتًا كالأحياء!

(2)
إسهامات آباء ما قبل الطوفان

(وَعَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً فَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ. وَوُلِدَ لِحَنُوكَ عِيرَادُ. وَعِيرَادُ وَلَدَ مَحُويَائِيلَ. وَمَحُويَائِيلُ وَلَدَ مَتُوشَائِيلَ. وَمَتُوشَائِيلُ وَلَدَ لاَمَكَ. وَاتَّخَذَ لاَمَكُ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ الْوَاحِدَةِ عَادَةُ وَاسْمُ الأُخْرَى صِلَّةُ.

فَوَلَدَتْ عَادَةُ يَابَالَ الَّذِي كَانَ أَباً لِسَاكِنِي الْخِيَامِ وَرُعَاةِ الْمَوَاشِي. وَاسْمُ أَخِيهِ يُوبَالُ الَّذِي كَانَ أَباً لِكُلِّ ضَارِبٍ بِالْعُودِ وَالْمِزْمَارِ. وَصِلَّةُ أيضًا وَلَدَتْ تُوبَالَ قَايِينَ الضَّارِبَ كُلَّ آلَةٍ مِنْ نُحَاسٍ وَحَدِيدٍ. وَأُخْتُ تُوبَالَ قَايِينَ نَعْمَةُ. وَقَالَ لاَمَكُ لِامْرَأَتَيْهِ عَادَةَ وَصِلَّةَ: «اسْمَعَا قَوْلِي يَا امْرَأَتَيْ لاَمَكَ وَأَصْغِيَا لِكَلاَمِي. فَإِنِّي قَتَلْتُ رَجُلاً لِجُرْحِي وَفَتىً لِشَدْخِي. إِنَّهُ يُنْتَقَمُ لِقَايِينَ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ وَأَمَّا لِلاَمَكَ فَسَبْعَةً وَسَبْعِينَ).

يلحظ أن تلك السلالة الأولى من أبناء قايين كانت ذات أيادٍ بيضاء وسوداء أيضًا على الجنس البشري أكثر من السلالة المباركة لأولاد شيث، فلم يمض هؤلاء البشر دون أن يخلفوا وراءهم آثارًا تخلِّد أسماءهم، سواء أكان ذلك بالأعمال الممجدة في تاريخ بنى الإنسان أو المستبشعة المتوحشة؛ فنجد في البدء أن مؤسسها كان أول قاتل متعمد في التاريخ البشري، وكان أيضًا أول رجل يبني مدينة، ولمَّا كان قد بناها وحده؛ إذ لم يكن هناك على وجه الأرض من يساعده على بنائها، فسنجعلها المرة الأخيرة أيضًا، وكان قايين ثالثًا أول من سمى منشأة على اسم ابنه، وهو تقليد مؤسف سيتكرر كثيرا بعد ذلك في التاريخ خاصة في الأنظمة المستبدة!

أما لامك (الأول) فقد دخل التاريخ مرتين؛ كانت الأولى بتعدد الزوجات، والثانية بتعدد القتل، بل الفخر به، ومن نسل لامك ستأتي ثلاثة إنجازات حضارية أخرى: فقد كان ابنه (يابال) أول من سكن نسله الخيام ورعوا الماشية، رغم معرفتنا السابقة أن هابيل الشهيد كان راعيًا، وقدم من قطيعه القربان الأول الذي فجَّر الحسد، وأسال الدماء الأولى على سطح الأرض، وأما شقيقه (يوبال) فقد ظهرت معه أول تجليات الحس الفني والموسيقي في التاريخ[27]، وأخوهما غير الشقيق (توبال) فقد كان أول مستخدم للمعادن، فكان: (أول من صنع سيفًا) في التاريخ، وهكذا دخلت البشرية عصري الحديد والنحاس في لحظة واحدة على يدي (توبال بن لامك)، ولن نعترض على من يريد أن ينسب إليه اكتشاف النار أيضًا؛ فإننا لا نعرف في تلك المرحلة كيف كان الرب يتلقى القرابين!

---

(27) طارت شهرة يوبال الفنية حتي بلغت مسامع المفسرين المسلمين بعد رحيله بألوف السنين؛ حتى إننا نجد صاحب المستطرف ينسب إلى من نظنه (يوبال) ابتكار آلة العود: (ويقال: إن أول من صنع العود لامك بن قايين بن آدم، وبكى به على ولده، ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحون الثمانية، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك،) انظر: "المستطرف في كل فن مستظرف" الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى، 1419 هـ، ص 396.
أما الطبري فيقول: (فإنه ذكر أن الذي اتخذ الملاهي من ولد قايين رجل يقال له توبال، اتخذ في زمان مهلائيل بن قينان آلات اللهو من المزامير والطبول والعيدان والطنابير والمعازف، فانهمك ولد قايين في اللهو)، راجع: "تاريخ الرسل والملوك للطبري"، و"صلة تاريخ الطبري" للقرطبي، دار التراث، بيروت الطبعة الثانية، 1387 هـ، ج1، ص 166.

لما كان كاتب التكوين يظهر عداءً واضحًا لفرع هذه الأسرة، ولم يكن يقصد مديحهم، بل انتقاصهم، بل لولا وجود اسمين مشتركين بين هاتين الأسرتين وهما حنوك (أخنوخ) ولامك، لحقّ لقارئ ذلك السفر أن يتوهم أن الكاتب يتحدث عن سلالتين بشريتين مختلفتين تمامًا؛ لذا فيمكن لمن يشاء أن يشتمّ من خلف تلك الآيات التي خصصها الكاتب لنسل قايين دلالة احتقارية واضحة؛ لأنها لا ترسم لنا صورة لجماعة إنسانية مستقرة، بل تستدعي صورة أقرب ما تكون إلى جماعة من الغجر الجوالين، يستاقون أمامهم بعض الماشية، ويسكنون الخيام ويمتهن رجالهم الحدادة، وتحترف نساؤهم العزف والرقص.

هذا عن إسهامات السلالة الملعونة، أما السلالة المباركة فليس لها سوى إنجاز وحيد؛ إذ جاء من بينها (أخنوخ) أول من صعد حيًّا إلى السماء، فهو على هذا رائد الصاعدين إليها جميعًا؛ إذ لن يلحق به النبي إيليا إلا بعد قرون عدة، وبعد صعود إيليا بقرون أخرى سيُختطف القديس بولس إلى السماء الثالثة، وهي السماء الأخيرة في المعتقد المسيحي، بعدها سيزور النبي محمد السموات العلا، وقد صرن عنده سبعًا بتأثير من المرويات التلمودية المتأخرة، وأما صاحب الكوميديا الإلهية فقد جعلهن بكرم الشعراء تسعًا!

(3)
أسماء السلالتين

إذا نظرنا في أسماء ذرية قايين فسوف نجدها تترجم عن تلك الروح العدائية الواضحة لكاتب السفر تجاه هذا الفرع من أسرة آدم، فمثلا نجد اسم لامك يعني: قويا، مع ظل سياقي واضح يوحي بالتجبر والعدوان، ونجد أن اسم يابال يعني جوالا يجول البادية، ويوبال أى يوقع على آلات الطرب، وتوبال قايين يعنى صانع النحاس، أما اسم عَادَة فيعني زينة وجمالا، وصِلَّة يعني: ظلا في العبرية وظلال الليل في اللغة الأشورية)، واسم نعمة يعني جمالا، ومحويائيل أي هو مضروب من الله! وحتى إذا أفلتت بعض الأسماء وحملت أسماء طيبة لطيفة، فالشراح المسيحيون يكملون على الفور ما بدأه كاتب السفر من انتقاصها والتهجم عليها، فمثلا إذا كان معنى اسم متوشائيل (بطل الله) فإن الشراح يبخسون من دلالتها الظاهرية الطيبة، ويردونها إلى التدين الشكلي الذي لا روح ولا حياة فيه مثل تدين الفريسيين زمن المسيح، ويستخرجون أيضًا من الدلالة اللطيفة لأسماء النساء معنى الانشغال والافتتان بمسرات العالم الدنيوي وشهواته

الباطلة، ونراهم يفعلون عكس ذلك مع السلالة المفضلة؛ حيث يمنحون دلالاتٍ جميلة لبعض الأسماء العاطلة عن الجمال، فإذا كان اسم أنوش مثلا يعني إنسانًا ضعيفًا وهشًّا: (فالله يستخدم الآنية الضعيفة والهشة لمدحه وتسبيحه[28]) وهكذا!

أما أسماء السلالة المختارة فقد جاءت أسماء أصحابها لتترجم عن ولاء الكاتب وإعجابه بأصحابها وانحيازه الواضح إليهم، فهي تحمل أسماء لطيفة وتشي بالوداعة والتقوى، فمثلا تعني أنوش: ضعيفا سهل الكسر، ومهلئيل يعني: بهاء الله، ويارد معناه نزول أي اتضاع، وأخنوخ يعنى تعليما وتهذيبا. ولو جاء اسمٌ من بين تلك الأسماء يحمل معنى القوة والبأس فالشراح المسيحيون يسارعون ويضفون على تلك الأسماء غطاءً روحيًّا خلابًا، فاسم متوشالح وإن كان معناه رجل السلاح يحمل: على شعب الرب أن يجاهد حتى الدم! وإذا كان اسم لامك أبي نوح يعنى القوة مثل سميِّه القيني: ولكنه ليس بذاته مثل لامك قايين ولكنه قويٌ بالله. وسوف يستمر هذا النهج بعد ذلك في أسماء أبناء نوح أي باختيار أسماء محببة واعدة للمختارين، وأخرى بغيضة للمغضوب عليهم، فسنجد اسم سام يعني: الصيت والمجد، واسم حام: أسود لأنه جدُّ الأفارقة، أما يافث فيعني: منتشرا أو متسعا؛ لأنه جد الآسيويين والأوروبيين!، وهكذا نجد على خلاف المعهود بين جميع بني البشر من أن يمنح الأب لابنه اسمًا جميلًا تيمنًا بما يرجوه له من الخير في مُقبل الأيام، ثم تأتي حياة هذا الابن محققة لهذا الرجاء أو مخيبة للآمال والأحلام فيه، لكننا نجد أصحاب هذه الأسماء كما لو كانوا سيترجمون بحياتهم كلها عن هذا الاسم، النبوءة التي لا فكاك لهم منها، فهل تصدق مثلا أيها القارئ العزيز أن يسمى رجلٌ ابنه هذا الاسم (مضروب من الله)؟![29].

لا غرابة مع حضور تلك الأسماء أن نستخلص نصيب هاتين السلالتين من التقوى والإيمان؛ حيث يقول أحد الشارحين عن أسرة قايين: "فلم نسمع مثلا أن هذه العائلة كانت لها مذابح، أو عبادة، أو خرج منها قديسون[30]"، والحقيقة أننا لم نسمع أيضا أنه

[28] راجع كتاب "تفسير سفر التكوين"، الأب أنطونيوس فكرى؛ حيث اعتمدنا على ما أورده من شرح لدلالات الأسماء ص 67 وما بعدها.

[29]انظر أيضًا "دلالات تلك الأسماء في كتاب: كيف كانت البدايات" (تكوين 1-11)، بوب أتلي، مجموعة دليل الدراسات التفسيرية، العهد القديم، الجزء الأول، ص 116 وما بعدها؛ حيث ستجد هناك تفسيرات طريفة لدلالات تلك الأسماء، وإبراز اللعب بالكلمات في اشتقاق تلك الأسماء، وتقرير هذا الشارح بأن ذلك الملمح يجلي الطبيعة الأدبية لتلك الإصحاحات لا أكثر ولا أقل!

[30]"تفسير سفر التكوين"، أنطونيوس فكرى، ص 67.

كان لتلك السلالة المباركة أي مذابح أو عبادة، ولم نعرف أي سبب واضح لمباركة الله لأخنوخ، ولا معنى لنبوته، بل يغلب على ظننا أنه لم يمجد ويمنح كل هذا الفضل إلا لكي يُجلِي بهاؤه الروحي قتامة لامك القيني وانكساف نوره، فكلاهما هو الابن السابع لآدم، لكن الأول جاء من ذرية شيث، والآخر من ذرية قايين؛ لذا فهذا يرفع إلى السماء ويسير مع الله، وذاك يظهر كمجرم عريق في الإجرام؛ حيث نجده يقتل رجلا لأنه جرحه، ويجهز على فتى صغير لمجرد أنه لطمه، ويفخر أمام زوجتيه بتلك المأثرة الجليلة.

نلاحظ أيضًا أن معظم تلك الأسماء العجيبة لرؤساء الآباء لم تعد تستخدم بعد ذلك عبر الكتاب المقدس وتاريخه الطويل؛ حيث لم نجد بين مئات الأسماء التي حملتها الأجيال المتتالية إلا أقل القليل من أسماء رؤساء الآباء قبل الطوفان، تستوي في ذلك أسماء الصالحين منهم والطالحين، ما يوحي بأن أغلب تلك الأسماء لم تكن سوى مجرد أسماء اشتقاقية ملفقة مثل أسماء: شمشون، ومنوح، ودليلة، وغيرها، ولأنه إذا كان قد غاب اسم قايين مثلا فلأنه كان اسم أول سافك لدم الأخوة في تاريخ البشر، فلماذا غاب اسمُ هابيل أيضًا رغم التمجيد اللاحق لهذا الشهيد البار مثل قول بولس الرسول: "بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ للهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ. فَبِهِ شُهِدَ لَهُ أَنَّهُ بَارٌّ، إذ شَهِدَ اللهُ لِقَرَابِينِهِ. وَبِهِ، وَإِنْ مَاتَ، يَتَكَلَّمْ بَعْدُ" (رسالة إلى العبرانيين 11: 4)

قل مثل ذلك عن أخنوخ، هذا الأب الأسطوري الغامض الذي رُفع حيًّا إلى السماء، والذي وصف مثلاً بأنه "لَمْ يُخْلَقْ عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ مِثْلَ أَخْنُوخَ، الَّذِي نُقِلَ عَنِ الأَرْضِ" (سفر يشوع بن سيراخ 49: 16)، ولا ذكر أيضًا لقينان، ولا أنوش، ولاعِيرَاد، ولا مَحُويَائِيل، ولا مَتُوشَائِيل، ولا لامك، ولا حتى آدم، ولا نوح. لم يذكر من بين تلك الأسماء إلا على مَهْلَلْئِيل "بَنِي يَهُوذَا: عَثَايَا بْنُ عُزِّيَّا بْنِ زكَرِيَّا بْنِ أَمَرْيَا بْنِ شَفَطْيَا بْنِ مَهْلَلْئِيلَ مِنْ بَنِي فَارَصَ" (سفر نحميا 11: 4)، أما حنوك فقد حضر مرتين؛ أولاهما "بَنُو رَأُوبَيْنَ بِكْرِ إِسْرَائِيلَ: حَنُوكُ وَفَلُّو وَحَصْرُونُ وَكَرْمِي" (سفر التكوين 46: 9)، والأخرى "وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ. فَكُلُّ هؤُلاَءِ بَنُو قَطُورَةَ" (سفر أخبار الأيام الأول 1: 33).

(4)
الأعمار وطولها

من غير المناسب أن نغادر هذه المرحلة قبل أن نشير إلى تلك المزية الخرافية التي كانت تتمتع بها تلك الأجيال الأسطورية؛ حيث زعم كاتب السفر أنهم كانوا يعمرون طويلا حتى يقارب أحدهم ألف سنة! وأطولهم عمرًا بالطبع هو (متوشالح)، ومعناه "رجل السلاح"، وهو ابن أخنوخ، وقد مات في سنة الطوفان؛ حيث بلغ عمره ٩٦٩ عامًا، وهو أطول عمر ذُكر في الكتاب المقدس[31]، وهو ما سيستولي على حلم الإنسان في العصور اللاحقة جميعًا، وقد حاول اللاهوتيون المحدثون تقديم تفسير ما لهذه الظاهرة العجيبة، وقد جاءت على هذا النحو الظريف اللطيف: "كيف عاش هؤلاء الناس هذا العمر الطويل؟ يعتقد البعض أن الأعمار المدونة هنا كانت أعمار الأسرات وليست أعمار أفراد، وأما الذين يؤمنون بأنها أعمار حقيقية فيقدمون ثلاثة احتمالات رئيسية، هي:

(1) كانت السلالة البشرية ما زالت نقية في ذلك العصر المبكر، فلم يكن هناك الكثير من الأمراض التي تميت الإنسان.

(2) لم يكن قد هطل مطر على الأرض، كما أن بخار الماء من فوق حجز الأشعة الكونية الضارة فقلت عوامل البيئة الضارة بالإنسان.

(3) أعطى الله الناس أعمارًا طويلة؛ لتكون أمامهم فرصة ليملأوا الأرض وليكثر شعب الله[32]".

إذا تجاهلنا هذا الهراء البائس، ونظرنا إلى دلالة تلك الأعمار الطويلة، وغرض الكاتب منها فسنجد بوضوح أنها كانت عند كاتب النص هبة إلهية عامة يتمتع بها الصالح والطالح، بل نجد أن أكثر الصالحين في تلك الفترة وهو أخنوخ كان أقصرهم عيشًا على الأرض؛ لأنه رُفع إلى السماء، ويمكننا استنتاج أن هذا الرفع كانت له علاقة واضحة بالنجاة من الموت المحتم لكل الأحياء، دونما تفرقة بين إنسان وحيوان، ودونما عودة إلى الحياة والبعث أبدًا، فليس من حديث في تلك المرحلة حتى عن (الهاوية) أو (الانضمام إلى قومه)، وأما من يرضى عنه الرب فقد كان يرفعه بجسده حيًّا إلى السماء التي لا يذوق سكانها الموت، ويعيشون إلى أبد الأبيد، ثم جاء إنقاص تلك الأعمار بُعيد

[31]لم يمت متوشالح، أعظم المعمرين في التاريخ البشري كله، إلا قبل أسبوع واحد من الطوفان. راجع: "التلمود البابلي"، مجموعة من المترجمين، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، الأردن، 2011م، ج20، ص 113.

[32]"التفسير التطبيقي"، ص 22.

الطوفان إلى مئة وعشرين سنة كعقوبة إلهية للإنسان الذي لم يظهر استحقاقه لتلك النعمة، فكان أن سلبه الرب تلك المزية وألحقه ببقية المخلوقات الحية قصيرة العمر، رغم ما سنجده من أن كثيرين قد تخطوا كثيرًا تلك المدة التي قررها الرب لعموم البشر.

أحرجت تلك الأعمار بطولها المفرط بعض الشراح المحدثين، لكنهم في النهاية كانوا مؤمنين صالحين، فلم يجدوا مناصًا من قبولها، وحاولوا تقديم تفسير لها كما يقول هذا الشارح: "لذا، فكل ما نستطيع أن نقوله هو مدة العمر حقيقية حرفيًّا، وما يستحق الذكر أن معدل النمو المعروف لنا ليس هو المعدل الوحيد المفهوم، كذلك يوجد تاريخ قديم عن أناس طوال الأعمار في أجناس مختلفة، ما يجعلنا نقول بأنها جاءت من سجلات موثوق بها[33]".

لكن هل تدري أيها القارئ الكريم ما تلك السجلات الموثوق بها؟! إنه يشير في هامش الصفحة ذاتها، وفي حياء مؤثر حقًا، "إلى قائمة أسماء الملوك السومرية من ثمانية أو عشرة ملوك حكموا متوسط ثلاثين ألف سنة، ويوجد بعض الحق في هذه الأرقام الكبيرة، كما يوجد حق واضح في الأسماء الفعلية [34]"، أما عن قائمة الملوك السومرية وكيف "يلاحظ أن العنصر الخيالي (الفنتازي) في النصوص القديمة يزداد كلما توغلنا في أعماق التاريخ، وتحتل قائمة الملوك أهمية استثنائية في هذا المجال. إن قائمة الملوك السومرية تدهش القارئ بطول فترة حكم ملك من الملوك الذين حكموا قبل الطوفان، فهناك (ألوميم) الذي حكم مدة (28800) سنة، وامتد حكم (ألالجار) (36000) سنة، وحكم البلاد ملكان آخران مدة (64800) سنة.. إلخ[35].

الأهم من هذا التشابه في الطول، أن هناك ملمحًا آخر ربما لا يقل أهمية؛ وهو أنه بعد الطوفان نجد وقد تقلصت فترة حكم الملوك بدرجة ملحوظة، والحقيقة أننا نوافق تماما على تماثل رغبة الكاتبين التوراتي والسومري في مد تلك الأعمار وإطالتها، ولكن هذا يشير فحسب إلى خرافيتهما معا، لا أن تلك الأعمار الأسطورية للملوك السومريين الخرافيين تصلح لأن تنجد الرواية العبرانية وتفسرها، اللهم إلا على الأغراض

---

(33)"التفسير الحديث للكتاب المقدس"، سفر التكوين، ديريك كدنر، ترجمة القس: بخيت متى، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ص87.

(34)المرجع السابق.

(35)"الحياة الروحية في بابل.. الإنسان.. المصير.. الزمن.." كلشكوف، ترجمة : عدنان عاكف حمودي، الطبعة الأولى - 1995م - دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ص 25 .

الأسطورية ذاتها، ودون أن تكون هناك أي فرصة لاعتبار أيٍّ من هاتين الأسطورتين تقدمان حقيقة تاريخية لأناس عاشوا حقًّا كل تلك الأعوام الهائلة على سطح كوكبنا!

(5)
أسلاف البشر بعد الطوفان

"يعد الإصحاح العاشر من سفر التكوين الذي يتضمن مواليد بني نوح: سام وحام ويافث، وثيقةً تاريخية لها قيمتها التي لا تجارى كنواة لعلم أجناس الشعوب، ولاشك أن كاتب السفر الملهم من الروح القدس لم يكن يقصد من وراء كتابته لهذه القائمة من الأنساب أن يضع الأساس لعلم أجناس الشعوب الذي يهم كلًّا من علماء التاريخ والجغرافيا والسياسة، ولكنه كان ينفذ قصد الله الأزلي في تتبع نسل المرأة وتحقيق نبوءات الكتاب عن المخلص الآتي الذي به يخلص جميع شعوب الأرض [36]".

من يقرأ هذا اللغو، مع توقيرنا الكامل والصادق لصاحبه، فلن يظن أبدًا أن كاتبه رجل يعيش في عصرنا، بل يظنه اقتباسًا ننقله عن رجل عاش ومات منذ ثلاثة آلاف سنة على الأقل!، لكن كاتب تلك الأسطر السابقة مازال يعيش إلى يوم الناس هذا، ولذلك فإذا أمكن التسامح مع ما قصَّه الكتاب المقدس عن رؤساء الآباء الملفقين الذين أغرقهم الطوفان، فلا يمكن الإغضاء عن سخف الرواية التوراتية في هذا الموضع عن أسلاف الجماعة البشرية الحالية التي يزعم الكتاب المقدس أنهم جاءوا جميعًا من أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث، ولكن وكما ترى فقد أخذ اللاهوتيون المساكين ترهات كاتب التوراة على محمل الجد، فنراهم يسدون آذانهم ويغمضون أعينهم عن الحقائق التاريخية البدهية التي أصبحت من بين المعارف الأولية التي يحصِّلها أطفال العالم في المرحلة الإلزامية من تعليمهم، بل يستطيع أحدهم مثلا أن يخط لقارئيه أمثال هذه الكلمات الغريبة التي تثير الذهول؛ لتناقضها الصارخ مع المعارف التاريخية: "وعموما يمكن تقسيم الأرض هكذا بين الإخوة الثلاثة، فنسل سام سكن آسيا، ونسل حام إفريقيا، ونسل يافث أوروبا، وواضح أن هذا التوزع على أرجاء الأرض حدث بعد بلبلة الألسنة، وذلك بتدبير من الله بعد بناء برج بابل[37]".

---

[36]انظر: "شرح سفر التكوين.. سفر البدايات" إعداد الراهب القس يوحنا المقاري، الطبعة الثانية 2014م، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ص 180.

[37]المرجع السابق ص 181.

فهل من المعقول أن يصدق أحدٌ اليوم بأن قارات العالم القديم: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، كانت بلاقع موحشة تصفر فيها الرياح قبل مولد إبراهيم بثلاثة قرون، ولم يمش عليها بشرٌ قبل هذا التاريخ حتى جاءت ذرية أولاد نوح الثلاثة وملأوا سهلها وجبلها بالبشر؟! وماذا عن سكان أستراليا؟! وماذا عن سكان الأمريكتين الذين عبروا إلى العالم الجديد قبل زمن خلق آدم وفق التوراة؟!

على هذا السؤال الأخير مثلا تأتي إجابتان: أولاهما من الشراح المسيحيين المحدثين؛ حيث يورد جدول التفسير التطبيقي للكتاب المقدس أن زمن مغادرة العالم القديم لتلك السلالة المزعجة والمربكة للتاريخ المقدس، التي لم يكن كاتب التوراة بل جميع البشر في تلك الفترة يعرفون عنها شيئا، قد جاء في سنة 2000 قبل الميلاد!! نعم هكذا ببساطة وبخفة لا تليق بمفسر يحترم عقول قارئيه، ويعطي أقل اعتبار للحقائق التاريخية(38) فيما تأتي إجابة العلم على هذا النحو: "لماذا تأخر ظهور الحضارة كثيرًا في العالم الجديد عنه في العالم القديم؟ الواضح أن هذا يرجع إلى أن الإنسان قد تأخر في الوصول إلى هناك، وقد وصلها قبل ابتكار القوارب، وهذا يعني أنه وصل جاف القدمين عبر مضايق بيرنج عندما شكلت قنطرة أرضية عريضة خلال العصر الجليدي الأخير، وتشير شواهد العصر الجليدي إلى زمنين محتملين لتحرك الإنسان من قنن جبال العالم القديم وراء سيبيريا إلى الصحراوات الصخرية بقرب ألاسكا بالعالم الجديد، تقع الفترة الأولى بين 28000 و23000 سنة ق- م، وأما الأخرى فتقع بين 14000و1000 سنة ق.م، وبعد الفيضان الذي حدث عن ذوبان الجليد في نهاية العصر الجليدي الأخير ارتفع مستوى الماء في البحر ثانية بضع مئات من الأقدام، فأغلق الباب بالمفتاح على من نزح إلى العالم الجديد، وهذا يعني أن الإنسان قد وصل من آسيا إلى أمريكا منذ فترة لا تقل عن عشرة آلاف عام، ولا تزيد على ثلاثين ألف سنة (39)).

(6)

(38) راجع جدول الأحداث "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، ص 7، التعريب والجمع التصويري والمونتاج والأعمال الفنية شركة ماسترميديا- القاهرة؛ حيث ستجد هناك تقريرات جزافية لا برهان عليها ولا دليل، ويكفي أن تعلم أنه يضع استئناس المصريين للخيل عام 2300 ق. م ؟!!

(39)"التطور الحضاري للإنسان"، جاكوب برونوفسكى، ترجمة: د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987- ص53-54. ولمزيد من التفاصيل عن وصول أوائل البشر إلى أمريكا انظر كتاب "موسوعة تاريخ العالم" ج1، إصدار وليام لانجر، مكتبة النهضة المصرية، ص 40 - 43.

أسماء الأمم والشعوب

(يُعد سفر التكوين من أقدم كتب العالم، وقد كتبه موسى بشيء من البساطة والعمق في الوقت ذاته وفي إطار قصصي، بحيث يمكن للعالم الكبير والطفل البسيط أن يفهمه، وهو الكتاب الوحيد الذي يتضمن الوصف الصادق والكامل للخليقة ولا سيما أصل الجنس البشري[40]).

إذا كانت أسماء رؤساء الآباء رغم خرافيتها وتلفيقها ظريفة مسلية، ويمكن لمطالعها التفكه بقراءتها كخرافة غير مؤذية، فقد جاءت أسماء الأمم والشعوب في هذا السفر على خليط من التلفيق والاضطراب، لا يثير إلا الدهشة والسخرية، بل الغضب أيضا، فلا يكاد يعرف قارئ هذا السفر أكانت هذه الأسماء العجيبة والغريبة أسماء لأشخاص أم لقبائل أم لأماكن؟ ولا نعرف ما كان موجودا منها في عهد التدوين المتأخر للكتاب المقدس أو كانت من بينها أسماء لأجناس وشعوب أخرى عرفها الكاتب سماعا، ولم يعد لها من وجود في أيامه؟!

لكن الشيء المحقق أنها أصبحت من بين المهام الأساسية للمؤمنين بتاريخية هذا اللغو المقدس؛ لذا فليس أمامهم من سبيل سوى أن يرجعوا بأجناس شعوب الأرض جميعًا إلى تلك الأسماء الاعتباطية، يستوي في ذلك ما عرفوا منها وما لم يعرفوا، وما جاء ذكره في كتب الجغرافيين وكتاب التاريخ، وما لم يُذكر عنه شيءٌ قط، بل ما لم يوجد منها إلا على صفحات (الإصحاح العاشر) من سفر التكوين، فلم يرجع الكاتب لذكر أسماء كثير من تلك الشعوب الملفقة بعدها قط، لذا سنضطر إلى إيراد هذا الإصحاح كاملا لمن يريد أن يتأمله مليًّا، ويحاول أن يتعرف منها إلى ما يستطيع التعرف إليه، مستعينًا بكل الشروح الممكنة للعهد القديم، وبجميع ما يمكن أن تصل إليه يده من كتب التاريخ الحضاري العام.

يلاحظ في البداية أن الكاتب قد بدأ بنسل يافث الابن الأصغر لنوح؛ لا لشيء سوى قلة أهميته؛ حيث لم يتداخل تاريخ نسل يافث مع تاريخ الشعب المختار، وأما حام فقد أفاض فيه بسببٍ من العلاقة الوثيقة لنسله اللعين من المصريين والكنعانيين والأموريين وغيرهم مع تاريخ العبرانيين، ثم أفاض في نسل سام على تفصيل أوسع من سابقيه مع

---

[40]راجع : "أصعب الآيات في سفرالتكوين" القس عزت شاكر، الكنيسة الإنجيلية بمدينة نصر، 2014م ص 28.

التركيز على أسرة واحدة وهي أسرة أرفكشاد ابن سام؛ إذ من نسله المبارك سيأتي إبراهيم، فلنبدأ ببني يافث:

"وَهَذِهِ مَوَالِيدُ بَنِي نُوحٍ: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ. وَوُلِدَ لَهُمْ بَنُونَ بَعْدَ الطُّوفَانِ. بَنُو يَافَثَ: جُومَرُ وَمَاجُوجُ وَمَادَاي وَيَاوَانُ وَتُوبَالُ وَمَاشِكُ وَتِيرَاسُ. وَبَنُو جُومَرَ: أَشْكَنَازُ وَرِيفَاثُ وَتُوجَرْمَةُ. وَبَنُو يَاوَانَ: أَلِيشَةُ وَتَرْشِيشُ وَكِتِّيمُ وَدُودَانِيمُ. مِنْ هؤُلاَءِ تَفَرَّقَتْ جَزَائِرُ الأُمَمِ بِأَرَاضِيهِمْ كُلُّ إِنْسَانٍ كَلِسَانِهِ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ بِأُمَمِهِمْ".

فنجد من أبناء يافث جومر، فمن هو جومر؟! (هو الذي جاء ذكره في سفر حزقيال قائلا "وجومر .... من أقصى الشمال" (حزقيال 38-6)، وهناك أيضا ماجوج و"يرجح العلماء أنهم السكيثيون وهم القبائل التي نزحت من أواسط آسيا الصغرى إلى جنوب روسيا شمال بحر قزوين[41]"، وهناك أيضا ماداي! ألا تعرف من هو ماداي؟! "يرجح أنه أبو الشعوب التي سكنت المناطق الواقعة غرب شمال إيران والمعروفة حاليا باسم أذربيجان وكردستان جنوب غرب بحر قزوين [42]"، وهناك توبال وماشك "ويذكران دائما في الكتاب المقدس مع ماجوج، ويعتقد أنهما أصل الشعوب القاطنة في شمال أرمينيا عند منابع نهري دجلة والفرات[43]"، وأما تيراس وهو أبو التراكيين: "ويرجح أن يكونوا أصل شعوب البلقان"، وأما ياوان فهو أبو اليونانيين!!

هكذا، قل في جميع أولاد يافث فلن تجد سوى هذه الظنون التي لا تغني من الحق شيئا، التي لا تعتمد في أحيان كثيرة إلا على تشابه بعض أسماء تلك الأمم والشعوب مع أسماء مؤسسها المزعوم من أبناء يافث، وسوف يخلد ذكر (ماجوج) ابن يافث الثاني هذا في الأخرويات اليهودية، والمسيحية، والإسلامية؛ حيث شاءت الأقدار أن ينسب إليه دون سواه اسم هذا الشعب الغامض الذي سيصير مضرب الأمثال في ضراوة الحروب والبراعة في الفروسية واستعمال القسي، وسيضاف إليه (جوج) الذي كان رئيسًا على ماشك وتوبال كما في (حز 38: 2).، وستوكل إليه مهمة أن يغزو أرض إسرائيل في آخر الأيام، وسيقتل على الجبال في مذبحة هائلة (حز 38 و39) إلى آخر

(41)"شرح سفر التكوين" - الراهب القس يوحنا المقاري ص 182.

(42)المرجع السابق.

(43)المرجع نفسه 183.

تلك النبوءات الخرافية الحمقاء التي ما زالت، وياللعار، مصدقة عند ملايين البشر، إلى يوم الناس هذا!! [44]

بنو حام

"وَبَنُو حَامٍ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ. وَبَنُو كُوشَ: سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعْمَةَ: شَبَا وَدَدَانُ. وَكُوشُ وَلَدَ نِمْرُودَ الَّذِي ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ يُقَالُ: (كَنِمْرُودَ جَبَّارُ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ). وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرَكَ وَأَكَّدَ وَكَلْنَةَ فِي أَرْضِ شِنْعَارَ. مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ خَرَجَ أَشُّورُ وَبَنَى نِينَوَى وَرَحُوبُوتَ عَيْرَ وَكَالَحَ وَرَسَنَ بَيْنَ نِينَوَى وَكَالَحَ. (هِيَ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ). وَمِصْرَايِمُ وَلَدَ: لُودِيمَ وَعَنَامِيمَ وَلَهَابِيمَ وَنَفْتُوحِيمَ وَفَتْرُوسِيمَ وَكَسْلُوحِيمَ. (الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِشْتِيمُ وَكَفْتُورِيمُ). وَكَنْعَانُ وَلَدَ: صَيْدُونَ بِكْرَهُ وَحِثَّ وَالْيَبُوسِيَّ وَالأَمُورِيَّ وَالْجِرْجَاشِيَّ وَالْحِوِّيَّ وَالْعَرْقِيَّ وَالسِّينِيَّ وَالأَرْوَادِيَّ وَالصَّمَارِيَّ وَالْحَمَاتِيَّ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْكَنْعَانِيِّ. وَكَانَتْ تُخُومُ الْكَنْعَانِيِّ مِنْ صَيْدُونَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى غَزَّةَ وَحِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَآدمةَ وَصَبُويِيمَ إِلَى لاَشَعَ. هَؤُلاَءِ بَنُو حَامٍ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَأَلْسِنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ وَأُمَمِهِمْ".

أما عن أبناء حام فهم كما ترى كوش وهو أبو الإثيوبيين أو الأحباش، وهناك مصرايم وهو أبو المصريين!! الذين سكنوا مصر، وأما فوط فهو أبو الليبيين! الذين سكنوا شمال إفريقيا، أما كنعان فكان غزير النسل فبكره "صيدون[45]"، ومن أبنائه الحثيون! واليبوسيون والأموريون والجرشاشيون والحويون والعرقيون والسينيون والأرواديون والصماريون والحماتيون!! وهكذا دواليك في تخليط مريع بين أمم وشعوب يستحيل أن تنتمي جميعها إلى أصل واحد كما سنرى !

أبناء سام

---

(44) المرجع السابق.

(45) وصيدون، كما يعلم الجميع، اسم لمدينة وليست اسمًا لرجل، وهل يستطيع أحد أن يصدق اليوم بأن المصريين والأحباش والكنعانيين والليبيين من أصل واحد؟!!

"وَسَامٌ أَبُو كُلِّ بَنِي عَابِرَ أَخُو يَافَثَ الْكَبِيرُ وُلِدَ لَهُ أيضًا بَنُونَ. بَنُو سَامَ: عِيلاَمُ وَأَشُّورُ وَأَرْفَكْشَادُ وَلُودُ وَأَرَامُ. وَبَنُو أَرَامَ: عُوصُ وَحُولُ وَجَاثَرُ وَمَاشُ. وَأَرْفَكْشَادُ وَلَدَ شَالَحَ وَشَالَحُ وَلَدَ عَابِرَ. وَلِعَابِرَ وُلِدَ ابْنَانِ: اسْمُ الْوَاحِدِ فَالَجُ لأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ. وَيَقْطَانُ وَلَدَ أَلْمُودَادَ وَشَالَفَ وَحَضَرْمَوْتَ وَيَارَحَ وَهَدُورَامَ وَأُوزَالَ وَدِقْلَةَ وَعُوبَالَ وَأَبِيمَايِلَ وَشَبَا وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو يَقْطَانَ. وَكَانَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ مِيشَا حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَفَارَ جَبَلِ الْمَشْرِقِ. هؤُلاَءِ بَنُو سَامَ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَأَلْسِنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ. هؤُلاَءِ قَبَائِلُ بَنِي نُوحٍ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ بِأُمَمِهِمْ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَفَرَّقَتِ الأُمَمُ فِي الأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ".

أخيرًا، يأتي سام وهو بيت القصيد، فعلى الرغم من كونه ابن نوح الأكبر فقد ذُكر أخيرًا؛ لأن الكتاب كله مختص بذكر الخلاص الذي كان بنو سام أداته، فهو أبو كل بني عابر، الجيل الثالث بعد سام؛ إذ يسبقه شالح، وأرفكشاد، ومن نسل سام جاء إبراهيم، ومن بنيه جاء شعب الرب، موضع نظر الله في التجربة البشرية كلها!

وأما عن نسل سام هذا فنجد "عيلام!! وهو أبو الشعوب التي سكنت في الأراضي الممتدة من الخليج الفارسي حتى البحر الأحمر وهم الذين عرفوا لاحقًا بالفرس[46]".

وهناك أيضًا آشور وهو أبو الآشوريين الذين سكنوا أولا فيما بين النهرين ثم ارتحلوا إلى شمال سوريا، وهناك لود وهو إن كنت لا تعلم أبو الشعوب التي سكنت آسيا الصغرى! وهناك آرام، وأرض آرام معناها الأرض العالية وميزوبوتاميا، وهي آرام بين النهرين (العراق)، وسوريا وهي آرام دمشق، وقل مثل ذلك في بقية تلك الأسماء العجيبة!!

لكن هذه التقسيمات للشعوب والقبائل وإن بدت لقارئها للوهلة الأولى اعتباطية مرتجلة بسبب تناقضها الواضح وترددها بين القرابات الدموية واللغوية للأمم والشعوب، فهي في الحقيقة على خلاف ذلك تقسيمات متعمدة ومقصودة؛ لأن الباحثين المحدثين قد عثروا على ما يفسرها من استقراء منطلقات الكاتب المباشرة عن التحالفات السياسية في عصره، التي قاربت بينه وبين الأبعدين، وباعدت بينه وبين أقرب الأقربين، ما يجعل القول بتأخر كتابة هذا الجدول إلى أواسط القرن السابع على أقل تقدير أمرا بدهيا، أو كما يعبر عن ذلك عالم اللغة المرموق هذا: "قسم الجدول المعروف بجدول الشعوب في

[46] المرجع السابق ص 184.

الإصحاح العاشر من سفر التكوين الشعوب والقبائل الموجودة في صدر آسيا إلى ثلاث مجموعات كبرى وأرجعها إلى أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث. وقد كان ذلك هو التقسيم الوحيد المعروف حينذاك للتعبير عن العلاقات السياسية وطبائع الشعوب، ويدل بوضوح على أن العلاقات السياسية والثقافية لدى مؤلف هذا الجدول كانت على الأقل في أهمية طبائع الشعوب أو بتعبير آخر أنه كان لا يجد بينهما فرقا على الإطلاق، يدل على كل هذا أنه كان يعد من أبناء سام عيلام ولود أو العيلاميين واللوديين اللذين كانا من رعايا الدولة الآشورية على الرغم أنه لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية، كما أنه ليست بينهما وبين الآشوريين قرابة من ناحية أخرى، هذا إلى أنه يعد من أبناء حام، على العكس من ذلك الفينيقيون الذين هم أقرب الشعوب إلى الشعب العبري الذي يعد فرعًا منهم، وذلك بسبب صلاتهم السياسية والثقافية بمصر[47]".

إذن: "هذه القرابة الواردة في التوراة وذلك التقسيم المذكور فيها للبشر لا يستندان إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة، بل بنيت تلك القرابة ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب العالم في ذلك الزمان عن النسب والأنساب وتوزيع البشر، فحشرت التوراة في السامية شعوبًا لايمكن عدُّها من الشعوب السامية مثل (العيلاميين) (واللوديين)، وأقصت منها جماعة من الواجب عدها من الساميين مثل (الفينيقيين) و(الكنعانيين)... وقد أرجع الأصحاح العاشر من التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى حام جد الكوشيين ذوي البشرة السوداء مع أنهم لم يكونوا من الحاميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في إفريقيا، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[48]).

إذا أردنا مثالا واحدا من بين عشرات الأخطاء الصارخة التي يحفل بها هذا الإصحاح لكان في جعل الكاتب الحثيين من بين الشعوب الحامية مثالا كافيا لبيان ذلك؛ فلم يكتف كاتب هذا السفر فقط بأن جعل كنعان وأولاده من الحاميين، ولكنه جعل شعبًا غريبًا على تلك المنطقة كلها من بين أبناء كنعان وهم الحثيون! والحقيقة الواضحة أن الحثيين لا ينتمون إلى الكنعانيين في شيء، لا من حيث المكان ولا الزمان ولا حتى اللغة، فعن موطنهم نقرأ: "يجب علينا الآن أن نعالج الحقيقة المتناقضة الآتية: فبينما

---

[47]"فقه اللغات السامية"، كارل بروكلمان، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، 1977م، جامعة الرياض، ص11.

[48]"المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، جواد علي، ج1، ص223.

يظهر الحثيون في العهد القديم قبيلة فلسطينية، تتجه بنا معلوماتنا المتزايدة عن تاريخ أهل حاتي القدماء بعيدًا عن فلسطين لنجد موطنهم الأصلي في قلب الأناضول[49]"، وعن تاريخ وجودهم: "وعلى ذلك، فإن وجود الحثيين في فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي يثير مشكلة عجيبة وتجمع معلوماتنا المتزايدة عن أهل حاتي لم توضحها وإنما جعلتها أكثر تعقيدًا. حقيقة أن النقاد نسبوا قصص شراء إبراهيم لغار المكفيلة (تك 23) وزوجات عيسو الحثيات إلى الكاتب الكهنوتي في العهد التالي للنفي فهي من أجل ذلك ليست بالدليل التاريخي القيمةَ الكبرى، ولا يظن كذلك أن تاريخ تأليف القوائم المختلفة للقبائل الكنعانية أكثر قدمًا [50]"، أما عن لغتهم فهناك إجماع بين علماء اللغة أنها لا تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية أصلا: "وقد تم الاتفاق الآن بصفة عامة على أن اللغة الحثية تمثل فرعًا مستقلا من عائلة اللغات الهندية - أوروبية إلى جانب الفروع العشرة الأخرى المعترف بها [51]".

لا يخفى على القارئ الكريم أن السامية ليست إلا مصطلحا لغويا حديثا نسبيا يشير إلى مجموعة متنوعة من اللغات التي يُظن أنها انبثقت من أصل مشترك قديم، ودون أن يعني ذلك أن جميع المتكلمين بتلك اللغات تجمعهم قرابة جنسية أو دموية، ولدينا مثال عن شعب عريق من شعوب تلك المنطقة لكن أصله ما زال يمثل مشكلة للمؤرخين: "وعلى هذا النحو تقريبا، فكَّر العلماء بالنسبة إلى الفينيقيين واعتبروهم ساميين لا لشيء إلا لأن لغتهم سامية دون أن يضعوا في اعتبارهم وجود عناصر جنسية مختلفة مختلطة لهم[52]"، وقل مثل ذلك عن اللغة الحبشية فهي تنتمي إلى اللغات السامية دون أن يعني ذلك أن الأحباش تجمعهم أي قرابة دموية مع العرب أو البابليين أو العبرانيين. لذا، فعلينا ألا نتوقف عند تلك المزاعم التي ترد أجناسا وشعوبا بكاملها إلى رجل أو إلى عدة رجال، فقد كف العلماء منذ زمن بعيد عن الاعتقاد في هذا الوهم الذي ساد في تلك الأزمنة، وصار من المحقق أن "بدء التاريخ مهما بدا بعيدًا لنا فليس بشيء في تطور الإنسانية،

---

[49]"الحثيون" أ.د. جرني، ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997م، ص 83.

[50]المرجع السابق ص 84.

[51]السابق ص 150.

[52]انظر: ص 437 من كتاب "الحضارة الفينيقية" ج- كونتنو، ترجمة: د محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب-1997م.

فإذا وصلنا إلى الألف الثالثة أو الرابعة على الأكثر وهو أقصى عصر تبلغه تنقيباتنا فإننا نلاحظ أن المزج بين الأجناس كان قد وقع وتم [53]".

كل هذا بطبيعة الحال على افتراض وجود إنسان واحد عاقل لا يكفيه أن يقرأ أمثال هذه الجمل التالية، التي كانت كافية عند عشرات الباحثين الأذكياء عبر القرون لينفضوا أيديهم من هذا التوهم الساذج من أن موسى هو الذي خط بيديه المباركتين هذه الأسفار المنسوبة إليه رغم ما تحويه من تعبيرات ومضامين لا يعقل أبدًا أن تكون من أقوال موسى، ومن ذلك مثلا: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إلى هذَا الْيَوْمِ" (تثنية 33- 5-6)، وكذلك:"وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ" (تثنية 33- : 10)، وهي عبارة لا يتصور أن تصدر إلا بعد موت موسى بمدة طويلة، وربما توحي أيضا بحضور أنبياء في زمن كاتبها أو سابقين عليه، ولم تكن تتساوى قاماتهم الروحية في نظر كاتبها مع موسى وعظمته ؟!! وأيضًا: "وَهؤُلاَءِ هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ، قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ" (تك 36-31)، ومن المنطقي أن يخطر في ذهن القارئ بأن كاتب هذا النص قد كان في عصر شاول على الأقل، أو ربما بعده بمدة طويلة للغاية!

على كل حال، فليس من إشارة واحدة تنص على أن موسى قد كتب هذه الكتب التي تنسب إليه، ولكنه التقليد الذي يتأسس بصفة عامة على استنتاجات غير ملزمة: "لذلك، فالدليل الكتابي من داخل السفر ومن خارجه يترك السؤال معلقا بالنسبة لتضمين سفر التكوين بين كتابات موسى: أيعني هذا ببساطة أنه أساس للأسفار الخمسة، أو أن موسى نفسه كتبه؟ وهل يمكن أن نزيد في هذه النقطة أن السفر يظهر اتساع مدارك واطلاع، كما أن العمل الفني والبصيرة السيكولوجية والروحية تجعل السفر متميزًا في العهد القديم وذلك بإجماع الكل. فإذا لم يكن موسى هو المهندس فلابد من وجود رجل آخر مشابه له نفس الإمكانيات[54]".

---

[53] المرجع السابق، ص 245.

[54] انظر: "التفسير الحديث للكتاب المقدس"، سفر التكوين، ديريك كدنر، ترجمة: القس بخيت متى، دار الثقافة، الطبعة الأولى - ص 15.

أضف إلى ذلك وجود مئات التناقضات النصية التي لا سبيل لرفعها، ووجود قصتين مختلفتين أو أكثر للحدث ذات، مثل وجود قصتين لخلق العالم، وقصتين عن العهد بين الرب وإبراهيم، وقصتين للطوفان، وقصتين عن إنكار إبراهيم لسارة وادعائهما بأنهما أخوان، بل تكرارها مع إسحاق.. إلخ؛ لذا فقد أصبح من المقرر الذي لا خلاف عليه هو وجود مصادر متعددة للنص التوراتي الحالي، وهو المصدر اليهوي، والألوهيمي، والكهنوتي، والتثنوي، وأن المحرر الأخير قد أدمج تلك الروايات معًا، ولمن يشاء أن يحيط بقاعدة هذا السؤال الشاسع عمن حرر التوراة، وما الذي دعاه إلى هذا الدمج الغريب لروايات متعددة في نص واحد واسع فليرجع إلى أمثال تلك الكتب[55]. ويمكننا أن نضيف من جانبنا أيضًا إلى الأسباب الكثيرة التي تجعل من المستحيل نسبة هذا السفر إلى موسى سواء ما كان منها تاريخيا أو أسلوبيا سببا جديدا، وهو برهان سيكولوجي هذه المرة، فقد جاء في هذا الإصحاح من روح الفكاهة ما يجعل نسبته إلى روح بالغة الجدية والصرامة مثل النبي موسى أمرًا بالغ الصعوبة؛ فهل يعقل مثلا أن يقول موسى: "إن مصرايم الذي هو أبو المصريين قد ولد: لُودِيمَ وَعَنَامِيمَ وَلَهَابِيمَ وَنَفْتُوحِيمَ وَفَتْرُوسِيمَ وَكَسْلُوحِيمَ الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِشْتِيمُ وَكَفْتُورِيمُ[56]"؟!

[55]"من كتب التوراة؟"، ريتشارد إليوت فريدمان، ترجمة: عمرو زكريا، دار البيان، الطبعة الأولى 2003م.

[56]عن كفتوريم هذا يقول أحد الشراح: "كفتوريم: خرج غالبا من كسلوحيم أيضا وسكنوا في كفتور، وكانت توجد في دلتا مصر مدينة تسمى كابتهور يغلب أنها كفتور هذه. وغالبا قد هاجر هؤلاء إلى جزيرة كريت، وسميت باسمهم ثم هاجر بعضهم بعد ذلك إلى فلسطين. وبذلك اجتمع في فلسطين المهاجرون من نسل كسلوحيم وفلشتيم وكفتوريم (هما المكونان للشعب الفلسطيني) انظر "شرح سفر التكوين"، الأب أنطونيوس فكري، ص 212.

ثانيا: تعقيب على تاريخ البشر في الكتب الدينية.

"وأعتقد أنى قد بينت بذلك بما فيه الكفاية نوع الناس الذين يكون الإيمان بقصص الكتب المقدسة ضروريا لهم وما أسباب ذلك؛ إذ يتضح تماما مما بينته الآن أن معرفة هذه القصص والإيمان بحقيقتها ضروري إلى أقصى حد للعامة الذين لا تقوى أذهانهم على إدراك الأشياء بوضوح وتميز [57]".

لا يحتاج من يريد أن يستخلص المفاهيم الأساسية في نص من النصوص الدينية أن يكون اختصاصيًّا متعمقًا قضى عمره عاكفًا على دراستها والتبحر فيها، بل ربما كانت تلك النظرة المتعمقة تضبب وتحجب الرؤية أكثر من أن تكشف الحقيقة وتجليها، وذلك بسبب من قدرة الاختصاصيين - المنتمين إلى رؤية دينية بعينها- على حشو الكلمات القديمة بدلالات ومعان محدثة ما كان لها أن تخطر في عقل كاتب النص، ولا كانت لتتناسب مع زمن ثقافته.

الأهم من ذلك كله أنّ تلك الكتب المقدسة كانت ولا تزال تتوجه إلى عموم المؤمنين لكي تقدم لهم مفاهيم واضحة عن أسئلتهم الأساسية، لذا فلا يعقل أن تكون قراءتها واستخراج رؤيتها لغزًا من ألغاز وأحجية من الأحاجي! ولهذا، فمن يصدر عن القراءة المباشرة لتلك النصوص فلن يصعب عليه أن يعرف - مثلاً - أنّ الله قد فرغ من خلق الكون والإنسان في ستة أيام في التوراة، ومثلها في القرآن، وأمضى يومه السابع في راحة تامة يتأمل ما صنع بإعجاب واستحسان تامين [58]، ولا جدوى، بل لا ضرورة لمن يريد من المؤمنين المحدثين في الأديان الثلاثة أن يمد مثلا من دلالة كلمة (يوم) ويوسعها إلى مئات الملايين من السنين؛ فلم تكن تلك الكلمة تعني عند كاتبها سوى ما تعنيه كلمة (يوم) في الاستعمال اليومي الشائع، ولم تكن تلك المدة طالت أم قصرت ضرورية لازمة عند أي منها خاصة في القرآن؛ إذ لو أراد الله أن يخلق الكون في لمح البصر لفعل، فليس له سوى أن يقول للشيء كن فيكون، ولكن شاءت إرادته لحكمة يعلمها أن تأتي الخليقة في تلك المدة دون سواها، أو كما يعبر عنهما معًا هذا الكاتب: "النقطة

---

[57] باروخ اسبينوزا: "رسالة في اللاهوت والسياسة"، ترجمة: د. حسن حنفي، الطبعة الأولى 2005م، دارالتنوير، بيروت، ص 207.

[58] إذا كان القرآن قد تابع التوراة على المدة ذاتها فقد أبدى احتجاجًا شديدًا على ما فهمه، صوابًا أو خطأ، منقول التوراة بإصابة الخالق العظيم بالتعب والإعياء! لكنها كانت عند كليهما مدة كافية ومناسبة لخلق العالم!

الهامة ليست كم استغرق الله في خلق العالم، هل بضعة أيام أم بلايين السنين، ولكن النقطة التي يعلنها الكتاب المقدس هي أن الله خلق الكون بالكيفية التي أرادها هو [59]".

على هذا، فمن يقرأ تلك النصوص فلن يغيب عنه كيف جاء هذا التصور على خرافيته وتصادمه الواضح مع الحقائق العلمية المقررة بالغ الاضطراب والتناقض أيضًا، فعلى خلاف رواية الخليقة التوراتية المفصلة كما جاءت في الإصحاح الأول؛ حيث نجد أن الله يخلق الأرض والأشجار في اليوم الثالث، ويخلق الشمس في اليوم الرابع، وقبلهما يخلق الليل والنهار والظلام والنور في اليوم الأول، ثم نجد الإصحاح الثاني يقول في روايته المختصرة بخلق الله لآدم أولاً قبل أن يكون هناك أي كائن حي، وحيث لم يكن شجرٌ ولا عشب بري على الأرض؛ لأنه لم يكن ثمة مطر بعد على الأرض، بل كان: (ثم ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض)، ولا ندري ما ضرورة هذا الضباب إن لم يكن هناك نبت ولا شجر، ولا أي حي من الأحياء على وجه كل الأرض؟!

أما القرآن فنجد فيه أن الله قد خلق السمواتِ والأرضَ في الوقت ذاته؛ إذ تخبرنا الآية *أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾* (الأَنبِيَاء: 30):"أن السموات والأرض والكواكب كالشمس والقمر، كانت كلها قطعة واحدة بين أجزائها رتق والتحام واتصال، ففتقها الله وفصل بين أجزائها وجعل كل قطعة منفصلة عن غيرها، وجعل قطعة أرضًا وقطعة شمسًا وقطعة قمرًا وقطعة سماء[60]" ما يوحي بأن السماء عندهما معا كانت مادة صلبة تشكل سقفًا للأرض، ومن الواضح أن هذا التصور لا علاقة له بكروية الأرض، ولا يوحي أبدًا بأن مفهوم السماء؛ أي الامتداد والفراغ الكوني الهائل الذي يحيط بالكوكب من جميع جهاته كان متصورا أو حاضرا في عقل كاتب التوراة أو مستلهم القرآن!(61)، وقد جاء

[59]"التفسير التطبيقي"، ص7.

[60]الخالدي، ص 39 "سفر التكوين في ميزان الإسلام".

[61]لم تكن السماء عند كاتب التكوين سوى الجلد الذي يفصل المياه العلوية عن المياه السفلية "وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ. فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ 8. وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا" (تك 1 الآيات 6-8).

عند كليهما مثلا أن الله قد خلق الإنسان تاما كاملا منذ اللحظة الأولى، ولم تكن المدة بين خلق الإنسان وتدوين تلك النصوص سوى عدة آلاف قليلة من السنين، فضلا عن أنها تتمحور حول مركزية الأرض وأهميتها البالغة في الكون، وأن محور الخليقة كلها هو الإنسان الذي جُبل من الطين على مثال الله وصورته، وإذا كان التركيز على الذات الفردية وعدُّها محور العالم خصيصةً طفوليةً يعبرها بعض الأفراد سريعًا فإنها على المستوى الجمعي كانت من بين آخر الآفات التي تخلصت منها البشرية، خاصة بعد كشوف علم الفلك الحديث، الذي لم يكشف لنا فقط عن ضآلة عالمنا الصغير الضائع بين أطواء هذا الكون العظيم، ولكنه كشف لنا أيضا عن أننا نعيش في عالم غير مصنوع أساسًا من أجلنا!

يقدم الكتاب المقدس تاريخا طويلا للغاية من منظور كاتبه، ولكنه قصيرٌ للغاية مقارنة بما يقدمه العلم الحديث عن تاريخ الحياة على الأرض، ويكفي أن نقرأ هذا الجدول الذي ظل ألفي عام يرجع إليه كحقيقة تاريخية لا يشك ملايين الناس في صحتها الكاملة: "المدة من خلق آدم إلى الطوفان تبلغ 1655 سنة تقريبا، والمدة من الطوفان إلى ميلاد إبراهيم تبلغ 293 سنة تقريبا، ومدة حياة إبراهيم حتى وفاته تبلغ 175 سنة تقريبًا، والمدة من وفاة إبراهيم إلى وفاة النبي موسى تبلغ 430 سنة تقريبًا، والمدة من وفاة موسى إلى وفاة إليعازر الكاهن تبلغ 31 سنة تقريبا، والمدة من وفاة إليعازر الكاهن إلى إقامة شاول ملكا تبلغ 325 سنة تقريبا، والمدة من إقامة شاول ملكًا إلى اعتلاء سليمان العرش ووفاة داود تبلغ 80 سنة تقريبا، والمدة من سليمان إلى السبي الثالث تبلغ 427 سنة تقريبا، والمدة من السبي الثالث إلى أمر ارتحشستا الأول ببناء الهيكل تبلغ 134 سنة تقريبا، والمدة من أمر ارتحشستا الأول إلى مجيء السيد المسيح تبلغ 454 سنة تقريبا، ومجموع السنين من آدم إلى السيد المسيح تبلغ 4004 سنوات تقريبًا[62]".

أما عن أصل هذا الاعتقاد الأسطوري فقد: "كان جلد السماء الظاهر عند الساميين الأولين عبارة عن قبة متينة تحبس المياه المتجمعة فوقها ومن كواها سيسيل الطوفان"- انظر: الترجمة التفسيرية للآباء اليسوعيين، دار المشرق، الطبعة الثالثة ص 68 - حاشية رقم (6).

[62]انظر هذا الجدول في كتاب "مقدمات العهد القديم ومناقشة الاعتراضات" د. وهيب جورجي كامل، رابطة خريجي الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، القاهرة، ص 20 – 21.

في مقابل هذا المخطط الأسطوري البسيط والساذج عن حضور الإنسان في العالم الذي ظل لعشرات القرون مهيمنًا على رؤية الإنسان لنفسه وتاريخه، فقد جاء العلم الحديث في القرون الخمسة الأخيرة بتصور مذهل يختلف تمامًا عن صورة الكون وتاريخ الحياة والأحياء في الكتب الدينية، ولكنه لم يرتكز هذه المرة كسابقه على الإيمان والتصديق بصحة رواية دينية عن الخليقة، بل جاء معتمدًا على العقل وحده، فقدم لنا علم الفلك الحديث تصورا، لا شك فيه، يرجع بتاريخ الكون إلى أربعة عشر مليار سنة على أقل تقدير، وبعد سبعة مليارات سنة من ميلاد هذا الكون المهيب، ولد من بين مليارات نجوم مجرتنا نجمٌ غير مميز اسمه الشمس، وحول هذا النجم الاعتيادي تكوّن عبر ملايين السنين كوكب جميل ما زال يحتفظ لنفسه حتى الآن بهذه الخصوصية المدهشة؛ أي بأنه الكوكب الوحيد بين أطواء الكون الفسيح الذي تدب الحياة على سطحه، وأرجع علم الأحياء الحديث الظاهرة الأحيائية على سطح كوكبنا إلى ما لا يقل عن ثلاثة مليارات عام، وقدمت نظرية التطور، وما رفدها من علوم الوراثة، وعلوم وظائف الأعضاء مخططًا عميقًا وبالغ الإثارة عن تطور الإنسان المعاصر عبر خط تطوري طويل، طويل يمتد من الخلية الأولى إلى الثدييات، ثم إلى الرئيسيات، ومنها حدثت تلك القفزة التطورية الهائلة التي جاء منها الإنسان المعاصر الذي استطاع في النهاية أن يعرف باستخدام عقله وخياله أنه يعيش على سطح ذرة غبار كونية اسمها الأرض، تدور حول نجم عادي اسمه الشمس، في منطقة غير مميزة اسمها ذراع كوكبة الجبار، في مجرة غير مميزة اسمها درب التبانة، في جزء غير مميز في الكون اسمه أطراف عنقود العذراء المجرى الفائق لكنه على الأقل ورغم كل شروط وجوده فهو المخلوق الوحيد المميز الذي استطاع بعقله أن يحدد موقعه في الكون الذي يحوي مئة مليار مجرة، ويعرف تاريخه الخاص بين كل تلك المليارات من السنين .

أما عن قدم التاريخ الحضاري للإنسان فقد كشف لنا علم الآثار والمستحاثات عن تاريخ للإنسان لاعلاقة له بتاريخ الكتب المقدسة، وقصتها عن خرافة آدم وحواء، وقدما تصورًا بالغ التعقيد عن انتشار الإنسان على سطح الكوكب وتاريخه، لا علاقة له بهُراء قصة أولاد نوح الثلاثة، كما تعبر عن ذلك مثلا هذه الفقرة الموجزة: "فقبل 90000 سنة ظهر الإنسان المؤهل تشريحيا لأن يكون الإنسان العاقل الحديث خارج إفريقيا لأول مرة، وقبل 60000 سنة احتل البشر أستراليا لأول مرة، وقبل 50000 سنة وصل

الإنسان العاقل لأول مرة إلى أوروبا، ومن المحتمل إلى جاوة، وقبل 27000 سنة بدأت حرفة صناعة الشباك أو الأشراك الأولى المعروفة والتماثيل الخزفية وإبر العظام الرفيعة مع الثقوب في أوروبا، وقبل 23 ألف سنة بدأ البشر في فلسطين بجمع الحبوب البرية للطعام، وقبل 21 إلى 15 ألف سنة وربما أبكر من ذلك وصل الإنسان البشري الأول إلى الأمريكتين، وقبل 12500 سنة صنعت أواني الفخار الأولى في اليابان، وقبل 12000 سنة تم تدجين الكلاب في الشرق الأدنى، وقبل 12000-10000 سنة بدأت الحياة شبه المستقرة في المشرق، وقبل 10400 سنة بدأت الحياة المستقرة الدائمة وزراعة الحبوب في منطقة الهلال الخصيب، وقبل 9000 سنة تم تدجين الأغنام والماعز في الشرق الأدنى، وقبل 9-8 آلاف سنة تم تدجين الماشية في مناطق عدة، وقبل 8500 بدأ بناء أماكن استيطان محصنة في الشرق الأدنى، وقبل 7 آلاف سنة بدأت زراعة الأرز في الصين، وقبل 6700 بدأت الزراعة في أوروبا الغربية، وقبل 6000 -5000 سنة بدأت زراعة المحاصيل وتدجين حيوانات اللاما وحيوان الألبكة في أمريكا الجنوبية، وظهرت مجتمعات طبقية متعددة في منطقة الهلال الخصيب ووادي السند في الهند وبدأت مجتمعات الأنديز المعقدة بالازدهار في نهاية هذه الفترة(63)" .

أيضا أصبح من المعروف أن نسل الإنسان الحديث يمتد إلى نحو عشرة آلاف جيل على الأقل قبل أن يشتبك مع مخلوق آخر قديم جاء متحدرًا عنه، وأن الإنسان المعاصر قد كشف عن نفسه قبل التاريخ الذي منحته له الكتب المقدسة بعشرات الآلاف من السنين: "فلقد عاش الإنسان مليون سنة على الأقل يجمع النباتات، ويصطاد الحيوانات بشكل مميز وليس لدينا تقريبًا أي آثار باقية عن هذه الفترة الهائلة قبل التاريخ، تلك الفترة التي استمرت أطول بكثير من كل التاريخ المسجل، وكل ما وجدناه عند نهاية هذه الحقبة على حافة الغطاء الجليدي الأوروبي في كهوف مثل كهوف التاميرا وغيرها من الأماكن في إسبانيا وجنوب فرنسا، هو تسجيل لما سيطر على ذهن هذا الرجل الصائد، ومنه عرفنا عالمه وماذا كان يشغله؛ فالنقوش الموجودة في الكهوف التي يبلغ

(63)انظر: "العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد"، إيان تاتيرسول، ترجمة: د. حازم نهار، الطبعة الأولى 2011م، أبوظبي، هيئة أبو ظبى للتراث والثقافة، ص 205 وما بعدها. أما عن المعارف التقنية وظهور الأدوات إلى ما قبل الألف الرابعة قبل الميلاد فراجع إن شئت: "إبداعات النار"، كاتى كوب وهارولد جولد وايت، ترجمة: د. فتح الله الشيخ، عالم المعرفة 2001م، الكويت، ص 13 وما بعدها.

عمرها عشرين ألف سنة تحدد نهائيا القاعدة العامة لحضارته حينذاك معرفة الصائد بالحيوان الذي يعيش عليه ويرصده [64]".

قبل زمن تلك القصة الدينية بعشرات القرون اكتشف الإنسان الزراعة واستأنس الحيوان، وقامت حضارات كاملة مازالت ممتدة ومستمرة، ولكن ورغم آلاف العاديات والآثار والرسوم لبشر ينتمون إلى سلالتنا البشرية التي تتجاوز بآلاف السنين عمر الخليقة الإنسانية، وفق الرواية المقدسة فما زال بعض رجال الدين يستطيع أن يهرف بهذا السخف، بل يدعم رأيه (بحسبة) رياضية يتوهم فيها أن البشر كانوا يتزايدون بمتوالية هندسية، ولو كان قداسته ملمًّا بأوليات الرياضيات لعلم أن عدة آلاف من السنين فقط كانت كافية لكيلا يجد الأحياء موضع قدم على سطح الأرض وفق هذه (الحسبة) الرياضية العجيبة: "ادعى البعض أن الحفريات تثبت وجود عظام إنسانية عمرها أكثر من مليون سنة بينما أن ما يتضح من هذا الجدول أن عمر الإنسان على الأرض لا يزيد على 6000-7000 سنة، والرد على ذلك يكون بحسبة رياضية نجد أن سكان العالم الحاليين لا يمكن أن يكونوا ثمرة أكثر من 6000 سنة على الأرض. فبافتراض أن كل عائلة تنجب نحو 3 أطفال، وخصم نسبة مرتفعة من الموتى بسبب الموت الطبيعي، والكوارث الطبيعية والحروب.. لو أن تاريخ الإنسان يرجع إلى مليون سنة فإن تعداد البشرية لو بدأ بإنسان واحد من مليون سنة لكانت لا تكفي آلافا مضاعفة من مساحة الأرض لوجودهم. وربما تكون العظام الموجودة لحيوانات ثديية حملت شكل الإنسان ولكن دون النسمة التي من فم الله [65]".

من المعلوم، أن عدد البشر لم يزد على عدة عشرات ألوف كانوا ينتشرون في مجموعات قليلة العدد قبل الثورة الزراعية، وتأسيس المجتمعات الحضرية المستقرة، وأن سكان الأرض كلها لم يكن عددهم يتجاوز ربع مليار في زمن المسيح، وأن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية التي تجاوزت عشرة ملايين كيلو متر مربع لم يزد على عدد سكان دولة أوروبية صغيرة اليوم، وأن مجتمعًا حضريًّا عريقًا مثل مصر لم يزد عدد سكانه على ثلاثة ملايين نسمة في زمن الفراعنة، وظل هو ذاته تقريبا مطلع القرن العشرين بعد الميلاد! وحتى إذا افترضنا أن تلك العظام كانت لحيوانات ثديية أو غير

---

[64] "التطور الحضاري للإنسان"، ص 31.

[65] الأب أنطونيوس فكري: "شرح سفرالتكوين"، ص 183.

ثديية، فكيف يفسر قداسته وجودها إن كان الله قد خلق العالم وجميع أحيائه بعد خلق الإنسان كما تقول الرواية المختصرة في الإصحاح الثاني؟!

ثالثا: نوح التوراتي.

سوف نلخص هنا قصة نوح التوراتي، ولن نقف عند شيء منها إلا الذي له صلة مباشرة بالرواية القرآنية الموازية، مستهدفين الإجابة عن هذه الأسئلة الأساسية: من هو نوح؟ لماذا أرسل الله الطوفان؟ عمومية الطوفان ومشكلاته، وأخيرا مغزى تلك القصة، ولماذا وضعت؟

من هو نوح؟

ليس هناك الكثير ليقال عن شخص نوح في التوراة غير قصة طوفانه، فلم يكن نوح عند كاتب سفر التكوين إلا بمنزلة الحلقة الوسطى بين الأجيال الأسطورية الخالصة، وبعض ملامح العصور التاريخية كما توهمها، ولكن ربما كان من المفيد أن نقابل، أولا، بين الروايتين القرآنية والتوراتية بوجه عام، ونعرض ما انفردت به إحداهما عن الأخرى، وما جاء مشتركًا بينهما لتستبين لنا بذلك بعض الفروق بين ملامح القصتين على وجه الإجمال، وإلى جانب ذلك فسيتضح لنا من خلال هذه المقارنة بعض ملامح نوح التوراتي الشحيحة.

نسب نوح

إذا كان القرآن لم يذكر لنا شيئًا عن اسم أبوي نوح أو أيٍّ من أسلافه، سواء أكان ذلك لأن النبي محمدا لم يكن يعرف أسماءهم، أو أنه قد عرفها، ولكنه لم يجد من ضرورة لذكرها، فهو في الحالتين أمر غير مستغرب؛ فقد ظهر كثير من الأنبياء، بل أكثر أنبياء القرآن هكذا فجأة على مسرح الدعوات الإلهية، ودونما إشارة واحدة إلى تلك النقطة، يستوي في ذلك من كان منهم ينتمي إلى تلك القبائل العربية البائدة مثل عاد وثمود، أو من كان ينتمي منهم إلى سلالة إبراهيم المباركة.

أما كاتب التوراة فقد أعطانا سجلا كاملا متصلا لأسلاف نوح، فهو على هذا: "نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهلليئل بن قينان بن أنوش بن شيث

بن آدم"، وهو كما ترى الجيل العاشر للإنسان الأول على الأرض، الذي خلقه الرب بيديه مباشرة، وخلق من أحد أضلاعه امرأته حواء التي هي أم كل حي!

نبوة نوح

إذا كان القرآن قد جعل من نوح نبيًّا رسولا أرسله الله لعموم البشر، وأخبرنا بأن الله قد كلمه، كما سوف يفعل مع جميع الأنبياء من بعده، بصورة ما من صور الوحي الأساسية التي حصرتها الآية (51) من سورة الشورى:* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾* (الشُّورَى: 51).

لكن التوراة لم تجعل من نوح نبيا ولا رسولا؛ لأن النبوة بمعناها الدقيق لن تظهر إلا مع موسى[66]، بل كان نوح التوراتي رجلا بارا صالحا بين جيله الفاسد كله، ورغم مخاطبة الله لنوح مرارًا في التوراة، فلاندري في الحقيقة كيف كلمه الله؟! هل كان ذلك في رؤى منامية أو ظهور إلهي متجسد؟! فلا أحد يدري!

عقيدة ذلك العصر ومظاهر فساده

وما عدا سير نوح مع الله؛ أي استرساله التقي مع إرادة الله، والتزامه بوصاياه فلن نجد شيئا مفصلا عن أي شيء من مظاهر تقواه، فلا صلاة ولا عبادة، ولا أي فعل من أفعال البر، اللهم إلا تقديمه ذبائح الشكر للرب بعد الطوفان، ويلاحظ أيضا أن التوراة لم تنسب إلى هذا الجيل الفاسد انحرافًا إلى عبادة آلهة أخرى، ولو فعلت ذلك لكان ذلك أمرا أكثر معقولية مما نسبته إلى تلك الأجيال من انحرافات غامضة! وفي مقابل ذلك سنجد الرواية القرآنية، بتأثير من المرويات التلمودية كما سنرى، تنسب قوم نوح إلى عبادة الأصنام، والإصرار على الشرك بالله. لذا، فقد ركزت هذه الرواية الأخيرة على قضية التوحيد ولم تعرض لأي شكل آخر من صنوف الفساد التي سنراها عند الأمم

[66] "وصف إبراهيم في التوراة بأنه نبي" (تك 20-7) لكن بالمعنى العام للنبوة الذي لا يبعد كثيرا عن معنى المقرب من الله، أما مفهوم النبي الذي يتأسس على فكرة أن يخاطب الله الناس من خلال رجل فلم يكن قد أتى بعد.

اللاحقة؛ فإذا كنا مثلا سنجد عند قبيلتي عاد وثمود، إلى جانب الشرك بالله، الإسراف في اتخاذ المباني الفارهة والقصور المشيدة، وعند قوم لوط تلك الفاحشة المعروفة، وعند قوم شعيب نقيصة التطفيف في الميزان، وقطع السبيل.. إلخ، فإن القرآن لم يذكر لقوم نوح سوى الإشراك بالله وغياب أمثال تلك الملامح التوراتية، ربما يجعلنا نعتقد في فراغ الإطار كاملا في العقل المحمدي، وغياب أي معرفة لديه بما كان عليه قوم نوح مما ذكرته التوراة من فساد البشر الجنسي الأسطوري ذاك، لذا، فقد أرجعه النبي محمد إلى السبب الوحيد المهم لديه، وهو الصراع الأزلي القديم بين التوحيد والشرك، وكان ذلك عنده أكثر من كافٍ، شأنه مع القصص الافتراضية الأخرى.

سلسلة النسب النوحي

إذا كان قارئ سلسلة الأنساب الخرافية المضحكة تلك لا يجد فيها سوى عشرات قليلة من الأسماء، التي تمتد من عصر التدوين، أو من زمن المسيح، رجوعا إلى آدم وحواء، فإن الحقيقة العلمية تشير إلى تقديرات تختلف اختلافا بعيدا عن ذلك؛ حيث "يقدر البعض مجموع الأسلاف التي تفصل بين إنسان اليوم وبين عالم الأسماك بقرابة 185 مليون سلف [67]".

أما عن اختلافها البيِّن عن تلك السلسلة البائسة، التي تتأسس على اعتقاد بدائي ساذج يرد السلسلة البشرية كلها إلى رجل واحد خلقه الله بيده، كما يصنع المثال تمثالا من الطين، ثم يمنحه الحياة بأن ينفخ فيه من روحه، ثم يستل بعدها من بين أضلاعه الكثيرة ضلعًا واحدة ويكسوها لحمًا؛ ليخلق له منه امرأة لكي تبدد وحشته ويتناسلا لإعمار الأرض!! إلخ فقد انقضى زمن تلك الأسطورة إلى غير رجعة، ولم يعد هناك من شك بعدما قطع الإنسان كل تلك الخطوات الفسيحة في التعرف إلى الخريطة الوراثية للكائنات الحية وتحليلها في أن جميع المخلوقات الحية تنحدر من سلف مشترك واحد كان هو أساس كل بنية حيَّة عاشت في الماضي أو ستعيش في المستقبل، ومن يتأمل ولو للحظة واحدة في أن شجرة الحياة باذخة التنوع؛ حيث تضم الإنسان، والشمبانزي،

[67] انظر: ريتشارد داوكنز، "سحر الواقع"، ترجمة: عنان علي الشهاوي، دار التنوير، لبنان، الطبعة الأولى 2013م، ص 38.

والقرود، والسحالي، والإجوانا، والجاموس، والفئران، والنسور، والفطر، والبكتيريا، والحيتان، ومن يتذكر حقيقة أن كل هذه المخلوقات الحية من حيوان ونبات تتشارك جميعًا في اللبنات الأساسية ذاتها، فقد تثار فيه هذه الحقيقة المذهلة، أي وجود تلك الآصرة والوشيجة التي تربط كل المخلوقات بعضها ببعض، والتي ما كانت لتخطر في عقول أهل القرون الأولى من أنبياء وعلماء وفلاحين وملاحين، أكثر المشاعر مهابة وجلالا لجمال العالم الأحيائي وغناه الفاحش، ولبدت في عينيه تلك الرواية الدينية بصورها المختلفة فقيرة وبائسة إذا ما قيست بتلك الفكرة العظيمة، فكرة داروين التي وُصِفت عن حق بأنها أعظم فكرة فردية انبثقت في ذهن مخلوق بشري، والتي علمنا من خلالها أن: (جميع الكائنات الحية الموجودة في يومنا الحالي منحدرة من الجزئيات ذاتية النسخ التي تكونت بوسائل كيميائية خالصة منذ أكثر من 3 ونصف مليار سنة، وقد أنتجت صور الحياة التالية بواسطة (الانحدار مع التعديل) كما سماها داروين وهي مرتبطة بعضها ببعض عن طريق سلسلة نسب متفرعة، وأقرب الكائنات إلينا، نحن البشر، الشمبانزي والغوريلا، وهما النوعان اللذان يجمعنا بهما سلف مشترك من 6 إلى 7 ملايين عام مضت، أما الثدييات تلك المجموعة التي ننتمي إليها فكان يجمعها سلف مشترك مع الزواحف الموجودة حاليا منذ نحو 300 مليون عام، وتعود أصول كل الفقاريات (الثدييات والطيور والزواحف والبرمائيات والأسماك) إلى ذلك الكائن الصغير الشبيه بالسمكة الذي كان يفتقر إلى عمود فقري، وكان يعيش منذ أكثر من 500 مليون عام، وأما إذا رجعنا إلى وقت سابق على هذا الزمن فسيصبح من الصعب على نحو متزايد تبين العلاقات بين المجموعات الكبيرة للحيوانات والنباتات والميكروبات، ومع هذا سنرى أن المادة الوراثية لهذه الكائنات تحمل علامات واضحة على وجود سلف مشترك[68]"، فهل هناك مقارنة بين هذين التصورين؟!

[68]"التطور- مقدمة قصيرة جدا" برايان تشارلز وورث، ديبور تشارلز وورث، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى 2016م، ص 11- 12.

غياب الشرائع والمعجزات

مما تشترك فيه الروايتان أيضا غياب الشرائع التفصيلية عند كليهما حتى لقد حار الشراح في فهم التمييز بين البهائم النجسة والطاهرة، وأرجعوها إلى الاختلاف المتأخر بين مصدرين مختلفين في التوراة يعني أحدهما بشدة بأحكام الشرائع المفصلة، وآخر لا يأبه بشيء من هذا، ومن مشترك الروايتين أيضًا غياب أي معجزة لنوح، ويمكن أن يفسر لنا هذا، جزئيا، شيئًا من دلالة كل هذا الحضور لنوح في مستهل الدعوة المكية مثله في ذلك مثل النبي هود كما سنرى.

متى حدث الطوفان؟!

إذا كان القرآن لم يذكر لنا شيئًا عن زمن الطوفان إلا على نحو مبهم، فقد كان كاتب التوراة بالغ الدقة في تسجيله لأعمار السلسلة البشرية من آدم إلى عصر التدوين (69) حتى إنه سامحه الله لم يدع مجالا لمن يريد من محبيه، مهما أوتي من مهارة الحواة، أن يخدع نفسه أو يضلل غيره في التعرف إلى زمن الطوفان بسنوات عمر الخليقة الكونية؛ فقد أعطانا مثلا زمن الطوفان باليوم والشهر والسنة دون أن يدري هذا الكاتب المتولع بالتدقيق، حد الإسراف والمبالغة، أن هذه الحذلقة سوف تقضي تمامًا على كل أمل في عدِّ قصته قصة تاريخية حقيقية:"ولقد وصف الوحي حادثة الطوفان وصفًا عجيبًا مفعمًا بالحيوية والواقعية بأسلوب واضح محدد يعين الأيام والشهور والسنين، ويحكي عن دقائق الأمور والأحداث التي صاحبت هذا الحدث الرهيب، فهو يذكر اليوم الذي بدأ فيه الطوفان في السابع عشر من الشهر الثاني من سنة 600 من عمر نوح على الأرض التي توافق سنة 1656 من تاريخ العالم، وتسبق ميلاد الرب يسوع بنحو 2349 سنة (طبقًا للحساب والتقويم العبري)، وهكذا يقع في منتصف أو أواخر شهر نوفمبر حسب شهور السنة الميلادية، وظلت الأمطار على الأرض 40 يومًا، وانفتحت ينابيع الغمر وغطت المياه الأرض 150 يومًا، ولم تجف الأرض إلا بعد 375 يومًا من بداية الطوفان، يوم أن أمر الله نوحًا أن يخرج من الفلك، وكان ذلك سنة 601 من عمر نوح

في السابع والعشرين من الشهر الثاني، بعد أن ظل نوح في الفلك سنة كاملة وعشرة أيام (70)".

عمر نوح

* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾* (العَنكَبُوت: 14).

من مشترك الروايتين أيضًا منحهما نوحًا كل هذا العمر الطويل، فقد أعطاه كاتب التوراة 950 سنة كاملة ليعيشها على هذه الأرض، وهي المدة ذاتها التي أعطاها له القرآن، وإن جاءت في القرآن كما يقول جلُّ المفسرين لبيان مدة دعوة نوح كرسول يدعو قومه إلى الله؛ لذا فقد اختلف المفسرون على كامل عمر نوح، بقدر اختلافهم في تقدير مدة عمره حين ابتعثه الله نبيا في قومه، وبمقدار اختلافهم كذلك على مقدار ما عاشه نوح بعد الطوفان!

والحقيقة، إن الآية السابقة من سورة العنكبوت التي نصت على عمر نوح دون سواه من الأنبياء لا تستلزم بالضرورة أن يفهم منها أنها تذكر مدة زمن دعوة نوح فحسب، بل يغلب على ظننا أنها تعني مدة حياته كلها كما في التوراة، ولكن لأن نوحًا بداهة قضى أكثرها في دعوة قومه إلى الله، فقد جاءت تلك الآية على هذا النحو الموهم بذلك التخصيص؛ ولأننا نعتقد أن تلك التفصيلة الكتابية النادرة في الرواية القرآنية توحي بأنها جاءت للمتابعة دون المخالفة التي لم يكن من ضرورة لها من أي باب من تلك الأبواب المعقولة التي اضطر النبي محمد فيها لمخالفة الرواية الكتابية، وسنقف فيما بعد عن بعض تلك المخالفات لنرى بأنها دائمًا كانت تقتضيها حكمة معقولة ومنسجمة مع تصوره الديني بشكل عام، وزد على ذلك أنها تتوافق مع ما جاء في الحديث الصحيح من أن عمر آدم كان ألف سنة، وأن أعمار البشر لم تزل تتناقص من لدن آدم إلى يومنا هذا؛ لذا فمن الطبيعي أن يقل عمر حفيده العاشر بهذا القدر المعقول، وسواء أكان المقصود هذا أم ذاك فليس من كبير أهمية لتلك المسألة.

(70)"شرح سفر التكوين": الأب يوحنا المقاري، ص 161.

السفينة النوحية

من بين الفروق بين الروايتين إسهاب الرواية التوراتية في وصف السفينة النوحية، فجاءت بتفاصيل بالغة الدقة عن الأخشاب التي صنعت منها وطولها وعرضها وعدد طوابقها وبأي المواد طليت إلخ. وأما الرواية القرآنية فلم تحفل بشيء من هذا، بل اكتفت بأن السفينة قد صنعت من الأخشاب والمسامير *وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾* (القَمَر: 13)، ولم تتعرض رواية القرآن كذلك إلى مدة طفوها فوق الأمواج، أو مدة صنعها، أو مدة هطول الأمطار، ولو فعل النبي محمد ذلك لأتى في ظننا بتقدير أقرب إلى العقل والمعقول من صاحبه العبراني المولع بالإغراق في المبالغات الشديدة؛ فمدة عام أو عامين أو حتى ثلاثة كانت كافية بالتأكيد لصنع سفينة، ومدة أسبوع واحد من فتح أبواب السماء وتفجر الينابيع كانت كافية بدورها بل أكثر من كافية لإغراق الأرض وأهلها، ثم بعدها يأمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأن تكف السماء عن إرسال مطرها، ثم يهبط نوح ومن معه بسلام(71).

الناجون من الطوفان!

من الفروق الواضحة بين الروايتين هو اختلافهما في أسباب نجاة من نجا مع نوح، فانطلاقا من الاعتقاد في نبوة نوح كنبي ورسول أرسله الله لهداية خلقه لم يمنح النبي محمد النجاة إلا للمؤمنين بنوح وبرسالته ومنع النجاة عن ابنه الكافر بدعوته، أما الرواية التوراتية فقد جعلت النجاة لنوح وامرأته وبنيه الثلاثة ونسائهم. لذا، يمكن القول: إن عدد الناجين من الطوفان القرآني كانوا على قلتهم أكبر من عدد الناجين الثمانية في التوراة، والأهم من ذلك بكثير أن الأولين قد نجوا على أرض الإيمان والصلاح والتقوى،

(71)إذن، يمكننا القول: إنه إذا كان نوح القرآني قد ثابر على نحو يدعو للإعجاب في دعوته؛ إذ ظل كما يقول القرآن يدعو قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا! فإن نوحًا التوراتي يستحق إعجابنا أيضا، لكن لمثابرته في صنع السفينة؛ إذ مكث كما تقول التوراة مائة عام كاملة في صنعها، وهناك من يمدها استنتاجًا إلى مائة وعشرين عامًا، والحقيقة أننا لا ندرى هل قضى نوح كل تلك المدة بأمر من الله الذى كان يريد أن يمنح خليقته فرصة للتوبة والكف عن شرورهم كما يقول بعض الشراح، رغم أن الرواية التوراتية لا تتضمن أدنى إشارة إلى هذا النوع من التأويل؛ لأن الرب كان قد أزمع أمرًا ولابد من إنفاذه. إذن، فلم يتبق لدينا سوى أن نضيفه لسخاء كاتب التوراة البالغ في فسح الأزمان وإطالتها إلى تلك الدرجة غير المعقولة وغير الضرورية أيضًا؛ إذ لو كان نوح يثبِّت كل أسبوع لوحا خشبيا واحدا لفرغ من بناء تلك السفينة في مدة أقل بكثير من نصف تلك المدة غير المعقولة! ولم تشر الرواية القرآنية كذلك إلى إرسال نوح الحمامة أو الغراب ليعلم هل جفت الأرض أم لا، إلى غير تلك التفاصيل التي كشف وجودها فى الرواية التوراتية عن وجه التشابه المريب مع قصة الطوفان البابلية كما سنرى بعد قليل.

وأما في التوراة فقد كانت الأسرة الناجية مكافأة للرجل الوحيد البار على صلاحه وتقواه؛ إذن فقد جاء سبب النجاة القرآني إيمانيا أخلاقيا، وأما سبب النجاة التوراتي فقد كان سلاليا اعتباطيا!!

أين استقرت السفينة؟

من الفروق المهمة بين الروايتين اختلافهما الواضح في موضع رسو السفينة النوحية، فبينما تقول التوراة أنها على جبال أَرَارَاط، وهي جبال في منطقة أرمينيا على الحدود بين إيران وتركيا وأرمينيا كما جاء في قاموس الكتاب المقدس: "أَرَارَاط لفظ عبري مأخوذ من الأصل الأكادي (أوراراطو) وقد أطلق هذا الاسم على بلاد جبلية تقع شمال آشور على أحد جبالها استقرت سفينة نوح، والقمة التي يطلق عليها اليوم جبل أراراط ترتفع إلى (16916) قدمًا فوق سطح البحر، واسمها في التركية أغرى داغ (72)".

أما القرآن فقد نص في سورة هود *وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٤* (هُود:44) على اسم جبل الجودي، وهو شمال غرب الموصل في العراق ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى الآن (73)".

نوح بعد الطوفان

لم يذكر لنا القرآن شيئًا قط عن نوح بعد نجاته ومن معه من المؤمنين، وأما كاتب التوراة فلم يذكر لنا إلا بعض الأحداث أتت على قلتها لتعرفنا إلى أهم ما فعله نوح في حياته الطويلة كلها، وقد جاء أولها متوافقًا مع الرواية القرآنية على نحو ما؛ إذ كما شكر نوح الله في القرآن وحمده على نعمة إنجائه وتخليص الأرض من القوم الكافرين، وإن حدث هذا قبل نزوله إلى الأرض، وأما نوح التوراتي فهو إن فعل مثل ذلك لكنه كان

(72) "قاموس الكتاب المقدس"، ص 42.

(73) صلاح الدين الخالدي: "سفر التكوين في ميزان الإسلام"، ص 113. ولا ندري في الحقيقة سببًا لمثل هذا الاختلاف، ولعله يرجع إلى مروية تلمودية جعلت من أرارات في تلك المنطقة العربية، أو ربما كان الجودي مجرد اسم آخر لذلك الجبل كما قال صاحب القاموس: "والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة أراراط "، نقلاً عن قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار - ص 37.

أكثر واقعية وعملية في التعبير عن شكره لله وامتنانه له؛ إذ قدم له أضحيات وقرابين من الحيوانات، ويبدو أنها أعجبت الرب وعلم منها بأن البشر قد يكونون ذوي نفع وفائدة؛ لذا فقد عزم على عدم تكرار هذا الفعل بتاتا بعد ذلك.

ابتكار الخمر

يقول القديس جيروم: "شرب نوح خمرًا وسكر، ولكن لكونه عاش في الأيام البدائية بعد الطوفان، عندما كانت الكروم تزرع لأول مرة، فلربما كان لا يعرف قوة فعلها المسكر [74]" .

ثم استهل نوح التوراتي عمله بعد ذلك في الزراعة[75]، وكان أن بدأ بزراعة الكرم[76]، وعلى كل حال فمن تلك النبتة المباركة صنع نوح الخمر، وشربها لكي تسجل باسمه أول حادثة سكر بيّن في التاريخ، وعندما سكر نوح سكرته الأولى تلك لعن حفيده كنعان بدلا من أبيه الأحمق الذي كشف لأخويه اللطيفين ما كان يجري في خباء الأب السكّير، ويلاحظ أن حضور الخمر وشربها يأتي من بين أول الأفعال بعد النجاة من الكوارث التوراتية سواء من زرع الكرم بنفسه كما في حالة نوح، أو أخذها معه مصنوعة معتقة كما سيفعل لوط أيضًا بعد نجاته، ولسنا بحاجة إلى تقرير غياب أمثال هذه الأفعال عن الرواية القرآنية، بل لا ضرورة للقول بأن النبي محمدا ما كان ليوافق أبدًا على نسبة هذا إلى نوح، ولوجد في تلك الرواية إن علم بها زرايةً لا تليق بمقام الأنبياء، وحطًا من أقدارهم؛ لأنه وعلى رغم حل الخمر في الإسلام طيلة الفترة المكية، بل كان القرآن يمتدحها ويسوقها من بين النعم التي أنعم الله بها على عباده على ما جاء في الآية: *وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(74)انظر: "شرح سفر التكوين"، يوحنا المقاري، ص 174.

(75)لا ندرى ما كانت صناعته قبل أن ينشغل بصنع السفينة كل تلك المدة الطويلة التي تكفي وزيادة لنسيان أي حرفة أو صناعة! وأغلب الظن أنه كان فلاحًا كأبيه لامك.

(76)وكان أول عهد الأرض بتلك النبتة كما يبدو من النص، فلم تذكر الخمر قبل ذلك في الكتاب المقدس حتى عند ذكر مثالب المارقين من أبناء قايين وإن لم يخبرنا كاتب التوراة عن كيف مارس نوح الزراعة واستنبت الكرم أو غير الكرم، فقد نسي فيما يبدو أن يجعل من بين ما أخذه نوح معه في السفينة بذور النباتات، أو شتلات المحاصيل الأخرى وهي بالألوف بل بعشرات الألوف!!

لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾*(النَّحل: 67) كما سنرى، لكن هذا السكر البين وانكشاف سوءة نبي من أعظم الأنبياء، فلن يجد عند النبي محمد سوى كلا وألف كلا!![77].

هذا عن بعض الفروق بين الروايتين القرآنية والتوراتية، أما الفروق والاختلافات داخل الرواية التوراتية ذاتها بسبب ما أرجعه الباحثون من تداخل روايتين أساسيتين متمايزتين سميت إحداهما بالرواية اليهودية، والأخرى الإيلوهيمية فليس عرضُ ذلك من مقصودنا[78].

أصل هذه الحكاية؟

"صرنا متأكدين الآن من أن قصة الطوفان التي وردت في التوراة، لم تكن في الأصل من وضع مدوني أسفار التوراة، وذلك منذ اكتشف جورج سميث الذي كان يشتغل في المتحف البريطاني اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش وحل رموزه[79]".

ظلت هذه الرواية التوراتية عن الطوفان الكوني مصدقة كحادثة تاريخية حقيقية لدى ملايين الناس عبر القرون، وإن شك بعض الدارسين من قديم الزمان في معقوليتها، لكن تلك الارتيابات العقلية لم تنل كثيرًا من صحتها حتى كشفت معاول الأثريين والمنقبين منذ قرابة القرنين من الزمان عن تراث الشعوب القديمة التي عاش العبرانيون في ظلالها كجماعة بشرية صغيرة تأخذ ممن حولها أكثر مما تعطي، وأفلح علماء اللغات القديمة في قراءة تلك النصوص، وهنا كفّت تلك الأسطورة التوراتية عن طنينها، ورد العلماء تلك الأسطورة إلى أصلها الذي نقلت عنه كما يقول هذا الباحث الرصين: "وربما كانت المقارنة السطحية بين حكايتي الطوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصل مستقلة، بل من المؤكد أن إحداهما اعتمدت على الأخرى، أو أنهما استمدتا معًا من أصل واحد، وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا إلى محض الصدفة، ففي كلتا الحكايتين قررت القوى الإلهية أن تقضي على الجنس البشري بأن ترسل إلى الأرض طوفانًا

(77) عن تحريم الخمر في الإسلام، راجع ملحق آخر الكتاب.

(78)وليرجع القارئ الكريم إلى كتاب: "الفولكلور في العهد القديم" جيمس فريزر، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، الطبعة الثانية 1982م، دار المعارف، الجزء الأول ص 249 وما بعدها.

(79)"من ألواح سومر" صمويل كريمر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثنى ببغداد، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، ص 252.

عظيمًا، وفي كلتيهما أفشى الإله هذا السر إلى رجل قبل إغراق الأرض بالطوفان، وقد أرشد الإله هذا الرجل إلى بناء فلك كبير لكي يأوي إليه فينقذ نفسه، وينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعًا، ومن المحتمل أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون البطل الذي أنقذ من الطوفان في الحكاية البابلية وفقًا لرواية (بيوسوس) هو ملك بابل العاشر، وأن يكون نوح في الرواية العبرية هو الرجل العاشر في نسل آدم، وفي كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار بعد تحذير الإله إياه سفينةً ضخمة من عدة طوابق، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب إليها المياه، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف، وفي كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أيامًا يختلف عددها قلة أو كثرة، وفي كلتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل وأسرته، وفي كلتيهما أرسل الرجل الذي أُنقذ طائرين؛ غرابًا وحمامة ليرى من طريقهما ما إذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت على الأرض، وفي كلتيهما عادت الحمامة إلى السفينة لأنها لم تجد مكانًا تستقر فيه، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحكايتين، وفي كلتيهما رست السفينة على جبل، وفي كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها [80]".

أما عن سبق أي الروايتين الأخرى، فهذا أمر قد حُسِم أيضًا منذ زمن بعيد؛ لأنه "إذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية تتشابهان إلى هذا الحد، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه؟ إن الرواية البابلية لا يمكن أن تكون مستمدة من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرنًا، وفضلا عن ذلك فإن الحكاية العبرية كما لاحظ (تسيمرن) تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية نشأت أصلا في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين [81]" .

---

[80] انظر "الفولكلور في العهد القديم" مرجع سابق، ص252-253.

[81] المرجع السابق ص 254.

لماذا فسدت البشرية وجاء الطوفان؟!

"نظرًا لأن في الكتاب المقدس يتكلم الله من خلال أناس بطريقة بشرية يتبع ذلك أن المفسر يجب أن يبحث بدقة عن المعنى الذي كان حقا في فكر الكاتب" المجمع الفاتيكاني الثاني[82].

مهما حاول قارئ هذا السفر أن يفهم سبب انصراف الناس عن عبادة الله وفسادهم في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ البشر فلن يجد لذلك سببا مفهوما أو معقولا، وإذا ماتذكرنا أن آدم الإنسان الأول، وجدَّ البشرية كلها الذي خلقه الله بيديه كان لم يزل على قيد الحياة وعاصره تسعة من تلك الأجيال العشرة، لزاد عجبنا من هذا التمرد والعصيان الذي عزاه كاتب التكوين لتلك الأجيال الأولى من البشر؛ لذا فلا ينبغي لمن يبحث عن سبب الطوفان التوراتي أن يتجاوز ما نص عليه الكتاب من أسباب سواء أكانت معقولة عنده أو غير معقولة، وسواء بدت له كافية أو كانت عنده غير كافية لإحداث هذا الدمار الكبير بالجنس البشري الناشئ، فهذا أفضل بكثير من افتراض أسباب لا يقول بها النص تصريحًا ولا تلميحًا؛ لذا فلا عليه كذلك إذا تجاهل التفسيرات المسيحية عن سبب هذا التمرد والعصيان بإرجاعها إلى عقيدة (الخطيئة الأصلية) وأثرها المميت في تغير قلوب البشر وسقوطهم، فهذا المفهوم (أي الخطيئة الأصلية) لن تعثر له على أثر في العهد القديم، ولا حتى في الأناجيل الأربعة، وقل مثل ذلك عن تكلفهم الشديد في تفسير اسم نوح الذي يعنى راحة وتعزية الله بالقول إن أباه قد منحه هذا الاسم؛ لأنه كان يأمل أن يكون المسيّا المنتظر، وهو ما لم يخطر قطعًا على بال كاتب التوراة! فكيف يتوقع أن يأتي منتهى الخليقة في بدء حضورها؟! وأيضا لأن هذا المفهوم المتأخر عن المسيح المنتظر لم يعرفه العبرانيون أساسًا إلا بعد زوال ملكهم الدنيوي، وتشتتهم في منافي البلاد[83]، وتوق الدنيويين منهم إلى ملك محارب يعيد أمجادهم الضائعة، أو رجاء أهل الإيمان منهم في مجدد روحي فذ يبعث بحضوره الوهاب قبل تعاليمه، ما أصاب الإيمان من وهن وتيبس تحت الحضور البغيض للمراسم المعقدة والأشكال الخامدة من الطقوس الشكلية التي لا روح فيها، ولكن لا عجب من قدرة الشراح المسيحيين على أمثال هذه

---

(82)"تاريخ الكتاب المقدس منذ عهد التكوين وحتى اليوم" ستيفن ميلر وروبرت هوبر، ترجمة: وليم وهبة، دارالثقافة، القاهرة 2008م، ص 209.

(83)"شرح سفر التكوين" يوحنا المقاري، ص 159.

التأويلات الغريبة؛ فمن يستطيع مثلا أن يستخرج من أبعاد سفينة نوح عقيدة الثالوث المقدس، وتصبح هي المقابل المادي لجسد الإنسان الذي جاء فيه المسيح؛ "لأن طول جسد الإنسان من قمة رأسه حتى أخمص القدم هو ستة أضعاف عرضه بين جنبيه، وعشرة أضعاف سُمكه من الظهر إلى الصدر، لذا كان طول الفلك 300 ذراع وعرضه 50 ذراعًا وارتفاعه 30 ذراعًا"، وأيضًا من يستطيع أن يستخلص درجات النمو الروحي من عدد طوابق السفينة، ويستدل من حضور كل الأجناس الحية في السفينة على عموم الدعوة المسيحية، والقول بثقة تامة: إن ذلك يرمز للكنيسة التي شملت اليهود والأمم من كل العالم، وحتى باب السفينة الجانبي له دلالة عظيمة: "فيشير بالتأكيد إلى الجرح الذي جرحوا به المصلوب في جنبه بالحربة؛ لأن منه يدخل كل من يأتي إليه، ومنه فاضت الأسرار المقدسة التي ينضم بواسطتها في عضوية جسده كل من يؤمن به"، ونجد أيضًا من يستخلص من عدد الناجين الثمانية دلالة روحية، فقد "لاحظ القديس بطرس أن عدد الذين خلصوا بالفلك كانوا ثمانية أشخاص، ورقم ثمانية يشير للحياة فيما بعد الزمن، فأيام زمن هذا العالم سبعة يأتي بعدها الدهر الآتي؛ إذن عمل الطوفان كان تجديدًا للعالم؛ بمعنى إقامة كنيسة لها طبيعة سماوية خلال تمتعها بالحياة المقامة في المسيح يسوع [84]".

على الإجمال، فمن يستطيع أن يخرج بتفاصيل عقيدة جديدة كل الجدة من ثنايا عقيدة أخرى تختلف عنها اختلافًا بعيدًا في عقيدتها في الله، وفي شرائعها فلن يستعصي عليه شيء أبدا، ولكن رغم ما قلناه فلا بأس من النظر في بعض تلك الأقوال؛ إذ يلخص أحد هؤلاء الشارحين سبب الطوفان بأنه ينحصر في سببين:

"أولهما الشهوة التي أدت إلى انحراف وفساد أولاد الله؛ أي ذرية شيث، وثانيهما عبادة القوة والمجد العالمي والبحث عن الصيت العالمي ونسيان العالم الآخر [85]".

أما عن السبب الأول، وهو ما شاع بين تلك الأجيال من فوضى وانحرافات جنسية فهو ما يتوافق مع النص على نحو ما، لذا سنقبله، ولكن بعد أن نقف عنده وقفة قصيرة، والسبب الآخر سوف ندعه وشأنه؛ لأنه لم يكن هناك اعتقاد في وجود عالم آخر إلا بعد تلك الفترة بمئات السنين، فكيف يعقل أن يوجد هذا الاعتقاد عند جيل الطوفان؟!

---

(84) "تفسير سفر التكوين" أنطونيوس فكري، ص 192.

(85) المرجع السابق، ص 189.

أبناء الله وبنات الناس

"وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأُوا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. فَقَالَ الرَّبُّ: (لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلى الأَبَدِ. لِزَيَغَانِهِ هُوَ بَشَرٌ وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً). كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أيضًا إذ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَداً هَؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ".

حاول بعض الشراح أن يستخرجوا أسوأ الدلالات من تلك الإشارات المبهمة عن التزاوج بين السلالتين، فجعلوا منها على هذا النحو: ويتضح من قوله "من كل ما اختاروا، إنهم زاغوا بشهوتهم إلى الزواج من بنات الناس بلا حساب لأي شيء سوى جمالهن، وناقضين أيضًا ناموس الطبيعة بالزواج من أكثر من واحدة فقد كان يدفعهم اشتهاؤهم لحسنهن إلى الزنا مع كل ما اختاروا بلا ضابط ولا رادع؛ وإذ مالوا بقلوبهم إلى شهوات أجسادهم تركوا الدعاء باسم الله، وردتهم زوجاتهم (بنات الناس) عن عبادة الإله الحي إلى عبادة لذّاتهم [86]".

لا ندري كيف يمكن أن يكون تعدد الزوجات من بين أسباب الطوفان، ثم تخلو التشريعات اليهودية اللاحقة كلها من تحريمه، بل نجد التعدد حاضرًا عند أهم أبطال العهد القديم أخيارًا كانوا أم أشرارًا، بدءًا من إبراهيم وأبنائه من بعده وصولا إلى أنبياء وملوك الأسفار الأخيرة حتى بلغت نساء الملك سليمان ألفا:"وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري" (1ملوك:11 - 3)، وهذا السبب الأخير يمنحنا فكرة عن اختلاق الشراح المسيحيين أسبابًا عجيبة للطوفان، وما كانت تخطر في بال كاتب تلك الأسطورة أبدًا؛ لأنها ببساطة لا تتوافق مطلقًا مع التصورات الدينية للعبرانيين القدماء، ولا تتناسب مع نظمهم التشريعية، بل كانت تنتمي إلى تصور ديني متأخر، يريد أن يقحم نفسه على تصور ديني سابق ويتخذه عنوة سلفًا له .

في الحقيقة، إننا رغم ما وجدناه من تحامل واضح من كاتب السفر على ذرية قايين فإننا لم نصدق بعد طول التأمل أن يكون التزاوج بين هذين الفرعين من ذرية آدم على افتراض حدوثه سببًا من بين أهم أسباب الطوفان وأوضحها، ولو حدث هذا لأمكن

[86]"شرح سفر التكوين" يوحنا المقاري، ص 156.

عدُّه عند كاتب النص سببا فرعيا، وما كان ليحتل أبدًا كل تلك الأهمية؛ إذ لو كان هذا التزاوج بين الفرعين هو المقصود، فلم يكن ليصعب على كاتب التكوين أن ينص على ذلك بوضوح، ودونما ضرورة لهذا الغموض والإبهام. ومن الصحيح القول: إن هذا التولع بالنقاء السلالي للذرية المختارة كان حاضرا، وسيظل موجودا على طول الكتاب المقدس وعرضه[87]، ولكننا لا نسيغ أن المقصود هنا ما يقول به الشراح المسيحيون من تزاوج أبناء شيث ببنات قايين؛ حيث يلحظ استخدام الكاتب لكلمة الناس في أول الآيات بمعنى بني البشر في قوله: "وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ"، ما يعني عنده انتشار ذرية آدم من فرعيه معًا، ثم نلحظ أن أبناء الله هم من يتزوج ببنات الناس، وليس من إشارة تقول بالتزاوج المختلط، ما يوحى في اعتقاد الكاتب بذكورية الملائكة الساقطين جميعًا، وهذا ما يتوافق مع عموم الأساطير فلم نسمع في حدود ما نعلم عن إلهة أنثى أسلمت نفسها لأحد أبناء البشر الفانين، بل نجد أن الآلهة هم من يضاجعون بنات البشر، فضلا عن التغاير الواضح بين كلمتي (الطغاة) أي المتمردين العصاة من أبناء قايين، و(الجبابرة) الذين اشتهروا منذ الدهر بقواهم الخارقة، فلا علينا أن نقبل بحضور هذه الأسطورة الشعبية في عقل كاتب السفر عن العمالقة الخارقين الذين عاشوا قبل الطوفان، وأن نجد معقولية ما في أن يرجع المؤلف هؤلاء (الجبابرة) إلى تزاوج الملائكة (بني الله) ببنات البشر تمامًا مثل أنصاف الآلهة في أساطير الشعوب الأخرى، الذين هم نتاج تزاوج ذكور الآلهة المتجسدين بنساء البشر، ولن نعلم أبدًا ما كان يتصوره الكاتب عن جسامة هؤلاء الجبابرة، لكن يكفي أن يتذكر القارئ أن آدم كان مخلوقًا هائلاً [88]، وأنّ بنيه قد جاءوا على شبهه وصورته لكي يعرف

(87) سوف نجد من آخر وصايا إبراهيم لعبده (إليعازر) أن يزوج ابنه الأثير إسحاق من عشيرته، ودون أن يهتم أبدًا بشأن بكره إسماعيل؛ بل سيكسر إبراهيم نفسه هذا التقليد بزواجه من قطورة بعد رحيل سارة! وسوف نجد يعقوب يلتزم بهذا التقليد دون أخيه عيسو، وسنجد من بين أسباب تمرد مريم وهارون على موسى زواجه من امرأة كوشية إلخ. لا ندري كيف يمكن مثلا لرجل صيني أو ياباني أن يقرأ مثل هذا الكتاب؟! وكيف له أن يصدق أن هذا الكتاب يتحدث عنه أو يهتم بشأنه من قريب أوبعيد؟!

(88) تابع الإسلام التصور اليهودي الخرافي عن جسامة المخلوق الأول، فجاءت الأحاديث بأن آدم كان يبلغ ارتفاع قامته ما يقرب من ثلاثين مترًا، كما يقول هذا الحديث (عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"، رواه البخاري (3336) ومسلم (7092).

شيئًا عن هيئة هؤلاء الجبابرة الذين كانوا بلا ريب يفوقون البشر أضعافًا مضاعفة حتى استحقوا هذا النعت المهيب: (الجبابرة)!

أما من يرفض هذا المنطوق الواضح؛ لأنه يخالف لديه تصورا كتابيا متأخرا عن الملائكة فهذا خطؤه هو على كل حال؛ لأنّ من يقرأ سفر التكوين متناسيًا لبرهة ما لحق بمفهوم الملائكة من تطور هائل سواء عند اليهود أو المسيحيين، فلن يجد صعوبة في إدراك ما كان يقصده كاتب النص، بل سيستخرج دونما عناء أنه كان يقصد المعني الحرفي المباشر دون أن يلتفت إلى تأويلات الشراح المتأخرين، الذين يحاولون أن ينطقوا النص بمفاهيم لم تكن لتخطر على بال كاتبه، وحيث يجده في هذا السفر ينص بوضوح على أن الملائكة كانت تأكل وتشرب، ثم تطورت إلى كائنات سماوية تتنزه عن الطعام والشراب، فما الغريب في أن يحدث هذا أيضًا في كون الملائكة قد تطورت من كائنات كانت تتزوج وتتناسل مع بعضها بعضا، ومع بني البشر أيضًا لتصير في النهاية كائنات غير جنسية حتى يستطيع القديس متّى أن يقولها بهذه البساطة "الملائكة لايتزوجون"؟!(متى - 22-30).

من بين التفسيرات التي تستحق أن تورد ولا تهمل ما قدمه هذا الباحث الجليل حيث يقول:"وأما عملية خلق الإنسان فأمرها أكثر تخبطًا، فهو مرة خلقه على صورته... ولم يخلق فردًا بل (خلقهم) (تك 1-27)، وباركهم وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها... إلخ بمعنى أنه خلق مجموعة ضخمة من الذكور والإناث لعلهم الذين قصد بهم، أو بنسلهم فيما بعد، (الناس)، (تك 6- 1-2) الذين بدأوا يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات ورأى أبناء الله أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم منهن نساء مما أغضب الله.. وأما أبناء الله هنا فإنهم نسل آدم الذي يشار إليه في ناحية أخرى بأن الله جبله ترابًا من الأرض (تك 2-7)، ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار نفسًا حية وأحله في جنة عدن ثم صنع له معينًا نظيره من واحد من أضلاعه (تك 2- 21-24)--[89]".

(89)"مصر والشرق الأدنى القديم" د. نجيب ميخائيل إبراهيم، الطبعة الثانية 1964م، المجلد الثالث ص 189. ومن الطريف أن ما اقترحه هذا المؤرخ هو ذاته ما سينطلق منه روائي مبدع مثل جوزيه ساراماجو في روايته اللطيفة "قايين"! ولكن أين عمل المؤرخ الذي يتصدى لتفسير قصة دينية من خيالات الروائيين؟!

والكاتب كما ترى يقترح وجود سلالتين مختلفتين من البشر؛ إحداهما نسل عملية خلق جماعية، وأخرى من نسل مخلوق مميز خلقة الله وحده ومنحه ربما ما لم يمنح صنعته الأولى من عناية واهتمام وهو آدم ومعه زوجه حواء!

الحقيقة، إنه اقتراح على جرأته غير مقنع تمامًا؛ مرة لغياب أي برهان عليه من الكتاب بعد تلك الكلمة، وخاصة أن تفسيرها في موضعها لابأس به، وأخرى لأنه لا يفسر لنا سبب غضب الله؛ لأنه إذا كان الله قد بارك الأولين أيضًا، فلمَ الغضب من تزاوجهما؟ أما إذا افترضنا أن الله قد عاقبهم لأنهم تمردوا عليه فنسل قايين بن آدم يكفي أيضًا لهذه المهمة دونما احتياج إلى سلالة بشرية أخرى غير سلالة آدم، فهو على هذا استرسال غير معقول؛ لأنها فرضية تتأسس على فرضية أخرى، وهذه دائرة لا نهاية لها!

ومن عجب أن يأتي هذا التنزيه من داخل عقيدة لم يأبه كتابها المقدس بتقديم تصور واضح عن أصل الشياطين إلا بوصفهم ملائكة ساقطين، وعلى خلاف القرآن الذي منح الشيطان أصلاً مغايرًا للبشر وللملائكة معًا ومنذ اللحظة الأولى بأن ألحق الشيطان بعقيدة الجن وهي كما هو معلوم عقيدة شعبية كانت متجذرة في الموروث الثقافي للعرب قبل بعثة النبي محمد بقرون بعيدة كما سنرى فيما بعد[90].

وهذا الذي تحرج من قبوله بعض المفسرين لم يجد بعض الشراح الآخرين ضيرًا من قبوله والإقرار به مثلما فعل القائمون على الترجمة التفسيرية للآباء اليسوعيين: "يعود المؤلف إلى أسطورة شعبية عن جبابرة (في العبرية نيفيليم) يقال إنهم ولدوا من زواج بين كائنات بشرية، وكائنات سماوية. وهو لا يبدي رأيه في قيمة هذا الاعتقاد ويخفي وجهه الأسطوري فيقتصر على التذكير بهذا الجنس الوقح من الجبابرة كمثل للفساد المتزايد الذي سوف يسبب الطوفان. اليهودية اللاحقة وجميع المؤلفين المسيحيين الأولين رأوا في (بني الله) هؤلاء ملائكة مذنبين، ولكن آباء الكنيسة منذ القرن الرابع فسروا جميعهم (بني الله) ببني شيث و(بنات الناس) بذرية قايين[91]"، وبهذا أيضا يقول

---

(91)انظر: "الكتاب المقدس"، الطبعة الثالثة 1994م، دار المشرق، بيروت، الرهبنة اليسوعية الترجمة التفسيرية، ص 77، حاشية رقم 1.

شارح حديث للكتاب المقدس: "يفسر بعض المفسرين (أبناء الله) على أنهم أبناء شيث خلافًا لأبناء قايين، وآخرون بمن فيهم الكتبة اليهود الأول على أنهم الملائكة، ومع أن العهد القديم يعلن أن شعب الله هم أولاده فإن المعنى العادي للفظ أبناء الله فعلا هو الملائكة، ولم يوجد شيء ليجهز القارئ ليفترض أنً (الناس) في هذا المكان يُقصَد بهم أبناء قايين فقط [92]".

سقوط الملائكة

"وحصل أنه حين تكاثر البشر، ولد لهم بنات غضات جميلات، نظر إليهن الملائكة، أبناء السماء واشتهوهن. وقال الواحد للآخر: لنختر نساء وسط البشر ونلد أولادًا فقال لهم شميحزا رئيسهم: أخاف أن تتراجعوا وأخطأ وحدي خطيئة كبيرة. أجابوه كلهم: نحلف كلنا ونحرم بعضنا بأننا لا نتراجع عن هذا القصد، بل نتمه ونعمل الأمر. حينئذ حلفوا كلهم معًا وحرموا نفوسهم بأن لا يتراجعوا عن ذلك. كانوا كلهم مئتين. نزلوا في زمن يارد على جبل حرمون. سمي الجبل حرمون لأنهم هناك حلفوا وحرموا نفوسهم، وإليك أسماء رؤسائهم .... هؤلاء وجميع رفاقهم أخذوا لهم نساءً، واحدة لكل منهم، وشرعوا يقربوهن ويتدنسون بهن. علموهن العقاقير والسحر وعلم النبات، وأروهن الأعشاب. حبلت النسوة وولدن الجبابرة بقامة ترتفع ثلاثة آلاف ذراع. فأكلوا كل ثمر تعب البشر، بحيث لم يسع البشر بعد أن يطعموهم. فتحالف الجبابرة عليهم ليقتلوهم، وافترسوا بشرا. وشرعوا يخطئون مع جميع الحيوان والطير والبهائم والزحافات والسمك، بل افترسوا بعضهم بعضًا، وشربوا الدم. حينئذ اشتكت الأرض على المجرمين بسبب ما فعلوا. وعلَّم عزائيل البشر صنع السيوف والتروس والدروع كما تعلمها من الملائكة، ودلهم على المعادن، وكيف يشغلونها، وكيف يعملون الأساور والحلي والكحل والإثمد، وكل أنواع الحجارة الكريمة والصبغ فنتج عن ذلك كفر عظيم. فجر الرجال وضلوا وبادوا في جميع طرقهم. وعلمهم شميحزا السحر وعلم النبات، وحرموني التقسيمات والرقوة والشعوذة والعرافة .... [93]".

---

[92] من كتاب "التفسير الحديث للعهد القديم" التكوين، ص88.

[93] "أخنوخ سابع الآباء"، كتاب أخنوخ أو أخنوخ الأول وأسرار أخنوخ أو أخنوخ الثاني، الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، الطبعة الأولى 1999م، ص 32-33.

لعل هذا النص من الكتب المنحولة، وهي مجموعة من التقاليد والكتابات دونت بين القرن الثاني ق.م، وبداية القرن الأول المسيحي، هو أساس الاعتقاد القرآني في كفر قوم نوح، ولعل قصة عوج بن عناق التي شاعت وراجت في التفاسير الإسلامية تعكس نتفًا من المرويات التفسيرية لليهود المتأسلمين عن هؤلاء الجبابرة الذين هلكوا في الطوفان فقد ذكروا:"أنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحر ويشويه في عين الشمس، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيعة التي لك ويستهزئ به، ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مئة وثلاثة وثلاثين ذراعًا إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول[94]".

أيضا يفسر لنا تلك الآية القرآنية المتأخرة عن تعليم الشياطين البشر للسحر بعد أن جعل النبي الملائكة الساقطين من الشياطين، ونقل أحداثها إلى زمن سليمان، ربما بتأثير خرافة تلمودية شاعت بين يهود العرب:* وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾* (البَقَرَة: 102-103).

رابعا: مشكلات الطوفان العام والحلول الكتابية لها.!

---

(94)"البداية والنهاية" لابن كثير الدمشقي، بيت الأفكار الدولية 2004م، لبنان، تحقيق: حسان عبد المنان، الجزء الأول ص 81.

"يا رجل شروباك، قوض بيتك وابن سفينتك، وانبذ ما تملك، انج بحياتك، وخذ معك إلى السفينة بذرة كل كائن حي[95]".

لو حدث أن ورد ذكر الطوفان في الكتب الدينية كحادثة محلية اختص الله بها بقعة صغيرة من الأرض لكان في إمكان المؤمن بإلهية كتابه المقدس أن يصدق بوقوعها، وإن لم يكن لديه أي برهان على حدوثها؛ إذ يكفيه أن ليس عند غيره دليل على استحالتها كذلك، لكن الرواية التوراتية، ومعها القرآنية على الأرجح، تقرر كما سنرى أن الطوفان قد غمر جميع الأرض، وأن نوحًا قد أخذ معه أسلاف جميع الكائنات الحية التي تعمر كوكبنا الآن، فهل هذا أمر معقول؟!! لكن دعونا أولا نعرض النصوص التي تقرر عموم الطوفان.

هل كان الطوفان عامًّا؟

أما عن الآيات التي تتحدث عن عموم الطوفان لكل الأرض فهي واضحة ولا مجال لتأويلها بحال من الأحوال، ومنها مثلا: "فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ"، "وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أيضًا سَبْعَةً، سَبْعَةً: ذَكَراً وَأُنْثَى. لاِسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ"، "فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. خَمْسَ عَشَرَةَ ذِرَاعاً فِي الاِرْتِفَاعِ"، "فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ وَكُلُّ الزَّحَّافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ وَجَمِيعُ النَّاسِ. كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ. فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ وَالدَّبَّابَاتَ وَطُيُورَ السَّمَاءِ فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ".

من ينظر في تلك النصوص فلن يسعه سوى التيقن من أن كاتبها كان يعني ما يقول، وأنه كان يقصد حرفيا بأن الطوفان الذي أرسله الله على البشر قد عمَّ الأرض كلها، وأنه قد ذهب بكل ما عليها من مخلوقات حية، وهو ما لم يتحرج من الإقرار به أغلب الشارحين قدماء ومحدثين .

"هَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هَؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ".

---

(95)"الطوفان في المصادر السومرية.. البابلية.. الآشورية العبرانية" فؤاد جميل، المركزالأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى 2014م، ص15.

في معرض شرحه لتلك الآية السابقة يقول أحد الشارحين: "هذه الآية نص صريح على أن الطوفان أغرق كل الناس سوى نوح وأهل بيته الذين كانوا معه في السفينة، وأن الطوفان عمَّ الأرض المسكونة يومئذ بخلاف ما ذهب إليه بعضهم [96]"، وهذا شارح آخر يشارك الشارح الأول الرأي ذاته فيقول: "ويصف الوحي كل ذلك، مؤكدًا شمول الطوفان على الأرض كلها (فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء... فمات كل ذي جسد... فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض... وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط (تكوين 7-19-24)، وهذا ما يؤكده أيضًا الرب يسوع عند ذكره لحادثة الطوفان بقوله (لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع كذلك يكون أيضًا في مجيء ابن الإنسان) (متى 24- 38- 39) [97]".

الحقيقة، إنه لم يكن على مصدقي تلك القصة من عامة مؤمني العصور القديمة، بل من أنبيائها ما يلامون عليه؛ إذ لم يكونوا يدركون أي مشكلات يثيرها التصديق بحدوث طوفان كوني يعم الأرض بأسرها، فلقد كانوا لا يعرفون سوى القليل عن سعة هذا الكوكب، وسوى أقل القليل عن تنوع أحيائه، وتوزعها على عشرات الآلاف من الأنواع سواء من الحشرات، أو الثدييات، أو الطيور والزواحف والبرمائيات، فلنتوقف قليلاً عند بعض المشكلات، ولنعرض معها بعض الحلول اللاهوتية لتلك المشكلات.

(96)"السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم.. شرح سفر التكوين" القس وليم مارش، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، 1973م، ص 63.

(97)"شرح سفر التكوين"، يوحنا المقاري، ص 161- 162.

كيف جمع نوح الحيوانات؟

وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: "ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إلى الْفُلْكِ لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارّاً لَدَيَّ فِي هَذَا الْجِيلِ. مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً، سَبْعَةً ذَكَراً وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَراً وَأُنْثَى. وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أيضًا سَبْعَةً، سَبْعَةً: ذَكَراً وَأُنْثَى. لاِسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ".

إذا كان الرافضون لهذه القصة يجدون مثلا استحالة في أن يقوم رجل واحد أو بضعة أفراد بجمع كائنات المسكونة جميعها من ثدييات ونباتات وزواحف وحشرات وطيور طاهرها ونجسها، ما كان منها في متناول يده، وما ندَّ عنها فسعى نوح خلفه إلى أقاصي الأرض، ويتساءلون كيف استطاع نوح وحده أن يحشد جميع تلك الحيوانات من على ظهر الأرض ويضعها على ظهر سفينته؟! ومن يعرف أي صعوبات يلاقيها علماء الأحياء البرية، وأي أجهزة وأدوات يحتاجون إلى اقتناص حيوان بري واحد فلن يسعه سوى أن يعجب من براعة نوح؛ حيث جمع للأجيال المقبلة جميع الكائنات الحية من: الأبقار، والأغنام، والأرانب، والخيول، والقردة النباحة، والفيلة، والدببة بألوانها، والفئران، والأفاعي بأنواعها بدءًا من المامبا الخضراء سريعة الحركة إلى الأناكوندا العاصرة ثقيلة الخطا، والأسود، والنمور، والعقارب، والكناغر الأسترالية، وثور الياك التبتي، والماموث السيبيري، والزراف الإفريقي، وأيائل التندرا، وشيطان تسمانيا، والغزلان، والعقارب، والتماسيح، ووحيد القرن، والخيول، وغرير العسل، والضباع، والخنازير، إلى عشرات الألوف من الطيور والحشرات والبرمائيات، ثم يتساءلون ومعهم كل الحق: هل هذا معقول؟!

أما المؤمنون بحرفية الكتاب المقدس فلا يرون في هذه الصعوبات التي لا تُنكر أبدًا سببًا كافيًا لرفض تلك الواقعة في ذاتها، فهذا هو مثلا القديس أوغسطينوس يقدم لنا تفسيرا واضحا وبسيطا لهذه المشكلة فيقول: "ونوح رجل بار كامل في جيله، كما يقول عنه الكتاب الصادق، أمره الله أن يبني فلكا لخلاص أهله؛ أعني زوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم مع جميع الحيوانات التي جاءت إليه داخل الفلك طاعة لأمر الله [98]".

إذن، فقد حلت هذه المشكلة الوهمية، ولم يكن سوى أن أمر الله تلك المخلوقات بأن تأتي حتى استجابت لندائه، وقدمت من جميع زوايا الأرض زرافاتٍ ووحدانًا، وكان

[98] "شرح سفر التكوين" للقس يوحنا المقاري، ص159.

على بعضها أن يعبر محيطات شاسعة، أو أن يزحف على بطنه ألوف الأميال، ولكن ما من مشكلة فلقد كانت مسألة وقت، وصعوبات فنية، ولقد حلت بطريقة أو بأخرى! فماذا لدى المرتابين المشككين أيضًا؟! كيف حملت السفينة جميع الكائنات وطعامها؟ وكيف استطاع نوح وأسرته رعاية حيوانات الكوكب وحدهم؟!

الأمر سهل ، بل ولا أسهل منه فقد: "كانت مدة تجهيز الفلك 120 سنة وهي مدة كافية جدا لتخزين كل الأطعمة المطلوبة، ولتجميع الحيوانات، ولم يكن الفلك الذي بناه نوح مجرد زورق صغير، إنما كان مركبًا كبيرًا جدا يبلغ طوله مرة ونصف طول ملعب كرة القدم، وارتفاعه ارتفاع مبنى مكون من أربعة أدوار، وقد أخذ نوح من كل نوع من الأنواع الطاهرة سبعة أزواج، ومن الحيوانات غير الطاهرة زوجًا واحدًا. إذن، فالعدد معقول كما أن نوحا وأسرته لم يكن لهم أي عمل آخر إلا إطعام الحيوانات طول النهار، فلا بد أن وقتهم كان يكفي لإعالة هذه الحيوانات، والتخلص من فضلاتها، ومهما أعملنا عقولنا لندرك جميع تفاصيل الحدث فلن يمكننا ذلك، فنحن نؤمن إيمانًا صادقًا بأن الطوفان وفلك نوح حقيقة تاريخية ثابتة من خلال الكتاب المقدس والتراث الإنساني والحضارات المختلفة وعلم الآثار[99]".

الحقيقة، إنه ما من دليل في الكتاب المقدس يقول إن نوحًا قضى تلك الفترة في جمع الحيوانات وتخزين الطعام لها، إذا تجاوزنا عن أي طعام هذا الذي يجمع ويدخر ليستهلك بعد مائة عام؟! بل ربما تقول الآيات إن نوحًا قضى هذا القرن، وربعه في صنع السفينة، وأما عن المدة التي احتاجها نوح لجمع الحيوانات وطعامها فهي تتناسب بالأحرى مع فهم هذا الشارح الأمين لنصوص الكتاب المقدس والذي كفاه أسبوعٌ واحد ليدخل إلى سفينته جميع المخلوقات التي أراد (كان بناء السفينة قد تم، وبعد أسبوع شغله نوح بجمع الحيوانات كان عليه أن يدخلها [100]).

[99]"أصعب الآيات"، ص 199.

[100]"السنن القويم"، ص55.

كيف عاشت تلك الحيوانات معًا؟!

"وَدَخَلَتْ إِلى نُوحٍ إِلى الْفُلْكِ اثْنَيْنِ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ".

أما الإجابة عن أسئلة ضعيفي الإيمان، وتساؤلهم غير المهذب عن كيف سارت تلك الحيوانات خلف نوح وأولاده طواعية، وألوف من أنواعها كما هو معروف حيوانات متأبدة وحشية؟! وكيف تكدست تلك الحيوانات جميعًا في طابق واحد في سفينة؟ وكيف استطاع نوح أن يصنع عشرات الألوف من الأقفاص بأحجامها ليفصل بين الضواري اللاحمة، والحيوانات العاشبة؟

الحقيقة، إنه ما من مشكلة في ذلك أيضًا، إن كنت قوي الإيمان، راسخ العقيدة، فقد (دخلت إلى نوح) لا ريب في أن ذلك كان بقوة الله فتبعتْ بتحريكه إياها نوحًا، وعياله الذين دخلوا أولا، فدفع الله معاداتها الطبيعية، فأمر الله الحيوانات كما أمر نوحا. ونرى في ذلك رمزًا إلى الزمان المذكور في قول أشعياء النبي "فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها والبقرة والدبة ترعيان تربض أولادهما معًا والأسد كالبقر يأكل تبنًا" (إشعياء 11 الآيات 6-7)[(101)].

والإجابة كما رأيت سيدي القارئ بالغة السهولة؛ فقد أزال كلي القدرة جميع ما بين تلك الحيوانات من مشكلات، واختفى الصراع الأبدي بين السنوريات والقطط،

(101)المرجع السابق، ص 57. ومن المعلوم أن هذا الوصف الشاعري الخلاب الذي جاء في سفر إشعياء عن انتشار السلم والطمأنينة على الأرض واختفاء أسباب الشقاق والمنازعات حيث لن يكون هناك سوى الصفاء الشامل، والوفاق الغامر بين الكائنات جميعها، ليس سوى مجرد أصداء مستقبلية مقلوبة لجنة دلمون السومرية؛ بل إننا نجد أن كثيرًا من أساطير العالم القديم عن أزمنة الماضي السعيدة كانت تحوي أمثال تلك التصورات بل التعبيرات الأدبية ذاتها!

"فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسن معًا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدابة ترعيان تربض أولادهما معًا، والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي؛ لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب، كما تغطي المياه البحر"(إشعيا 1-6-10-).

في بلاد دلمون لا ينعق الغراب
والطائر كيتي لا يطلق الصراخ هنا كعادته
والأسد لا يفترس أحدًا
والذئب لا يختطف الحمل ولا يعرف (هنا) الكلب مفترس الجداء
ولا الخنزير ملتهم الحنطة
ولا الذي فيه وجع في العين لا يقول (عيني توجعني)
والرجل المسن لا يقول أنا رجل مسن

انظر: "من سومر إلى التوراة" د. فاضل عبد الواحد علي، الطبعة الثانية 1996م، سينا للنشر، ص 202.

وذاب ذاك الإجفال الغريزي للعواشب من اللواحم؛ فقد عم السلام لسنة كاملة بين جميع الحيوانات، فلا ضرورة لأقفاص أو حواجز، بل لا ضرورة لأن يأخذ نوح لكل لاحم على الأرض فرائس حية تكفيه عاما أو أكثر، وإلا فسيحتاج إلى ألوف الفرائس، لكي تعيش عليها آكلات اللحوم لسنة كاملة، ولربما أكل الجميع العشب[102]! وأما من لم تقنعه أمثال تلك الإجابات، وما زال قادرًا على طرح هذا السؤال الأخير: لكن هل تستطيع سفينة مهما بلغ حجمها أن تحمل ولو عشبا جافا يكفي حيوانات العالم كله لأكثر من عام؟ فإليه هذه الإجابة: "أما بالنسبة إلى الطعام فنوح لم يكن يعلم كم من الزمن سيقضي في الفلك، ولكننا نؤمن أن الله قادر على أن يبارك في الطعام الذي تم تخزينه فيكفي الجميع بل إن الله قادر على أن ينزع الطبيعة الوحشية من بعض الحيوانات المفترسة مثلما حدث مع دانيال في الجب[103]" .

كما ترى عزيزي القارئ، فموقف المؤمنين عوامهم وخواصهم من أمثال تلك الأسئلة المزعجة المشروعة لا تخرج عن ثلاث إجابات: الأولى هي تلك الحلول التي تعتمد على حجة قدرة الله القادر على كل شيء، الذي لا تعجز قدرته عن شيء، مهما بدا لعقولنا القاصرة غريبًا أو عجيبًا، وهذه الحجة على ضعفها ووهنها خارج دائرة المؤمنين، فهي في الحقيقة أكثر إقناعًا من النوع الثاني، الذي ينتمي إلى ما يمكن أن نسميه بإجابات (العلم الزائف)؛ أي من أقوال هؤلاء المتعالمين الذين يحاولون تقديم إجابات تبدو علمية في ظاهرها، ولكنها في الحقيقة لا تفسر شيئًا، ولا تقنع إلا من يريد

---

(102)"وَقَالَ اللهُ: إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا. وَكَانَ كَذلِكَ." (تك1-30).

لعل فيما نصت عليه التوراة في الفقرة السابقة يشير بوضوح إلى أثر من آثار الاعتقاد في تلك الفترة الذهبية الأسطورية؛ حيث كانت الحيوانات جميعًا تأكل العشب، ولم يكن ثم مفترسات ولا فرائس، ولم يكن الله قد أباح للإنسان بعد تذوق اللحم الحيواني؛ لأنه من المعروف أن الله لم يبح للإنسان ذلك إلا بعد الطوفان!

"وَبَارَكَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَأَكْثِرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ[2]. وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ، مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ. قَدْ دُفِعَتْ إِلَى أَيْدِيكُمْ[3].كُلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَامًا. كَالْعُشْبِ الأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ الْجَمِيعَ" (تك 9 -1-3).

أما عن سبب تلك الإباحة المتأخرة فيعزوه هذا المفسر إلى سقوط الإنسان: "سقوط الإنسان حول طبعه لطبع وحشي فوجدنا قايين يقتل أخاه هابيل، ووحشية الإنسان انعكست على الحيوان فصارت بعض الحيوانات متوحشة، وصارت بعض الطيور متوحشة، وهكذا الأسماك. وحرصًا من الله ألا يتحول الإنسان لوحش يأكل أخاه سمح الله بأكل لحوم الحيوانات. إلا أننا أيضًا وجدنا بعض القبائل تأكل لحم الإنسان" تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري، ص201.

(103)"أصعب الآيات فى سفر التكوين"، ص 198.

أن يقتنع بها، وهناك طائفة ثالثة قد لا تقنعها هذه الإجابة ولا تلك، ولكنها تأمل أن يأتي يوم ما في مقبل الزمان؛ حيث تتكشف فيه حلول أكثر معقولية لأمثال تلك المشكلات المزعجة لعقولهم، لكنهم يظلون - رغم تلك المزعجات - على إيمانهم، ويعلّقون الحكم على هذه الإشكالات التي تملأ الكتب المقدسة. وسواء اختار المؤمن أيا من هذه المواقف الثلاثة فهي تكشف لنا بوضوح عن أن من يصدق موقنًا في حدوث أمر ما فليس أسهل عنده من أن يجد حلا لكل مشكلة، وأن يجد إجابة عن كل سؤال! بل لن يُحدث غياب الإجابات أي مشكلة لديه؛ فهذا الفراغ العقلي أخف وطأة عنده من فراغ القلب، ومن أن يبقى المرء بلا إيمان ينشده ويستبقيه بكل سبيل، حتى لو اضطره ذلك إلى تفسير الأسطورة بالأساطير، وتقوية الوهم بالأوهام!!.

لماذا كان الطوفان إذن؟!

"فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْماً مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ" (تك 6: 13).

إذا كان القرآن قد أرجع الطوفان إلى رفض قوم نوح توحيد الله، وتمسكهم بعبادة الأصنام فقد جاءت الرواية التوراتية بأسباب مبهمة غامضة، فلم تقدم سببًا واضحًا للطوفان سوى أن الأرض قد امتلأت ظلمًا منهم، وشاعت بينهم بعض الموبقات الجنسية حتى بدا الرب التوراتي في تلك القصة مثل مزارع عصبي المزاج راح يتفقد حقله، وهو يعاني خيبة أمل شديدة في ثمرة غرس يده، وفي نوبة غضب ماحق نراه ينتزع إحدى الشجيرات التي رآها أفضل بقليل من سواها؛ ليستنبتها بعد ذلك، ثم يشعل النار في بقية غرسه، ولكنه سرعان ما سيتبين له أن تلك الفسيلة لم تكن أفضل في كثير أو قليل مما أغرق وأفنى، فهل كانت الشعوب التي خرجت من أصلاب هؤلاء الآباء أفضل في شيء من تلك الشعوب التي أغرقها الطوفان؟! فلماذا كان الطوفان إذن ؟!

الإجابة الواضحة التي نعتقدها أن كاتب التوراة كان كما يبدو متعجلا في إسدال الستار على أهل تلك العصور الغامضة، التي لم يكن يُعرف عنها شيء سوى تلك الأسماء العجيبة لتلك الشخصيات الأسطورية الملفقة؛ فكان في استعارته قصة طوفان عام حلٌّ بدا له موفقًا لكى يطيح بهم، ويخرج من ذرية الأفراد الثمانية الناجين الآباء الأسطوريون الثلاثة لمن كان يعيش في زمنهم أو يعيشون في زمانه، ومن السلالة

المباركة سيخرج إبراهيم وبنوه من أحدهم، ومن ثانيهم سيخرج أعداء شعب الرب، ومن الابن الثالث سيخرج المحايدون!

الطوفان التوراتي والطوفان القرآني

"وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها الملكية العبرانية، وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظمًا.[104]".

إذا كان النبي محمد كما سنرى سيختزل معالم التجربة الإنسانية وسيحصرها في دائرة الصراع الأبدي بين الإيمان وبين الكفر، فقد حصرها كاتب التوراة من قبل أيضًا، ولكن في دائرة الصراع الأبدي بين شعب الرب وأعدائه من الأمم والشعوب، وسوف يتجلى الرب التوراتي حتى الآية الأخيرة من السفر الأخير داخل هذا المنظور دون أن يتجاوزه أبدًا إلى أفق إنساني؛ فلم يحضر الله في تاريخ قبائل بل شعوب حضارات الشرق الأدنى بأكملها إلا لكي يسلط عليهم شعبه الحبيب إذا أطاعوه فيبيدونهم (ويحرمون) كبيرهم وصغيرهم، بل حتى حيواناتهم، أو يسلط الرب بعض تلك الشعوب على شعبه المختار لكي يؤدبه من خلالها فيستذلونه ويستعبدونه، وفي جملة واحدة: فقد اصطفى الله شعبًا واحدًا للنعمة والعناية، وحفنة شعوب قليلة للعنة والنقمة، وبقية الشعوب للإهمال والنسيان!

من يقرأ تاريخ هذا الشعب فسيعجب أشد العجب من هذا المفهوم العنصري البائس الذي يقف خلف هذا التصور الديني السمج، وما يعكسه من تضخم مرضي في ذات هذا الشعب، الذي لم يكن سواء بحدود أرضه أو قيمة نماذجه الإنسانية أو بمقدار تأثيره الفاعل في محيطه الثقافي، إلا حدثا عرضيا تافها في تاريخ تلك المنطقة الحافل بالأحداث والشخصيات العظيمة في كل المجالات، بل لا نشك في أن التأثير اللاحق لهذا الشعب لا يستحق أن يقدر من أجله أو يعظم؛ إذ قد جاء تأثيره رغم أنفه وبغير قصد منه! حقا لقد خرج من رحم هذا التصور الديني المحزن دينان عظيمان، لكنهما استمدا أفضل ما فيهما من تقاطعهما مع هذا الدين، ومن خروجهما على تعاليمه، ومن تحررهما بهذا

[104]"معالم تاريخ الإنسانية" هـ-ج- ويلز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 24.

القدر أو ذاك من تلك الدائرة المحكمة والشائهة التي سجن فيها التصور اليهودي نفسه، فأي فضل له في هذا؟!

في مقابل ذلك التصور اليهودي فقد اعتقد النبي محمد بأن الله لم يغب قط عن كل الأمم والشعوب، يستوي في ذلك ما عرفه النبي محمد من تلك الأمم وما لم يعرف حتى بأسمائها، ومن يقارن بين التصورين فلن يسعه سوى الإقرار بأن التصور القرآني على خطئه تاريخيا كما نعتقد، فهو رغم ذلك أنبل بكثير من التصور التوراتي، الذي هو فضلا عن خطئه الفاحش تصور عنصري دميم، وطفولي قبيح، وليس من فارق يجلي صورة إله القرآن عن صورة إله العهد القديم كما تظهره هذه النقطة عن اتساع دائرة الرعاية الإلهية أو انحصارها، وكذلك ليس من مثال يجلى الفارق بين إله القرآن وإله التوراة أكثر من صورة هذا الإله الذي أرسل الطوفان، فبينما نجد في القصة القرآنية إلهًا حكيمًا وصارمًا خلق البشر للتجربة، ثم يعاقب مخالفيه المتعنتين على رفض نبيه الذي ظل قرابة ألف سنة يدعو البشر للاستجابة إلى نداء الله دون جدوى، وبين صورة إله العهد القديم النزق الذي يشرع في إفناء البشر وينهي التجربة البشرية كلها قبل أن تبدأ، ثم نراه بعد أن يتنسم رائحة القرابين الحيوانية يتأسف ويندم ويعلق قوسه الملونة في السحاب تحسبا للسهو والنسيان.

من هذا المثال وحده يستبين لنا الفارق بين هدف التجربة البشرية التي أُسست منذ اللحظة الأولى على عقيدة الاستخلاف في الأرض، وتلك القوة الكونية العمياء التي تجعل من إله العهد القديم أقرب ما يكون إلى آلهة المجتمعات الوثنية منه إلى إله عقيدة توحيدية، فيتمتع بالكمالات الضرورية لمثل هذا المفهوم المتطور، ولن نتكلم هنا عن إله العهد الجديد، فالعجب لا ينقضي ممن يحاول أن يرى أن هذا هو امتداد لذاك؛ لأننا إذا عددنا أن إله القرآن هو تطور هائل لحق بصورة إله العهد القديم مستفيدًا بالطبع مما أتت به المرويات التلمودية من تطور، فإن إله الأناجيل لا يمت بصلة بتاتا إلى إله العهد القديم(105)!

(105)في اعتقادنا أن من يحاول أن يجد أساس التعاليم والعقائد المسيحية بين ثنايا العهد القديم فهو لا يبعد في خطئه وتوهمه عمن يحاول أن يجد أصول التعاليم والعقائد البهائية بين آيات القرآن!!

لماذا هذه الطريقة دون سواها؟!

أما لماذا كل هذه الكلفة في إبادة جماعة بشرية صغيرة عن طريق إرسال طوفان كوني يعم الأرض بأسرها، ويغمر ذرى جبالها بخمسة عشر ذراعا بالضبط [106]؟!

فالحقيقة الواضحة أنه لم تكن هناك ضرورة لهذه الطريقة في الإفناء، ولا كل هذا المجهود في الإهلاك والتدمير ما يوحي بأن تلك القصة إنما نسجت على مثال أسطورة حضارة نهرية يحضر الفيضان فيها بشكل دوري وعاتٍ أحيانًا كثيرة، بل لقد كانت تكفي حلول أخرى أيسر مؤونة لكي يهلك الرب العصاة كما سيفعلها يهوه كثيرًا مثل: إماتة أبكار أولاد المصريين جميعًا في ليلة واحدة، أو تدميره جيشًا آشوريًا كاملاً قوامه مئة وخمسة وثمانون ألف محارب! أو حتى عند غضبه من بعض أفعال شعبه الحبيب، فقد كان يميت ويهلك بالآلاف وعشرات الآلاف مثلما قتل بالوباء سبعين ألف رجل في يوم واحد! فلمَ كل تلك الكلفة؟! ولماذا كل هذا الإسراف؟! أما عن الأسئلة التي سألها بعض الباحثين من قديم الزمان، على مشروعيتها الكاملة، من قبيل: أين ذهبت كل تلك المياه التي غطت الهيمالايا والأنديز وكليمنجارو في الوقت نفسه؟! وكيف انفصلت مياه البحر عن هذا المحيط الكوكبي، وعادت مالحة مرة أخرى؟ وغيرهما من عشرات الأسئلة، فلم يكن يعرف كاتب تلك الأسطورة أي مشكلات سيثير بقصته السخيفة تلك، ولم تكن عنده من باب أولى أي إجابة عنها. بناء عليه، يجب ألا نأخذ تلك الحكايات في ذاتها على محمل الجد، إنما يجب بدلا من ذلك أن نعرف أي غرض كان يقف خلفها، فهذا ما يجب تأمله والنظر فيه!

نوح بعد الطوفان

من بين الفروق المهمة بين الروايتين، ما يتعلق بتلك النقطة السابقة، وهي أن نوحًا القرآني يختفي تمامًا بعد نجاته هو ومن معه، فقد تمت الغاية من إيراد قصته، ومن ذكر دعوته، وأما ما حدث له بعد ذلك وللمؤمنين الناجين معه فلم يكن يستحق الذكر في القرآن، فقد عاشوا كما يعيش الناس وماتوا كما يموتون، وخلف من بعدهم خلف ارتدوا إلى الوثنية كالعادة، وهكذا دواليك، مما اقتضى أن يبعث الله نبيا آخر في هؤلاء الكافرين

(106) يجب على القارئ العاقل ألا يستفز من دقة كاتب التوراة، وإن كانت تستفز الحليم حقا، فلم يكن ربما يقصد من خلف هذا اللغو المتحذلق سوى تأكيد أنه لم ينجُ أي مخلوق من بين الأحياء جميعًا حتى لو اعتصم بأعلى قمة جبل على ظهر الأرض مثل ما حكاه القرآن عن ابن نوح! وإن كنا نرجح بقوة أن خلف قصة ابن نوح الكافر هذا قصة تلمودية لم تصلنا!

ليدعوهم للعودة إلى ما كانوا عليه من الإيمان، أما نوح التوراتي فهو إن اختفى كشخص بعد الطوفان رغم بقائه بعده حيًّا يرزق لثلاثة قرون ونصف القرن، لكنه ظل حاضرًا في أبنائه الذين سيبدأ معهم التاريخ الحقيقي أو القريب من الحقيقي، كما ظن كاتب التوراة. لذا، فقد كان نوح ضروريا عند كاتب التوراة، أكثر من مستلهم القرآن، وذلك لاحتياجه إلى نقطة بدء واضحة لتأسيس ما توهمه تاريخًا حقيقيًّا عبر إيجاد أصل لسلاسل أنساب متوهمة لمعاصريه، وفرصة ذهبية أيضًا لتصفية حسابه أيديولوجيًّا لاحقًا مع الشعوب التي حاربت العبرانيين في أيامه مثل الكنعانيين أحفاد كنعان، عبد العبيد، وقل مثل ذلك عن المؤابيين والعمونيين أولاد السِّفاح من زنا لوط السكران بابنتيه، ولا ينبغي التوقف ولو للحظة واحدة عند هذا التساؤل القديم الجديد خاصة عند المسلمين، وهو مدى توافق هذه المرويات مع صورة الأنبياء في الإسلام، وما ينبغي لهم من تنزه عن أمثال تلك الأفعال الشائنة.

الحقيقة، إن كاتب التوراة غير مسئول أبدًا عن أمثال تلك المشكلات الزائفة، التي لا علاقة له بها من قريب أو من بعيد؛ فلم يكن الكاتب يعنى بشيء من هذا، بل كان فقط مشغولا بتحقير أعداء شعب الرب من ناحية، ومن إيجاد صلات بينه وبين الشعوب المتحالفة معه وقت تدوين النص، وما إلى ذلك من أسباب، ولم يكن يدري كاتب التوراة أنه بعد مئات السنين سيأتي نص ديني آخر يمجد بعض أبطال قصصه، وينزههم عن كثير من الأفعال التي لم يجد في نفسه غضاضة في نسبتها إليهم، وذلك لسبب هو الغاية في الوضوح، وهو أنه لم يكن ينظر إليهم بكل هذا الإجلال والتقديس.

أما عن موقف المسلمين تجاه تلك الصعوبات التي يواجهها النص التوراتي فلم يكن النبي محمد كما سنرى في الجزء المقبل يعتقد أن البشر سيتخطون أبدًا إطار ثقافة عصره الذي عاش فيه، بل كان يعتقد أن البشرية ستظل قريبة من المفاهيم ذاتها التي أرساها، وإن راوحوا بين التمسك بها والابتعاد عنها؛ لذا فيمكننا أن نقول مطمئنين إنه لم يكن ليتوقع أن يثير قبوله لأمثال تلك المرويات الخرافية أي صعوبات أو مشكلات، ويمكننا أن نقولها ببساطة: إن المتابعات النبوية لأمثال تلك القناعات اليهودية قد أثقلت خطاه، وقيدت فسيح مخياله، ونالت من جوانب رؤيته الأساسية، التي لولا وجودها واقتناعه الكامل بصوابها لجاءت رؤيته أكثر قوة مما صارت إليه، ولكن هذا هو ما حدث، فيا لها من تركة بغيضة؛ إذ أفسدت بعض جوانب ديانتين أعظم منها بكثير!

إذن؛ فمن يقرأ قصة نوح التوراتية، ويحتفظ بتوهمه أن النبي محمد كان يتابع تلك الرواية المبهمة وينسج على منوالها فسوف يستنتج خطأ حضورًا شاحبًا وخافتًا لتلك الشخصية المبهمة والغامضة في التوراة، ولكن قارئ القرآن يقع على العكس من ذلك تمامًا، فنوح يملأ صفحات القرآن، بل خصه النبي بسورة جميلة أوقفها جميعها عليه، وعلى معالم دعوته حتى اختتمت باستنزاله عقوبة الله على قومه والدعوة بهلاكهم والدعاء لوالديه والمؤمنين به، ومن ينظر في القصتين معًا فلن يجد أدنى تشابه بين نوح التوراتي والقرآني سوى قصة الطوفان، التي لو أسقطناها من عقولنا برهة واحدة لبدا لنا نوح مثل أي نبي آخر؛ أي مثل هود أو صالح أو شعيب أو إبراهيم أو موسى عليهم السلام، ولا سبب في ذلك أكبر من أن نوحا القرآني لا علاقة بينه وبين نوح التوراتي ذاك إلا بوصفه مجددًا للجماعة البشرية وجدًّا افتراضيًا لتلك القبائل العربية البائدة التي خرج منها نبيان عربيان هما هود وصالح، وبعدهما سيجف وإلى الأبد هذا الجدول الصغير، ولن يتبقى من تلك التجربة المأساوية سوى الأسماء.

لذا، فقصة نوح وطوفانه تصلح كمثال واضح لطريقة فهم النبي محمد لدلالات أخبار الأنبياء السابقين وإعادة إنتاجها من جديد، فإذا كان النبي محمد قد ألمَّ بقصة الطوفان سماعًا من العهد القديم وبشكل أوضح من الخرافات الأجادية، وكان العبرانيون بدورهم قد أخذوها من التراث الرافديني، وكما تحولت دلالات الأسطورة الرافدينية وصارت شيئًا مختلفًا في التوراة، فإن النبي محمدا قد فعل ما هو أبعد من ذلك، فقد صارت قصة نوح وطوفانه لبنة أساسية في تصوره الديني، ولكن القصة التوراتية لم تغادر أجواء الأسطورة الأولى إلا قليلا، واحتفظت بكثير من معالم الأسطورة القديمة وملامحها خاصة في صورة الإله وصفاته وعلاقته بالبشر، وهو ما سنراه بعد قليل.

خامسا: تعقيب على الطوفان.

"يظل البشر مفتونين بموضوع البدايات لأسباب عديدة منها المنطقي ومنها العاطفي، فنحن لا نستطيع فهم جوهر أي شيء ما لم نعرف من أين جاء، وكل القصص التي نسمعها وتسرد لنا أصولنا تخلف آثارًا عميقة في نفوسنا [107]".

---

[107]انظر: "البدايات 14 مليار عام من تطور الكون" نيل تايسون ودونالد جولد سميث، ترجمة: محمد فتحي خضر، كلمات للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 2014م، ص11.

يمكن لهذه الحكاية الأسطورية التي ظلت عشرات القرون حاضرة في تراث شعوب مختلفة على طول الأرض وعرضها أن تكون أمثولة نافعة لتأمل صيرورة الأفكار وتطورها، فمن خرافة محلية لجماعة رعوية صغيرة، ثم صارت اعتقادًا دينيًّا لمملكة هامشية في التاريخ الشرق أوسطي القديم، ثم اتسع نطاق مصدقيها بعد انتشار المسيحية في أرجاء العالم، ثم جاء الإسلام ومنحها عددًا إضافيًّا هائلا من المصدقين بها، حتى صارت أكثر الأساطير شيوعًا وانتشارًا في عالمنا المعاصر، ولكنها على كل حال لم تكن قط جزءًا من اعتقادات شعوب أخرى يفوق عددها مجموع المصدقين بتلك الأسطورة بل لم يسمعوا عنها ولا يعتقدون في الأسس التي نتجت عنها، فقد كانت لهم أساطيرهم الخاصة على كل حال: "وأما المجموعة الأولى فتتضمن الإصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين، وهي ليست تاريخًا بالمعنى المفهوم بل هي أساطير تجسد مظاهر الطبيعة والتاريخ على هيئة قصة تحكى أفكارًا عامة، ولهذه الأساطير صلة وثيقة بنظائر لها في بابل، وربما اشتقت منها عن طريق الوساطة الكنعانية [108]".

إذا تأملنا لبرهة في هذا السؤال الأساسي عن ضرورة حضور الأفكار ووظيفتها في حياة البشر لكان من الطبيعي التقرير الواضح في ذاته أن الأفكار تعيش ما دامت تقدم إجابة، أو قل تملأ فراغًا في الإدراك البشري، الذي يصعب على الإنسان أن يعيش بدونه؛ لأنه أحوج ما يكون إلى إيجاد إطار لهويته، وتعريف لنفسه، وليس أهم من أفكار (البدايات) لتثبيت هذا الإطار ذهنيا، فمن الممكن مثلا لجماعة بشرية أن تعيش دون معرفة بتفسير لبعض الظواهر الطبيعية المحيطة بها، لكننا نجد دائمًا أساطير الشعوب كلها تتضمن محاولة تقديم إجابات عن أكثر الأسئلة البشرية جوهرية من قبيل: ما العالم؟ ما طبيعته؟ كيف بدأ؟ ما القوى التي تتحكم فيه؟ ما الإنسان؟ وما أصله؟ ما طبيعة العلاقات بينه وبين العالم من حوله؟ ما المصير الذي ينتظره بعد الموت وانقضاء الحياة؟ إلخ.

لكن إذا كان كل من يتصفح تاريخ الأفكار البشرية، ويجد أن كثيرًا من الأفكار التي سادت أزمانا طويلة قد رحلت وأخلت الطريق لأفكار إنسانية أخرى أكثر تقدمًا لتقوم بالدور نفسه ولتنهض بالمهمة ذاتها التي قامت بها الأفكار القديمة من قبل التي لم يعد لها من أهمية بعد ذلك إلا بمقدار بيانها لتطور الفكر البشري، فمن الواضح أن

[108]-" مصر والشرق الأدنى القديم" د. نجيب ميخائيل إبراهيم، الطبعة الثانية 1964م، المجلد الثالث، ص150.

الأفكار الدينية تملك طبيعة خاصة بها فهي لارتباطها بأفكار أخرى، ربما كانت أكثر أهمية منها هي ذاتها، لا تريد أن تحال إلى التقاعد؛ لأنها صارت تحتمي بمنظومة اعتقاد لا تفلح معها البراهين العقلية أو الحجج التاريخية، فلن تجد مثلا رجلا متدينا معاصرا يقبل أن يعالج جسده الفاني بالطب الأبقراطي، ولكنك تجده في الوقت ذاته يقبل أفكارًا ومعارفَ تاريخية وفلكية تبعد عن التصور العلمي بمسافة أبعد بكثير من المسافة التي تفصل بين أفكار ونظريات أبقراط وبين الطب الحديث!

إذا افترضنا أن زائرًا فضائيًّا قد قرأ هذه القصة العجيبة عن الطوفان الكوني العارم الذي عم الأرض بأسرها، وأهلك كل أحيائها دون أن يعلم عدد مصدقيها اليوم، فلن يظن أبدًا أن هناك ستة أفراد من بين المليارات الستة لسكان كوكبنا يعتقدون الآن في صدق تلك الرواية الخرافية البائسة، ولكن الحقيقة المحزنة أن هناك مئات الملايين من الرجال والنساء يتوزعون على ثلاث ديانات لا يشكون أبدا في صحتها، وهذا يدل بين أشياء أخرى على أن جنسنا البشري الذي يطلق على نفسه لقب (الإنسان العاقل) ما زال أمامه الكثير لكي يستحق شرف هذه التسمية. والحقيقة، إنه إذا حضر الطوفان في اعتقاد مصدقي هذه القصة ككارثة عالمية أصابت جنسنا البشري منذ خمسة آلاف سنة تقريبا، ونجا منها ثمانية أشخاص فقط، فإن من يتأملها قليلا فلن يرى سوى أن استمرار تصديقها على هذا النطاق الواسع لهو الكارثة العالمية، وعلى البشرية أن تنجو منها ومن أمثالها من الخرافات والأساطير.

لماذا إذن يتشبث المتدينون عامة ورجال الدين خاصة بأمثال تلك الحكايات الخرافية؟! الحقيقة، إن فرصة أن يربح رجل وحيد معركة يصارع فيها بيديه العاريتين قطيعًا من الدببة الجائعة لهي أكبر بكثير من فرصة أن يربح رجل ذكي نقاشًا مع رجل دين محترف؛ لأنه مهما قدم له من براهين على سخف اعتقاده فلن يفلح أبدًا في أن يزيحه ولو قدر أنملة عن يقينه الجازم في صحة روايته الدينية التي يصدقها قلبه مهما خالفت عقله، ولذا فلن يسعنا والأمر كذلك سوى أن نلزم الحكمة التي توصي بأن ندع الناس وما اختاروه لأنفسهم!!

على هذا، فمن شاء أن يصدق بأن الإنسان الأول قد خطا خطوته الأولى على هذه الأرض منذ ستة آلاف سنة فقط فله ما شاء، ومن شاء أن يصدق أن ثمانية أفراد فقط كانوا يعيشون بعد الطوفان الذي عم الأرض كلها قبل الميلاد 2349 سنة فقط فله ما

شاء، ومن شاء أن يصدق أنه إلى هؤلاء الثمانية، وإن شئت الدقة فهم ستة فقط، يجب أن نرجع جميع السلالات البشرية فله ذلك، ومن شاء أن يصدق أن الجماعة البشرية كلها كانت إلى ما قبيل زمن إبراهيم بقليل كانت تتكلم لغة واحدة فله ذلك، ومن شاء أن يصدق أن اللغة العبرية هي أقدم اللغات البشرية فله ذلك أيضا وسواه، بل كل ما شاءه له هواه، بشرط ألا يقول هذا الإنسان إن لاعتقاده هذا أيَّ حظ من العلم أو المعرفة فلا ضير من الإيمان، ولا شيء ألصق بالطبيعة البشرية من الإيمان أي اعتقاد الإنسان الباطني فيما لا برهان عليه من الغيوب، ولا يحتاج هذا الإيمان لكي يقدر صاحبه، بعد أن يكون صادقًا، سوى ألا يكون هناك أي برهان ظاهر على بطلان اعتقاده وفساده، ويجد من عقله على الأقل ما يجوّز له هذا الاعتقاد ويقضي بإمكانه، فهذا هو الإيمان الذي يستحق صاحبه الاحترام والتوقير وافقناه أم خالفناه. أما أن يؤمن المرء بصحة اعتقادٍ ما رغم وجود مئات البراهين على خطئه وبطلانه فهذا ليس من العقل أو الإيمان في شيء، بل هو إلى العناد الصبياني أقرب.

إذا كان أهل العصور القديمة قد آمنوا بأمثال تلك الخرافات فلا لوم عليهم ولاحرج، إنما اللوم كله على من يتجاهل ما أحرزته البشرية في زماننا من علوم ومعارف، لا لشيء سوى أن يُبقى على اعتقاد باطل، لكنه عزيز على قلبه لأنه رُبِّي عليه، ونشأ منذ نعومة أظفاره على الإيمان بتصديقه والاعتقاد بصحته!

إذن، فمن يقرأ من أبناء عصرنا سفر التكوين مثلا بوصفه تاريخًا حقيقيًّا للجماعة البشرية وتطورها فسوف يجد نفسه في خصومة، وفي قطيعة كاملة مع مقررات التاريخ الحضاري، وعلم الأحياء، وعلم الفلك الحديث، وفي جملة واحدة مع المنجز المعرفي الحديث كله، ولن يجد سبيلا للتوفيق مثلا بين هذين النقيضين، أي بين هذه الرواية الأسطورية التي لاتختلف كثيرا عن أساطير الخليقة الأخرى، ومجهودات البشر العظيمة للكشف عن الحقيقة الإنسانية في صيرورتها وتطورها. ولا يخفى أن جميع هذه المشكلات التي تثيرها حادثة الطوفان مثلا تتأسس جميعها على هذا الوهم القديم - الجديد وهو أن الله قد أوحى بتلك القصة. والحقيقة الواضحة، إن كاتب التوراة نفسه لم يقل إن الله هو الذي يقص علينا هذه الحكاية الطريفة، لكن يعكس سياق القص بوضوح أنها تروى حكاية اعتقد كاتبها أنها حدثت على هذا النحو، أما من يقرأ تلك الواقعة بل جميع الكتاب المقدس بوصفها نتاجًا بشريًّا، ومجموعة متنوعة من الكتب المتفاوتة القيمة، التي

تشكل في مجموعها واحدة من أهم الأدبيات العظمى في تاريخ البشرية، فلن يجد ضرورة للوقوف طويلا أمام تلك المشكلات فضلا عن أن يتلمس حلا لها، فكما لا تثار تلك القضايا عند قراءتنا لأي من أساطير الطوفان الأخرى وهي بالعشرات ويحاول قارئها أن يقف على مغزاها، ويستخرج منها تصور البشر في وقت كتابتها على حدود معرفتهم بأنفسهم، وبالعالم من حولهم، ويتعرف إلى أهم الأسئلة التي كانت تؤرق ضمائرهم، والمخاوف التي كانت تسيطر على قلوبهم، وعلى هذا فيجب علينا أيضا ألا نتساءل عن مثل ذلك عند قراءتنا لهذه الحكاية وأمثالها في التوراة أو القرآن، أو أي كتاب آخر يقول عنه أصحابه إنه كتاب مقدس، ويستحيل أن يتطرق إليه الخطأ أو يشوبه البطلان.

لن نستطيع أن نختم هذا التعقيب قبل أن نعلن إعجابنا الكامل بتلك الثلة القليلة من المؤمنين العقلاء الذين يقبلون في وضوح كامل أن هذه الرواية الدينية عن الخليقة إنما هي إبداع بشري خالص، وأنها جاءت استجابة لظرف تاريخي محدد، وهو الحاجة الماسة إلى خلق رؤية تاريخية ودينية استلزمها ظرف سياسي خاص بها، ومن بين هؤلاء الأب الجليل: بولس نديم طرزي؛ حيث يقول في معرض شرحه الرصين لظروف تدوين الكتاب المقدس بُعيد تأسيس مملكة سليمان: "ذكرت آنفًا أن نشوء المدينة والعائلة الملكية يتزامن في تقاليد الشرق الأدنى القديم مع خلق العالم، لذلك كان من الطبيعي أن تبدأ هذه الروايات بالحديث عن إله المدينة كخالق الإنسان والمجتمع، وكل ما يتعلق بهما، أعني الأرض والسماء، فالأرض مكان إقامة الإنسان، والمجال الذي يتحرك فيه المجتمع، والسماء عالم كل ما هو غير ملموس ورهيب، لكنه أساسي بالنسبة للحياة أعني الشمس والقمر والنجوم والمطر، وهكذا لكي يضع الكاتب قصة أصول المملكة المتحدة لم يبدأ ببساطة بالآباء، بل كان عليه أن يعالج على غرار القصص المقابلة في الشرق الأدنى القديم (البدايات المطلقة) أي أن يتكلم على إلهه، يهوه، كخالق للأرض والسماء، فضلا عن ذلك أن هذه الطريقة هي الوحيدة لكي يبرهن أن المملكة الداودية السليمانية الناشئة مساوية للممالك الموجودة في الشرق الأدنى القديم، وهذا يفسر لماذا أدخل الكاتب اليهوي في روايته عن التاريخ الأولي قصصا عن خلق الإنسان وعالمه المباشر

والطوفان وانتشار الجنس البشري على الأرض، وهي جميعًا مواضيع معروفة في الشرق الأدنى القديم [109]".

في مقابل هذه النخبة الممتازة من المؤمنين الأذكياء نجد أن الكثرة الغالبة من الشراح التقليديين في الأديان الثلاثة ممن يرفعون شعار: الصحة الكاملة للنصوص المقدسة أو البطلان الكامل لها، لا يزالون يدافعون باستماتة عن ذلك الاعتقاد الرث والعتيق في إلهية مصدر تلك القصص الخرافية، وهذا في الحقيقة ليس من الحكمة، وليس من الإيمان الحقيقي في شيء؛ فالحقيقة الإلهية لاتظهر إلا من خلال البشر، ولا تتجلى إلا من خلال عقولهم وأرواحهم، ولا تتنزل إليهم كاملة كمعطى مجاني جاهز، ولا دخل للبشر فيه!

سادسا: الكتاب المقدس والتاريخ (برج بابل نموذجًا).

"بمختصر الكلام هناك صفتان بشريتان من أكثر الصفات شيوعًا تحولان دون إمكانية بناء أي حضارة دون قدر معين من الإكراه: كون البشر لا يحبون العمل بالفطرة وتلقائيا، وكون الحجج والبراهين عادمة التأثير على أهوائهم [110]".

من الطبيعي القول بأنه يُحسن بمن يحاول تقديم إجابة عن سؤال ما أن يحيط أولا بما ينطوي عليه السؤال من بساطة أو تعقيد، وإذا كان إغفال الإحاطة بقاعدة السؤال يعطي في المسائل الإنسانية إجابة ساذجة، مثل أن يقدم أحد على التصدي مثلا لسؤال يتعلق بكيفية تحقق السلام العالمي واختفاء الحروب والمنازعات بين البشر؟ بالقول بأن ذلك يتحقق عندما يكف الناس طواعية عن الصراع، ويتشحون بالتسامح والغفران! أو كيف تحل مشكلة العلاقة بين فقراء العالم وأغنيائه؟ بالإجابة عندما تسود قيم الغيرية والإيثار! وفي مقابل هذا النمط من الإجابات على فضلها تأتي إجابات أخرى عن الأسئلة ذاتها، تبدو أكثر عمقًا حيث تُبنى جميعها على إدراك الأسباب الغائرة وراء الصراعات الإنسانية، وتعمل على إزاحة أسبابها، وتقدم حلولا علمية لإقامة مجتمعات جديدة، تتأسس قواعدها على إعادة ترتيب العالم وتغييره عبر إدراك قوانين تطور المجتمعات،

---

(109) "مدخل إلى العهد القديم" الأب بولس نديم طرزي، تعريب نيقولا أبو مراد، منشورات النور، ج1 ص 100.

(110)"مستقبل وهم" سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة مارس 1998، ص 11.

ودون أن تتجاهل بداهة أهمية إبداع منظومة قيم أخلاقية سامية، ومنظومة قوانين عادلة إلى ما هنالك.

هذا عن الأسئلة الإنسانية، أما الأسئلة العلمية فهي لا تتحمل لحسن الحظ هذا النوع من التقسيم؛ أي تلك القسمة بين إجابة عميقة وأخرى سطحية، إنما تنحصر الإجابة العلمية فحسب بين إجابة صحيحة وإجابة خاطئة، ولسوء حظ المتدينين التقليديين فإن كثيرًا من المشكلات التي تثيرها الكتب الدينية تتعلق بأسئلة علمية وتاريخية، وتعطي لها تلك الكتب المقدسة إجابات هي ببساطة تامة إجابات خرافية وخاطئة!

تحتوي قصة الخليقة التوراتية على إجابة عن أسئلة ثلاثة مهمة كثيرا ما شغلت الإنسان في كل العصور، وهي: أولها قدم الظاهرة الأحيائية وفي القلب منها الجماعة البشرية، وثانيها تفسير ظاهرة طبيعية كقوس قزح. وأخيرا، وهو ما سنعرض له فقط، كيف اختلفت اللغات البشرية بعد وحدة وتفرقت الجماعة البشرية اتحادًا واجتماعًا؟

برج بابل تنوع اللغات البشرية وتناثر البشر

"إن الناس بأجمعهم كانوا لغة واحدة إلى الوقت الذي نزلوا وادي *شنعار*، استخرجوا من عقولهم صناعة الطوب الأجور، كما أن الله جعل العقل قوة سيُخرج بها الصنائع فلما حصل لهم ذلك تعظموا، وقالوا تعالوا نبني لنا مدينة وبرجًا يرفع رأسه إلى السماء، فلما فعلوا هذا فرق الله ألسنتهم وجعل أحدهم لا يعرف كلام رفيقه [111]".

لن نثقل على القارئ بإيراد عشرات الانتقادات المنطقية التي أوردها الباحثون لتفنيد خرافة الطوفان الكوني وأسطورة برج بابل، ولكن الأجدى من ذلك كله محاولة تقديم إجابة منطقية معقولة عن سبب انتقاء كاتب التوراة لهاتين الأسطورتين من بين جميع الأساطير الأخرى للشعوب التي اقتبسها منهم، وبيان ضرورتها ولزومها له في صلب إبداعه لقصته الخاصة بالتاريخ البشري كما اعتقده، ولنقرأ معا أولا هذه الأسطورة اللطيفة عن برج بابل: (وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَاناً وَاحِداً وَلُغَةً وَاحِدَةً. وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقاً أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ" (التكوين 11: 1-2). وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْناً وَنَشْوِيهِ شَيّاً". فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ

(111)انظر: "تفسير لسفر التكوين منسوب إلى القديس إفرام السرياني" قدم له ونشره الأب يوحنا ثابت، منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس، 1982م، ص 97.

وَكَانَ لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. وَقَالُوا: "هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجاً رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْماً لِئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ". فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدم يَبْنُونَهُمَا. وَقَالَ الرَّبُّ: "هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ وَهَذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ". فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا "بَابِلَ" لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ).

لماذا هدم الله البرج وبلبل السنة الناس؟!!

"ورغم أن الله طمأن نوحًا ونسله أنه لن يهلك العالم مرة ثانية بالطوفان، لكنهم عندما اكتشفوا بعقولهم التي وهبهم الله إياها وسائل لصنع أبنية قوية بالطوب الأحمر والحمر اتكلوا على قوتهم ليقيموا مملكة وبناء عاليًا هو البرج حتى لو أنه فكر الله في عمل طوفان ليصعدوا إلى البرج ولا يخيفهم غضب الله[112]"، و"أما القصد من بناء المدينة والبرج الذي رأسه بالسماء فهو تأمين الحياة ضد كوارث الدهر فقد سمعوا من أجدادهم عن الطوفان، وكيف كانت المياه ترتفع حتى أخفت جميع قمم الجبال العالية، وأنهت على كل حياة على الأرض فظنوا في غرورهم أنهم بتكتلهم وتعلقهم بالأرض وبنائهم لبرج شامخ يناطح السحاب يستطيعون النجاة من طوفان قادم آخر، وكان الأجدر بهم أن يتحاشوا ما تسبب عنه الطوفان، وهو شرهم وبعدهم عن الرب الإله [113]".

لا ندري في البداية من أين جاء المفسرون المسيحيون بهذا التفسير العجيب، فليس في النص ما يدل عليه من قريب أو من بعيد؟! لكنهم يريدون من خلف هذا التفسير سيئ الظن بالنية البشرية أن يعطوا الرب مبررًا لهذا التدخل العدواني المقيت، وهو مبرر لم يكن الرب التوراتي في الحقيقة بحاجة إليه أصلا؛ إذ كان يفعل ما يحلو له، ومهما قلب قارئ هذا السفر فلن يعثر لإله التكوين هذا على أي شرعة أخلاقية واضحة يعلن من خلالها للبشر مقتضيات الكمال الإلهي الذي يقيد سلوكه مع مخلوقاته، فيتصرف كما يليق بإله عظيم، وليس كطاغية كوني يفعل بمخلوقاته المسكينة ما شاء له هواه!

(112)"الموسوعة الكنسية": ص97.

(113)"تفسير سفر التكوين" يوحنا المقاري، ص186.

أما القراءة المباشرة للنص فتطلعنا، في مقابل ذلك التفسير المتربص، كيف بدا هؤلاء البشر كمجموعة بشرية صغيرة، كما لو كانت قد هبطت لتوها على سطح كوكب مجهول، وها هي تتجول وحيدة على ظهره بعد فناء أهل الأرض جميعًا، وانطماس جميع العلامات التي يمكنهم الاهتداء بها إذا ضلوا بعد أن ذهب الطوفان بها؛ لذا فقد أرادوا أن يبنوا مدينة تجمعهم، وأن يرفعوا في وسطها منارة شاهقة يهتدى بها من يبتعد عن هذه المدينة الوحيدة على الأرض، ولا ندري ماذا كان سيضير ساكن السموات من أن يبني البشر لأنفسهم مدينة يتوسطها برج شاهق الارتفاع، ويخلدوا أسماءهم لكي لا تتبدد ذكراهم ككائنات فانية من على وجه الأرض؟![114]، ومن يقرأ هذه العبارة: "وَالْآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ" فسوف يدرك على أي قدر من الجد أخذ هذا الإله المتوجس نية البشر في الاعتصام منه والخروج على سلطانه؛ فإذا تجاوزنا مدى معقولية ما يريده البشر ورأيناها مجرد حماقة بشرية، فماذا عن مخاوف هذا الإله الحكيم؟! وهذه المخاوف تذكرنا على الفور بمخاوف الرب من أن يمد آدم يده إلى شجرة الخلود، ويصبح المخلوق الترابي خالدًا لا يذوق الموت ضد إرادته التي لا تريد للبشر إلا أن يكونوا فانين، وهذه الرغبة في الاستئثار بالخلود ملمح من ملامح الآلهة الوثنية، كما نجدها في أساطير تلك الفترة، لكنه جاء ليشفّ من خلف إله التوراة.

متى حدث ذلك؟

الحقيقة، إنه لا أحد يعرف متى حدث ذلك على وجه الدقة، ولكن من المنطقي أن نستنتج أن ذلك قد حدث بعد مدة تكفي لأن يتكاثر هؤلاء الأنفس الستة، ويتحولوا إلى شعب صغير أو قبيلة كثيرة العدد تكفي قمة برج صغير لكي تسعهم، ولا بد أيضًا من أن تمضي قبل ذلك مدة كافية لكي ينسى البشر حادثة الطوفان وأهوالها حتى يستطيعوا أن يفكروا في بناء مدينة تعصمهم من غضب من فجَّر غضبه ينابيع الغمر وأغرق العالم كله: سهله، وجبله، إنسه، وحيوانه!

(114) لا ضرورة للتوقف لنتساءل: كيف تفكر قبيلة من البدو الرحل المرتحلين طلبًا للكلأ في أرض شنعار في بناء مدينة مستقرة وبناء برج شاهق يلامس السحاب، كما لو أن بناء برج بهذا الارتفاع لا يستلزم سوى القدرة على شيِّ الطين! ولن نسأل: هل عرفت البشرية حقًّا للمرة الأولى صناعة اللبن في تلك الفترة؟!

حاول بعض اللاهوتيين تحديد أي الآباء تحديدًا بين نوح وإبراهيم حدثت في زمنه تلك الواقعة، فاعتمد القديس أوغسطينوس على قرينة لغوية استخرجها من اسم (فالج) وهي تعني الانقسام وهو يشير إلى تفرق العالم نتيجة بلبلة الألسنة: "يحدد الكتاب المقدس واقعة برج بابل تاريخيا بأنها حدثت بعد الطوفان بنحو مائة عام أو أكثر قليلا؛ لأنه يقول عن فالج (ومعنى اسمه قسمة) الذي ولد لعابر بعد 101 سنة من الطوفان: إنه سمي هكذا لأن في أيامه قسمت الأرض أي تفرقت الشعوب في أرجاء الأرض[115]" .

أين نوح من تلك الأحداث؟!

"وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَلاَثَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَمَاتَ".

إذا تذكرنا أن تلك الواقعة قد حدثت ونوح لم يزل على قيد الحياة لزاد عجبنا من هؤلاء الشراح وصمتهم المطبق عن تلك الملاحظة الواضحة! فمن المعروف أن الطوفان قد حدث وعمر نوح ستمائة سنة، وينص الكتاب المقدس على أن نوحًا قد عاش تسعمائة وخمسين عامًا، فهذا يعني أن نوحًا قد عاش بعد الطوفان ثلاثة قرون ونصف القرن، فكيف ينسى الأحفاد حادثة الطوفان وأهوالها وبطلها لا يزال على قيد الحياة؟! وإذا كان هؤلاء الثمانية لم يمضِ عليهم سوى مئة عام فقط وكان من بينهم زوجان عاطلان عن الإنجاب، فكم من الأبناء والأحفاد كان بمقدور الأشخاص الستة الباقين أن يعطوا؟! الحقيقة البسيطة تقضي بأن البشر الموجودين في هذا الوقت لم يكونوا ليتعدوا أسرة ممتدة لا يتجاوز أفرادها المائة بكثير، ومما لا شك فيه أن يظل بطل الحادثة الفاصلة في تاريخ هؤلاء شاخصًا في أذهانهم طوال الوقت خاصة إذا كان لا يزال حيًّا يرزق بينهم، فكيف يبنون برجًا يعصمهم من الطوفان في تجاهل تام لوجوده بينهم؟!

لكن إذا تجاوزنا عن هذه النقطة التي لا نشك في أنها تربك اللاهوتيين وتحرجهم! فالمهم هنا أن نعلم أن آدم وبنيه كانوا يتحدثون اللغة العبرية! ولقد استمر هذا إلى ما بعد الطوفان بزمن غير قليل، ثم تبلبلت الألسنة فجأة نتيجة للمخاوف الإلهية من اتحاد البشر في اللغة والمكان، لكن اللغة العبرية استمرت هي لغة (عابر) مكافأة له على قداسته، وإذا كان مفكر وفيلسوف مثل أوغسطينوس الذي وُصف بأنه (نور اللاهوت)، ونعت بأنه أعظم العقول البشرية بعد أرسطو يقبل بمثل تلك الأسطورة لتفسير اختلاف اللغات

(115) يوحنا المقاري، ص 185.

البشرية، ويعتقد في سبق اللغة العبرية جميع لغات البشر من مصريين وسومريين وبابليين وغيرهم، أفمن العجيب إذن أن يصدق عوام المؤمنين في عصره، يهودًا ومسيحيين، بتلك القصة الساذجة(116)؟!

أسباب اختلاف اللغات وتنوعها

لم يعد أحد من علماء اللغة المحدثين يطمح إلى إيجاد هذا السلف المشترك لجميع اللغات البشرية على افتراض وجود شيء كهذا: "لأن التقارب الشامل بين اللغات أمر غير محتمل، وحتى إذا كان حقيقة كما يعتقد اللغوي الإيطالي ثرومبيتى، فلا يمكن البرهنة عليه بسبب التغييرات الكثيرة التي حصلت بين فترة وأخرى(117)"، لذلك نجد دائمًا في كتب تاريخ اللغات البشرية ما يشار إلى "أن التنوع المطلق يثير مشكلة نظرية بحتة"، لكن الباحثين الآن ينطلقون من حقيقة وجود مجموعات لغوية كبرى مثل اللغات الهندوأوروبية، واللغات السامية، ولغات البانتو..إلخ، وهي مجموعات لغوية عظيمة التباين في أنظمتها الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية وغير ذلك. ويرجع معظم الدارسين التغييرات التي تطرأ على مجموعة لغات تنتمي إلى مجموعة لغوية كبرى إلى عوامل كثيرة، لعل من أهمها عاملي الزمن والتباعد الجغرافي، وما يستتبعه من ظهور اللهجات وظهور اللغة الأدبية إلى جانب اللهجات المحكية الأخرى، أو كما يعبر عن مثل هذه التحولات هذا العالم: "ما نتيجة التنوع من خلال الزمن؟ قد تسيطر لغة واحدة على منطقة جغرافية بأكملها في لحظة معينة من التاريخ، وبعد مرور خمسة قرون أو عشرة ربما لا يستطيع سكان جزء من هذه المنطقة أن يفهموا لغة سكان جزء آخر بعيد عنهم، ومع ذلك يفهم سكان كل جزء من المنطقة لغة سكان الجزء المجاور لهم، فالمسافر من نهاية هذه المنطقة إلى النهاية الأخرى لن يلاحظ سوى فروق محلية صغيرة من مكان إلى آخر، ولكن المجموع الكلي لهذه الفروق يزداد شيئا فشيئا حتى يصل المسافر إلى لغة لا يفهمها سكان المكان الذي بدأ منه، أو أنه إذا بدأ من نقطة معينة

(116)هذا الاعتقاد الأسطوري في الخليقة التامة الكاملة منذ اللحظة الأولى من بين مشتركات الأديان الكتابية جميعًا؛ حيث تكلم الإنسان الأول بعد خلقه مباشرة، ولم يكن وحده من كان يستطيع النطق والكلام، بل كانت المخلوقات جميعًا تتكلم كما يبدو، ولا ندرى ما اللغة التي كانت تتكلمها الحية؟! وأغلب الظن أنها كانت العبرية أيضا فلم يقل الكتاب المقدس إن آدم أو حواء كانا يتمتعان بهبة فهم لغة الحيوان كما منح القرآن ذلك سليمان، والمسلمون كما نعلم يرجحون بقوة أن تكون اللغة العربية هي لغة آدم وزوجه، وستكون لغة أهل الجنة في الآخرة، رغم احتجاج اليهود الذين لا يتصورون أبدًا أن يتحدث أهل الفردوس لغة سوى اللغة العبرانية، فهي لغة الرب!

(117)راجع: "علم اللغة العام" فريدينان دو سوسور، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، آفاق عربية بغداد 1985م، ص212.

في المنطقة وسافر بعيدًا عنها مرة في هذا الاتجاه ومرة في هذا الاتجاه، فسيجد مجموع هذه الفروق يزداد في كل اتجاه، ويختلف مجموع الفروق في اتجاه ما عن الاتجاه الآخر[118]".

أصل القصة

أما عن أصل تلك القصة فأغلب الظن أنها قصة عرضية تنتمي إلى إطار أسطوري واسع، وهو منظومة أساطير الأزمنة الأولى السعيدة التي كان يعيش فيها البشر في وئام وسلام شاملين، ولدينا عدد لا يحصى من تلك الأساطير عند كل الشعوب، ولعل أقربها إلى ما نحن فيه بطبيعة الحال الأساطير السومرية التي "تصف لنا تلك الأزمان البعيدة السعيدة يوم كان الإنسان، وهو لا يعرف الخوف ولا منافس له، يعيش في عالم يسود فيه السلام والوفرة، وجميع شعوب الأرض يعبدون إلهًا واحدًا هو (أنليل)، والواقع أننا إذا أخذنا عبارة في لسان واحد بمعناها الحرفي، وليس بمعناها المجازي للتعبير عن معنى (بقلب واحد) أي باتفاق تام، فذلك يدل على أن السومريين كالعبرانيين في أزمان متأخرة كانوا يعتقدون بأنه كان لدى البشر لغة عامة واحدة قبل عهد (بلبلة الألسن)--- ولعل الإله (انكى) (إذا أخذنا المعنى الحرفي للسطرين 10و11) هو الذي سبب بلبلة الألسنة، وإذا صح ذلك فيرجح أن تكون هنا أول إشارة إلى وجود مشابهة في الأدب السومري لقصة برج بابل الواردة في سفر التكوين باستثناء أن السومريين عزوا سقوط الإنسان إلى الغيرة والتحاسد بين الآلهة، في حين أن العبرانيين اعتقدوا أن سبب ذلك يرجع إلى غيرة ألوهيم أي الله من طموح الإنسان ليكون مثل الآلهة[119]".

على الرغم من أننا لم نجد أثرًا مباشرًا لأصل هذه القصة سوى ما افترضه عالم السومريات المرموق ذاك في الأسطر السابقة، ومع ذلك فسواء أكانت تلك القصة التي أوردها هي أساس تلك الأسطورة التوراتية أم لا، فأغلب الظن أن هذه الأسطورة

---

(118) المرجع السابق، ص 222. وهذا التفسير يذكرنا بالفروق الطفيفة التي تطرأ على النوع الواحد في الكائنات الحية لكنها ما تزال تتزايد حتى تصل إلى ظهور نوع جديد يختلف تمامًا عن الأصل الذى تطور منه فلا يستطيعان التزاوج فيما بينهما، لكن في جميع الأحوال يستلزم هذا التحول، من لغة إلى أخرى ومن نوع إلى نوع من باب أولى، مدة زمنية كبيرة وتباعدًا جغرافيًا كبيرًا لا وجود له في أمثال هذه الحكاية الأسطورية!

(119)"من ألواح سومر"، صمويل كريمر، ترجمة: طه باقر، مراجعة: أحمد فخرى، مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجي بالقاهرة - ص 381.

التوراتية إنما تستند إلى قصة أسطورية مشابهة أقدم عهدًا بكثير من العبرانيين وكتابهم؛ حيث كانت تؤسس تلك الأسطورة الموغلة في القدم لتلك الظاهرة البشرية العجيبة من افتراق ألسنة البشر واختلاف لغاتهم، ومما يدعو إلى ترجيح ذلك أننا لا نكاد نجد شيئًا من تلك الأساطير الأساسية التي اشتملت عليها الإصحاحات الأولي من سفر التكوين إلا قد استطاع الباحثون رد أصلها إلى أساطير شعوب أخرى أقدم عهدًا، وانتهبها كاتب التوراة حتى استطاع عالم الآشوريات الألماني المعروف فريدريك ديليج أن يقول إن سفر التكوين (غارق في ذنوب الانتحال)(120)".

إننا نجد مثلا كيف خلق الإنسان؛ إذ أخذت الآلهة شيئًا من الطين المقدس، وجبلت منها الإنسان الأول، كما نجد أن الغاية التي خُلق من أجلها الإنسان كانت هي إعمار الأرض في النصوص المسمارية تمامًا كما فعل الرب التوراتي الذي كتب علي الإنسان أن (يعمل في الأرض التي أُخذ منها)، وكذا نجد معظم ما جاء في الإصحاحين الثاني والثالث من تفاصيل جنة عدن وأنهارها وعن خلق حواء من ضلع آدم، جذورا سومرية - بابلية، وهناك أيضًا الجنة وأنهارها العذبة وشجرة الحياة، ونجد أيضا الأنهار الأربعة المتدفقة، والحيوانات الخرافية التي تحرس ما يشبه شجرة الحياة، وقل مثل ذلك عن خطيئة الإنسان الأول الذي فوت على نفسه وعلى البشرية فرصة الخلود بتعديه على ما حرمته الآلهة والاقتراب والعصيان(121).

أصبح من الواضح أن مؤلفي الكتاب المقدس لم يترددوا وهم يقصون بداية العالم والبشرية في أن يستقوا معلوماتهم بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، من تقاليد الشرق الأدنى القديم، ولا سيما من تقاليد ما بين النهرين ومصر، والمنطقة الفينيقية الكنعانية؛ فالاكتشافات الأثرية منذ نحو قرن تدل على وجود كثير من الأمور المشتركة بين الصفحات الأولى من سفر التكوين وبعض النصوص الغنائية والحكمية والليتورجية الخاصة بسومر وبابل وطيبة وأوغاريت. أما عن الفروق سواء في تفاصيل القصة أو مغزاها فهو أمر طبيعي: "فعلم الآثار يدل أيضا على أن المؤلفين الذين أعادوا النظر في الفصول الأولى من سفر التكوين وأضفوا عليها اللمسات الأخيرة لم يكونوا مجرد مقلدين عميان، بل أحسنوا إعادة معالجة المصادر المتوفرة بين أيديهم، والتفكير فيها بالنسبة

(120)"من سومر إلى التوراة" فاضل عبد الواحد علي، الطبعة الثانية 1996م، سينا للنشر ص 189.

(121)المرجع السابق، ص 189.

إلى التقاليد الخاصة بشعبهم، فهم لم يكتفوا بالمحافظة على الإيمان اليهوي بل أبرزوا أصالته[122]".

بناء على هذا، فسواء أكان كاتب هذه القصة الأسطورية ينظر في قصة أخرى، أم كان منشئًا ومبدعًا لتلك الأسطورة معتمدًا على حضور جميع مفرداتها أمامه، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن كاتب التوراة قد وجد في أسطورة برج بابل هذه حلا موفقا لتنوع اللغات البشرية التي كانت بالعشرات في زمانه؛ إذ وجد في تلك الأسطورة حلا بديعا لسرعة ظهور اللغات البشرية وتباينها في تلك المسافة الزمنية القصيرة للغاية بين زمني نوح وإبراهيم؛ إذ كان بين نوح وإبراهيم تسعة آباء لا أكثر، وقد نقصت أعمارهم كثيرا عن آباء البشر قبل الطوفان كعقوبة إلهية، فكان في العثور على تفسير ما مهما كان أسطوريًّا حلا موفقا؛ حيث كان يكفيه أن يضمِّن قصته حدثًا فجائيًّا وعنيفًا، يجعله سببًا لظهور جميع تلك اللغات، أما كيف تم ذلك؟ فالحقيقة البسيطة هو أننا لا ندري أساس تلك الأسطورة، وسواء أكان كاتب التوراة ينقل معالم أسطورة قديمة ويحورها لتستقيم مع روايته الدينية وهو ما نرجحه، أم كان كاتب التوراة ينسج أسطورته الخاصة على غير مثال، ولو صح ذلك فالحقيقة أن ذلك لم يكن قط بالأمر العسير، فكان يكفي أن يكون هناك أنقاض برج هائل في زمن كاتب التوراة، وما كان أكثر الأبراج صحيحها وهديمها في بابل؛ حيث "قلما تخلو مدينة في بلاد وادي الرافدين من البرج المدرج أو الزقورة التي صارت صفة معمارية ومميزة للمعابد في العراق القديم[123]"، وبعض المبالغات الشعبية حول ما كان عليه من ارتفاع يلامس السحاب، ويا حبذا لو نسب صنع هذا البرج إلى ملك متجبر متأله مات قبل عدة قرون حتى يجد كاتب التوراة جميع اللبنات الضرورية لصنع أسطورته الخاصة، فليس عليه سوى أن يعود بتاريخ بناء هذا البرج إلى ما بعد الطوفان بقليل؛ إذ لم يتبق من أثر للجماعة البشرية قبل الطوفان كما توهم، ثم يقدم تفسيرًا لما نال هذا البرج من تهدم وسقوط بأن يرجعه إلى تدخل الله الذي هدم بنفسه ذاك البرج ليحول بين البشر والتواصل بين بعضهم بعضا، محترسًا من كل ما يمكنهم أن يفعلوه بعد ذلك كما يفعل أي طاغية يحس بقلق عرشه المهتز تحت قدميه حتى إنه ليقتل كل منافس محتمل لسلطانه مهما بدا ضعيفًا واهنًا!

---

(122) انظر "مقدمة الترجمة اليسوعية للكتاب المقدس"، دار المشرق، الطبعة الثالثة، ص66.

(123) المرجع السابق، ص 229.

إذن، فقد كان كاتب التوراة طموحًا بقدر ما كان ساذجًا، فإلى جانب تفسيره لتنوع اللغات البشرية، فقد فسر لنا أيضًا كيف انتشر البشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكل هذا بقصة صغيرة من عدة أسطر ومن يقرأ هذه الجملة: "فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ" حتى يقوده الظن بأن تلك الأسطورة ربما تكون قد طفت في عقل كاتب يهودي متأخر فيما كان يتنزه وحيدًا بين أطلال بعض الخرائب القديمة لبابل أو منطقة قريبة منها وقت تدوين الكتاب، أو ربما كان يسترجع بعض ما رآه من أطلال بعد زمن السبي بفترة وجيزة. على كل حال، فالأمر الذي لا شك فيه أن تلك الأسطورة كانت ضرورة لازمة لروايته الخاصة عن التاريخ التي كانت تحتاج إلى أسطورة خاصة بها لتفسر لقارئه أو سامعه كيف تعددت اللغات البشرية، واختلفت ألسنة الناس بكل تلك السرعة، لذا كان لزامًا عليه أن يجد أسطورةً ما يكون من بين مفرداتها اختلاق حدث عنيف، ولا أعنف من تدخل يهوه في حياة البشر عندما يغضب من مخلوقاته، سواء أكان هناك مبرر حقيقي لتلك المخاوف أم لا[124].

---

(124)"وما سفر التكوين، وهو السفر الأول من التوراة، إلا مجموعة من الأساطير، يتعدى قدمها قدم اليهودية ونصوصها المكتوبة بأجيال وأجيال، ومن هذه الأساطير ولا شك ما طرأ عليه تغير قليل أو كثير على مر الزمن عن طريق الرواية الشفوية من جيل إلى جيل، وذلك إما بإدخال تفاصيل إضافية عليها من قبل القصاصين والرواة، أو بتغيير بعض معالمها عن قصد أو عن غير قصد... على الباحث في أساطير سفر التكوين إذًن أن يحاول إرجاع كل أسطورة منها إلى عناصرها الأصلية قبل الإقدام على المحاولة لفك رموزها وحل ألغازها ما يتطلب القراءة الدقيقة لكل أسطورة في نصها العبري الأصلي، وملاحظة كل تغير في اللغة والأسلوب، وكل شائبة في سلاسة النص، أو في منطق الرواية"، انظر: "خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل" كمال الصليبي، دار الساقي، الطبعة السادسة 2006م، ص 22-23.

هذا ما يشترطه الأستاذ كمال الصليبي على كل من يحاول أن يقترب من عالم أساطير التوراة! وهكذا ينبغي أن يكون من بين أدواته فقه العبرية القديمة! لذا، فلا يسعنا سوى أن نقول إنما هذا الذى قدمناه إنما هو تفسير عام، أو هو ما يمكن أن يخرج به أي قارئ غير متخصص لتلك القصة، وهو ما سوف يطفر في ذهن كل من يسترسل مع افتراض صحة الشروح التقليدية للكتاب المقدس عن الزمان والمكان على ما فيها من تناقض واضطراب، أما الاختصاصيون في الكتاب المقدس فقد وجدوا بين ثناياها ما هو أبعد من ذلك بكثير، ومن بين هؤلاء الأستاذ كمال الصليبي الذى يرى أن هذه القصة القصيرة إنما هي عبارة عن قصتين متداخلتين تأتى الأجزاء الأولى منها كما يقول كمجرد: "خرافة تحاول تفسير تعدد الألسنة بين شعوب الأرض"، ولكن إلى جانبها قصة أخرى تعبر عنها الأسطر الأخيرة في القصة: "وهناك قصة أخرى ليست خرافة، بل رواية لحدث تاريخي عن أناس قدموا من الشرق إلى مكان اسمه شنعار فحاولوا أن يتوحدوا هناك ويبنوا لأنفسهم مدينة محصنة فلم يحالفهم الحظ في ذلك، واعتمد على ضعف الرابط بين القصتين من ناحية وتناقضها مع الوقائع التاريخية والجغرافية؛ حيث رأى أن تلك المدينة المذكورة في القصة: (لا يمكن بشكل من الأشكال أن تكون مدينة بابل التاريخية وهى مدينة الجنائن المعلقة وآثار هذه المدينة ما زالت موجودة قرب الحلة على الفرات جنوب العراق"، ويكشف عن أن الإشارة إلى كف أهلها عن استكمال بنائها يستحيل معه أن تكون بابل هي المقصودة: "والقصة تقول بكل وضوح: إن الوافدين من الشرق إلى بلاد شنعار تبددوا وتفرقوا في الأرض قبل أن يتموا بناء مدينتهم هناك وهى المدينة التي تعد (بابل)، وقد كانت بابل في القدم وحتى آخر زمن التوراة وبعده مدينة عظيمة، بل من أعظم مدن العالم فكيف يعقل أن يكون قد أتى أحد بأسطورة في أي وقت ويتحدث عن بابل هذه بالذات على أنها مدينة تبدد شعبها قبل أن يكتمل بناؤها؟"، ويكشف الكاتب عن أن سهل شنعار الذى يجمع كل الشراح على عدِّه في جنوب العراق لا يمكن أن يكون هو المقصود:

هل هذه قصة معقولة؟!

"إن قصة برج بابل كما ترويها التوراة تعكس في مجملها العمل المتواصل لبناء وتجديد المدينة وبرجها الذي شيده العبرانيون أنفسهم في عصر نبوخذ نصر الثاني (605- 562 ق.م)، وإذا كانت التوراة ترجع بناء البرج إلى عصور قديمة أي إلى ما بعد انتهاء الطوفان العظيم واستقرار الناس في سهل شنعاري؛ فإن ذلك ربما يستشف منه أن البرج قديم جدا، وأنه كان موجودًا قبل العصر البابلي الحديث. أما ما تدعيه التوراة من أن مدينة بابل دعيت بهذا الاسم لأن الرب بلبل لسان كل الأرض فإنه ادعاء لا يقوم على أساس. فمن المعلوم أن اسم مدينة بابل سواء في السومرية أو في البابلية لا يعني سوى (بوابة الإله) وليس له أي علاقة ببلبلة الألسنة [125]".

الحقيقة التي لا شك فيها أنها قصة خرافية ساذجة جاءت لكي تعلل الظهور الفجائي للغات البشرية وتعددها في فترة هي أقل بكثير من المدة التي تحتاجها ظهور لهجة محلية داخل لغة واحدة، فما بالنا بمئات اللغات المستقلة؟! فهي إذن خرافة فرعية ضعيفة السبك، جاءت لحل مشكلة واحدة من بين المشكلات العديدة التي نتجت عن الأسطورة الأصلية؛ أي أسطورة الطوفان الكوني الشامل، ثم قصة برج بابل إيذانًا بنهاية وحدة الجماعة البشرية لأنه ومنذ تلك الواقعة فقد افترق البشر إلى شعوب كثيرة تتخالف ألسنتها وتتباين ثقافتها وصارت كل فرقة من الفرق التي تشظت إليها جماعة المرتحلين إلى سهل شنعار أصلا لجماعة لغوية مستقلة! والأهم من ذلك فقد كانت تلك الحادثة أيضًا هي اللحظة الرسمية لافتراق الأمم إلى قسمين، هما: شعب الرب وبقية الشعوب الأخرى التي لا يكلمها الله، ولا ينظر إليها، والتي لم يكن يعنيه أمرها في قليل أو كثير بشرط ألا

"ولو كانت أرض شنعار المذكورة هنا في جنوب العراق أي في بلاد بابل التاريخية لما كان على الوافدين أن يبحثوا عن سهل هناك (ويجدوه) ليستقروا ويقيموا عليه مدينتهم علما بأن الأرض هناك كلها سهل، أضف إلى ذلك أن اسم (شنعار) لم يطلق في أي وقت على أرض جنوب العراق".

ثم يحاول أن يخلص القصتين الواحدة من الأخرى، ويقوم بعدها بنقل مكان القصة التاريخية إلى موضعها الصحيح وفق أطروحته الجريئة والغريبة من نقل مسرح الأحداث التوراتية من فلسطين إلى بلاد العرب! وهكذا زاد الأستاذ الصليبي الأمر تعقيدًا، وكشف عن مزيد من الاضطراب في تلك القصة القصيرة، ولو صح هذا التفسير، ولا نظنه صحيحًا، لكان مما يقويه أيضًا هو رغبة كاتب التوراة كما قلنا في تقديم تفسير لتنوع اللغات واختلافها وتشتت البشر في قصة واحدة، ولمن شاء أن يقرأ تفسيره للقصتين فليرجع إلى كتابه "خفايا التوراة"، فصل البرج الذي لم يكن في بابل، ص 77 وما بعدها؛ لأن كل ما نستهدفه هو بيان مغزى تلك الحكاية وضرورتها لكاتب التوراة في نسج ماض للجماعة البشرية وتفسيره لتعدد الألسنة ونصيب تفسيره هذا من الصحة أو البطلان بوجه عام!

(125)المرجع السابق، ص 232.

يتقاطع طريقها مع طريق شعبه الأثير والحبيب إلى قلبه (126)، ومن تلك اللحظة أيضا سيكون الروح القدس مشغولا بإطلاعنا على أصول آباء شعب الله، وسنعلم منه كثيرا من التفاصيل عن حياة الآباء البطاركة، وهو مقصد كان يستهدفه من البداية، ولكنه كان مضطرًا إلى ذكر كل تلك المقدمة الطويلة، التي احتاج في صناعتها في كل خطوة منها إلى استعارة أسطورة من أساطير الشعوب التي عاش بينها حتى لو استلزم تحقق تلك الوقائع زمنًا أطول بكثير مما منحه كاتب السفر لتلك الوقائع، ولكنه كما ترى لم يأبه بشيء من هذا!

لم يكن كاتب التوراة متفردًا بأمثال هذه التقديرات السيئة لما يحتاج إليه البشر من أزمان لكي ينتقلوا من لغة واحدة يتكلمها الجميع إلى لغات عدة، فضلا عن تحول مجتمع صغير موحد، يريد أن يتلاحم أفراده في مدينة واحدة "لِئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ" إلى مجتمعات حضارية ضخمة متباينة الثقافة والعقائد في غضون ثلاثة قرون فقط، بل حدث مثله في الرواية القرآنية لتأصيل وجود عاد وثمود في تلك الفترة عينها، كما سنرى ذلك تفصيليًا في الفصل القادم؛ حيث هاجر بعض نسل نوح المؤمنين إلى جزيرة العرب وعاشوا هناك على الإيمان ما شاء لهم الله أن يعيشوا، ثم خلف من بعدهم خلفٌ أنشأوا مجتمعًا حضريًّا، سمي بقوم عاد نراه فجأة على صفحات القرآن غارقًا لأذنيه في الوثنية، وتعدد الآلهة، وسنجد من بين أقوال الرافضين لدعوة الرسول الذي أرسل فيهم، وهو النبي هود، بأنهم يتابعون آباءهم وأجدادهم على عبادة تلك الأوثان، ثم يدمر الله هذا المجتمع الوثني بالصيحة، ولا ينجو من هذا المجتمع كله إلا النبي المكذَّب وبعض أتباعه

---

(126)بعد الطوفان رأينا كيف قطع الله عهدًا مع الجنس البشري كله، وفيه تعهد الله بعدم إغراق الأرض وإفناء الإنسان وجعل من قوس قزح علامة أبدية على هذا الميثاق العام، وكانت هذه المعاهدة هي آخر نصيب لعموم البشر في رب الجنود! فكما نعلم فقد تعاقد الرب بعد ذلك مع إبراهيم، وكان الختان هو علامته، ولكن اقتصر هذا العهد على ذرية إبراهيم من دون بقية البشر، ثم تعاقد الرب بعد ذلك مع موسى على التمسك بالشريعة، وأهمها شريعة السبت، ولم يكن هذا التعاقد إلا مع بني يعقوب! أما بقية أبناء إبراهيم أنفسهم فقد طرحوا خارجا. وهكذا، فكما ترى فالله يصطفي من ذرية آدم كلها ذرية شيت ومن ذرية شيث يصطفي نوحًا، ومن نوح يصطفي عبر ابنه سام إبراهيم، ومن خط إبراهيم يصطفي إسحاق ويصطفي يعقوب فيهوذا إلخ. وسنجد صدى لمثل هذا التفضيل في أحاديث النبي المتأخرة مثلما جاء في صحيح مسلم : "من حديث واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم". وقل مثل ذلك في كثير الأحاديث التي جاءت في فضل العرب وأكثر منها ما جاء في فضل قريش، ولكنه تفضيل لا يشبه التفضيل اليهودي، فقد ظل داخل هذا الإطار الإيماني الذي يعبر عنه هذا الحديث: "عن جابربن عبدالله رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم" رواه البيهقي، وقال الألباني في صحيح الترغيب: صحيح لغيره.

المؤمنين، ثم نراهم يحافظون على عقيدتهم القويمة زمنًا يطول أو يقصر، ثم تعاد الكرة فنجد أن أعقابهم قد ارتدوا ثانية إلى الوثنية، وينشئون مجتمعًا سُمي بقوم ثمود فيرسل الله إليهم نبيه صالحًا ليدعوهم إلى الاعتبار، وأخذ العبرة بما حدث لقوم عاد، لكنهم يتشبثون بما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم فيهلكهم الله، وكل هذا في الفترة ذاتها القليلة الفاصلة بين زمني نوح! فهل كان هذا يعبر عن تاريخ حقيقي لتلك المجتمعات العربية على افتراض وجودها؟ اللهم لا!

لا يعنينا هنا وجود تلك الأقوام العربية البائدة أم لا، بل كل ما يعنينا هو رصد هذا التشابه في إغفال المدة المعقولة اللازمة لحدوث شيء يتطلب وجوده زمنًا كبيرًا، ولكن كاتبي التوراة ومستلهم القرآن كانا في عجلة عن كل هذا؛ إذ كان كلاهما مشغولا بقضيته وحدها، فأما النبي محمد فقد كان على عجل لتأسيس وإفناء تلك المجتمعات القديمة على قاعدة الإيمان والكفر قبل ظهور إبراهيم الذي ستختص ذريته بالنبوة والكتاب. لذلك، لم يتوقف عند ما يتطلبه عادة النكوص من الإيمان إلى الكفر من وقت طويل، وكان كاتب التوراة لا يشغله من وراء سرده الموجز لتاريخ الجماعة البشرية سوى التأسيس لآباء وأجداد شعب الرب وأعدائه، فلم يحفل بقصر المدة أو طولها ما جعل روايته عن الطوفان تتعارض ليس فقط مع التاريخ، بل مع ما يستلزمه المنطق الذي يحكم تطور المجتمعات والمفاهيم .

لن نتكلم عن التعارض الواضح لتلك الرواية الدينية عن الطوفان الكوني الشامل مع التاريخ الحضاري المدون فهو أمر واضح ولاشك فيه، فمن يقرأ تاريخ أمة من الأمم القديمة مثل مصر أو تاريخ بلاد الرافدين فهو يقرأ قصة طويلة متعاقبة الفصول، ولو جاء تاريخ الطوفان في تاريخ مبكر من عمر الجماعة البشرية فلربما أمكن القبول بحدوث شيء من هذا قبل أن يدخل البشر العصور التاريخية، لكن كاتب التوراة بتولعه بالتاريخ ودقته الشاملة، لم يدع لمن يقرأ تلك المزاعم، ويقف على زمن حدوثها أي صعوبة في رفضها كتاريخ حقيقي، وقبولها وحسب كأسطورة محلية مثلها في ذلك مثل جميع أساطير العالم القديم .

"وأكثر من ذلك أن المعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، فالواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات 1850-1800 ق. م تقريبا، فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم كما يوحي بذلك سفر التكوين في

الأنساب فإن الطوفان بذلك يقع في القرن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين قبل الميلاد، وذلك هو العصر الذي كانت قد ظهرت من قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها إلى الأجيال التي تلتها كما تسمح المعارف الحديثة بتأييد هذا، وعلى سبيل المثال فهذه الفترة في مصر هي التي تسبق الدولة الوسطى (2100ق م)، وهو بالتقريب تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة، كما أنه في بابل كانت فترة تاريخ أسرة (أور) الثالثة، ومن المعروف جيدًا أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، ومن ثم لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة [127]" .

لذا، فنحن لاندري ما الذي يقوله عالم باللاهوت، أو مؤمن تقليدي، يؤمن بحرفية كتابه المقدس لأحد أحفاده إذا وقفا معًا أمام أثر من الآثار المصرية المغرقة في القدم، مثل لُقى نقادة، ومرمدة بني سلامة، التي يربو عمر كثير منها على زمن خلق آدم في روايته المقدسة ؟!

تواضع اضطراري

"تتوزع كتب العهد القديم على مراحل من الزمان تتراوح بين القرن الثالث عشر والمسيح. فزمان موسى يختلف عن زمان ملوك يهوذا وإسرائيل، والحقبة اليهودية مشاغل تختلف عن غيرها وتقع تحت تأثيرات أخرى. وإنه لمن الأهمية بمكان أن نفهم الأمر. فلكل زمان أحكامه الدينية، والفلسفية، والتاريخية يطبع بها جيله بطابع خاص فريد. لذلك، فعلى الكاتب الملهم، الذي إنما يكتب ليفهم قراءة ما يكتب، أن يتخذ من أفكار معاصريه ولغتهم أداة للتعبير، وإن كانت له أفكار شخصية بها يسبقهم ويفوتهم وإلا فات

[127]"أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم" د. كارم محمود عزيز، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى 2006م، ص 223- 224.

قراءه فهمه، وصار الوحي لغوًا فيضطر الله عندئذ لكي يبلغ رسالته إلى الإكثار من المعجزات، التي لا لزوم لها البتة؛ إذ يستطيع أن يلج الأذهان عن سبيل غيرها أقرب منالا. بهذه القصة نفهم ما لظروف الزمان من دور في تكييف رسالة الله، وإلباسها لباس البشر المعاصر فتبدو لنا مثلاً قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين لأول وهلة غريبة. إنها تصدمنا، فننكر عليها بعض تفاصيلها؛ لأننا نعلم أنّ النور ليس بمستقل عن الشمس، وأن الجلد لا وجود له في الحقيقة، كما لا وجود للمياه العلوية ثم نتساءل إضافة إلى ذلك: هل جُبل الإنسان حقًا من طين، ثم جاءته بعد ذلك نفخة الحياة من أنفه؟ ولكن هل هذا ما أراد الله أن يبلغنا إياه؟ كلا. فرسالة الله ليست درسًا في علم الكون، أو في علم الحياة. إنها رسالة دينية: من صنع العالم الذي نعيش فيه؟ هذا ما يريد الله أن يجيبنا عنه إلا أن الجواب يجب أن يلبس لباس زمانه، ويستعير لغة أهله؛ أن ينسكب في قالب الصورة التي يتخيلها للعالم إنسان ذلك الزمان. أما هذه الصورة التي انطبعت في مخيلته عن العالم فها هي: الأرض هي صفحة مبسوطة تطفو على وجه الماء، وما الينابيع الغزيرة التي تتفجر من جوفها إلا البرهان على أن المياه موجودة تحت الأرض، وأن الأرض تعوم فوقها. وأقام الله الجلد فوق الأرض، والجلد هو نصف كرة تتركز أطرافها على حدود الأفق. وعلى هذه القبة وضع الله أيضًا المياه، المياه العلوية، التي هي غير المياه السفلية التي على وجهها تطفو الأرض. هناك أقام الله منزله، ومن هناك إذ يفتح السدود ينزل المطر. واختطَّ في القبة للشمس والقمر مسيرهما، وأثبت فيها النجوم، والنور هو على صعيد آخر من الشمس، مستقل عنها كل الاستقلال والدليل على ذلك أن النور يضيء فيما تكون الشمس محتجبة وراء الغيوم، ويقابل النور الظلمة كما تقابل الشمس والقمر. والرجل مؤلف من تراب ومن نسمة؛ إذ يكف في آن واحد عن التنفس وعن الحياة، فلا يلبث جسمه الذي طرح في الأرض لا حراك فيه أن يصير ترابًا . وهكذا نستطيع أن نفهم كيف أن الله صرف يومًا ليفصل النور عن الظلمة، ويومًا ليخلق النير الذي يسود النهار والنير الذي يسود الليل، ويومًا ليخلق الجلد ويفصل المياه العلوية عن المياه السفلية، ويومًا ليخلق الإنسان،يكلل به عمله كله، وقد جبله من تراب ونفخ في أنفه نسمة حياة. فلنخلع الآن عن القصة هذا الرداء القصصي الذي نسجه لها زمان موسى والأزمنة التي سبقته، ماذا يبقى ؟ تبقى رسالة الله في معناها الجوهري، من أن لا شيء

مما تقع عليه عين الإنسان هو خارج عن نطاق قدرة الله الخلاق. فهو الله وحده الذي خلق كل شيء، بمجرد كلمته ومحض إرادته [128]".

هكذا وكما ترى أصبح اللاهوتيون المعاصرون أكثر تواضعًا؛ فبعد الإيمان الحرفي الكامل بكل كلمة من الكتاب المقدس صاروا مضطرين إلى تلك القناعة، بل صاروا حتى أكثر تواضعًا وأقل تطلبًا من السيد المسيح عندما قال: "لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأنبياء. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إلى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ" (متى 5: 17-18)؛ "لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع كذلك يكون أيضًا في مجيء ابن الإنسان" (متى 24- 38- 39).

الحقيقة الواضحة تقول إن السيد المسيح نفسه كان يشارك قومه في هذا الاعتقاد الخاطئ، وإذا صح وصدقنا في اعتقاد المسيح بهذه الأسطورة السخيفة، فليس هذا في النهاية بالأمر العجيب ولا الغريب؛ فقد كان المسيح على جلالة شأنه ومجاوزته لأهل عصره في بعض جوانب رؤيته، ولكنه كان في النهاية رجلا من الناس يشارك أهل عصره كثيرًا من خرافاتهم واعتقاداتهم الباطلة، شأنه في هذا شأن جميع البشر فلا أحد مهما عظم شأنه بمنجاة عن التأثر بثقافة عصره صحيحها وباطلها، وأغلب الظن أن يسوع المسيح لم يقرأ كتابًا واحدًا خارج مجموعة الكتب اليهودية التي تأملها مليًّا وتبحر فيها منذ صغره، واستخرج منها أعظم الدلالات وأسماها، وسنجد خلال هذا الكتاب كيف كان المسيح يعتقد في الشياطين التي تدخل الأجساد فتصيبها بالمرض العضال، وسنراه يستدعي لمخاطبيه تلك الأساطير اليهودية السخيفة عن عظمة مجد سليمان وباهر حكمته، وما كان سليمان في الحقيقة سوى ملك صغير لا يصح أن تقارن قيمته أبدًا بمجد وعظمة أي ملك من ملوك مصر أو ملوك بابل أو ملوك فارس، ولكن المسيح كان يتابع في اعتقاده هذا تلك المبالغات التوراتية المسفة عن عظمة سليمان، وما زعمته من زيارة ملكة سبأ لكي تستمع إلى حكمته الباهرة كما جاء في سفر الملوك الأول (10)، وإذا صح

[128] "تاريخ شعب الله القديم" الأب ديلي، ترجمة الأب: جرجس مارديني، المطبعة الكاثوليكية بيروت 1961م، ص 29 وما بعدها.

وإن وجدت حقا ملكة سبئية بهذا الاسم - وهو ما لم يحدث حتى الآن، فلربما كانت قصة زيارتها الملفقة لسليمان برهانًا على عظمتها هي؛ لأنها قد قطعت كل تلك المسافة الشاسعة لتستمع إلى سليمان وحكمته!

"تَأَمَّلُوا الزَّنَابِقَ كَيْفَ تَنْمُو: لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ، وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا" (لوقا 12: 27)، "مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ ههُنَا" (متى 12: 42)، كذلك لم يغادر يسوع وطنه الصغير في أرض فلسطين؛ فلم يعرف شيئًا ذا بال عن ثقافة البلاد الأخرى، وأما عن قصة رحلته رضيعًا مع أسرته إلى مصر فهي ليست سوى قصة ملفقة، لا أكثر ولا أقل، وما جاءت إلا للتوافق مع تلك النبوءة القديمة عن دعوة الابن الحبيب من مصر، ولم يكن ذلك الابن الحبيب بالطبع سوى شعب الرب، ولكنها المسيحية المتهودة التي ظلت وفية للتقاليد اليهودية ونبوءاتها، حتى لو اختلقت من أجلها قصصا ليس لها شاهد، ولا برهان؛ حيث يتحدث القساوسة بثقة لا حدود لها أن العائلة المقدسة قد اخترقت مصر، ووصلت إلى (درنكة) في أسيوط، وأما خط مسار رحلة العائلة المقدسة: فهو أنهم غادروا أرض فلسطين، ثم رفح ثم العريش ثم الفرما في سيناء، ثم وصلت العائلة المقدسة إلى تل بسطا بالقرب من الزقازيق، ثم مسطرد، ثم سمنود، ثم البرلس، ثم سخا، ثم برية شيهيت بوادى النطرون، ثم عين شمس فمصر القديمة، ثم دير العذراء بجبل الطير فالأشمونين، فديروط فالقوصية، ثم مير، ثم دير المحرق، وكانت نهاية الرحلة بجبل درنكة."وبهذا، نرى أن رب المجد قد بارك أرض مصر كلها. ونلاحظ أن الأوثان كانت تسقط عندما يدخل المسيح إلى بلد ما في كل أرض مصر[129]".

لكن إذا كانت السيدة مريم لم تقصص علينا شيئًا عن رحلتها مع زوجها يوسف وابنها إلى مصر، وإذا لم يقل المسيح لتلاميذه إنه حُمل إلى مصر رضيعًا ، فمن أين إذن تأتي كل تلك الثقة بصحة جميع تلك المزارات المباركة التي تقدسها الكنيسة المصرية إن كان أحدٌ من الزائرين الثلاثة لم يرجع ثانية إلى تلك الأماكن، أو حدث أن نطق بكلمة واحدة عن تلك الزيارة الملفقة، فضلا عن ارتباطها الوثيق بمجموعة من الأكاذيب

[129]"شرح سفرالتكوين" أنطونيوس فكري، ص 34.

الأخرى مثل: قتل هيرودس لجميع الأطفال في بيت لحم، وقصة تتبع المجوس للكوكب. وعلى كل حال، فهذه النقطة خارج موضوعنا الآن، وسنعود إلى أمثالها عند عرضنا لقصة حياة يسوع الناصري.

إذن، فلا علينا أن نغادر هذه الرواية لنلقي نظرة على تاريخ البشر وفق الرواية القرآنية التي لا تقل عن أختها التوراتية في تعارضها الواضح مع التاريخ البشري المحقق، ولكن بعد أن نقف وقفة عند المرويات التلمودية لنرى ماذا أخذ منها القرآن وماذا ترك.

المبحث الثاني
من آدم الي نوح في الأساطير التلمودية

أولا: من آدم إلى نوح في الأساطير التلمودية.

ثانيا: من خلق العالم إلى وفاة آدم.

ثالثا: بين آدم ونوح.

أولا: من آدم إلى نوح في الأساطير التلمودية.

بعد أن فرغنا من تقديم عرض مختصر لما أوردته الرواية التوراتية عن تاريخ البشر منذ زمن الخليقة وصولا إلى نوح وطوفانه الكبير، فلا بد لنا من أن نقدم بعده عرضًا مماثلا لما جاء في القصص التلمودية من أخبار تلك الفترة، وأحوال أهلها لما لتلك المرويات القصصية من فائدة كبيرة في تحقيق هدفين مهمين لهذه الدراسة: أولهما هو بيان أصول بعض معالم الرواية القرآنية عن قصة نوح، وهو ما سنعرضه مباشرة بعد الفراغ من هذا الفصل، وأيضا لتفسير بعض ما أُبهم في الرواية التوراتية، ومحاولة فهم دلالة بعض أحداثها؛ وذلك لاعتقادنا بأن مؤلفي تلك القصص وإن بعد زمانهم عنها كانوا أقرب ما يكون إلى روح التوراة وعالمها الثقافي؛ وذلك لسبب واضح للغاية، وهو أنهم لم يكونوا يستشعرون شيئًا من حرج التناقض بين ما جاء في روايتهم الدينية الأصلية وما جاء به العلم الحديث في القرون الأخيرة من نقد شديد لتلك الرواية بسبب ما تنطوي عليه من تناقضات صارخة ومن أخطاء تاريخية مروعة، ولأنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا من هذا؛ لذا فلم يكونوا يبررون أو يدافعون عبر التأويل المتكلف، كما سيفعل الشراح المحدثون، بل كانوا يشرحون مطمئنين لسلامة كتابهم المقدس واتساقه، وعلى هذا فقد جاءت تلك الشروح القصصية التعليمية كما نعتقد أقرب ما تكون إلى عالم متلقي التوراة وقت تحريرها النهائي والأخير.

إذن، فسوف نبدأ بتقديم عرض مختصر لما جاء في تلك المرويات عن قصة الخلق مرورًا بآدم وبنيه حتى نصل إلى نوح، مقصدنا الرئيس، ومن بين ذلك الفيض الهائل من التفاصيل، الذي تذخر به تلك القصص التلمودية فلن نتوقف هنا إلا عند شيئين اثنين أولهما: هو ما نجد له شبيهًا واضحًا في القرآن أو في الأحاديث النبوية الصحيحة خاصة في قصة الخلق؛ لأنه إذا كانت تلك المرويات التلمودية عن قصص الآباء

والأنبياء تشكل أساسَ عددٍ كبيرٍ من ملامح القصص القرآني عن أنبياء العهد القديم كما سنرى في قصتي لوط ويوسف، فإن قصة الخلق في تلك القصص التلمودية تشكل ما هو أهم من ذلك بكثير؛ إذ إنها تشكل في اعتقادنا أساس عدد كبير من المفاهيم ومرتكزات الرؤية الإسلامية نفسها رغم حضورها بين ثنايا وتفصيلات تلك الزخارف الصغيرة من القصص الأجادية، وثاني ما سنتوقف عنده من تلك القصص هو ما يشكل إضاءة لنص التوراة ويشرح غامضها، فهذا المختصر القصصي كما أنه يتوسط زمنيًّا بين زمني تحرير التوراة وتنزل القرآن، فهو كذلك يشرح القديم، ويجلي فضاءه المعرفي، وعلى أساس من بعض لبناته أيضًا سيبنى الجديد كما لو كانت تلك القصص جسرًا دقيقًا ممتدًا بين رؤيتين متباعدتين.

آثرنا أن نورد الإشارات إلى تلك المشابهات في هامش الصفحة حتى لا نقطع على القارئ الكريم اتصال الرواية وتسلسلها، ولن نورد من بين جميع تلك المشابهات إلا إلى ما يحتاج إلى إيضاح؛ لأن تلك المشابهات في جملتها قد جاءت على قدر من الوضوح بحيث لا تخفى على كل من قرأ القرآن الكريم، وتصفح إلى جانبه بعض المتون الحديثية الأساسية، ومن قرأ فقط الإصحاحات الأولى من سفر التكوين.

هذه القصص ومقاصدها

"هل ترغب في معرفة من قال للعالم: كن فيكون؟ ادرس الهاغادا؛ لأنك بواسطتها ستصل لمعرفة القدوس الوحيد الممجد وسوف تتمسك بدروبه[130]".

أما عن هذه القصص الأجادية التي سنقوم بعرضها، فمن المعروف أنها حكايات شعبية منمقة نمت على ضفاف قصص العهد القديم، وقد أبدعتها بعد الفراغ من تحرير التوراة بمئات السنين طبقاتٌ متتالية من القصاص والوعاظ لأغراض تعليمية أو وعظية؛ لذا فلا نراها تأبه كثيرًا بموافقة المتن التوراتي نفسه أحيانًا، بل نراها كثيرًا ما تخالفه حتى لتبدو بعض تلك القصص ذات طابع رمزي واضح، ولكن لا يخفى من ورائها مقصد المعلم أو الشاعر من تأليفها: "تقدم الأجَّاداه أمثلة لا حصر لها في وصف أبطال الماضي في صور لا تتطابق مع الواقع التاريخي؛ إذ كانت الشخصيات التوراتية

(130)انظر كتاب: "التلمود عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول الأخلاق - الآداب - الدين - التقاليد – القضاء" آ- كوهن، ترجمة: جاك مارتي، نقله إلى العربية: د. سليم طنوس، دار الخيال، بيروت الطبعة الأولى 2005م، ص39.

توصف أحيانًا بملامح حكماء المشنا والتلمود، ولم تكن هذه الأوصاف تنشد البعد التاريخي، وإنما كانت غالبًا ما تفهم كمحاولة لتوضيح الشخصيات والأحداث بشكل يسهل فهمه عند أكبر عدد ممكن من الناس، وكان الحكماء يرون أنه من الأفضل أن يعطوا الشخصيات التاريخية ملامح أشخاص معاصرين، ويسمحوا بذلك للمستمعين أن يتمثلوا بهم ويأخذوا منها العبر بدلا من نقل الناس إلى عصر تاريخي آخر كما كانوا أيضًا يعدون الفهم الجيد في مجالات أخرى أفضل من الدقة التاريخية[131]".

أما عن المعنى الدقيق لكلمة (أجاداه) فيقول عنها جامع هذه الذخيرة القصصية التي سنعتمد عليها: "والقصص الشعبي أو الفلكلور وكذلك القصص الخرافية والأساطير وكل أشكال الحكايات المرتبطة بهذه الأشكال الروائية كلها تندرج لاصطلاحات الأدب اليهودي اللاحق على عصر التوراة تحت الوصف الجامع (الأجاداه) ذلك الاسم الذي يمكن شرحه بإطناب، لكن لا يمكن ترجمته[132]"، ولكنها على كل حال في مجملها قصص طريفة وسهلة المحمل، ويمكنها أن تذيع وأن تنتشر بين جميع طبقات الناس وفي جميع العصور، وسنرى منها الكثير عند عرضنا لقصتي لوط ويوسف. وأما هنا فسنعرض لبعض ما تقدمه عن قصة الخليقة؛ لأنه إذا كان من الطبيعي أن نجد المسرح الإلهي يعد قبل خلق الإنسان الذي إن جاء كآخر ما خلق الله فإنه من أجله فقط خلق الله كل هذا العالم! وإذا كانت التوراة قد قدمت لنا مراحل الخلق مختصرة، بل شديدة الاختصار، فقد تولت القصص التلمودية تقديم التفاصيل التي سنسوقها لك كما جاءت بنصها كثيرًا وبمعناها الحرفي الدقيق دائمًا معتمدين على كتاب واحد فقط وهو كتاب (أساطير اليهود)[133]".

[131]انظر: "مدخل إلى التلمود" أدين شتايين سالتز، ترجمة: د. فيينا الشيخ، دار الفرقد، دمشق، الطبعة الأولى 2006م، ص334.

[132]"أساطير اليهود"، لويس جنزبرج، المجلد الأول، ترجمة حسن حمدي السماحي، دارالكتاب العربي، دمشق، القاهرة- الطبعة الأولى 2007م، ص 14.

[133]المرجع السابق، ص 22

ثانيا: من خلق العالم إلى وفاة آدم.

"تم خلق سبعة أشياء قبل العالم، برأيي: العهد القديم، والتوبة، وجنة عدن وجهنم، وعرش الجلالة، والمعبد، واسم المسيح [134]".

في البداية قبل السموات والأرض بألفي عام خلقت سبعة أشياء: التوراة[135] وكتبت بنار سوداء على نار بيضاء ورقدت في حجر الرب، والعرش الإلهي الذي شيد في السموات وفيما بعد وضع على رءوس الهايوت، والجنة عن يمين الرب والنار عن شماله، والملأ السماوي أمام الرب مباشرة وعلى مذبحه جوهرة نقش عليها اسم المسيّا، وصوت يصيح عاليًا: عودوا إلي يا بني البشر، ثم خلق الله في اليوم الأول عشرة أشياء: منها السموات والأرض فقد خلق الله سبع سموات، وخلق كذلك سبع أرضين[136] يفصل كلا منها عن الأخرى خمسُ طبقات، وتفصل بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، وليست السموات والأرضون منفصلة عن بعضها بعضا، بل إنها تتلامس من ثلاث جهات هي الشرق والغرب والجنوب. وفي اليوم الثاني خلق الله أربعة أشياء، هي: الفلك والجحيم والنار والملائكة، وجعلها الرب سبعة أقسام [137] كل منها تحت الآخر، يشرف عليها تسعون ألف ملك من ملائكة الهلاك، وخلق الله أنهارًا من القطران والكبريت تتدفق وتتوهج كالفحمات الحية، وخلق الله كذلك الملائكة المستوزين أو ملائكة التسبيح، وهذه

---

(134)"التلمود البابلي"، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، 2011م، ج 9، ص 66. وانظر قوائم أخرى للمخلوقات الأولى في المجلد الخامس ص 204-205.

(135) هل حل اللوح المحفوظ كبديل قرآني عن التوراة؟!

(136)من المعلوم أن التوراة تخلو من هذا التقسيم الدقيق للسموات، ولم تتحدث قط عن تقسيم الأرض إلى سبع أرضين يقع بعضهن فوق بعض، ولكن ما يعنينا هنا هو أن القرآن قد تابع هذا التقسيم ذاته كما يتجلى في هذه الآية: *اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَات وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُن يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌوَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍعِلْمًا (12)* سورة الطلاق.

(137)تابع القرآن كذلك هذه المرويات وأمثالها على تقسيم الجحيم إلى سبعة أقسام مثلما تشير إلى ذلك هذه الآية *لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)* سورة الحجر.

رغم أن هذه الآية تقول إنها سبعة أبواب وليست سبعة طبقات، فإن المفسرين نقلوا من الأقوال ما يشير إلى أنها أقسام متراكبة؛ أي إن لكل طابق بابا، ومن ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره: "قال إسماعيل بن عُلَيَّة وَشُعْبَةُ كِلَاهُمَا، عَنْ أَبِي هَارُونَ الْغَنَوِيّ، عَنْ حِطَّانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ يَخْطُبُ قَالَ: إِنَّ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ هَكَذَا ــ قَالَ أَبُو هَارُونَ: أَطْبَاقًا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَقَالَ إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ هُبَيْرة بْنَ يَرِيمَ (7) عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَيَمْتَلِئُ الْأَوَّلُ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ، حَتَّى تُمْلأَ كُلُّهَا وَقَالَ عِكْرِمة: {سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} سَبْعَةُ أَطْبَاقٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: {سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} أَوَّلُهَا جَهَنَّمُ، ثُمَّ لظَى، ثُمَّ الحُطَمَة، ثُمَّ سَعِيرٌ، ثُمَّ سَقَرُ، ثُمَّ الْجَحِيمُ، ثُمَّ الْهَاوِيَةُ.) (ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية 1999 م، ج4، ص 536).

الملائكة التي صيغت من النار لها أشكال النار طالما بقيت في السماء فقط، أما عندما تهبط إلى الأرض لتنفذ أوامر الرب فهي إما تتحول إلى رياح أو تتخفى في هيئات البشر، والملائكة كذلك مراتب ودرجات أعلاهن درجة هم الملائكة المحيطون بالعرش(138).

وحتى اليوم الثالث كانت الأرض سهلاً منبسطًا ومغطاة بكاملها بالماء، وكان المخلوق الرئيس في اليوم الثالث هو مملكة النبات؛ النباتات الأرضية ونباتات الجنة، وكان أولها أشجار الأرز اللبناني والأشجار الضخمة الأخرى، التي من فخرها بكونها خلقت أولا سمقت عاليًا في الهواء واعتبرت أنفسها المفضلات من بين النباتات ثم تكلم الرب قائلا: إنني أكره الغطرسة والتكبر لأنني أنا المتكبر وحدي ولا أحد سواي(139)، وخلقت الحديد في اليوم نفسه، تلك المادة التي تقطع بها الأشجار، وبدأت الأشجار تبكي، وعندما سألها الرب عن سبب بكائها قالت: نبكي لأنك خلقت الحديد لنجتث به من جذورنا، ولطالما كنا نظن أنفسنا أعلى ما على ظهر الأرض، وها هو الحديد مدمرنا الآن قد خلق، أجابها الرب قائلا أنتم أنفسكم ستمدون الفأس بيد وبدون مددكم لن يستطيع الحديد فعل شيء أيا كان ضدكم".

---

(138) اهتم المسلمون كثيرًا بما أثبته القرآن من أن لله عرشًا يجلس عليه، وأن لهذا العرش ثمانية من أعاظم الملائكة يحملونه لا يفترون، فلا تكاد تجد متنًا حديثيًّا مهمًّا إلا يحوي بابًا في تلك المسألة، بل لقد أفردوا كتبًا بكاملها عما جاء عن العرش وحملته ومن يطيفون به، من أحاديث وآثار يرفعها الرواة إلى النبي وإلى أصحابه، ما صح منها وما لم يصح، وكثير من هذه الكتب لا تزال إلى يومنا هذا تحقق وتطبع وتنشر بسبب رواج المذهب السلفي، وما يجده أصحاب هذا الاتجاه في تلك الكتب من أسانيد تعضد ما يعتقدونه في قضية الأسماء والصفات من نسبة الله إلى العلو والاستواء على العرش، فهي عندهم قضية ثابتة بنصوص القرآن وصحيح السنة النبوية، فيمكن للقارئ الكريم أن يرجع مثلا إلى كتاب:"العرش وما رُوِي فيه"، لأبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، تحقيق محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1998م.

وأما عن فضل حملة العرش عمن سواهم، فقد أفاض المفسرون في فضل حملة العرش، ونصوا على أنهم أعظم الملائكة، وأوردوا عشرات الأحاديث التي تثبت هذا، ومن بين هؤلاء المفسرين الإمام الرازي؛ حيث يقول في شرح هذه الآية:
الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْد رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .
الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ تعالى حَكَى عَنْ نَوْعَيْن مِن فِرَقِ الْمَلَائِكَةِ هَذِهِ الْحِكَايَةَ، وَفِي الْآيَةِ مَسَائِلُ:
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ، وَقَدْ حَكَى تعالى أَنَّ الَّذِين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَةٌ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَال الَّذِينَ يَحْمِلُون فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ أُولَئِكَ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْش أَشْرَافُ الْمَلَائِكَةِ وَأَكَابِرُهُمْ، رَوَى صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْجُلُهُمْ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ورءوسهم قَدْ خَرَقَتِ الْعَرْشَ وَهُمْ خُشُوعٌ لَايَرْفَعُونَ طَرْفَهُمْ.
انظر: "مفاتيح الغيب" الرازي، ج27، ص 487، دار إحياء التراث العربي، بيروت: الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.

(139)"إنّ الله تعالى يقول: إن العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما عذبته"،السلسلة الصحيحة برقم 541.

وكان أهم إبداعات الخالق في اليوم الثالث أيضًا أنه خلق الفردوس، وملأه بالأنهار؛ أحدها من اللبن، والثاني من البلسم، والثالث من الخمر، والرابع من العسل[140] وتمتلئ الجنان باللآلئ الوهاجة [141].

وفي اليوم الرابع بدأ نشاط الشمس والقمر والنجوم، وتسير الشمس في رحلتها اليومية يصحبها موكب عظيم من الملائكة يجرونها بالخطاطيف، وللشمس وجهان أحدهما من النار وهو موجه نحو الأرض، وآخر من البرد وهو موجه نحو السماء ليبرد الحرارة الهائلة التي تنبعث من الوجه الآخر، وإلا فإن الأرض ستتشب فيها النار، وفي الشتاء تدير الشمس وجهها الناري إلى الأعلى وهكذا ينتج البرد[142]، وعندما تهبط

---

(140)لعل هذا الوصف التلمودي لجنة الخليقة الأرضية هو أساس هذه الآية من سورة (محمد) التي تصف لنا أنهار جنة الآخرة في الإسلام: *مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)*، سورة محمد.

(141)لم تغب اللآلئ عن جنة الآخرة الإسلامية فقد جاءت مرارًا في القرآن كحلي يتحلى بها المؤمنون في الآخرة، وجاءت كذلك في الأحاديث الصحيحة لوصف بديع مساكن جنة الآخرة، ومنها هذا الحديث العجيب: "إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا"، السلسلة الصحيحة برقم 3541.

(142)عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّهَا، فَقالَتْ: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فأذِنَ لَهَا بنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ في الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ في الصَّيْفِ، فَهْوَ أَشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وَأَشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ.." السلسلة الصحيحة للألباني (1457)، ولا نشك في أن هذا الحديث النبوي العجيب ما هو إلا أثر من آثار تلك الخرافة اليهودية؛ حيث نراه يرجع شدة البرد في الشتاء إلى زمهرير الشمس، مثلما يرجع شدة الحر في الصيف إلى شديد حرارتها، ولا يبعد أن يكون المقصود بالنفسين فى هذا الحديث هو دورانها على النحو الذى جاء في هذه القصة، وإلى قريب من هذا قال هذان الشارحان: "نفس فِي الشتَاء وَنَفس فِي الصَّيف هما بِالْجَرِّ على الْبَدَل أَو الْبَيَان وَيجوز الرّفْع وَلمُسلم زِيَادَة فَمَا ترَوْنَ من شدَّة الْبرد فَذَلِك من زمهريرها وَمَا ترَوْنَ من شدَّة الْحر فَهُوَ من سمومها أَو قَالَ من حرهَا، قَالَ القَاضِي عِيَاض قيل مَعْنَاهُ أنها إذا تنفست فِي الصَّيف قوي لَهب تنفسها حر الشَّمْس، وَإِذا تنفست فِي الشتَاء دفع حرهَا شدَّة الْبرد إِلى الأَرْض، وَقَالَ ابن عبد الْبر لفظ الحَدِيث يدل على أَن نَفسهَا فِي الشتَاء غير الشتَاء ونفسها فِي الصَّيف غير الصَّيف، وَقَالَ ابن التِّين فَإِن قيل كَيفَ يجمع بَين الْبرد وَالْحر فِي النَّار؟ فَالْجَوَاب أَن جَهَنَّم فِيهَا زَوَايَا فِيهَا نَار وزوايا فِيهَا زمهرير وَلَيْسَت محلا وَاحِدًا يَسْتَحِيل أَن يجتمعا فِيهِ، وَقَالَ مغلطاي لقَائِل أَن يَقُول الَّذِي خلق الْملك من ثلج ونار قَادر على جمع الضدين فِي مَحل وَاحِد قَالَ وَأيضا فَالنَّار من أُمُور الْآخِرَة وَالْآخِرَة لَا تقاس على أَمر الدُّنْيَا"، راجع كتاب "تنوير الحوالك شرح موطأ مالك" جلال الدين السيوطي ج1 ص30 المكتبة التجارية الكبرى، مصر1969 م.

"فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف" وأصل النفس ما يخرج من الجوف ويدخل إليه من الهواء، والمراد أن الله أذن لها أن تخفف عن نفسها فتفرز طاقتين متضادتين إلى هذه الأرض: طاقة باردة في الشتاء وطاقة حارة في الصيف، قال صلى الله عليه وسلم: "فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير". أي فليست شدة الحرارة التي تعانونها صيفاً إلّا من ذلك النفس الذي تخفف به عن نفسها صيفاً، وليست شدة البرودة التي تقاسونها شتاءً إلا من ذلك النفس الذي تخفف به عن نفسها شتاءً. ولا مانع ولا غرابة أن يجمع الله فيها بين الضدين، لأنّ الذي خلق في عالمنا الصغير - الثلج والنار - قادر على أن يخلق في جهنم طبقة نارية وطبقة زمهريرية" (ج2 ص73 من كتاب "منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري" حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط- الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية- 1990 م).

الشمس في الغرب في المساء فإنها تغطس في المحيط وتطهر جسمها وتنطفئ نارها فلا يكون نور ولا دفء في أثناء الليل، لكن بمجرد أن تصل إلى الشرق في الصباح تغطس في نهر جارٍ من اللهيب يبث فيها الدفء والنور فتسكبهما من جديد على الأرض[143].

أما في اليوم الخامس فقد خلق الله الأسماك والطيور وحيوانات الماء، والحاكم على الحيوانات البحرية هو الليفياثان، وقد صنع في اليوم الخامس مع كل الأسماك الأخرى وقد خلق في الأصل من ذكر وأنثى مثل كل الحيوانات الأخرى لكن عندما ظهر أن زوجين من هذه الوحوش قد يقضيان على الأرض كلها بقوتيهما المتحدتين قتل الرب الأنثى، والليفياثان هائل الحجم لدرجة أنه لكي يروي عطشه يحتاج إلى كل المياه التي تتدفق من نهر الأردن إلى البحر، ويتكون غذاؤه من السمك الذي يتصادف أن يمر بين فكيه، وعندما يكون جائعًا ينفث أنفاسًا ساخنة من منخريه تجعل مياه البحر العظيم تغلي من السخونة، ومن جلد ليفياثان سينشئ الرب خيامًا[144] لتظلل جماعات المتقين في أثناء استمتاعهم بتناول أطباق من لحمه، ومن بين الطيور التي خلقها الله في اليوم الخامس الزيز وهو المعيَّن حاكمًا على الطيور، كما أنّ ليفياثان هو ملك الأسماك، والزيز هائل الحجم كالليفياثان، وتستقر رجلاه على الأرض بينما تصل رأسه إلى عنان السماء[145]

(143)"عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ غربت الشَّمْس: «أَيْن تذْهب؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فتستأذن فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا وتستأذن فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا وَيُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى "والشمسُ تجْرِي لمستقرّ لَهَا" قَالَ: "«مستقرها تَحت الْعَرْش"، مُتَّفق عَلَيْهِ.

ليس ببعيد أن يكون هذا التصور اليهودي عن الشمس وحركتها هو أساس هذا الحديث النبوي فكلاهما يقرر بوضوح أنّ الأرض ثابتة في مكانها وأنّ الشمس هي التي تدور حولها وهو اعتقاد لم يغادره البشر جميعًا إلا قبل قرون قليلة، لذا فلا غرابة في حضوره هنا أو هناك .

(144)ستكون الخيام أيضا من بين مساكن أهل الجنة الإسلامية مثلما تدل عليه هذه الآية: *حورمقصورات في الخيام* (الرحمن-72).

(145)هل نذهب بعيدًا إذا ما اقترحنا أن يكون هذا الديك هائل الخلقة، والذى يسبح الله ويمجده هو ذاته طائر الزيز التلمودي؟ "إنّ الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه منثنٍ تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، فيرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذبا"، انظره في السلسلة الصحيحة برقم 541.

أما عن تصديقنا الكامل بأن الله قد أذن للنبي في التحدث عن هذا المخلوق العجيب فهو ما لا نشك فيه، لكن ذلك لا يعدو أن يكون تعبيرا عن صراع باطني شجر في نفس النبي عليه السلام بين رغبته في التحدث إلى الناس عن هذا الكائن الهائل الذي بلغه شيء من خبره، وبين تحرجه في الوقت ذاته من أن يخاطب الناس بما يفوق قدرتهم على التصديق، ولكن النزوع الأول هو من انتصر في خاطر النبي الذى رأى أن غياب هذا الحرج من نفسه كان تعبيرا أو إشارة إلى أن الله قد أذن له في إعلام الناس بهذا!

وجناحاه ضخمان لدرجة أنه عندما يبسطهما يحجبان الشمس، وهما يحميان الأرض من عواصف الجنوب ... ومثل الليفياثان فإن الزيز هو وجبة شهية ستقدم للمتقين في نهاية الزمان لتعويضهم عن الحرمان الذي فرضه عليهم الامتناع عن تناول الطيور غير النظيفة، وهناك أيضًا بهيموث[146] وهو حوت أعظم بما لا يقاس من سابقيه، ومصيره لن يختلف أيضًا عنهما؛ إذ سيقدم للمتقين في الآخرة كفاتح للشهية، وذلك كمكافأة لهم على حرمان أنفسهم من مشاهدة مباهج السيرك، ومباريات المصارعة في الدنيا".

الخلائق تسبح الله

أوجد الرب العالم كله لمجده؛ فكل الأشياء تسبح بحمد الرب، ولكل مخلوق ترنيمة الحمد الخاصة به التي يثني بها على الخالق، وكذلك فإن الأجرام السماوية تصرح بحمد ربها، فالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والبرق والندى كل هذا يسبح الله[147]،

وأما عن باعث تحرج النبي فهو هو ما سيتقرر بشكل عام في العقيدة الإسلامية كما جاء عن علي بن أبي طالب "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!"، وأوضح منه ما جاء عن ابن مسعود فيما رواه البخاري "إنك لن تحدث قومًا حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة".

(146)"أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها"، انظر الحديث مختصرًا في كتاب: صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني برقم 1349، المكتب الإسلامي، ج1، ص 286.

(147)تابع النبي أيضا هذا الاعتقاد التلمودي في تسبيح الخلائق جميعا لله، وقرر في غير آية سجودها لله كما في الرعد (15) والنحل (49)، والحج (18)، ويمكننا أن نجزم بأن المراد من هذا التسبيح أنه مقصود به حقيقته، وليس ما يقوله بعض المفسرين بأن المراد منه مجرد استرسال المخلوقات مع قوانين الله الكونية وجريانها مع ما أودعه الله فيها من قابليات خاصة، فقد جاءنا حديث (وإن لم يكن صحيح الإسناد) عن تسبيح الحصي بين يدي النبي وأيدي أصحابه، وأنهم سمعوه بآذانهم إلا أننا على ثقة رغم ذلك بأن النبي وصحابته الأولين كانوا يعتقدون في أن لكل المخلوقات صوته الخاص، وإنما يسمعه من خلق الله من أذن الله له بسماعه، ولكن يغنينا عن ذلك الحديث الواهن هذا الحديث الصحيح الذى يقرر سماع الصحابة تسبيح الطعام فى الصحاف: "عن عبد الله بن مسعود قال: إنكم تعدون الآيات عذابا وإنا كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بركة، لقد كنا نأكل الطعام مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام قال وأتي النبي صلى الله عليه وسلم بإناء فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حي على الوضوء المبارك والبركة من السماء حتى توضأنا كلنا"، صحيح أخرجه البخاري، انظرالحديث في "صحيح وضعيف سنن الترمذي"، ناصرالدين الألباني، برقم 3633. أما عن تسبيح المخلوقات لله فى القرآن فهو واضح كما هذه الآية *وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)* (الرعد:13)، *تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)* (الإسراء:44).

وكذا سمك الماء وحيتان البحر[148] وجميع الخلائق من الأرض إلى السماء يكلمها الله وتعي حديثه[149].

الإنسان والعالم

خلق الله العالم من أجل الإنسان فهو أفضل جميع ما خلق الله رغم أنه آخر من أتى من مخلوقاته؛ إذ خلقه الله في اليوم السادس[150]، "وأفضلية الإنسان على المخلوقات الأخرى ظاهرة في طريقة خلقه نفسها وهي مختلفة تمامًا عن طريقة خلق المخلوقات الأخرى فهو الوحيد الذي خلقه الرب بيديه والباقون نشأوا من كلمة الرب[151]".

[148]وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: من سلك طريقاً يلتمِسُ فيه علماً سهّلَ الله له طريقاً إلى الجنّةِ، وإن الملائكةَ لتضعُ أجنحتها لِطالبِ العلم رِضاً بما يصنع، وإن العالِمَ ليَسْتَغْفِرُ له من في السمواتِ ومَن في الأرضِ، حتى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمرِ على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثُوا العلمَ، فمن أخذه أخذَ بحظٍ وافرٍ"، انظر الحديث في "صحيح الترغيب والترهيب" الألباني، برقم 70.

[149]يغلب على ظننا أن تلك الآية البديعة من سورة الأحزاب (72)، التى تقول إن الله قد عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، كانت تقرر حوارا حقيقيا لا مجازيا؛ لأننا نرى جميع المخلوقات في هذه القصص تتكلم وتعي، لذا فلا يبعد أبدًا أن تكون من خلف تلك الآية قصة أجادية كانت تتحدث عن عرض الله حرية الإرادة على تلك المخلوقات، لكنهن أبينَ ذلك، واخترن أن يبقين طائعات مسخرات لأمر الله، ولم يقبل تلك المهمة الثقيلة سوى الإنسان وحده، خاصة أننا نرى الله في القرآن يخاطب السموات والأرض ويجبن عليه كما جاء في سورة فصلت 11.

[150]قبل النبي التصور اليهودي عن مدة الخلق، التى كانت أسبوعا إلهيا قدره سبعة آلاف سنة، قضى الله ستة منها في إبداع العالم والإنسان، ثم استوى في سابعها على العرش "وستكون مدة التجربة البشرية على الأرض أيضًا هي المدة ذاتها كما سنرى!"، مثلما جاء مجملاً في سورة الأعراف (54)، ويونس (3)، وهود (7)، والفرقان (59)، والسجدة (4)، وق (38)، والحديد (4)، وجاء على قدر ما من التفصيل في هذه الآيات الثلاث من سورة فصلت: *قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)* سورة فصلت، ويلاحظ أيضًا أن القرآن يقول بخلق الله للأرض في الوقت ذاته، "ولا حاجة إلى القول بأن هذا الاعتقادلا يتوافق قطعا مع مقررات العلم الحديث".

[151]تابع النبي هذا التصور التلمودي عن خلق الله آدم وحده بيديه، وخلق جميع الأشياء سواه بقوة الكلمة الخالقة (كن) كما تشير إلى ذلك هذه الآية:*إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* (آل عمران:59)، أما الأحاديث النبوية فتقرر كيفية خلق آدم على نحو واضح؛ حيث نجد موسى يقول لآدم: "احتج آدم وموسى فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ! قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليك التوراة، أتلومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني؟! فحج آدم موسى"، انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني برقم (184)، ونجد الوصف ذاته على ألسنة البشر يوم العرض وهم يطلبون من آدم أن يشفع فيهم عند الله: (فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبونا، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ انظر تمام الحديث في كتاب في صحيح الجامع رقم : 1466.

نجد كذلك أن الله بسبب تواضعه يستشير الملائكة بشأن ما انتواه من خلق الإنسان[152]، وليعط الله البشر أيضا مثالا عمليا على ضرورة وفضل استشارة الإنسان لغيره قبل أن يقدم على أي عمل مهم في حياته، ونجد الملائكة بعد أن استشارهم الرب يختلفون فيما بينهم، فنجد منهم من يوافق مُرحِّبًا، ونرى سواهم غير متحمسين لخلق الإنسان؛ لأنه سيكون بحكم طبيعته ميالا للشجار ولكنهم استسلموا في النهاية لمشيئة الله، ووافقوا الرب على إرادته، بعدها طلب الله من الملاك جبريل أن يذهب ويحضر له ترابًا من أركان الأرض الأربعة، وكان التراب الذي أحضره جبريل يشمل أنواع وألوان تراب الأرض جميعًا أحمر وأسود وأبيض وأخضر [153].

روح الإنسان

وإذا كان الله قد اهتم بالجسد البشري كل هذا الاهتمام فإن اهتمامه بالروح البشرية كان أهمَّ من ذلك وأعظم، فقد أودع فيها الخالق خمس قوى مختلفة وبواسطة أي منها تهرب من الجسد كل ليلة وترتفع إلى السماء، وتحضر للإنسان من هناك حياة

---

[152] من المعلوم أن التوراة لم تذكر شيئا عن قصة استشارة الله للملائكة قبل أن يخلق آدم، ولكننا نراهم في القرآن يقدمون الأسباب ذاتها التي نجدها هنا في هذه القصص؛ أي من خشيتهم أن يفسد الإنسان في الأرض؛ لذا فأساس تلك القصة في القرآن هي هذه القصص التلمودية.

[153] ربما وجد النبي في هذه التفصيلة اللطيفة تفسيرًا لما كان يجده أمام ناظريه من تنوع في ألوان البشر واختلاف في طبائعهم وأخلاقهم كما يدلنا على ذلك هذا الحديث: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب"، انظر الحديث في ج4، ص 172، برقم 1630، كتاب "سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها" للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، مكتبة المعارف.

جديدة[154]، ومع روح آدم خُلقت أرواح كل أجيال البشر [155] وهي مخزونة هناك في مخزن في السماء السابعة وتسحب منه (روح) عندما يحتاج إليها لدخول جسد بشري بعد آخر.

أما كيف تتحد روح وجسد الإنسان فبهذه الطريقة؛ إذ عندما تحمل المرأة يحمل أحد الملائكة الحيوان المنوي أمام الرب الذي يقرر أي شكل إنساني سيصبح؛ ذكرًا أم أنثى، قويًّا أم ضعيفًا، غنيًّا أم فقيرًا إلى غير ذلك من الصفات الأخرى، لكن الرب يترك

(154)*اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* (سورة الزمر:42).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَلْتَقِي فِي الْمَنَامِ فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَرَادَ جَمِيعُهَا الرُّجُوعَ إِلَى الْأَجْسَادِ أَمْسَكَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ عِنْدَهُ، وَأَرْسَلَ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِلَى أَجْسَادِهَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ إِذَا مَاتُوا، وَأَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ إِذَا نَامُوا، فَتَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَتَعَارَفَ "فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى" أَيْ يُعِيدُهَا. قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا رَأَتْهُ نَفْسُ النَّائِمِ وَهِيَ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ إِرْسَالِهَا إِلَى جَسَدِهَا فَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَمَا رَأَتْهُ بَعْدَ إِرْسَالِهَا وَقَبْلَ اسْتِقْرَارِهَا فِي جَسَدِهَا تُلْقِيهَا الشَّيَاطِينُ، وَتُخَيِّلُ إِلَيْهَا الْأَبَاطِيلَ فَهِيَ الرؤيا الكاذبة.راجع ج15 ص 260 تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

ولعل من أمثال تلك الاعتقادات القديمة من تجوال روح النائم في الملأ الأعلى أسس التصور الديني اليهودي - الإسلامي عن الرؤيا الصادقة فهي على هذا معرفة حقيقية تحصلها روح النائم من تجوالها الليلى في الملكوت الإلهي؛ حيث لا فارق هناك بين ما مضى وانقضى، وبين ما هو مقدر وقوعه في مقبل الأيام لهذا جعل التصور اليهودي الرؤيا الصادقة من جنس معرفة النبوة، وإن كانت معرفة شاحبة ضعيفة في ذاتها من ناحية، ومن ناحية أخرى فليست بمعرفة موثوقة؛ إذ قد يعترضها الشيطان بأباطيله فيضلل صاحبها حيث يقول التلمود: (والحلم واحد على ستين من النبوة) راجع كتاب "التلمود الذكر - الصلاة - الدعاء تفسير الأحلام" د. ليلى أبو المجد وعلاء تيسير أحمد، مكتبة مدبولي 2012 م ص 480.

وقد تابع النبي هذا التصور التلمودي عن الرؤى الصادقة فنراه يقول: الرؤيا الصالحة جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة. وفى رواية أخرى صحيحة السند أيضًا: جزء من ستة وأربعين، وفى ثالثة ربما كانت أصح منهما " جزء من سبعين"، وعن التوفيق بين تلك الروايات الثلاث جميعًا يقول الشيخ الألباني بعد أن أورد الحديث الأول: "واعلم أنه لا منافاة بين قوله في هذا الحديث: إنّ الرؤيا الصالحة جزء من خمسة وعشرين، وفي الحديث التالي: "جزء من ستة وأربعين "، وفي حديث ابن عمر: "جزء من سبعين " رواه مسلم (7 / 54) وغيره، فإن هذا الاختلاف راجع إلى الرائي، فكلما كان صالحًا كانت النسبة أعلى"، راجع "سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها" للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، مكتبة المعارف، 1995 م، ج4، ص 486. لذا فمن الضروري أن نتذكر دائما تلك القناعة النبوية الراسخة قبل الدخول في قضية معراج النبي، التى لا نشك في أنه كان من خلفها هذه الرحلة القديمة لأخنوخ إلى السموات السبع كما سنرى.

(155)*وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ* الأَعۡرَاف.

ولعل هذا التصور هو أساس هذه الآية السابقة عن أخذ الله لبنى آدم من ظهور آبائهم وإشهادهم على أنفسهم.

التقوى والشر لقرار الإنسان نفسه ورغم توسل الروح لله بأن يبقيها في مكانها فإن الرب يقول لها: إنه ما خلقها إلا بغرض خوضها لتلك التجربة[156]، وبعد ذلك صباحا يأخذها ملك من الملائكة إلى الفردوس ليريها ما أعده الله من مجد للمستقيمين؛ حيث تراهم هناك يجلسون وعلى رأسهم التيجان ويعرفها الرب بأن هؤلاء لم يكونوا سوى نطف بشرية مثلها، لكنهم عندما تجسدوا ونزلوا الأرض فقد عاشوا حياة البر والتقوى[157]، ويعدها الرب بأنها إذا عاشت حياة التقوى فسوف تدخل عالم المتقين المتنعمين. وفي المساء يأخذ الملك الروح إلى الجحيم، وهناك يريها الخاطئين الذين تضربهم ملائكة الهلاك بمقامع نارية[158]، وتراهم ينوحون ويولولون ويستغيثون طالبين الرحمة، ويطلعها

---

[156]"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا ويؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة"، انظر الحديث في "صحيح الجامع الصغير وزياداته" برقم 1543، ج1، ص 321.

لا ينبغي التوقف كثيرًا أمام الاختلاف بين الروايتين من ناحية وقت حدوثها، فهو أمر لا أهمية له، وذلك لأنه ليس من الضروري أن يأخذ النبي القصة التي سمعها كما هي، بل يجب الاهتمام بما وراء أمثال تلك القصة من التأكيد الصارم على القدر الإلهي المحيط بالعباد، وأن العبد لن يغادر أبدًا ما قدره الله عليه من قضائه الشامل مذ خلقه؛ فالسعيد من سعد وهو في بطن أمه والشقي كذلك وهو تصور راسخ في العقيدة الإسلامية.

[157]نجد هنا أيضًا نقلة ليس من الغريب أن ينقلها النبي من تلك الجولة للروح قبل تجسدها كما في هذه القصة وإرجاء تلك الجولة الملكوتية إلى ما بعد الموت مباشرة كما جاء في الحديث النبوي، ولعلها كانت صيغة أخرى من تلك القصة أو تصرفًا من النبي فيها لكنه على كل حال أبقى على المعالم الأساسية: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإذا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إلى السَّمَاءِ فَيُفْتَحَ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفسِ الطّيبَة كَانَت فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ فَإذا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ فَمَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إلى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ فَيُقَالُ: (لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تفتح لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إلى الْقَبْر". رَوَاهُ ابْن مَاجَه، انظر الحديث في كتاب "مشكاة المصابيح" ج1، ص 510، الناشر المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة: الثالثة، 1985.

[158]أفاض القرآن كثيرًا في وصف ما أعده الله للكافرين في الآخرة من صنوف العذاب التي تقشعر من مجرد قراءتها الأبدان، وجاءت تلك الأوصاف على درجة قريبة من مثيلتها التلمودية، ومن ذلك هذه الآيات المخيفة من سورة الحج ونجد من بينها مقامع الحديد : *هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾*الحج.

الملك كذلك على أن هؤلاء المعذبين هم من عاشوا في العالم ولم يراعوا توراة الرب ووصاياه لذا "كوني مستقيمة ولا تكوني شريرة لكي تفوزي بالعالم الآتي"[159].

وبين الصباح إلى المساء يطوف الملك بالروح، ويريها أين ستعيش وأين ستموت، ويريها المكان الذي ستدفن فيه، وفي المساء يضعها في رحم أمها وتبقى هناك تسعة أشهر لكن الروح تتذمر ثانية لحظة ساعة مولدها وخروجها من الرحم إلى عالم التجربة المريع هذا، لكن الملك يجيبها في حزم باتر: "فلتعلمي أنه كما خلقت رغمًا عنك ستولدين الآن رغمًا عنك، وستموتين رغمًا عنك، ورغمًا عنك ستتشهدين على نفسك أمام ملك الملوك القدوس تعالى، لكن الروح تظل على عنادها، وعندئذ يقرص الملك الرضيع في أنفه ويطفئ النور على جبهته ويخرجه إلى العالم رغمًا عنه، وفي الحال ينسى الطفل كل ما تعلمته روحه ويخرج إلى العالم باكيًا؛ لأنه فقد مكانًا آمنًا ومريحًا[160]، وكذلك عندما يحين وقت فراق الإنسان لهذا العالم يظهر له الملك ذاته ويسأله ألا تعرفني؟! ويجيبه الإنسان أجل، ولكن لماذا جئت إليَّ اليوم، ولم تأت في يوم آخر؟ فيقول الملك لآخذك من العالم؛ إذ قد حان وقت رحيلك، عندئذ يجهش الإنسان بالبكاء ويخترق صوته كل أرجاء العالم، ولكن لا يسمع صوته مخلوق[161] فيما عدا الديك وحده[162].

(159)"الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"، وما نرى هذا الحديث إلا وصفًا لتلك الحالة الأولى من اجتماع أرواح البشر جميعا قبل تجسدها في عالم الغيب؛ حيث كانت تحتشد هناك في مجموعتين اثنتين لا غير، وهما: مجمع أهل السعادة، ومجمع أهل الشقاوة، وكانت كل روح تعرف أشباهها ونظائرها هناك فإذا لقيت من أشباهها في الدنيا ما عرفته هناك مالت إليه، ومن لم تلقه هناك استوحشت ونفرت منه: "قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ جُمُوعٌ مُجْتَمَعَةٌ أَوْ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ وَأَمَّا تَعَارُفُهَا فَهُوَ لِأَمْرٍ جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَقِيلَ إِنَّهَا مُوَافَقَةُ صِفَاتِهَا الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا وَتَنَاسُبُهَا فِي شِيَمِهَا وَقِيلَ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مُجْتَمِعَةً ثُمَّ فُرِّقَتْ فِي أَجْسَادِهَا فَمَنْ وَافَقَ بِشِيَمِهِ أَلِفَهُ وَمَنْ بَاعَدَهُ نَافَرَهُ وَخَالَفَهُ وَقَالَ الخطابي وغيره تآلفها هو ماخلقها اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاوَةِ فِي الْمُبْتَدَأِ وَكَانَتِ الْأَرْوَاحُ قِسْمَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فَإِذَا تَلَاقَتِ الْأَجْسَادُ فِي الدُّنْيَا ائْتَلَفَتْ وَاخْتَلَفَتْ بِحَسَبِ مَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ فَيَمِيلُ الْأَخْيَارُ إلى الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارُ إلى الأشرار والله أعلم"، راجع كتاب شرح النووي على مسلم المسمى "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، ج16، ص 185، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1392هـ.

(160)"كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب" انظر الحديث فى "صحيح الجامع الصغير وزياداته" للألباني برقم (4516) الناشر، المكتب الإسلامي، ج2، ص 831.

كما ترى فقد جعل النبي محمد عيسى المسيح وحده من دون البشر جميعًا مستثنى من تلك الوخزة الملكية، رغم تقرير القرآن الصارم على بشرية المسيح الكاملة في غير ما آية، إنما جاءه هذا الاستثناء التكريمي لبركة دعاء جدته لأمه، امرأة عمران، ولكن كالعادة نجد النبي ينسب الأفعال القبيحة إلى الشيطان لا إلى ملك من الملائكة!

(161)"إذا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَت لأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أَيْن يذهبون بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَلَو سمع الْإِنْسَان لصعق"، رَوَاهُ الْبُخَارِيّ.

(162)"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإذا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا"، راجع صحيح البخاري، حديث

خلق آدم وبهاؤه

مثل كل المخلوقات التي كونت في أيام الخلق الستة، خرج آدم من بين يدي خالقه كاملا، ولم يكن حين خلقه طفلا وإنما كان إنسانا له من العمر عشرون عامًا!! وكانت أبعاد جسمه هائلة مهيبة[163]، ولم يكن هناك سوى بشر قلائل من شابهوا آدم في حجمه الهائل وكماله البدني عبر التاريخ اليهودي فقد كان شمشون يملك قوته، وشاؤول رقبته، وأبشالوم شعره وسرعته، وعزيا جبهته، ويوشيا منخريه، وصدقيا عينيه، وزربابل صوته. ومنذ اللحظة الأولى لخلق آدم كشف له الرب تاريخ البشرية فأراه كل جيل وملوكه وكل جيل وأنبياءه وكل جيل ومعلميه وكل جيل ومتعلميه[164] وتنازل آدم بمحض إرادته الحرة عن سبعين سنة من سنوات عمره التي قدرها له الرب ومنحها إلى ابنه داود [165].

آدم يسمي الحيوانات

رقم 3303، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1422هـ، أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب استحباب الدعاء عند صياح الديك رقم 2729.

[163] "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا فلما خلقه؛ قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه: ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"، صحيح. (فائدة): قال الحافظ في الفتح: هذه الرواية تؤيد قول من قال:"إنّ الضمير لآدم، والمعنى: أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالاً ولا تردد في الأرحام أطوارًا كذريته بل خلقه الله رجلاً كاملاً سويًا من أول ما نفخ فيه الروح"، راجع إسناد الحديث مع تعقيب الألباني ص785، ج7 في كتاب "موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني في العقيدة" لشادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء، اليمن، الطبعة الأولى 2010 م.

[164] "حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقه من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال أي رب من هذا؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة، قال أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود؟ قال فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته"، قال أبوعيسى هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. الحديث الأول رواه الترمذي في سننه في كتاب التفسير باب من سورة الأعراف 4- 267 وانظره في صحيح سنن الترمذي 3-52، ورقمه 3282.

[165] سوف نتناول هذا الحديث السابق في فصل خاص عن "القصص في الحديث النبوي".

لم تتجل حكمة آدم في لحظة أعظم من تجليها عندما سمى الحيوانات، وهو ما أخجل فريق الملائكة التي عارضت الرب في خلق الإنسان، فبعد ساعة واحدة من خلق آدم جمع الرب جميع الحيوانات جميعًا أمام الملائكة، وطلب منهم أن يسموا كل نوع باسمه لكنهم فشلوا في ذلك، عندئذ نطق آدم دون تردد، وقال يارب العالم: الاسم المناسب لهذا الحيوان هو الثور، ولهذا الحصان، ولهذا الأسد، ولهذا الجمل، "لكن دون هبة الروح القدس لم يكن آدم ليستطيع أن يجد أسماء للجميع وقد كان في الحقيقة نبيا وكان لحكمته سمة نبوية[166]".

ميراثنا من آدم

لم تكن أسماء الحيوانات هي الإرث الوحيد الذي ورثته عنه الأجيال؛ إذ تدين له البشرية بكل الحِرف، وخصوصًا فن الكتابة، كما أنه كان مخترع اللغات السبعين جميعًا، وكانت هناك أيضًا مهمة أخرى أنجزها آدم من أجل ذريته فقد أراه الرب الأرض كلها، وحدد آدم عليها المناطق التي سيستوطنها البشر فيما بعد، وأيها سيظل مقفرًا.

سقوط الشيطان ورفض السجود

أثارت تلك المواهب التي اختص الله بها آدم غيرة الملائكة الذين حاولوا إهلاكه بالنار، وقد كاد يهلك لولا يد الله الحافظة التي ربتت عليه، وأقامت السلام بينه وبين الملأ السماوي، لكن الشيطان كان هو الأشد غيرة من آدم، وتجلى ذلك عندما دعا الرب جميع الملائكة للمجيء وتعظيم آدم وتكريمه وقد رفض الشيطان، وكان أعظم الملائكة في السماء، أن يذعن لأمر الرب[167]، وقال للرب: لقد خلقت الملائكة من بهاء السكينة، وها أنت الآن تأمرنا بأن نخر ساجدين لهذا المخلوق الذي صنعته من تراب الأرض.. وبعد

[166]من المعلوم أن التوراة لا تقول بنبوة آدم، لكننا نجد هنا في هذه القصص ما ينص على نبوته وهو ما يمكن معه عدُّه أساس ما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن نبوة آدم مثل هذا الحديث: "كان آدم نبيا مكلما وكان بينه وبين نوح عشرة قرون وكانت الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر"، السلسلة الصحيحة برقم 2668.

[167]من المعلوم أن التوراة لا تذكر شيئا عن دعوة الله للملأ الأعلى للسجود لآدم، وكذا ما قصه القرآن مرارًا إلى ما كان من طاعتهم لأمر الله وسجودهم لآدم سجود إجلال وتبجيل، وإباء الشيطان وتكبره على أن يسجد لآدم وطرد الله له على تلك المعصية، وإنما جاءت هذه القصة إلى القرآن من أمثال هذه القصص التي معنا.

اختبار لحكمة آدم طرد الرب الشيطان وأتباعه من السماء وأهبطهم إلى الأرض، ومن تلك اللحظة نشأت العداوة الأبدية بين الشيطان والإنسان(168).

(168)*فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾*(طه: 117).

خلق المرأة الأولى

كان آدم جميلا بديعًا حتى كاد من فرط جماله وجلاله يغري الملائكة والخلائق كلها بعبادته وتقديسه لولا أن الله غشاه بالنعاس، عندها علمت الملائكة أنه ليس إلا كائنًا بشريًّا، ولكن هذا النعاس كان له فائدة أخرى لآدم هذه المرة؛ إذ كان آدم يعاني الشعور بالعزلة والوحدة خاصة عندما رأى الحيوانات تأتيه أزواجًا ليسميها بأسمائها فخلق الله له في البداية (ليليث) لتكون زوجًا له وكانت قد خلقت مثله من تراب الأرض، لكن ليليث بقيت مع آدم لفترة قصيرة فقط؛ إذ إنها أصرت على المساواة الكاملة مع زوجها معتمدة على أن أصليهما متطابقان، فليس له إذن من مزية عليها لتخضع له، فهجرت آدم فأرسل الله وراءها ثلاثة من الملائكة ليمسكوا بها لكنها لم ترد العودة حتى بعد أن هددها الملائكة بأنها إن لم تفعل فستفقد مئة من أطفالها الشياطين يوميا عن طريق الموت، لكن ليليث فضلت هذه العقوبة على العيش مع آدم، وهي تنتقم لنفسها بإيذاء الرضع من الذكور في أول ليلة من حياتهم، فيما تظل الرضيعات الإناث عرضة لمخططاتها الشريرة حتى يبلغن عشرين يوما من حياتهن، والطريقة الوحيدة لتفادي شرها هو تعليق تعويذة تحتوي على أسماء الملائكة الثلاثة الذين أمسكوا بها[169].

الله يخلق حواء لآدم

بعد تلك التجربة المخفقة خلق الله لآدم الرفيقة الدائمة والمطيعة والخاضعة التي ستبقى معه ولكي لا ترى أنها له ندٌّ، خلقها الله هذه المرة من جسد آدم لتكون تابعة له[170]

(169)"أخبرني أبو يعلى، حدثنا جبارة بن المغلس، ثنا يحيى بن العلاء، عن مروان بن سالم، عن طلحة بن عبيد الله العقيلي، عن الحسين بن علي رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، لم يضره أم الصبيان"، انظر كتاب "عمل اليوم والليلة" لابن السني، حديث رقم 623، ص378، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت لبنان الطبعة الأولى 1998م. هذا الحديث وإن حكم عليه محقق كتاب ابن السني (بأن إسناده ضعيف جدا)، وأجهز عليه الشيخ الألباني في "السلسلة الضعيفة" (321) بأن قال إنه (حديث موضوع)، الحقيقة أنه لا يعنينا كثيرًا كونه حديثا صحيح النسبة إلى النبي أم لا، بل ما يعنينا هنا هي الإشارة إلى أنه لا يبعد أن تكون تلك الخرافة قد جاءت إلى العرب عن طريق اليهود؛ إذ لم نعثر فيما قرأناه من خرافات العرب في الجاهلية عن اعتقاد يشبه هذا الاعتقاد؛ أي من وجود شيطانة تتخصص في إيذاء صغار أطفال البشر، فإن صح هذا فهو يدل على عظيم حضور تلك القصص اليهودية وذيوعها في البيئة العربية قبيل الإسلام.

وأما عن أصل خرافة ليليث فهو يعود إلى عالم الأرواح الشريرة والجن والشياطين في التراث البابلي، عن ليليث وصورتها وسبب حضورها في النصوص اليهودية راجع: "المرأة بين اليهودية والإسلام" د. ليلى إبراهيم أبو المجد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2007م، الطبعة الأولى، ص 8. وكذلك كتاب "الإلهة ليليث ملكة الليل"، د. صلاح رشيد الصالحي، بيت الحكمة، بغداد، الطبعة الأولى، 2013م، ص 88-89.

(170)كانت النصوص الدينية هي التي أرست عبر التقعيد والتبرير مبدأ سيادة الرجل على المرأة، بدءًا من اليهودية التي نصت بوضوح على ضرورة خضوعها له كعقوبة إلهية أبدية أنزلها الله بالمرأة؛ إذ إنها هي التي ارتكبت المعصية

فألقى الله على آدم النعاس كما رأينا وأخذ من جانبه ضلعًا لتخلق منها حواء[171]، وتم الاحتفال بزواج أول زوجين في بهرجة لم تتكرر على مر التاريخ كله، فالرب بنفسه ألبس حواء وزينها كعروس قبل أن يقدمها إلى آدم.

آدم وحواء في الجنة

الأولي، وكانت هي من زين لآدم سبيل العصيان ومخالفة الأمر الإلهي: "وقال للمرأة تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادًا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك" (تك 3-6)، ومثله ما قررته المسيحية من وجوب خضوع المرأة للرجل: "أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ،لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أيضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ وَلكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنّ فِي كُلِّ شَيْءٍ" (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسوس - 5 -22-24) وأيضا: "أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ- أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا قُسَاةً عَلَيْهِن" (رسالة بولس الرسول إلى أهل كلوسي 3 - 18-19)، وكذا ما قرره الإسلام من قوامة الرجل على المرأة وتفضيله عليها: *الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم* (النساء 34)، ورغم أن هذه النصوص لم تكن في الحقيقة إلا ترجمة لأجواء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي سادت زمن كتابة تلك النصوص فإنها كانت ولسوء الحظ، ودون سواها من النصوص الدنيوية التي فعلت ذلك، تأبيدًا محزنًا لتلك العلاقة المختلة والظالمة التي سادت التاريخ البشري المدون كله وحتى منتصف القرن العشرين، وكانت تلك النصوص ولم تزل حجر عثرة في تقرير المساواة التامة بين الرجال والنساء في كثير من البلدان إلى يومنا هذا، خاصة في العالم الإسلامي، بل كان من خلف شيوع الاعتقاد الخاطئ بأن تلك النصوص الدينية تترجم (حرفيا) عن إرادة الله أن جعلت كثيرًا من النساء يرضين أن يخضعن طائعات للرجل الذي أراد له الله أن يسود عليهن!!

(171)*يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)* (النساء: 1).

تقول الرواية القرآنية عن خلق المرأة الأولى إن حواء خلقت من آدم كما تنص عليه الآية الأولى من سورة النساء، وإلى خلق حواء من ضلع آدم جاءت الاحاديث الصحيحة كما في هذا الحديث: "إن المرأة خلقت من ضلع ولن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها"، راجع صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني، برقم 1943.

لذا، فلا ضرورة لمن يقول من المفسرين بالخلق الخاص لكليهما؛ أولا: لأن هذا هو ظاهر الآية، فلا ضرورة لأن نعدوه إلى سواه دون برهان، والأهم من ذلك أنها تأتى من بين المتابعات النبوية للقصة اليهودية، توراتية كانت أو تلمودية، لذا فلا غرابة أن تشتمل الرواية القرآنية على هذه التفصيلة.

أما عن أصل تلك الأسطورة عن خلق المرأة من ضلع الرجل وليس من أي جزء آخر من جسده فهي ترجع إلى أساس سومري قديم كما يقترح عالم السومريات المرموق هذا: "ولكن لعل أهم نتيجة توصلنا إليها من تحليلنا المقارن ذلك التفسير الذى تقدمه لنا هذه القصيدة السومرية لتلك الفكرة التوراتية التي تعد من أشد الأمور المحيرة في قصة الفردوس الواردة في التوراة ونعنى بها العبارة المشهورة التي تصف خلق حواء أم جميع البشر من ضلع آدم، فلماذا خلقت من الضلع؟ وما الذى دفع القصاص العبراني أن يختار الضلع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتخلق منه المرأة التي يعنى اسمها (حواء) بحسب تفسير التوراة له (تلك التي تحيي أي تسبب الحياة)؟ إن سبب ذلك يكون واضحا إذا افترضنا أن أساسا أدبيا سومريا كالذي تقدمه لنا قصيدة دلمون هو الذى استندت إليه قصة الفردوس في التوراة، ففي هذه القصيدة السومرية كان أحد أعضاء الإله (انكى) الذى أصابه المرض هو الضلع، والكلمة السومرية للضلع هي (تي) ودعيت الإلهة التي خلقت من أجل أن تشفى ضلع انكى باسم (نن- تى)؛ أي سيدة الضلع، ولكن الكلمة السومرية (تي) تعنى أيضا أحيا أو جعله يحيا، وعلى هذا فيعنى اسم الإلهة (نن- تى) السيدة التي تحيي أو سيدة الضلع، وهكذا صارت سيدة الضلع في الأدب السومري تعنى أو تطابق بطريق التورية أو التلاعب في الألفاظ أيضًا السيدة التي تحيي، فكانت هذه التورية التي تعد أقدم تورية أدبية من نوعها قد نقلت وخلدت في قصة الفردوس التوراتية"،(من ألواح سومر، صمويل كريمر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجي بالقاهرة، ص 244.

"كانت جنة عدن هي مسكن الرجل الأول والمرأة الأولى، ويجب أن تمر عليها أرواح كل الناس بعد الموت[172] قبل أن تصل إلى غايتها النهائية؛ إذ إن أرواح الراحلين يجب أن تمر من خلال سبع بوابات قبل أن تصل إلى السماء المسماة عربوت؛ حيث تتحول أرواح المتقين إلى ملائكة، أو تبقى هناك إلى الأبد تحمد الرب وتمتع أبصارها ببهاء السكينة .

في الفردوس تقف شجرة الحياة[173] وشجرة المعرفة التي تكون سياجًا يحيط بشجرة الحياة، ولا يستطيع الاقتراب من شجرة الحياة إلا من شق لنفسه طريقًا إليها خلال شجرة المعرفة، وشجرة الحياة[174] ضخمة، لدرجة أن الإنسان يأخذ خمسمائة عام

---

[172]تابع النبي أيضًا هذه القصص في أن أرواح المتقين تصعد إلى الجنة بعد الموت وتكون هناك في استقبال من سيلحق بها ممن كانت تعرفه في الدنيا كما في هذا الحديث: "إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية. وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله عز و جل فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح! حتى يأتوا به أرواح الكفار"، (راجع السلسلة الصحيحة للألباني برقم 1309).

[173]لعل النبي كان يقصد شجرة الحياة على وصفها التلمودي الذى قرأناه وهو يحدث أصحابه عن تلك الشجرة العظيمة من أشجار الجنة: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها"، انظر السلسلة الصحيحة، رقم 3536، ومثله هذا الحديث: "إنّ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب"، (متفق عليه).

[174]رغم أن القرآن لا يذكر لنا سوى أن الله قد أباح لآدم جميع أشجار الجنة ولم يحرم عليه سوى شجرة واحدة بحيث بدا التحريم القرآني بسيطًا ساذجًا؛ أي أنه بدا كمجرد اختبار عام لإرادة آدم وزوجه، ومقياسًا لمدى انصياعهما لمشيئة الله وإطاعتهما لأمره ولا علاقة له بما تفوح به الرواية التوراتية عن تلك المخاوف الإلهية من تحول آدم إلى إله! لذلك فلم يذكر لنا القرآن بالطبع شيئا عن تلك الاحتياطات الإلهية الشديدة، من حراسة الجنة بالملائكة المسلحين خشية أن يغافل آدم الحراس ويصل إلى شجرة الحياة ويشارك الرب في خلوده! بل إننا لا نستشعر من قراءة قصة معصية آدم في القرآن مثل ذلك الغضب الإلهي العارم من مخالفة آدم النهى الإلهي كما نجده في التوراة، بل نجد هناك ما يشبه تفهما إلهيا متعاطفا لما كان يعلمه الله من ضعف هذا المخلوق البشرى، ووهن إرادته أمام الإغراءات التي لا قبل له بها، بسبب ما جبله عليه من الضعف؛ لذا فقد أهبطه الله إلى الأرض، كما قدر عليه في سابق علمه لبدء التجربة البشرية كما قدرها الله، على خلاف الرواية التوراتية التي يبدو فيها الرب متفاجئًا بما فعله آدم من الأكل من شجرة المعرفة، ومرتبكًا خائفًا مما يمكن أن يفعله آدم أيضًا إن تركه قريبًا من شجرة الحياة، كما يقول هذا النص الذى تشف من خلفه بعض ملامح قصص الخلق الوثنية من انزعاج إله ما من أن ينضم مخلوق بشرى فانٍ إلى مجمع الآلهة ويشاركهم في مزية الخلود، فمن المعروف أن آلهة العصورالقديمة كانت على هيئة الإنسان، وكانت تشبهه في عمله وفى أفكاره، ولم تكن تمتاز عن الإنسان إلا بشيئين اثنين هما قوتها الخارقة وقدرتها على فعل أشياء يعجزعن مثلها الإنسان، وأنها خالدة لا تموت: "وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخيروالشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" (تك 3-22-24)، لكن وعلى الرغم من أن القرآن لم يذكر لنا شيئا عن شجرة الحياة أو شجرة معرفة الخير والشر لكن من يقرأ ما جاء في القرآن عن مراودة الشيطان لآدم وزوجه فسوف يعلم أن تلك التفاصيل المسكوت عنها كانت حاضرة في العقل النبوي، فنجد هنا مثلا تصريحًا بحضور شجرة

لكي يعبر مسافة تعادل قطر جذعها، ومن تحت شجرة الحياة تنبع المياه التي تروي الأرض كلها وتتفرع إلى أربعة أنهر وهي: جيحون، والنيل، ودجلة، والفرات[175].

في هذه الجنة لم يكن آدم وزوجه يفعلان شيئًا، بل كانت الملائكة تأتيه باللحوم والخمر وتخدمه كأنهم خدمه.

الحية تغوي البشر

كانت الحية متميزة عن الحيوانات، وكانت تتشابه في بعض سماتها أيضًا مع الإنسان، وكانت تعادل الجمل في طول القامة، لكنها غارت من الإنسان وقد جعلتها تلك

الحياة التي من يذوقها فلا سبيل للموت إليه كما في هذه الآية من سورة طه: *فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120)*، بل إننا نجد مثلاً في قصة آدم في سورة الأعراف ما هو أهم من ذلك فلنقرأ أولا هذه الآية: *فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20)*۞ فلا يعرف القارئ، إن أخلى ذهنه لبرهة من قصة التوراة، لماذا يتوق آدم لكي يكون ملكًا من الملائكة، بعد ما رأيناه من تكريم الله له ومن سجود الملائكة أمامه، ومن منحه كل تلك المعرفة التي لم يهب الله مثلها للملائكة؟!! ولا يعرف قارئ تلك الآية، كذلك كيف يخشى آدم الموت رغم أن الله لم يشر إلى تقديره للموت عليه وعلى ذريته جميعًا إلا بعد أن أهبطهما إلى الأرض بعد المعصية، كما تنص هذه الآية التي جاءت في أعقابها! *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) * (سورة الأعراف)؛ لذا فمن الميسور على كل قارئ لقصة آدم في القرآن أن يخرج بأنّ كثيرًا من المعارف التلمودية أو التوراتية كانت خلف تلك الرواية القرآنية التي وإن تكررت كثيرًا عبر القرآن إلا أنها كانت تأتي دائمًا موجزة مختصرة؛ إذ لم يكن من قصد وراء إيرادها المتكرر سوى غرض واحد هو تقرير معصية آدم وتوبته، وتذكيرًا لا ينقطع عن عداوة الشيطان للإنسان وكيده له بإغرائه بالابتعاد عن طريق الله وجرفه إلى طريق الكفر والضلال، وعلى كل حال فمن يقرأ هذه القصة فلن يغيب عنه كيف يتبدى آدم وحواء في سفر التكوين كما لو كانا طفلين أبلهين حتى ليصعب علينا تصور أن كل تلك النتائج الهائلة ترجع إلى إدراك وسلوك هذين المخلوقين البائسين! بل لا نعرف مثلا كيف يتصور أن يطلب الله أي شيء من مخلوق لم يكن بعد يعرف الخير من الشر؟! وكيف يحاسب من هذه حاله؟! وكيف تتأسس تلك الدراما الإنسانية كلها على نقطة البدء المحزنة تلك؟!

(175)إذا كانت أسماء أنهار جنة آدم قد غابت عن القرآن، فلم تغب تلك الأسماء عن الأحاديث النبوية الصحيحة التي أتت على ذكرها ونصت كذلك على أسمائها كما في هذين الحديثين: "فجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل والسيحان وجيحان"، السلسلة الصحيحة، رقم 111. وأيضًا هذا الحديث: "رفعت لي سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت: يا جبريل! ما هذان؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات"، السلسلة الصحيحة، رقم 112.

أما كيف يفهم المسلم أمثال تلك الأحاديث؟ فلعل في إجابة هذا المحدث الشهير ما يعطينا فكرة عن هذا: ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض، فإن لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، والتسليم للمخبر عنها (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)، انظر "السلسلة الصحيحة" ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1995م، ج1، ص 229.

ولعل هذه الصيغة من المرويات التلمودية لأسماء الجنة هي الأقرب إلى أن تكون هي أساس تلك الأحاديث النبوية من رواية التوراة في وصف أنهار الجنة، فمن ينظر في أسماء الأنهار الأربعة التي أوردتها التوراة فسيراها تسميها: "فيشون وجيحون وحداقل والفرات"، انظر (تك 2-11-14).

الغيرة تفكر في إيذاء آدم بكل السبل، لكنها وجدت أن أفضل وسيلة لتحقيق غرضها هو أن تحاول مع حواء لأنها تعلم أن النساء يسهل خداعهن(176)، ثم أفلحت في إقناع حواء بالاقتراب أولا من الشجرة ولمسها ثم قالت لها: "أرأيتِ؟ ها أنتِ قد لمستِ الشجرة، ولم تؤدِ إلى موتِك، وكذلك لن تصابي بأذى لو أكلتِ من ثمار الشجرة وليس من سبب وراء هذا التحريم إلا سوء الطوية فما إن تأكلا منها حتى تصبحا مثل الرب"، ثم أكلت حواء من الشجرة وأغرت زوجها بالأكل منها كذلك مستخدمة في ذلك سلاحها القديم من ذرف الدموع والتوسل إليه(177)، وما إن أكل آدم وحواء حتى أصبحا عريانين، وكانا قبل ذلك

(176)يلاحظ أن القرآن قد أسند جميع الأفعال القبيحة إلى الشيطان مباشرة، وأولها قصة إغواء آدم في تجاهل تام لقصة الحية السخيفة تلك التي نصت عليها التوراة، وأفاضت فيها القصص الأجادية المتأخرة، ولا نعرف في الحقيقة لماذا تجاهلها النبي هل لاستسخافها، أم لأنه كان ينظر في قصص أجادية أخرى لم تصلنا، وكانت ترجع الأمر مباشرة إلى الشيطان؟ وهذا الأخير هو ما نرجحه؛ لأننا نجد مراوحة في، تلك القصص التي بين أيدينا، بين نسبة الإغواء إلى الحية مرة ونسبتها إلى الشيطان مباشرة، أما القصة التوراتية فليس من ذكر للشيطان فيها كما هو معلوم، بل كانت الحية الماكرة التى كانت تعقل وتتكلم مثل جميع الحيوانات في تلك الفترة هي التي أغوت حواء التى أغوت بدورها آدم؛ لذا فمن المعقول أن يستنتج القارئ بأن مفهوم الشيطان لم يكن له من وجود في تلك الفترة إنما اقتبسه العبرانيون من جيرانهم كما سنرى.

(177)قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر" متفق عليه.

رغم أن القرآن يراوح بين نسبة المعصية لآدم وحده تارة، وبين أن يشرك زوجه في تلك المخالفة تارة أخرى، ورغم أن القرآن كذلك لا يذكر لنا شيئا صريحا قط عما أوردته التوراة من أن حواء هي من أغرت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة فإننا نجد فى هذا الحديث الأخير ما يشير إلى موافقة النبي على وجود نصيبٍ ما لحواء في معصية آدم كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث السابق؛ "لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلى مَا وَقَعَ مِنْ حَوَّاءَ فِي تَزْيِينِهَا لِآدم الْأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ حَتَّى وَقَعَ فِي ذَلِكَ فَمَعْنَى خِيَانَتِهَا أَنَّهَا قَبِلَتْ مَا زَيَّنَ لَهَا إِبْلِيسُ حَتَّى زَيَّنَتْهُ لِآدم وَلَمَّا كَانَتْ هِيَ أُمَّ بَنَات آدم أَشْبَهَهَا بِالْوِلَادَةِ وَنَزَعَ الْعِرْقَ فَلَا تَكَادُ امْرَأَةٌ تَسْلَمُ مِنْ خِيَانَةِ زَوْجِهَا بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْقَوْلِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْخِيَانَةِ هُنَا ارْتِكَابَ الْفَوَاحِشِ حَاشَا وَكَلَّا، وَلَكِنْ لَمَّا مَالَتْ إِلى شَهْوَةِ النَّفْسِ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ وَحَسَّنَتْ ذَلِكَ لِآدم عُدَّ ذَلِكَ خِيَانَةً لَهُ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَ بَعْدَهَا مِنَ النِّسَاءِ فَخِيَانَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِحَسَبِهَا"، انظر "فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجرالعسقلاني، ج6، ص 368، دارالمعرفة بيروت، 1379.

أما نفي هذا الشارح الجليل لأن تكون خيانة حواء لآدم بمعنى ارتكاب الفاحشة ومقارفة الزنا، فالحقيقة، إنه تقرير غير مفهوم ولا معقول! لأننا إذا كنا نتفهم أن ينفي المفسرون الخيانة الجسدية عن امرأة نوح وامرأة لوط لإمكان وقوع ذلك منهما عقلا وطبعا، وذلك تنزيها منهم لأقدار الأنبياء وتعظيما لحرمة أعراضهم فإننا لا نعلم كيف ستخون حواء زوجها أصلا مع عدم وجود رجل سواه على سطح الأرض؟! إلا لو كان المقصود هو أن تخونه مع أحد الملائكة!! وهو أمر غير متصور بطبيعة الحال في العقيدة الإسلامية؛ لأنها قررت بشكل ناصع أن الملائكة كائنات نورانية تتنزه عن الشهوات! أما عن نفي أغلب المفسرين إمكان وقوع غليظ الفواحش من نساء الأنبياء وتقريرهم القاطع على استحالة وقوع ذلك منهن، فهو تزيد وتكلف في تنزيه الأنبياء، ولا برهان لهم عليه من نصوص القرآن أو من نصوص السنة الصحيحة، بل إننا نجد أن القرآن يقول على نحو صريح بإمكان وقوع الفاحشة العظمى من نساء النبي، مثل ما نصت على ذلك هذه الآية الجلية من سورة الأحزاب: "يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30).

وفى تفسير هذه الآية يقول الطبري: "يقول تعالى ذكره لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم: (يَانِساءَالنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) يقول: من يزن منكنّ الزنا المعروف الذي أوجب الله عليه الحدّ، (يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ) على فجورها في الآخرة (ضِعْفَيْنِ) على فجور أزواج الناس غيرهم" (تفسيرالطبري، ج2، ص 255)، بل إننا نجد أن النبي عليه السلام

يغطى جسديهما بالجلد، وحاول آدم أن يجمع أوراق الأشجار ليغطي بها أجزاء من جسديهما[178]، لكن الأشجار جميعًا أبينَ أن يدعنه يأخذ من أوراقهن إلا شجرة التين[179]، وذلك لأن التين كانت هي الشجرة المحرمة ثمرتها.

"وعندما سمع آدم وحواء الرب يقترب اخْتَبَآ بين الأشجار، وهو ما لم يكن ممكنًا قبل السقوط؛ فقبل أن يرتكب جريمته كان ارتفاع آدم من السموات إلى الأرض، لكنه قال فيما بعد إلى مئة ذراع".

آدم وحواء يطردان من الجنة

عاقب الله الأفعى عقابًا أليمًا فخاطبها قائلاً: "لقد خلقتك لتكوني ملكة على جميع الحيوانات السائبة وبهائم الحقل على حد سواء لكنك لم ترضي ولهذا ستلعنك جميع الحيوانات، ولقد خلقتك بقائمة منتصبة ولكنك لم ترضي ولهذا فسوف تمشين على بطنك، ولقد خلقتك لتأكلي من نفس الطعام الذي يأكله الإنسان ولكنك لم ترضي ولهذا فسوف تأكلين التراب طوال أيام حياتك".

هذا عن عقوبة الحية، أما عن آدم فقد عاقبه الله بعشر عقوبات كان من بينها: أن يفقد جسمه ملابسه السماوية، ومنها أن يخرج جسمه العرق[180] وأن تكون أيامه قليلة وملآى بالآلام.

لم ينزه نفسه من أن يقع له شيء من كذلك، كما جاء في واقعة الإفك؛ حيث نراه يخاطب السيدة عائشة بقوله: (أَمَّا بَعْدُ يَاعَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إذا اعْتَرَفَ ثُمّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ"، صحيح البخاري برقم 4141.

[178]خلت رواية التوراة عن قصة آدم وحواء من هذه التفصيلة التي أوردتها القصص التلمودية، وكما هو واضح فقد تابع القرآن تلك القصص فى تصويره محاولة آدم وامرأته أن يسترا عريهما بتغطيتها بورق الجنة كما في هذه الآية: *فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدم رَبَّهُ فَغَوَى* (سورة طه:121)، (وكذا الآية 22 من سورة الأعراف).

[179]ولم تغب شجرة التين عن كتب التفاسير؛ إذ من بين الأشجار جميعًا حضرت شجرة التين أكثر من سواها بوصفها الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عن الأكل منها، رغم أن القرآن لم يشر من قريب أو من بعيد إلى نوع تلك الشجرة ما يوحى بحضور تفصيلات هذه المرويات اليهودية في ثقافة المفسرين انظر (تفسير ابن كثير، ج5، ص 282: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت الطبعة الأولى - 1419 هـ).

[180]ما يدل على وجود معرفة النبي بمثل ما جاءت به هذه القصة من أن آدم لم يكن يتعرق قبل معصيته، وقل مثل ذلك عن جميع ضرورات الحالة البشرية ما جاءنا من أحاديث النبي التي تصف لنا حال أهل الجنة فى الآخرة وكيف أنهم سيستعيدون ما كان عليه أبوهم آدم قبل عصيانه ومنها هذا الحديث: وَعَن أبي هُرَيْرَة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا لَا يَسْقَمُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ

بعد ذلك طرد الله آدم وحواء من الجنة؛ إذ "كان عليهما أن يرحلا خشية أن يدفعهما فهمهما شبه الرباني إلى تدمير شجرة الحياة، ومعرفة كيف يعيشان للأبد، وعندما طردهما الرب من الجنة لم يسمح لصفة العدل الإلهي بأن تسود بشكل كامل؛ إذ قد ربطها بالرحمة وقال لهما عند مغادرتهما الجنة: خسارة أن آدم لم يستطع اتباع الأمر الذي فرض عليه لوقت قصير".

آدم يهبط إلى الأرض

حاول آدم باكيًا أن يستعطف الرب، ويثنيه عن قراره بطرده من الجنة لكن الرب أصر على تنفيذ قراره، فناشد آدم الملائكة لكي يتوسطوا له عند الله، وأن يأذن له على الأقل بأخذ التوابل زكية الرائحة من الجنة لكي يستطيع تقديم القرابين للرب عندما يصبح في الخارج. فسمع الله لهم "وهكذا جمع آدم الزعفران والناردين والأقورون والقرفة وكل أنواع البذور كذلك من أجل قوته"[181].

مدة آدم في الجنة

"وغادر آدم وحواء الجنة[182] محملَين بهذه التوابل، وهبطا إلى الأرض، وكانا قد استمتعا بنعيم الجنة لكن لوقت قصير هو عدة ساعات قليلة، وكان الرب قد طرأت له

آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدم ستونَ ذِرَاعا فِي السَّمَاء" رَوَاهُ مُسلم، انظر الحديث في "مشكاة المصابيح" للألباني برقم 5619، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1985م.

(181)لعل هذه التفصيلة التلمودية هي أساس اعتقاد النبي من وجود بعض الأحجار وبعض الفاكهة التي تخلفت للناس من تلك الجنة الأولى كما في هذه الأمثلة: فنجد أولا أن الحجر الأسود وحده من الجنة كما في هذا الحديث: "لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفي وما على الأرض شيء من الجنة غيره" 2619 - (الصحيحة)، ونجد في هذا الحديث إلى جانب الحجر الأسود هذين الشيئين: "ليس في الأرض من الجنة إلا ثلاثة أشياء: غرس العجوة وأوراق تنزل في الفرات كل يوم من بركة الجنة والحجر" (3111) (الصحيحة)، وهنا نجد حديثًا ثالثًا يضيف الكمأة إلى المن، والمن كما هو معروف مما أنزله الله من السماء على بنى إسرائيل: "الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين"، انظر "صحيح الجامع الصغير وزياداته" الألباني، برقم (4613)، بل إننا نجد النبي يؤتى في آخر أيامه بطعام من السماء في إناء يسخن فيه الطعام كما في هذا الحديث العجيب: "بينما نحن جلوس عند نبي الله، صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل من الناس فقال: يا نبي الله! هل أتيت بطعام من السماء؟ قال: أتيت بطعام بمسخنة قال: فهل كان فيها فضل عنك؟ قال: نعم قال: فما فعل به؟ قال: رفع إلى السماء وهو يوحي إلي أني غير لابث فيكم إلا قليلاً، ولستم لابثين بعدي إلا قليلاً ثم تأتون أفنادًا ويفني بعضكم بعضًا وبين يدي الساعة موتان شديد وبعده سنوات الزلازل"، انظر "المستدرك على الصحيحين" للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1990، ج4، ص494. وقال الذهبي "الخبر من غرائب الصحاح".

(182)يمكننا أن نستنتج من هذا أن القرآن كان يقول أيضًا بما قالت به التوراة من أن الجنة كانت هنا على هذه الأرض وليست جنة السماء كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وسنرى في القصة الحديثية الصحيحة عن موت آدم كيف أن

فكرة خلق الإنسان في أول ساعة من اليوم السادس، وفي الساعة الثانية استشار الملائكة، وفي الثالثة جمع التراب الذي سيخلق منه الإنسان، وفي الرابعة صنع آدم، وفي الخامسة ألبسه الجلد، وفي السادسة اكتمل الشكل الخالي من الروح بحيث أمكن أن يقف منتصبًا، وفي السابعة نفخت فيه الروح، وفي الثامنة سيق الإنسان إلى الجنة، وفي التاسعة صدر الأمر الإلهي بتحريم الأكل من ثمار الشجرة التي في وسط الجنة، وفي العاشرة عصى الأمر، وفي الحادية عشرة حكم عليه، وفي الثانية عشرة من النهار طرد من الجنة تكفيرًا عن خطيئته(183)، وكان هذا اليوم الحافل هو أول أيام شهر تشرى؛ ولهذا تكلم الرب قائلاً لآدم: ستكون قدوة لبنيك فكما حكمت عليك في هذا اليوم وعفوت عنك، فكذلك سأحكم على بنيك شعب بني إسرائيل في يوم رأس السنة هذا، وسأعفو عنهم(184)".

آدم وهو على فراش موته قد أرسل بنيه ليأتوا له ببعض ثمار الجنة، وهو مطلب ما كان ليتصور حدوثه عقلا إلا مع الاعتقاد النبوي في أنها كانت جنة أرضية تقع على ربوة عالية وقد أهبط الله منها آدم وزوجه بعد عصيانهما لأمر الله، ولم تكن تلك الجنة في السماء كما ذهب عموم المفسرين وشراح الأحاديث!

(183)"قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما سكن آدم في الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس"، رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(184)كما نعلم فقد أسلم النبي (يوم السبت) وأعطى جميع ما سمعه من اليهود عن فضائل السبت إلى (يوم الجمعة)، وكذلك فعل في ما جاءت به القصص التلمودية من فضائل خرافية لرأس السنة العبرية فنقلها النبي كذلك إلى ليلة القدر، وجعله من فضائلها، ونقل كذلك جميع اعتقادات اليهود عن أورشليم السماوية، وجعلها للبيت المعمور والذى هو الكعبة السماوية كما يظهر من هذا الحديث:

"عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"، (قال قتادة: ذُكِر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة، لو خَرَّ لَخَرَّ عليها. (وإسناده مرسل صحيح) انظر الحديث السلسلة الصَّحِيحَة رقم 477.

لكن هذا الحديث القادم - ربما - يشهدنا بابًا واسعًا من أبواب تلك المعرفة المحمدية الشاسعة بالقصص التلمودي، ففيه سنجد رجلاً يهوديًّا يسلم بعد هجرة النبي إلى المدينة بمدة يسيرة، وقد فرح النبي بإسلام ابن سلام عظيم الفرح؛ إذ كان يرجو في تلك الفترة الباكرة من قدومه إلى المدينة أن يتبعه عامة اليهود ويقرون بنبوته إذا تبعه عشرة من أحبارهم وأهل المكانة فيهم كما ينص هذا الحديث: "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود"، صحيح البخاري برقم (3941) وصحيح مسلم برقم (2793).

وسنرى أيضًا هذا الحبر اليهودي يتحدث في مجلس النبي بعد إسلامه بتلك القصص التلمودية، لكنه يتودد إلى النبي بأن ينسب بعض ما عرفه من فضائل هذا اليوم (والمقصود به في تلك القصص أول شهور السنة العبرية) إلى يوم الجمعة، وسنجد النبي يوافقه على هذا وإن قلل الساعة إلى بعض منها، وهذا ما لم يعترض عليه ابن سلام، ثم نرى ابن سلام يتحول بعدها إلى سائل، ويسأل النبي عن وقتها الدقيق! فيجيبه النبي بأنها تقع في آخر النهار، ولما كانت تلك الساعة ليست ساعة صلاة عند اليهود، فنرى ابن سلام يحتج متسائلاً، لكن النبي يفهمه أنه يعني بالصلاة معناها الواسع أي جميع الحالات التي يجتمع فيها الإنسان بربه، ويقبل عليه بقلبه مثل حالته في بقائه جالسًا للذكر بعد الفراغ من صلاته المكتوبة، ومن هذا ندرك أن النبي كان على علم بمثل هذه القصة التي معنا وأشباهها؛ لأن كل هذه الوقائع قد حدثت حقا في اليوم السادس وهو يوم الجمعة، وأن المقصود بتلك السويعة من يوم الجمعة من كل أسبوع هو ما كان يقابلها من تلك المدة التي غفر الله فيها لآدم وزوجه، ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نلحظ أن ابن سلام يسمي مصادره في تلك التفصيلة التي لا وجود لها في التوراة (كتاب الله تعالى) ما يدل على أن يهود العرب كانوا يقدسون التلمود، وما جاء على جانبيه من

توبة آدم

قضى آدم وزوجه بعد خروجهما من الجنة سبعة أيام في كرب عظيم؛ إذ أخذا ينوحان ويبكيان ثم بعد أن عضهما الجوع بنابه أخذا يبحثان عن الطعام، وبعد أن يئسا من أن يجدا في الأرض شيئًا يشبه ما كانا يأكلانه في الجنة "اقترح آدم على امرأته قائلا: لنتب عن ذنبنا، فلعل الرب إلهنا يصفح عنا ويرحمنا، ويعطينا ما نقيم به أودنا، ولعلمه أن حواء لم تكن قادرة بما يكفي لتحمل العذاب الجسدي الذي كان ينوي أن يوقعه بجسده؛ فقد وصف لحواء توبة تختلف عن توبته[185]"، وكانت هذه الوصفة أن تذهب حواء إلى نهر دجلة، وتغمس نفسها في النهر حتى يصل الماء إلى عنقها، وتظل صامتة لمدة سبعة وثلاثين يومًا، وأما آدم فقد اختار لنفسه أن يصوم أربعين يومًا وهو واقف في نهر الأردن بالطريقة نفسها التي ستقف بها حواء في نهر دجلة، وأثارت توبة آدم مخاوف الشيطان الذي خشي أن يغفر لهما الرب خطيئتهما، فحاول أن يعوقهما عن توبتهما، ونجح في إخراج حواء عن صمتها بحيلة ماكرة بعد أن تجسد لها في صورة ملك من الملائكة، وهذا ما أغضب آدم الذي لم يجد مفرًّا من اللجوء إلى الله طالبًا العون منه على هذا الشرير، وهنا ألهمه الله دعاءً جميلا طويلا، إليك منه [186]"يا رب، يا إله العالم، لقد خلقت العالم كله لمجدك وجلالك الجبار، وفعلت ما شئت. ملكوتك إلى أبد الآبدين، وسلطانك على كل الأجيال لا شيء يخفى عليك، ولا تغيب عن عينيك غائبة، وخلقتني بيدك وجعلتني حاكمًا على مخلوقاتك، لكن الأفعى الملعونة أغرتني بشجرة الرغبة والشهوات"، وهنا رق الله لآدم، وأرسل الله إلى آدم كتابًا مليئًا بالحكمة منه سيستقي

قصص شارحة وكانوا يعدونها وحيا إلهيا أوحاه الله إلى موسى شفاهة، وإليك الحديث: "وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال قلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس: إنا لنجد في كتاب الله تعالى في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله بها شيئًا إلا قضى الله له حاجته، قال عبد الله فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعض ساعة فقلت صدقت أو بعض ساعة قلت أي ساعة هي؟ قال آخر ساعات النهار، قلت إنها ليست ساعة صلاة؟ قال بلى إن العبد إذا صلى ثم جلس لم يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة"، انظر "صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب" الألباني برقم 702، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2000 م.

(185) من المعلوم أن التوراة لا ذكر فيها لتوبة آدم وحواء.

(186) أورد القرآن أن الله ألهم آدم وزوجه، بعد أن أهبطهما إلى الأرض، كلمات يستغفرانه بها ثم غفر لهما، مثلما جاء في قصة آدم في سورة البقرة: *فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)* البقرة، لكننا نجد تفصيل تلك الكلمات، الدعاء، في سياق قصة آدم كما جاءت في سورة الأعراف: *قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ (24)* لكنها تأتي أسبق زمنيًّا من قصة آدم في البقرة فهي تحكى عن استغفارهما لله قبل النزول إلى الأرض.

المعرفة بنفسه ويصير حكيمًا وبه سيعتصم من الشياطين وشرورها، وكان هذا الكتاب إشارة إلى قبول الله توبته.

مرض آدم

قدر الله لآدم أن يعيش على الأرض مقدار يوم إلهي وهو ألف سنة كاملة[187]، لكن آدم لم يعش على هذه الأرض سوى تسعمائة وثلاثين سنة فقط؛ لأنه كان قد تنازل لأحد أبنائه وهو داود عن سبعين سنة منها[188]، وبعدما استوفى أيامه على الأرض سقط مريضًا، وحانت نهايته "فاستدعى كل ذريته لكى يمنحهم بركته الأخيرة، ولكي يتخفف آدم من آلام مرض موته طلب من ابنه شيث وحواء أن يذهبا إلى أبواب الجنة، ومناشدة الرب ليرحمه ويرسل ملكه ليحضر بعضًا من زيت الحياة الذي يتدفق من شجرة رحمته ليريحه هذا الدهان، ويقضي على الألم الذي يفترسه ---- وبعد أن تركهما الرب يقفان لساعات طويلة أمام بوابة الجنة ظهر أمامهما أخيرًا الملك الكبير ميكائيل، وأخبرهما أنه جاء رسولا إليهما من عند الرب ليخبرهما أن طلبهما لا يمكن أن يلبي لأن آدم سيموت بعد أيام قليلة، وكما أنه معرض للموت فكذلك ستكون ذريته، وفي زمن البعث فلن يوزع زيت الحياة إلا على المتقين ومعه كل نعيم ومسرات الجنة".

آدم يموت ويصعد إلى السماء

أطلع آدم زوجه بأنها لن تتأخر بعده كثيرًا على هذه الأرض، وأنها ستلحق به قريبًا ثم "أمرها ألا تلمس جثته قبل أن يأتي ملك من الرب، ويتخذ احتياطاته بشأنها" وبعد أن مات آدم جاءت عربة من النور تجرها أربعة نسور لامعة، وتتقدمها الملائكة ثم صعدوا بروح آدم إلى السماء، ثم أمسك أحد الملائكة بآدم وحمله إلى نهر (آشرون)

(187)تابع النبي المرويات التلمودية التي جعلت مقدار يوم الرب يعادل ألف سنة من سنوات أهل الدنيا وهو ما نص عليه القرآن مرارًا كما في هاتين الآيتين: *وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)* الحج، *يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إلى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)* سورة السجدة، وكذا ما جاءت به كثير من الأحاديث الصحيحة مثل هذا الحديث على سبيل المثال: "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام" السلسلة الصحيحة (3189).

(188)سنتوقف عند هذا الحديث عن تنازل آدم لداود عن سبعين سنة من عمره في فصل القصص في الحديث النبوي.

وغسله ثلاث مرات[189]، ثم ذهب به إلى حضرة الرب الذي جلس على عرشه، ومد يده ورفع آدم وناوله للملك الكبير ميكائيل قائلا: ارفعه إلى جنة السماء الثالثة، واتركه هناك إلى اليوم المشهود المخيف[190] الذي قدرته، ونفذ ميكائيل الأمر الإلهي، وغنت كل الملائكة أغنية حمد مثنين على الرب للعفو الذي أسبغه على آدم".

(189)لا يبعد أن تكون تلك التفصيلة أو أمثالها أساس ما سيصوره النبي من غمس آخر جماعة من البشر تدركهم رحمة الله في الآخرة؛ إذ نراهم يطهرون مما نال أجسادهم من النار بأن يلقوا في (نهر الحياة) لكى تتبدل هيئاتهم ويصلحوا بعدها لدخول الجنة كما في هذا الشطر من هذا الحديث الطويل الجميل: "فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا، فيقول الله شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل ولا خير قدموه، فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه" متفق عليه.

ومثله: "إذا دخل أهل الجنة، الجنة وأهل النار، النار يقول الله تعالى: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حممًا فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية" متفق عليه.

(190)لعل هذا هو أساس اعتقاد النبي في بقاء الأنبياء أحياء إلى يوم البعث في جنات السماء السبع المتراكبة، وإن وجدنا النبي يلقى آدم في رحلة معراجه في السماء الأولى على خلاف ما معنا من إسكان الله لآدم فى جنة السماء الثالثة، ولا ندرى فى الحقيقة سببًا لهذا التخفيض من طبقة جنة آدم! والأهم من ذلك أننا لا ندري هل المقصود أن الأنبياء يعيشون في تلك السموات حتى انتهاء الدنيا أم أن أرواحهم قد صعدت هناك فقط لاستقبال النبي في زيارته إلى السماء والترحيب به؛ لأننا نجد أحاديث أخرى تقرر بوضوح أن الأنبياء يحيون في قبورهم الأرضية ويقضون أوقاتهم في الصلاة كما في هذه الأحاديث: "الأنبياء، صلوات الله عليهم، أحياء في قبورهم يصلون"، السلسلة الصحيحة برقم (621). وهنا كما جاء في صحيح مسلم:"مررت ليلة أسري بي بموسى قائمًا يصلي في قبره"، صحيح مسلم - رقم 6306) !

تركة آدم

(ورغم أن الموت حل على العالم من خلال آدم فلا يمكن أن نعده مسئولا عن موت البشر، فذات يوم قال آدم للرب "لست مهمومًا بموت الأشقياء لكنني لا أحب أن يوبخني المتقون، ويلقوا باللوم عليَّ لموتهم، أرجوك لا تذكر ذنبي"، ووعده الرب بأن يلبي رغبته، ولهذا عندما يوشك أي إنسان على الموت يظهر له الرب ويأمره بكتابة كل ما فعله في حياته إذ كما يخبره الرب "فإنك تموت بسبب سيئاتك"، وعندما ينتهي من كتابة السجل يأمره الرب بأن يختمه بخاتمه، وهذا هو الكتاب الذي سيحضره الرب يوم القيامة، وسيخبر كلا بأعماله[191]، وما إن تخبو نار الحياة في أي إنسان إلا يعرض على آدم الذي يتهمه الإنسان بالتسبب في موته، لكن آدم يفند التهمة قائلا: ما ارتكبت إلا ذنبًا واحدًا، أهناك من بينكم من لم يرتكب أكثر من ذلك وإن كان أتقى الأتقياء[192]؟).

ثالثا: بين آدم ونوح.

حواء تلد قايين وهابيل

كانت هناك عشرة أجيال بين آدم ونوح، وقد قدم الشر إلى العالم مع أول مولود للمرأة وهو قينان أكبر أبناء آدم، وعندما أنعم الرب بالجنة على أول زوجين في البشرية حذرهما الله بشكل مخصوص من اللقاءات الجنسية بينهما، لكن بعد سقوط حواء اقترب منها الشيطان متنكرًا في هيئة الأفعى، وكان ثمرة اتحادهما هو قينان جد كل الأجيال الكافرة التي تمردت على الرب وانتفضت عليه[193]، واتضح انحدار قينان من الشيطان الذي كان هو الملك سَماعيل في مظهره الملائكي، وعند مولده صاحت حواء من وسط آلام الولادة "لقد أنجبت إنسانا من ملك الرب"، وبعد مدة حملت حواء ابنها الثاني الذي أسمته هابيل؛ لأنه كما قالت: ما ولد إلا ليموت.

---

(191)لعل من أمثال تلك القصة جاء أساس ما أورده القرآن عن تسجيل الملائكة لأعمال كل إنسان فى كتاب يحاسب العبد عما جاء فيه يوم القيامة، والنصوص الواردة في هذا لا تكاد تحصى فمن ذلك: *وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)* سورة الإسراء.

(192) يبدو أن أمنية آدم لم تتحقق على نحو كامل؛ حيث سنرى كيف سيعاتب موسى آدم، ويوبخ أبا البشر على معصيته الأولى التى بسببها عانى البشر مكابدات الحياة الأرضية ومصاعبها كما سياتي في حديث نبوي صحيح ما نراه إلا أثرًا من آثار قصة تلمودية لم تصلنا!

(193)كما ترى، فلم تكتف القصص الأجادية بما فعله كاتب التوراة من شيطنة نسل قايين ونسبتهم إلى كل الشرور والموبقات، بل جعلهم من نسل الشيطان فعليًّا والقول بأن حواء قد حملت بقينان سفاحًا من أحد الملائكة المارقين!

قايين يقتل أخاه

كانت النذر كافة تشير إلى أن قايين سوف يقتل أخاه؛ فقد رأت حواء في منامها أن دم هابيل يتدفق إلى فم قينان الذي كان يشربه في نهم رغم أن أخاه كان يناشده ألا يأخذه كله، وعندما حكت حواء حلمها لآدم، قال لها نائحًا: يا ويحي، أرجو ألا يكون هذا نذير شؤم بموت هابيل على يد قينان. وفصل آدم الغلامين وخصص لكل واحد منهما مسكنًا، وعلم كل واحد منهما حرفة مختلفة؛ فأصبح قينان فلاحًا فيما أصبح هابيل راعي غنم.

أما عن سبب تلك العداوة، فترجع إلى سببين، أولهما: تقبل الله لقربان هابيل ورفض تقبل قربان قينان، وعندما حدث ذلك أحس قينان بأنه قد أهين، فلذلك حدث شجار بينه وبين هابيل. وقال له قينان: كنت أظن أن العالم خلق من خلال الخير لكني أرى الآن أن الأعمال الصالحة لا جدوى منها، وأن الرب يحكم العالم بالتسلط والاستبداد وإلا فلماذا تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني؟! وعارضه هابيل قائلا: إن الرب يثيب على الأعمال الصالحة دون أن ينظر إلى الأشخاص، ولئن كان قرباني قد تقبله الرب بكرم، ولم يتقبل قربانك فإنما كان ذلك لأن أعمالي كانت صالحة، أما أعمالك فكانت سيئة، وفي مشاجرة أخرى "قال له قينان: وإذا قتلتك فمن ذا الذي سيطالبني بدمك؟ رد هابيل سينتقم لي الرب الذي أوجدنا في هذا العالم، وسيطلب دمى من يدك".

"ولم يكن هذا هو السبب الوحيد وراء كراهية قينان لهابيل، فإلى حد ما كان حبه لامرأة معينة هو الذي أدى إلى هذه الجريمة؛ فلضمان بقاء النوع البشري كان يولد مع كل ولد من أولاد آدم أنثى لتكون زوجة له، وكانت أخت هابيل التوأم غاية في الجمال، وكان قينان يرغب فيها، ولذا فقد كان دائمًا يفكر في وسيلة يتخلص فيها من أخيه".

ثم جاءت الفرصة لقينان قبل أن يمر وقت طويل فقد حدثت بينهما مشاجرة في الحقل أغضبت قينان من أخيه "وقال له: وإذا قتلتك، فمن ذا الذي سيطالبني بدمك؟ فرد هابيل سينتقم لي الرب الذي أوجدنا في هذا العالم، وسيطلب دمى من يدك لو أنت

ذبحتني، الرب هو الحكم الذي سيجازى المسيئين بسيئاتهم والأشرار بشرهم، وإذا قتلتني فسيعلم الرب سرك وسوف يقتص منك"، لكن قينان ازداد غضبًا وقتل أخاه[194].

الله يعاقب <u>قينان</u>

"وبعد ارتكاب الجريمة قرر قينان أن يفر بجلده قائلا: سيسألني أبواي عن هابيل إذ لا يوجد إنسان غيري على الأرض، وما كاد هذا الخاطر يمر في ذهنه حتى ظهر الرب أمامه وخاطبه بهذه الكلمات: قد تستطيع الهروب من أبويك، لكن أيمكنك الهروب مني أنا أيضًا؟ أيقدر أحد أن يختبئ في مكان، ولا أستطيع أن أراه فيه؟ خسارة أن هابيل أظهر عطفه عليك وأحجم عن قتلك عندما كنت تحت قبضته، خسارة أنه منحك الفرصة لتذبحه".

حاول قينان أن يسترضي الرب بل يتهدده على نحو ما؛ إذ قال للرب: "أتحمل العالم كله ولا تستطيع حمل خطيئتي؟ لا شك أن جرمي عظيم لدرجة لا يمكن أن يحتمل معه أي شيء، ومع ذلك فبالأمس طردت أمي من حضرتك، وها أنت اليوم تطردني أنا أيضًا، حقا سيقال إنك لا تجيد سوى العقاب".

على الرغم من أن ذلك كان نفاقًا، ولم يكن توبة حقيقية فإن الرب قد غفر لقينان ورفع عنه نصف العقوبة؛ فبدلا من أن يحكم عليه بأن يكون هائمًا على وجهه في الأرض إلى الأبد، فقد اكتفى الله بأن يجعله يهرب، ويعاني الكثير من الآلام لأمد محدود[195].

حاولت الحيوانات جميعا أن يؤذوا قايين ويلتهموه، لكن الله تدخل لحمايته منها، وخاطب الله الحيوانات قائلا: عقوبة قينان لن تكون كعقوبة من يخلفه من القتلة، صحيح

---

(194)*وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدم بِالْحَقِّ إذ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29)" سورة المائدة .

من الواضح أن أساس تلك المحاورة القرآنية بين ابنى آدم، التى خلت منها التوراة، يتأسس على هذه القصة الأجادية، ويلحظ أيضًا دمج القرآن هنا لأكثر من قصة في سياق قصة واحدة، وهو ملمح سيتكرر معنا كثيرًا في المرويات القرآنية؛ إذ تجعل الرواية القرآنية من قصتي ابنى آدم قصة واحدة، ويلاحظ أيضًا أن سبب تلك الجريمة في القصتين هو ما كان من تقبل الله لقربان المقتول ورفضه لقربان القاتل دون أن تقدم الرواية القرآنية سببًا واضحا كما فعلت القصص الأجادية، بل اكتفت فيما يبدو بما يظهر من خلال المحاورة من حسد القاتل لأخيه وضعف إيمانه وإن امتلأت التفاسير بذكر السبب الثاني؛ أي رغبة القاتل في الاستحواذ على أخت المقتول.

(195) ربما كان المقصود بالأمد المحدود هنا طيلة حياته على الأرض، وليس إلى نهاية الدنيا وعودة المسيح كما جاء في أسطورة اليهودي التائه، ولربما كانت هذه العقوبة العجيبة هي أساس قصة قرآنية غامضة فلنتوقف عندها قليلا وهي قصة السامري في القرآن، انظرها في الملاحق.

أنه أراق الدم الزكي، لكن لم يكن هناك من ينصحه، ومع ذلك فمن الآن وصاعدًا أن كل من يقتل شخصًا آخر سيقتل هو نفسه، ثم أعطاه الرب الكلبَ كحماية له من الوحوش المفترسة[196] ولكي يسمه بالخطيئة أصابه بمرض البرص.

آدم وحواء يدفنان هابيل

لم يمض موت هابيل دون أن يترك وراءه أثرًا في الطبيعة كلها، فقد تغير مذاق ما تخرجه الأرض من نبات ومن فاكهة، ورفضت النباتات في البقعة التي سفك فيها دم القتيل أن تؤتي ثمارها بسبب حزنها عليه، ورغم أن الأمور قد تحسنت إلى قدر ما بمولد شيث فإنها لم تستعد قط قواها السابقة.

"كذلك تغيرت الطبيعة بدفن جثة هابيل؛ فلمدة طويلة ظلت مكشوفة فوق الأرض؛ لأن آدم وحواء لم يعرفا ماذا يفعلان بها، وجلسا بجوارها وبكيا بينما ظل كلب هابيل الوفي يحرسها لئلا تؤذيه الطيور والوحوش، وفجأة شاهد الأبوان الثاكلان كيف حفر غراب في الأرض في منطقة ما ثم أخفى فيها حيوانا ميتا من جنسه، واقتدى آدم بالغراب ودفن جثمان هابيل[197]، وكافأ الرب الغراب؛ فصغاره تولد بريش أبيض؛ ولهذا تهجرها الطيور الأكبر، ولا تعرف أنها صغارها، ويظنون أنها أفاعٍ فيطعمها الرب إلى أن يتحول ريشها إلى الأسود ويعود إليها آباؤها، ومنحه منحةً أخرى: وهي أن الرب يستجيب لدعاء الغربان عندما تستسقيه".

ذرية قايين

(197)*فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادمينَ (31)* سورة المائدة.
لا ندرى فى الحقيقة، لِمَ جعل النبيُّ القاتلَ هو من عجز عن إيجاد وسيلة لدفن أخيه بدلا من آدم وحواء كما تقول هذه القصة التي معنا؟ هل لأ نه كان ينظر فى رواية أخرى مختلفة وكانت تنص على ذلك؟ أم أن النبي قد صححها انطلاقًا من ندم القاتل ورغبته فى دفن من قتلت يداه؟ لكنها على كل حال هي القصة ذاتها، ويلاحظ أن الرواية القرآنية قد تحمل إشارة ما إلى ما سبق، وأن قالته هذه القصص قبل قليل من ندم القاتل على خطيئته وتوبته إلى الله منها، ولا يخفى أيضا ما تتضمنه تلك القصة التلمودية عن تضرع الطير وطلبها السقيا من الله وإجابة الله لدعائها كما يقول بهذا الحديث النبوي الطريف: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقي فإذا هو بنملة رافعة بعض قوائهما إلى السماء فقال: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة"، رواه الدار قطني، انظر سند الحديث وتخريجه في كتاب: "التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل" صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، 1996 م، ص 29.

جاءت ذرية قايين كنتيجة لخطيئته، وكان هو يدرك جيدًا أن ذنبه الدموي ستنعكس آثاره حتى الجيل السابع؛ فبهذا حكم عليه الرب، ولهذا فقد سعى إلى تخليد اسمه عن طريق الآثار، وأصبح من بناة المدن، وأولاها كانت تسمى أنوش على اسم ابنه؛ إذ إنه مع ميلاد أخنوخ بدأ ينعم بشيء من الراحة والسلام، كما أنه أسس ست مدن أخرى، وكان بناؤه للمدن عملا كأعمال الجبابرة؛ إذ إنه أحاطها بسور وأجبر أسرته على البقاء داخلها، وكانت كل صناعاته للهو والعبث، ولم تحدث العقوبة التي أنزلها به الرب تهذيبًا في سلوكه، فقد انغمس في الخطيئة ليرضى ملذاته، وكان يستشير معارفه لتستمر ملذاته عن طريق السلب والنهب، وأصبح من الزعماء الكبار الذين يقودون الناس إلى سبل الغواية واخترع المكاييل والموازين، وكما كان قينان كانت كل ذريته عصاة كفرة، فقرر الرب أن يهلكهم.

لامك يقتل قينان ويجهز على ابنه

"أتت نهاية قينان في الجيل السابع للبشر، وجاءت على يد حفيده لامك، وكان لامك هذا أعمى، وعندما كان يخرج للصيد كان يقوده ابنه الصغير الذي كان ينبه أباه عندما يرى صيدًا فيرميه لامك بقوسه وسهامه. وذات يوم خرج هو وابنه للصيد، ورأى الغلام شيئًا له قرون يلوح على البعد فتخيل أنه حيوان من نوع أو آخر، فأخبر لامك الأعمى ليعمل فيه قوسه وسهامه، وأصابت الرمية وطرح الصيد أرضًا، وعندما اقتربا من ضحيتهما، صاح الغلام: أبي، لقد قتلت شيئًا يشبه البشر في كل شيء إلا أنه يحمل قرنًا فوق جبهته. وفي الحال، أدرك لأمك حقيقة ما حدث؛ فقد قتل جده الأكبر قينان الذي كان الرب قد وسمه بقرن، وشبك كفيه معا في يأس ليخنق، بدون قصد، ابنه بهما".

أغضب فعل لامك نساءه بسبب قتله لقينان وخنق ابنه، وأردن الانفصال عنه لكنه قال لهن:"لئن كان قينان الذي ارتكب جريمته عن عمد وإصرار، ولم يعاقب إلا في الجيل السابع؛ إذن فإنني أنا الذي لم أتعمد قتل إنسان لآمل أن تتأجل عقوبتي لسبعة وسبعين جيلا، وعاد لامك مع أزواجه إلى آدم الذي سمع من الطرفين وحكم لصالح لامك(198)".

تعدد الزوجات واختراعات جيل الطوفان

(198)على خلاف التوراة التي نسيت آدم تمامًا، نجد هذه القصص تمنح آدم دورًا كمحكم في الخلافات الأسرية بين أحفاده!

"وإن فساد أهل هذه الأزمان، وخصوصًا شقاء ذرية قينان لتظهر في حقيقة أن لامك وكذلك كل الرجال الذين عاشوا في زمن الطوفان، كان الواحد منهم يتزوج زوجتين: إحداهما لتربى الأطفال، والأخرى ليستمتع بالملذات الجسدية معها، ولهذا السبب يتم جعلها عاقرًا بوسائل مصطنعة، ولأن رجال هذا الزمن كانوا مشغولين باللذة أكثر من الاهتمام بأداء واجباتهم نحو الجنس البشرى، فقد أولوا كل حبهم واهتمامهم لزوجاتهم العاقرات، فيما كانت زوجاتهم الأخرى أيامهن كأيام الأرامل دون فرح. وفي كآبة ولدت زوجتا لامك (عادة وصلة) طفلين من كل منهما؛ فولدت عادة ولدين هما: يابال ويوبال، فيما ولدت صلة ابنا هو: توبال – قينان، وبنتًا هي: (نعمة)، وكان (جبل) أول من شيد معابد للأصنام، فيما اخترع جوبال الموسيقى والألحان التي كانت تعزف وتغنى في هذه المعابد، وكان توبال - قينان اسما على مسمى؛ إذ إنه أكمل عمل سلفه قينان؛ فقد ارتكب قينان جريمة القتل، فيما ابتكر طوبال - قينان، وكان أول من عرف كيف يحد من الحديد والنحاس الأدوات المستخدمة في الحروب والصراعات. أما نعمة المحبوبة فقد اكتسبت اسمها من الأصوات العذبة التي كانت تصدر من آلاتها النحاسية التي كانت تقرعها لتستدعي العباد ليقوموا بطقوس عبادة الأوثان".

شيث وذريته

بعد انفصال دام مائة وثلاثين سنة كاملة عاد آدم إلى حواء، وكان ثمرة التئام شملهما هو شيث الذي قدر له أن يكون الجد الأكبر للمسيا، وقد كان شيث مكتمل التكوين منذ مولده إلى درجة أنه لم يكن في حاجة إلى شعيرة الختان، وكان واحدًا من الرجال الثلاثة عشر الذين ولدوا مكتملين على نحو أو آخر، وقد أنجبه آدم على صورته ومثاله ومختلفًا عن قينان الذي لم يكن على مثاله ولا على صورته، وهكذا أصبح شيث على وجه الحقيقة أبا الجنس البشري وخصوصًا أبًا للمتقين فيما ينحدر الملعونون والكفرة من قينان.

عندما بلغ شيث رشده وبلغ السن التي يستطيع فيها إدراك الخير أصبح رجلا تقيًا، ولأنه كان هو نفسه ذا شخصية متصلة بالرب فقد خلف من بعده نسلا قلدوه في أعماله الحسنة، وقد ثبت أن كل هؤلاء كانوا أخيارًا، وقد سكنوا في البقعة نفسها دون أن يتفرق شملهم، وفي حال سعيدة دون أن يصيبهم مكروه إلى أن ماتوا، وكانوا هم أول من اخترع

ذلك النوع الفريد من الحكمة المتعلقة بالكائنات السماوية ومراتبها، ولكي لا يضيع اختراعهم دون أن يعرف المعرفة الكافية أقاموا عمودين؛ لأن آدم تنبأ بأن العالم سيتم تدميره بقوة النار والزلازل، وبكمية الماء تارة أخرى، وكان أحد العمودين من القرميد، والآخر من الحجارة، ونقشوا على كل اكتشافاتهم؛ بحيث إذا دمر الطوفان عمود القرميد يبقى عمود الحجارة يعرض اكتشافاتهم للجنس البشري، ويخبرهم أيضا أنه كان هناك عمود آخر من القرميد شيدوه هم أنفسهم.

الشيطان يغرى جيل أنوش بعبادة الأصنام

سئل أنوش عن أبيه فقال شيث، لكن سائليه وهم أهل زمانه واصلوا أسئلتهم: ومن كان أبا شيث؟ أجابهم: آدم. سألوه: ومن أبو آدم؟ رد قائلا: لم يكن له أب ولا أم، بل خلقه الرب من تراب الأرض. ردوا قائلين: لكن الإنسان لا يشبه في هيئته التراب. أجابهم قائلا: بعد الموت يعود الإنسان إلى التراب كما قال الرب وسيعود الإنسان إلى التراب. لكن في يوم خلقه صنع الإنسان على صورة الرب. سألوه: وكيف خلقت المرأة؟ أجابهم: خلقهم ذكرا وأنثى. سألوه: لكن كيف؟ أجابهم: أخذ الرب التراب والماء وخلطهما معًا على هيئة إنسان. سألوه: لكن كيف؟ هكذا ألحوا عليه، أخذ أنوش ست قبضات من التراب وخلطها وشكل منها تمثالا من التراب والصلصال. قالوا له: لكن هذا التمثال لا يمشي وليست به نفخة من الحياة، وعندما حاول أن يريهم كيف نفخ الرب نفخة الحياة في منخري آدم. لكن عندما بدأ ينفخ في التمثال الذي كونه دخله الشيطان فمشى التمثال، وسار وراءه الناس الذين كانوا يسألون أنوش عن هذه المسائل، قائلين: ما الفرق بين الركوع لهذا التمثال والركوع للإنسان؟

"هكذا كان جيل أنوش أول من عبد الأصنام[199]، ولم تتأخر عقوبة هذه الغباوة طويلا فقد أمر الله البحر أن يتجاوز حدوده ويغرق قطعة من الأرض، وكان ذلك أيضًا

[199]من المعلوم أن القرآن قد ذكر أن أول من عبد الأصنام من ذرية آدم كانوا من قوم نوح، ونجد أن الأحاديث النبوية قد أرجعت دخول الشرك إلى العالم قبل مولد نوح إلى الشيطان أيضا تماما مثلما فعلت هذه القصص التي بين أيدينا، لكن الرواية الحديثية تقدم لنا قصة مختلفة؛ إذ تربطها بخطيئة تقديس الصالحين والغلو في تبجيلهم "وهى أفعال نددت بها أيضًا تعاليم التلمود بشدة" لكنها على كل حال قصة ذات شبه قريب بهذا الحديث: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، وَقَالَ عَطَاءٌ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ فكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى

هو الزمن الذي تحولت فيه الجبال إلى صخور، وبدأت جثث الموتى تتعفن، وكذلك كانت هناك عقوبة أخرى لعبادة الأصنام، وهي أن ملامح الأجيال التالية لم تعد على مثال صورة الرب مثلما كانت ملامح آدم وشيث وأنوش، فقد أصبحت مثل ملامح القناطير والقرود، وزال عن العفاريت خوفها من البشر).

الرب يغادر الأرض إلى السماء

ولكن كانت هنالك أيضًا عقوبة أخطر للممارسات الوثنية التي مورست لأول مرة في زمن أنوش، فعندما طرد الرب آدم من الجنة بقيت الشكينة مكانها في الجنة على عرش فوق أكتاف قروب تحت شجرة الحياة[200]، وهبط الملائكة من السماء وتوجهوا إليها أفواجًا ليتلقوا التعليمات، وجلس آدم وذريته بجوار بوابة الجنة لينعموا بسنا السكينة التي كانت تفوق سنا الشمس بخمسة وستين ألف مرة[201]، وهذا السنا الذي تتمتع به السكينة يُعفي كل من تسقط عليه من الأمراض، ولا تستطيع حشرة ولا شيطان الاقتراب منهم لتنالهم بأي أذى .

هكذا، فلم يبدأ البشر جمع الذهب والفضة والجواهر واللآلئ من كل بقاع الأرض إلا في عهد أنوش، وصنعوا منها أصنامًا ارتفاعها ألف فرسخ[202]، والأدهى من ذلك أنهم عن طريق الفنون السحرية التي علمهم إياها الملكان: عوزا وعزائيل جعلوا أنفسهم سادة على الأفلاك السماوية، وأجبروا الشمس والقمر والنجوم على الخضوع لهم لا

الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ"، صحيح البخاري، حديث رقم (4920).

(200) ربما كانت أمثال تلك الحكايات التلمودية المسفة هي أساس حضور بعض ما جاء، للأسف، في القرآن الكريم من بعض مظاهر التجسيم الغليظ؛ كجلوس الله على العرش وحمل عدد من الملائكة لعرشه رغم حضور ملامح تنزيهية أخرى بالغة الجلال في ثنايا آيات أخرى من القرآن الكريم، ومن الآيات التي تشبه ما معنا هذان المثالان: *وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17)* (الحاقة)، وكذلك ما جاء في هذه الآية: *الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7)* (سورة غافر).

(201) ليس ببعيد أن يكون النبي عليه السلام قد انطلق من أمثال تلك الحكايات في وصف التجلي الإلهي كما جاء في هذا الحديث "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"، انظر الحديث في صحيح مسلم، ج1، ص 161، دار إحياء التراث العربي، بيروت، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(202) لا نظن أن علماء الفيزياء سيجدون من إقامة نصب حجري بهذا الارتفاع الرهيب أمرًا ممكنًا، ولكن لا بأس!

للرب، وقد دفع هذا الملائكة إلى أن يسألوا الرب قائلين: ما هذا الإنسان الذي تبالي به؟ لماذا تتخلى عن أسمى السموات وعن كرسي مجدك وعرشك المجيد في عربوت، وتهبط إلى البشر الذين يتجهون بالعبادة إلى الأصنام ويساوونك بها؟ ودفعت السكينة إلى ترك الأرض والصعود إلى السموات وسط ترانيم وتهاليل أبواب أسراب الملأ الملائكي".

الملائكة يتزوجون بنات الناس

زاد حال البشر سوءًا بعد زمن أنوش؛ ففي زمن حفيده يارد تفاقمت الأمور على نحو مخيف وذلك بسبب الملائكة المخطئين؛ فعندما رأت الملائكة بنات البشر الجميلات الجاذبات اشتهوهن، وقالوا لن نختار لنا إلا من بنات البشر، وسننجب منهن أولادًا فهبط مائتا ملك إلى قمة جبل حرمون الذي يرجع اسمه إلى هذه الحادثة عينها؛ لأنهم رابطوا هناك ليحققوا عزمهم وليتعرضوا بسبب ذلك إلى عقوبة الحرم؛ أي اللعنة والحرمان، وتحت قيادة عشرين نقيبًا دنسوا أنفسهم بالزنا ببنات البشر الذين علموهم الأعمال والتعاويذ السحرية، وكيف يقطعون الجذور وخاصية كل نبات. وكانت ثمرة هذه الزيجات المختلطة جنسًا من العمالقة يبلغ طول كل منهم ثلاثة آلاف ذراع، وقد أتوا على كل ما يملكه البشر، وعندما نفد كل ما امتلكه البشر انقض العمالقة على البشر وأكلوا الكثير منهم، عندئذ بدأت البقية الباقية من البشر تتعدى على الطيور والبهائم والزواحف والأسماك؛ يأكلون لحومها ويشربون دماءها.

ثم اشتكت الأرض من هؤلاء الأشرار الخطاة، لكن الملائكة المخطئين واصلوا إفساد بنى البشر؛ إذ علمهم عزازيل كيف يصنعون سكاكين الذبح والأسلحة والتروس والدروع، وأراهم المعادن وكيف يشغلونها والأساور والخلاخيل بجميع أنواعها، واستخدام الكحل للعينين، وكيف يجملون الجفون.

بينما كانت كل هذه الآثام تدنس الأرض، كان أنوش التقي يعيش في مكان سري ولم يكن أحد من قومه يعلم مكانه، ولا ما حل به إذ إنه كان يتنقل مع الملائكة الحفظة الأبرار، وذات يوم سمع هاتفا يقول: يا أنوش يا كاتب العدل، اذهب إلى حراس السموات الذين تركوا السماء العلى المقر الأبدي للقداسة ودنسوا أنفسهم مع النساء، وفعلوا كما يفعل البشر واتخذوا لأنفسهم زوجات، وألقوا بأنفسهم في أحضان الخراب على الأرض، اذهب وأعلمهم أنهم لن يجدوا سلامًا ولا صفحًا، ففي كل مرة يمتعون أنفسهم بفلذات

أكبادهم سيرون الموت المخيف لأبنائهم وسيصلون ويعانون إلى الأبد، ولكن لن يمنحوا أبدًا رحمة ولا سلامًا .

شفاعة أنوش وأصل الشياطين

ذهب أنوش إلى الملائكة المخطئين ليعلنهم بالنهاية السيئة التي كتبت عليهم فناشدوه أن يكتب التماسًا نيابة عنهم، ويقرأه أمام الرب إذ إنهم ما عادوا يستطيعون الكلام مع الرب كالسابق، وافق أنوش على طلبهم ورأى في منامه أنه يصعد به على السحب إلى السماء، ويوضع أمام عرش الرب الذي كلمه قائلا: اذهب وقل لحراس السموات الذين أرسلوك إلى هنا لتتوسط لهم: كان يجدر بكم أن تتوسلوا أنتم لأجل البشر، وليس البشر هم من يتوسلون لأجلكم، لماذا هجرتم السموات العلى الأبدية؟ ألكي تنجسوا أنفسكم ببنات البشر، وتتخذوا لأنفسكم زوجات وتفعلوا ما تفعله دواب وطيور الأرض وتنجبوا أبناء عمالقة؟ والعمالقة الذين ينحدرون من لحم وأرواح سيطلق عليها على الأرض أرواحًا شريرة وعلى الأرض سيكون سكنهم، وستخرج من أجسادهم أرواح شريرة لأنهم خلقوا من فوق، ومن الحراس المقدسين مبدؤهم ومنشؤهم[203] وسوف يكونوا خفيين. والآن بالنسبة إلى الحراس الذين أرسلوك لكي تتوسط لأجلهم، الذين كانوا في السابق في السماء قل لهم: لقد كنتم في السماء، ورغم أن الأشياء المخيفة لم توحِ إليكم بعد علمتم أسرارًا لا قيمة لها، وبقساوة قلوبكم كشفتم عنها إلى النساء، ومن خلال هذه الأسرار صنع الرجال والنساء شرًّا كثيرًا على الأرض، قل لهم لهذا السبب؛ لاسلام لكم".

أنوش ورسالته

بعدما عاش أنوش زمنًا طويلاً منعزلا عن الناس سمع ذات مرة صوت ملك يناديه قائلا: استعد واترك البيت والمكان السري الذي كنت تختبئ فيه وافرض سلطانك على الناس لتعلمهم الطرق التي فيها يمشون والأفعال التي سيفعلون، وذلك لكي يسيروا في سبل الرب.

---

(203)من المعلوم أن القرآن يخالف هذا التصور التوراتي – التلمودي عن أصل الشياطين وعدّهم ملائكة متمردين على إرادة الرب! بل ميز بوضوح بين أصل هذين الصنفين من المخلوقات؛ فجعل الشيطان مخلوقًا من النار والملائكة من النور، كما في هذا الحديث "خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار السموم، وخلق آدم عليه السلام مما قد وصف لكم"، السلسلة الصحيحة برقم 458.

تجمع حول أنوش حشد غفير من الناس ليستمعوا إلى الحكمة التي وهبه الله إياها، وأذعن الجميع لسلطانه، وحتى الملوك والأمراء، وكانوا لا يقلون في عددهم عن مائة وثلاثين جميعهم خضعوا له، وهكذا حل السلام على العالم كله طوال السنوات المائتين والثلاث والأربعين التي دام فيها نفوذ أنوش.

معراج أنوش (204)

صعد أنوش إلى السماء، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يصعد فيها أنوش إلى السماء؛ إذ كان قد صعد إليها في مرة سابقة يمتطي حصانًا سماويًّا، فذات مرة وهو ما يزال بين البشر سمح له بأن يرى كل ما على الأرض وما في السماوات، ففي يوم من الأيام وهو نائم ران على قلبه حزن عظيم لجهله بما يعنيه ذلك الحزن، وبما سيحدث له، ثم ظهر له رجلان طويلان جدا، كان وجهاهما مشرقين في الشمس، وأعينهما كمصابيح مشتعلة، وتدلت النار من شفاههما، وكانت أجنحتهما أكثر سطوعًا وتلألؤًا من الذهب، وأيديهما أبيض من الجليد، فوقفا عند رأس سرير أنوش وناداه باسمه، فاستيقظ من نومه وأسرع ينحني لهما احترامًا وقد تملكه الفزع، وقال له هذان الرجلان: ابتهج يا أنوش ولا تخف! لقد أرسلنا الرب الباقي إليك، فانظر اليوم، ستصعد معنا إلى السماء(205)، وقل هذا لأبنائك ولخدمك واجعلهم لا يبحثون عنك، حتى يعيدك الرب إليهم،

(204)هناك رواية أخرى عن معراج أخنوخ، انظرها إن شئت في كتاب: "التوراة - كتابات ما بين العهدين" مخطوطات قمران، البحر الميت، حقق بإشراف أندريه دوبون وسومر ومارك فيلوننكو، ترجمة وتقديم موسى ديب الخورى، دار الطليعة الجديدة، الطبعة الأولى 1998م، ص 27 وما بعدها. وهناك أيضا تلخيص تحليلي جميل: فى كتاب "الرحمن والشيطان" فراس السواح، ص 157 وما بعدها. أما عن حضور تلك الشخصية في موروثنا الثقافي فلسفيا كان أو صوفيا إشراقيا، ومعرفة ما نسب إليه من مؤلفات ذات طابع حكمي جميل فيمكن الرجوع إلى كتاب "هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة" أحمد غسان سبانو، الطبعة الرابعة 2010م، دمشق.

(205)هل إدريس القرآني هو أخنوخ؟!

سؤال ليس من اليسير تقديم إجابة حاسمة عنه، فمن المعروف أن المفسرين قد اختلفوا اختلافًا بعيدًا في تحديد زمن إدريس بسبب قله ما أورده القرآن عنه، فليس من ذكر له في القرآن كله سوى في موضعين أولهما ما جاء عنه في سورة الأنبياء: *وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)*، وثانيهما هما هاتان الآيتان المختصرتان من سورة مريم : *واذكر فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)* مريم.

لذا، فقد اختلف المفسرون على زمنه كما يلخصه هذا النقل عن ابن كثير:"قال السدي وابن جرير، رحمه الله: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد ممن كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح. قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي صلى الله عليه وسلم: "مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح"، ولم

وفعل أنوش ما أمر به، وبعدما أخبر أبناءه وعلمهم ألا يلتفتوا عن الرب، وأن يلتزموا بحكمه تعالى، استدعاه هذان الرجلان، وأخذاه على أجنحتهما، ووضعاه فوق السحاب

يقل: "والولد الصالح"، كما قال آدم وإبراهيم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن محمد أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: "لا إله إلا الله"، ويعملوا ما شاءوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل"، ابن كثير "تفسير القرآن العظيم" تحقيق سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999م، ج5 ، ص242.

ومن بين المفسرين المتأخرين الذين رجحوا أن يكون إدريس قد جاء قبل زمن إبراهيم صاحب الظلال حيث يقول: "ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس، ولكن الأرجح أنه سابق إبراهيم وليس من أنبياء بنى إسرائيل؛ فلم يرد ذكره في كتبهم، والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا فأعلى قدره ورفع ذكره"،"الظلال"، ج4، دار الشروق، بيروت، ص 2312 - 2313.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) سورة مريم.

والحقيقة الواضحة أن من ينظر سياق هذه الآية السابقة وموضعها في السورة فسيدرك على الفور أنها تورد من الأنبياء ما يغطى المراحل الثلاث الكبرى في سلسلة الدعوات الإلهية؛ أي من آدم إلى نوح، ومن نوح إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى محمد، فبعد أن ذكر القرآن إبراهيم وإسحق ويعقوب ثم موسى وهارون ومن بعدهما إسماعيل ليستكمل فرع إبراهيم الآخر عاد بعدها إلى إدريس حيث كان يعنى السياق القرآني بتقرير أن عناية الله كانت حاضرة بعباده في كل تلك المراحل جميعًا؛ إذ لم تخل أي مرحلة من المراحل من الأنبياء والمرسلين، لذا فلا عذر للاختلاف من بنى البشر لكى يحيدوا عن طريق الله إذ لم يدعهم الله في أي مرحلة من تلك المراحل هملاً، وليس من يهديهم إلى طريق الله ويرفع أمامهم منارات سبل الله ويدلهم على شريعته، لذا فلا موضع هنا لاستخراج أي دلالة من الترتيب الزمنى للأنبياء في هاتين الآيتين للقول بتأخر زمان إدريس وإلا فقد كان إسماعيل قبل موسى وهارون!! وأيضًا فلا يعقل هنا أن يأتي إدريس في هذا السياق إن كان مجرد نبي هامشي من أنبياء بنى إسرائيل المتأخرين مثله في ذلك مثل من لا نعرف عنهم من القرآن سوى أسمائهم كذي الكفل وليشع، بل المعقول أن يأتي هنا بوصفه نبي تلك المرحلة المعترضة بين آدم ونوح، لذلك فما قرره الطبري وأغلب المفسرين بشأن زمان إدريس هو الراجح دونما التفات إلى ما قاله ابن حبيب من قوله: إن إدريس قد أرسل إلى قومه بالتوحيد فأبوا فأهلكهم الله؛ إذ لم يكن هناك من رسول أرسل إلى قومه قبل نوح ولم يكن من أمة معذبه قبل أمته، إنما كان إدريس نبيا جاء ليذكر قومه بمعالم الدين الحق التي عرفوها من آدم قبل أن يدخل الشرك إلى العالم.

أما عن كون إدريس القرآني هو أخنوخ صاحب المعراج الأول فهذا هو الراجح؛ إذ لا تخفى دلالة التعبير (ورفعناه) وهو التعبير ذاته الذي سيستخدمه القرآن لوصف صعود المسيح إلى السماء، فهو إذن إشارة واضحة إلى معراجه المذكور مختصرًا في التكوين أو على هذا التفصيل العظيم في القصص التلمودية!

ومن المعلوم أن النبي عليه السلام قد التقى إدريس في السماء الرابعة؛ حيث التقى في معراجه تلك النخبة المختارة من الأنبياء؛ حيث لقي الرسول آدم في السماء الأولى، والمسيح ويحيي في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، فيصح لمن شاء أن يقول إن النبي قد لقي هؤلاء الأنبياء الكرام هناك بسبب تعظيم الله لجهودهم على الأرض، أما إدريس فقد كان موجودًا هناك أصلاً مذ رفعه الله إلى السماء قبل أنبياء المرحلتين الأخيرتين بزمن بعيد؛ إذ ليس من المعقول أن يلقى النبي إدريس في السماء دون أن نراه يلقى أنبياء كانوا أعظم قدرًا من إدريس كداود أو سليمان أو هود أو شعيب، إن كان إدريس مجرد نبي من الأنبياء اليهود المتأخرين.

على هذا، فيغلب على الظن أن إدريس هو ذاته أخنوخ التلمودي، فليس من المفهوم أو من المعقول أن يتجاهل النبي رائده في الصعود إلى السماء وهو حدث عظيم وتكريم إلهى جليل اعتنى القرآن بذكره وقصَّه النبي على أصحابه مرارًا وفى مناسبات مختلفة.

يمكن لمن شاء أن يرجع إلى كتاب "نبي الله إدريس بين المصرية القديمة واليهودية والإسلام" د. هدى درويش، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009م.

الذي ارتفع أعلى وأعلى، إلى أن أنزلاه في السماء الأولى؛ حيث أرياه الملائكة المائتين الذين يحكمون النجوم وخدامهم السماويين، كما رأى فيها كذلك مخازن الجليد[206] والثلج والسحب والندى، ومن هناك أخذاه إلى السماء الثانية؛ حيث رأى الملائكة المخطئين وقد سجنوا، هؤلاء الذين لم يطيعوا أوامر الرب واتبعوا أهواءهم، وقال الملائكة الخاطئون لأنوش: يا رجل الرب، ادع لنا الرب، فأجابهم: من أنا لأدعو للملائكة، أنا الإنسان الفاني! من يعلم إلى أين أذهب؟ ولا ما ينتظرني؟ وأخذاه من هناك إلى السماء الثالثة؛ حيث أرياه الجنة بكل أشجارها زاهية الألوان وثمارها الناضجة الشهية، وكل أنواع الطعام الذي تنبته، والعبير الفواح الذي تتألق به، وفي وسط الجنة رأى شجرة الحياة، في ذلك المكان الذي يرتاح فيه الرب عندما يأتي إلى الجنة، ولا يمكن وصف روعة هذه الشجرة ولا شذاها العطر، وهي أجمل من أي مخلوق، وجانباها يبدوان الذهبي والقرمزي في مظهرهما وشفافين كالنار، وتغطي كل شيء، ومن جذورها في الجنة تنبع أربعة أنهر، تفيض بالعسل واللبن والزيت والخمر، وتهبط إلى جنة عدن التي تقع على الحدود بين المنطقة الأرضية للفساد والمنطقة السماوية للصلاح، ومن هناك تتدفق إلى الأرض، وكذلك رأى الملائكة الثلاثمائة الذين يرعون الجنة، وبأصوات لا تتوقف وترنيم مبارك يخدمون الرب كل يوم. وأوضح الملائكة الذين كانوا يرافقون أنوش، أن هذا المكان يجهز للمهتدين، بينما المكان الفظيع الذي يجهز للمخطئين يقع في المناطق

---

[206] يغلب على ظننا أن القرآن لا يقول إن المطر يتكون هنا على الأرض بسبب ما أصبح يعرفه كل الناس الآن من تبخر الماء بسبب حرارة الشمس، ثم تصاعده إلى طبقات الجو إلخ، بل نرجح أن القرآن كان يقول إن مصدر الأمطار هو ما ينزله الله وفق مشيئته من خزائن الماء المخزن هناك في السماء، وقل مثل ذلك عن مصدر (البرد) فهو ينزل كذلك من جبال البرد التي في السماء، وإلى هذا أشار المفسرون الذين ينطلقون من ظاهر الآية الصريح مثلما يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية من سورة النور: *أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)* سورة النور.

وقوله: *وَيُنزلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ* قيل في ذلك قولان؛ أحدهما: إن معناه أن الله ينزل من السماء من جبال في السماء من برد مخلوقة هنالك خلقه، كأن الجبال على هذا القول هي من برد، كما يقال: جبال من طين. والقول الآخر: إن الله ينزل من السماء قدر جبال، وأمثال جبال من برد إلى الأرض، كما يقال: عندي بيتان تبنًا، والمعنى قدر بيتين من التبن، والبيتان ليسا من التبن. "تفسير الطبري" تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى 2001 م- ج17، ص 337. ولا يخفى على الناظر في هذا التفسير ضعف القول الثاني بإنزال الله البرد بمقدار الجبال! فهو تفسير متكلف ولا ضرورة له، فالآية واضحة في تقريرها أن البرد يتنزل من جبال برد السماء!

الشمالية للسماء الثالثة؛ حيث رأى كل أنواع العذاب، والغم الذي لا ينقضي، وليس هناك نور، ولكن نار كئيبة تستعر دائمًا، وهذا المكان به نار من كل الجوانب، ومن كل الجوانب برد وثلج، وهكذا فهو يشتعل ويتجمد، كما أن الملائكة وهم غلاظ شداد، يحملون أسلحة بشعة وعذابهم لا يرحم، ثم أخذه الملكان إلى السماء الرابعة، وأرياه كل ما يدخل وما يخرج من وإلى السماء، وكل أشعة نور الشمس والقمر، ورأى أفواج الملائكة الخمسة عشر الذين يخرجون من الشمس ويرافقونها في أثناء النهار، والألف ملك الذين يرافقونها بالليل، ولكل ملك ستة أجنحة، ويمشون أمام عربة الشمس، بينما يحافظ مائة ملك على دفء الشمس ويوقدون تحتها، وكذلك رأى المخلوقات الرائعة والغريبة التي تسمى: العنقاء والشولكدري التي ترافق عربة الشمس، ويذهبون معها ويسببون الحرارة والندى، كذلك أرياه البوابات الست في شرق السماء الرابعة التي تشرق منها الشمس، والبوابات الست في الغرب حيث تغرب، وكذلك البوابات التي يخرج منه القمر وتلك التي يدخل منها، وفي منتصف السماء الرابعة، رأى ملأً مسلحًا يخدم الرب بمعازف وأورجات وأصوات لا تنقطع.

وفي السماء الخامسة رأى أفواجًا كثيرة من الملائكة تسمى جريجوري، وكانوا في مظهرهم مثل البشر، وحجمهم أكبر كثيرًا من حجم العمالقة، وكانت ملامحهم باهتة وشفاههم صامتة، وعندما سأل من يكونون، أجابه الملكان اللذان كانا يقودانه: هؤلاء هم الجريجوري، والذين مع رئيسهم سلامائيل نبذوا الرب المقدس، وعندما قال أنوش للجريجوري: لماذا تنتظرون يا إخوة ولا تخدمون أمام وجه الرب؟ ولماذا لا تؤدون واجباتكم أمام وجه الرب، وتغضبون ربكم إلى النهاية؟ فاستمع الجريجوري إلى التوبيخ، وعندما نفخ في الأبواق بصيحة عالية، بدأوا كذلك يغنون في صوت واحد، وخرجت أصواتهم أمام الرب في حزن وخشوع.

وفي السابعة رأى الفرق السبعة من الملائكة الكبار الذين يرتبون ويدرسون دوران النجوم وتغيرات القمر ودورة الشمس، ويشرفون على الأحوال الطيبة أو الشريرة للعالم، كما يرتبون التعاليم والإرشادات والكلام العذب والغناء وكل أنواع الحمد الجليل، وهم يسيطرون على كل الكائنات الحية، سواء في السماء أو على الأرض، وفي وسطهم سبع عنقاوات، وسبعة كروبيم، وسبعة مخلوقات سداسية الأجنحة تغني في صوت واحد، وعندما وصل أنوش إلى السماء السابعة ورأى كل الأسراب النارية

للملائكة الكبار العظام والقوى والسيادات والرؤساء والقدرات غير الجسدية، خاف وارتجف من شدة الرعب، وعندها أمسك به من كانا يقودانه، وأحضراه في وسطها، وقالا له: ابتهج يا أنوش ولا تخف! وأرياه الرب من بعيد يجلس على عرشه العلي، بينما كل الملأ السماوي وقد انقسم إلى عشر طبقات قد اقتربوا ووقفوا على الدرجات العشر طبقًا لمراتبهم، وركعوا أمام الرب، وهكذا تقدموا كل إلى مكانه في فرح وحبور ونور مطلق، ويغنون أغانيَ بأصوات لطيفة بلا صخب، ويخدمونه في جلال، ولا يغادرون أو يرحلون إلا بمشيئته نهارًا أو ليلاً يقفون أمام وجه الرب، والكروبيم والسيرافيم يقفون حول عرشه، ويظلل عرشه تمامًا المخلوقات السداسية الأجنحة، ويغنون بصوت رقيق أمام وجه الرب قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، رب الملأ والسماء والأرض تمتلآن بمجده، وعندما رأى أنوش كل ذلك، قال له الملكان اللذان يقودانه: يا أنوش حتى هذه المرة أمرنا أن نصحبك، ثم انصرفا ولم يرهما بعد ذلك، وبقي أنوش عند الحدود الخارجية للسماء السابعة في خوف عظيم، وهو يقول لنفسه: يا ويحي! ماذا حدث لي؟ وعندها أتاه جبريل وقال له: لا تخف يا أنوش! قف! وتعال معي وقف أمام وجه الرب إلى الأبد، أجابه أنوش: ياربي! لقد هربت مني روحي من الرعب والفزع، نادِ لي الرجال الذين أحضروني إلى هذا المكان، فعليهم كنت أعتمد، ومعه سأمثل أمام وجه الرب، وأسرع به جبريل كورقة تطيرها الرياح ووضعه أمام وجه الرب، فخرَّ أنوش ساجدًا وسبح الرب الذي قال له: لا تخف يا أنوش! انهض! وقف أمام وجهي إلى الأبد، ورفعه ميكائيل، وبأمر الرب نزع عنه ثوبه الأرضي، وباركه بالزيت المقدس وكساه، وعندما نظر إلى نفسه، بدا مثل واحد من الملأ المجيد للرب، وزال عنه الخوف والارتجاف، ثم نادى الرب على واحد من كبار ملائكته، وكان أكثر حكمة من الآخرين جميعًا، وكتب كل أفعال الرب وقال له: أحضر الكتب من مخزني، وأعط أنوش قلمًا، وفسر له الكتب، وفعل الملك كما أمر، وعلم أنوش ثلاثين يومًا وثلاثين ليلة، ولم تتوقف شفتاه عن الكلام، بينما ظل أنوش يدوِّن كل الأشياء عن السماء والأرض والملائكة والبشر، وكل ما كان مناسبًا له ليتعلمه، كما دون كل شيء عن أرواح البشر بمن فيهم هؤلاء الذين لم يولدوا، والأماكن التي أعدت لهم إلى الأبد، وكتب ثلاثمائة وستة وستين كتابًا، وبعدما تلقى كل التعاليم من الملك كشف له الرب أسرارًا عظيمة لم تكن الملائكة تعرفها، وأخبره كيف من أسفل الظلمات خلقت المرئيات والخفيات، وكيف خلق السماوات والنور والماء

والأرض، وكذلك أخبره عن سقوط الشيطان في الخطيئة، وحكى له خلق آدم ووقوعه في الخطيئة، كما كشف له أن العالم سيدوم سبعة آلاف عام[207]، والألفية السابعة ستكون زمنًا ليس فيه حساب ولا نهاية ولا أعوام ولا شهور ولا أسابيع ولا أيام ولا ساعات، وأنهى الرب هذا الوحي إلى أنوش قائلا: اليوم أعطيك صموئيل وراجوئيل اللذين أحضراك لي، اذهب معهما على الأرض، وأخبر أهلك بالأشياء التي قلتها لك، وما رأيته من أسفل السماوات إلى عرشي، أعطهم الأعمال التي كتبتها أنت، وسوف يقرأونها وسيوزعون الكتب إلى أبناء أبنائهم، من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة،، وسوف أعطيك رسولي ميكائيل، لكتاباتك وكتابات آبائك آدم وشيث وأنوش وقينان ومهلائيل ويارد أبيك، ولن أحتاجها إلا في الزمن الأخير؛ إذ إنني أمرت ملكي أريوك وماريوك اللذين وضعتهما على الأرض حارسين لهم، وأمرتهما في الوقت الذي يحرسانه أن ما سأفعله في ذريتك لا يضيع في الطوفان الآتي؛ إذ بسبب شرور وفساد البشر سأرسل طوفانًا على وجه الأرض، وسوف أهلك جميع الأشرار، ولكنني سأترك رجلا تقيا من نسلك وجميع أهل بيته الذين سيعملون وفق مشيئتي، ومن نسلهم ستخرج أمة عظيمة، وعند انقراض هذا النسل سأريهم الكتب التي كتبتها أنت، وكتب أبيك، كما أن حفظتها على الأرض سوف يُرون البشر من هو صادق في مرضاتي وسوف يخبرون جيلا آخر بذلك، وسوف يكونون بعد قراءتها مكرمين أكثر من ذي قبل.

بعد ذلك أرسل أنوش إلى الأرض ليبقى هناك ثلاثين يومًا ليعلم أبناءه، وقبل أن يغادر السماء، أرسل إليه الرب ملكًا كان في شكله مثل الجليد، وكانت يداه مثل الثلج، فنظر إليه أنوش وتجمد وجهه لكي يستطيع البشر تحمل منظره، ووضعه الملكان اللذان أخذاه إلى السماء على سريره في المكان الذي كان ابنه موتوشالح يتوقع أن يجده فيه نهارًا أو ليلا، وجمع أنوش أبناءه وكل عشيرته، وعلمهم بإخلاص كل الأشياء التي رآها وسمعها ودونها، وأعطى كتبه لأبنائه ليحفظوها ويقرأوها، محذرًا إياهم من إخفاء الكتب بل ليعلموها لكل من يريد معرفتها، وعندما اكتملت الأيام الثلاثون، أرسل الرب الظلام

(207)سيكون القسم الثاني من هذا الكتاب عن تصور النبي عن نهاية العالم، ولن يكون النبي كما سنرى بعيدا عن أمثال هذه التصورات عن النهاية القريبة للتجربة البشرية؛ حيث يكون مدار التجربة البشرية أسبوعا إلهيا: *وأن يومًا عند ربك بألف سنة مما تعدون*، واليوم الأخير هو ما يقابل السبت، بل إننا نجد حديثا نبويا بالغ الوضوح في متابعته للاعتقاد اليهودي ذاته وهو قوله: "عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم، قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة". رواه أبو داود، 5514 ، صحيح.

على الأرض، وكانت هناك كآبة حجبت الرجال الذين كانوا يقفون مع أنوش، وأسرع الملائكة وأخذوا أنوش وحملوه إلى السماوات العلا؛ حيث استقبله الرب ووضعه أمام وجهه تعالى، وزال الظلام عن الأرض، وكان هناك نور، ورأى الناس ولم يفهموا كيف أُخذ أنوش، ومجدوا الرب[208].

أنوش يتحول إلى ملاك

"حوّل الرب أنوش من كائن بشري إلى ملك من أعظم الملائكة، وقبل أن يُسمح لأنوش بالخدمة قرب العرش الإلهي فُتحت له بوابات الحكمة، وبوابات الفهم والإدراك

---

[208]من يقرأ أي رواية من الروايات الحديثية العديدة التي أوردت قصة إسراء النبي محمد إلى بيت المقدس وعروجه من هناك إلى السماوات العلا فلن يخفى عليه هذا الشبه العجيب بين المعراجين؛ حتى إننا لا نجد أي ضرورة لتفصيل أوجه الشبه تلك، انظر إن شئت مجموع روايات الإسراء والمعراج في كتاب "الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها" للألباني، المكتبة الإسلامية- 2000م.

أما ما نجد ضرورة لبيانه فهو أن نقول ما نعتقده عن الفارق الجوهري بين المعراجين الأخنوخي والمحمدي، الذي هو ببساطة تامة ذات الفارق البعيد بين الأسطورة الخرافية والتجربة المخيالية الصادقة! فجميع تلك المعراجات التي تحفل بها القصص الأجادية ما هي إلا أساطير ملفقة؛ لأنها تتعلق إما بشخصيات خرافية لم توجد قط على هذه الأرض مثل أخنوخ هذا، أو بشخصيات أخرى كان الغرض من الادعاء بزيارتهم إلى السماء هو تبجيل سلف كهنة العبرانيين مثل معراج (لاوي) ابن يعقوب في القصص الأجادية.

أما عن سبب اختيار أخنوخ من بين الآباء والأنبياء لمنحه تلك الرحلة السماوية في أسفار الرؤيا: "فقد كان مؤلفو الرؤى اليهود يبحثون عن شخصيات تاريخية مشهورة يوافق عليها الموروث الشرعي، وتكون قادرة على تحقيق الكشوفات التي كان هؤلاء الكتاب يريدون نقلها، والشيخ أخنوخ الذى يقول عنه سفر التكوين إنه مشى مع الله قبل أن يرفع إلى السماء (تك 7-24) كان مطابقًا تمامًا لهذه الوظيفة"، "التوراة - كتابات ما بين العهدين"، مخطوطات قمران، البحر الميت، ج2، ص 8 من مقدمة المترجم.

أما عن أساس تلك الزيارات إلى السماء فهي ذات أساس يضرب بعيدًا في أساطير العالم المشرقي القديم الذى علَّ منه العبرانيون ونهلوا! فأخنوخ مثلا لا يعدو أن يكون هو المقابل اليهودي لأسطورة بابلية أسبق من زمن تدوين الكتاب المقدس بقرون عدة "ويعد أخنوخ نموذج البار والكاتب ونسخة عن الملك السابع ما قبل الطوفان في التقليد البابلي (أمدورانكى) الذى كان شمش وحدد قد كشفا له الأسرار الإلهية"، المرجع ذاته، ج2، ص9 من المقدمة.

أما المعراج المحمدي فما هو سوى تخيل شعوري لا أكثر ولا أقل، وجهته إليه تلك الأساطير السماعية التي صدقها النبي محمد في نفسه تمام التصديق، فاستثارت قابليته النفسية والمخيالية الصادقة، فنسج باطنه المتشوف لملكوت الله على منوالها، ومن ناحية أخرى فمن ينظر في توقيت هذا المعراج المحمدي فسوف يرى أنه ربما جاء حلا لا شعوريا للتنفيس عن تلك الأزمة الباطنية العنيفة التي كان يعيشها النبي محمد في تلك المرحلة العصيبة من مراحل دعوته التى أثارها في نفسه إلحاح المشركين الهازئين عليه في طلب معجزات مادية تثبت صدق دعواه، وهو ما لم يطلبه النبي محمد قط من الله، وهو أيضًا من لم يستبعد وقوعه لإيمانه الكامل بصدق نبوته. إذن، فلربما كانت مثل تلك الرحلة الإعجازية متنفسًا ومسربًا لا شعوريًّا لتحقيق هذا البرهان الباطني؛ حيث كان يكفي الذات نفسها، ولو إلى حين، منتظرًا في رجاء واستسلام كاملين مراد الله فيه، خاصة لما نعلمه من أن تلك الواقعة لم تجلب له نفعًا فيقال إنه كان يستهدف ذلك النفع من خلف ادعائه هذا، بل على العكس من ذلك فقد جلب عليه ما قصَّه على قومه من رحلة إسرائه ومعراجه تكذيبًا وسخرية ما كان أغناه عنهما لو لم يكن النبي عظيم التصديق لها في نفسه قبل أن يطلب من سواه تصديقها! بل لقد ارتد بعض المسلمين، كما يقول بعض كتاب السير، بعدما أحرجهم الكفار من تلك الواقعة التي لم تقبلها عقولهم !! ولنا عودة إلى هذه النقطة عند الحديث عن القصص في الأحاديث النبوية.

والحياة والسلام والشكينة والقوة والقدرة والصلابة والحب والكرامة والتواضع والخوف من الخطيئة، وسماه الله من حينها ميتاترون، وعيَّنه رئيسًا على كل الملائكة، وألبسه تاجًا عظيمًا، وحتى أمراء السماوات كانوا عندما يرون أنوش يرتجفون أمامه ويخرون له ساجدين، فمجده وجلاله والبهاء والجمال الذى يشع منه يغمرهم، حتى سَمَاعيل الشرير أعظمهم، حتى جبريل ملك النار[209]، وبرديل ملك البرد، ورحيل ملك الرياح، وبرقيل ملك البرق، وزعميل ملك الأعاصير، وزقّيل ملك العواصف، وسوعيل ملك الزلازل، وزعفيل ملك الأمطار الغزيرة، ورعميل ملك الرعد، ورعشيل ملك الزوابع، وشلجيل ملك الجليد، ومطريل ملك المطر، وشمشيل ملك النهار، وليليل ملك الليل، وجالجليل ملك النظام الشمسي، وأوفانيل ملك عجلة القمر، وكوكبيل ملك النجوم، ورحتيل ملك المجموعات النجمية" .

---

(209)لا يخفى على من قرأ تلك الأساطير التلمودية متابعة القرآن لها فيما أوردته عن كثير من مهام الملائكة المختلفة مثل حمل عرش الله ومن قبض أرواح العباد، ومن السفارة الدائبة بين الله ورسله، ومن الاستغفار للمؤمنين، ومن التسبيح والتحميد، وكذا مثل ما معنا هنا من اختصاص بعض مظاهر الطبيعة الكونية بملك من الملائكة، فللجبال ملك خاص بها وللرعد كذلك ملك خاص به إلخ، ولا يبعد أن تكون تلك المهام الملائكية بمنزلة نقلة من آلهة الطبيعة في الديانات الوثنية وتحويلها إلى ملائكة؛ أي إلى أرواح إلهية معاونة للرب الواحد في نوع قديم من أنواع التوحيد البدائي والساذج، وإذا كنا قد رأينا ضرورة لاختصاص الرعد بملك لأنه كان يفسر وظيفته من سوق السحب بعصاه إلى الأماكن التي يريد الله أن يسقيها بالمطر، ويفسر لنا أيضًا ذلك الصوت الشديد الذى يسمعه الإنسان قبل سقوط الأمطار فلا ندرى مثلا ماذا يفعل ملك الجبال؟!!

لكن لننظر فيما جاء في أحاديث النبي عن بعض ذلك؛ حيث نجد في هذا الحديث ملكا للجبال، وفي الحديث الذى يليه نجد ملكا للرعد:

"عن عائشة أنها قالت (تسأل النبي): هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك فكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أفق إلا في قرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا" متفق عليه.

الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره. انظر الحديث في مختصر السلسلة الصحيحة للألباني برقم 1872.

ومثله الرعد ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله.

انظر الحديث في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني - برقم 3553 - طبعة المكتب الإسلامي.

ولا نشك في أن هذه المحاورة المخيالية عن ملك الجبال قد جرت حقا في عقل النبي ووجدانه فقد كان ينطلق من يقينه الكامل فى استحقاق قومه للعذاب من جراء تكذيبه، ثم يتجسد له هذا الشعور، ويصير مع اعتقاده بوجود ملك للجبال حقيقة وجدانية كاملة.

نوح التلمودي

بعد رفع أنوش، صار موتوشالح على دربه[210]، وأخذ يعلم الحقيقة والمعرفة والخوف من الرب لبني البشر طوال حياته، واتخذ موتوشالح زوجة لابنه لامك التي أنجبت له طفلا ذكرا، وكان هذا الرضيع عندما ولد له جسد أبيض كالجليد وأحمر كالوردة المتفتحة، وكان شعر رأسه وخصلاته الطويلة أبيضين كالصوف، وعيناه مثل أشعة الشمس، وعندما فتح عينيه أضاء المنزل كله مثل الشمس، وامتلأ البيت كله بالنور، وعندما أُخذ من أيدي القابلة فتح فمه وحمد رب الاستقامة، الأمر الذي أخاف منه أباه لامك، وفر هربًا إلى أبيه موتوشالح، وقال له: لقد أنجبت ابنًا غريبًا، إنه ليس كمثل البشر، لكنه يشبه ملائكة السماء، وطبيعته مختلفة، وهو ليس مثلنا، وعيناه مثل أشعة الشمس، وملامحه وضاءة، ويبدو أنه لم ينحدر مني، لكن من الملائكة، وأخشى أنه في أيامه ستقع حادثة عجيبة للأرض، ورجاه أن يذهب إلى أخنوخ ليعلم منه الحقيقة، هو الذي يقيم وسط الملائكة، وعندما ذهب موتوشالح إلى أنوش، طمأنه قائلاً: سيفعل الرب شيئًا جديدًا في الأرض، سيحل على الأرض خراب عظيم، بطوفان ماءٍ لمدة عام، وهذا الابن الذي ولد لك سيبقى على الأرض، وسينجو أبناؤه الثلاثة معه، وعندما يموت كل البشر على الأرض سيكون هناك عقاب عظيم على الأرض، وستطهر الأرض من كل رجاساتها، والآن أعلم ابنك لامك أن من ولد له هو ابنه في الحقيقة، وليسمِّه نوحا.

وما كاد نوح يأتي إلى العالم حتى لوحظ تغير ملحوظ، فمنذ أيام اللعنة التي جلبتها خطيئة آدم على الأرض، حدث أن كان القمح يبذر ولكن ينبت الشوفان وينمو، وتوقف ذلك مع ظهور نوح، فقد بدت الأرض تنبت ما يزرع فيها، ونوح عندما بلغ مرحلة الرجولة هو الذي اخترع المحراث والمنجل والعزاقة وغيرها من الأدوات المستخدمة في زراعة الأرض، وقبله كان الرجال يفلحون الأرض بأيديهم المجردة عن الآلات.

الله يختبر الملائكة

[210] لعل هذه المناقب التلمودية لموتوشالح كانت من خلف تقرير القرآن بصلاح أبويَّ نوح وجعلهما من المؤمنين كما يتضح من دعاء نوح لهما في خاتمة سورة نوح، وإن كنا لا ندري هل كانا من بين الناجين في السفينة أم أنهما قضيا قبل الطوفان وهو المرجح!

وعندما بلغ نوح مرحلة الرجولة سار على درب جده موتوشالح، فيما صار الرجال الآخرون ضد هذا الملك التقي، وابتعدوا عن تعاليمه، واتبعوا شرور قلوبهم، وارتكبوا جميع أنواع الآثام والمعاصي، وفي البدء كان الملائكة المخطئون وذرياتهم من العمالقة هم الذين تسببوا في حرمان البشرية، وقد صرخ الدم الذي أراقه العمالقة صراخًا صعد من الأرض إلى السماء، فأوقع الله بينهم الصراعات المميتة، وعندما بدأ جيل الطوفان يمارس عبادة الأصنام حزن الرب حزنًا عميقًا، ونهض الملكان شمهازاي وعزازيل، وقالا: يارب العالم، لقد حدث ما تنبأنا به عند العالم والإنسان، وقولنا ما هذا الإنسان الذي أنت مهتم به؟ وقال الرب: ماذا سيصير بالعالم الآن بدون الإنسان؟ وعندما أجابه الملكان: سوف نشغل أنفسنا به، ثم قال الرب: أنا واعٍ جيدًا لذلك، وأنا أعرف بأنكم لو سكنتم أنتم الأرض فسوف تغلب عليكم نزعة الشر، وسوف تكونون أكثر شرًّا حتى من الإنسان، وناشده الملكان قائلين: امنحنا فقط الإذن للإقامة بين البشر، وسترى كيف سنقدس اسمك، واستسلم الرب لرغبتهما قائلا: اهبطا وتنقلا بين البشر، وعندما هبط الملكان إلى الأرض، ورأيا بنات البشر بكل حسنهن وجمالهن لم يستطيعا التحكم في عواطفهما، ورأى شيمهازاي فتاة تسمى استيحار، وملكت قلبه، ووعدته بأن تسلم له نفسها لو علمها أولا الاسم الذي لا يمحى، والذي كان يرفع نفسه إلى السماء بواسطته، ووافق على شرطها، ما إن عرفت حتى تلفظت بالاسم وصعدت هي نفسها إلى السماء دون أن تفي بوعدها للملك، فقال الرب: لأنها حفظت نفسها بعيدًا عن الخطيئة سوف نضعها وسط النجوم السبع لكي لا ينساها البشر أبدًا، ووضعت في كوكبة الثريا.

ومع ذلك، لم يثبط ذلك عزم شيمهازاي وعزازيل عن الدخول في تحالف مع بنات البشر، وولد لأولهما اثنان من الأولاد، وبدأ عزازيل يبتكر الزينة والحلي التي تغري بها النساء الرجال، وعندها أرسل الرب ميتازون ليخبر شيمهازاي أنه قد قرر تدمير العالم وإغراقه بالطوفان، ابتدأ الملك المخطئ يبكي ويولول على مصير العالم ومصير ولديه.... وبعد ذلك تاب شيمهازاي وعلق نفسه بين السماء والأرض، وهو يتعلق إلى يومنا هذا في هذا الوضع المميز لمخطئ تائب، أما عزازيل فقد أصر على غوايته في البشرية إلى الضلال باستخدام المغريات الشهوانية، وعلى عكس استيحار فإن نعمة بنت توبال- قينان الجميلة ضللت الملائكة بجمالها، ومن اتحادها مع شمدون نشأ الشيطان أسموديوس، وكانت عديمة الحياء مثلها مثل كل ذرية قينان الآخرين، ومثلهم في

خضوعها لسطوة الشهوات الحيوانية، وكان من عادة الرجال القينيين والنساء القينيات على السواء أن يسيروا في الشوارع عرايا، واستسلموا لممارسة كل رذيلة ممكنة، وكان منهم نساء أغوى جمالهن ومفاتنهن الجسدية الملائكة عن طريق الفضيلة. من ناحية أخرى، فإن الملائكة ما أن يتمردوا ضد الرب ويهبطوا إلى الأرض إلا فقدوا سماتهم المتميزة ومنحوا أجسادًا أرضية، فأصبح اتحادهم مع بنات البشر ممكنًا وكان نتيجة هذا الاتحاد بين الملائكة والنساء القينيات، العمالقة الذين عرفوا بقوتهم ومعصيتهم كما يدل عليهم اسمهم نفسه "ألاميم"، فهم يبثون في النفس الخوف، وكانت أحجامهم ضخمة جدا، وكانوا أساتذة كبارًا في الحروب، ولهذا سموا جبوريم، وكانوا يسمون أحيانًا عناقيم[211] لأنهم كانوا يلمسون الشمس بأعناقهم.

جيل الطوفان

كما شابهت ذرية قينان أباها في خطيئته وحرمانه، فإن ذرية شيث عاشت حياة تقية ورعة، وانعكس الاختلاف في تصرفات الفريقين في مكان إقامة كل منهما، فقد أقامت عائلة شيث على الجبال بجوار الجنة، فيما أقامت عائلة قينان في حقل دمشق حيث قتل قابيل على يد قينان، ولسوء الحظ، ففي زمن موتوشالح وبعد موت آدم أصبحت عائلة شيث فاسدة مثل القينيين، واتحد الفريقان معًا ليقترفا كل أنواع المعاصي، وكان نتيجة اتحادهما النيفيلين "أي العمالقة" الذين تسببت خطاياهم في قدوم الطوفان على العالم،... وكان فساد هذا الجيل يعود في جزء منه إلى الظروف المثالية التي كانت تعيش فيها البشرية قبل الفيضان، فلم يكونوا يعرفون كدحًا ولا همًّا وكنتيجة لرفاهيتهم غير العادية ازدادوا عنادًا وصلفًا، ومن غرورهم انتفضوا ضد الرب، فقد كانت البذرة الواحدة تأتي بحصاد يكفي أربعين عامًا... وقد أتاحت لهم حياتهم الهانئة الفرصة والفراغ ليرتكبوا آثامهم، وظل الرب مدة طويلة لحلمه وإحسانه يتجاوز عن خطايا البشر، ولكن صبره نفد عندما شرعوا في العيش في حياة الفاحشة؛ إذ إن الرب يصبر على كل الخطايا إلا أن تعيش حياة الفاحشة، وكانت هناك خطيئة أخرى عجلت بنهاية ذلك الجيل الفاسق وهي جشعهم وقيامهم بأعمال السلب والنهب.

---

(211)من الواضح أن قصة عوج بن عنق أو ابن عناق وما تسلل إلى تراثنا بشأن قصته قد جاءنا من هذه الخرافات التلمودية السخيفة!

الله يرسل نوحًا للبشر

من رحمة الرب أنه بعدما قرر إهلاك الخطاة أذن لرحمته أن تسود؛ فأرسل إليهم[212] نوحًا الذي ناشدهم الاستقامة مدة مائة وعشرين عامًا، وكان يهددهم دائمًا بالطوفان، أما هم فقد اكتفوا باحتقاره، وكلما رأوه مشغولا بصنع السفينة سألوه: لم تصنع هذه؟ فيجيبهم نوح: سيصيبكم الرب بالطوفان، فيجيبونه: أي نوع من الطوفان؟ لو أرسل علينا طوفانا من النار، فنحن نعرف كيف نحمي أنفسنا منه، وإن كان فيضانًا من المياه، فإن انبعثت المياه من الأرض سنغطي العيون بقضبان حديدية، وإن هبطت من فوق فنحن نعرف لذلك أيضًا علاجًا، فيجيبهم نوح: ستتفجر المياه من تحت أقدامكم ولن تستطيعوا إيقافها [213].

موتوشالح يموت

ومما زاد من قساوة قلوب جيل الطوفان أن نوحًا كان قد عرَّفهم بأن الطوفان لن يهبط ما دام موتوشالح التقي بينهم، وعندما انقضت المائة والعشرون عامًا التي جعلها الرب فترة اختبار لهم مات موتوشالح، ولكن مراعاة لذكرى رجله التقي منحهم الرب أسبوعا إضافيا مهلة، وهو أسبوع الحداد عليه، وخلال فترة الحداد هذه عُلقت قوانين الطبيعة، فأشرقت الشمس من الغرب وغربت من الشرق[214]، وإلى الخطاة أعطى الرب الملذات التي تنتظر الإنسان في العالم الآتي، بغرض أن يريهم قيمة ما يفرطون فيه، لكن ذلك كله ثبت عدم جدواه، ولأن موتوشالح وغيره من المتقين في هذا الجيل كانوا قد غادروا هذه الحياة، فقد أصاب الرب الأرض بالطوفان [215].

---

[212] كما هو معلوم فإن التوراة لا تذكر شيئا عن نبوة نوح، ولا عن رسالته، ولا تذكر أنه أنذر قومه، وحذرهم من الطوفان؛ لذا فليس من البعيد القول بأن جميع ما أورده القرآن عن نبوته ودعوته إلى توحيد الله وخلع الأصنام ربما جاءت من أشباه هذه القصص التلمودية.

[213] لعل هذه المحاورة هي أساس ما ذكره القرآن عن حوار نوح مع قومه عندما كانوا يسخرون منه لرؤيته يصنع السفينة كما في هذه الآية: *وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)* سورة هود.

[214] سوف يستخدم النبي تلك التفصيلة عن شروق الشمس من المغرب في سياق الأخرويات كعلامة على انقضاء زمان التوبة لجميع البشر، وكعلامة كبرى على إسدال الله الستار على تجربة الخليقة بأسرها.

[215] انظر: "التلمود البابلي"، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، المجلد العشرون، 2011م، ص 113.

نوح يصنع السفينة

عندما قضى الرب بأن يغرق الأرض ومن عليها بالطوفان أرسل الملك الكبير رافائيل إلى نوح حاملا معه الرسالة التالية: ها أنا أعطيك الكتاب المقدس، المقصود به كتاب زازيل، لتعرف كل الأسرار والألغاز التي كتبت فيه، ولكي تعرف كيف تستمسك بتعاليمه في طهر ونقاء واعتدال وتواضع، وستتعلم منه كيف تصنع سفينة من خشب شجرة الكافور؛ حيث تجد الحماية أنت وأبناؤك وزوجتك، فأخذ نوح الكتاب، وعندما درسه حلَّ عليه الروح القدس، وعرف كل الأشياء اللازمة لبناء السفينة وتجميع الحيوانات.

أصحاب السفينة

اكتمل بناء السفينة، وكانت مهمة نوح التالية هي جمع الحيوانات، وكان عليه أن يصطحب معه على السفينة ما لا يقل عن اثنين وثلاثين نوعًا من الطيور، وثلاثمائة وخمسة وستين نوعًا من الزواحف[216]، لكن الرب أمر الحيوانات أن تتوجه إلى السفينة فزحفت إليها، ولم يحتج نوح سوى أن يشير إليها بإصبع من أصابعه[217]، وفي الحقيقة فقد ظهر من الحيوانات أكثر مما كان مطلوبًا، وأرشد الرب إلى الجلوس على باب السفينة، وينظر أي الحيوانات ترقد وأيها يقف عندما تصل إلى المدخل، فالتي ترقد هي التي يجب أن تُحمل في السفينة وليست الأخرى، أما الحيوانات البرية والماشية والطيور التي لم يتم قبولها فقد ظلت واقفة بجوار السفينة طوال سبعة أيام؛ إذ إن تجميع الحيوانات حدث قبل الطوفان بأسبوع، وفي اليوم الذي جاءوا فيه إلى السفينة أظلمت الشمس، وارتجفت ينابيع الأرض، وومض البرق، وهزم الرعد كما لم يحدث من قبل قط، ومع ذلك ظل الخطاة على معاصيهم ولم يفكروا لحظة واحدة قط في الكف عن أعمالهم الشريرة خلال تلك الأيام السبعة الأخيرة.

---

[216] ربما كانت هذه الفقرة تصلح لكى تعطينا برهانًا واضحًا عن تصور كاتب التوراة عن مقدار التنوع الأحيائي المحدود للخلائق، وكيف كانت في تقديره مجرد بضع مئات من الأزواج التي كان من المعقول عنده أن تحويها سفينة كبيرة كالتي صنعها نوح!

[217] هكذا كان الأمر سهلا وميسورًا، فلم يذهب نوح ليجمع الحيوانات من أرجاء الأرض، بل حشرها الله إليه، تمامًا كما جمعها الله لآدم من قبل لكى يمنحها أسماءها! لذا فلا ضرورة لأن يتعب الشراح المحدثون أنفسهم لبيان إمكان أن يسعى نوح وراء حيوانات الكوكب كله ليحشدها في سفينته، فقد تم له ذلك بمعجزة إلهية فليصدقها من شاء ولينكرها من شاء! أما محاولة عقلنة تلك الخارقة الإلهية فهو عبث لا طائل تحته، بل هو ضعف إيمان لا يليق بالمؤمنين الصادقين!

أوان التوبة

عندما تدفق الطوفان في النهاية تجمع حول السفينة سبعمائة ألف من بني البشر، وناشدوا نوحًا أن يحميهم فأجابهم بصوت ساخر قائلا: ألم تتمردوا من قبل على الرب قائلين: ليس هناك إله، لهذا يحل عليكم الطوفان ليفنيكم ويمحوكم من على وجه الأرض، ألم أكن أتنبأ لكم بذلك طوال هذه السنين المئة والعشرين ولم تصغوا إلى صوت الرب! ومع ذلك تتمنون الآن أن تبقوا أحياءً، فصرخ الخطاة قائلين: ليكن كذلك، لكن كلنا الآن على استعداد للعودة إلى الرب، لو فتحت لنا أبواب سفينتك لتستقبلنا لكي نعيش ولا نموت، أجابهم نوح قائلا: إنما تتوبون الآن لأن الضرورة تجبركم على ذلك، لماذا لم تعودوا إلى الرب طوال كل تلك السنوات المئة والعشرين التي فتح فيها الرب أمامكم باب التوبة، والآن تجيئون إليَّ وتكلمونني هكذا لأن المصيبة تهدد حياتكم، لهذا لن يسمع الرب لكم، ولن يصغي إليكم، ولن تفلحوا في شيء[218]، وبنعمة الله لا بفضل من نوح أنقذه الرب في السفينة، وحماه من القوة الهائلة للمياه، ورغم أنه أفضل من معاصريه، فإنه لم يكن ليستحق أن تقع على يديه المعجزات، وكان إيمانه ضعيفًا إلى درجة أنه لم يدخل السفينة إلا بعد أن بلغ الماء ركبتيه، وقد نجت معه زوجته نعمة التقية ابنة

---

(218)*إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)* النساء، تابع النبي هذا التصور التلمودي عن باب التوبة الذى يظل مفتوحا على مصراعيه لمن شاء أن يؤوب إلى الله إلا إذا ظهرت في الأفق نذر العذاب، فهنا يغلق باب التوبة ويفوت أوانها ولم يستثن الله من هذا القانون الإلهي الذي تجليه هذه الآية السابقة إلا قوم يونس! فعلى الرغم من معاينتهم لمظاهر العذاب فقد أدركتهم رغم ذلك رحمة الله لما أظهروه من تضرع ومن ندم شديد على ما جاء في سفر يونان الإصحاح الثالث الآيات من 5- 10) "فَلَمَّا رَأَى اللهُ أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيئَةِ، نَدِمَ اللهُ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعْهُ"، *فَلَوْلَا كَانَت قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(98)* سورة يونس.

"رُوِيَ أَنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ إِلى نِينَوَى مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَكَذَّبُوهُ فَذَهَبَ عَنْهُمْ مُغَاضِبًا، فَلَمَّا فَقَدُوهُ خَافُوا نُزُولَ الْعِقَابِ، فَلَبِسُوا الْمُسُوحَ وَعَجُّوا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ يُونُسُ قَالَ لَهُمْ إِنَّ أَجَلَكُمْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً فَقَالُوا: إِنْ رَأَيْنَا أَسْبَابَ الْهَلَاكِ آمَنَّا بِكَ، فَلَمَّا مَضَتْ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ لَيْلَةً ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ غَيْمٌ أَسْوَدُ شَدِيدُ السَّوَادِ، فَظَهَرَ مِنْهُ دُخَانٌ شَدِيدٌ وَهَبَطَ ذَلِكَ الدُّخَانُ حَتَّى وَقَعَ فِي الْمَدِينَةِ وَسَوَّدَ سُطُوحَهُمْ فَخَرَجُوا إِلى الصَّحْرَاءِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَبَيْنَ الدَّوَابِّ وَأَوْلَادِهَا فَحَنَّ بَعْضُهَا إِلى بَعْضٍ فَعَلَتِ الْأَصْوَاتُ، وَكَثُرَتِ التَّضَرُّعَاتُ وَأَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَالتَّوْبَةَ وَتَضَرَّعُوا إلى الله تعالى فَرَحِمَهُمْ وَكَشَفَ عَنْهُمْ، الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: إِنْ قَالَ قَائِل إِنَّهُ تعالى حَكَى عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ تَابَ فِي آخِرِ الأمر وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ وَحَكَى عَنْ قَوْمِ يُونُسَ أَنَّهُمْ تَابُوا وَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ فَمَا الْفَرْقُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا تَابَ بَعْدَ أَنْ شَاهَدَ الْعَذَابَ، وَأَمَّا قَوْمُ يُونُسَ فَإِنَّهُمْ تَابُوا قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَمَّا ظَهَرَتْ لَهُمْ أَمَارَاتٌ دَلَّتْ عَلَى قُرْبِ الْعَذَابِ تَابُوا قَبْلَ أن يشاهدوا فظهر الفرق"، انظر: "مفاتيح الغيب" للرازي، ج 17، ص 303، دارإحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة - 1420 هـ.

أنوش[219] وكذلك أبناؤه الثلاثة وزوجات أبنائه الثلاث، ولم يتزوج نوح إلا بعد أن بلغ من العمر أربعمئة وثمان وتسعين سنة، ثم أمره الرب أن يتخذ لنفسه زوجًا، ولم يكن يرغب في أن يجلب نسلاً إلى العالم، إذ رأى أنهم سيهلكون جميعًا في الطوفان، وما كان له سوى ثلاثة أبناء أنجبهم قبل حلول الطوفان بوقت قصير.

نوح يصطحب معه عوج ملك باشان

لم يستطع نوح أن يجد مكانًا للعملاق عوج ملك باشان، لكنه على كل حال قد جلس في أمان على قمة السفينة، وبهذه الطريقة نجا من فيضانات المياه، وكان نوح يلقي إليه طعامه كل يوم من خلال فتحة، لأن عوج وعده بأنه سيكون هو وذريته خدامًا له إلى الأبد.

إطعام الحيوانات

لم يكن تجميع الحيوانات على ظهر السفينة إلا جزءًا يسيرًا من المهمة التي كلف بها نوح، وكان أصعب ما واجهه هو إيجاد الطعام والمأوى لها لعام كامل، وفيما بعد بفترة طويلة قصَّ سام بن نوح على إليعازر خادم إبراهيم ما لاقوه من الحيوانات على ظهر السفينة فقال: واجهتنا مشكلات عصيبة في السفينة، ففي النهار كان علينا إطعام الحيوانات في النهار، وفي الليل كان علينا إطعامها في الليل.

مم نتج الطوفان؟

وقد نتج الطوفان من اتحاد المياه المذكرة وهي في الفلك العلوي، مع المياه المؤنثة التي تنبع من الأرض[220]، واندفعت المياه العلوية من فراغين تخلقا عن اثنتين من نجوم كوكبة الثريا، انتزعهما الرب من مكانهما، وبعد ذلك لكي يوقف الطوفان، كان على

---

[219] كم يبعث التقرير القرآني عن كفر امرأة نوح به على الحيرة! ولعل فيما جاء مرارًا في كتب التفسير من أن نوحًا كانت له زوجتان آمنت به إحداهما وكفرت به وبدعوته الأخرى ما يعكس صدى لبعض تلك المرويات اليهودية التي كان من بينها ربما ما شكل أساس تلك التفصيلة القرآنية عن كفر امرأة نوح به وغرقها مع الغارقين!!

[220] "عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، سَأَلَ ابْنُ الْكَوَّا عَلِيًّا عَنِ الْمَجَرَّةِ؟ قَالَ: هُوَ شَرَجُ السَّمَاءِ، وَمِنْهَا فُتِحَتِ السماء بماء منهمر" صحيح الإسناد. انظر الحديث في كتاب "صحيح الأدب المفرد" للألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، باب المجرة برقم (295).

الرب أن ينقل نجمتين من كوكبة الدب الأكبر إلى كوكبة الثريا، ولهذا السبب يجري الدب خلف الثريا، فهو يريد صغيريه، لكنهما لن يعودا إليه إلا في العالم الآتي، ودام الطوفان عاما كاملا، واستمر المطر أربعين يومًا، وكان الماء يبلغ ارتفاعًا واحدًا هو خمس عشرة ذراعًا فوق الأرض، وخلال هذه الفترة هلك كل الأشرار، وكل أخذ العقوبة التي يستحقها، وكان قينان ممن هلكوا، وهكذا أُنتقم لموت هابيل[221].

نوح يهبط بسلام

ورغم أن الأرض قد عادت إلى هيئتها الأولى في نهاية عام العقوبة فإن نوحًا لم يغادر السفينة إلا بعد أن تلقى أمر الرب بمغادرتها، وقال لنفسه: كما ركبت السفينة بأمر الرب فلن أغادرها إلا بأمره، ومع ذلك فعندما أمره الرب بمغادرة السفينة رفض لأنه كان يخشى بعد أن يعيش على الأرض الجافة لبعض الوقت وينجب أولادًا يصيب الرب الأرض بطوفان آخر؛ ولهذا فلم يغادر السفينة إلا بعد أن أقسم له الرب بأنه لن يصيب الأرض بطوفان آخر أبدًا.

نوح يعاتب الله ويتلقى توبيخا إلهيا

"وعندما خطا نوح من السفينة إلى العراء بكَى بحرقة من منظر الخراب الذي سببه الطوفان وقال للرب: يا رب العالم، إنك تسمى الرحيم، وكان يجب عليك أن تكون رحيمًا بمخلوقاتك! أجابه الرب قائلا: يا أيها الراعي الغبي الذي يتحدث إليَّ الآن! لم تقل ذلك عندما خاطبتك بلطف وقلت لك: أراك رجلا مستقيمًا وكاملا بين جيلك وسأضرب الأرض بطوفان ليدمر كل ذي بشر. اصنع لنفسك سفينة من خشب الكافور، وهكذا قلت لك وأخبرتك بكل هذه الظروف لعلك تسألني الرحمة بالأرض لكنك ما إن سمعت أنك ستنجو في السفينة لم تشغل نفسك بالخراب الذي سيحل على الأرض، لقد بنيت لنفسك سفينة نجوت فيها، والآن بعد أن خربت الأرض تفتح فمك لتدعو وتتوسل؟! أدرك نوح أنه أذنب بغباوته، ولكي يرضي الرب ويقر بذنبه قرب قربانًا، وقبله الرب ورضي عنه.

قوس قزح

[221] كذا في النص رغم أننا علمنا من قبل أنه قتل خطأ على يد لامك الأعمى!

وكأمارة على أنه لن يدمر الأرض بعد ذلك، وضع الرب قوسه في السحاب فحتى لو انغمس البشر في الخطيئة مرة أخرى فإن القوس تخبرهم بأن خطاياهم لن تؤذي العالم، وقد مرت أزمان على مر العصور كان فيها البشر أتقياء بما يكفي لكيلا يعيشوا في خوف من العقاب، وفي مثل هذه الأوقات لم تكن القوس مرئية[222].

نوح يبتكر الخمر

فقد نوح لقبه "التقي" عندما بدأ يشغل نفسه بزراعة الكرم، وأصبح "رجل الأرض"، وبهذا يعد نوح أول من شرب الخمر، وأول من لعن وسبَّ أقرباءه، وأول من استعبد العبيد، وقد حدث كل ذلك بالطريقة التالية: وجد نوح الكرمة التي أخذها آدم معه من الجنة عندما طرد منها وذاق عنبها، فقرر أن يزرع الكرمة ويرعاها، وفي اليوم نفسه الذي زرعها فيه أثمرت فوضع ثمارها في معصرة واستخلص العصير وشربه وسكر ولحق به الخزي.

حام يجلب على نسله اللعنة

وذهب نوح مخمورًا إلى خيمة زوجته ورآه ابنه حام هناك، وأخبر إخوته بما رآه قائلا: أول البشر لم يكن له سوى ابنين ذبح أحدهما الآخر، وهذا الرجل نوح له ثلاثة أبناء، ومع ذلك فهو يرغب في إنجاب رابع، ولم يقنع حام بهذه الكلمات القبيحة في حق أبيه، فقد أضاف إلى خطيئة عدم الاحترام الجريمة الكبرى؛ وهي محاولة بتر عرق من أبيه لمنعه من الإنجاب[223].

[222] ربما بسبب من فجاجتها الشديدة لم تفلح هذه المروية اليهودية من التسلل إلى التصور الإسلامي، فظلت قابعة بين المرويات الموضوعة كما في هذا الحديث المكذوب: "المجرة: باب من أبواب السماء، وأما قوس قزح: فأمان من الغرق بعد قوم نوح عليه السلام". انظر الحديث في "ضعيف الأدب المفرد" الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 1998م، برقم 765- ص 116. وأما عن أصل تلك التفصيلة التوراتية التلمودية في الأساطير المشرقية، فراجع إن شئت كتاب "مغامرة العقل الأولى" فراس السواح، الطبعة السابعة، دمشق، ص 193، وأيضا كتاب: "سحر الواقع"، ريتشارد داوكنز، ص 154. وربما علينا أيضًا أن نفهم من هذا لماذا لا تغيب هذه القوس أبدًا عن عالمنا المليء بالآثام!!

[223] يبدو أن مؤلف هذه القصة قد وجد العقوبة النوحية أشد كثيرًا من أن تتناسب مع فعلة حام الحمقاء، لذا فقد أضاف إليها هذه الجريمة البذيئة المسفة بأن جعله يحاول إخصاء أبيه رغم أن الأسطر المقبلة ستوحي بأنه أفلح فعلا في اقتراف تلك الجريمة! ولا ندري هل كانتا روايتين مستقلتين جمعهما المؤلف في رواية واحدة، أم أن ذلك مجرد تناقض في رواية واحدة؟!

عندما أفاق نوح من سكره وعاد لوعيه لعن ابنه حاما في شخص أصغر أولاده كنعان؛ فلم يكن يستطيع إيذاء حام؛ إذ إن الرب بارك نوحًا وأبناءه الثلاثة عند مغادرتهم السفينة؛ ولهذا فقد صب لعناته على آخر ولد من أولاد ابنه الذي منعه من إنجاب ابن أصغر من الثلاثة؛ ولهذا فإن ذرية حام من كنعان لهم أعين حمراء لأن حاما نظر إلى جسد أبيه العاري، ولهم شفاه قبيحة المنظر لأن حاما تكلم بشفتيه مع إخوته عن الحالة المزرية التي كان عليها أبوهم، ولهم شعر ملتوٍ مجعد؛ لأن حاما أدار رأسه ولواها ليرى جسد أبيه العاري، وهم يسيرون عراة لأن حاما لم يغطِّ عورة أبيه، وهكذا جوزي بما فعل؛ إذ إن الرب يجعل الجزاء من جنس العمل[224].

كان على كنعان أن يقاسي من آثار خطيئة أبيه بدلا منه، ومع ذلك فإن جزءًا من العقوبة وقع عليه بسببه هو؛ إذ إن كنعان كان هو الذي لفت انتباه حام إلى حالة نوح المزرية.

يبدو أن حاما كان الأب المناسب للابن المناسب؛ فآخر وصايا كنعان وعهوده إلى أبنائه تقول: لا تقولوا الصدق، لا تترفعوا عن السرقة، عيشوا حياة الانحلال، اكرهوا سيدكم كرهًا عظيمًا يتجاوز الحد، وأحبوا بعضكم بعضًا .

كما عوقب حام على عقوقه، كوفئ سام ويافث على تصرفهما الحسن البار المحترم؛ إذ حملا ثوبًا ووضعاه على كتفيهما، وسارا بظهريهما تجاه أبيهما وغطيا جسده العاري، وعندما سيقت ذرية حام؛ وهم المصريون والإثيوبيون عراة أسرى وطردوا إلى المنفى على يد ملك آشور، وأما ذرية سام وهم الآشوريون، فلم يهلكهم ملاك الرب في المعسكر ولم يتكشفوا وبقيت ثيابهم على أجسادهم دون أن تمسها النار[225]، وفي

[224]*قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)* إذا كان نوح التوراتي والتلمودي قد وزع بركاته ولعناته على أبنائه وأحفاده منطلقًا من حادثة الخباء البلهاء تلك، فإننا نجد صوت الله في القرآن يفعل شيئًا ما أقربه وما أبعده عن ذلك!! فهو من ناحية يقرر كسابقه تقسيم الأمم التي ستخرج من نسل نوح ومن معه بين أمم مباركة وبين أمم سيحيق بها العذاب بعد أن تمتع قليلاً في هذه الحياة الدنيا! لكنه من ناحية أخرى يضع ذلك كله على أرضية نصيبها، المقدر في علم الله، من الإيمان والكفر، لا كنبوءة وثمرة دعوة غاضبة من رجل سكير، استحسن في لحظة عابرة فعل ابنين من أبنائه، لذا فستحل البركة الأبدية على ذرياتهما، وغضب من أحد أبنائه فستنزل على ذريته، ممثلة في حفيده، اللعنة الأبدية!

[225]المقصود هو ما جاء في سفر الملوك الثاني (19-35-36) عن إماتة الرب 185 ألف جندي من جنود الملك الآشوري (سنحاريب) عند حصاره لأورشليم!! وصدق أو لا تصدق أيها القارئ العزيز بأن هذا التصديق بهذا الخبال المقيت صار حتمًا لازمًا على من يؤمن بإلهية مصدر الكتاب المقدس!

مستقبل الأيام عندما يتعرض جوج للهزيمة فإن الرب سيوفر الأكفان والمقابر له ولكل قومه ذرية يافث .

وصية نوح لأبنائه[226]

بذل نوح جهده ليغرس في عقول أبنائه وأبناء أبنائه الأوامر والتعاليم التي كان يعرفها، وقد حذرهم على وجه الخصوص من الزنا والفسوق وكل الفواحش التي جلبت على الأرض الطوفان، وحذرهم من أن يعيشوا متباعدين، ومن الغيرة إذ كان يخشى أنهم بعد موته قد يبلغ بهم الشطط إلى حد إراقة الدم البشري، وحذرهم بشدة لكيلا يتم محوهم من على وجه الأرض مثل من سبقوهم، ومن القوانين الأخرى التي فرضها عليهم ليلتزموا بها، كان ذلك القانون الذي يأمر بألا تستخدم ثمار أي شجرة في السنوات الثلاث الأولى التي تبدأ فيها طرح الثمار، وحتى في السنة الرابعة لا تكون الثمار من نصيب أحد إلا الكهنة وحدهم بعد أن يقدَّمَ جزءٌ منها على مذبح الرب، وبعدما انتهى من تعاليمه وأوامره قال لهم نوح: إذ هكذا وصى أنوش جدكم ابنه موتوشالح، ووصى بها موتوشالح ابنه لامك الذي أوصاني بكل هذا كما أمره أبوه، وها أنا الآن أوصيكم يا أبنائي بها كما أوصى بها أنوش ابنه.

نوح يقسم العالم على أبنائه الثلاثة

في عام 1569 بعد خلق العالم قسم نوح الأرض على أبنائه عن طريق القرعة، وفي حضور أحد الملائكة، ومد كلٌّ يده وأخذ ورقة من حجر نوح[227]، وكان مكتوبا في

---

[226] من بين الأنبياء جميعًا لم تذكر لنا الأحاديث النبوية شيئًا عن وصية نبي لأولاده سوى ما جاء فيها عن وصية نوح لولده كما في هذا الحديث: "عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس، قال يريد أن يضع كل فارس بن فارس، ويرفع كل راع بن راع، قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجامع جبته، وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل، ثم قال: إن نبي الله نوحًا صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر---. انظر كتاب "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" صنفه وخرج أحاديثه: إبراهيم محمدالعلى، دارالقلم دمشق، الدارالشامية بيروت، الطبعة الأولى 1995م، الحديث رقم 52. طبعًا إذا استثنينا تلك الوصية المختصرة التي أوصي بها يعقوب بنيه في القرآن وسنقف عندها في فصل يوسف.

[227] وهل عرف البشر صناعة الورق في تلك الفترة؟!

ورقة سام منتصف الأرض، وأصبح هذا الجزء ميراثًا لذريته إلى الأبد، وسُرَّ نوح لأن القرعة خصصت هذا الجزء لسام، وهكذا تحققت دعوته وهي " والرب في موطن سام"؛ إذ وقع في ممتلكاته ثلاثة أماكن مقدسة: قدس الأقداس في المعبد، وجبل سيناء، والنقطة التي تتوسط الصحراء، وجبل صهيون المنقطة التي هي سرة الأرض، ووقع الجنوب في قرعة حام، وأصبح الشمال ميراثًا ليافث، وأرض حام حارة وأرض يافث باردة، ولكن أرض سام فحرارتها باردة وساخنة معًا.

حدث هذا التقسيم للأرض قرب نهاية حياة فالج، وهو الاسم الذي سماه به أبوه عابر، الذي كان يعرف، لأنه نبي، أن تقسيم الأرض سيحدث في حياة ابنه، وكان أخو فالج يسمى يقطان لأن عمر الإنسان قصر في زمانه.

من ثم، قسم أبناء نوح الثلاثة، وهم لا يزالون في حضرة أبيهم، حصصهم، كلٌّ على أطفاله ونوح يتهددهم بأنه سيلعن كل من يمد يده ليأخذ نصيبًا لم تخصصه له القرعة، وصاحوا جميعا قائلين: حسنًا، حسنًا! ليكن كما تريد.

الانتداب الأول في التاريخ!

"والأرض التي خصصت كميراث لأبناء يعقوب الاثني عشر منحت مؤقتًا لكنعان وصيدون والحثيين واليبوسيين والأموريين والجرشاشيين والحويين والعرقيين والسينيين والأرواديين والضماريين والحمانيين، وألزمت هذه الشعوب برعاية الأرض حتى يأتي أصحابها الحقيقيون"!!

نمرود[228] يبنى برج بابل

(228)من المعروف أن شخصية نمرود جاءت على نحو مبهم في التوراة، فلا نعرف عنه سوى ما أورده سفر التكوين لبيان أبناء حام الأربعة وهم كوش ومصرايم وفوط وكنعان، ثم نعلم: "وَكُوشُ وَلَدَ نِمْرُودَ الَّذِي ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ، الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ، لِذلِكَ يُقَالُ: كَنِمْرُودَ جَبَّار صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرَكَ وَأَكَّدَ وَكَلْنَةَ، فِي أَرْضِ شِنْعَارَ" (تك 10 -8-10) هذا كل هنالك عنه!! ولكن يبدو أن كاتب السفر كان يتكلم عن شخصية معروفة في زمانه، سواء أكانت شخصية حقيقية موغلة في القدم أو شخصية أسطورية، لذا فقد نسب إليه تكوين أول مملكة في تاريخ البشر! ولا يخفى عن قارئ تلك الأسطر القليلة التي خص بها كاتب التكوين شخصية نمرود أنه كان يعده على الأرجح شخصية شريرة، فقد جعله أولا من النسل الملعون لحام، وجعله ثانيًا مؤسسًا لبابل وهى مملكة ترتبط فى الكتاب المقدس بالنظام الفاسد دينيا وأخلاقيا، لأسباب لا تخفى، بل لقد جعل منه شخصية يضرب بها المثل في التجبر كما لو كان نمرود هو أول الجبارين الجدد الذين لم يكد الله يطهر الأرض من أمثالهم بالطوفان العظيم!!

أما القصص التلمودي فقد أفاضت في تفصيل ما أجمله كاتب التكوين، وجعلت منه الأنموذج الأكمل للتجبر والطغيان والتأله والفساد الأخلاقي ومحاربة الأنبياء وجعلته خصم إبراهيم اللدود! أما عن حضور هذا الملك المتجبر في القرآن فعلى الرغم من أن القرآن لم ينص صراحة على اسمه، لكن المفسرين قد أجمعوا أو كادوا على أنه المقصود من وراء

ووصل فجور وكفر النمرود إلى الذروة في بنائه صرح بابل، وكان مستشاروه قد اقترحوا عليه خطة بناء برج كهذا فوافق النمرود[229]، وشيد البرج في شنعار

ذلك الملك الكافر الذى حاج إبراهيم في ربه، الذى ادعى قدرته على إحياء الموتى، وأفحمه إبراهيم مما حكاه عنهما القرآن في سورة البقرة (الآية 258)، ومن يعلم مقدار اعتماد الرواية القرآنية على القصص الأجادية بشان قصة إبراهيم، فلن يشك في أنه كان هو ذلك الملك التلمودي البغيض الذى حفلت المرويات التلمودية بعشرات القصص عنه!

[229](برج نمرود وصرح فرعون)

إذا كان برج بابل قد غاب تمامًا عن القرآن الكريم فلم يذكر لنا عنه شيئًا وذلك لسبب كاف معقول؛ إذ لم يكن بعد من نبوة ولا رسالة في تلك الفترة الفاصلة بين نوح وإبراهيم عدا ما ذكره القرآن عن نبيي عاد وثمود؛ لذا فليس من الغريب أن يخلو القرآن من ذكر أخبار تلك الفترة السحيقة من حياة البشر، ومع ذلك فإن هذا التفكيرالبشري المشئوم في بناء الصروح لبلوغ السماء والوصول إلى الله ظل ملمحًا راسخًا من بين أفعال الملوك الجبارين الكافرين في قصص القرآن؛ حيث نرى أن هذا الفعل ذاته يعود ليطل برأسه بعد ذلك بمدة طويلة فنراه هناك عند فرعون موسى، ونرى معه كذلك حضور مستشاري السوء حول المتجبر العتيد، والأهم من ذلك أننا نرى مع هذا المادة التي صنع منها برج بابل! وهو ما لا ينبغي أن تغيب عنا دلالته في هذا المقام؛ أي حضور تلك التفصيلة الدقيقة واتفاق القصص جميعها على مادة بناء هذا البرج الملعون!

التوراة تنص على أن النازلين بسهل شنعار قد استخدموا اللبن بدلا من الحجر في بناء برج بابل والمرويات التلمودية تفيض في هذا كما رأينا في بناء برج نمرود، والقرآن كذلك ينص بوضوح على أن البناء الذي أمر فرعون وزيره هامان بتشييده له سيكون من اللبن المطبوخ في النار، والأهم من هذا كله أن الكتابات التاريخية التي جاءت لتصف لنا البناء الحقيقي الذي كان أساس تلك الخرافات كلها كانت تقول أيضًا بأن ذلك البرج كان مصنوعا من اللبن!

ولننظر في قصة القرآن: *وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين* (38) سورة القصص، *وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذبا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّعَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)* سورة غافر.

هذه هي الآيات التي جاءت في القرآن عن صرح فرعون، ونحن لا نعلم من القرآن ولا من الأحاديث شيئًا عن مصير هذا البناء، فلا ندري هل كانت مجرد فكرة خامرت عقل فرعون بشكل جدي وقام بتنفيذها أم كانت مجرد كلمة ساخرة قالها الفرعون المتجبر مستهزئًا بإله موسى؟! وهذا الأخير هو ما نرجحه، وسواء أكان هذا أم ذاك، فكل ما يعنينا هنا هو أن نشير إلى حضور معالم تلك القصة القديمة على نحوٍ ما في ثقافة النبي، وأنها كانت كما نعتقد من خلف تلك القصة القرآنية، بل إننا نجد بعض المفسرين يكادون يجعلون صرح فرعون هو ذاته صرح نمرود القديم كما جاء في المرويات التلمودية (فيروى أنه طَبَخَ الآجُرَّ لهذا الصَّرْحِ، ولم يُطْبَخْ قبْلَهُ، وبناه ارتفاعَ أربعمائةِ ذراعٍ، فبعثَ اللهُ جِبْرِيلَ فَمَسَحَهُ بجَنَاحِه، فكسَرَهُ ثَلاَثَ كِسَرٍ، تَفَرَّقَتِ اثنتانِ، ووَقَعَتْ ثالثة في البحر"، راجع: ج5، ص115 من تفسير الثعالبي المسمى الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الأولى - 1418 هـ. والطبري ج19، ص 580 .

أغلب الظن أن قصة برج، صرح فرعون يرجع أصلها إلى مروية تلمودية شاعت في زمان النبي بين يهود العرب، وكما كانت تلك المرويات التلمودية تعود بأصلها إلى قصة برج بابل في التكوين فإن قصة سفرالتكوين ذاتها إنما تعتمد اعتمادا مباشرا على ما صرنا نعرفه الآن عن ذلك البرج البابلي المهيب الذي يقول عنه المؤرخون إنه: "شيد في العصر البابلي الحديث على أسس قديمة بعد أن تعرض للتخريب ربما على يد سنحاريب في أثناء غزوه لبابل، فأعاد تجديده الملك نبوبلاصر، وأكمله بشكله النهائي ابنه الملك الشهير نبوخذ نصر؛ حيث كان برج بابل يحتل أرضًا فسيحة تتوسط مدينة بابل القديمة (على الضفة الشرقية للفرات) الذي كان يتكون من سبع طبقات يساوي ارتفاعها طول ضلع قاعدتها المربعة والذي كان ذا تأثير كبير فيما يبدو في مخيلة العبرانيين وكتبة العهد القديم (فلا غرابة إذن أن يصبح هذا البرج الضخم الذي يزيد ارتفاعه على واحد وتسعين مترًا مثارًا لإعجاب الناس على مر العصور ومن بينهم العبرانيون الذين جيء بهم أسرى إلى مدينة بابل زمن الملك نبوخذ نصر الثاني الذي شهدت مدينة بابل في عصره وعصر أبيه نبوبلاصر أوسع حركة عمرانية في تاريخها القديم" (من سومر إلى التوراة ص 231).

مجموعة من ستمائة ألف رجل[230]، ولم يكن ذلك المشروع إلا تمردًا على الرب، وكان هناك ثلاثة أصناف من المتمردين بين البنائين، فقال الصنف الأول: لنصعد إلى السماء

ويرى بعض الباحثين أن هذا البرج ربما كان هو أساس ما جاء في سفر أشعياء (14-13-14) حيث ترد الإشارة إلى عرش أو كرسي شامخ في السماء صنعه ملك بابلي لنفسه ليرقي به العلى: "وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السماوات أرفع كرسيي فوق كوكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال. اصعد فوق مرتفعات السحاب أصير مثل العلي"، وكذا سلم السماء الذي رآه يعقوب في حلمه؛ حيث رأى: "سلم منصوبة في الأرض ورأسها يمس السماء وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها وهوذا الرب واقف عليها" (تك- 28-11-13).

وهذا الذي افترضه الباحثون هو في الحقيقة أمر ممكن ومعقول، ويمكن أن نضيف من جانبنا أنه ربما كان ذلك البرج - الصرح الذي عزا القرآن أمر تشييده إلى هامان بتكليف من مولاه فرعون مصر زمن موسى لكي يصعد عبره إلى السماء فيطلع إلى إله موسى إلخ.. نقول: ربما كان أساسه منقولا من قصة تلمودية ضائعة منح مؤلفها ما جاء في إشعياء منسوبا إلى ملك بابلي حقيقي أو متوهم، لكنه عزاه بدلا من ذلك إلى فرعون مصر؛ لما يجمع بينهما من صفات العتو والتجبر والطغيان، ومما يقوي هذه الصلة المفترضة هو وجود اسم هامان في القصة القرآنية، الذي يعكس ربما اسم وزير آخر كان يعمل في خدمة عاهل بابلي لكن كاتب القصة التلمودية المفترضة جعله وزيرًا الفرعون مصر زمن موسى!

وهذه النقلات التي نقترحها تبدو لنا منطقية متماسكة، ففي البدء نجد بناء حقيقيا مهيبا شارك العبرانيون في صنعه؛ ثم نجد بعد ذلك أسطورة توراتية أسست على ملامح هذا البناء الجليل، لكنها تستخدم بعض مفردات قصته لأغراضها الخاصة من بلبلة الألسن وافتراق البشر إلخ، ثم نجد المرويات التلمودية مثل التي معنا تفيض في أمرهذا البنيان ذلك لتصل إلى هذا الهذيان الكريه، وأخيرًا يطل هذا البناء ذاته من نصوص القرآن مشتملا على تلك اللبنات المتنافرة، التي جمعت في قصة واحدة بين عاهل مصري ومستشار فارسي وبناء بابلي، لتدلنا على تاريخ تلك القصة وتقلبها الطويل في الزمان وفي المكان!

[230] لانعرف في الحقيقة سر ولع كتبة التوراة ومؤلفي القصص التلمودية من بعدهم برقم (ستمائة ألف) هذا؟!! لأننا نجد أن هذا الرقم بعينه يتكرر بشكل لافت كلما أراد الكاتب الإشارة إلى ضخامة العدد؛ حيث نجد أولا أن عدد الخارجين مع موسى كانوا ستمائة ألف رجل! "فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ إِلى سُكُّوتَ، نَحْوَ سِتِّمِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ" (خروج 12: 37)، ثم وكما تعلم فقد أفنى الله هذا الجيل الشرير كله عدا رجلين هما (كالب بن يفنة) و(يشوع بن نون)، ثم بعد ذلك نجد أن عدد الجيل الجديد المطهر من آثام الآباء الذي سيدخل الأرض المباركة كا نتقريبًا هو العدد ذاته! "لِكُلِّ مَنِ اجْتَازَ إِلى الْمَعْدُودِينَ مِن ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، لِسِتِّمِئَةِ أَلْفٍ وَثَلاَثَةِ آلاَفٍ وَخَمْسِمِئَةٍ وَخَمْسِينَ" (خروج 38:26)، "هؤُلاَءِ هُمُ الْمَعْدُودُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ. جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنَ الْمَحَلاَّتِ بِأَجْنَادِهِمْ سِتُّمِئَةِ أَلْفٍ وَثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِئَةٍ وَخَمْسُونَ" (سفرالعدد 2 :32). ورغم أننا لا ندري سر اختيار هذا الرقم بالذات دون سواه من بين الأرقام كلها، لكنه كما ترى رقم هائل مفزع يصلح في المواضع كلها لبيان ما يريده الكاتب من تأكيد ضخامة العدد سواء أكان عدد المشاركين في هذا البناء الملعون أو كان عدد الخارجين مع موسى، وهي بلا ريب أرقام خرافية كاذبة، إلا إذا كنت تعتقد أن بضعا وسبعين رجلا وامرأة يمكن أن يصيروا في خلال قرنين إلى تلك الملايين رغم قسوة التسخير والإرهاق، بل رغم قتل الأطفال! بل إننا نشك في أن عدد المصريين أنفسهم قد اقترب في تلك الأزمنة من هذا الرقم!

أما كاتب سفر الأيام الأول فقد ذهب أبعد من ذلك عند ذكره للإحصاء المشئوم الذي تم في عهد الملك داود، فقد زعم أن عدد الرجال القادرين على الحرب في عهد داود كان مليونا ومائة ألف رجل! "فَدَفَعَ يُوآبُ جُمْلَةَ عَدَدِ الشَّعْبِ إِلى دَاوُدَ، فَكَانَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِئَةَ أَلْفِ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، وَيَهُوذَا أَرْبَعَمِئَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ،وَأَمَّا لاَوِي وَبَنْيَامِينُ فَلَمْ يَعُدَّهُمْ مَعَهُمْ لأَنَّ كَلاَمَ الْمَلِكِ كَانَ مَكْرُوهًا لَدَى يُوآبَ "(سفرأخبارالأيام الأول21: 5)، ونجد في صم 2 نقرأ 800000 لإسرائيل، 500000 ليهوذا، "فَدَفَعَ يُوآبُ جُمْلَةَ عَدَدِ الشَّعْبِ إِلى الْمَلِكِ، فَكَانَ إِسْرَائِيلُ ثَمَانَمِئَةَ أَلْفِ رَجُل ذِي بَأْسٍ مُسْتَلِّ السَّيْفِ، وَرِجَالُ يَهُوذَ اخَمْسَمِئَةِ أَلْفِ رَجُل" (صم 2- 23- 9)، فهل تصدق أيها القارئ الكريم أن ملكًا صغيرًا كداود كان يملك مليونًا ونصف المليون رجل؟! ولو صح هذا الرقم، وما نراه صحيحا أو قريبًا من الصحيح، لكان عدد العبرانيين زمن الملك داود أكبرمن عدد سكان دولة إسرائيل في الوقت الحاضر! فهل هذا معقول؟!! فإذا صدقنا أن عدد الرجال كان يبلغ مليونا ونصف المليون ومثله للنساء وضعفهما للأطفال فلربما يصل العدد الإجمالي إلى نحو عشرة ملايين وهو رقم خرافي هائل، ربما كان يربو على عدد سكان إمبراطوريتين كاملتين من إمبراطوريات العالم القديم!

ونحاربه (أي الرب)، فيما قال الصنف الثاني لنصعد إلى السماء وننصب أصنامنا ونعبدها هناك، وقال الثالث: لنصعد إلى السماء ونهلكهم (أي من في السماء) بأقواسنا وحرابنا. واستغرق بناء الصرح سنوات طويلة جدا جدا، وقد بلغ من ارتفاعه أن الوصول إلى قمته كان يستغرق عاما من الصعود. ولذا، فقد كانت القرميدة الواحدة في نظر البنائين أنفس من أي إنسان، فإذا سقط أحد الرجال ولقى حتفه لا يلقى إليه أحد بالا، ولكن لو سقطت قرميدة بكوا لأن استبدال أخرى بها سيستغرق عاما، وكانوا من العزم على إتمام غرضهم أنهم ما كانوا ليأذنوا لأ يامرأة بالتوقف عن عملها إذا حانت ساعة ولادتها، ولذا فهي تلد طفلها وهي تضع القرميد على القالب، وتربط وليدها حول بطنها بنطاق وتواصل صنع القرميد.

لم يبطئوا في صنع عملهم قط، وكانوا، من ذلك الارتفاع الذي يصيب بالدوار، يقذفون السماء باستمرار بسهامهم التي كانت ترتد إليهم فيرونها مغطاة بالدماء، وهكذا ازدادوا ضلالة وصرخوا قائلين: لقد قتلنا كل من في السماء[231]، وعندها التفت الرب

فهل كانت تلك الأرض القاحلة تستطيع أن تستوعب كل هذه الأعداد الخرافية؟! الحقائق الجغرافية تقول بأن تلك المنطقة: "وإن عدت الأماكن المروية في بعض الأيام (أرضًا جميلة)، وأرضًا (تدر لبنًا حليبًا وعسلاً) فإن المعيشة ظلت فيها قليلة الاستقرار، ولم يكن في إمكانها أن تغذي عددًا كبيرًا من السكان، ويبدو أن هذا العدد لم يتجاوز مليون نسمة على عهد الكتاب المقدس. فأورشليم والسامرة وهما أكبر المدن لم يتجاوز عدد سكانهما الثلاثين ألفًا، ولم تكن سائر المدن سوى قرى محصنة وكان باقي السكان يقيمون في مزارع مجمعة حول عيون الماء" انظر مقدمة الكتاب المقدس الترجمة اليسوعية، ص 41. ومن يقرأ ما ذكره المؤرخون عن أعداد الجيوش المتحاربة بين المصريين والحثيين أو في الحروب البونية، أو صراع الإسكندر مع الإمبراطورية الفارسية أو في حروب روما نفسها، فلن يجد أمثال تلك الأعداد الهائلة أبدا.

(231)مما يدل على معرفة النبي بتلك القصة عن برج بابل أننا سنجده يستخدم هذه التفصيلة عينها في سياق الأخرويات؛ حيث سيفتن الله أهل يأجوج ومأجوج بأن يوهمهم أنهم أصابوا (أهل السماء) بأن ترجع اليهم سهامهم وحرابهم مخضبة بالدماء! مثلما جاء في هذا الحديث: "تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: {مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا حتى إن من يمر من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء! ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مختضبة دما للبلاء والفتنة؛ فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ فيتجرد رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم مرعى إلا لحومهم فتشكر عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط"،انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني برقم (2973)، وانظره أيضا في السلسلة الصحيحة برقم (1793).

إلى الملائكة السبعين المحيطين بعرشه وتكلم قائلا: هيا لننزل ونربك لغتهم فلا يفهم أحدهم كلام الآخر.

وهكذا كان، فمن ساعتها لم يعرف أحد ما يقوله الآخر؛ فعندما يطلب أحدهم كسارة يناوله الآخر قرميدة؛ فيشتاط الأول غضبًا ويقذف صاحبه بالقرميدة فيقتله فهلك الكثيرون بهذه الطريقة.

وعوقب الباقون كل حسب طبيعة تمرده؛ فمن قالوا لنصعد إلى السماء، وننصب أصنامنا فيها ونعبدها هناك مسخهم الرب قردة وأشباحًا، ومن اقترحوا الهجوم على السماء بأسلحتهم جعل الرب بأسهم بينهم شديدًا فانطلقوا يحارب بعضهم بعضًا، ومن قرروا أن يحاربوا الرب في السماء قطعوا في الأرض أممًا[232]، وأما البرج الذي لم يكتمل فقد غاص منه جزء في الأرض والتهمت النار الجزء الآخر، ولم يبق منه منتصبًا إلا ثلثه، ولم يفقد الصرح سمته المميزة قط، فالذي يمر به ينسى كل ما يعرفه، والعقوبة التي نزلت بالجيل الخاطئ الذي بنى الصرح كانت رحيمة نسبيا، فبسبب السلب والنهب دُمِّر جيل الطوفان تمامًا فيما حوفظ على جيل الصرح، وسبب ذلك أن الرب يحب السلام بين الناس، ولهذا فإن جيل الطوفان الذين استسلموا للسلب والنهب وكرهوا بعضهم بعضًا قُضي عليهم تمامًا واجتثوا من جذورهم، فيما نجا جيل صرح بابل الذين كانوا يعيشون في وئام ويحب أحدهم الآخر بحياتهم أو على الأقل من تبقى منهم.

بالإضافة إلى معاقبة الخطيئة والمخطئين بإرباك كلامهم فقد حدث شيء آخر جدير بالذكر مع نزول الرب إلى الأرض، وهي مرة من المرات العشر فقط التي سينزل الرب فيها بهذه الطريقة إلى الأرض منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة.

[232] يغلب على ظننا أن النبي عليه السلام كان على علم أيضا بتلك العقوبات الثلاث التي أنزلها الله بجيل الصرح؛ لأننا نجد هذه العقوبات الثلاث، هي بذاتها، من بين أظهر العقوبات التي أنزلها الله بالمتمردين عليه من بنى إسرائيل، فنجد مثلاً عن مسخ البشر إلى قردة كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) البقرة، فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ 166} الأعراف.

وعن تشريدهم وتفريقهم في منافي الأرض جاءت هذه الآية: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)} سورة الأعراف.

وعن إلقاء البأس بينهم وتناحرهم فيما بينهم جاءت هذه الآية: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ 14} سورة الحشر.

في هذه المناسبة أجرى الرب والملائكة السبعون المحيطون بعرشه قرعةً بشأن الشعوب المختلفة، واستلم كل ملك شعبًا ووقع إسرائيل في قرعة الرب، وخصصت لكل شعب لغة وادخرت العبرية لإسرائيل، وهي اللغة التي استخدمها الرب عند خلق العالم.

خاتمة

لسنا بحاجة إلى بيان ما أفادته تلك القصص التلمودية الشارحة لقصة التوراة عن خلق العالم، وعن تاريخ البشر منذ أن خلق الله الإنسان الأول قبل نحو ستة آلاف سنة على أقصى تقدير، وحتى قبيل زمن إبراهيم فليست هذه القصص توراتية كانت أم تلمودية كما رأينا سوى خليط غير منسجم من أساطير الخلق التي اقتبسها العبرانيون من جيرانهم ومن مستعبديهم ومن محرريهم، ولا يمكن لأي عاقل في زماننا أن يأخذها، ولو بوصفها قصصا حقيقية رواها بشر كانوا يعرفون شيئًا أكثر من غيرهم في تلك الأزمنة القديمة، فضلا عن أن يعتقد في كونها قصصا ذات مصدر إلهي فقد بات ذاك الاعتقاد المحزن من مخلفات الماضي الذي ولى وانقضى إلى غير رجعة.

لكن يكفينا نحن منها هنا أنها فصلت لنا أصل الشياطين وأسباب سقوطهم، وهو ما صمتت عنه الرواية التوراتية، وأفادتنا كذلك عما كان في عقل كاتب التكوين عن زواج الملائكة ببنات البشر، وشرحت لنا أيضًا لماذا حدث الطوفان، وعلمنا منها بأي يسر جرت به وقائع ذلك الطوفان العظيم.

رأينا كذلك كيف لم يدر بخلد كاتب التوراة ولا مؤلفي تلك القصص أي إشكالات يمكن أن يثيرها القول بطوفان كوني يطيح بالأحياء جميعًا، ثم يجعل من تلك السفينة حاملة لبذور الخليقة الحية جميعًا طائرة وزاحفة، نافعة وضارة، عاشبة ولاحمة، هائلة الخلقة أم دقيقة الحجم!

لكن الرواية التوراتية ستظل رغم ذلك تعد وثيقة بالغة النفاسة والأهمية عن تصور العبرانيين القدامى عن الله وعن الخلق والأحياء، وستظل أنموذجا حيا يترجم عن التفاعل الحي والتلاقح الثقافي بين المجموعات البشرية في تلك الفترة التي كتبت فيها تلك النصوص، لذا فلا ينبغي أن تدرس إلا من هذا الجانب وهو ما يفعله الباحثون الجادون منذ قرابة القرنين من الزمان على كل حال.

هذا عن التوراة، وأما عن القرآن فلقد كانت تلك القصص أيضا مصدرا أساسيا من مصادر النبي محمد في استلهامه لوحي القرآن؛ فقد اعتمد على أمثال تلك القصص إلى حد بعيد في تشكيل تصوره عن نظرية الخلق كما رأينا عند خلق الله لمفردات العالم من السماء والأرض والنجوم، ومن استشارة الله للملائكة قبل أن يخلق الإنسان الأول، ومن خلقه الإنسان بيديه وتعليمه الأسماء، ومن دعوته للملائكة أن تسجد لهذا الإنسان

الذي سينهض بتجربة الله في الأرض، وكذا علمنا قصة الشيطان، وقصة تلك العداوة الأبدية بينه وبين البشر إلى آخر تلك المعالم التي انفردت بها الرواية القرآنية، واعتمد القرآن كذلك على كثير من مفرداتها التلمودية بشكل خاص في بناء تصوره عن تاريخ الجماعة البشرية ومسيرتها في قصصه عن الأنبياء الأقدمين.

لذا، فمن ينظر في ما أوردناه من تعقيبات ترصد بعض المشترك الجامع بين التصور القرآني والتلمودي في قصة نوح فسيرى أن النبي محمد قد صنع قالبه الأول عن الأنبياء من صورة نوح التلمودي، وليس من سابقه التوراتي؛ حيث وجدناه فيها نبيا يرسله الله إلى قومه بعد أن هجروا عقيدة التوحيد الأولى وعبدوا الأصنام بمكيدة من الشيطان، ونراه يتجلى نبيا مشفقا يدعو قومه إلى التوبة والإنابة إلى الله، ولكن عندما أصروا على كفرهم أرسل الله عليهم هذا الطوفان العارم الذي دمر الله به الخليقة البشرية والأحياء جميعًا إلا ما حوته سفينة نوح من بشر ومن حيوان، وإليهما يرجع جميع البشر والأحياء جميعا.

فلننظر إذن في قصة نوح القرآني لنرى كيف صاغه النبي محمد مستعينا بتلك اللبنات التلمودية القليلة ليجعل منه في النهاية نبيا يتشابه في ملامحه مع جميع الأنبياء عبر التاريخ الرسالي كله؛ لأن ملامحهم جميعًا لم تكن في النهاية سوى ملامح وجهه هو دون سواه من الأنبياء والمرسلين.

المبحث الثالث
من آدم إلى نوح في القرآن الكريم

أولا: من آدم إلى نوح في القرآن الكريم.

ثانيا: قصة نوح كما جاءت في القرآن الكريم

ثالثا: الطوفان في القرآن الكريم

رابعا: هل كان الطوفان القرآني عاما؟

خامسا: المفردات الإسلامية في قصة نوح

سادسا: سورة نوح - التقرير الأخير!

أولا: من آدم إلى نوح في القرآن الكريم.

(1)

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ (آل عِمۡرَان33-34).

لا خلاف بين المسلمين[233]، بل بين أهل الكتاب جميعًا، على أن آدم كان أول مخلوق إنساني خلقه الله بيديه، وهو أبو الجنس البشري كله، ومنه ومن زوجه خلق الله جميع البشر الذين عمروا الأرض من بعده تحقيقا لمفهوم الاستخلاف في الأرض الذي قرره القرآن بشأن علاقة الإنسان بالعالم والأشياء من حوله، فكما كان آدم في المنظور القرآني هو الإنسان الأول، فقد كان أيضًا هو النبي الأول المخاطب بالشريعة والتكليف الإلهيين؛ لذا نجد القرآن الكريم يذكر اسم آدم كأول المصطفين من الأنبياء وجعل منه الرسول في الأحاديث الصحيحة نبيا معلما مكلما بعثه الله لبنيه وأحفاده بالدين الحق.

جاءت قصة آدم، كأغلب قصص الأنبياء، موزعة بين سور القرآن الكريم، ولكنها جاءت في أغلب تلك المواضع خطابًا من الله لآدم نفسه أو إخبارًا عن بعض ما جرى له

[233]اتفق الجميع على هذا إلا شخصًا واحدًا خرج علينا بتلك العجيبة المدهشة، وهو الشيخ الدكتور: عبد الصبور شاهين في كتابه (أبي آدم)، حيث قدم اجتهادًا غاية في الضعف، اعتمد في مناقشة قضية التطور في القرآن على دلالة حروف العطف! وهو كتاب لا يستحق أن يلتفت إليه.

من قصة خلقه وتعليمه الأسماء ومن دعوة الله الملائكة للسجود له وما كان، أيضا، من رفض الشيطان السجود له وطرده من الجنة وإنظاره إلى يوم البعث، وكذلك قصة فتنته بالشجرة المحرمة ونهيه عن الأكل منها، وما كان من مخالفة آدم للأمر الإلهي وإهباطه وزوجه إلى الأرض، فقصة آدم على هذا هي قصة خلق بامتياز، فهي لا تعني به كذات أو كشخص بقدر ما تذكر من خلال قصته عقيدة القرآن في الخلق ومعالمها، كما سنرى فيما بعد، لكن ما يهمنا هنا هو أن نقدم نبذة مختصرة عن التصور القرآني لعقائد أهل تلك الفترة الفاصلة بين آدم ونوح وهو ما تعبر عنه هذه الآيات وأمثالها: *وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩* (يُونُس: 19). *كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣* (البَقَرَة: 213).

إذا تجاوزنا يسير اختلاف المفسرين على دلالة كلمة (واحدة)؛ لأنه سواء أكانت هذه الأمة (واحدة) في الإيمان أول الأمر، أو صارت (واحدة) في الكفر حين ابتدأ الله في إرسال الرسل إلى أهل الأرض حين عم الشرك العالم أو كاد، فالذي لا شك فيه عند جميع المفسرين هو أن تلك الأمة الواحدة كانت في بدء أمرها أمة موحدة مسلمة، ثم طرأ عليها بعد ذلك الشرك والكفر وهو ما يعبر عنه ابن كثير بقوله: "لأن الناس كانوا على ملة آدم، عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا، عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض [234]".

إذن، فبعد أن أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض، وأنشأ من ذريته أمة مسلمة لله، فكانت تلك الأمة الربانية الأولى على التوحيد الخالص، وستظل استعادة تلك الأمة المؤمنة التي يقر جميع أفرادها بالله ربًّا للعالم جزءًا أساسيًّا من أغراض الرسالات

(234) "تفسير القرآن العظيم" ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999، ج1، ص 569.

الإلهية جميعًا، ومقصدًا من أهم مقاصدها في جميع العصور، وهذا ليس بالمستغرب في شيء ما دام المقصد الأساسي من إنشاء الخليقة ذاتها وفق التصور القرآني هو التعرف إلى الله وعبادته كما عبرت عنه هذه الآية: *وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦* الذَّارِيَات، ولقد جاءتنا الأحاديث النبوية الصحيحة كذلك بما يفسر معنى هذه الأمة الواحدة وعقيدتها في الله وزمنها أيضًا كما في هذا الحديث: "عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين(235)".

(2)
ابنـا آدم

لم يكن إسلام البشر وجوههم لله واعترافهم بوحدانيته، أو وفق التعبير القرآنى إسلامهم، ليحول بينهم وبين ارتكاب الموبقات، والوقوع في الخطايا والذنوب، ومن بين أحداث تلك الفترة كلها لم يحكِ لنا القرآن سوى قصة واحدة فقط، وقد كانت عن أول جريمة قتل على وجه الأرض:* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ

(235)أخرجه الحاكم ج2، 546 -547، وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، انظر: "الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" صنفه وخرج أحاديثه إبراهيم محمد العلى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى 1995م، رقم (47).

نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢* (المَائدَة: 27–32).

من الواضح أن هذه القصة لم تأت استكمالا لقصة آدم وزوجه على الأرض، فلم يعد القرآن لذكر آدم وزوجه بعد إهباطهما إلى الأرض قط، بل جاءت هذه القصة في سورة من أواخر سور القرآن؛ لكي توصل لشرعة القصاص، ولتقرر عظيم حرمة الأنفس والدماء، ولا يعنينا من تلك القصة القرآنية المتأخرة إلا ما تشتمل عليه من بيان عقيدة البشر الأولين، واستخلاص ذلك من بين ما جاءت أساسًا لتقريره من الشرائع والأحكام، وأما القصة ذاتها فقد رأينا أصلها في المرويات التلمودية.

ففي مقابل القصة التوراتية التي جاءت أساسًا للتعبير عن ولع كاتب التوراة بتأصيل خط التفضيل الإلهي الذي سيمتد عبر السلالات البشرية كلها؛ أي من آدم إلى المسيح؛ حيث نجد في ذرية آدم تفضيلا لأبناء شيث على أولاد قايين الذين سيغرقهم الطوفان جميعا، وفي نسل نوح سنجد تفضيلا لابنه سام على أخويه، ومن نسل إبراهيم سنجد تفضيلا لإسحاق على إسماعيل[236]، ومن نسل إسحاق سنجد تفضيلا ليعقوب على عيسو، ومن بين أولاد يعقوب سيأتي نسل يهوذا ليكون هو النسل المفضل والمختار؛ إذ

[236] أما عن إغفال التوراة لأبناء إبراهيم الستة: "زمران، يقشان، مدان، مديان، يشياق، شوحا" من زوجته أو سريته (قطورة) فيغلب على ظننا أن قصة اتخاذ إبراهيم قطورة زوجة له بعد موت سارة، ونسبة كل هذا النسل إلى إبراهيم إنما هي إضافة متأخرة ألحقت على عجل وعلى اختصار شديد لإيجاد صلة بين القبائل العبرانية وبعض القبائل العربية التي عاشت في شمال الجزيرة العربية وقت تدوين التوراة، التي زعم كاتب التكوين أنها تنحدر أيضا من نسل إبراهيم!! لذا فلم يجد كاتب تلك الإضافة المبتسرة أي ضرورة لكي يخبرنا بشيء عن هوية تلك الزوجة فلم نعرف عنها سوى اسمها (قطورة)، أما عدا ذلك فلا شيء! فلم نعرف مثلا إلى أي أصل تنتمي؟ ولا من أين جاءت؟ ولا كيف كانت علاقة إسماعيل أو إسحاق بإخوتهما الستة المزعومين هؤلاء؟ بل، إننا لا نعرف تحديدًا متي تزوجها إبراهيم؟ وهل كانت تلك الزيجة المتأخرة بعد موت سارة مباشرة أم بعد زواج إسحاق؟ بل إننا لا نعرف أعمار أبناء إبراهيم من تلك الزوجة المزعومة إلخ، وفي كل الأحوال فلم يكن عمر إبراهيم وقت زواجه الثالث والأخير هذا بعيدا عن 140 سنة!!؟ ومن يدري فلعل إبراهيم كانت له جوارٍ أخريات لأن النص يقول (اللواتي)!! ولسنا بحاجة إلى القول إن إرجاع عدد كبير من القبائل والشعوب إلى أب واحد، إنما هو خرافة سخيفة لا أكثرولا أقل! أما عن علاقة إبراهيم بأبنائه عدا إسحاق، فهي بلا ريب علاقة يصح أن تعدها البشرية مضرب الأمثال في الشفقة الإنسانية والعدالة الأبوية! فمن المعلوم أن إبراهيم قد خص ابنه الأثير إسحاق بكل ما كان له، وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حي.

من نسله سيأتي داود، ومن نسل داود سيأتي الملك سليمان لكي يظهر من نسله المسيح اليهودي المنتظر تتويجًا لهذا الاصطفاء السلالي كله!

لكننا نجد القرآن لا يشتمل على شيء من هذا كله، بل يجعل من تلك الحادثة الجنائية الباكرة مجالا لإبراز معالم العقيدة الإسلامية، ومن ذلك مثلا أن الله لا يتقبل سوى أفعال البر الصادرة عن القلب التقى النقي، وإلا فالله غني عن الناس جميعًا، وما أفعال النسك والقربات كلها إلا لنفع من يقدمها على ما جاء في هذه الآية وسواها *لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧* (الحج: 37)، وكذا هذا الحديث: "لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل[237]"، ونجد كذلك أن القتيل الصالح لا يقبضه عن قتل أخيه إلا خوفه من الله وخشيته منه، والله عند هذا الأخ الصالح هو (رب العالمين)، وهنا نجد أيضا عقيدة قرآنية خالصة عن حمل القاتل وزر المقتول وإثمه كما يقول بهذا الحديث السابق، وأن (النار) هي عقوبة للظالمين، ثم تأتي الآية الأخيرة لتقرر وحدة النفس الإنسانية، وعظيم حرمتها، وأن من يجترئ على إزهاق نفس واحدة فهو كمن قتل الخليقة الإنسانية بأسرها، وهو كما ترى معنى بالغ السمو والرفعة كما قرر ذلك التلمود من قبل؛ إذ إن معنى هذه الآية من نصوصه[238] ولكن القرآن يوافقه وحسنا فعل على تقرير هذا المعنى النفيس.

إذن، هذا كل ما لدينا من أخبار تلك الفترة الذهبية، وما لدينا على قلته كافٍ لبيان حال تلك الأمة الموحدة، التي وجد فيها كما يقول بعض المفسرين أنبياء يناجون ويصطفون مثل النبي إدريس، وإن جعله بعض المفسرين من بين أنبياء بنى إسرائيل المتأخرين، وسواء أكان إدريس من أنبياء تلك الفترة أو بعث بعدها، فالشيء المحقق أنه ما من رسائل بعد من الله إلى الناس، فلم يحن وقت ذلك بعد؛ إذ سيظهر ذلك مع نوح بعد عدة قرون قليلة.

[237] انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم 2577.

[238] "كل إنسان يصون نفسا بشرية واحدة ينظر إليه كأنه صان العالم كله" (التلمود البابلي، المجلد الأول، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، الطبعة الأولى 2011م، ص 139) وإن كان يغلب على ظننا أن المراد بالنفس البشرية في التلمود إنما هي النفس اليهودية خاصة، وهو ما سوف يتابعه القرآن من تعظيم حرمة النفس المؤمنة خاصة! فليس الحديث في تلك الكتب السماوية عن مطلق الإنسان، بل عن (القريب) كما في الأناجيل وعن إخوة الدين كما في الإسلام!

(3)
متى دخل الشرك العالم؟

لا نعلم يقينًا متى دخلت العقيدة الشركية العالم لأول مرة وعبدت البشرية الأصنام من دون الله، ولكن يبدو أن ذلك قد حدث بعد مدة يسيرة من نزول آدم وزوجه إلى الأرض كما يفهم من ظلال هذه الآيات التي تثير حيرة قارئها:*هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾* (الأَعْرَاف: 189–195).

هذه الآيات من أبكر إشكالات لغة القرآن؛ إذ حار في تفسير معناها المفسرون قدماء ومحدثين؛ حيث لم يستقم عندهم أن يكون المعنى الظاهر هو المقصود؛ أي ما تشير إليه من تورط آدم وزوجه في خطيئة الإشراك بالله، فهذا مما لا يتصور وقوعه بالطبع من نبي مكلم، ومن ناحية أخرى فعود الضمير في قوله (ربهما، آتاهما، جعلا، دَعَوَا) لا يسهل معه قبول رأي من يرى منهم أن الخطاب عائد إلى الزوجين، أي إلى الذكور والإناث من أبناء آدم وزوجه، ولا يقبل كذلك القول بأن الخطاب على تلك الصورة يتوجه مباشرة إلى مشركي العرب، ولا يساغ أيضًا حمله على وقوع آدم وزوجه في الشرك الأصغر كما ذهب بعض المفسرين؛ أي من اتخاذ التمائم، أو منح الأبناء تسمية شركية، وما إلى ذلك؛ لأن الآيات التي تعقبها جاءت لتقرر بوضوح ناصع معنى

الشرك الذي جاءت الآيات لهدمه ومحاربته، فلا يعقل أن يكون الالتفات عنه قد جاء لمعنى مغاير له[239]!

لعل هذا من إشكاليات التعبير القرآني الناتجة من تقافز المعنى في العقل النبوي لحظة الإلهام والانفعال الشعوري الشديدين للنبي عليه السلام حين تلقيه وحي القرآن، وانبجاسه من عمقه العميق في ذاته الشريفة؛ فالقصة تأتي هنا لتأصيل الشرك في العالم، والغرض منها هو تبكيت أهل مكة ومن حولها من المشركين الضالين على مقابلتهم النعم الإلهية بالإشراك بالله، ونسبة الفضل إلى غيره. وإذا قبلنا بأن هذا مجرد التباس تعبيري بالغ الندرة في هذا الكتاب المبين، وأن المقصود دون شك بحكم دلالة العشرات من نصوص القرآن هو اتجاه الخطاب إلى أهل مكة وغيرهم من المشركين لأمكننا أن نتجاوز عن هذه الهنة اللفظية أو الالتباس التعبيري[240]، ونمضي مع المضمون

---

(239)ساق البغوي أقوال المفسرين وما جاءوا به من أحاديث يرفعونها إلى النبي التي تقول إبأن آدم وزوجه قد غرهما الشيطان، وجعلهما يسميان أحد أبنائهما تسمية تحمل معنى الاحتماء بالشيطان إلخ،، ليعود البغوي فيقول لنا: "أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: (فتعالى الله عما يشركون)، ثم قال: فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس"، انظر: ج3، ص 321 من تفسيرالبغوي، تحقيق محمدعبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 1997 م.

(240)هناك مثال آخر ربما يحوي مثل هذا الالتباس التعبيري وهو قول القرآن الكريم عليى لسان موسى (وجعلكم ملوكًا) فيما حكته عنه هذه الآيات: *وَإذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَاتَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوامِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)* سورة المائدة.

فكما ترى فقد أورد القرآن الكريم هذه الجملة على لسان موسى معددًا لقومه ما أنعم الله به عليهم ذاكرًا من بينها أنعمًا ثلاثًا أولاها أنه (جعل فيكم أنبياء)، وليس من خلاف على ذلك، فقد اتفقت الكتب الثلاثة المقدسة جميعًا على اختصاص هذا الشعب بتلك المزية من دون بقية الناس! وثالثتها أنه (آتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين)، ويمكننا إلى حد ما أن نقبل ما قدمه المفسرون في شرحها؛ أي ما أعطاهم الله في البرية من المن والسلوى وتفجير الماء من الصخر وما إلى ذلك، وإن كنا نرى أن المراد في قوله (وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) هو اختصاصهم بالنبوة والكتاب، ولكن لما جاء صدر الآية بالنبوة وفضلها فقد ظنوا أن النعمة الثالثة لا بد من أن تكون شيئًا غير الأولى، ولكن القرآن في غير موضع يأتي بهذا المعنى على نحو صريح، وليس من المعقول أن يكون ما اختصوا به دون البشر هو إطعامهم المن والسلوى! وإلا فقد أوردت التوراة والقرآن ضجرهم من هذا الطعام الواحد، فلم ير بنو إسرائيل في تلك النعمة عطية إلهية تستحق هذا المديح كله، بل كانت عندهم إلى العقوبة أقرب! وقد حنوا كما تقول التوراة إلى (قدور اللحم) التي كانوا يأكلونها فى مصر وإلى (العدس والبصل) وما إليه كما أخبر القرآن الكريم.

أما المشكلة التي نعنيها فهي النعمة الثانية وهى قوله: (وجعلكم ملوكًا) لأن القرآن والتوراة يقولان على خلاف لا يعنينا في الاسم أو الترتيب: إن أول ملك جعله الله على شعب بني إسرائيل كان بعد موسى بقرون بعيدة، وإلى ذلك تشير هذه الآية من سورة البقرة:

الأساسي الذي تعبر عنه مجمل النصوص من تنزيه الأنبياء عن هذه الخطيئة الوحيدة التي لا يشملها الصفح والغفران الإلهي.

أما الذي يعنينا في هذا المقام فهو تلك الإشارة القرآنية إلى أن الشرك أصيل جدًا في الجماعة البشرية، وأنه قد بدأ في نفوس الذرية المباشرة، وبوحي من الشيطان، حتى قبل أن يترجم ذلك إلى عقائد شركية راسخة تستلزم التدخل الإلهي بإرسال الرسل لمكافحة هذا الانحراف المميت عن الطريق السوي إلى الله؛ لذا فمن الواضح أنه لم يمض إلا القليل من تلك المدة بين آدم وبين نوح حتى كان الشرك قد استشرى وتأصل

أَلَمْ تَرَ إِلى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246).

وبسبب من هذا الاختلاف فقد حاول المفسرون تقديم تفسير لمعنى هذه الكلمة التي يسوقها القرآن بوصفها كأختيها من بين النعم التي قدمت لبنى إسرائيل في حياة موسى! إنما الحقيقة الواضحة، أنها نعمة لم يأت بعدُ أوانها، بل ستأتي بعد رحيل موسى وعشرات القضاة من بعده، لذا فقد صرف المفسرون معنى الكلمة إلى معان وتأويلات متكلفة وغير مقنعة أبدًا مثل أن يسمى واحدهم ملكًا لأنه كان يملك بيتًا وامرأة وخادمًا: "وقال ميمون بن مِهْران، عن ابن عباس قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي مَلِكًا"، انظر تفسير ابن كثير ص 599 وما بعدها، وكذا تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الأولى 2000 م، ج10 ص 161.

وتابعهما المفسرون على معان أخرى قريبة لا تبعد كثيرًا عن هذا المعنى المتكلف الذي يجعل من الكثرة الساحقة لرجال الجنس البشري ملوكًا ومن نسائه ملكات! ولا ندري في تلك الحالة ما دلالة التخصيص وما لزومه؟! ولا نجد كذلك موضعًا لكي يقولوا بأن الآية تجعل من بني إسرائيل جميعًا ملوكًا! فلا تعني الآية سوى أن الله سيجعل لكم مملكة يتوارثها ملوك منهم!

إذن، فلا علينا أن نتجاهل هذا التفسير لأنه في الحقيقة تأول متكلف وغير صحيح؛ إذ لا ينصرف الذهن عند سماع كلمة (ملك) سوى إلى المعنى المباشر الذى يعرفه كل الناس من قيام مملكة على رأسها ملك ذو سلطان على رعيته، وحضور معترف به عند أنداده وأشباهه وما إلى ذلك.

ويمكننا أن نقترح حلا لهذا الإشكال بأن النبي كان يصدر عن معرفة ضمنية، لم يظهر من أثر لها سواء فى القرآن أو الأحاديث، لما جاء في سفر العدد (الإصحاح 32 الآيات 32-33) حيث يقسم موسى هناك على القبائل العبرية ما يخص كلا منهم فى الأرض التي كتبها الله لهم والتى لم تفتح بعد! أي أن موسى قد سماهم ملوكًا ليقينه بتحقق امتلاكهم لتلك الأرض، ثم كان على كل عشيرة أن تحارب من أجل أن تظفر بنصيبها؛ أي أنه جعلهم ملوكًا قبل الحصول على تلك الممالك! ولا ينبغي لأحد أن يرد هذا التأويل بحجة أن القرآن والأحاديث لم تأت على ذكر شيء من هذا! فما أكثر ما لم يبلغنا مما قصه النبي عليه السلام على أصحابه من أخبار بنى إسرائيل وقصصهم العجيبة التى كان يعرف منها النبي الكثير والكثير كما يدل عليه أمثال هذا الحديث: "كان يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم إلا لعظم صلاة"، انظر الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (3025).

وأما لمن لم يقبل هذا التفسير السابق، فالتفسير الميسور هو أن موسى كان يريد أن يقول (وسيجعل منكم ملوكًا فى مقبل الزمان) ولكن تقافز المعنى الحاضر في العقل النبوي؛ أي حضور ما كان يعرفه النبي محمد عن الملوك العبرانيين الذين جاءوا بعد موسى كطالوت وداود وسليمان وغيرهم وهو ما جعل الآية تأتي على هذا النحو الملتبس، وهو ما جعل المفسرين يحتالون ما استطاعوا للتوفيق بين هذه الكلمة في هذا السياق الباكر وبقية نصوص القرآن وما صح من الأحاديث!

في ذرية آدم منذ أجيال كثيرة؛ لأننا نجد قوم نوح يتواصون بالتمسك بميراث عقائد أسلافهم من الآباء والأجداد كما يفهم من الآية *أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾* (إِبْرَاهِيم:9-10).

ثم تفاقم الخطب واقتضى الأمر أن يمحو الله هذا الجيل الكفور بكامله، ولم يستبق بالطوفان إلا بقية من المؤمنين لتستعيد تلك الأمة الواحدة لبرهة قصيرة من الزمان كما سنرى. أما عن كيف دخل الشرك في عقيدة تلك الأمة المؤمنة؟ فلقد كان تفسير ذلك واضحًا وبسيطًا من المنظور النبوي؛ فلقد أوتي البشر من قبل الشيطان وكيده، الذي أعلن أنه لن يتوانى عن إضلال العباد، وصرفهم عن عبادة الله، وجاءهم أيضا من قبل أنفسهم؛ أي من تولعهم بالتجسيم والغلو في الصالحين وتقديسهم؛ لذا فلم يكن من الغريب في شيء أن يكرر النبي وهو على فراش مرض موته، تحذيره الصادق من هذا الانتكاس المؤلم، ومن خطورة اتخاذ قبره مسجدًا حتى لا يتحول شخصه، إذا ما انتسخ العلم وفشت الجهالة، إلى وثن يعبد من دون الله! وسنعود إلى تلك المسألة لاحقًا عند عرضنا لقضية أصنام قوم نوح.

(4)
المدة بين آدم وبين نوح

لم يكن أمام المؤرخين والمفسرين المسلمين القدامى ليتعرفوا إلى تلك المدة التي كانت تفصل بين خلق آدم وحضور نوح كرسول من الله إلى البشر سوى ما وجدوه بين أيديهم من قصص أهل الكتاب؛ لذا فلم يختلفوا كثيرًا في تلك القضية واتفقوا جميعًا أو كادوا على سلسلة نسب قصيرة لنوح تجعل منه حفيدًا من أحفاد آدم؛ حيث ولد نوح قبل موت أبي البشر بمدة يسيرة، معتمدين في ذلك على ما جاء في التوراة، وما حفلت به

القصص التلمودية، وسنكتفي بعرض قول مؤرخ واحد وهو يغني عنهم جميعًا: "واتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الأرض أجمع بما كان من خراب المعمور ومهلك الذين ركبوا معه في السفينة، ولم يعقبوا فصار أهل الأرض كلهم من نسله وعاد أبا ثانيا للخليقة وهو نوح بن لامك، ويقال لمك بن متوشلح بفتح اللام وسكونها ابن أخنوخ، ويقال أخنوخ، ويقال أشنخ، ويقال أخنخ وهو إدريس النبي فيما قاله ابن إسحاق ابن بيرد، ويقال بيرد بن مهلائيل، ويقال ماهلايل بن قاين، ويقال قينن بن أنوش، ويقال يانش بن شيث بن آدم، ومعنى شيث عطية الله هكذا نسبه ابن إسحاق وغيره من الأئمة وكذا وقع في التوراة نسبه وليس فيه اختلاف بين الأئمة[241]".

أما الباحثون المحدثون فنجدهم بين متابع تقليدي لا يزيد على أن يعيد ما سبق وقرره المفسرون القدامى، ومتابع يحاول أن يقول شيئًا جديدًا في ضوء ما أثارته الرواية التقليدية من إشكالات، فنراه يأتي بالعجيب الغريب! وسنقدم مثلا واحدا لكلا الفريقين: "ينتهي نسب نبي الله نوح إلى شيث ابن آدم أبي البشر، ويعد إدريس الجد الأكبر لنوح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس من الإسلام؛ إذ يكون بينهما قرون أخرى متأخرة لم يكونوا على الإسلام، ولكن حديث (أبى أمامة) يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبى أمامة رواه ابن حبان في صحيحه وهو أن رجلا قال يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم مكلم قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون [242]".

في الحقيقة، إنه يغلب على ظننا أن المقصود بتلك القرون العشرة التي عناها النبي هو ما أوردته التوراة والقصص التلمودية ذاتها عن الأجيال العشرة التي تفصل بين آدم

---

(241) تاريخ ابن خلدون، "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988 م، ج2، ص7. انظر أيضا: "السلوك في طبقات العلماء والملوك" بهاء الدين الجُنْدي اليمني، مكتبة الإرشاد، صنعاء 1995م، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، ج1، ص 71. وانظر ج1، ص 21، "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" شمس الدين الذهبي - المكتبة التوفيقية.

(242)"عظات وعبر في قصص الأنبياء" الشيخ سعيد عبد العظيم، دار الإيمان، الإسكندرية 2002م، ص11.

ونوح، وهي تستغرق قريبا الألف عام، أو تزيد قليلا بسبب من الأعمار الطويلة، بل المسرفة في الطول، التي منحها كاتب سفر التكوين لرجال ونساء تلك الفترة الأسطورية!

لكن أحد الباحثين المحدثين لا يوافق على ما صح نقله عن ابن عباس في تقريره بأن المدة الفاصلة بين آدم ونوح كانت عشرة قرون، أي عشرة أجيال، متعللا بأن هذا الحديث قد جاءنا موقوفًا على ابن عباس، ولم يرفعه ابن عباس صراحة إلى النبي؛ فهو على هذا مجرد قول صحابي قال برأيه، ورأيه هذا على عظيم قدر صاحبه لا يلزم أحدا. والحقيقة إن ما قاله ابن عباس هو تقدير مقبول ومعقول؛ لأنه من ناحية يتوافق مع المخطط الزمني البسيط الذي قدمه القرآن عن قدم الجماعة البشرية في القرآن، واقترابه الشديد من الرواية التوراتية في هذا الجانب، ومن يعرف قلة أخبار تلك الأحداث التي ساقها القرآن لملء تلك الفترة الفاصلة بين آدم ونوح لوجد أن تقدير تلك المدة بعشرة قرون لهو تقدير مقبول ولا بأس به، ومن ينظر فيما أوردته الأحاديث النبوية الصحيحة من تفاصيل كتابية لا لبس فيها عن قصة خلق آدم فإننا نميل إلى أن النبي قد قبل بعض تلك المرويات التوراتية - التلمودية التي بلغته، واعتمد عليها في بناء رؤيته عن الخليقة مما سبق وبيناه[243]، فعلى هذا فموافقة النبي على التقدير الكتابي للمسافة بين آدم ونوح، وهو لايبعد كثيرًا عن ذلك، يجعلنا نقبل بهذا الحديث؛ لأنه هذه المرة يتوافق مع الرواية التوراتية - التلمودية [244].

حاول المؤلف أن يمد من أمد تلك الفترة الفاصلة بين النبيين بأن اتخذ من طول أعمار تلك الأمم القديمة حجة له في ذلك؛ فإذا كان متوسط حياة آحاد تلك الفترة الغابرة عنده ألف عام مثلهم في ذلك مثل عمر نوح، وكان بين نوح وآدم عشرة أجيال فقد مد

---

[243]"القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث" صلاح الدين الخالدي، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م.

[244]من ناحية أخرى، فأمثال تلك المعارف الغيبية لا تتأتى كما هو معلوم إلا من طريقين أولهما هو الوحي الإلهي، وثانيهما: هو النقل عن أهل الكتاب. ومن المعروف أن ابن عباس لم يكن إلى حد ما من بين هؤلاء الصحابة المولعين باستقاء المعارف من أهل الكتاب المتأسلمين مثل كعب الأحبار أو وهب ابن منبه أو أخيه همام، بل كان على خلاف ذلك يشن حربًا لا هوادة فيها على أمثال هؤلاء، وعلى أمثال بعض الصحابة المتسامحين، وعلى رأسهم أبو هريرة وعبدالله بن عمرو، ومن جرى على نهجهم من الركون إلى أهل الكتاب والأخذ عنهم، فقد كان ابن عباس وعبد الله بن عمر، وابن مسعود يرتابون أشد الريبة في إيمان أمثال هؤلاء اليهود المتأسلمين وبواعثهم، فعلى هذا فنحن نميل إلى قبول تلك الرواية عن ابن عباس معتقدين أنه لا بد قد أخذها عن النبي، ولا نشك في أن عشرات بل مئات الآثار التي نسبت إلى ابن عباس خاصة ما جاء منها عن تلميذه عكرمة إنما هي آثار مكذوبة حملت عليه حملا، فليس من المعقول أن يخدع رجل في ذكاء ابن عباس عن تلك المرويات اليهودية التي أرادت التسلل إلى عقيدة أهل الإسلام!

تلك الفترة الفاصلة بين آدم ونوح إلى عشرة آلاف، "فالعشرة قرون بين آدم ونوح، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، نحو عشرة آلاف سنة والله أعلم[245]".

والمؤلف بهذا، وإن أفلح في استبقاء أثر ابن عباس وروايته فلم يرد الرواية كلها، بل فسرها على نحو يسمح له بمد تلك الفترة دون أن يدرك أن نجاحه الموهوم هذا قد أورطه في مشكلة أكبر، وهو أنه بهذا يقبل أن يكون عمر الخليقة البشرية كلها في حدود خمسة عشر ألف سنة، والحقيقة أن هذا استخلاص عجيب وغريب؛ فمن ناحية لم يقل القرآن بأن جميع معاصري نوح أو من قبلهم كانوا يعيشون طويلا مثلما عاش نوح، بل إننا نجد إشارة في سورة نوح ربما يفهم منها أن نوحًا قد عاصر أجيالا متعاقبة منهم، فلم يجد خلال عمره المديد سابقهم أفضل من لاحقهم بل قد افترض منها المفسرون أن الآباء كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإصغاء إلى قوله والتمسك بعبادة الآباء والأجداد كما يعبر عن ذلك هذان المفسران: "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: كَانَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ بِابْنِهِ إلى نُوحٍ فَيَقُولُ: احْذَرْ هَذَا فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، وَإِنَّ أَبِي حَذَّرَنِيهِ فَيَمُوتُ الْكَبِيرُ وَيَنْشَأُ الصَّغِيرُ عَلَيْهِ (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَمُقَاتِلٌ، وَالرَّبِيعُ، وَغَيْرُهُمْ: إِنَّمَا قَالَ نُوحٌ هَذَا حِينَ أَخْرَجَ اللَّهُ كُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَصْلَابِهِمْ وَأَرْحَامِ نِسَائِهِمْ وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ وَأَيْبَسَ أَصْلَابَ رِجَالِهِمْ قَبْلَ الْعَذَابِ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً. (وَقِيلَ سَبْعِينَ سَنَةً) وَأَخْبَرَ اللَّهُ نُوحًا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يَلِدُونَ مُؤْمِنًا فَحِينَئِذٍ دَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، وَأَهْلَكَهُمْ كُلَّهُمْ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ صَبِيٌّ وَقْتَ الْعَذَابِ لِأَنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ:

وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ ﴿٣٧﴾ (الفُرْقَان: 37) وَلَمْ يُوجَدِ التَّكْذِيبُ مِنَ الْأَطْفَالِ[246]، (وَكَانَ يَنْتَظر القرن بعد القرن والجيل بعد الجيل فَلَا يَأْتِي قرن إِلَّا وَهُوَ أَخبث من الأول وأعتى من الأول وَيَقُول الرجل مِنْهُم: قد كَانَ هَذَا مَعَ آبَائِنَا وأجدادنا فَلم يزل هَكَذَا مَجْنُونًا، وَكَانَ الرجل مِنْهُم إذا أوصى عِنْد الْوَفَاة يَقُول لأولاده: احْذَرُوا هَذَا الْمَجْنُون فَإِنَّهُ قد حَدثنِي آبَائِي: إِن هَلَاك النَّاس على يَدي هَذَا فَكَانُوا كَذَلِك يتوارثون الْوَصِيَّة بَينهم، حَتَّى إِن كَانَ الرجل ليحمل وَلَده على عَاتِقه، ثمَّ يقف بِهِ وَعَلِيهِ فَيَقُول: يَا بني إِن عِشْت ومت أَنا فاحذر هَذَا الشَّيْخ[247]".

[245] الخالدي: "القصص القرآني"، ج1، ص 159.

[246] "معالم التنزيل في تفسير القرآن"، ج8، ص 234.

[247] "الدر المنثور" جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ج3، ص 481.

وحتى لو افترضنا أنهم كانوا يعيشون طويلا مثلما عاش نوح؛ أي قرابة الألف عام، فهذا لا يلزم منه أبدًا أن المدة بين آدم ونوح هي عشرة آلاف سنة! اللهم إلا إذا افترضنا أن الرجل منهم لم يكن ينجب ابنه إلا وهو على فراش موته، بل إننا نجد الرواية التوراتية، وقد نصت صراحة بما افترضه المؤلف من طول أعمار أهل تلك الفترة، ورغم ذلك فلم تزد المدة بين خلق آدم إلى مولد نوح إلا على ألف سنة وستة وخمسين عامًا بسبب من تداخل الأجيال وتعاصرها[248]. وعلى هذا، فسواء أكان المقصود بالقرن هو مائة سنة، أم كان المقصود أهل الجيل الواحد وهو الأصل في التعبير القرآني، فالمدة في الحالتين لن تتجاوز الألف سنة، وهي مدة في الحقيقة جد قصيرة لكى ينسى الناس فيها التوحيد الأول، وينتكسوا إلى عبادة الأصنام والأوثان خاصة إذا تذكرنا أن الأحاديث الصحيحة تقول إن آدم قد عاش ألف سنة كاملة! فلا نعرف كيف طرأ الشرك على البشرية إذن إن كان آدم لم يغادر الدنيا إلا قبيل مولد نوح بسنوات قليلة؟! ولكن دعونا نقترب من قصة نوح كما أوردها القرآن الكريم.

(5)
من نوح الأسطوري إلى نوح المخيالي!

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣* (الشُّورَى: 13).

بعد أن انقضت تلك الفترة الذهبية التي ستظل استعادتها من المنظور المحمدي هي غاية التاريخ الإنساني ونهايته أيضًا؛ حيث كان البشر جميعًا يعبدون الله وحده ويخضعون طواعية لشريعته العامة، ولكن بسبب من الطبيعة البشرية سريعة العطب والقابلة للفساد، وبسبب من حضور الشيطان ودوره الكوني المنوط به في تلك الدراما الهائلة، وتحريضه الجوانب الأضعف في الطبيعة البشرية، وأيضا وقبل كل شيء ما

[248] وبمثل وربما بألفاظه ذاتها: "قال مؤلف آخر ليشارك سابقه في الاستنتاج الخاطئ ذاته؛ أي بأن الأجيال العشرة تعنى آلاف السنين، لما عرف من أن الناس قبل نوح كانوا يعمرون الدهور الطويلة"، انظر: "قصص الأنبياء - القصص الحق"، عبد القادر شيبة الحمد، الطبعة الرابعة 2013م، الرياض، ص 47.

قدره الله على البشر من سقوط؛ لأنه هو الذي خلق الإنسان على هذا النحو، ومنحه تلك الحرية ليعصى ويطيع، وأنه هو أيضا من خلق الشيطان، وإذن له في تجربة عباده ليميز عبره الخبيث من الطيب، بسبب من هذا كله وسواه حدث أن انحرفت البشرية سريعًا عن النهج الإلهي القويم، وهنا تبدأ تلك الملحمة العظمى؛ فمن ناحية هناك نداء الله الجهير الذي سيسمعه الناس جميعًا على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وهناك أيضًا ما أودعه الله في سرائرهم من نداء الإيمان في فطرتهم التي فطرهم عليها، التي ستظل دوما تهمس في أعماقهم بأشواقها إلى الإصغاء والاستجابة لنداء الله، وعلى الجانب الآخر هناك الشيطان وكيده، وفي خندقه شطر تلك الطبيعة البشرية، والتي لولا وجودها على ما قدره الله فيها من النور والظلمة، والصلاح والطلاح، لما كانت تلك التجربة الإلهية. ومن تلك الحرب الضروس بين الجانبين، سيتجلى الله الخالق المدبر في التاريخ الإنساني كما لا يتجلى في شيء من خلق العالم، وإذا كنا قد رأينا أن الله قد خلق الإنسان الأول، وخلق معه جميع مفردات الصراع وأسبابه، فمع وصولنا إلى زمن نوح فقد أخذت تلك العناصر تتفاعل، ويبدأ التاريخ الرسالي. لذا فلا غرابة إن قبلنا تلك المقدمات التي لم يشك النبي محمد في صحتها قط، أن نجد معالم الرسالة الإلهية تظهر كاملة مع نوح الرسول الأول، كما ظهر آدم الإنسان الأول كامل الخلقة والعقيدة، ومنذ اللحظة الأولى كذلك!

لمَّا كان النبي نوح من المنظور القرآني هو الرسول الأول إلى البشر، ومعه ستكتمل أركان الدعوة الإلهية ومعالمها، وستظل هي بذاتها تتكرر عبر التاريخ بلا زيادة أو نقصان؛ حيث سنجدها على ألسنة الأنبياء جميعًا، قديمهم وحديثهم، من عاش منهم في بيئة متحضرة، أو من عاش على حافة التحضر في مدن القوافل التجارية، وسواء من أرسل منهم إلى قبيلة صحراوية صغيرة، أو أرسله الله إلى أمة هائلة العدد عظيمة الثقافة، فكل هؤلاء الأنبياء سيتلقون من المنظور المحمدي رسالة واحدة لاتتغير، وسيبلغونها للناس كذلك على طريقة لاتغيير ولا تبديل فيها، بل سيتلقون جميعًا من المكذبين الضالين الأقوال ذاتها!

لذا، سنعرض باختصار شديد قصة نوح كما أوردها القرآن، ثم سنعرض في مقابلها معالم دعوة النبي محمد بوصفه النبي الخاتم والرسول الأخير إلى البشر لنرى كيف تتطابق الدعوتان جميعًا، وبينهما هذه المسافة البعيدة التي لا شيء يجليها أكثر من

تذكرنا أن قوم نوح وعشيرته كانوا هم البشرية كلها، وعقيدة النبي محمد الذي جعل من البشرية بجميع أعراقها وأجناسها قومه وعشيرته!

ثم لننظر بعدها إلى أي مدى يمكن أن تصمد تلك النظرية الإسلامية عن وحدة العقيدة عبر التاريخ، وسنرى ما تنطوي عليه تلك النظرة من معقولية أو مخالفة ليس فقط لما سجله التاريخ المدون كله بل كيف تستقيم مع طبيعة الأشياء، ومنطق التطور الذي لا يفلت منه شيء!

ثانيا: قصة نوح كما جاءت في القرآن الكريم.

حضر النبي نوح في القرآن الكريم مبكرًا للغاية؛ إذ جاء القرآن الكريم على ذكره، وذكر ما حاق بقومه من الدمار بسبب تكذيبهم له وكفرهم بدعوته ورسالته في سور القرآن الأولى، ولم يكن لنوح من خصوصية في سور التنزيل الأولى تلك، بل جاء كمثال بين أمثلة أخرى كثيرة تتشارك جميعًا في هذه الناحية دون سواها؛ وهي مقام وعيد القرآن للمشركين العرب بعذاب مماثل لما وقع للأمم المكذبة السابقة مثل: عاد وثمود وقوم فرعون والمؤتفكات، وقوم تبع وسواهم، ومن تلك الإشارات الباكرة إليك هذه النماذج التي تغني عن سواها: *وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾* (النَّجم: 50-53)، *كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾* (ق: 12-14)، *وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾* (الذَّاريَات:41-46).

ثم توالت سيرة نوح بعد تلك السور الأولى وإشارتها المقتضبة، والعابرة إليه لتكتمل صورته ومعالم دعوته، ثم بعد ذلك حيث حضرت على تفاوت بعيد في الحجم وتنوع كبير في الأغراض في سور: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، بالإضافة إلى تلك السورة المؤثرة التي خصه القرآن بها وسماها باسمه.

لن نلزم في عرضنا لقصة نوح القرآني ترتيب النزول، وإن أفاد هذا الترتيب من يستهدف في المقام الأول الوقوف على توظيف قصته في مرحلة الدعوة المحمدية الباكرة؛ لأنه على أهميته ليس أهم أغراضنا، ولن نلزم أيضًا ترتيب المصحف، بل سنأتي بالآيات القرآنية وفق ترتيب عرضها لقصة نوح كقصة تتنامى من البدء إلى الختام ما أمكن ذلك.

نلحظ في البداية أن القرآن لا يذكر شيئًا عن نوح أو أسرته، فلا نعرف شيئًا عن والديه أو إخوته سوى إشارة واحدة تفيد أن أبويه كانا من جملة المؤمنين به؛ حيث نجده يستغفر لهما في آخر آية من سورة نوح، وإن كنا لا نعلم إن كانا من ركاب سفينته أم أنهما قد ماتا قبل الطوفان. ولا نعرف كذلك أين كان يعيش نوح قبل الطوفان أو بعده، فضلا عن أي لغة كان يتكلم. وأما عن زمانه فنحن نعرف من تتابع التاريخ الرسالي أنه جاء بعد آدم بمدة تكفي لكي ينسى البشر عقيدة التوحيد الأولى ويهجروها ليسقطوا في وهدة عقيدة الشرك وقد قدرها كما قلنا حديث صحيح جاء موقوفًا على ابن عباس بألف سنة وهو تقدير معقول مقبول، وعدا تلك المعلومات القليلة فإننا نجد نوحا يحضر مثل أغلب الأنبياء هكذا فجأة في القرآن كنبي اصطفاه الله بالرسالة، وها هو يبلغها للناس ولنبدأ أولاً بسورة الأعراف.

(1)

* لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾* (الأَعْرَاف: 59-64).

نجد هنا نوحًا يدعو قومه إلى الأصل الأول الذي قامت على أساس منه جميع معالم العقيدة الأزلية؛ وهو عبادة الله وحده، مندداً بشركائه من تلك الآلهة الأخرى، مخوفًا لهم من عذاب الآخرة، ولكن أشراف قومه لا يستجيبون لدعوته، بل يصفونه بالإغراق في الضلال؛ إذ يدعوهم إلى ما لم يعرفوه هم ولا آباؤهم من قبل، ولكن نوحًا يرد عن نفسه هذه التهمة، مؤكدًا لهم أنه رسول من الله رب العالمين، وأنه ما جاء إلا لإبلاغهم ما أرسله الله به وأن الله برحمته قد أفاض عليه معرفة به تجعله يمحض لهم النصح؛ فهم لا يعرفون أي عظيم يعصون، وأي عقاب عليهم أن يخشوا إن ماتوا على كفرهم وضلالهم. ثم ينتقل السياق فجأة ليجعل نوحًا يرد عجبهم الذي لم ينطقوا به هنا من إرسال الله بشرًا إليهم، ولم يرسل إليهم مثل ما نصت عليه سور أخرى ملكًا من الملائكة كبرهان على صدق رسالته، ثم يلخص نوح بواعث نصحه لهم، فهو لا يدعوهم إلا لكي ينذرهم عذاب الله، ويدعوهم إلى التقوى لعلهم قد ينالون رحمة الله التي لا يمنحها إلا للمؤمنين المتقين، ولمَّا استمروا في تكذيبه أنجاه الله ومن آمن معه في الفلك، وأغرق هؤلاء المكذبين منطمسي البصيرة.

من تلك الآيات القليلة التي عرضت لنا قصة نوح مجملة يمكن لنا أن نعرف منها جميع معالم قصة نوح، بل قصص جميع أنبياء القرآن الكريم، فقد دعا نوح قومه إلى التوحيد، وأن قومه كانوا من المشركين، وأن الله عند نوح هو رب العالمين، وأن نوحًا كان يعرف الآخرة والحساب، وأنه كان يؤمن بأن النار هي مصير الكافرين، وما يستتبع

ذلك من الإيمان بالجنة كمثوبة للمؤمنين الصالحين، وأن من تولى معارضته كانوا هم الملأ وأشراف الناس وزعماؤهم، وأن قومه كانوا يؤمنون ويقرون بمفهوم النبوة شرط أن يعضد الله مدعيها ببرهان ساطع من عنده، وأنهم كانوا كذلك يؤمنون بالملائكة، ويعرفون وظيفتها في السفارة بين الله وبين الناس، وأن قوم نوح كانوا يعانون العمى الروحي، وأن نوحًا قد وصف من قومه بالضلال المبين، ولقد بدأ نوح في هذه الآيات وغيرها متحليًا بروح الإشفاق، والحرص على هداية قومه رغم ما لاقاه من تعنتهم وعنادهم مثله في ذلك مثل جميع الأنبياء، وإن سطعت تلك الصفة في النبي محمد أكثر من غيره.

(2)
نوح في سورة (المؤمنون)

* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾*(المُؤْمِنُون: 32–30).

لا تضيف هذه الآيات الكثير إلى ما سبقها، وإن جاءت مؤكدة لبعضها ومفصلة لبعض ما جاء مبهما فيها على نحو ما؛ فهي مثلا تؤكد ثانية التوحيد، ومن الدعوة إلى

خلع الأنداد والشركاء، واستنهاض روح التقوى القارّة في أعماقهم، ولكن تزيدنا هذه الآيات ملمحًا عن أسباب رفض المعاندين لنوح والمنكرين لدعوته، فهو لا يعدو عندهم من أن يكون رجلا يتوسل إلى التسلط عليهم عبر ادعائه النبوة، وإلى جانب ذلك فنجد أن قومه مقرون بوجود الله، ويؤمنون بالملائكة التي لو شاء الله لأنزلها عليهم قاطعًا كل سبيل للإنكار والريبة من نفوسهم، متخذين من عدم إرسالها إليهم حجةً في كذب ادعاء نوح، ولكنهم نراهم يعودون بعدها إلى التشكك في دعوى النبوة ذاتها، فهي شيء لا يعرفه آباؤهم وأجدادهم الأولون، كما لو أن القرآن كان يحشد على ألسنة قوم نوح جميع ما قال به قوم النبي محمد حتى لو لم تتوافق تلك الاعتراضات وتنسجم معًا؛ فقد كانت تلك الاعتراضات التي وُوجِهَ بها النبي محمد من مشركي عصره تعبر عن عقائد طوائف مختلفة من أهل زمانه؛ فمن كان منهم يؤمن بالله ويؤمن بإمكان النبوة لكنه يريد برهانًا على صحتها ومن كان هذا حاله فلن يطلب سوى المطلب الأول؛ أي إنزال الملائكة، وأما من كان ينكرها ولا يؤمن بإمكانها فلن يجد برهانًا على رفضها أقوى من برهان غيابها الكامل من تاريخ الأجداد الأولين وهكذا!

من ناحية أخرى، فإذا كان يحق لبعض عرب عصر النبي أن يقولوا بأن آباءهم وأجدادهم لم يسمعوا عن النبوة أو الأنبياء؛ حيث غابت عنهم لعشرات القرون؛ أي منذ عهد إبراهيم، فما بالنا بقوم نوح؟ وقد كانوا حديثي عهد بالخليقة، وكانت النبوة والأنبياء حاضرة منذ الإنسان الأول الذي عاش حتى قارب ألف عام، ولم يغادر الدنيا إلا قبل مولد نوح بمدة يسيرة فكيف يقولون ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين؟!! ثم نراهم بعدها يقدمون تفسيرًا لما جاء به نوح، مفترضين صدقه هذه المرة، فهو ليس عندهم سوى رجل مجنون مخبول، ويتواصون بتركه سادرًا في هذيانه حتى يغيبه الموت مع أوهامه، ثم نجد أخيرًا نوحًا يستنصر ربه عليهم فيوحي الله إليه بأن يصنع الفلك وهو ما ستفصله سورة هود كما سنرى، ثم تزيدنا تلك الآيات ما أوصى به الله نوحًا أن يهتف به إذا دخل ومعه المؤمنون السفينة؛ أي بأن يحمد الله على نجاته، ومن اتبعه ويوصيه كذلك بهذا الدعاء الجميل، وهو يستقبل حياته الجديدة على الأرض وقد تطهرت من الشرك والمشركين.

(3)
نوح في سورة الصافات (75 -82)

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ (الصَّافَّات: 75–82).

لا تضيف هذه الآيات شيئًا جديدًا سوى ما تثيره من إشكال يسير، لا يبلغ حد التناقض، بين ما قرره القرآن من قبل من أن الناجين من الطوفان لم يقتصروا على أبناء نوح وأزواجهم كما قالت التوراة، وما تقرره هذه الآيات من أن النجاة كانت له و(لأهله)، وأن الباقين جميعًا من (ذريته). والحقيقة، إنه إذا كان معنى الأهل قد يتسع مجازًا ليشمل المؤمنين برسالة الأنبياء، بل حتى ليقتصر عليهم أحيانا مثلما حكى الإنجيل عن قول المسيح، وقد نادته أمه وإخوته فقال ما رواه إنجيل مرقس: "فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ وَوَقَفُوا خَارِجاً وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ. وَكَانَ الْجَمْعُ جَالِساً حَوْلَهُ فَقَالُوا لَهُ: (هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجاً يَطْلُبُونَكَ). فَأَجَابَهُمْ: مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟ ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إلى الْجَالِسِينَ وَقَالَ: (هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللَّهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي" (مرقس: 3 - 31-35)، وقد يضيق معنى (الأهل) أحيانًا حتى ليخرج منه الابن الصليبية، كما جاء في القرآن مخاطبًا نوحًا وقد تشفع عند الله في ابنه الضال فنودي في حسم يخلع القلوب: (إنه ليس من أهلك).

هذا عن دلالة كلمة (أهل)، ولكن في المقابل فإننا نجد بأن معنى كلمة (الذرية) لا يتسع لشيء من هذا، فكيف نوفق إذن بين تقرير القرآن أن الناجين من الطوفان لم يقتصروا على أولاد نوح بل كان أبناؤه بين أولئك القليل ممن آمن به، وما تقرره هذه الآية ؟! الحقيقة، إنه من بين ما أورده المفسرون، رغم غياب أي دليل عليه، ما يرفع هذا الإشكال أنهم كانوا: "هُمُ الْبَاقِينَ هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم، فقد روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده. أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح. وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام، وحام،

ويافث. فسام أبو العرب، وفارس، والروم. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب. ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج[249]".

ولو قبلنا هذا الحل، الذي جاء مرارًا في كتب التفسير، لكان فيه ما يمكن عدُّه حلا نبويا ناجحا للتوفيق بين رؤية النبي لنوح كنبي ورسول يسع الناس جميعًا بدعوته، ويجعل منهم بعض الناجين معه مثل ما جاء في سورة الشعراء *فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨* (الشُّعَرَاء: 118)، وإلا فأين ذهب جميع أتباعه من الفقراء الذين ازدرتهم أعين المترفين المتعالية؟! وبين ضغط الرواية التوراتية التي جعلت من نوح آدم ثانيًا للبشرية، وأن الناجين كانوا أبناءه الثلاثة وحسب، فأتى بها الحل الجميل؛ حيث جاءت النجاة لمن معه من المؤمنين جميعا، ولكن لم تستمر البشرية إلا في عقبه وذريته هو دون سواه!

لكننا نقترح من جانبنا حلا يسيرا لهذا الإشكال؛ أن يكون المقصود بكلمة (الباقين) في هذه الآيات كلمة: (الخالدين) أي المخلدة أسماؤهم المباركة في تاريخ الهداية الإلهية من الأنبياء والمرسلين، ولا تعني (الناجين) من الطوفان، فهي على هذا لا تحصر ذرية البشر في أبنائه؛ وذلك لأن سياق سورة الصافات يعرض في استعراض سريع لنخبة مختارة من الأنبياء والمرسلين الحاضرين في الذاكرة الإنسانية؛ لذا نجد هذه الآية (وتركنا عليه في الآخرين) تأتي في ختام كل قصة، وهذا يتوافق مع ما قرره القرآن أيضًا من أن الأنبياء جميعًا كانوا من ذرية نوح دون سواه من الناجين معه خاصة أن سورة الإسراء تنص على أن البشر المعاصرين إنما هم ذرية من أنجى الله مع نوح في السفينة دون أن تخص نوحًا بذلك: *ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣* (الإِسۡرَاء: 3)، وهي كما ترى آية قاطعة في الدلالة على عموم الطوفان، مثلما هي واضحة ناصعة في بيان أن أسلاف البشر إنما كانوا هم تلك الثلة القليلة التي نجاها إيمانها من الطوفان الكوني العارم الذي أطاح بالأحياء جميعًا، ولكنها لا تقول إن ذرية

[249]"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407 هـ، ج4، ص 48.

البشر بعد الطوفان قد انحصرت في نوح عبر بنيه الثلاثة كما تقول التوراة، وتقول إن الأنبياء كانوا من ذريته هو دون سواه من المؤمنين الناجين حتى جاء حفيده إبراهيم فانحصرت النبوة في نسله!

(4)
نوح في سورة الشعراء 105- 122

*كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى
كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾*(الشُّعَرَاء: 105 – 122).

تأتي سورة الشعراء على ذكر قصة نوح وقومه في سياق استعراضها لموكب المرسلين عبر التاريخ، وقد كذبتهم أقوامهم، وتحكي لنا في سرعة خاطفة ما كان من تدمير الله لهؤلاء المكذبين ونجاة المؤمنين ونصرتهم، وهي لا تهتم كثيرًا بالترتيب التاريخي للأنبياء، بل تبدأ بقصة موسى وافية لا كنبيٍّ أرسله الله إلى قومه، بل كنبيٍّ في مواجهة فرعون مصر، ثم تعقبها قصة إبراهيم لتعود بعد ذلك إلى الترتيب التاريخي وفق القرآن الكريم، فيأتي نوح أولا، ثم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام لتنتهي بمحمد عليه السلام. وسورة هذا غرضها ليس من الغريب أن تأتي قصة نوح فيها مختصرة موجزة؛ إذ هي تقتصر على المشترك العام بين الأنبياء المرسلين جميعًا معبرة عنه أحيانًا بالألفاظ ذاتها، ولكنها مع ذلك تحوي بعض التفاصيل التي يحسن الوقوف عندها، من ذلك مثلا أنها تأتي على سبب آخر جديد لرفض الكافرين لدعوة نوح، وهي

أن أتباعه من الأراذل المحتقرين. والحقيقة، إننا لا ندري ما تدل عليه كلمة (الأراذل) هذه، فهل تعني حقا الفقراء كما حصرها المفسرون؟ أم تعني إلى جانبها أن الملأ كانوا يغمزون أتباعه السوقة بما يشينهم من سلوكيات تنمُّ على أنهم ربما كانوا عبيدًا ممتهنين، ولا يبعد من ظلال الآيات أنها قد تشير إلى انحرافات كانت تشيع في تلك الفئات البائسة من سرقة وبغاء وما إلى ذلك!

نلمح دفاعا ضعيفا من نوح عن أتباعه كأنه يبرأ إلى أشراف قومه من تلك التهم التي لا علم له بها، ولكنهم ما داموا قد أعلنوا إيمانهم به فليس له سوى أن يَكِلَ أمر ذلك إلى الله، فهو من سيحاسب الجميع، لكنه لن يطردهم، وإذا كان الملأ قد حقروا أتباع نوح وازدروهم فإننا نلحظ خلو الآيات من انتقاص مكانة نوح نفسه ما يوحي بأنه كان ذا مكانة في قومه تعدل ما كان عليه النبي محمد في قومه قبل أن ينتقصه أعداؤه بسبب قلة ذات يده، وهل يشعرنا ذلك بشيء من خيبة أمل النبي محمد من خلف قناع نوح في أن من استجاب لدعوته لم يكن الأشراف العقلاء، بل العبيد الضعفاء، ولكن بعد أن تهدده قومه بالرجم والقتل فقد طلب نوح نصرة الله، ولم تتأخر استجابة الله له فقد أرسل عليهم الطوفان، ونجَّاه ومن معه، وأغرق جميع المكذبين المعاندين[250].

(5)

(قومه)

من المعلوم أنه وفق الرواية الدينية للخليقة، فلم يتعلم الناس التوحيد أو يعرفوه بعد جهالة، بل عرفوا التوحيد منذ البدء تمامًا كما عرفوا اللغة والكلام منذ اللحظة الأولى

[250] أتباع النبي محمد لم يكونوا في أغلبهم من المستضعفين أو الفقراء المعدمين على النحو الذى شاع في كثير من كتب السيرة والعقيدة، بل كان أتباع النبي الأولون جماعة متنوعة المشارب ومختلفة البواعث، فقد كان من بينها من يبحث عن عقيدة روحية تملا قلبه الذى أضناه الفراغ الروحي، وهؤلاء كانوا بين غني وفقير! وكان من بين أتباعه الأولين أيضًا كثير ممن ينتمون إلى الشرائح التجارية المتوسطة التي ساءها استئثار مجموعة قليلة من كبار التجار بعوائد التجارة وقوافلها، وكانوا في أغلبهم من المستورين، وكان من بين أتباع النبي الأولين عدد غير قليل ممن كانوا ينتمون إلى الطبقات الدنيا التي كانت تعاني حياة بشعة من القهر والاستغلال والامتهان خاصة من العبيد والإماء؛ لذا فلا ينبغي أن تذهب بنا المبالغة بعيدا حد تصوير الدعوة المحمدية الباكرة كما لو كانت ثورة على طغيان أرباب الأموال، أو أن يرى فيها بعض الدارسين دعوة ذات نزوع اشتراكي كما ساد في الأدبيات الاشتراكية زمن الستينيات، فلم يكن الإسلام الباكر يستهدف انقلابًا شاملاً في العلاقات الاقتصادية، بل كان في جوهره إصلاحًا مقتصدًا وتحسينًا لبعض الأوضاع الجائرة وكفى! ومن يقرأ قوائم المسلمين الأولين فلن يجد أكثرهم من بين الفقراء المعدمين، بل كانوا في جملتهم من وجوه قريش وأهل المكانة فيها من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير.. إلخ. راجع "محمد في مكة" مونتجمري وات، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص 174.

للخليقة، وانطلاقًا من ذلك المفهوم يمكننا أن نستنبط أن القرآن، وإن لم يصرح بذلك، كان يصدر عن تقرير وحدة اللغة التي كان يتكلمها البشر قبل الطوفان وبعده من باب أولى، فأما قبله فهو واضح من تقرير القرآن أن إغراق قوم نوح كان إغراقًا لجميع من يسكن الأرض من بشر وحيوان جميعًا، ومع هذا فقد وصف القرآن مخاطبي نوح بالرسالة الإلهية بأنهم (قومه)، ولا معنى لهذه الكلمة في سياقها هذا إلا على معنى اشتراكهم جميعًا في اللغة، وأنهم كانوا مجرد قبيلة واحدة تجمعها قرابة دموية ووحدة لغوية تأكيدًا للقانون الذي تدل عليه هذه الآية: *وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤*(إِبْرَاهِيم: 4).

لا ينبغي التوقف إذن عند كلمة (قومه) في حالة النبي نوح دون بقية الأنبياء؛ إذ لم يكن هناك من أقوام سواهم، ولربما جاءت تلك الكلمة للمتابعة التعبيرية وإطرادها مع كل رسول، ليس إلا، حتى لو لم يكن من ضرورة لها في مثل هذه الحالة، وهذا التولع النبوي باستخدام تلك الكلمة سيثير بعض الإشكالات الأخرى سنعرضها عند عرضنا لأقوام: لوط، ويونس، وإبراهيم.

(6)
المرسلون

وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٣٧ (الفُرْقَان: 37).

وهذا الذي قيل عن كلمة (قومه) يصح أن يقال مثله من باب أولى عن كلمة (المرسلين)، فلم يكن هناك رسل من قبله إلى أهل الأرض جميعًا مثلما نص القرآن وصحيح الأحاديث، وقل مثل ذلك في استخدام هذه الكلمة عند أقوام لم يأت القرآن على ذكر أنبياء لهم من قبل مثل: أقوام لوط، أو هود، أو صالح، أو شعيب، عليهم السلام، وقد حاول بعض المفسرين تفسير ذلك بالقول إن تكذيب رسول واحد هو تكذيب للرسل جميعًا، ولكنه تفسير غير مقنع أولا، ولا ضرورة له ثانيًا، فهو أولا غير مقنع؛ لأنه يتجاهل ما قاله قوم نوح له بأنهم ما سمعوا بشىء من هذا الذي جاءهم به في تاريخ آبائهم الأولين، وهذا يعني أنهم كانوا ينكرون أن الله أرسل إليهم رسلا من قبل. أضف إلى ذلك

أن عقيدة وحدة الرسالات الإلهية وتتابعها هو مفهوم إسلامي خالص لم يعرفه الأنبياء السابقون فما بالنا بأقوامهم المكذبين؟! لذا، نقترح أن هذا التعبير لم يأت إلا مراعاة للفاصلة القرآنية التي تنتظم سورة الشعراء من أولها إلى آخرها، والأمر أيسر في آية الفرقان فلم تأت كلمة (الرسل) بصيغة الجمع إلا للألفة التعبيرية ليس إلا!

ثالثا: الطوفان في القرآن الكريم.

* ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣*(الإِسْرَاء: 3).

كما هو معلوم فقد تابع القرآن التوراة في تقريرها لبعض العقوبات الإلهية القاسية التي أنزلها الله بالكافرين، مثل تلك الضربات العشر العدوانية البشعة التي زعمت التوراة أن الله قد أنزلها بالمصريين، وإن اكتفى القرآن بتسع منها فقط! وأيضا إغراق الله لفرعون وجنوده أجمعين في البحر! وأيضًا هذا الطوفان العارم الذي أرسله الله على البشرية كلها، ولم ينجُ منه سوى نوح وأسرته في التوراة، ونوح وقليل من أتباعه المؤمنين في القرآن!

قد جاء ذكر نبأ هذا الطوفان مرارًا في القرآن، ولكن الرواية القرآنية عن الطوفان تتميز مرة باختصارها قياسا بالرواية التوراتية، وأخرى بأنها لا تورد خبره مستقلاً متتابعًا كما فعلت التوراة التي خصصت لنبأ الطوفان الإصحاحات السابع والثامن والتاسع من سفر التكوين، أما خبر الطوفان في القرآن فقد جاء متداخلا مع أغراض القصة الأخرى؛ لذا سنعرض هنا الآيات التي تتحدث عن الطوفان فقط، وسنرجئ التعقيب على الآيات التي تتكلم عن مفردات الدعوة، أو ملامح الداعي إلى موضعها عند الحديث عن مفردات الدعوة الإسلامية في رسالة نوح، ولنبدأ بما جاء عن الطوفان مختصرا في سورة القمر.

(1)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾(القَمَر: 9 – 17).

تختصر هذه الآيات جدال نوح مع قومه، فتكتفي بتقرير أن قومه قد كذبوه وزجروه ناعتين إياه بالجنون، فاستنصر نوح ربه عليهم، ففتح الله أبواب السماء فهطلت عليهم الأمطار من فوقهم، وتفجرت عيون الأرض من تحت أقدامهم، فالتقى الماءان لتحقيق ما قدره الله من إغراقهم، ونجّى الله نوحًا في سفينته التي صنعها بوحي من الله من ألواح الأخشاب والمسامير، ثم تركت تلك السفينة ظاهرة معلومة لمن يريد الموعظة والاعتبار، ولنتوقف برهة عن بعض مفردات الطوفان الإسلامي.

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ .

من البدهي أنه عند النظر في تفسير كلمة أو تعبير ما في القرآن الكريم أن ننظر إليه أولا مرادًا على حقيقته، ولا نعدوه إلى التفسير المجازي إلا بعد أن يتأكد لدينا أن التفسير الحرفي المباشر غير مُراد منها، وأن تعبير (أبواب السماء) من التعبيرات القرآنية التي نميل إلى تفسيرها حرفيًا؛ إذ يغلب على ظننا أنها تشير إلى اعتقاد النبي في وجود ماء الخليقة الأزلي هناك في السماوات العلا؛ حيث يحتجزه الله عنده ولا ينزله لعباده إلا بقدر معلوم[251]، كما تشير إلى ذلك هذه الآية وأمثالها: *وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ

[251]يمكننا أن نرى أساس هذا الاعتقاد في الآيات الأولى من سفر التكوين (1: 1-6).

وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾*(الحِجْر: 21– 22)، وكما نشتمه في وصف النبي للمطر، وقت نزوله وتلقيه له بصدره الشريف، قائلا إنه (حديث عهد بربه[252]).

هذا الذي نميل إليه هو ما سبق أن عزاه المفسرون إلى بعض الصحابة كابن عباس وعلي بن أبي طالب "قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر (وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكُوَّاء سأل عليًّا عن المجرة فقال: هي شرج السماء، ومنها فتحت السماء بماء منهمر [253]".

ولو صح ما نسبه المفسرون إلى هذين الصحابيين[254] لرجح عندنا أنهما ما قالا به إلا اعتمادًا على شرح سمعاه من النبي لهذه الآية أكثر من احتمال اعتمادهما على المرويات الإسرائيلية التي كان أصحابها على علم كثير أو قليل بهذا التصور الخرافي الذي تعكسه آيات سفر التكوين.

(تركناها آية)

وعلى خلاف ما سبق، ورجحناه عن (أبواب السماء) وأشباهها من الغيبيات؛ حيث كان النبي يميل إلى قبول المرويات الكتابية التي يصعب تفنيدها؛ لأنها كانت عنده غيبًا من الغيوب، وكان أول المصدقين بها، فإننا لا نعتقد بأن ظاهر هذه الآية هو المقصود؛ أي من ترك سفينة نوح باقية للعبرة كما زعم بعض المفسرين مثل قتادة حيث قال: "أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة"، ولا نعتقد أيضًا في تأويل ابن كثير؛ حيث يقول معقبًا على تفسير قتادة بعد أن ساقه "والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى:*وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾*(يس: 41 – 42)◉ وقال: *إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا

(252)الحديث أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد (الألباني في تخريج أحاديث ظلال الجنة).

(253)"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، ص 1790 .

(254)انظر الحديث برقم 285 باب المجرة، "صحيح الأدب المفرد" للإمام البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1997 م.

لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾* (الحَاقَّة: 11 – 12)؛ ولهذا قال ها هنا:*فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾*القَمَر:(22) أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟[255]".

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ (القَمَر: 15) أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته [256].

لكن يمكن فهم هذه الآية على معنى قريب مما قاله هذا المفسر الأخير؛ أي قدرنا بقاء خبرها معلومًا مشتهرًا عند جميع الأمم؛ إذ لا قيمة لوجود تلك السفينة إن انطمست في الذاكرة البشرية قصتها، وليس من كبير نفع لوجودها المادي كذلك إن شاعت تلك الحكاية وصدقها الناس!

وهذا الاعتقاد في ذيوع خبر الطوفان عند جميع الأمم والشعوب يعكس أثرًا واضحًا عن صدى حضور قصة نوح وسفينته عند العرب وقت البعثة النبوية، ولكن النبي اعتقد أن مصدر ذلك الذيوع والانتشار ليس مرده إلى تسلل بعض المرويات الكتابية إلى ثقافة قومه، بل لأن الله قد خلّد تلك الحادثة الجليلة في ذاكرة البشر جميعًا لعلهم يتعظون ويعتبرون بما حدث، وأن ما حدث مرة فقد يحدث أخرى، خاصة إن توافرت أسبابه ودواعيه! ولا برهان أدل على اعتقاد النبي في ذيوع قصة نوح وطوفانه بين البشرية كلها أكثر من أنه جعلها على لسان إبراهيم وموسى ومؤمن آل فرعون، فضلا عن اعتقاده عن حضورها من باب أولى عند العرب الأقدمين كقوم عاد وثمود الذين عاشوا، كما أعتقد، بعد الطوفان مباشرة؛ أي قبل زمن إبراهيم بقرون وقرون، وهذا يدلنا على اعتقاد النبي الجازم في أن الطوفان لم يكن قصة من تلك القصص التي

(255)تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى - 1419 هـ، ج7 ص 442.

(256) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 2000 م، ج 1 ص 825.

راجت عند كثير من الأمم والشعوب، بل كانت في اعتقاده واقعة كونية جليلة خبرتها البشرية جميعًا؛ لذا فلا غرابة أن تظل حاضرة في ذاكرة البشر أجمعين!

(2)
الطوفان في سورة هود

*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ
ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن
شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ
أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾*هود: (25–35).

تكاد تكون هذه المشاهد التي أوردتها سورة هود عن نوح وقصته مع قومه أطول ما قصَّه القرآن عنه، بل إنها جاءت أطول مما جاء في سورة نوح نفسها، ولكنها تختلف عنها في أنها جاءت وصفًا لما كان منهم، وتفصيلا لتعنتهم وجدالهم، على خلاف السورة

التي خص بها القرآن نوحًا، فهي تأتي كما لو كانت تقريرًا إجماليًّا لجميع ما فعله وما فعلوه، غير أنهم هناك لا يتكلمون إلا قليلا، بل يتكلم نوح عنهم؛ لذا فقد جاءت هناك توطئة للدعاء عليهم بالهلاك.

أما المشاهد التي أوردتها هذه السورة فهي تنقسم إلى قسمين متعادلين ينتمي أولهما إلى مجال الدعوة ومجادلة قوم نوح له، ونفورهم مما جاءهم به، ويأتي شطرها الآخر ليصف لنا الطوفان وأحداثه، لذا سنعرض هنا قسمها الأول مجملا، وسنلحق ما جاء فيه من مفردات إسلامية بأشباهها التي جاءت في سورة نوح.

من يقرأ هذا القسم يجد نوحًا يقدم نفسه لقومه مثل بقية أنبياء القرآن بأنه لا يعدو أن يكون نذيرًا مبينًا، ويكرر عليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده، متخوفًا عليهم من عذاب الله إن عصوه، لكن قومه يردون دعوته في هذا المشهد لأسباب لا تخص فحوى رسالته مثل الآيات السابقة، بل ينصب اعتراضهم هنا على انتقاص الداعي وأتباعه فهو ليس إلا بشرًا من البشر، ولم يتبع دعوته إلا الأراذل من ذوي الغفلة، وهم سريعو التصديق لكل ما يسمعون، والذين اتبعوه دون إعمال العقل فيما جاء به، ثم يصفون أتباع نوح بالكذب، ونعت أتباع نوح (بالكاذبين) إنما هو وصف مستغرب وغير مفهوم، فلم يأتهم أتباع نوح بخبر من الأخبار التي تحتمل الصدق أو الكذب؛ لذا فقد كان الأحرى أن ينعتوا بأنهم ضالون أو واهمون أو مسحورون وما شابه ذلك، وليس أنهم كاذبون!

ويشبه هذا ما غاب عنا أيضًا من إدراك العلاقة بين إنكار الكافرين البعث والنشور، ونعتهم هذا القول من النبي بإمكان البعث، أو وصفهم القرآن كله، بأنه سحر مبين : *وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾*(هُود: 7).

يتابع نوح بأنه لا يريد شيئًا من وراء دعوته، فهو لا يلتمس الجزاء على دعوته إلا من الله، ويكرر تمسكه بجميع من اتبع نداء الله وآمنوا به وبدعوته، وإذا كانت آيات سورة الشعراء قد اكتفت بازدراء قومه وانتقاصهم فإن الآيات التي معنا تصرّح بما طلبوه منه من طرد المؤمنين المحتقرين، ثم يبرر تمسكه بهم بأنه، وإن كان نبيًّا، لكنه

ليس بمنجاة من عقاب الله إن فعل ما طلبوه، ثم تسوق الآيات ضجر قومه من طول جداله معهم فيتحدونه بأن يعاجلهم بالوعيد إن كان صادقًا، فيجيبهم أن ذلك بيد الله وحده إن شاء عجل به، وإن شاء أرجأه إلى أجل مسمى وفق حكمته، ثم يفسر نوح بأن انصرافهم عن دعوته بعد طول مكثه فيهم لا سبب له عنده سوى ما قدره الله عليهم من الخذلان، وسوء الخاتمة؛ لذا فليس يجدي نصحه نفعًا، ثم تأتي في منتصف المشاهد نقلة تخرجنا من القصة لتعود بعدها لتستكمل المشهد بصنع نوح الفلك؛ إذ إن الله قد أذن بإنزال العذاب بهم، ولكن لنتوقف برهة عند هذه الآية المعترضة:*أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾* (هُود: 35).

أثار مجيء هذه الآية في وسط قصة نوح عجب المفسرين، حتى لقد اختلفوا فيما بينهم عما إذا كانت تلك الآية تخص النبي محمدا، ومن ثم فالمخاطب بها هم أهل مكة، أم أن تلك الآية قد جاءت هنا على لسان نوح، فلا غرابة في مجيئها داخل سياق قصة نوح، ولكن الاتجاه الأغلب عند المفسرين، والأقرب إلى الصحة كما نعتقد، يغلب الرأي الأول؛ لأن كلمة (افتراه) تنصرف إلى القرآن الكريم، واتهام المشركين للنبي باختلاقه من قبل نفسه، فيبعد أن يكون المراد بأن نوحًا قد افترى على الله هذا الوعيد بالإغراق للمكذبين فهذا لا يتناسب مع نوح ووعيده، بل هو أشبه بمحمد، وله في القرآن أشباه ونظائر لا تكاد تحصى ومن ذلك: *أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾* (الأَحۡقَاف: 8)، *أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾* (يُونُس: 38)، *بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾* (الأَنبِيَاء: 5)، وهذا ما فهمه منها المفسرون قديمًا وحديثًا، ومن ذلك قول ابن كثير في شرح هذه الآية: هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكد لها ومقرر بشأنها. يقول تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده *أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ

إِجۡرَامِي﴿٣٥﴾* (هُود: 35) أي: فإثم ذلك علي، *بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ*(هُود: 35)، (أي: ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه)، وهو أيضًا ما قال به مفسر معاصر "بدلالة أن التعبير عن أفكارهم استخدم يقولون، وعن الرد عليهم بقل، الدالين على الحال والاستقبال، يقوي أن الآية الكريمة في شأن مشركي مكة ---- وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول، ولم يذكر شيئًا عن الاتجاه الثاني ما يدل على ترجيحه(257)".

ربما من الملائم أن نقول هنا بأن مجيء تلك الآية، وما فيها من نقلة تبدو مفاجئة إنما هو أمر لا غرابة فيه، إلا لمن يتمسك بصورة الوحي القديم كرسائل حرفية لا دخل ولا دور للنبي فيها مثلما يعبر عن أمثال هؤلاء هذا الكاتب: "ومن المؤكد أن رسل الله - فيما يتلقونه من الوحي- ليسوا أكثر من أجهزة استقبال تامة الأمانة والدقة والكفاءة(258)".

أما من يصدر عن فهم مغاير للنبوة بوصفها تفاعلا وجدلا خلاقا بين ذات النبي ومعارف عصره داخل مفهوم رحيب للهداية الإلهية، فيمكنه أن يرى بأن تلك الآية ما هي إلا فلتة لسان اقتضاها شعور النبي الباطني بالتكذيب من قومه؛ بسبب ما جاءهم به من أخبار الأمم السابقة فطفرت تلك الجملة ـ الآية داخل سياق القصة، تمامًا كمن يقول لمستمعه وقد خشي منه التكذيب في أثناء قصِّه عليه حكاية مستغربة يستهولها كل سامع: "أنا صادق تمامًا في كل ما أرويه لك فلا تظنن أبدًا أني أكذب عليك"، ولا شك في أن هذه الجملة لن تدرج في سياق القصة، لكنها تنبئنا بالكثير عن القاص وعن عالمه.

*****

*وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ

(257)"التفسير الوسيط" محمد سيد طنطاوي، ج7، ص 200.
(258)"النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام"، لواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1992م، القاهرة، ص 174 .

وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾*(هُود: 36-49).

يبدأ هذا القسم بالإشارة إلى أن الله قد أوحى إلى نوح بأنه استوفى نصيبه من المؤمنين، ولم يقدر الله لإنسان آخر اتباع دعوته، ويأمره بألا يحزن من قلة عدد أتباعه، وسوء فعال مخالفيه فقد نهض بواجبه وأدى ما عليه، وأمره الله بعدها بأن يصنع الفلك

الذي سيكون وسيلة نجاته ومن معه من المؤمنين، وألا يلتمس رحمته في أولئك الظالمين الضالين، فقد قضى الله بإغراقهم أجمعين!

وليس في هذه المعاني المأنوسة التي جاءت بها سورة هود ما يعقب عليه بشرط أن تكون سورة نوح قد نزلت قبل سورة هود لكن، وياللعجب فجميع قوائم ترتيب نزول القرآن القديمة تقول إن سورة هود هي من نزلت أولا[259]!

لا نعلم أي الترتيبين أصح، فجميع صور الترتيب تثير الحيرة والارتباك؛ فإذا صح مثلا ترتيب الزركشي، فإننا لا نعلم كيف يستقيم ما أفادته هذه السورة من أن الله قد أوحى إلى نوح، وعلى نحو لا لبس فيه، بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن على خلاف سورة نوح؛ حيث نجد نوحًا هناك هو من يستخلص هذه النتيجة من نفور قومه من دعوته بعد طول مكثه فيهم وصبره وأناته عليهم، ولا يستشعر قارئ سورة نوح أن نوحًا كان على ثقة من أن ما استخلصه من أنهم لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا، كان بوحي من الله، بل كان ظنًّا من الظنون هداه إليه ما خبره طيلة قرون من سوء استجابة قومه رغم طول لبثه فيهم وصبره عليهم[260].

من يتأمل سياق آيات سورة نوح فلن يخطر بباله أبدا ما قاله مفسر مثل النسفي حيث يقول:"وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أخبره بقوله لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ[261]"؛ لأننا لا ندري إن صح قوله ما لزوم أن يفسر نوح لربه اعتقاده وغلبة ظنه بعدم إيمان قومه إن كان الله قد أخبره سلفًا بعدم إيمانهم؟ بل إننا نجد في الأحاديث النبوية الصحيحة ما يقطع بأن الهلاك قد جاءهم استجابة من الله لدعائه عليهم، وإلا فلو أن نوحًا دعا على قومه بعد أن أخبره الله بتقديره الهلاك عليهم، فما فائدة دعوته عليهم؟![262].

---

(259)في ترتيب الزركشي تأتي سورة القمر (36)، ثم سورة هود (51)، ثم سورة نوح (70)، أما في ترتيب النزول الذى أقره الأزهر فتأتي سورة القمر (38)، ثم سورة هود (52)، وأخيرا سورة نوح (71).

(260)"*ولايلدوا إلافاجرًا كفارًا* أي: فاجرًا في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا" تفسيرابن كثير، طبعة سلامة، ج8، ص 237.

"وعلم نوح أنهم لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا بأن أولادهم ينشؤون فيهم فيلقنونهم دينهم ويصدون نوحًا عن أن يرشدهم، فحصل له علم بهذه القضية بدليل التجربة والمعنى: ولا يلدوا إلا من يصير فاجرًا كفارًا عند بلوغه سن العقل، (الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 29، ص214) وعلى هذا فلم يدع نوح على قومه إلا بعد أن يئس من إيمانهم كما يقول الطبري وهو رأي صائب قال به عموم المفسرين.

(261)راجع "الأساس في التفسير" سعيد حوى، دارالسلام، القاهرة، الطبعة السادسة، ج11، ص 6159.

(262)ينص حديث الشفاعة على أن نوحًا قد أمضى دعوته المستجابة في إهلاك قومه؛ لذا نراه لا يتطلع للشفاعة في الخلائق يوم القيامة، فينصرف الناس إلى من ادخرها لهذا الوقت العصيب!

أما إذا صح ترتيب المستشرقين من أن سورة نوح قد جاءت قبل سورة هود، فإننا لا ندري كذلك كيف يستقيم ما جاء في سورة نوح من استنزاله هناك غضب الله عليهم أجمعين كبيرهم وصغيرهم مع ما تقوله هذه السورة من مخاطبة الله لنوح بألا يشفع فيهم، أو يطلب الرحمة لهم، فكيف يعقل أن يتشفع نوح في الظالمين إن كان قد دعا عليهم أن يستأصل الله شأفتهم، ولا يغادر منهم أحدًا يمشي على الأرض؟!

لكن على كل حال، من يقرأ أقوال المفسرين لا يجد أنهم وقد استشعروا شيئًا من ذلك، بل يجدهم يرتبون أحداث القصة منطقيًّا من مجموع سور القرآن دونما التفات لترتيب نزول سور القرآن، فهذا ابن كثير مثلا يقول: "يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال:*رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾* (نُوح: 26)، *فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾* (القَمَر: 10)، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: *أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴿٣٦﴾*(هُود: 36)، (فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم[263]"، "أي: ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين، بأن ترجوني في رحمتهم أو في دفع العذاب عنهم، فقد صدر قضائي بإغراقهم ولا راد لقضائي[264]"، "وقال مقاتل: يعني: بتعليمنا وأمرنا. وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا يعني: فلا تراجعني في قومك، ولا تدعني بصرف العذاب عنهم، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ بالطوفان. ويقال: وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، يعني ابنه كنعان[265]".

---

(263)"تفسير القرآن العظيم"، ص 954.

(264)"التفسير الوسيط" للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى يناير 1998م، ج7، ص202.

(265) "بحر العلوم" السمرقندي، ج2، ص 149. ربما كان في هذا التفسير الأخير؛ أي أن يكون المقصود هو ابن نوح الذي كفر برسالة أبيه، مخرجا لتلك الإشكالية، لولا أننا نعتقد أن تعبير (الذين ظلموا) لا يحتمل شيئًا من هذا.

لا تفسير عندنا لهذا سوى القول بأن ترتيب نزول السور كما أورده علماء القرآن القدماء إنما هو ترتيب خاطئ[266]، أو أن النبي نفسه لم يلتفت إلى شيء من هذا، مثلما سنرى شبيه ذلك عند عرضنا لقصة لوط وحضور ملائكة العذاب لنجدته![267]

يعود السياق ليصف لنا شروع نوح على الفور في صنع الفلك، وتصف الآيات ما كان يلاقيه نوح من سخرية قومه، وقد رأوا هذه الأعجوبة من صناعة الفلك في الصحراء، ولكن نوحًا يرد عليهم هذه السخرية؛ فهو موقن بنزول ما توعدهم الله به من عذاب في الدنيا ومن خلود في نار الآخرة التي لا ينطفئ أوارها، وساعتها سيعلمون من كان يستحق السخرية، من أطاع الله أم من عصاه؟! ثم جاءت اللحظة الحاسمة، وجاءت إشارة البدء بأن تفجرت ينابيع الأرض بالماء إيذانًا بوقوع العذاب، ولكنها لم تخرج من أي مكان، بل تتفجر من آخر موضع يتوقع الناس أن يخرج منه الماء؛ وهو التنور المتقد، وفي هذه العلامة الغريبة من خروج الماء من التنور فيها، ما نرجح بشدة، أنه يعتمد على مروية سماعية ما لا ندري عنها شيئا[268].

ثم يأمر الله نوحًا بأن يحمل في السفينة من كل الأنواع زوجين، وقد جاء التعبير منكرًا منونًا بما يسمى (بتنوين العوض) لكي يفيد استغراق الأنواع كلها، ومع تلك الأزواج من المخلوقات الحية جميعًا، فليحمل في السفينة من قدر الله نجاته من أهله، والقليل ممن آمن معه، ثم يدعو نوح المؤمنين ليركبوا في السفينة، متوجهًا إلى الله بهذا الدعاء الجميل: باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم.

---

(266)من المعلوم أن تلك المنظومة المعرفية التي تسمي (بعلوم القرآن) إنما هي معارف ظنية، ولا تعتمد في الغالب على أسانيد متصلة صحيحة، بل هي في أغلب الأحوال أقوال مرسلة؛ لذا فيمكن لمن يشاء أن يرجح نزول سورة هود قبل سورة نوح كما فعل بعض الباحثين المدققين، انظر مثلا قائمة (نولدكه) كما وردت في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) لعابد الجابري، ص 241؛ حيث جاءت سورة القمر برقم (51) وسورة نوح برقم (54) قبل سورة هود (77) في ترتيب نولدكه\ بلاشير. وللمزيد عن مصادر العلم بتاريخ النزول يرجع إلى كتاب "أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره" د. أحمد خالد شكري، عمران سميح نزال، الطبعة الأولى، 2007م، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ص 43، وما بعدها .

(267)والأهم من هذا كله هو ملاحظة أن الخطاب الإلهي في هذا الموضع من سورة هود وإن بدا أنه يخاطب نوحًا فإن الخطاب في باطنه كان يعكس التأملات الباطنية للنبي محمد وخواطره تجاه مصير دعوته، فتلك الآية وأمثالها كثير، فقد كانت تدل على اعتقاد النبي الجازم فى أن عموم قومه هو لن يؤمنوا به، وأنه لن يصيب من النجاح في دعوته أكثر ممن سبقه من الأنبياء والمرسلين، بل إن الدعوة بألا يحزن أو يبتئس إنما هي موجهة للنبي محمد كذلك مثل أشباهها: *فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68)* المائدة، *فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) فاطر*، وأيضًا *فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)* سورة الكهف، ولنا عودة إلى ذلك.

(268)لأنه لا ضرورة لذكرها في هذا السياق إلا لحضورها في العقل النبوي، وقل مثل ذلك عن أمثال هذه الكلمات: الجودي، بابل، بعل، السامري، سبأ، عمر نوح، التنور، العزيز، هاروت وماروت، وأشباهها في القرآن كثير.

ثم تصف الآيات السفينة وهي تجرى براكبيها وسط أمواج في ارتفاع الجبال، ثم تأتي هذه اللفتة الإنسانية والإيمانية المؤثرة؛ إذ نعلم وفي هذا الموقف دون سواه أن لنوح ابنًا، ولم يكن هذا الابن بين جماعة الإيمان الناجية في السفينة، وهنا لم يكتف نوح أن يكون نبيا فقط بل يغلب عليه شعور الأب المحب لولده، وإن كان كافرًا؛ لأننا علمنا أن الله قد أطلع نوحًا في مستهل الآيات على أنه لن يؤمن به إلا من آمن، لكن نوحًا ورغم علمه ذاك يدعو ابنه للحاق به والركوب معه ولن يكون له شيء من ذلك إلا بالإيمان، لكن الابن كانت له خطة أخرى سرعان ما سيعلم نتيجتها المحزنة فغرق مع الغارقين (269).

بعدها ودون أي تفاصيل مثل تلك التي أوردتها التوراة يأمر الله السماء بأن تغلق أبوابها، وأن تبتلع الأرض ماءها ما يوحي بسرعة انقضاء الأمر، وتستقر السفينة سريعا على جبل (الجودي)، ثم يعود نوح إلى الله ليتضرع إليه في مصير ابنه الأخروي، فهو وإن عصاه في الدنيا وفاتته النجاة فليرحم بشفاعة من أبيه المكروب من عقوبة الله في الآخرة، ولكن الله يخبر نوحًا أن لا شفاعة في كافر ولو كان من أقرب الأقربين، ويخبره الله في حزم صارم أن يكف عن طلب ما لاعلم له به، فينصاع نوح في خشوع أمام قضاء الله مستغفرًا منيبًا، ويختم هذا المشهد الطويل بتلك الآية التي تقرر في جلاء وحسم أن معرفة هذه القصة وأمثالها من دلائل نبوة الرسول وصدق رسالته، وتدعوه إلى الصبر اقتداء بجميع الأنبياء خاصة هذا النبي الذي قضى في دعوته ما يعدل عشرين عمرًا من كامل عمر النبي وقت الدعوة!

(269)نعجب من تأخر هذه المحاورة الغريبة بين نوح وابنه حتى تلك اللحظة؛ لأننا لا نستطيع أن نتخيل أن تكون الأمواج كالجبال، ثم يظل هناك موضع على الأرض خارج السفينة! ولا ندري كيف لم ير الابن تلك الأمواج الهائلة؟ وكيف إذا رآها، فهل يمكن أن يظن بعدها أن هناك أي جبل يمكن أن يعصمه منها؟!

(3)
أسرة نوح القرآنية

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ (التَّحۡرِيم: 10).

من يقرأ الروايتين القرآنية والتوراتية عن قصة نوح فلا بد أن يستوقفه الاختلاف الواضح بين مصائر أسرة نوح في الروايتين؛ لأنه إذا كانت الرواية التوراتية قد قضت بنجاة أسرة نوح جميعًا ليخرج من تلك الأنفس الثمانية جميع البشر الذين سيعمرون الدنيا بعد الطوفان فإن الرواية القرآنية تقضي بكفر امرأته دون أن تصرح في الوقت ذاته بغرقها مع المغرقين .

لا نلمح أثرا لامرأة نوح في سياق قصة الطوفان كلها؛ فلا ذكر لغرقها تصريحًا ولا تلميحًا، وكما هو ظاهر فلم يبالِ الرجل بسؤال ربه عنها، أو الشفاعة لها عنده كما فعل مع ولده، حتى إن آية سورة التحريم وهي سورة مدنية متأخرة وقرنت امرأة نوح مع امرأة لوط، كمثال عملي على أن الإيمان لا ينال بالقرابة من الأنبياء، كانت هي أول وآخر آية أتت على ذكر كفر امرأة نوح غير آبهة بغياب ما يدل على ذلك من قبل، على خلاف مصير امرأة لوط حيث كان القرآن يقرر كلما تكررت القصة أن مصيرها كان الهلاك مع سواها من الغابرين[270]!

---

[270] هل يذكرنا هذا التجاهل بما أغفله القرآن بشأن تحقيق مصيرأم النبي إبراهيم؟! فكما نعلم فقد استغفر إبراهيم لوالديه وعوتب إبراهيم على استغفاره لأبيه من قبل الله، لكننا لم نسمع شيئا بشأن أمه! ولا ندري ما دلالة هذا التجاهل لمصير أمه وقصتها في القرآن الكريم؟! لأنه من ناحية لا يسهل الاعتقاد بأنها كانت امرأة مؤمنة مسلمة عندما دعا لهما إبراهيم بالمغفرة على خلاف أبيه الذي كان كافرًا. من ناحية أخرى، فهذا الدعاء الذي كان في آخر عمر إبراهيم فلا يعقل معه أن يكون قد تأخر إيمانها حتى ذلك الوقت! وأغلب الظن أن هذا الإغفال يطلعنا على ما هو معلوم من وضع المرأة في تلك المجتمعات؛ حيث لم يكن يؤبه بها مؤمنة كانت أو كافرة، بل كان الرجل هو محور الخطاب الديني كله، فالمؤمنون رجال والكافرون رجال، والأنبياء لابد أن يكونوا وفق القرآن من بين الرجال، ويكفي في هذا المقام أن نتذكر دلالة احتجاج السيدة أم سلمة زوج النبي عندما سألت: "يارسول الله! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة"، فأنزل الله تعالى: *أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض*، قال الشيخ الألباني: حسن لغيره. وأخرجه الحاكم في "المستدرك"، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

أما من يقرأ سياقات آيات الطوفان القرآني كلها، فلن يجد إشارة أو موضعًا يقول بأنه كان يجعلها من بين المغرقين، فلماذا إذن لم يذكرها القرآن مع المغرقين إن كانت من الكافرين بزوجها وبدعوته؟ ولا يعقل أيضًا أن تكون قد كفرت به بعد الطوفان، وقد رأت بأم عينيها تجليات القدرة الإلهية متجسدة على يد زوجها في الطوفان الكوني الذي أهلك البشرية جميعًا عدا أسرتها! لذا فيغلب على ظننا أن ما جاء في سورة التحريم كان يعتمد على مروية تلمودية متأخرة عرفها النبي في المدينة، وأنها كانت تحوي شيئًا لا نعلمه عن سوء فعال أو اعتقاد امرأة نوح، أو كانت تنص على أنه كان لنوح زوجتان كانت إحداهما كافرة وأنها غرقت مع الغارقين![271]

وعلى كل حال، فهذا التقرير القرآني بكفر امرأة نوح دون النص بهلاكها مع المغرقين الكافرين قد أصاب المفسرين بالحيرة؛ لذا فلا نجدهم يقولون بقول نافع في تفسير هذا المشكل، بل نجدهم بين من يطابق بين فعل امرأة نوح وامرأة لوط بأن يقول إن كلتيهما كانت عينا لأعداء زوجها مثلما يقول الطبري ومن وافقه: (عن ابن عباس، قوله: *ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا ۝١٠*(التَّحْرِيم: 10)، قال: كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سرّ نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها؛ وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوط أحدًا أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء[272]".

وهو كما ترى رأي ضعيف ولا برهان عليه من القرآن أو الأحاديث النبوية، لكنه على وهنه خير ممن يقول بنفاقها، وأنها كانت تظهر الإيمان وتبطن الكفر! لأن هذه الآية ما جاءت إلا لتقرر بأن امرأة نوح وإن فاتتها عقوبة الدنيا، لكنها ستلقى عقوبة الآخرة من الخلود في الجحيم:"وجائز أن يكون هذا المثل؛ لمكان أهل النفاق فيما أظهروا

---

[271]خاصة أننا نجد كثيرا من المفسرين يأتي لنا بتفصيلات لا نعلم من أين أتوا بها؟! ولكن لا يبعد أنها كانت مما شاع بين مسلمة اليهود ومن ذلك قولهم: إن نوحًا كانت له زوجتان آمنت به إحداهما وكفرت به الأخرى، وأن ابنه الكافر هذا كان من رحم هذه المرأة الكافرة!! (وَمَا صدق هَذَا إِحْدَى امْرَأَتَيْهِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ وَابْنُهُ مِنْهَا الْمَذْكُورُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. وَكَانَ لِنُوحٍ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- امْرَأَتَانِ)، راجع مثلا "التحرير والتنوير" الطاهر بن عاشور، ج 12، ص 72، الدار التونسية للنشر، تونس 1984م.

[272]انظر تفسير الطبري، ج23، ص 498، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

موافقة المؤمنين، وأسروا الخلاف لهم، فيخبر أنه لا ينفعهم إظهار موافقتهم في الدِّين إذا كانوا على خلافه في التحقيق؛ كما لم ينفع زوجتي نوح ولوط، إظهار الموافقة منهما لزوجيهما إذا كانتا على خلافهما في السر، والله أعلم[273].

(4)
ابن نوح

أما عن قصة ابن نوح القرآني وغرقه مع الغارقين بعد تلك المحاورة المؤثرة، فلا ندري إن كانت هناك مرويات بلغت مسامع النبي من خارج التوراة جعلته يقول بذلك؛ لأنه إذا غاب جميع ما يغري القرآن بإغراق امرأة نوح، فإن هناك إشارة بعيدة تجعل ابن نوح الغريق في القرآن، هو المعادل الموضوعي لابن نوح الملعون في التوراة، حتى إن اختلف باعث الإدانة في الروايتين! وأغلب الظن أن القصة القرآنية كانت تعتمد على قصة تلمودية عن ابن رابع لنوح لم يشأ أن يركب في السفينة؛ لأنه كان مرتابًا أو كافرًا بدعوة أبيه فهذا هو الأرجح، ولو كان الأمر كذلك، فليس هذا بعجيب ولا غريب؛ فكثير من القصص القرآني يتضمن مرويات من خارج الكتاب المقدس خاصة عند إبراهيم ويوسف وموسى وسليمان عليهم السلام، وغيرهم، ولكن الذي لا نشك فيه هو أن إبراز تلك الجوانب في القصة القرآنية كان ذا صلة وثيقة بالتشققات والتصدعات الأليمة التي أحدثتها الدعوة الإسلامية، والتى مزقت العلاقات الراسخة في المجتمع المكي، ولابد من أنها قد نالت من جماعة الإيمان الأولى خاصة في تلك البيئة التي كان يعد فيها الخروج على قيم القبيلة والخروج من تحت سقف الولاء الكامل لها جريمة لا تغتفر لحق روح التضامن الدموي، والحاضر في تقاليدها الراسخة منذ قرون وقرون، فضلا عن كونه مجازفة مرعبة، أم أن لنا أن نفترض وجود روايات سماعية خارج التوراة الرسمية تشير إلى شيء من ذلك؟

ونحن نميل إلى التصور الأول، ولو تأكد لنا ذلك فلن نعده أبدًا اختلاقًا من النبي - حاشاه - بل ربما كان افتراضًا افترضه، ثم سرعان ما تأكد لديه وبنى عليه، فلن يكون ابن نوح وعصيانه لأبيه أكثر من تجسيد خيالي لذلك الشخص المجهول، والذي عصى

---

(273)"تأويلات أهل السنة"، لأبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 2005م، ج10، ص 96.

والديه المؤمنين كما جاء في سورة الأحقاف مثلا: *وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾*(الأَحْقَاف: 17–18)، ومن يعرف طريقة العقل النبوي ومسار مخياله فلن يصعب عليه قبول هذا الأمر، الذي يبدو للوهلة الأولى غريبًا بل يستعصى على التصديق، وأما لو عثرنا على ما يؤكد حضور قصة كهذه خارج التوراة فالأمر أيسر وأهون، فليس من الغريب أن يوظف النبي تلك الواقعة ويحتفي بها، بعد تصديقه لها، لاحتياجه الشديد إليها ولأمثالها لما كان يكابده ومعه جميع المؤمنين في تلك اللحظة العصيبة من تاريخ دعوته :*يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾* (التَّوْبَة: 23–24).

من يقرأ هاتين الآيتين من سورة التوبة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، فلن يخفى عليه ما تشير إليه من صعوبة الانخلاع من تلك الروابط الغائرة، وليست الدعوة الإسلامية عجبًا في إحداث تلك التمزقات، فجميع الدعوات الكبرى دينية وغير دينية تفعل ذلك، وإذا كان المسيح قد وجد من الضروري التنويه بتبعات الإيمان به وما يجره من انشقاقات أليمة كما في قوله: "لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ

حَمَاتِهَا [274]"، وإذا كانت الأمور بتلك الشدة في مجتمع يسوع، فلا شك أنها كانت في المجتمعات القبلية العربية أشد إيلامًا؛ لذا فلا يخفى ذكاء إيرادها على هذا النحو، وتوظيف ذلك في تسكين الخواطر عبر تجسيد أن ما يحدث للمؤمنين الصابرين قد حدث مثله من قبل في بيوت الأنبياء والمرسلين، فهل من تسرية وتعزية أقوى من ذلك؟! وقد حاول بعض المفسرين نفي بنوة هذا الابن الكافر عن أبيه، وجعله مرة ابن زنا ولد على فراشه، أو هو ربيبه من امرأته الكافرة تلك، أو إلى القول بنفاقه وأنه كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر؛ لذا ناداه نوح رغم وحي الله الواضح إليه بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن إلى آخر هذا اللغو غير النافع؛ لأننا لا ندري كيف يوفق من يقولون إن ابن نوح الغارق هذا كان منافقا يظهر خلاف ما يبطن، بين قولهم هذا وبين ما تدل عليه الآيات من شدة الخطاب الإلهي، ومن كل هذا التقريع الذي تلقاه نوح من ربه من جراء سؤاله الرحمة لابنه؟! فإن صح قولهم وكان الرجل غافلا وجاهلا بفساد عقيدة ابنه؛ فلمَ استحق إذن كل هذا التوبيخ؟! إن جميع تلك التخريجات لا برهان عليها من ناحية، والأهم من هذا كله أنها تتعارض مع ما جاءت القصة القرآنية أساسًا لإثباته وتقريره من أن ما كان يحدث مع المسلمين الأوائل قد حدث مثله في جميع العصور، وأن الأنبياء أنفسهم قد عانوا مما عانوه، ولقوا من أقرب أقربائهم مثل ما لاقوه؛ لذا فقد جاءت هذه التفصيلة القصصية المؤثرة لتمنح شرعية عاطفية للشعور بالألم من تمزق تلك الروابط الإنسانية مع الأحباء والأقربين من ناحية، لكنها جاءت لتقرر في النهاية ما يجب فعله دون سواه، وهو الانتماء الكامل إلى جماعة الإيمان والانحياز المطلق للعقيدة دون سواها من الروابط والانتماءات مهما كانت[275].

إلى جانب النهي الإلهي الصارم لنوح ورده العنيف عن التشفع لمن قدر الله عليه الهلاك ولو كان ابنه، خاصة أن ظاهر القرآن لا يصرح بكفر ابنه وإنما يشير إليه ضمنًا،

---

[274]"إنجيل متى": 34-35.

[275]حاول النبي جاهدًا إقامة رابطة بديلة على أرضية الإيمان والكفر الخالصين مثل تلك التجربة الفذة التي حاول تطبيقها في المدينة بُعيد الهجرة من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ حيث حلت الرابطة الروحية مقام رابطة الدم التى بلغت حد التوارث بين الغرباء دون الأقربين، ولكن سرعان ما تبين للنبي صعوبة ذلك، فحلت رابطة الدم بعد سنوات قليلة، وهذه المحاولة تعد من أنبل المطامح الروحية خاصة في هذا المجتمع المؤسس على أعتى روابط العصبية القبلية وروابط القرابة الدموية، لكن - واأسفاه - فلا شيء يحدث على خلاف الطبيعة الإنسانية، وإن حدث فهو لا يدوم طويلا، ولا برهان أقوى من أمثال تلك المحاولات في الدلالة على توق الإنسان إلى التحرر من ربقة إرثه الحيواني ومن صعوبة الانخلاع منه كذلك!

لكننا نجد أن هذا الزجر والتوبيخ الإلهي لنوح يتضمن ملمحًا اعتقاديًّا إسلاميًّا خالصًا، وهو تأكيد ضرورة الوقوف عند ما يكشفه الله لعباده المؤمنين من أسباب تقديره، وبيان أنه لا ينبغي للمؤمن الحق في أن يجادل ربه عن أسباب تقديره التي خفيت عليه في المقدور النازل به مهما كان القضاء النازل بالعبد أليمًا شديدًا، وأن على العبد الصالح أن يعرف حدوده مع مقام الرب العظيم، فيحسن الظن بربه فلا يسأل بل يسترسل مع قضاء ربه فيرضى بقضاء الله فيه، سواء أعلم الحكمة من ورائه أو لم يعلم، ومن الواضح أننا نجد كل هذه الدلالات المتضمنة في تلك الوصية حاضرة في القرآن الكريم سواء ما جاء منها على لسان الله مباشرة لجموع عباده أو من بين ما أورده القرآن على ألسنة أنبيائه الذين يترجمون عن إرادته للعباد، فمن الأولى:*وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾* (الإِسْرَاء: 36)، ومن الثانية على لسان لقمان: *وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾* (لُقْمَان: 15).

*تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَاۖ ﴿٤٩﴾*هُود:(49).

تأتي هذه الآية وغيرها كثير عقب ما يورده القرآن الكريم عن قصص الأنبياء كبرهان على صدق نبوة الرسول، ولتأكيد أن ما جاء به كان وحيًا إلهيًّا خالصًا، ولكن كيف يستقيم هذا مع ما يعرفه الجميع من حضور تلك القصص بين العرب؟ فقد: "كان عرب الجاهلية يعرفون طرفا من أخبار نوح والطوفان ما بين مكثر ومقل، فقد جاءت قصة نوح على نحو مفصل في شعر أمية ابن أبي الصَّلْت، وجاءت موجزة في شعر الأعشى، وكذلك النابغة الذبياني وجاء اسم جبل الجودي في شعر منسوب إلى ورقة بن

نوفل، بل لقد جاء في الأمثال العربية مثل يستلهم قصة نوح وهو (أبطأ من غراب نوح) [276]".

إن التوفيق بينهما هين ميسور؛ لأن من يقرأ قصة نوح، وقد صارت إلى ما صارت إليه في القرآن، فلن يجد مهربًا من التسليم بأن قوم النبي لم يكونوا يعرفونها على تلك الصورة، بل كذلك أهل الكتاب الذين جاءت تلك القصة في كتبهم المقدسة بعد كل هذا التباين والاختلاف في الروايتين، فليست هناك علاقة بين نوح القرآني ونوح التوراتي، والمسافة الفاصلة بينهما هي المسافة البعيدة ذاتها بين نوح الأسطوري القديم ذاك كما يتجلى في العهد القديم، ونوح المخيالي الذي هو محمد عليه السلام نفسه وقد عاد إلى الزمن القديم، هذا عن جموع المستمعين، فماذا عن النبي الذي لا يشك عاقل في أنه ألمَّ بقصة نوح على ما بلغته، ولا ندري ما كانت عليه من اتفاق أو اختلاف مع الرواية الكتابية؟!

ليس من برهان داخلي على صدق النبي الذاتي أكثر من هذا البرهان، فقد بدا جليًّا للنبي نفسه أن ما استلهمه في ذاته العميقة، قد بدا له هو نفسه شيئًا جديدًا لا علاقة له بما قد يكون قد بلغ مسامع العرب أو بما كان يردده أهل الكتاب من أخبار نوح التوراتي، فكان من حضور هذا المضمون الجديد في نفسه ما يجعل النبي يزداد تصديقًا على تصديقه بأن ما جاء به إنما هو وحي أوحاه الله إليه، وهذا الذي لا ننكره على النبي هو ذاته ما يحق لكل نحلة أن تقوله من أن عسلها ليس مجموع ما التقطته من رحيق الأشجار!

* فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩*(هُود: 49).

أما عن الشطر الأخير من تلك الآية، فلا يخفى على أحد أنها تترجم عما كان قد قرَّ في قلب النبي محمد في تلك الفترة من أنه لن يتَّبع من أكثر العرب، مثلما استشعر نوح بأنه لن يؤمن له من قومه إلا من آمن به، بل إننا نجد القرآن يطلب إلى النبي أن يكف عن استعجال العذاب لقومه مثلما فعل نوح كما في هذه الآية:*فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ

(276)"الإنسان في الشعر الجاهلي" الدكتور عبد الغنى أحمد زيتوني، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى 2001م، ص 404 وما بعدها.

أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾*(الأَحْقَاف: 35)، ومثلها:*فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾*(مَرْيَم: 84–85).

رابعا: هل كان الطوفان القرآني عاما؟

لا خلاف على أن الرواية القرآنية أقل وضوحًا من سابقتها التوراتية بشأن الدلالة على عموم الطوفان أو خصوصه؛ فعموم الطوفان في القرآن إنما يستنبط من دلالة النصوص، وليس من النص الواضح عليه كما جاء في رواية التوراة، حتى سمح هذا لبعض الباحثين المسلمين المحدثين، وبعد أن تبينت لهم تلك الانتقادات الشديدة التي تعرضت لها الرواية التوراتية بالقول بأن الطوفان في القرآن الكريم إنما كان طوفانًا خاصًّا بالمنطقة التي كان قوم نوح يعيشون فيها ولم يتجاوزها إلى عموم الأرض. ومن بين هؤلاء القائلين بخصوصية الطوفان القرآني هذا المؤرخ الذي يقول: "وإنني لأظن، وليس كل الظن إثمًا، أن الطوفان كان خاصا بقوم نوح دون سواهم من العالمين [277]" ثم نراه يسوق لتعضيد رأيه هذا قرائن كثيرة: أهمها أن القرآن قد ذكر مرارًا أن نوحًا قد أرسل إلى قومه خاصة، وليس إلى جميع البشر، وكذلك من بين الأدلة التي استند إليها الباحث القول بأن العدالة الإلهية تقضي بألا يؤاخذ الله بقية الشعوب بجريرة قوم نوح، فكيف يغرق الله أهل الأرض جميعًا بسبب من كفر قوم نوح؟! ولمَّا كان يعتقد أن نوحًا كان يعيش في جنوب العراق فلم يستقم عنده أن يغرق الله المصريين أو السوريين أو سكان الجزيرة العربية بسبب كفر قوم نوح؟!

أما عن برهانه الأول فقد رأينا أن ظاهر القرآن يقول بأن قوم نوح كانوا هم جميع أهل الأرض، ولم يستخدم القرآن كلمة (قومه) في سياق قصة نوح إلا لبيان وحدة الجماعة البشرية الصغيرة التي أرسل الله نوحًا إليها، وسياق الآيات لا يوحي مطلقًا بجماعة بشرية كبيرة، بل يشير إلى جماعة بشرية صغيرة، كانت تجتمع في مكان واحد

[277]"دراسات تاريخية من القرآن الكريم"، د. محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية، بيروت، الجزء الرابع، الطبعة الثانية 1988م، ص 84 وما بعدها .

وأرسل الله فيها نبيًّا واحدًا، وكانت تلك القبيلة تعبد خمسة أصنام لا أكثر؛ أي أنها كانت على أقصى تقدير للنبي قبيلة عظيمة العدد متعددة البطون مثل أي قبيلة عربية كبيرة في عصره. وأما عن السبب الآخر الذي اعتمد عليه هذا المؤرخ، فإن التصور النبوي عن ترتيب حضور الجماعات البشرية في التاريخ لا يقول بشيء من هذا، فليس في القرآن أو التوراة أي إشارة تقول بأن نوحًا كان يعيش في العراق أو في غير العراق! زد على ذلك أن النبي لم يكن ليعتقد أن المصريين أو غيرهم من الأمم والشعوب كان لهم وجود في تلك الفترة البعيدة من تاريخ البشر؛ فمن ينظر في تاريخ الأمم وفق القرآن فلن يجد سوى هذا المخطط البسيط: فقد جاء آدم وبنوه في البداية، وعاشوا ما شاء الله لهم أن يعيشوا في مكان ما على الأرض، ثم فشا في تلك الجماعة الصغيرة الشرك وعبادة الأصنام فأرسل الله لجميع البشر ذلك الزمان عبده نوحًا ليردهم إلى ما كانوا عليه من التوحيد الأول، وعندما تمادوا في طغيانهم أهلكهم الله، ومن نسل نوح ونسل الناجين معه جاءت الجماعات البشرية جميعًا، فكان من سكن منهم بلاد العرب، وخرجت منهم عاد وثمود، ومن بعض بنيه جاء إبراهيم والعبرانيون أولا ثم تتابعت الأمم والشعوب بعد إبراهيم، حتى إنه يغلب على ظننا اعتقاد النبي في أن تاريخ البشر كان إلى عهد إبراهيم كان سلسلة من المحو والإفناء، والنصرة والإنجاء، ولم تتعاصر الشعوب إلا بعد تلك الفترة.

أقصى ما يمكن الركون إليه في هذه المسألة عن عموم الطوفان أو خصوصه، هي فتيا الإمام محمد عبده كما عبر عنها الشيخ رشيد رضا، وخلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والأحاديث على أن الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم فيجب اعتقاده من ناحية، ولكنه من ناحية لا يقتضي هذا العموم أن يكون الطوفان عاما للأرض بأسرها؛ إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض، وهو على الجملة تقدير موفق مقبول ويصلح لأن يكون أقرب الآراء التي يخرج بها قارئ القرآن: "وَيَزْعُمُ غَالِبُ أَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الطُّوفَانَ لَمْ يَكُنْ عَامًّا، وَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَوَاهِدُ يَطُولُ شَرْحُهَا، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِشَخْصٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُنْكِرَ قَضِيَّةَ أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ عَامًّا لِمُجَرَّدِ احْتِمَالِ التَّأْوِيلِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، بَلْ عَلَى كُلِّ مَنْ يَعْتَقِدُ بِالدِّينِ أَلَّا يَنْفِيَ شَيْئًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الآيات وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي صَحَّ سَنَدُهَا وَيَنْصَرِفُ عَنْهَا إلى التَّأْوِيلِ إِلَّا بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ يَقْطَعُ بِأَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ الْمُرَادِ، وَالْوُصُولُ إلى ذَلِكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

يَحْتَاجُ إلى بَحْثٍ طَوِيلٍ، وَعَنَاءٍ شَدِيدٍ، وَعِلْمٍ غَزِيرٍ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ، وَذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى عُلُومٍ شَتَّى عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ، وَمَنْ هَذَى بِرَأْيِهِ بِدُونِ عِلْمٍ يَقِينِيٍّ فَهُوَ مُجَازِفٌ لَا يُسْمَعُ لَهُ قَوْلٌ، وَلَا يُسْمَحُ لَهُ بِبَثِّ جَهَالَاتِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أَعْلَمُ[278]".

رغم أن هذه القضية ليست في ذاتها من بين أغراض هذا الكتاب فقد حاولنا، بأقصى ما نستطيعه من التجرد، النظر والتأمل في الآيات التي أوردت خبر الطوفان في القرآن، يعيننا على ذلك أنه لا غرض لنا في إثباته، ولا هوى لدينا في نفيه وإنكاره، لكن بعد إمعان النظر في الآيات لم نجد مفرًّا من الاعتقاد في أن القرآن إنما كان يتابع التوراة في شمول الطوفان. فقد حاولنا مثلا افتراض أي سبب يجعل النبي يخالف التوراة في هذه النقطة ويجعل منه طوفانا محليا، فلم نجد شيئا من ذلك، بل ربما كان حضور الطوفان في تلك الفترة الباكرة من عمر الخليقة، وتأكيد الآيات مرارًا أن البشر جميعًا هم من ذرية الناجين مع نوح، وأضف إلى ذلك متابعة القرآن للتوراة في أخذ أزواج الحيوانات في السفينة ما يجعلنا نرجح، بل نكاد نجزم، بأن القرآن كان يقرر عموم الطوفان مثله في ذلك مثل كتبة التوراة والتلمود والأناجيل.

من بين الارتباطات التي لا ينبغي أن تغيب عن أحد هو هذا الارتباط الضروري بين البيئة وأشكال العقوبات الإلهية، فلن نجد من الغريب مثلا أن تأتي العقوبات الإلهية في البلاد الصحراوية على هيئة صيحة أو صواعق أو رياح عاتية تطمر القرى، وتدفن أهلها تحت الرمال وأما الطوفان فليس مما يتبادر إلى الذهن سوى أن يكون نتاج بيئة بحرية أو بيئة نهرية تعيش على حافة نهر جامح[279].

لذا، فمن المنطقي أن يكون أساس تلك الأسطورة هي بلاد ما بين النهرين، وكما رأينا فهناك إشارات موحية بأن نوحًا كان يعيش في بيئة قريبة الشبه ببلاد النبي محمد، لذا فإننا نعتقد أنه لو لم تأت الرواية التوراتية بمثل تلك الأسطورة التي شاعت وصدقها

[278] راجع "تفسير المنار"، ج12، ص 90، الهيئة المصرية العامة للكتاب. وغير بعيد عنه ما اختاره الشيخ عبدالوهاب النجار حيث يقول: "وعلى كل حالة، فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحًا ومن معه في الفلك وجعل ذريته الباقين؛ فالعموم يحتمل والخصوص محتمل والذي أميل إليه أن يكون خاصا، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشرًا في جميع الكرة، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته"، انظر "قصص الأنبياء" عبدالوهاب النجار، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 36.

[279] وقد كانت كل الأنهار الكبيرة جامحة في تلك الأزمنة فلم يسيطر البشر على الأنهار، بإقامة السدود إلا بعد فترة بعيدة للغاية عن تلك الفترة!

النبي لكان عليه السلام قد أعطى المكذبين من قوم نوح عقوبة لا تختلف عما عاقب به الله قوم هود أو قوم صالح أو قوم شعيب، ولكننا نجده في قصة نوح يقبلها فلماذا يخالف الرواية اليهودية إذن في شمول نطاقها؟

مما لا يهمل الاستئناس به في بيان هذه المسألة هو النظر في أقوال المفسرين القدماء على وجه الخصوص لأنهم كانوا ينطلقون من ظاهر دلالة النص القرآني دونما ضغوط من هذه الاعتبارات الحديثة التي أخذت تلوّن قراءة بعض المفسرين المعاصرين محتمين بغموض النص في هذه الناحية. وإذا غاب عن القرآن النص الواضح على العموم[280]، فليس من إشارة أيضا إلى كونه خاصا بتلك المنطقة دون سواها، بل إننا نجد روح الرواية القرآنية تقرر العموم ولا تنفيه، ولمّا كان مجيء خبر على نحو يشعر بالعموم سببًا كافيا للدلالة على عمومه إلا إذا جاء ما يخصصه؛ فإن من يقرأ الآيات القرآنية - داخل سياقها - لا يتردد في الجزم بأن المقصود كان طوفانًا عاما عم الأرض بأسرها. فلننظر في بعض أقوال المفسرين الأقدمين لنرى كيف اطمأنت نفوسهم إلى عمومية الطوفان، ولم يخطر لأحد منهم أن يقول بأنه كان خاصا بقوم نوح: * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦* (الشُّعَرَاء: 66) أي: أهلكناهم، فلم تبْق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة [281]، "*وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ

---

(280)أما أن الآيات القرآنية تقول إن الطوفان قد غمر أصقاع الأرض جميعًا فهو واضح ظاهر، ومع ذلك فنحن لا نعرف كيف نتخيل أن تطفو سفينة فوق المياه التي غطت شواهق الجبال مع القول باقتصاره في الوقت ذاته على بقعة محددة من الأرض؟! ولكننا لما كنا لا نعرف بدقة تصور النبي محمد عن شكل الأرض، وهل ظنها مسطحة أم كروية والشواهد تقول بأن الأول هو الأقرب لوجود أمثال هذه الآية (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) سورة الحج، وعلى هذا فليس من الميسور أن نعرف كيف تخيل النبي هذا الأمر، دع عنك كيف ظهرت ثانية جميع تلك الحيوانات خاصة التي ما كان النبي ليعتقد في أن نوحًا قد أخذها معه في السفينة مثل الكلاب والخنازير والفئران، ولعل النبي لم يكن مهتما بإيجاد تفسير لكل تلك المسائل التي حاول بعض المفسرين تقديم شيء عنها كما فعل هذا المفسر: "وروي أن نوحًا عليه السّلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه: أن امسح على ذنب الفيل، ففعل، فخرج من الفيل وقيل من أنفه خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحًا وأهله ذلك الأذى، وهذا يجيء منه أن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك. وروي أن الفأر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأمر الله نوحًا أن يمسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هر وهرة، فكفياهم الفأر، وروي أيضًا أن الفأر خرج من أنف الخنزير. قال القاضي أبومحمد: وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند والله أعلم كيف كان"، "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ، ج3، ص 172.

(281)تفسير ابن كثير، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة الأولى، 1419 هـ، ج7، ص 20.

وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، فنضب الماء، وقضي أمر الله بإنجاء من نجا، وإهلاك من هلك[282]"،"وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس، وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابرًا عن كابر من لدن كيومرث (يعنون آدم) إلى زماننا هذا. وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان، وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدًا من كفرة العباد استجابةً لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذًا لما سبق في القدر المحتوم [283]".

أما عن أعداد الناجين مع نوح فهذا النقل يكفي لبيان ذلك: "قِيلَ: كَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا وَثَمَانِينَ امْرَأَةً، وَقِيلَ: كَانُوا ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آمَنَ مَعَهُ ثَمَانُونَ رَجُلًا، وَعَنْهُ ثَمَانُونَ إِنْسَانًا، ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِيهِ سَامَ وَحَامَ وَيَافِثَ، وَثَلَاثُ كَنَائِنَ لَهُ، ولمَّا خَرَجُوا مِنَ السَّفِينَةِ بَنَوْا قَرْيَةً تدعى اليوم قرية الثَّمَانِينَ بِنَاحِيَةِ الْمَوْصِلِ. وَقِيلَ: كَانُوا ثَمَانِيَةً وَسَبْعِينَ، نِصْفُهُمْ رِجَالٌ، وَنِصْفُهُمْ نِسَاءٌ. وَقَالَ ابن إسحاق: كانوا عشرة سِوَى نِسَائِهِمْ: نُوحٌ، وَبَنُوهُ سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ، وَسِتَّةُ ناس من كَانَ آمَنَ بِهِ وَأَزْوَاجُهُمْ جَمِيعًا. وَعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ :كَانُوا عَشَرَةً: خَمْسَةُ رِجَالٍ، وَخَمْسُ نِسْوَةٍ. وَقِيلَ :كَانُوا تسعة ونوح، وَثَمَانِيَةُ أَبْنَاءٍ لَهُ وَزَوْجَتُهُ. وقيل: كانوا ثمانية ونوح وَزَوْجَتُهُ غَيْرُ الَّتِي عُوقِبَتْ، وَبَنُوهُ الثَّلَاثَةُ وَزَوْجَاتُهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ: قَتَادَةَ، وَالْحَكَمِ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنِ جُرَيْجٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ: كَانُوا سَبْعَةً: نُوحٌ، وَثَلَاثُ كَنَائِنَ، وَثَلَاثُ بَنِينَ. وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَعَارِضَةٌ،

---

[282] تفسير القاسمي، "محاسن التأويل" تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ،ج6، ص 97.

[283] "البداية والنهاية"، ابن كثير الدمشقي، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1988 م، ج1، ص 133.

وَالَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى بِهِ أَنَّهُ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلَا يُمْكِنُ التَّنْصِيصُ عَلَى عَدَدِ هَذَا النَّفَرِ الْقَلِيلِ الَّذِي أَبْهَمَ اللَّهُ عَدَدَهُمْ إِلَّا بِنَصٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلّم[284]".

أما هذا المفسر فراح يرفع إشكالا مهما "فإن قلت: قد عم الغرق الدنيا كلها، مع أن دعوة نوح عليه السلام لم تكن عامة، وقد قال تعالى: *وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا* فالجواب: أن الكفر قد كان عم الموجودين في ذلك الزمان، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح في أمر الشرائع، فقصروا في الجهتين. وأيضًا: لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس، فكل من كان موجودا سمع بدعوة نوح فجحدها.والله تعالى أعلم[285]". وقل مثل ذلك عن أصحاب المدرسة السلفية الحديثة في التفسير لأنهم الأمناء على الدلالة الحرفية للقرآن، وهم لا يأبهون لأي نقد قد ينجم عن أمثال تلك القراءة الحرفية للنص القرآني لفرط ثقتهم الكاملة بالوحي الإلهي للقرآن، ومن المدرسة السلفية الحديثة التي ظلت على وفائها لمدلول النص القرآني غير آبهة بما يمكن أن يقال سنختار من بين رجالها هذه الأمثلة الثلاثة: "ولهذا يسمى نوح عليه السلام (أبا البشر الثاني) لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح[286]".

لا شك في أن القول بعمومية الطوفان سيستلزم معه الاعتقاد في أن نوحًا قد أخذ معه بأمر من الله زوجين من جميع المخلوقات الحية التي كانت تملأ العالم قبل إغراقه، وهذا ما لم تغب الإشارة إليه في القرآن، ومن ينطلق من القراءة المباشرة للنص فلن يجد مفرًّا من قبول ما استخرجه هذا الباحث: (والتنوين) في كلمة (كل) عوض عن مضاف إليه محذوف ويسميه علماء النحو (تنوين العوض)، والتقدير من كل مخلوق حي زوجين، وكلمة كل تدل على الشمول والعموم وتدلنا جملة (احمل فيها من كل زوجين اثنين) أن نوحًا أخذ معه في السفينة زوجين اثنين من كل المخلوقات الحية على إطلاقها من فصائل الحيوان والحشرات والزواحف والطيور، ولعل الحكمة من ذلك أن الطوفان الذي بدأ سيقضي على كل المخلوقات الحية على وجه الأرض، وسيزيل كل مظاهر

---

(284)"البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت الطبعة 1420 هـ، ج6، ص 152-153.

(285) "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" لابن عجيبة الحسني، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة الطبعة: 1419 هـ، ج2، ص 532.

(286)"عظات وعبر في قصص الأنبياء" سعيد عبد العظيم، دار القمة ، دار الإيمان، الإسكندرية 2002م، ص 73.

الحياة عليها فأمر الله نوحًا عليه السلام أن يأخذ معه هذه الأزواج من كل الأحياء؛ وذلك لاستئناف الحياة على الأرض بعد انتهاء الطوفان[287]".

وما قاله هذا المفسر الحديث هو ذاته ما قاله المفسرون القدامى جميعًا عند تفسيرهم لدلالة الأمر الإلهي لنوح بأن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، أي ذكرًا وأنثى من كل نوع؛ حيث أجمعوا على أن ذلك ما كان إلا لاستبقاء الحياة بعد الطوفان، ولكي تتجدد المملكة الحيوانية بعد هلاك جميع الخلائق الحية التي كانت تعيش على الأرض عدا تلك التي حملها نوح معه في السفينة: "ثم فار تنور أهله بالماء، وبدأ تفجر الماء الكثير من كل مكان حتى عمَّ الطوفان قومه وكل ما على الأرض من إنسان وحيوان، فهلكوا حتى ابنه الذي أبى الركوب في السفينة قائلاً: سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ[288]"، "ولمَّا جَعَلَ الْمطَرُ يَنْزِلُ كَأَفْوَاهِ الْقِرَبِ جَعَلَتِ الْوُحُوشُ تَطْلُبُ وَسَطَ الْأَرْضِ هَرَبًا مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى اجْتَمَعْنَ عِنْدَ السَّفِينَةِ فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَحْمِلَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يَعْنِي: ذَكَرًا وَأُنْثَى لِيَبْقَى أَصْلُ النَّسْلِ بَعْدَ الطُّوفَانِ[289]".

لسنا بحاجة إلى إعادة القول بأن إعراض كثير من المفسرين المحدثين عن متابعة قدامى المفسرين، بل تجاهلهم الواضح لظاهر النص القرآني، الذي يصرح بعمومية الطوفان، ليس مرده استنباطهم لشيء جديد يتعلق بدلالات النص ومعانيه قد فات الأقدمين، بل مرده إلى ما صار هؤلاء المفسرون المحدثون يعرفونه جيدًا من شأن تلك الصعوبات التي باتت تسد الآفاق أمام من لم يزل متمسكًا بالقول بعمومية الطوفان، وما يثيره القبول بحدوث طوفان كوني يشمل الكوكب بأسره من مشكلات، عرضنا بعضها في القسم الأول من هذا الفصل، لذا تراهم يقاتلون من أجل صرف الآيات القرآنية الواضحة عن ظاهرها، وتأويلها حتى إن اضطرهم ذلك إلى تخطئة جميع المفسرين من أهل القرون الأولى، والذين كانوا أبصر بالعربية منهم، وأعرف من سواهم لمدلولات ألفاظها، وكما رأيت كيف قبل هؤلاء المفسرون الأقدمون ودون تردد الرواية القرآنية

---

[287] الخالدي، الجزء الأول، ص 194.

[288] "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، 1418 هـ. ج8 ، ص 251.

[289] انظر تفسير أبي حيان، ج6، ص 152.

على ظاهرها لأنهم لم يجدوا شيئًا من ثقافة عصرهم يحول بينهم وبين قبولها!![290]؛ لذا فلا علينا أن نواجه الحقيقة الواضحة والمحزنة وهي أن القرآن الكريم كان يتابع الهراء المقدس أيضًا في تلك النقطة، وأن النبي قد صدق أن طوفان نوح قد عم الأرض كلها، فهذا ما ينطق به ظاهر الآيات، وهذا ما فهمه منها المفسرون وليس لأحد بعد ظاهر الآيات وإجماع المفسرين أن يؤول ما لا ضرورة لتأويله[291].

خامسا: المفردات الإسلامية في قصة نوح.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝١١٨ (البَقَرَة: 118).

* كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣*(الذَّارِيَات: 52–53).

من يقرأ هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة الذاريات فلن يسعه سوى التصديق الكامل لثقة النبي محمد الكاملة بما أتى به، وتصديقه التام في إيحاء الله إليه بتلك القصص عن الأنبياء السابقين. فهاتان الآيتان إنما تترجمان لعجب النبي الصادق من تشابه استجابات الكافرين في جميع العصور، ومن نطقهم بالأقوال ذاتها، حتى إنها تفترض في البداية أن قد أوصى السابق منهم اللاحق بتلك الأقوال، ثم تأتي الآية التي تعقبها لتضرب عن هذه الفرضية، وتقرر أنهم لم يفعلوا ذلك، وأنّى لهم أن يفعلوه، وبينهم ما بينهم من تباعد الأزمنة والأمكنة، ثم نراها تقدم ربما لنفسها أولا التفسير الصحيح لتشابه

[290] ومن بين هؤلاء المؤولين العلامة الفاضل الشيخ عدنان إبراهيم إذ سمعنا له شريطا صوتيا أفاض فيه بذكر عشرات الصعوبات المنطقية التي تجعل من القبول بالطوفان الكوني أمرا مستحيلا، ولكن ماذا كان يستطيع هذا الرجل الفطن في ظل إيمانه الراسخ بحرفية الوحي القرآني من ناحية، ومن ناحية أخرى رسوخ اعتقاده في استحالة وقوع الطوفان على النحو الذي ذكرته التوراة سوى أن يؤول النصوص القرآنية محتميًا بأن النص القرآني أقل وضوحًا من سابقه التوراتي في النص على عمومية الطوفان، ولكننا نوقن رغم ذلك أن القرآن إنما كان يتابع التوراة على هذا الخطأ الذي لم يكن من سبيل لأهل تلك العصور لإدراك مشكلاته، ولا نرى أن الإنكار يفيد اليوم في شيء.

[291] أيضًا من بين الأمثلة التي يمكن أن نسوقها باختصار كمثال واضح لتعسف بعض المفسرين المحدثين في صرف ظاهر معنى بعض الآيات وتأويلها لا لشيء سوى لما استبان لهم من عدم دقة ما تحويه تلك الآيات من معارف تاريخية هذا المثال عن وراثة بني إسرائيل لأرض مصر وكنوزها! فهل حقا ورثت إسرائيل أرض مصر؟!

أقوالهم: وهو أن اشتراكهم جميعًا في (الطغيان)؛ أي مجاوزة الحد في العصيان والتمرد على حقوق الله هو ما جعلهم يتشابهون جميعًا في تلك الأقوال والأفعال رغم تباعد أزمانهم وأماكنهم .

لذا؛ فليس من العجيب في شيء أن نجد أن الرسالة الإلهية الأولى قد حوت جميع مفردات العقيدة الإلهية الخالدة، بل سنرى أيضًا أن استجابة ملأ نوح وأقوالهم ستكون هي بعينها استجابة جميع الكافرين الجاحدين من بقية الأمم التي جاءت من بعدهم، وذلك لسبب بسيط للغاية وهو أن النبي وقد اتخذ من صورة نوح القالب الذي سيصوغ على مثاله ملامح جميع الأنبياء ومفردات دعوتهم، فسيجد كذلك في استجابة قومه المحزنة الإطار الثابت الذي سينسج النبي على منواله جميع استجابات الأمم الكافرة الأخرى اللاحقة بلا زيادة أو نقصان.

إذا كنا حتى الآن قد أدركنا حضور الملامح الكلية العامة التي ينتظر وجودها في كل دين من هذه الأديان الكتابية فإننا في الصفحات القادمة لن نتكلم سوى عن بعض المفردات الاعتقادية الخاصة التي لا يسهل القول بحضورها في كل عقيدة دينية، حتى إن تشابهت في ملامحها العامة؛ لأن تلك الملامح التي سنقتصر على عرض بعض منها في هذا الفصل، وعلى كثير منها في الفصول القادمة، إنما هي ملامح بالغة الخصوصية والدقة حتى إنها لتصلح في اعتقادنا أن تكون برهانا داخليا دامغًا على وحدة الصوت النوحي، المحمدي ليس لأن النبي كان يستعير صوت نوح ليوظف قصته في خدمة دعوته كما يستسهل بعضهم القول؛ بل لأن هذه التشابهات إنما هي في اعتقادنا بمنزلة ترجمة تطبيقية لما قررته هاتان الآيتان السابقتان من سورة الذاريات، ولننظر معا في بعض تلك المفردات القديمة ـ الجديدة!

(1)
اتهام الأنبياء بالجنون

نعت الكافرون المعاندون الأنبياء بالسحر وبالجنون وبالافتراء على الله واتخاذ دعوى النبوة بابًا للتسلط على الخلائق، وما إلى ذلك من اتهامات فصلها القرآن في مواضعها. ومن بين تلك الاتهامات العامة التي وجهت إلى نوح، كان الاتهام بالجنون كما في هذين الموضعين من قصته: *إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ

حِينٍ ﴿٢٥﴾*(المُؤْمِنُون: 25)، *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾*(القَمَر: 9)، وهو ذاته ما وصف به النبي محمد مرارًا من قومه كما في أمثال هذه الآيات: *قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾*(سَبَأ: 46)، *أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾*(سَبَأ: 8)، *وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾* (الصَّافَّات: 36).

ليس المقصود بالجنون هنا بطبيعة الحال الضعف أو الانحطاط في القدرة الإدراكية لهؤلاء الأنبياء، بل المقصود أنهم كانوا من منظور مخالفيهم يعانون هذا الضرب من الالتباس الإدراكي الذي تضيق معه أو ربما تتلاشى المسافة بين الموجود والموهوم(292)، وإلا فقد أبان هؤلاء الأنبياء عن كياسة وذكاء نادرين حتى إن قوم نوح مثلا قد ضجروا من قدرته الخارقة على المجادلة، التي امتدت قرونا وقرونا حتى أعياهم! ولم يكن ذكاء النبي محمد الباهر ليخفى على معاصريه سواء أحبوه أم أبغضوه، وافقوه أم خالفوه، وقل مثل ذلك عن جميع الأنبياء الذين اتهموا جميعًا من أقوامهم بالسحر وبالجنون(293)!

(292)لعل الإشارة القرآنية الوحيدة التي تشير إلى اتهام المشركين النبي بالتوهم والضلالات العقلية هي هذه الآية من سورة الأنبياء *بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5)*؛ حيث يقتضي التغاير بين (أضغاث أحلام) و(افتراه) ما يفهم منه أنهم كانوا يقولون بأن النبي إما أن يكون ضالا واهما أو مختلقا كاذبًا!

(293)ولا ننسى أن تلك الاتهامات للنبي بالسحر والشعر والكهانة لم تكن تعني أن الجاهليين كانوا يكذبون النبي ويصفونه بالاختلاق الخالص وكفى! كلا! فقد كان الجاهليون يؤمنون بالسحروالكهانة والشعر على نحو خاص بهم بحيث يجعل تلك الاتهامات تشير وقبل كل شيء إلى أن هؤلاء المدعين لمعرفة الغيوب إنما كانوا يمتحون في اعتقاد الجاهليين من معين معرفة شيطانية كانوا يؤمنون بوجودها أشد الإيمان، ولم يكونوا يأخذون معارفهم المزعومة من معين النبوة الصافي الذي سمعوا به من أهل الكتاب، ولم يكن له من وجود حقيقي في ثقافتهم الخاصة. إذن فلم ينكر الجاهليون قط وجود مصادر أخرى للمعرفة تتجاوز هذا العالم فقد كانوا يؤمنون أشد الإيمان في وجود عوالم أخرى موازية لعالم البشر، وآمنوا أن بعض معرفة أهل تلك العوالم كان يمكن استنزالها إلى عالم البشر بوسائل خاصة كانت الكهانة والسحر والشعر بعض أهم أدواتها. لذا؛ فلا ينبغي أن تغيب عنا ظلال دلالة تلك الكلمات (السحر- الشعر - الكهانة) ونحن نقرأ تلك التهم القديمة - الجديدة، والتي جعلها القرآن على ألسنة جميع الأمم المكذبة الجاحدة، وأن نتذكر أنها كانت تعكس ثقافة أهل عصر النبي الخاصة، لكنه اعتقد في أن أهل العصور القديمة كانوا يعتقدون فيما اعتقد فيه أهل عصره بلا زيادة ولا نقصان!

(2)
لا إكراه في الدين حتى إشعار آخر

* قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨*(هُود: 28).

يستطيع من يشاء أن يستخرج من خلف قصة نوح وقت تنزل سورة هود وأخواتها بعض معالم الدعوة المحمدية الباكرة سواء من حيث دلالتها على طبيعة الخطاب النبوي في تلك الفترة وكان كما هو ظاهر خطابا وعظيا عاما قوامه دعوة الناس إلى طريق الله، ومحض النصح لهم، ثم تفويض أمرهم بعد ذلك إلى الله إن كانوا للدعوة كارهين، مع تحذيرهم من عقاب الله البئيس في الآخرة، وأيضا ما نجده من حضور كثير من مظاهر الرفق والتلطف في الخطاب والتودد إلى جموع المخاطبين، ومن حض الدعاة على الصبر على أذى الكافرين ووعدهم بالنصر المؤزر في خاتمة المطاف.

من يقرأ الآيات القرآنية المتعلقة بتلك الملامح في مواضعها من قصة نوح فسيجد خلف صوت نوح صدى الصوت الإلهي المهيب ذاته الذي كان يخاطب النبي محمدا في القرآن حيث يقول:* وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩*(يُونُس: 99).

لسنا بحاجة إلى القول إن هذا التسامح وإن تلك السعة التي كانت تتناسب مع مقتضيات مرحلة الاستضعاف في مكة سيصبحان أثرًا بعد عين، فبعد أن قويت شوكة هذا الدين في السنوات الأخيرة من حياة النبي في المدينة، وبعد أن استيقن النبي بكل روحه من أن الله قد أناط به وبأمته نشر الرسالة الإلهية الخاتمة بين جميع البشر، فقد كان لزامًا عنده حضور شريعة أخرى تختلف تمامًا عن سابقتها المكية، ولتؤسس لعلاقات جديدة بين أهل الدين الحق، والرافضين له، كما تعبر عن هذا رعود وبروق هذه الآيات العنيفة من سورة التوبة:* فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥*(التَّوْبَة: 5)، *قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩*(التَّوْبَة: 29)، *يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣*(التَّوْبَة: 32–33).

(3)
النبوة رحمة وإحسان لا وجوب واستحقاق

أيضا من المفاهيم التفصيلية المشتركة بين الأنبياء ما قرره القرآن بشأن استحقاق النبوة، والتقرير الحاسم بأن تلك المنحة العظمى؛ أي النبوة لم تكن سوى (رحمة) وفضل أسبغه الله على أنبيائه ومختاريه؛ إذ لا تنال النبوة بالاكتساب، ولا يسعى إليها بالمجاهدة الروحية، بل هي فضل من الله يؤتيه من يشاء، وهذا مفهوم إسلامي لا لبس فيه، وقد جاء وصف النبوة بالرحمة مرارًا في القرآن ومن ذلك:

وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢ (الزُّخْرُف: 31–32)◉ *وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦*(القَصَص: 86).

ليس من شك في أن النبي لم ير نفسه أو أي بشر سواه أهلا لشرف المخاطبة الإلهية المباركة إلا من باب واحد، وهو باب المنة والفضل الإلهي، وحتى دونما النظر إلى الخلائق والسجايا والمواهب الروحية، وإلا فكل السجايا والفضائل والكمالات

البشرية التي هي محل النبوة ما هي في خاتمة المطاف إلا منحة وخلعة إلهية أو كما قال النبي: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس[294]".

لكننا نجد هذا المفهوم التفصيلي الدقيق على لسان نوح أيضا:*قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨*(هُود: 28)، وفي تفسيرها قول ابن كثير: "يقول تعالى مخبرًا عن نوح ما ردَّ على قومه في ذلك:*أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي*(هُود: 28) أي: على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، *فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ* أي: (خفيت عليكم)، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها (أي:أَنُلۡزِمُكُمُوهَا) نَغْضبكم بقبولها وأنتم لها كارهون[295]".

(4)
الاقتصار على التوحيد وغياب الشريعة التفصيلية

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣(الشُّورَى: 13).

كما رأينا فقد خلت دعوة نوح من تفاصيل الشريعة الإلهية فلم نجد فيها ذكرًا للصلاة أو للصيام أو للزكاة أو للحج أو للصدقة[296]، وما إلى ذلك من مقررات الشريعة فليس ثم إلا الدعوة إلى توحيد الله، واختصاصه بالعبادة لا أكثر ولا أقل، وهو ما كان يعكس على نحو ما ملامح دعوة النبي محمد في تلك الفترة الباكرة من مراحل رسالته

[294]"صحيح الجامع الصغير وزياداته" برقم (4531)، وفي السلسلة الصحيحة برقم (861).
[295] تفسير ابن كثير، ج4، ص 275.
[296]جاء أول ذكر للصلاة والزكاة في القرآن عند إبراهيم وذريته من بعده كما جاء في سورة الأنبياء: *وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَالْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)*.

وهو أمر طبيعي ولا غرابة فيه، فمن المنطقي أن يدعو الأنبياء الناس إلى الإيمان بالله أولا فإن استجابوا وآمنوا، جاءتهم بعد ذلك تفاصيل الأحكام الاعتقادية والتعبدية[297].

يمكننا أن نفترض أن ملامح أمة التوحيد الأولى التى أرسل الله إليها نوحًا لتجديدها كانت قريبة الشبه بملامح الأمة الأخيرة لمحمد عليه السلام في تلك الفترة الباكرة من الدعوة، أي أن عقيدة أهل العصور الأولى من لدن آدم إلى إبراهيم كانت عقيدة عامة، قوامها الإيمان بالله وتوحيده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضور ما لا يستغنى عنه من الأحكام التشريعية الأساسية مثل تحريم القتل والسرقة والزنا، وما إلى ذلك من المنهيات التي يستغرب غيابها عن أي شريعة إلهية، كما جاءت لهداية العباد إلى الله، فقد جاءت أيضًا لإصلاح معيشتهم، أو هذا ما يظهر لنا من القرآن، وهو ما يتشابه أيضًا مع التصورات الكتابية عن أهل تلك الفترة فلم تأت الشرائع المفصلة إلا بعد تلك الفترة بقرون عدة!

(5)
التربص بالداعي

إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾(المُؤۡمِنُون: 25).

كذلك يمكن لقارئ هذه الآية السابقة في قصة نوح أن يستخرج منها أن علاقة النبي محمد بالمخالفين المعاندين من قومه لم تكن قد بلغت بعد ذروتها، لتصل حد الصدام العنيف الذي صارت إليه في نهاية الحقبة المكية. فمن المعلوم أن موقف المشركين من دعوة النبي قد تصاعد بشكل تدريجي بدءًا من الدهشة الساخرة، إلى التكذيب والإنكار، ثم إلى الإعراض الغاضب والتواصي بترك الداعي وإهماله، مثل ما نجده هنا من مجرد الدعوة إلى الانتظار الصبور؛ لعل الموت يغيب عنهم هذا الصوت الذي لا يريدون سماعه، ولمّا لم يجد كل ذلك نفعًا بدأت مرحلة أخرى كانت أشد عنفًا، وقد انطلقت من الإيذاء البدني والنفسي للنبي ولأصحابه وصولا إلى التحريض على قتل النبي أو سجنه

---

[297] مثلما يعبر عن هذا التدرج من هذه السياسة السمحة الرشيدة، عن ابن عباس قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوه فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاةً تؤخذ من أموالهم فترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بهذا فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس. "صحيح الجامع الصغير وزياداته" ناصر الدين الألباني برقم 2296- 1037.

أو إخراجه ونفيه من بينهم، كما نصت على هذا سورة الأنفال:*وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾* (الأَنفَال: 30).

إذن فهذه الآية *إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾* (المُؤْمِنُون: 25)، وإن جاءت لتعبر في اعتقاد النبي محمد عن موقف الكافرين من دعوة أخيه نوح ورسالته فهي تترجم لنا، في الوقت ذاته، بوضوح كامل موقف المشركين منه ومن رسالته هو في تلك الفترة من التنزيل:* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾* (الطُّور: 30–31)[298].

(6)
عقيدة خلود الكافرين في النار

* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾*(هُود: 39).

من العقائد القرآنية الثابتة بنصوص القرآن والسنة عقيدة خلود أهل الجنة فيها، وخلود أهل النار في النار فلا انقطاع في الآخرة للتمتع بالنعيم، ولا انتهاء هناك كذلك للعذاب والآلام! وإذا كانت (الجنة) قد غابت عن رسالة نوح، فلم يأت على ذكرها صراحة، فقد بدت رغم ذلك جلية من المقابلة مع نقيضها من الوعيد بالنار للكافرين الضالين؛ لأن عقيدة النار وخلود أهلها فيها قد تتضمنها على نحو واضح هذه الآية السابقة، وهو ما قال به المفسرون جميعًا؛ لذا فلم يكن من الضروري استنباطها كما فعل هذا الباحث حيث يقول: "ولا شك أن العذاب لا يكون مقيمًا إلا إذا كان خالدًا أبدًا[299]".

لأن هذا الوصف الذي أورده القرآن الكريم على لسان نوح في سورة هود، قد جاءنا في سورة الزمر على لسان محمد:*مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

(298)تنتمي سورة هود، وكذا سورة الطور إلى المرحلة الوسطي من الفترة المكية، انظر أي قائمة من قوائم سور القرآن وفق تاريخ النزول.

(299)"الارتباط الزمنى والعقائدي" ، ص 78.

مُّقِيمٌ ۝٤٠* (الزُّمَر: 40)، فكان في دلالاته في ذلك الموضع على عقيدة الخلود في النار من المنظور الإسلامي غنية عن هذا الاستنتاج[300].

(7)

السخرية من الرسول والاستهزاء بالمؤمنين

من بين الاستجابات التي اعتقد النبي جازمًا في حدوثها هو أن معارضي الأنبياء ومكذبيهم في كل زمان ومكان، قد قابلوا رسلهم بالسخرية والاستهزاء كما يتجلى من أمثال هذه الآيات:*وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠*(الأَنۡعَام: 10)، *وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤١*(الأَنبِيَاء: 41)، *وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢*(الرَّعۡد: 32)، *ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦*(الكَهۡف: 106).

ولمَّا كان قوم نوح هم أول من فعل ذلك فقد قص علينا القرآن الكريم كيف عانى نوح سخرية قومه واستهزائهم به:*وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨*(هُود: 38).

هذا الذي عاناه الرسول الأول إلى البشرية هو ما سوف يعانيه من بعده كثير من الأنبياء والمرسلين، لكن ورغم شيوع تلك الاستجابة عند جميع الأمم السابقة فلا ينبغي أن ننسى أن دعوى النبوة كما هو معلوم إنما دعوى هائلة عريضة، ولا ينتظر أن يُسخر منها، ولا أن يستهزأ بمدعيها إلا في المجتمعات التي لم تسمع بها، ولا ألفة لهم بها مثل قوم النبي محمد من العرب، الذين قابلوا دعوته بالسخرية والاستهزاء، ومن

---

(300) ويحق في اعتقادنا لمن يشاء أن يجد في هذا الملمح الدقيق من تفاصيل الاعتقادات المشتركة بين نوح ومحمد ما يمكن أن يعد برهانا إضافيا على وهن اعتقاد من يرى في هذا التشابه بين ما جاء به النبي محمد وما جاء به نوح مجرد توظيف نفعي من النبي محمد لقصة نوح في مخاطبة المشركين من قومه، فهذه التفاصيل الاعتقادية الدقيقة ما كانت لتخدم قضية التوظيف في شيء بل لا يفسرها في اعتقادنا سوى الاعتقاد النبوي الكامل في وحدة مفردات العقيدة الإلهية كبيرها وصغيرها من بدء الرسالات إلى ختامها!

ذلك ما حكاه عنهم القرآن:*وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٦* (الأَنبِيَاء: 36)، *وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١* (الفُرْقَان: 41).

لا شك في أن النبي قد تأذت نفسه أشد الأذى مما لاقاه من تكذيب قومه له، ومن إعراضهم عنه، ولكن ربما كان الهزء به، والسخرية منه كان شديد الإيلام له، خاصة في ضوء ما حكته لنا الأحاديث وكتب السيرة عن اعتزازه الكامل بنفسه، وعظيم تقديره لها؛ لذا فلم يكن من المستغرب قط أن يجد النبي عزاءه وسلواه في الاعتقاد الصادق بأن تلك الاستجابة المحزنة القبيحة قد صدرت كذلك عن جميع الكافرين المكذبين في الأمم السابقة، وأن هذه المشاعر الأليمة التي كان يكابدها قد سبقه إليها، وعاناها كثير من الأنبياء السابقين بدءًا من نوح الرسول الأول وانتهاء به هو النبي الخاتم والرسول الأخير. لذا، فقد كان من إيمان النبي بتواتر تلك الاستجابات واطرادها من قوم نوح أول المرسلين وصولا إلى قومه من ناحية، ومن يقينه الكامل بنصر الله لرسله وأنبيائه في النهاية سندا نفسيا بالغ الأهمية لاستلهام العزاء واستنهاض عزيمته لتحمل هذا الذي يصعب تحمله، ومن ثم فنحن لا نعرف كيف يفسر لنا من يقول بالتوظيف القصدي لقصص الأنبياء السابقين كيف للنبي أن يستمد عزاء من قصص لا يعتقد جازمًا في صحتها الكاملة؟!

أما عن مصير المستهزئين جميعًا سواء في الدنيا أو في الآخرة فيلخصه هذا الوعيد النوحي بأن المؤمنين هم من سيسخرون من الكافرين الخاسرين في النهاية، وهو ما آمن به النبي محمد ذاته كما تجسده أمثال هذه الآيات:*إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦*(المُطَفِّفِين: 29–36).

فهل كانت آيات السخرية من المؤمنين كلها إلا ترجمة مخيالية لما كان يلاقيه المسلمون الأوائل من الملأ المكي الغشوم؟! وهل قال نوح لقومه إلا ما آمن النبي محمد بوقوعه للكفار المستهزئين في الآخرة؟!

(8)
لا تطردوا المؤمنين!

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾(الشُّعَرَاء: 111–115)، *وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾*(هُود: 31)، *قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾*(الأَنۡعَام: 50–52).

ومما له دلالته في هذا المقام أن هذا التعبير قد جاء كذلك في سياق من المشابهة بل المطابقة العجيبة بين مسار الدعوتين؛ حيث تجمعهما معًا تلك التفصيلة القصصية العجيبة، التي تقول إن الملأين المكي والنوحي، قد طلبا من نبيَيْهما أن يطردا عنهما من حولهما من الفقراء المعدمين إن أرادا أن يسمعوا منهما أو أن يجلسوا إليهما؛ لأنهم يأنفون أن يشاركهم في مجلسهم هؤلاء الأرذلون. ومن البدهي القول بأنه كما شابه الملأ المكي سابقه النوحي الكافر في تعاليه وتكبره، فقد تشابهت استجابة النبيين الكريمين أيضًا في اتضاعهما واحتفائهما بالمؤمنين الصادقين، أغنياء كانوا أو معدمين؛ حيث نجد

كليهما يعلن افتقاره الدائم إلى الله، وينفي كونه ملكًا من السماء، ويجهر بأنه مجرد نبي من بنى البشر جاء يبلغ قومه رسالة ربه، وأنه لا يعلم إلا ما علمه الله إياه فلا اطلاع له على غيوب الله، ولا يملك شيئًا من خزائنه، ولا يستطيع أن يقر قومه على انتقاص هؤلاء المؤمنين الفقراء، فالله وحده من يعلم ما تنطوي عليه قلوب البشر وما يستحقون من الفضل والرحمة أو من النقمة والعذاب!

إذا تأملنا هذه الآيات التي أوردها القرآن على لسان النبي محمد، وتلك الأخرى التي جاءت على لسان النبي نوح لرأينا العجب من تلك المشابهة، بل المطابقة في التعبير والمضمون مع ما بين النبيين من عشرات القرون، وما بين البيئتين الثقافيتين من فروق وتباينات تكون على قدر تلك القرون، وأعجب ما لدينا هنا هي دلالة تلك اللجلجة النفسية بين الفرح بأهل الإيمان والتصديق، والانقباض عنهم لفقرهم بغية الظفر بالزعماء المتنفذين الكافرين!

نظن أن هذه المشابهة وإيجاد تلك السابقة البعيدة لم تسطع في العقل النبوي إلا بعد أن همَّ النبي في نفسه، ولا نقول بطرد المؤمنين الفقراء حاشاه، بل بالإعراض العابر عنهم رغبة منه في أن يؤمن به أشراف قومه مثل ما حكى القرآن نظيره في الآيات الأولى من سورة (عبس)[301].

فهذه الآيات إنما توجد سندا نفسيا للنبي في الاقتداء بالأنبياء السابقين الذين لم يرضخوا لمطلب قومهم الجائر بأن يطردوا عن مجالسهم الفقراء المستضعفين، ويلاحظ أن النبي لم يقل بأن نوحًا قد همَّ بما وقع في خاطره هو من الإعراض عن الفقراء المستضعفين ليتألف السادة والكبراء، بل لقد نزه سابقه عن هذا، ولا شيء يجلي لنا الفارق بين الموقفين أكثر من قراءة الآيتين: فهناك في رسالة الله لمحمد تحذير من أن يطردهم فيكون من الظالمين، وبين قول نوح لقومه بأنه لو حدث وأن انتقصت هؤلاء

---

(301) ولا شك في وجود أصل صحيح لتلك الواقعة في دعوة النبي، فهذا مما تواترت به كتب السيرة والشمائل وما جاء مرارًا في كتب الأحاديث الصحيحة ومن ذلك: "عن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فلا يجترئون علينا. وكنت أنا وعبدالله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما. فوقع في نفس النبي، صلى الله عليه وسلم، ما شاء الله وحدث به نفسه، فأنزل الله تعالى: ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الآية، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين"، أخرجه مسلم في الصحيح، انظر 44- كتاب فضائل الصحابة، (5) باب في فضل سعد بن أبي وقاص، الحديث (45) و(46). لمزيد من الروايات الأخرى عن تلك الواقعة انظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1405 هـ، ص 353.

الذين تزدرونهم بأن استكثرت عليهم في نفسي أن تنالهم رحمة الله فإني إذن لمن الظالمين؛ لذا فنوح هنا يبدو كمثال أخلاقي يجسد ضمير النبي محمد الديني الحساس أكثر من كونه شخصا حقيقيا، كان النبي يلتمس في أخباره وقصصه الهداية؛ لأننا لا نعلم إن كان قد بلغ النبي حقا أن نوحًا قد عرض عليه شيء من هذا الذي قصه علينا القرآن، أم أن المخيال المحمدي اليقظ قد ابتكره لنا ابتكارًا، وأغلب الظن أنها نقطة افتراضية خالصة كما سنرى عند عرضنا لأسباب اعتقاد النبي في كل هذا التشابه بينه وبين الأنبياء!

(9)
عقيدة القدر

ومن المفاهيم الاعتقادية الأساسية التي أرساها النبي، وترددت عبر القرآن طولا وعرضا: عقيدة (القدر)؛ أي أن مرادات العباد لن تخرج في نهاية المطاف عن مراد الله، ولن تغادر مظلة معرفته الشاملة والمحيطة بكل شيء، وكما هو معلوم فهذا التصور الإسلامي الأصيل لم يتداخل إذن مع مفهوم آخر ليس أقل تجذرًا في العقيدة الإسلامية، وهومفهوم (المسئولية الشخصية) للإنسان عن أفعاله، فلم يعترف القرآن بمن احتج من أهل النار بقضاء الله فيه، ومن جانب آخر فقد ظل هذا المفهوم يتعايش مع ذاك في شرعية اعتقادية موازية إن صح هذا التعبير!

وهذان المفهومان [302] يعبر عن حضورهما معًا آيات كثيرة في القرآن الكريم ومن ذلك:*إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٣٠* (الإنسان: 29–30).

هذا الاعتقاد الجازم في قدر الله، وفي تقديره المسبق لكل شيء سواء من الهلكة لمن علم الله باستحقاقهم العذاب أو من الفوز بالجنة ونعيمها لمن اطلع الله على خفايا قلبه هو أمر شائع في القرآن ومن أمثال ذلك:*وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ

فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾* (الإسراء: 16)، *وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾* (السَّجْدَة: 13)، *وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾* (الأَنْعَام: 112).

من المعلوم لدى المسلم أن هذا الاعتقاد في سبق تقدير الله لكل شيء، هو أمر لا يتعارض كذلك مطلقًا في عقيدة المسلم مع عدل الله ورحمته، وأن قضاء الله لا يتنافى مع ما قدره الله للإنسان من حرية إرادة وحرية مشيئة تجعله مريدًا للإيمان والهداية إن شاء أو راغبًا عنهما إلى الكفر والجحود إذا أراد، وإن النصوص القرآنية التي تقرر في جلاء حرية الإنسان ليست فقط كثيرة موفورة، بل الأكثر من ذلك أنها تشكل قوام الرؤية الإسلامية في عقيدة الاستخلاف وهو كما رأينا مفهوم جوهري في الرؤية الإسلامية للتاريخ؛ إذ إن أساس التجربة الإنسانية كلها من المنظور القرآني يقوم على هذا المفهوم الذي لا خلاف عليه.

أما عن رفع هذا التناقض الشكلي بين الآيات، فهو في الحقيقة هين ميسور، ومرد هذا الذي يبدو تناقضًا للوهلة الأولى إنما هو في جوهره استجابة شعورية وعقلية للنبي محمد لما يقتضيه اعتقاده الراسخ في كلية علم الله وقدرته الشاملين من ناحية، ومن ناحية أخرى ما يستلزمه إيمانه المطلق بمقتضى العدالة الإلهية، وأدنى مظاهرها أن لا يحاسب العبد إلا في حدود حريته وداخل مجال اختياره، ولقد ظل النبي يراوح بين تأملاته في التجلي الأول، وما كان له في ظل اعتقاده ذاك إلا أن يشعر بالانسحاق الكامل تحت وطأة شعوره بالغ القوة بقدرة الله الشاملة وعلمه المحيط بكل شيء، لكنه متى ثاب إلى نفسه رأي ومعه في هذا كل إنسان أنه يملك إرادة يستطيع بها أن يفعل أو أن يكف، فجمع بين الاعتقادين معًا دون أي شعور بالتناقض بينهما، وكأن النبي كان يحدس في نفسه بما يمكن أن نسميه: بدوائر الإرادات المتداخلة، وما يبدو تناقضًا بينها ليس إلا تغايرًا في المنظور، مثله في ذلك مثل من يراقب رجلا يمشي يسارا على سطح سفينة هائلة، فيما السفينة تسير به يمينًا، وهذه السفينة يسير بها كوكب يأخذها باتجاه ثالث، وهناك نجم يأخذ الكوكب كله ليمضي به في اتجاه رابع، ومن رأى الكون كله فسوف يرى أن النجم

تمضي به مجرة هائلة في اتجاه خامس، وهكذا فمن يقف على سطح السفينة يحتكم إلى معيار، ومن يشاهد المشهد من دائرة أوسع من هذا قليلا يحكم بمعيار آخر، ومن يرى المشهد بكامله يحتكم إلى معيار مغاير، وهكذا فليست العلاقة بين أحكام الناظرين يحكمها معيار الصواب والخطأ، بل الاكتمال والنقصان.

لكن ما يعنينا هنا هو هذا المفهوم الاعتقادي الراسخ في الإسلام نجده كذلك على لسان نوح القرآني وهو يخاطب قومه: *وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤*(هُود : 34).

إذا ما تذكرنا حقيقة أنه يصعب علينا العثور على أمثال هذه الفكرة عند الأنبياء المتأخرين مثل إبراهيم وغيره من الأنبياء، فهل علينا أن نصدق بأن نبيًّا قديمًا كنوح كانت لديه أمثال تلك الأفكار الدينية المتقدمة؟! وألا يحق لنا أن نقول ببساطة تامة بأنها عقيدة محمدية خالصة ظن النبي أن جميع الأنبياء الأقدمين كانوا يتشاركون فيها، ولم يشك النبي قط في أنهم كانوا يعرفونها ويصدرون عنها، سواء أكانوا أنبياء سبقوه بمئات قليلة من السنين مثل المسيح، أو بألوف كثيرة من السنين كآدم ونوح.

(10)

تحدى الشركاء، والاستخفاف بوعيد المشركين

أظهر القرآن الأنبياء الكرام ممتلئين بالثقة العميقة بالله، وخشيتهم منه وحده دون سواه؛ لذا فلم يتوانوا في إظهار استهانتهم واستخفافهم بتلك الآلهة الوثنية المزعومة التي كانت تعبد من دونه، ومن ذلك قول نوح في سورة يونس:*فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١* (يُونُس: 71)، ومثله ما جاء على لسان محمد، يحقر آلهة قريش ويفند استحقاقها للعبادة: *أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥* (الأَعْرَاف:195)، ومثلهما ما جاء على لسان النبي هود: *مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥* (هُود: 55).

سوف نتوقف في مقام آخر عند دلالة اعتقاد النبي في وحدة طبيعة العقائد الوثنية عند جميع الأمم السابقة، ولكن يكفينا هنا أن نعلم وحدة موقف النبيين واجتراءهم على تلك الآلهة الموهومة الكاذبة.

(11)

الدعاء هو العبادة [303]

وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ (هُود: 41).

لا ينبغي أن تفوتنا هنا دلالة هذا الملمح المحمدي الخالص في تأكيد حضور التسمية والتولع بالأدعية في المناسبات المختلفة، وما أجراه القرآن من دعاء جميل على لسان نوح؛ لأن الناظر فيما تواترت عليه المرويات الحديثية لتقرير حرصه على أن يبدأ جميع أعماله، كبيرها وصغيرها تحت اسم الله والتماس بركته، يدعونا للقول بأنه ليس من العجيب في شيء أن يوقن النبي وهو يستلهم في باطنه قصة نوح كما اعتقده من أن نوحًا لابد من أنه قد استهل دعوة المؤمنين القلائل إلى ركوب السفينة تحت اسم الله ومباركته، لذلك فسواء أكانت خلف هذا الدعاء النوحي مروية تلمودية مباشرة لم تصل إلينا، أم أنها كانت إضافة من قبل النبي لاعتقاده أن مناسبة جليلة كهذه ما كانت لتتم دون دعاء، فهذا ليس من الأهمية في شيء، فيكفي عندنا لحصول ذلك مجرد اعتقاد النبي الجازم في أن جميع الأنبياء الأقدمين كانوا مثله تمامًا، يلهجون بذكر الله، ولا يفعلون شيئًا دون أن يجهروا بأن ما يفعلونه هو على هدى من الله لا أنه قد جعله عامدا على لسانه، حاشاه!

---

(303) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: *وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ* (غافر:60)، رواه أبو داود والترمذي. قال حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1329).
وإذا اتفقنا على أنه ليس من شيء يجلي العقيدة الدينية أكثر من طبيعة الدعاء؛ لأنه يعكس تصور الإنسان عن ربه ويجلي العلاقة بينهما كعلاقة حية مباشرة فقد أجرى القرآن الكريم على ألسنة كثير من الأنبياء أدعية كثيرة هي الغاية في الجلال والبهاء، ومن ذلك دعاء آدم وزوجه في (الأعراف 23)، ودعاء نوح كما في هود (45) (47)، والمؤمنون (28)(29)، والشعراء (118). وهناك أدعية إبراهيم كما في سورة البقرة (126)، وفي سورة إبراهيم (35-41)، وفي الشعراء (83-89)، وإبراهيم ومعه إسماعيل في البقرة (127)، وهناك دعاء جميل ليوسف في (يوسف 101)، ودعاء لشعيب في الأعراف (89)، وما أكثر أدعية موسى في القرآن، وأجملها دعاؤه البديع في سورة طه (25-35)، وهناك أدعية أخرى لا تقل جمالا منحها القرآن لأيوب وسليمان ويونس وزكريا والمسيح، ولسنا بحاجة إلى القول بأنها جميعًا تعكس التصور المحمدي عن الله وصفاته دون أن يعني ذلك أن جميع هؤلاء الأنبياء جميعا من وجد منهم ومن لم يوجد كانوا يعبدون الإله ذاته عبر التاريخ!!

يكفي أن نتذكر أيضًا كيف حفل التلمود بعشرات من الوصايا القولية التي شرعت لتقال في كثير من المناسبات لكي نعلم أن النبي قد نسج على منوالها كثيرا من أدعيته دون أن يعني هذا أنه قد تقيد بتلك الأدعية، وإليك بعض الأمثلة[304]: (شرع العلماء من يرَ قبور بني إسرائيل فليقل: (مبارك الذي خلقكم بقدر، وأطعمكم بقدر، وأعالكم بقدر، وجمعكم بقدر، والذي سوف ينشئكم بقدر)، وكان مر بن رابينا ينهي الدعاء نقلا عن راف نحمان بقوله: (ويعرف عددكم وسوف يحييكم وينشئكم مبارك محيى الموتى)، ومن يرَ قبور عبدة الكواكب فعليه أن يقول ما ورد في إرميا 50-12: تخزى أمكم جدًا [305])، (قال الرابي يهوشع بن ليفي: من يرَ شخصًا مريضًا بالبهاق فعليه أن يقول: مبارك الذي يغير المخلوقات) فردوا عليه، من يرَ الزنجي وشديد الحمرة والأمهق وفارع الطول والقزمة، شديد القصر، ومعوج الفم، فعليه أن يقول: مبارك الذي يغير المخلوقات، ومن يرَ مبتور الأيدي أو الأعمى أو مضغوط الرأس أو الأعرج أو الأبرص أو الأبهق فليقل: مبارك الديان الحق، ولا تعارض في هذا الأمر؛ فالأول يقال للعيب الذي ظهر والمرء في بطن الأم، والثاني يقال إذا ظهر العيب بعد الميلاد[306])، (شرع العلماء من يرَ الفيل والقرد والبومة فليقل: مبارك الذي يغير المخلوقات، ومن يرَ مخلوقات جميلة وأشجارًا بديعة فليقل: مبارك من يملك هذه الأشياء الجميلة في عالمه [307])، (ويقول المرء إذا رأى النيازك أو عند حدوث هزة أرضية أو عندما يسمع الرعد أو إذا هبت الريح أو عندما يرى البرق: (مبارك من ملأ العالم من قوته وجبروته)، ويقول إذا رأى الجبال والهضاب والبحار والأنهار والبراري: مبارك خالق الخليقة. ويقول الرابي يهودا: من يرى البحر الكبير يقول: مبارك من خلق البحر الكبير، وإذا

---

[304] ولسنا بحاجة إلى أن نورد المقابل المحمدي لأمثال تلك الأدعية المتنوعة فهي أوضح من أن يشار إليها، ويكفي القارئ الكريم أن يعود إلى كتاب "عمل اليوم والليلة، سلوك النبي (ص) مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد" لابن السني، دار الأرقم بن أبى الأرقم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998م.
سيجد هناك عشرات بل مئات الأحاديث التي صنعت على هذا النحو، وإن حمل بعضها الطابع المحمدي من جمال الدعاء وبلاغته، وسيجد هناك أيضًا عشرات الأحاديث التي لا نشك في أنها قد صنعت احتذاء بهذا التقليد التلمودي الورع كما في وصاياه عليه السلام للمؤمن إذا استيقظ من نومه، إذا لبس الثوب، وإذا دخل الخلاء أو خرج منه، ما يقول إذا أصبح أوإذا أمسى، وإذا دخل بيته أوإذا خرج منه، إذا نظر في المرآة، وإذا هبت الريح، إذا رأى الصواعق والبرق والرعد إلخ.

[305] "التلمود، الذكر، الصلاة، الدعاء، تفسير الأحلام" د. ليلى أبو المجد وعلاء تيسير أحمد، مكتبة مدبولي، 2012 م، ص 488.

[306] السابق ص 489.

[307] السابق ص 489.

رأوه على فترات متباعدة، وعندما يرى المطر أو يسمع أخبارًا سارة يقول: مبارك الطيب صانع الخير، وإذا سمع أخبارًا سيئة يقول: مبارك الديان الحق [308])، (ومن بنى بيتًا أو اقتنى أمتعة جديدة يقول: مبارك الذي أحيانا وأبقانا وبلغنا هذا الزمن [309]).

قل مثل ذلك فيما أورده القرآن الكريم على لسان سليمان وهو يستهل رسالته التبشيرية إلى أهل سبأ، فقد جاءت مشابهة حد التطابق مع رسائل النبي الدعوية بعدما ظهرت في الأفق علامات نجاح رسالته واكتمالها، وهذا المثال الأخير أنموذج طيب لبيان التفاعل الجدلي بين النبي والأنبياء كما وقعوا في خلده، فكما نعرف فسورة النمل هي سورة مكية، ونعرف أيضًا أن رسائل النبي إلى ملوك عصره كانت بعد رجوعه وأصحابه من الحديبية؛ أي في نهاية السنة السادسة من الهجرة؛ لذا فقد افترض النبي أن سليمان قد استهل رسالته على هذا النحو المختصر الجميل، ثم نجد النبي محمد وقد حذا حذو سليمان في مضمون تلك الرسالة وأسلوبها، وعلى هذا فلم يكن النبي ليظن قط أنه أعطى سليمان، بل كان موقنًا أنه قد أخذ عنه. والحقيقة، إن سليمان المبشر برسالة الله والساعي إلى نشر الدين القويم بين الأمم الوثنية، الذي كتب ما كتب لم يكن إلا ما اعتقده النبي عنه، بتأثير مباشر من المرويات التلمودية، ولم يكن لسليمان التوراتي الحقيقي أي علاقة بهذا أو بذاك.

سادسا: سورة نوح - التقرير الأخير!

بسم الله الرحمن الرحيم

[308] السابق ص 489.

[309] السابق ص 496.

* إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي
لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي
لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ
فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ
إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ
أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ
سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ
مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ
وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤
مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ
لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا
كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ
ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨* (نوح: 1–28).

هذه السورة هي آخر ما سنسمعه عن نوح، ودعوته كقصة في القرآن الكريم، فهذه السورة كما لو كانت بمنزلة تقرير أخير يرفعه نوح إلى الله عما فعله ولقيه من قومه خلال عمره الطويل كله، وفي ختامه يستنزل نوح على قومه جميعا العذاب الأليم يستوي لديه في ذلك كبيرهم الذي رفض نداء الله رغم دعوته المتواصلة لهم عبر كل تلك القرون، وصغيرهم الذي لن يكون في ظن نوح أفضل من أسلافه الكافرين، وبعدها سيأتي وعيد الله بإغراق الكافرين الضالين، وسيخرج نوح ومن معه من المؤمنين من التاريخ الرسالي، وإن ظل خطابه حاضرًا يتكرر في تاريخ الرسالات الإلهية جميعًا، ولكنه لن يحضر في خطاب من بينها جميعًا أوضح من حضوره في خطاب النبي محمد؛ فكما كان نوح هو الرسول الأول لبني البشر فسيكون حفيده محمد هو الرسول الأخير من الله إلى البشر!

لا نعتقد أننا سنبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنه ليست هناك سورة قرآنية تحكي قصة نبي ذكره لنا القرآن الكريم، وأتت مشتملة على أغلب مفردات العقيدة الإسلامية كما جاء بها النبي محمد أكثر من هذه السورة التي معنا على قصرها، وأنه ليس من سورة أيضا تظهر لنا شدة اعتقاد النبي في تجذر المفردات الثقافية لبيئته العربية عند جميع الأمم السابقة مثل هذه السورة، حتى إننا لو افترضنا أن قارئًا قد قرأ هذه السورة، ورفعنا اسم نوح في أولها وما جاء فيها عن إغراق الله لقومه في آخرها، لظن أنها تحكي عن النبي محمد خاصة دون بقية الأنبياء رغم تشابههم جميعًا في كثير من جوانب العقيدة ومن مفردات الدعوة.

على هذا فإذا تخطينا المشترك العام في خطاب الأنبياء جميعًا من الإنذار والتبشير، ومن الدعوة إلى عبادة الله وتقواه كما في الآيتين الأوليين من هذه السورة فسنجد هنا كثيرا من الملامح الخاصة التي يتشارك فيها نوح ومحمد دون بقية الأنبياء والمرسلين، ومن ذلك:

(1)

* يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ۝٤* (نُوح: 4)

هنا نجد ملمحًا اعتقاديًّا إسلاميًّا يقرر بأن عبادة الله وتقواه والمسارعة إليه بالأعمال الصالحة تثمر مغفرة الله للعبد ما أسلفه من الآثام، وما اقترفه من المعاصي والذنوب. أضف إلى ذلك أيضًا هذا الملمح الواضح من ملامح الاعتقاد النبوي في أن بعض الأعمال الصالحة تكون سببًا لإطالة العمر(310)، سواء أكان ذلك حقيقة أو مجازا وكناية عن حضور البركة الإلهية التي تجعل العمر وإن قصر في المدة زاخرا ومليئًا بالنعمة، وهذا ما فهمه منها عموم المفسرين: "أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه، أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة؛ كما ورد به الحديث: (صلة الرحم تزيد في العمر)(311)".

ليس أكثر من الأحاديث النبوية الشريفة التي جعلت صلة الأرحام من بين تلك الأعمال الصالحة الجالبة لطول العمر. أما عن ارتباط الإيمان بغفران الذنوب فهو أوضح من أن يشار إليه، ولكن إليك مثلا:*قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨* (الأنفَال: 38).

(2)

إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ (نُوح: 4).

من الملامح الاعتقادية التي جاء بها الإسلام تقدير الله للآجال والأعمار، فلا شيء يزيد منها أو ينقص عما قدره الله في سابق علمه، مثلما تدل عليه هذه الآيات وأمثالها:*وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤*

(310)"يقول راب: هنالك ثلاثة من الدعوات تطيل أيام وسنين الرجل: الدعوة إلى الصلاة، الدعوة إلى الطعام، والدعوة إلى الراحة على الخصوص. يقول راب يهودا ثلاثة أشياء تقصر أيام الرجل وسنينه: الذي يعطى له كتاب الشريعة ليقرأه فيرفض، والذي يعطى كأس الابتهال ليقرأ عليه دعاء الشكر فيرفض، والذي تبدو عليه مظاهر القوة والجبروت" التلمود البابلي" المجلد الثاني، ص 138.

(311)تفسير ابن كثير، طبعة سامي سلامة، ج8، ص 231.

(الأَعْرَاف: 34)،* قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾* (يُونُس: 49)، *وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾* (النَّحْل: 61).

لكننا نرى نوحًا هنا ينطق بهذا الاعتقاد المحمدي، فنراه يحذر قومه من التسويف والإرجاء؛ لأن أجل الله لا يؤخر ولا يؤجل، لذا فعليهم أن يبادروا بالتوبة والإنابة إلى الله قبل أن يفاجئهم الموت.

(3)

* ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾* (نُوح: 8–9).

من المعلوم أن الدعوة المحمدية، كما أخبرنا القرآن الكريم وكما فصلته كتب السيرة، قد بدأت دعوة هامسة سرية، يقدر بعضهم مدتها بثلاث سنين؛ حيث دعا فيها النبي أولا عشيرته الأقربين من بني هاشم، ثم ما لبث أن صدع بدعوته علانية على جبل الصفا، وذهب بعدها إلى الملأ القرشي في أنديتهم ليدعوهم إلى الله ... وهو ما اعتقد النبي محمدأن أخاه نوحًا لابد من أن سبقه إلى مثله عندما دعا قومه إلى طريق الله، وأن نوحًا لم يترك وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله إلا قد أتاها خاصة بعد أن قضى في دعوته كل هذا العمر الطويل!

(4)

الإيمان وبركات السماء

فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ (نُوح: 10–12).

من بين قوانين العمران الإسلامي الراسخة هذا الاعتقاد الراسخ بأن الإيمان بالله والاستقامة على شريعته هما سبب تدفق البركات الإلهية، وأن الله يوالي بها عباده المؤمنين ما داموا على طاعته، ولا ينزعها عنهم إلا بسبب من ذنوبهم ومعاصيهم كما

في أمثال هذه الآيات:*ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾* (الأنفال: 53)، *لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾* (الرَّعْد: 11)، *وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾*(الأَعْرَاف: 96)، *وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾* (المَائدَة: 65–66).

وهذا المعنى الذي ساقه القرآن على لسان نوح:*فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾* (نُوح: 10–11) هو ذاته ما سيجده قارئ القرآن على لسان النبي محمد كما في هذه الآيات الافتتاحية لسورة هود:*الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾*(هُود: 1-3)، وأيضًا هو ما سيجده على لسان النبي العربي (هود) :* وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾* (هُود: 52) .

(5)
إخراج النبات والبعث

وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ (نُوح:17-18).

من التعبيرات الأدبية التي نجدها كثيرًا في القرآن الكريم هذا التعبير الذي يتأسس على اعتقاد النبي في المشابهة بين إخراج الله للناس بعد موتهم إلى البعث والحساب، وما كان يتجدد تحت ناظريه من ظهور العشب الصحراوي كل عام إذا ما هطل المطر، كما لو كان هذا النبات ينبثق من العدم.. ومن ذلك ما جاء في سورة فاطر: *وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩* (فَاطِر: 9)، ولم يغب هذا التشبيه أيضًا عن الأحاديث الصحيحة كما في هذا الحديث، وقد ساقه النبي لمن سأله عن إمكان البعث فقال له: (أما مررت بوادي قومك ممحلا ثم تمر به خضرًا ثم تمر به ممحلا ثم تمر به خضرًا؟ (كذلك يحيي الله الموتى[312])، ولكننا نرى نوحًا يستخدم التشبيه ذاته للتعبير عن المعنى ذاته!![313]

(6)
(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ (المُؤْمِنُون: 14).

من بين المعارف (العلمية) التي جاء بها القرآن واستخدمها مرارًا، بيانه كيف خلق الله الإنسان في بطن أمه؛ حيث فصل القرآن مرارًا كيف ابتدأ الله خلق الإنسان من نطفة،

(312)انظر الحديث برقم (1334) في صحيح الجامع.

(313)هل يشعرنا حضور الجنات والأنهار وإرسال السماء وإغداق المطر، وأيضًا هذا التشبيه الأخير اللافت باعتقاد النبي بأن قوم نوح كانوا يعيشون في منطقة ذات طبيعة صحراوية كبلاده؟! أم أن ذلك ليس إلا أثرًا من آثار حضور مفردات بيئته الخاصة، وقد جرت ألفاظها على لسان نوح دون قصد منه؟!

ثم وصف لنا ما يتقلب فيه بعد ذلك من أطوار ومراحل في الخلق حتى يستوي في النهاية خلقا تاما كاملا.

من ينظر فيما يكتبه المشتغلون بما يسمى "الإعجاز العلمي في القرآن" فسيجدهم يضعون بين أول أبواب مباحثهم تلك، ما قرره القرآن في خلق الإنسان وأطواره، ويتخذونه برهانًا على سبق القرآن لعلوم الطب الحديثة، ويقررون في ثقة تامة بأن هذا السبق إنما هو برهان دامغ على أن القرآن الكريم ليس إلا وحيًا حرفيًّا أوحاه الله إلى نبيه محمد، لكننا نجد النبي هنا يفترض أن نوحًا كان على علم بتلك المراحل، بل يستخدمها في دعوة قومه للتأمل في بديع القدرة الإلهية ما يوحي بأنها كانت من بين المعارف المشتهرة، فلم يقل القرآن قط بأنها كانت مما يجهله المخاطبون بالقرآن كما فعل في مواضع أخرى!

ورغم أن هذه الإشارة العلمية النوحية قد جاءت مقتضبة مختصرة فإننا على يقين من أن النبي محمد لو كان قد أفسح لنوح مجال القول في هذا لجاءتنا بالمراحل ذاتها، ووفق الترتيب ذاته تمامًا مثلما ذكرها القرآن، وهذا الذي أجمله نوح فسَّره لنا الصحابي ابن عباس بالتفصيل القرآني ذاته "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَطْوارًا يَعْنِي نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً، أَيْ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ إلى تَمَامِ الْخَلْقِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ[314]).

(7)
(سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ (المُلْك: 3)، *وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧*(المُؤْمِنُون: 17).

من بين المعارف (الفلكية) التي جاء بها القرآن الكريم، أيضًا تقسيم السماوات إلى سبع سموات متراكبة، وهو تقرير كرره القرآن مرارًا، بل عاينه النبي محمد بنفسه في

(314) تفسير القرطبي، ج18، ص 303.

ليلة الإسراء والمعراج؛ حيث زار في تلك الليلة السموات العلا جميعًا، ووصف لنا من لقيهم فيها من الأنبياء والملائكة.

ولكن وكما ترى فقد منح النبي أخاه نوحًا هذه المعلومة الفلكية أيضًا، مفترضًا أن ما عرفه من علوم ومعارف قد سبقه إليها جميع الأنبياء من قبله. والحقيقة، إن نوحًا لم يعرف ذلك، بل إن أنبياء العهد القديم جميعهم لم يعرفوا شيئًا من ذلك؛ لأن هذا التقسيم قد جاء إلى النبي من المعارف التلمودية المتأخرة التي وضعت بعد الانتهاء من تحرير العهد القديم، وقبل مولده عليه السلام بقرون قليلة فأنى لنوح أن يعرفها؟!: "ولم يكن تناول الحاخامات لمصير الخلائق سواء أكان لجنة عدن أو لجهنم، عامًّا أو سطحيًا، وإنما تناول الحاخامات كذلك بصورة أكثر شمولية وصف الجنة والنار، ثم إنهم صوروا النار على أنها جهنم وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب[315]".

(8)
ضوء الشمس ونور القمر!

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

من بين التشبيهات القرآنية الجميلة تشبيه الشمس بالسراج المتقد[316]، والتفرقة الدائمة بين ما تمنحه الشمس من ضوء متلبس بالحرارة، واختصاص القمر بالنور كما في هذه الآيات: *هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥* (يُونُس:5)، *تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١* (الفُرْقَان: 61)، *وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣* (النَّبَأ: 13).

[315]"الأدب اليهودي في المرحلة التلمودية"، د. مصطفى عبد المعبود سيد منصور، الجزء الأول، القاهرة 2005، الطبعة الأولى، ص 73. ونرجح أن تقسيم السموات إلى سبع عند العبرانيين المتأخرين كان تأثرًا منهم من تقسيم البابليين لعدد طوابق ذلك البرج التاريخي المهيب الذي كانت الآلهة تتنزل إلى الأرض من خلاله الذي أبهر العبرانيين كثيرًا بجلاله وعظمته!

[316]وهو تشبيه صادفناه مرارًا في دواوين الشعر الجاهلي!

هذا التمييز وما يدل عليه من إدراك التفرقة بين مصدر ضوء الشمس ومصدر نور القمر قد أعجب باحثًا فرنسيًّا حديثًا حتى رأى حضوره بهذه البساطة التعبيرية من قبيل السحر: "إن أي رجل من عصر محمد يمكنه بالتأكيد التفريق بين الشمس الكوكب المشتعل، والمعروف جيدًا من سكان الصحراء والقمر الكوكب المهيأ لبرودة الليالي، والمقارنات التي نجدها في هذا الأمر في القرآن إذن هي طبيعية، ولكن ما يهم تسجيله هنا هو بساطة التشبيه وإيجازه وغياب كل عنصر للتشبيه كان متداولا في هذا العصر من نص القرآن الأمر الذي يبدو في أيامنا كأنما هو من قبيل السحر[317]"، لكننا نرى النبي يمنح هذه الملاحظة البديعة إلى أخيه نوح، وسنرى أشباها لذلك في الفصول المقبلة.

(9)

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ (نُوح: 6).

من بين التشبيهات الظاهرة التي جاءت على لسان نوح، ولها مقابل واضح في القرآن ما جاء في وصف إعراض المشركين عن دعوة النبي محمد هذا الوصف بالفرار، كناية عن شدة الإعراض والنفور، حتى لا يسمعوا دعوة الله ومن ذلك:*فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١* (المُدَّثِّر: 49 – 51) ،*وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦* (الإِسْرَاء: 46)، * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧*(نُوح: 7).

ليس ببعيد أن يجد الناظر في هذه الآية الأخيرة صدى مباشرًا لبعض ما جاءت به كتب السيرة من أن بعض فضلاء العرب قد بلغ بهم الخوف من سماع النبي أو من الإصغاء لدعوته، حتى إن بعضهم حشا أذنيه قطنًا خشية أن يسحره النبي بمعسول كلامه، فيميله عن دين آبائه وأجداده مثلما جاءنا عن قصة إسلام (الطفيل بن عمرو)، ولو صحت تلك الواقعة لكانت إشارة إلى عظيم خشية عموم العرب من الاقتراب من

[317]"التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" موريس بوكاي، ترجمة: حسن خالد، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1990م، ص 190.

النبي، وأن المشركين قد حاولوا جهدهم للتنفير منه: "كُنْتُ رَجُلاً شَاعِرًا، سَيِّدًا فِي قَوْمِي، فقدمت مَكَّةَ، فَمَشَيْتُ إلى رِجَالاَتِ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكَ امْرُؤٌ شَاعِرٌ سَيِّدٌ، وَإِنَّا قَدْ خَشِيْنَا أَنْ يَلْقَاكَ هَذَا الرَّجُلُ، فَيُصِيْبَكَ بِبَعْضِ حَدِيْثِهِ، فَإِنَّمَا حَدِيْثُهُ كَالسِّحْرِ، فَاحْذَرْهُ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا أَدْخَلَ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ المَرْءِ وَأَخِيْهِ، وَبَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجَتِهِ، وَبَيْنَ المَرْءِ وَابْنِهِ. فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُحَدِّثُوْنِي شَأْنَهُ، وَيَنْهَوْنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْهُ، حَتَّى قُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَدْخُلُ المَسْجِدَ إِلاَّ وَأَنَا سَادٌّ أذنَيَّ. قَالَ: فَعَمَدْتُ إلى أذنَيَّ، فَحَشَوْتُهَا كُرْسُفاً، ثُمَّ غَدَوْتُ إلى المَسْجِدِ، فَإذا بِرَسُوْلِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَائِمًا فِي المَسْجِدِ، فَقُمْتُ قَرِيْبًا مِنْهُ، وَأَبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِه. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَلْعَجْزُ، وَإِنِّي امْرُؤٌ ثَبْتٌ، مَا تَخْفي عَلَيَّ الأُمُوْرُ حَسَنُهَا وَقَبِيْحُهَا، وَاللهِ لأَتَسَمَّعَنَّ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ أَمْرُهُ رُشْدًا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَإِلاَّ اجْتَنَبْتُهُ. فَنَزَعْتُ الكُرْسُفَةَ، فَلَمْ أَسْمَعْ قَطُّ كَلاَمًا أَحْسَنَ مِنْ كَلاَمٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ. فَقُلْتُ: يَا سُبْحَانَ اللهِ! مَا سَمِعْتُ كَاليَوْمِ لَفْظًا أَحْسَنَ وَلاَ أَجْمَلَ مِنْهُ.---[318]).

(10)
الأصنام النوحية

ربما يكون من اللازم قبل أن نعرض للملاحظة التالية والأخيرة أن نقول بأنه ليس من الضروري أبدًا أن يفترض القارئ لقصص أنبياء القرآن وجود قصة تلمودية ضائعة خلف كل مشابهة يجدها الناظر بين الأحوال النفسية للنبي محمد ومعالم دعوته عقيدة أو شريعة، وما ينسبه القرآن الكريم إلى الأنبياء الأقدمين؛ فليس من الضروري في قصة نوح مثلا أن يفترض القارئ وجود قصة نوح مفصلة في الأساطير التلمودية كما جاءت في القرآن، أو على نحو قريب منه، ولا أن يتوقع أنها كانت تشتمل على كل مراحل دعوة النبي محمد، أو أنها كانت تشتمل على شيء من أقواله الجميلة التي وجدناها في القرآن، ولا أن يجد هناك أصلا لانقسام مجتمع دعوة نوح بين ملأ متعجرف كافر، وفقراء مقبلين على الله كما لو كانوا يجدون في رسالة نوح مثل ما وجده فقراء أهل مكة وعبيدها في رسالة محمد، ولا أن يجد هناك أي شيء مما قصه علينا القرآن من قصته، بل لعل فيما قدمناه من تفسير يتأسس على تقرير قوة اعتقاد النبي في وحدة العقيدة الإلهية

(318) "سير أعلام النبلاء" شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985 م، ج1، ص 345. و"أسد الغابة" ابن الأثير، دار الفكر، بيروت 1989م، ج2، ص 461.

عبر التاريخ الرسالي كله، ومن اعتقاده عليه السلام كذلك في تشابه الاستجابات النفسية للبشر، مؤمنهم وكافرهم، من الدعوة وأصحابها، ومن تماهيه وتطابقه الشعوري مع ما اعتقده عن خلائق الأنبياء وخصالهم ما يكفي وزيادة للاستغناء عن افتراض وجود أصل قديم ضائع لكل مشابهة؛ فلم يكن النبي محمد مجرد مترجم لما بلغه من تلك المرويات، بل كان مستلهمًا صادقًا لإرث ديني فهمه وتفاعل معه بطريقته الخاصة، ولسنا بحاجة إلى القول بأن في هذا التفسير أيضًا ما يكفي وزيادة لنفي الكذب عنه عليه السلام سواء سماه بعضهم بصراحة وقحة افتراء واختلاقا، أم سماه بعض الباحثين تحفظًا وتحوطًا استخدامًا وتوظيفًا.

وأما لمن شاء برهانًا إضافيًّا دامغًا على استحالة أن يكون من خلف بعض ما جاء في القرآن قصص تلمودي حوت مضمونا قريبا مما جاء في القرآن عن نوح وقصته فسنكتفي بإيراد هذا الشاهد الأخير من سورة نوح، وهو كاف لبيان استحالة أن يكون هذا القول من بين أقوال نوح التوراتي أو التلمودي، بل سيجده يعبر عن نوح المخيالي الذي أبدعه باطن النبي محمد، وسيرى كذلك أن هذا القول لا يتصور وجوده إلا في ضوء ما قدمناه من تفسير لتلك المشكلة:

وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾(نُوح: 23–24).

علمنا أن قوم نوح كانوا يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون إلى جانبه شركاء يجعلونهم له أندادًا، وسنعلم عبر الفصول القادمة أن تلك العقيدة الشركية التي كانت في الحقيقة عقيدة العرب زمن البعثة، كانت هي العقيدة الدينية ذاتها التي منحها النبي لجميع الأمم السابقة يستوي في ذلك المصريون وقوم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم مدين وسواهم، ولكن ما تختص به سورة نوح أنها أوردت، ويالعجب، أن قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام ذاتها التي كانت تعبدها بعض القبائل العربية قبيل البعثة المحمدية؛ لذا فهي تستحق الوقوف عندها قليلا بسبب ما أثارته من مشكلات قديمة؛ حديثة تلخصها هذه الأسطر: "وبان للعقل الإسلامي أن وَدًّا وسُواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا كانت الأوثان التي تعبد في جزيرة العرب زمن البعثة النبوية وقبلها بكثير أو قليل، وعجز العقل الإسلامي أن يفهم الصلة بين هذه الأوثان ونوح عليه السلام حتى تجيء في قصته؛ ولذا

عد هذه المسألة من المشكلات، وجاء في الرازي بصدد تفسيره لسورة نوح ما يلى: المسألة السادسة، هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ثم إنها انتقلت من قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب وسواع لهمدان، ويغوث لمذجح، ويعوق لمراد، ونسر لحمير، ولذا سمت العرب بعبد ود وبعبد يغوث هكذا قيل في الكتب وفيه إشكال؛ لأن الدنيا قد خربت في زمن الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام؟ وكيف انتقلت إلى العرب؟ ولا يمكن أن يقال إن نوحًا عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعيًا منه إلى حفظها؟! "(319).

أما عن تفسيرنا لهذا الإشكال العويص فسوف نحاول أن نتلمس إجابة، نرجو أن تكون مقنعة، لهذه المعضلة القديمة في الفصل القادم عن أنبياء العرب لارتباط ما سنقدمه في موضعه بتاريخ العرب البائدة وزمانهم، كما سنرى؛ لذا سنكتفي هنا بعرض ما اقترحه المفسرون لتلك القضية سواء من أدرك هذه المشكلة فتوقف عندها أو من لم يأبه بها فتجاهلها، كما لو كنت غير موجودة أصلا!!

ولننظر أولا في أقدم ما بلغنا من حلول لتلك المشكلة عبر تقديم ما نسبه المحدثون إلى ابن عباس: "قال البخاري: حدثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جريج، وقال عطاء، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد؛ أما وَد فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ، أما يُعوقُ فكانت لهَمْدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كَلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدت(320)".

ليس من حديث يناظر هذا الحديث السابق الذي أورده البخاري موقوفًا على الصحابي عبد الله بن عباس في الدلالة على كيفية استجابة المسلمين الأوائل لما جاءت

(319)"الفن القصصي في القرآن الكريم" محمد أحمد خلف الله، سينا للنشر، الطبعة الأولى 1951، الطبعة الرابعة 1999م، ص 65 و66.

(320)صحيح البخاري برقم (4920)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، 1422هـ ج6، ص 160.

به هذه الآية من إشكالات، فقد قرر هذا الأثر ببساطة تامة أن تلك الأصنام النوحية قد (صارت في العرب!)، ثم اكتفى برد تلك الأصنام إلى القبائل العابدة لها في جزيرة العرب، ثم نراه بعدها لا يقدم تفسيرًا لوجود تلك الأصنام في بلاد العرب، بل بدلا من ذلك نراه يقدم حكاية أخرى عن دخول الشرك إلى العالم لأول مرة؛ لكي يؤصل لوجوده منذ أقدم الأزمان، وليقرر بأن تلك الأصنام هي الأصنام ذاتها التي عبدت لأول مرة من دون الله قبل نوح بقرون عدة؛ إذ كان قوم نوح، كما رأينا، يتشبثون بعبادتها لأنها انحدرت إليهم من ميراث الآباء والأجداد!

لسنا بحاجة إلى القول بأن هذا التفسير هو في الحقيقة لا يفسر شيئًا أبدًا! فمن ناحية لم يخبرنا ابن عباس كيف (صارت) تلك الأصنام في العرب؛ إذ لم يكن طول المدة بين زمني نوح ومحمد هي المشكلة الوحيدة التي كان عليه أن يواجهها، بل كانت هناك مشكلة أخرى أشد خطرًا، وهي كيف بقيت تلك الأصنام أصلاً؟! لأن القرآن كما نعلم قد تابع الرواية الكتابية عن الطوفان الذي عمَّ أرجاء الأرض، بقوم نوح أجمعين فأغرقهم وأغرق أصنامهم، ولم ينج من قوم نوح إلا تلك الثلة القليلة من المؤمنين، فكيف بقيت تلك الأصنام ليعبدها العرب أو غير العرب؟! وهذه المشكلات التي تجاهلتها رواية ابن عباس يبدو أنها قد أزعجت بحضورها المفسرين من بعده؛ لذا فقد حاولوا جهدهم تقديم تأويل ملائم يوفق بين وجود تلك الأصنام كأوثان عربية عبدها العرب قبل البعثة بقرون، وما نص عليه القرآن بوضوح من أن الله قد أغرق قوم نوح الكافرين ومعهم هذه الأصنام ذاتها!

أما عن تلك الحلول التي خرجوا بها فقد جاءت متباينة متخالفة على قدر اختلاف ثقافة المفسرين ومنطلقاتهم، وهي لا تخرج في الجملة عن خمسة اتجاهات رئيسية في التفسير:

أولا- هناك من رأى أن تلك الأصنام العربية التي وجدت قبل البعثة النبوية كانت هي نفسها أصنام قوم نوح ذاتها. ويقدمون في كيفية بلوغها بلاد العرب قصة عجيبة غريبة تقول: بأن الأمواج والمياه قد جرفتها وألقتها إلى ساحل جدة، ثم سفت عليها الريح فطمرتها، ومكثت هناك ما شاء لها الله أن تمكث، ثم بعد قرون كثيرة تدخل الشيطان، فأوحى إلى بعض المشركين بمكانها، وحضهم على دعوة العرب إلى عبادتها فعبدوها: "روى أنه كان لآدم عليه السلام خمسة بنين يسمون: نسرا، وودّا، وسواعا، ويغوث،

ويعوق، وكانوا عبادًا فماتوا فحزن أهل عصرهم عليهم فصوَّر لهم إبليس أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم فجعلوها في مؤخر المسجد، فلما هلك أهل ذلك العصر قال إبليس لأولادهم: هذه آلهة آبائكم فعبدوها بعدهم، ثم إن الطوفان دفنها فأخرجها اللعين للعرب فكانت ودّ لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل بساحل البحر، ويغوث لغطفان من مراد ثم لبني غطيف بالحوف وفي القاموس غطيف كزبير حي من العرب أو قوم بالشام والحوف موضع بأرض مراد، ويعوق لهمدان، ونسر لذي الكلاع وحمير(321)".

ثانيًا- هناك من يرى أنها كانت مجرد ابتعاث لأسماء تلك الآلهة القديمة، ولم تكن أعيان تلك الأصنام، ولكن دون أن يفسر لنا كيف حدث ذلك؟ "وكان أول من اتخذ تلك الأصنام، من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس، وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل (مدركة ابن إلياس)(322)، (وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال: رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد، ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك(323)، فإذا نزلوا وقالوا قد رضي لكم المنزل فينزلون حوله، ويضربون عليه بناء، وقيل يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى العرب، فالظاهر أنه لم يبق إلا الأسماء فاتخذت العرب أصنامًا وسموها بها، وقالوا أيضا عبد ود وعبد يغوث يعنون أصنامهم(324)".

---

(321)"تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس" حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري، دار صادر، بيروت، ج2، ص 9.

(322)"كتاب الأصنام" هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دارالكتب المصرية، الطبعة الثالثة، 1995م، ص 9 .

(323)ألا يذكرنا هذا بحسن بديهة النبي عليه السلام عندما وجد الأنصار يتسابقون إلى شرف نزوله عليهم عند دخوله المدينة فقال في كياسة لمن كانوا يتعلقون بزمام راحلته (خلوا سبيلها فإنها مأمورة)؟!

ولا نشك في أن النبي كان يقصد أن راحلته وكل شيء آخر تحت سلطان إرادة الله؛ إذ لا يحدث شيء إلا وفق حكمته، ولم يكن مجرد مخرج ذكي من تلك الورطة التي قد توقع العداوة بين أنصاره في أول مقدمه إليهم! ولأننا نجد هذا التعبير حاضرًا في كثير من الأحاديث النبوية مثل وصفه الريح: "لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه"، الصحيحة برقم (527)، وكذا ما جاء في الصحيحين في مخاطبة يوشع بن نون للشمس، وكذا ما جاء في الأحاديث عن كلاليب الصراط التي أمرت أن تأخذ من أمرت به ..إلخ. و"عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لابن سيد الناس، تعليق إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى 1993م، حديث الناقة، ج1، ص223.

(324) انظرالألوسي "روح المعاني" ج15، ص 86، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، تحقيق علي عبدالباري عطية، 1415 هـ. لم يعجب محقق الكتاب ما استبعده الألوسي، فعقب على قوله في الصفحة ذاتها "قوله وقيل يبعد..إلخ" قد أخرج الإفرنج في حدود الألف والمائتين والستين أصناما وتماثيل من أرض الموصل كانت من نحو من ثلاثة آلاف سنة فلا تغفل منها، هـ.

ثالثا - هناك عدد غير قليل من المفسرين الذين لم يحفلوا بتلك المشكلة من أساسها، وتجاهلوا جميع تلك المشكلات فاكتفي أحدهم بمثل هذا القول: "وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة: (وَقالُوا: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) ..بهذه الإضافة: (آلِهَتَكُمْ) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم. وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز..*وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾* (نُوح:23) وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية [325]".

وهناك، رابعًا، ما نوافق على عدم حسبانه اتجاهًا تفسيريًّا لأمثال تلك المشكلات لأنه في الحقيقة مجرد اجتهاد قدمه أحد الدارسين من نصف قرن، ولم يفلح في أن يشكل منظورًا تفسيريًّا لتيار من الباحثين في الدراسات القرآنية؛ إذ لم يتابعه عليه أحد، ولكن صاحب هذا الرأي قد وجد بغيته في الخلاص من كل المشكلات القرآنية بضربة واحدة عبر تبني التفسير الأدبي لقصص القرآن وعدِّه لا يقرر حقائق تاريخية صحيحة إنما جاء للعظة والعبرة!! وكما رأينا قد ساق تلك الملاحظة التي صدرنا بها الحديث عن أصنام نوح كمجرد مثال من بين أمثلة كثيرة للدلالة على صعوبة الاعتقاد في الصحة الحرفية لما أورده القرآن من أخبار التاريخ، والرجل كما سنرى يقبل من التاريخ القرآني ما أثبتته كتب التاريخ، وأما ما يخالفه فيؤوله زاعمًا بأن القرآن إنما يقدم قصصًا أدبيًا للمغزى والعظة دون أن يكون الغرض من ورائها تسجيل الوقائع كما حدثت في التاريخ، ولا يخفي أنها نظرية عاثرة الحظ؛ فهي لا ترضي المؤمنين، ولا يقنع بها المخالفون ![326]

[325]"في ظلال القرآن"، سيد قطب، ج6، ص 3716، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، 1412هـ. هذا إذا عددنا ما يقدمه الأستاذ قطب يصلح لأن يسمى تفسيرا، ولكننا نعني به طريقة استجابة هؤلاء الذين يسلمون بصحة ما نص عليه القرآن والانطلاق من التسليم المطلق في صحته سواء وجدوا تفسيرا عقليا يريحهم أم لا، ولم نذكره هنا إلا لشيوع تلك الطريقة العجيبة في التفكير وانتشارها بين ملايين المسلمين على اختلاف مداركهم.

[326]ويؤسفني أن رسالة صدرت في الآونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات فحسب، وأنه قد يستخدم في سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز مقطوعة عن الواقع التاريخي والصدق العقلي! وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال في آخر سورة يوسف *لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)* راجع مقدمة الشيخ الغزالي لكتاب "قصص الأنبياء والتاريخ" للدكتور رشدي البدراوي، ج1، ص (د) - الطبعة الثالثة 2009م.

أما الاتجاه الخامس فيأتينا من خارج أهل الإسلام؛ من الملحدين، وأصحاب الأديان أخرى؛ أي من هؤلاء الذين يرفضون القرآن رفضًا تامًا، ولا يعدونه وحيًا إلهيًّا، بأي معنى من معاني الوحي، مثلما نجده عند هذا الباحث الغشوم الذي لم يرَ في كل مشكلات القرآن التاريخية إلا مظهرًا من مظاهر جهل النبي بالتاريخ، وتناقض أفكاره واضطرابها واستثماره القصدي لما كان يجده تحت يديه لبناء تصور تاريخي زائف فيقول: "هناك من الأمور التي تكشف استثمار محمد للعناصر المحلية في الجزيرة العربية لكي ينسب لها القدم ويربطها في أسماء سواء ذكرت في الكتاب المقدس أو لم تذكر؛ فالأصنام العربية لبعض القبائل في زمانه هي مثال من ذلك النهج ...[327]".

أما عن رأينا في الاجتهادات التي تتحرك داخل الإطار الإسلامي فلسنا بحاجة إلى بيان وهن تلك التصورات جميعًا؛ لأنها تحاول في الحقيقة التوفيق بين متناقضين لا سبيل إلى التوفيق بينهما، فكما يقول العلماء بأن تلك الأصنام النوحية إنما كانت لقبائل عربية صغيرة، وكانت كل قبيلة تختص بصنمها، فضلا عن عربية تلك الأسماء ما يوحى بقربها النسبي من زمن البعثة، أو على أبعد تقدير مع ظهور اللغة العربية الحديثة، وهي لا تتجاوز الألف الأولى قبل الميلاد.

أما عن هؤلاء الذين ليس لديهم من تفسير للمشكلات القرآنية إلا بوصفها أثرًا من آثار جهل النبي بالتاريخ وكفى! فهي أقوال بالغة السخف والسطحية، ليس لأن ما قدمه القرآن يشكل تاريخًا صحيحًا للوقائع والأحداث كما صار يعرفها أهل زماننا، كلا! فالقرآن الكريم لا يقدم حقائق تاريخية صحيحة في حقيقة الأمر، لكنهم يؤسسون بناءهم كله على رفضهم التصديق بأن النبي محمد كان من ناحية صادقًا كل الصدق في اعتقاده بصحيح نبوته، وتلقيه عن الله، وإلا فماذا كان سيستفيد النبي بهذا التصريح بأسماء تلك الآلهة القديمة في خطابه لقومه إلا لاعتقاده الكامل في قدم تلك الآلهة الوثنية التي كانت

إذن فليس من الضروري القول بأن ما جاء به الأستاذ خلف الله لم يرض أحدًا، أما المؤمنون الراسخون فلا يرضون سوى المتابعة الحرفية لظاهرالنص فهو أعز عليهم من الحقيقة ومن العقل ومن كل شيء كما فعل الشيخ الغزالي، وأما غير المؤمنين فلا يرون فيه سوى حل هروبي غير مقنع، وأنه ما جاء به صاحبه إلا تحت وطأة هجوم المستشرقين والملحدين والمنصرين، وما أحدثته تلك الهجمات الضارية على القرآن الكريم، فجاءت نظريته هذه اعتذارية تبريرية، وعلى هذا فإذا ما كانت هذه النظرة كما قلنا لا ترضي المؤمنين، ولا تفلح في إقناع غيرالمؤمنين، فما نفعها إذن؟!

(327) د. رأفت عماري "القرآن والتاريخ"، إصدار معهد الأبحاث الدينية، 2014م، الطبعة الأولى، ص 253، وسنرى أن هذا الباحث الذي يرفض القرآن لأنه يخالف الحقائق التاريخية يقبل في الوقت ذاته ما جاء في عقيدته من أغلاط أشد شناعة، ويتمحل لها التعلات والتكلفات السمجة!

تعبدها العرب في زمانه؟! ومن ناحية أخرى فهم لا يحاولون أن يتبينوا ملامح النسق الإدراكي الذي كان النبي محمد يصدر عنه، وهو في اعتقادنا نسق محكم معقول في ضوء معارف عصره تاريخ العالم؛ إذ جاء وصفه للتاريخ متسقًا، رغم مخالفته الواضحة لكثير من الحقائق التاريخية التي باتت الآن ميسورة لكل من يطلبها، لكنها لم تكن تشكل تناقضًا فيما بينها، بل جاء تصوره التاريخي في الجملة متسقًا ومنسجمًا مع مقدماته.

ونحن إذ نستبق النتائج، ونحكم على المنطق التاريخي للنبي محمد بالاتساق؛ فإنما نعني بهذا القول بأننا ننظر إلى المنظور المحمدي للتاريخ كما يفعل أي محلل للمنطق الرياضي، فليست العبرة باتفاقه أو اختلافه مع الوقائع الخارجية، بل العبرة فقط بسلامة الاتساق بين مقدماته وفرضياته من ناحية، واستخلاصاته ونتائجه من ناحية أخرى، وإلا فالرؤية القرآنية لا علاقة لها بالتاريخ الذي يعرفه أهل عصرنا، ولكن هذه مسألة أخرى لا تعنينا في شيء الآن.

على هذا، فلربما شكل حضور مشكلة بعينها سبيلا للعثور على مفتاح تحل من خلاله كثير من المشكلات ربما كانت أعظم منها، وإذا أمكن وجود شيء كهذا فلا شك في أن مشكلة أصنام قوم نوح هي مثال جيد لذلك؛ لذا فليس المطلوب هو إيجاد مخرج من إشكالية قديمة تزعج المؤمنين بحرفية النص القرآني، وليست الغاية كذلك أن يتخذ بعض الباحثين من وجود تلك المشكلات سبيلا للطعن في صحة عقائد المسلمين، بل إن كل ما نستهدفه بالأساس هو العثور على المنطق الداخلي الذي كان يقف خلف طريقة التفكير النبوية واتساق رؤيته؛ لأننا بعد إمعان النظر في أغلب المشكلات القرآنية نشعر بحضور منطق عقلي بارع يقف خلف ما يتبدى للحظة الأولى تناقضات وأغاليط لا حل لها.

إن من ينطلق من اعتقاده وتصديقه في أن قوم نوح كانوا يعبدون هذه الأصنام حقا معتمدًا على أن القرآن قد ذكر ذلك فلن يجد سبيلا لحل هذه المشكلة، ورغم أننا لا نعتقد مطلقًا في صحة في تلك المعلومة التاريخية، فإنه ربما كان من الضروري محاولة الإجابة عنها، لكن على أرضية تساؤل آخر وهو : كيف اعتقد النبي في إمكان ذلك؟!

أما ما نعتقده لأمثال تلك المشكلات، فالحقيقة الواضحة أنه ليس من حل لتلك المشكلة وأمثالها إلا بما نقترحه من توسيع لمدلول الوحي، فهو إن ظل داخل التصور الإسلامي العام القديم؛ أي بمعنى إسلام الوجه لله، والإقرار بوجوده تعالى وحضور

هدايته العامة، لكن من الضروري التحرر من مفهوم الوحي الحرفي، فأصحاب هذا التصور هم من يجب عليهم أن يواجهوا هذه المشكلة، وكثيرًا غيرها، وجميعها تجعلهم على خط التصادم المباشر مع التاريخ ومنطق التطور، وهو الأمر الذي جعل من بعض تلك القناعات المحمدية الراسخة أمرًا غير مقبول على الإطلاق. ولا ينبغي بعد أن تنفد جميع الافتراضات ذكية ومعقولة كانت، أو واهنة وسخيفة، أن نهمل إمكانية أن تكون جميع تلك التفسيرات المقدمة لرفع بعض الإشكالات الفرعية خاطئة من أساسها، وأنها قد جاءت جميعها لرفع إشكال وتناقض، ربما كان موجودًا في العقل النبوي ذاته، ولربما جاء هذا التناقض ببساطة من حضور تلك المسافة الفاصلة بين مقتضيات المنطق الذي كان يحكم طريقة تفكيره الواعي، وما قاله النبي تحت وطأة الشعور بالإلهام، وسنرى أمثلة كثيرة لذلك في الفصول القادمة.

أما هنا فلنكتفِ بما تجهر به هذه الآية من اعتقاد النبي في ثبات مفاهيم عصره، وأنها كانت هي بعينها أو على نحو قريب منها في كل العصور، فلن نريد منها أكثر من ذلك، والأهم من ذلك أن نتذكر بأن تلك الطريقة المحمدية في صياغة التاريخ كانت هي عينها التي اعتمد عليها كتبة العهد القديم وهم يصوغون الماضي البعيد للبشرية كما يقول هذا الكاتب الرصين: "حين روى الكاتب خبر البدايات، لم ينطلق من الماضي (الذي لا يعرفه) لكي يصل إلى الحاضر؛ بل انطلق من الحاضر وحاول أن يقدم له جواب الإيمان. ما يعيشه هو اليوم قد عاشه أول إنسان على الأرض. هو يموت وكذلك مات أول إنسان على الأرض. بقي عليه أن يبرر الله الذي خلق الكون جميلا، الذي لم يخلق الشر. انطلق الكاتب من واقع يومي أو خبر قديم، وجعله في سطرة عاد بها إلى بداية الكون. استعمل ما في الحضارات المجاورة من أساطير وأدخلها في نظرته التوحيدية. وهكذا قدم لنا تعليمًا عن العائلة التي يباركها الله؛ حيث الرجل والمرأة متساويان، والرجل والمرأة واحد. وأعاد قراءة خبر الطوفان فربطه بخطيئة البشر وشرورهم. تاريخ البدايات هو نظرة إلى الكون، لا نظرة علم إلى أمور جهلها الكاتب. وهي ستكون نظرتنا نحن الذين نعرف اليوم أيضًا الشر والألم والموت [328]".

---

[328] انظر "تعرف إلى العهد القديم مع الآباء والأنبياء" الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، طبعة أولى، 1994م، ص 123.

الفصل الثاني
قصتا هود وصالح

تمهيد
المبحث الأول: عاد وثمود بين القرآن والتاريخ
أولا: قوم عاد في المصادر الاسلامية القديمة.
ثانيا: من أين أتت تلك الطريقة.
ثالثا: عاد وثمود عند المؤرخين المحدثين.
رابعا: متابعون ومؤولون
خامسا: هل عرف النبي موسى قصة عاد وثمود؟
سادسا: قصة مؤمن آل فرعون وقصص أخرى
سابعا: هل عرف المصريون حقا قصص نوح وعاد وثمود؟
ثامنا: صحف إبراهيم وموسى

تمهيد

سيسأل ناس ما قريش ومكةُ؟... كما قال ناس ما جديسٌ وما طسمُ؟
(أبو العلاء المعرى)

بينما كان كاتب التوراة يتمهل وينتظر، ويعد مسرحه لظهور إبراهيم، الذي سيبدأ معه التاريخ الحقيقي للبشرية؛ إذ اعتقد المسكين أن لُباب التاريخ البشري كله كان مداره تلك العلاقة الخاصة بين الله وشعبه الحبيب! كان النبي محمد قد سبقه هذه المرة متسقًا مع معالم رؤيته للتسلسل التاريخي كما اعتقده، وأعد مسرحه الخاص لتجربتين دينيتين تحف بهما المأساة من كل جانب، وكان بطلاهما شعبين عربيين قديمين متعاقبين، هما: عاد وثمود، وإلى أولاهما أرسل الله نبيه هودًا، وفي الأخرى ابتعث الله نبيه صالحًا، ولم يكن النبي محمد يحتاج لكي يفعل هذا الذي فعله إلا لما كان يملكه فعلا؛ وهو تصوره الدوري للتاريخ البشري؛ أي بوصفه سلسلة لا تنتهي من الإيمان بالتوحيد والنكوص عنه إلى الشرك، ومايستتبعه من الإنجاء والإفناء كما سنرى.

أهمية أنبياء تلك الفترة

أما عن حكمة كل هذا الحضور الشديد لنوح كما رأينا ولهود، وصالح وشعيب كما سنرى في القرآن المكي، وغيابهم شبه التام عن القرآن المدني، فمن الممكن أن نقبل على نحو ما ما أرجعه بعض الباحثين إلى أن النبي في تلك الفترة أو على الأقل في بدايتها كان نبيًّا عربيًّا يتوجه إلى من يستهدف دعوتهم إلى عقيدته الجديدة؛ لذا فقد كان من المعقول أن يستحضر لهم ما كانوا يعرفونه ولو على نحو غامض من أخبار عاد وثمود وقوم مدين؛ لأنهم كانوا في النهاية عربًا مثلهم ويعرفون عنهم ما لا يعرفون عن غيرهم من أنبياء العهد القديم.

لكن الحقيقة فيما نعتقد، أن النبي قد ذكر هؤلاء الأنبياء وأخبارهم بهذا التفصيل الشديد لغاية أكثر أهمية من هذا السبب بكثير؛ وهو أنه لم يكن يتوقع في تلك المرحلة المبكرة من دعوته أن يستجيب له إلا أقل القليل من قومه، وأن مصير المكذبين من قومه لن يختلف في شيء عما أنزله الله بتلك الأمم خاصة من عقوبات شاملة لما هو معروف من أن العقوبات الإلهية بعد موسى وإن ظلت حاضرة للتأديب والتقويم، إلا أنها لم تتعد

ذلك إلى المحو والإفناء كما حدث لتلك الأمم المكذبة الجاحدة في تلك القرون الفاصلة بين نوح وموسى التى استأصل الله شأفتها بالكلية، ولم يترك منها نفسًا لها عين تطرف!

ومما يقوي هذا الفهم ويؤيده على ما نعتقد أن القرآن الكريم قد استحضر أيضا باختصار شديد في سوره الأولى قصة النبي موسى مع فرعون والمصريين، لا لشيء سوى وصفهم مع تلك الأمم الهالكة من أمثال: أقوام نوح، وعاد، وثمود، وأهل مدين، والمؤتفكات، كما يتضح من قراءة سور: الفجر، والنجم، والشعراء، والدخان، والذاريات، وق، والنازعات وسواها. فعلى هذا لم يكن موسى يحضر في القصص القرآني الباكر كنبيٍّ عبرانيٍّ جاء برسالة وشريعة لقومه، بل بوصفه نبيًّا كذبه المصريون فحاق بهم ما حاق بغيرهم من الأمم التي ردت رسالة الله وكذبت أنبياءه لا أكثر ولا أقل، زد على ذلك بأن معرفة معاصري النبي محمد بهؤلاء الأنبياء العرب وعلى النحو المخيالي الرائع الذي قدمه إليهم النبي محمد ربما كانت أقل من معرفتهم بأخبار الأنبياء اليهود وأقوامهم والتي كانت ذائعة بينهم على النحو الذي جاءت به في الكتاب المقدس، أو على شيء قريب منه، مثلما شاع بينهم من القصص التلمودية، وقد رأينا كيف جاءت أخبار نوح مفصلة مسهبة في القرآن الكريم رغم أن نوحًا لم يكن نبيًّا عربيًّا يخص العرب في شيء، بل لقد ذكر في تلك السور القرآنية الباكرة مع من ذكر من الأنبياء العرب وغير العرب لا لشيء يجمع بينهم سوى اشتراكهم جميعًا في تلك النقطة دون سواها.

أنبياء العرب

نصَّ القرآن الكريم على أن الله قد أرسل إلى العرب كغيرهم من الأمم رسلا، وبعث فيهم أنبياء منذ قديم الزمان، ذكر لنا القرآن منهم أربعة أنبياء: جاء اثنان منهما قبل إبراهيم، وهما: هود وصالح، وأما الآخران فكانا من نسل إبراهيم، وهما: إسماعيل وشعيب، دون أن يعني هذا أن هؤلاء الأربعة كانوا جميع من أرسله الله إلى العرب عبر تاريخهم الطويل، ولكن هؤلاء من نص القرآن على نبوتهم، فلم يختلف على نبوتهم أحد من المسلمين مثلما اختلفوا على نبوة غيرهم كلقمان، وحنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان وغيرهم .

على هذا فلم يكن حظ العرب من حيث العدد كبيرا، لكنهم حظوا رغم ذلك بأول نبي صريح بعد الطوفان، وادخر الله لهم خاتم الأنبياء والمرسلين، بل سينيط الله بأمة

هذا النبي الخاتم والمنصور أعظم المهام وأقدسها؛ وهي أن ينشروا رسالة الأنبياء جميعهم، ويكونوا شهداء على جميع الأمم لأنهم سيوصلون رسالة الله في صورتها التامة الأخيرة إلى جميع البشر بعدما بعُد بهم العهد بتلك الرسالات الإلهية، وانقطاعها عنهم لقرون وقرون، وذلك لأن الله قد شاءت إرادته أن يختص أبناء إبراهيم من بينهم جميعا بالنبوة والكتاب.

فلننظر إذن في قصة هود القرآني بشكل مفصل ومعه قصة رفيقه وخليفته صالح وإن بإيجاز شديد فأحدهما يغني عن الآخر فيما نقصد إليه من محاولة التعرف إلى تاريخية القصص القرآني، وطريقة معالجة النبي محمد لوقائع التاريخ الرسالي كما فهمه وآمن به.

لكن قبل أن ندخل في قصة هود القرآني، دعونا أولاً نتعرف بإيجاز إلى ما تقوله كتب التاريخ قديمة وحديثة عن هاتين الأمتين العربيتين البائدتين.

المبحث الأول
عاد وثمود بين القرآن والتاريخ

"مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا! يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ أين الظلم الذي لم ينكر؟ أين العرف الذي لم يشكر؟ يقسم بالله قس أن لله دينًا هو خير من دينكم هذا[(329)]".

إذا حاول قارئ معاصر أن يستطلع ما تقوله كتب التاريخ عن قومَي عاد وثمود، وغيرهما من الأمم العربية البائدة فلن يغيب عنه للوهلة الأولى ذلك الفرق الشاسع بين نمطين متباعدين من الكتابات التاريخية، أما أولهما: فهو ما كتبه المؤرخون المسلمون الأقدمون من مدونات تاريخية وما جاء فيها مثلا عن قصة قوم عاد التي هي في عمومها لا تعدو أن تكون هامشًا تفسيريًّا ضافيًا لما جاء مجملا في القرآن الكريم عن قوم عاد وما جرى بينهم وبين نبيهم هود، وما كان من هلاك تلك الأمة العربية القديمة بما أرسله الله عليهم من أليم العذاب؛ حيث نرى كل تلك الكتابات الزائفة تستكمل ملامح تلك الصورة المبهمة والشاحبة في القرآن عن قصة هود وقومه مستقية جُل معارفها من الآثار اليهودية بعد تعريبها وأسلمتها والاعتماد على خطوطها الرئيسية، خاصة من ناحية تسليمها الساذج بصحة تاريخ زمن حضور الأمم الغابرة كما وردت وفق المخطط الزمني لأساطير التوراة خاصة قصة الطوفان، وإعادة تشكل الجماعة البشرية من جديد من نوح وبنيه، وبلبلة الألسنة، أو مستندة إلى ما أضافه بعد ذلك النبي محمد إلى تلك المسيرة التوراتية الخرافية، وبما أحدثه فيها بعظيم مخياله من تداخل بينها وبين تاريخ بعض المجتمعات العربية القديمة كما اعتقدها، مضيفين إلى ذلك كله بعض ما علق بذاكرة الرواة والإخباريين العرب من خرافات العرب وأساطيرهم قبل الإسلام مما ظنوه تاريخ العرب الأقدمين.

أما الضرب الآخر من تلك الكتابات، فهي كتب التاريخ الحديثة، التى تحاول بدرجة أو بأخرى أن تشق طريقها في ضوء النصوص التاريخية والقيود الأثرية وحدها، وبمعزل عن الرواية الدينية رغم شح تلك المصادر ولكنها تسعى على كل حال لأن تلقى الضوء على تلك الفترة الموغلة في القدم من مراحل التاريخ العربي القديم وتمييز صحيح أخبارها من باطله.

---

(329) من خطبة تنسب إلى قس بن ساعدة الإيادي، راجع هذه الخطبة المشهورة كاملة في كتاب "نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب" ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ج1، ص 669.

سوف نحاول هنا أن نقدم في إيجاز شديد معالم هاتين الرؤيتين لنرى ما بينهما من اختلاف جسيم، لندخل بعدها في مقصودنا عن قصة قوم عاد كما جاءت في القرآن الكريم.

أولا: قوم عاد في المصادر الاسلامية القديمة.

حاول المؤرخون المسلمون جاهدين أن يكتبوا تاريخ العالم مذ خلقه الله، معتمدين بالطبع على الرؤية القرآنية لتاريخ البشر؛ أي بوصفه تاريخًا للرسالات الدينية المتتابعة منذ الإنسان والنبي الأول آدم حتى النبي الأخير؛ لذا فلا نجدهم أبدًا يغادرون ذلك التسلسل التاريخي لحضور الأمم في التاريخ وخروجها منه إلا من خلال هذا المنظور القرآني الافتراضى وحده؛ أي عبر النظر إلى تاريخ تلك الأمم والشعوب القليلة التي ذكرها القرآن بوصفها مجرد نماذج لقصص أمم وشعوب كثيرة أخرى اختبرها الله بلا هوادة فأثابها ومتَّعها إلى حين أو دمرها وأهلكها، وفق انصياعها أو تمردها على من أرسلهم الله إلى تلك الأقوام من الأنبياء والمرسلين.

ولمَّا كانت استجابة البشر لنداء الله ورسالاته وفق القرآن هي استجابة جد مؤسفة؛ حيث نجد الأمم والشعوب جميعها أو تكاد ترفض بعناد عجيب الإصغاء إلى رسالات الأنبياء، وتأبى الانقياد إلى دعوات المرسلين، كما لو كانت الرسالات الإلهية جميعها تحوي جميع ما تأباه العقول، ويخالف ما يستقيم مع طبيعة الإدراك البشري؛ لذا فلا عجب أن نجد أن تاريخ الأمم والشعوب في القرآن لا يبعد أن يكون تاريخًا لا ينتهي للمحو والإفناء بعد الاختبار والابتلاء.

ولمَّا كانت جميع تلك المصادر الإسلامية القديمة لا تخرج عن هذه الطريقة؛ لذا فسنكتفي بإيراد نماذج قليلة منها؛ إذ إن قليلها يغني عن كثيرها، ولكننا سنعلم من مجموعها ما استقرت عليه معارف أهل الإسلام عن تلك القبائل العربية الهالكة، وكيف كانت صورتها لديهم ولنبدأ بقوم عاد.

فنجد في البداية مؤرخًا ومفسرًا، وهو ابن كثير الدمشقي، يوجز في تاريخه ما أسهب في شرحه عند تفسيره لما جاء عن قوم عاد في القرآن الكريم، ولكنه هنا يقدم الخلاصة النافعة التي لا تخرج عن شرح ما جاء به القرآن الكريم من أخبار قصة هود مع قومه حيث يقول: "وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ عَادٍ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَالْفُرْقَانِ،

وَالْعَنْكَبُوتِ، وَفِي سُورَةِ ص، وَفِي سُورَةِ ق، وَلْنَذْكُرْ مَضْمُونَ الْقِصَّةِ مَجْمُوعًا مِنْ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ مَعَ مَا يُضَافُ إلى ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ أَوَّلُ الْأُمَمِ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ بَعْدَ الطُّوفَانِ. وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي قَوْلِهِ لَهُمْ: *وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ ٦٩* (الأَعْرَاف: 69). أَيْ: جَعَلَهُمْ أَشَدَّ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي الْخِلْقَةِ وَالشِّدَّةِ وَالْبَطْشِ. وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنُونَ: *ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١* (المُؤْمِنُون: 31). وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ عَلَى الصَّحِيحِ. وَزَعَمَ آخَرُونَ: أَنَّهُمْ ثَمُودُ. لِقَوْلِهِ:*فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ ٤١* (المُؤْمِنُون: 41). قَالُوا: وَقَوْمُ صَالِحٍ هُمُ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ* وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦*(الحَاقَّة: 6). وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ لَا يَمْنَعُ مِنِ اجْتِمَاعِ الصَّيْحَةِ وَالرِّيحِ الْعَاتِيَةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا سَيَأْتِي فِي قِصَّةِ أَهْلِ مَدْيَنَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، فَإِنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، ثُمَّ لَا خِلَافَ أَنَّ عَادًا قَبْلَ ثَمُودَ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ عَادًا كَانُوا عَرَبًا جُفَاةً كَافِرِينَ، عُتَاةً مُتَمَرِّدِينَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ فِيهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ يَدْعُوهُمْ إلى اللَّهِ، وَإلى إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَتَنَقَّصُوهُ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ،--- [330]".

ونجد كذلك مؤرخًا هو أبي الفداء يقول عن (أمة عاد) ليعرفنا بزمانهم ومكانهم وهيئاتهم : "وهم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكانت عاد في نهاية من عظم الأجساد والتجبر، ونزل عاد لما تبلبلت الألسن في حضرموت، وأرسل الله إلى بني عاد هودًا نبيًا، حسبما تقدم ذكره في الفصل الأول، فلم يستجيبوا له، وكانوا أهل قوة وبطش وكان لهم في الأرض آثار عظيمة، حتى قال لهم هود:*أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠* (الشُّعَرَاء: 128–130) وبلاد عاد يقال لها الأحقاف، وهي بلاد متصلة باليمن، وبلاد عمان،

(330)"البداية والنهاية" ابن كثير الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1418 هـ، 1997 م- 2003م، ج1، ص 288 و289.

وصار الملك في بني عاد، وأول من ملك منهم شداد بن عاد، ثم ملك بعده من بنيه جماعة، وقد كثر الاختلاف في ذكرهم، وجميع ما ذكر من ذلك مضطرب غير قريب للصحة فأضربنا عنه [331]".

ونجد كذلك مؤرخًا هو ابن خلدون يحاول ما وسعه الجهد أن يخلص بعض تلك المرويات السماعية التي اعتمد عليها مما تلبست به من الأساطير عن أهل تلك الفترة الغائرة في تاريخ العرب مقتصرًا على ما يتوافق مع الرواية القرآنية وحدها، التي لم يكن بداهة ليشك في كامل مصداقيتها التاريخية، فجاء عرضه لقوم عاد على هذا النحو: "وسمي أهل هذا الجيل العرب العاربة، إما بمعنى الرساخة في العروبية كما يقال: ليل أليل، وصوم صائم. أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها وقد تسمى البائدة أيضًا بمعنى الهالكة، لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. فأما عاد وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام فكانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. وكان أبوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب، وطال عمره وكثر ولده، وفي التواريخ ولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه، وتزوج ألف امرأة وعاش ألف سنة ومائتي سنة. وقال البيهقي: إنه عاش ثلاثمائة سنة، وملك بعده بنوه الثلاثة شديد وبعده شداد وبعده إرم. وذكر المسعودي: أن الّذي ملك من بعد عاد وشدّاد منهم هو الذي سار في الممالك، واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق. وقال الزمخشريّ: إن شدّاد هو الذي بنى مدينة إرم في صحارى عدن، وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد، يحاكي بها الجنة لما سمع وصفها طغيانًا منه وعتوًّا. ويقال: إن باني إرم هذه هو إرم بن عاد. وذكر ابن سعيد عن البيهقي: أن باني إرم هو إرم بن شداد بن عاد الأكبر، والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وإنما هذا من خرافات القصاص وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة في قوله تعالى: *إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ* القبيلة لا البلد[332]".

وكما ترى، فجميع تلك الكتابات القديمة من كتب التاريخ والتفاسير لا تخرج عن ذلك المزيج المضطرب لما أورده القرآن عن تلك الأمة العربية البائدة، بعد إلحاقها

(331)"المختصر في أخبار البشر" لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل شاهنشاه بن أيوب، المطبعة الحسينية المصرية الطبعة الأولى، ج1، ص 98.

(332)"ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" لابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دارالفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408 هـ - 1988 م، ج2، ص 22.

بالتاريخ الرسالي معتمدًا كما قلنا على بعض ما شاع بين عرب الجاهلية المتأخرين عن تلك القبيلة البائدة، وجميع تلك المدونات لا تخرج في الجملة عن مجموعة من المعالم الأساسية، نراها تتكرر بألفاظها في جميع تلك الكتب القديمة، ومدارها هو ذلك الاعتقاد الجازم بحضور قوم عاد بُعيد زمن نوح، وأنهم قد جاءوا من نسل أحد أبناء نوح الناجين من الطوفان، وأنهم أول من تكلم العربية، وأنهم أساس العرب جميعًا، وأن الله قد أرسل إليهم نبيًّا برسالة الله الواحدة التي ستكرر بحذافيرها عبر التاريخ البشري كله، لكنهم جحدوا وكفروا فأهلكهم الله بذنوبهم، ولم يبق منهم باقية، ثم خلفهم بعد حين من الدهر قوم ثمود، وفيهم أرسل الله نبيه صالحًا فلم يكونوا خيرًا من سابقيهم، بل كانوا شرًا منهم.

ثمود في كتب التاريخ الإسلامي

مثلما فعل المؤرخون المسلمون في قصة هود وقومه من قوم عاد، فقد تابعوا الصنيع ذاته في قصة صالح مع قومه ثمود، فنجد ابن كثير مثلاً يقول: "وَهُمْ قَبِيلَةٌ مَشْهُورَةٌ يُقَالُ ثَمُودُ بِاسْمِ جَدِّهِمْ ثَمُودَ أَخِي جَدِيسٍ وَهُمَا ابْنَا عَابَرَ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَكَانُوا عَرَبًا مِنَ الْعَارِبَةِ يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ الَّذِي بَيْنَ الْحِجَازِ وَتَبُوكَ. وَقَدْ مرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم وَهُوَ ذَاهِبٌ إلى تَبُوكَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَكَانُوا بَعْدَ قَوْمِ عَادٍ وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ كَأُولَئِكَ فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ بْنِ ماسح بن عبيد بن حاجر ابن ثَمُودَ بْنِ عَابَرَ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ فَدَعَاهُمْ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنْ يَخْلَعُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا فَآمَنَتْ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَكَفَرَ جُمْهُورُهُمْ وَنَالُوا مِنْهُ بِالْمَقَالِ وَالْفَعَالِ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ وَقَتَلُوا النَّاقَةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ(333)".

أما الملمح الذي تميزت به قصة صالح عن سابقه هود الذي لم يأت قومه بمعجزة كما نص القرآن فهو قصة تلك الناقة العجيبة التي قص علينا القرآن قصتها بإيجاز شديد، وهو ما أفاض في وصفها المؤرخون والمفسرون، حتى طغت قصة تلك الناقة وفصيلها على قصة ذلك النبي العربي القديم ذاته، ولا نشك في أن تلك الناقة وقصتها كانت من بين جملة خرافات العرب في الجاهلية، ولكن المؤرخين المسلمين قد تابعوا القرآن في أنهم قد جعلوا من تلك الأسطورة العربية معجزة منحها الله لرسوله صالح كبرهان ساطع

(333)"البداية والنهاية" لابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق علي شيري، دارإحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1988م، ج1، ص 150.

على صدق رسالته، كما يشرح لنا هذا المؤرخ: "وَأرْسل اللَّهِ صَالحًا إلى ثَمُود، وَهُوَ صَالح بن عبيد بن آسَف بن ماشخ بن عبيد بن جاثر بن ثَمُود، فَدَعَا صَالح قوم ثَمُود، كَانُوا بِالْحجرِ، إلى التَّوْحِيد فَلم يُؤمنُوا بِهِ إِلَّا قَلِيل مستضعفين، ثمَّ إن كفارهم عاهدوه على أَنه إن أَتَى بِمَا يقترحونه آمنُوا، فاقترحوا أَن يخرج من صَخْرَة مُعينَة نَاقَة، فَسَأَلَ صَالح اللَّهِ، فَأخْرج نَاقَة، وَولدت فصيلاً. فَلم يُؤمنُوا، وَفِي الآخر عقروها، فأُهلكوا بعد ثَلَاثَة أَيَّام بصيحة من السَّمَاء فِيهَا صَوت كل صَاعِقَة، فتقطعت قُلُوبهم فَأَصْبحُوا فِي دِيَارهمْ جاثمين؛ وَسَار صَالح إلى فلسطين، ثمَّ إلى الْحجاز يعبد اللَّهِ حَتَّى مَاتَ ابْن ثَمَان وَخمسين سنة[334]".

أما هذا المؤرخ فيفصل لنا ما أوجزه سابقه فيسوق لنا تفاصيل مسلية عن مقتل الناقة ومصرعهم بعد عقرها، فلنقرأ إذن هذه الحكاية الشائقة ولنا أن ننسى أي شيء، ولكن لنتذكر فقط أنها من مزاعم وهب بن منبه عفا الله عنه! "وهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق: فلما هلكت عاد عمرت ثمود بعدها وكثروا وربلوا وانتشروا ومنازلهم بين المدينة والشام، ونحتوا البيوت في الصخور لطول أعمارهم ثم عتوا على الله وعبدوا غيره وتغالبوا وتظالموا، فبعث الله إليهم صالحًا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا، وزعم وهب أن صالح بن عبيد بن عامر بن سام بن نوح وكان رجلا أحمر إلى البياض، قال فخرجوا إلى عيد لهم ومعهم صالح فقال له عظيم ثمود جندع بن عمرو إن أخرجت لنا من هذه الصخرة مخترجة جوفاء وبراء عشراء، والمخترجة ما شاكلت البخت، آمنا بك واتبعناك، فنظروا إلى الهضبة تمخض بالناقة تمخض النتوج بولدها، ثم انتقضت فانصدعت عن ناقة، كما سألوا بين جنبيها ما لا يعلمه إلا الله فآمن به جندع ومن كان معه، قال فمكثت الناقة ترعى ما شاء الله من الشجر ويشرب اللبن ثم ينتج لها فيحتلبون ما شاء الله من لبن، وكانت امرأتان من أشراف ثمود ذواتا أموال من المواشي يقال لإحداهما عنيزة بنت غنم وللأخرى صدوف بنت المحيا، أضر بهما شرب الناقة الماء فاحتالتا في عقر الناقة، فدعت صدوف مصدع بن بهرج لعقر الناقة وعرضت نفسها عليه، ودعت عنيزة قدار بن سالف وكان لها بنات فائقات في الحسن والجمال، فقالت أزوجك أي بناتي شئت إن أنت عقرت الناقة فانطلق قدار ومصدع واستغويا تسعة نفر كما قال الله تعالى *وَكَانَ في الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ

[334] تاريخ ابن الوردي، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م، ج1، ص 13.

في الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ* قال فرصدوا الناقة حين صدرت إلى الماء، وقد كمن لها قدار بسهم فانتظم عضلة ساقها ثم كشف قدار عرقوبها فخرت ورغت رغاء واحدة تحذر سقبها ثم نحروها وعضبوها وانطلق سقبها حتى أتى جبلاً منيفًا لاذ به، ففزع من آمن من قوم صالح إليه، وقد كان حذرهم عقر الناقة ووعدهم العذاب إن هم مسوها بسوء، فقال لهم أدركوا السقب فإن أنتم أدركتم السقب فلعل العذاب يؤخر عنكم فراموا كل المرام وتشامخت بهم الصخرة، ودعت عليهم ثلاث دعوات فأخبر صالح بذلك، فقال أبشروا بالعذاب قالوا ومتى هو؟ قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، فأصبحوا غداة يوم المؤنس وجوههم مصفرة، وأصبحوا يوم العروبة وجوههم محمرة، وأصبحوا يوم شيار وجوههم مسودة، ثم صبحهم العذاب غداة يوم أول وهو صيحة وريح وهدة أهلكتهم ولهم في قصة عاد وثمود وطسم وجديس أشعار كثيرة [335]".

ثانيا: من أين أتت تلك الطريقة؟.

أما لمن شاء أن يتساءل كيف أُسست تلك المدرسة التاريخية، التى استطاعت بكل هذا الدهاء أن تلفق بين تلك النتف السماعية عن تاريخ العرب الغابرين كما رواها الإخباريون العرب، ومعالم التصور اليهودي عن التاريخ؟ فله الحق أن يفترض أن طريقة معالجة كهذه ما كان لها أن تتأسس بداهة إلا على يد من يستطيع، بسبب من معارفه وأغراضه، أن يعرف كيف ينسج خيوط تلك الرواية الوهمية، ونعني به منظرًا يهوديًّا يمانيًّا متأسلمًا؛ حيث نراه يعود بأنساب جميع الأمم التي عرفها في زمانه إلى حام ابن نوح، ويخرج بعدها إلى العرب فيؤصل وجودهم عبر إلحاقهم بأحد أحفاد نوح مانحًا أصل العروبة للقحطانيين، ومانحًا لهم نبيين من أنبياء الله.

أما أعمدة تلك المدرسة التاريخية التي اختلقت تلك التواريخ الأسطورية للعرب قبل الإسلام فيقف على رأسها فيما نعتقد هذا الثالوث غير المقدس، الذي كان يتكون من

(335) "البدء والتاريخ" لابن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ج3، ص 41.

(عبيد بن شرية الجرهمي) و(وهب بن منبه) و(كعب الأحبار)، وثلاثتهم كانوا ينطلقون من ثقافة واحدة أو كالواحدة، وكانوا يتوجهون كذلك إلى غاية واحدة، فلم يكن مدار عملهم كله سوى ابتكار تاريخ قصصي خيالي لعرب اليمن قبل الإسلام، معتمدين على مزيج خلاب من القصص الخرافية لعرب الجاهلية، مضافًا إليها بعض الأساطير التوراتية والتلمودية، ثم يحشونها حشوًا داخل القصص القرآني. ومن يقرأ روايات هؤلاء الأفاقين الثلاثة فسيجدهم جميعًا يشتركون في جعل اليمن أصل العرب وأساس العربية منذ اللحظة الأولى التي نشأت فيها فجأة لغات البشر، متعمدين في ذلك على خرافة تبلبل الألسنة، وقصة برج بابل التوراتية، ومن تلك اللحظة نراهم يعالجون تاريخ اليمن وملوكها الأقدمين دامجين في ثناياها قصص الأنبياء القلائل الذين ذكرهم القرآن ونسبهم إلى تلك الفترة السحيقة إلى تاريخ اليمن، واضعين إياهم في سلسلة أحداثه ووقائعه.

إذا توقفنا قليلا في البداية عند عبيد بن شرية الجرهمي(336) لما شاع في كتب الثقافة العربية من عدِّه صاحب أول مدونة تاريخية معروفة في الإسلام، وأنها كانت بأمر من معاوية بن أبي سفيان، لوجدنا أن جميع ما حكاه عبيد من أخبار ملفقة، وما رواه من أشعار منحولة مزورة لا إسناد لها، لعلم أنها كانت تصلح أيما صلاح لمسامرة ملك فضولي كمعاوية يصاب بالأرق فيستقدم من يسليه، وليقص عليه ما يقضي به ليل شتائه الطويل في نهاية عمره لا أكثر ولا أقل!

لم يكن عبيد وحده هو الذي فعل ذلك، بل كانت تلك الطريقة في القص هي الطريقة الفضلى عند جميع الإخباريين والقصاص، ولربما استمرت تلك الطريقة عند الوعاظ إلى زماننا: "وقد استتبع ذلك أن بعض القصاصين كانوا يجتلبون الشعر اجتلابًا ليضعوه في المكان المناسب له من قصصه، ويطلبون المصنوع ليكثروا به الأحاديث ويستعينوا به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصي أو عند عامة الناس وهم أقل استقصاء وتدقيقًا (337)" .

(336) لترجمة عبيد بن شرية، انظر: "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ج 3، ص 536، دارالكتب العلمية، الطبعة الأولى 1994 م.

(337)"مصادر الشعر الجاهلي" ناصرالدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة، 1988 م، ص 600.

لسوء الطالع فلم يكن ابن شريّة مجرد قصاص أو إخباري عادي، بل كان باقعة داهية، يعرف كيف يورد هذه التواريخ القديمة مستشهدًا بآيات القرآن، ويوشيها بالأشعار، ويرصعها بالأحاديث النبوية ليضفي مصداقية عليها، ولم ينس الرجل قط أن يضع نتفًا من قصصه هنا وهناك لإيجاد صلة بين القحطانيين والعدنانيين، فهو يعرف أنه كان في النهاية يتحدث في مجلس خليفة عربي يحب العرب من قومه خاصة، ويتعصب لهم على من سواهم، ونراه لا يتردد كذلك في أن يورد شعرًا عربيًّا ظريفًا، يعكس لغة العرب ولهجة قريش خاصة قبيل الإسلام، وينسبه إلى قوم عاد وثمود، ونراه كذلك ينطق كثيرًا من أبطال قصصه بالأشعار الرائقة، ليعود بعدها إلى غرضه الرئيس من ذكر تاريخ ملوك التبابعة الأقدمين، ومفصلاً أنساب أهل اليمن منذ أقدم العصور كما لو كان الرجل يؤرخ كشاهد عيان لقوم عاش عمره بينهم، وليس عن أناس عاشوا وهلكوا كما يزعم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ودون أن يقدم ولو مرة واحدة سندًا متصلا لترهاته؛ ليعرف من يسمع قصصه العجيبة تلك أن لها أصلا، وليست من تنميقه وإبداعه الجميل حينًا، والفج أحيانًا لما يغلب على كثير من قصصه المبالغة، بل الإغراب فيها.

أما عن كعب الأحبار[338]، أقدم هؤلاء الثلاثة زمنا وأوسعهم تأثيرًا، فلم نجد وصفًا يعبر عن عقيدة الرجل وشخصيته أوضح وأدق من كلمات هذا الكاتب اليهودي المعاصر الذي هو شديد الإعجاب بكعب وعظيم دوره في الثقافة الإسلامية؛ حيث راح يجمع مرويات كعب من كتب التفسير، وطبقات الصوفية، وكتب مناقب البلدان وغيرها، وكتب يقول: "أما كعب الأحبار فقد كان يهوديًّا من المهد إلى اللحد؛ فقد تشبع بالعقلية اليهودية حتى برزت فيه هذه النحلة بروزًا لم يرَ مثله عند غيره من مسلمة اليهود، فكان بعد إسلامه كأنه لم يترك دين أجداده؛ لأنه كان ينظر إلى الإسلام بالعين اليهودية، ويحل جميع ما يعرض له من المشكلات الدينية الإسلامية بعد أن يغوص في الآداب اليهودية[339]".

[338] أما عن أكاذيبه واختلاقاته في قصة إسلامه فارجع إن شئت إلى ج50، ص 165 من كتاب "تاريخ دمشق" لابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995م .

[339] "كعب الأحبار" إسرائيل ولفنسون، مكتبة الشرق التعاونية، شعفاط القدس 1976م، ص 54-55.

أما إذا أردت مثالا واحدا يظهر لك منهج هذا الرجل ومقاصده، بل مدى أمانته فإليك هذا المثال الواحد الذي يغني عن سواه والذي عزاه هذا المؤلف إلى كتاب حلية الأولياء لأبى نعيم:

"قال كعب (إن الله اختار من البلاد مكة) و(كانت الكعبة غثاء على الأرض قبل خلق السموات والأرض بأربعين سنة)، وقد أشاد كعب بفضل مكة والكعبة ومصر ودمشق وحمص وظفار اليمن وأجناد الشام وبيت جبرين بفلسطين، ولكنه بالغ في مدح بيت المقدس فنسب لها من المآثر والمكارم ما لم يسمع بمثله لغيرها من البلاد على وجه المعمورة[340]".

إن هذه الجملة ليست فقط مجرد عبارة عابرة في مديح الكعبة وقداستها، بل كانت رأس الجليد الظاهر في محاولة من كعب لأن يختلق للعرب الجاهليين نظرية في أصل الخلق، وهي عبارة عثرنا عليها في كتاب أخبار مكة للفاكهي وغيره وتمامها: "كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض [341]".

وهي نظرية لم تعرفها أساطير عرب الجاهلية كما يقول الباحثون المختصون، بل كانت وأمثالها مجرد "أخبار متأخرة، وكثير منها لفق على يد كعب الأحبار الذي كان يريد إدخال العقيدة اليهودية في الإسلام تحت ستار قول ابن عباس، وكذلك وهب بن منبه وعبيد بن شرية اللذين كانا يذيعان الأفكار البابلية والفارسية في الحجاز [342]".

وحتى إذا عددناها مجرد أثر مكذوب عن قداسة الكعبة في كتب اليهود الأقدمين، فكما ترى، فلم يتورع هذا الرجل عن تملق المسلمين بأن دس عليهم هذا الأثر المجامل والزائف عن فضل الكعبة وقداستها، ولا نشك في أنه كان ينقل إليهم مروية تلمودية خرافية في فضل بيت المقدس لكنه نسبها إلى الكعبة ، لكنه كان يصدر في كرمه

(340)المرجع السابق، ص 58.

(341)"أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه" الفاكهي، تحقيق د. عبدالملك عبدالله دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، 1414، ج2، ص 271. ولمزيد من اختلاقات كعب وأشباهه عن فضائل مكة راجع إن شئت: ما جاء في كتاب "مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن" لابن الجوزي، تحقيق د. مصطفى محمد حسين الذهبي، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1995م، ج1، ص 246 وما بعدها، وأيضا "وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى" للسمهودي، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1419 هـ، ج1، ص 64.

(342)"الأساطير العربية قبل الإسلام" د. محمد عبد المعيد خان، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر- 1937م، ص 150.

الظاهري الماكر هذا، كما لو كان مرابيًا حاذقًا؛ لأنه في مقابل تلك العطية الهينة الذي استخدمها كطعم مغرٍ لكي يأنس إليه سامعوه فسوف يدس بعدها في المرويات الإسلامية عشرات من الآثار اليهودية في فضل بيت المقدس، لذا فلا عجب أن نجد كتبًا بكاملها في مناقب البلدان خاصة مكة وبيت المقدس تتأسس على مرويات واختلاقات هذا الحبر اليهودي الأفاق الذي ما زالت تكتب إلى يومنا هذا كثير من الدراسات الجامعية المقرظة والمادحة في هذا الحبر اليهودي المخادع، ليس لما يعجبهم منه من موفور العلم فحسب بل، ويا للعجب، من قوة الإيمان وحسن الإسلام[343]! رغم سوء ظن أكابر المحدثين فيه وفي أمثاله، كما يتضح من رأى البخاري فيه: "فقد أخرج في صحيحه في كتاب الاعتصام باب: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء: عن حميد بن عبد الرحمن، سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة لما حج في خلافته، وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا نبلو مع ذلك عليه الكذب. وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، فيه وفي وهب بن منبه: سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة[344]".

أما عن وهب بن منبه [345] فلا شيء يجلى طريقة قصة أكثر من هذا المثال من كتاب ينسب إليه: "ولد حام كوشا وماريع، فولد كوش الحبشة، ولد لماريح بن حام كنعان بن ماريع بن حام فولد بربر بن ماريع ونوبة بن ماريع، وولد حام قبط بن حام وسند بن حام وقول بن حام وعامور بن حام، وولد يافث عجلان بن يافث، وولد يافث عوجان بن يافث وبرجان بن يافث، فولد عجلان بن يافث يأجوج ومأجوج والترك والخزر أولاد عجلان بن يافث، وولد عوجان بن يافث صقالب بن عوجان وسكس بن عوجان وقوط بن عوجان ثم تبلبلت ألسن الخلق فأقاموا بالمجدل وبأرض بابل يموجون ويعالجون اللغات فسلبوا اللسان السرياني إلا أهل الجودي فإنهم لم يعتوج لهم لسان يتكلمون

---

[343]"كعب الأحبار وأثره في التفسير"، د. خليل إسماعيل إلياس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2007 م.

[344]"سير أعلام النبلاء" شمس الدين الذهبي، تحقيق الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405 هـ/ 1985 م، ج4، ص 239.

[345]عن ترجمة وهب، انظر: ج6، ص 35 من كتاب: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1990 م، وفيها إلى جانب ترجمته ما يفيد صحة نسبة كتاب التيجان له.

بالسرياني. وأجرى جبريل صلى الله عليه على كل لسان كل أمة لغة فنطق بالألسن العجمي والعربي وأفصح يعرب بالعربية وهود أبوه وفالغ بن عابر أخو هود بالجودي يتكلم بالسرياني، ويتكلم مع عابر جميع إخوته وبني عمه أرم بن سام ما خلا الفرس فإنها تكلمت بلسان أعجمي، وأما عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وراتش فإنهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية فأدركتهم بركتها وشرفوا وتغلبوا على جميع من كان معهم من الألسن [346]".

وحتى لمن شاء أن ينفي نسبة هذا الكتاب إلى وهب مستندًا إلى ما تقرر عند الثقات من ضياع المدونات التاريخية العربية الباكرة كلها، ويكتفي بما لا خلاف عليه من نشاطه ودوره في الحياة العربية الأولى حيث عدَّ: "وهب بن منبه من أقدم علماء المسلمين الذين وضعوا المصنفات الكثيرة في القرن الأول على أساس مباحثات علمية في المصادر الإسلامية واليهودية والمسيحية، وكان متهمًا بالقول بمذهب القدرية، وكان ذلك سببًا في هلاكه، أما مؤلفاته وما ورد فيها من نظريات وأحاديث وقصص للأنبياء، فقد انتشرت منذ القرن الأول للهجرة في الأندية الإسلامية، ولم تلبث أن أصبحت سراجًا وهاجًا ينير السبيل أمام علماء التاريخ والتفسير والقصص، ومما يؤسف له أن كتبه كلها قد ضاعت كما ضاع كل ما دون في القرن الأول للهجرة عند المسلمين، ولم نقف من مدوناته إلا على نصوص مبعثرة في مصنفات متعددة ألفها من لحقه من العلماء والأدباء [347]".

رغم ضياع كتب وهب فقد حلل الباحثون المحدثون الجادون ما أوردته كتب التاريخ التي نقلت عنه، وخلصوا إلى أن أسلوبه نموذج من أسلوب القصاص فيه تصوير حاذق، وفيه التمجيد وفيه المادة الأسطورية... فلقد اعتنى وهب بالإسرائيليات؛ وهي قصص وأساطير عن العهد القديم، وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية، وهو بهذا استطاع أن يدخل عنصر القصص إلى الدراسات الإسلامية، وقد جمع وهب من هذه القصص ما كان متداولا بين المسلمين وبخاصة قصص كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، وقد أضاف إليها ما حصل عليه من القصص نتيجة اتصالاته بأهل الكتاب ومن قراءاته للكتب المقدسة، وكان كتابه المبتدأ أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات، وتدل

---

(346) "التيجَان في مُلوك حِمْيَر" لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين يرويه عن أسد بن موسى عن أبي إدريس ابن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الناشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الطبعة الأولى 1347 هـ، ص 33.

(347)انظر: "كعب الأحبار" إسرائيل ولفنسون، ص 19 و20.

دراسة المقتبسات في ابن قتيبة (المعارف) والطبري والمقدسي في (البدء والتاريخ) على أن وهبًا بدأ بالخليقة، وتدرج إلى تاريخ العهد القديم ثم إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن مثل هود وصالح بل حتى إلى بعض الصالحين مثل لقمان وأهل الكهف، أما روايات وهب عن تاريخ اليمن فهي أسطورية تأخذ من قصص الإسرائيليات والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الموضوع، وتتمشى مع أسلوب قصص الأيام، وقد قدم وهب ملحمة نثرية يمانية شعبية لتجابه تفوق عرب الشمال، ولم يكن وهب دقيقًا، بل إنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب؛ ولذا فإنه يعد إخباريًّا قاصًّا، ويعد السخاوى أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديين، وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة إلى وجهة المحدثين في المدينة، ولكنه جعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام، وقدم أول أنموذج للتاريخ العالمي متمثلا في تاريخ الرسالات، وهذا الاتجاه وجد صدى قويًّا عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة هو ابن إسحق[348]".

فلا علينا أن لا نشك في أن مُنشئ تلك الخرافات ومبدعها الأساسي هو وهب بن منبه، فقد كانت له من عربيته ويهوديته ومجوسيته وقحطانيته كل الأسباب التي جعلته يربط بين أصل العرب بالقحطانيين، ويرد جميع أمم العرب البائدة إلى يعرب بن قحطان، ويخرج من قوم عاد النبي هود مضافا إليها نزوعه المخيالي في إعطاء تفاصيل لم يقل بها أحد فيما نعرف قبله، ومن يقلب في كتابه (التيجان) فسوف يجد أن جميع كتب التفسير تمتح من معينه، وتعل وتنهل من خرافاته، بل سيجد أن بعضها يستعير منه طريقة تشقيقه، فينسج على منواله دون أن يكلف نفسه عناء إعلام قارئه من أين استقى تلك المعارف أو من أين أتى بها.

لا ندري في الحقيقة هل اختلق وهب تاريخا من العدم بأن أعطى من كيسه وخرافاته التلمودية ما وافق الرؤية القرآنية للتاريخ مستخدمًا هذه الطريقة في إبداع تاريخ زائف، أم أنه لم يفعل سوى أن ردَّ إلى الرواية القرآنية المختصرة بعض ما أسقطه النبي محمد من تفاصيل لم يجد النبي نفعًا من ذكرها في القرآن، لكنها كانت معلومة مشهورة عند عرب الجاهلية قبيل الإسلام؟!

---

[348]"نشأة علم التاريخ عند العرب" د. عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت سبتمبر 2005م، ص 24.

على كل حال، فليس من الضروري الإشارة إلى أن هذه الروايات ليست فقط حكايات ملفقة لا برهان عليها من التاريخ أو اللغة أو علم الآثار أو أي وسيلة تثبت بها الوقائع التاريخية، بل أصبح معلومًا الآن أنها روايات ملفقة مستحيلة الوقوع أصلا، فمن المعروف مثلا أن تاريخ اليمن القديم الذي يمتد عبر أربعة ممالك متعاقبة خلال المدة بين عامي 1200 ق. م إلى 527م، وهي ممالك كشفت الدراسات التاريخية واللغوية الحديثة عن بعض آثارها وكتاباتها التاريخية، وأبانت عن كثير من مظاهر أنشطة تلك المجتمعات دنيوية كانت أم دينية، ولكنها لا تبعد أكثر من ذلك في الزمان فمن أين أتى هؤلاء بأمثال تلك المعارف عن تلك المجتمعات القديمة التي يزعمون أنها عاشت قبل الميلاد بما يقارب ثلاثة آلاف سنة؟!

أما من حيث اللغة، فلم تكن تلك اللغة التي تكلم بها اليمنيون المتأخرون ذات علاقة قريبة بتلك اللغات القديمة التي كان يتكلمها اليمنيون القدماء، فضلا عن أن تكون بلغة قريش، حتى صار القول بانتحال تلك الأشعار أمرًا مفروغًا منه عند القدماء أو المحدثين: (وكان عبيد بن شريَّة الجرهمي، ممن صنع الشعر على ألسنة التبابعة وغيرهم، وإضافة إليهم. ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني وفي الإكليل، وهو من كتبه أيضًا، شعرًا كثيرًا يرويه على أنه من شعر التبابعة، ومن شعر عاد وثمود، وسادات حمير، وهو مصنوع من دون شك، صنعه المتعصبون لليمن من اليمانية، وقد كانت العصبية قد أخذت مأخذها في الإسلام. والهمداني نفسه من المتعصبين لليمن قبله. وأدخله في كتبه دون أن يسائل نفسه عن كيفية وصول ذلك الشعر من أفواه قائليه إليه، مع بعد الزمن وتقادم العهد، وتكلم أهل اليمن في القديم بكلام لا يشابه كلام الشعراء[349]".

هذا الذي فعله الرجل وصاحباه وغيرهم، ليس بالغريب ولا بالعجيب في شيء، فمن الطبيعي أن تملأ الأساطير والخرافات الشعبية جميع القصص التي تحاول أن ترسم صورة للبدايات الموغلة في القدم لتاريخ الأمم والشعوب كافة، وهذا النفس الأسطوري الحاضر دائمًا في الكتابات التاريخية البدائية لهو في بعده عن التاريخ الصحيح وفق مناهج المؤرخين المحدثين كبعد السيمياء عن الكيمياء، وبعد التنجيم عن علم الفلك، واختلاف السحر وشعوذاته عن الطب وعلومه، ولكن هذا هو قانون الحياة الخالد؛ إذ لا شيء يولد تاما مكتملا يستوي في ذلك عالم الأحياء وعالم الأشياء. على هذا يمكننا أن

[349] "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، د. جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة 2001م، ج17، ص 379.

نقولها مطمئنين: إنه يحق لمن يجد في أي رواية إسلامية عن عاد وثمود أو غيرهما من الأمم والشعوب العربية، سلسلة نسب تلحقهم بأبناء نوح الثلاثة أن يعدها رواية إسلامية ملفقة متأخرة صنعت بعد الإسلام اعتمادًا على قبول النبي وعموم المسلمين أن جماعة إيمان نوح كانت هي أصل الجماعة البشرية بعد الطوفان، وغني عن الذكر أن عرب الجاهلية ما كانوا يعتقدون في شيء من هذا، وقل مثل ذلك أيضا عن جميع ما أورده المؤرخون والمفسرون المسلمون من أساطير عن قوة أجسام قوم عاد، وطول أعمارهم لأن تلك الخرافات إنما أُسست في الأصل على ما نرجحه من اعتقاد النبي محمد في صحة ما أوردته الخرافات التوراتية - التلمودية عن جسامة قوم نوح وطول أعمارهم؛ لذلك فلا عجب أن يعتقد النبي في أن أخلافهم المباشرين من قوم عاد قد ورثوا عنهم بعضًا من تلك المزايا الجسدية الخرافية، وقل مثل ذلك عن جميع ما حوته كتب المفسرين من تفاصيل عن أبناء عاد وقبائلهم وأصنامهم، فلنا ألا نلتفت إليها، ولا أن نلقي لها بالا، فهي ليست من التاريخ الصحيح في شيء، أما ما جاء عن قصة ناقة صالح فلا نشك في أن خلفها حكاية عربية قديمة، لكن النبي قد أسلمها بأن جعلها معجزة يؤيد الله بها نبيًّا هو صالح كما سنرى.

ثالثا: عاد وثمود عند المؤرخين المحدثين.

سوف نعرض في هذه الصفحات بعض ما جاء عن عاد وثمود في عدد قليل من كتب التاريخ الحديثة، ولن نعرض من تلك الكتب سوى ما جاء فيها عن زمانهم ومكانهم، ولن يعنينا أن نذكر هنا شيئًا عن حياتهم الدينية أو الاجتماعية فهو على ندرته البالغة ليس مما يفيد هذه الصفحات عن قصص أنبياء القرآن في شيء؛ لذا سنقتصر في عرض ما جاء فيها عن ثقافتهم وحياتهم الدينية على أقل القليل؛ أي بمقدار ما نجد ذلك ضروريًّا لغرض الموازنة بينه وبين ما أورده القرآن الكريم عن بعض تلك المفردات الثقافية؛ لأن ما يعنينا هنا بشكل أساسي أن نعرف ما تقوله كتب التاريخ الحديثة عن زمانهم ومكانهم، لمقارنته مع ما أورده القرآن الكريم عن تلك النقطة، ولنرى في النهاية إلى أي مدى تتوافق رواية القرآن عن زمان هاتين القبيلتين مع التاريخ الصحيح كما أثبته المؤرخون المحدثون، ولكن قبل أن نشرع في عرض ما تقوله تلك الكتب عن عاد وثمود، فلربما

يحسُن بالقارئ الكريم أن يلم ببعض المعارف التاريخية أو أن يتذكرها قبل الدخول في قصة عاد وثمود[350].

فعن تصور العرب عن تاريخ أسلافهم الأبعدين وأقدم قبائلهم وتقسيمهم لها: "فقد اتفق الرواة وأهل الأخبار أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة، واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز، واتفقوا أو كادوا يتفقون على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله، وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة؛ فهم الأصل والعدنانية الفرع، شرح الله صدر جدهم إسماعيل فتكلم بالعربية بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الآرامية أو الكلدانية أو العبرانية على بعض الأقوال[351].

ظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تأريخ العرب قبل الإسلام وفي موضوع الأنساب، ولا حاجة بنا إلى أن نعود فنقول إن كل ما روي من هذا التقسيم وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات لم يرد إلينا من النصوص الجاهلية، وإنما ورد إلينا متواترًا من الكتب المدونة في الإسلام؛ لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول إن هذا التقسيم وضعه الجاهليون وتوارثوه كابرًا عن كابر حتى وصل إلى صدر الإسلام، ثم منه وصل إلينا؛ وذلك لأن تقسيم العرب إلى طبقات، وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية هو تقسيم لا نجد له ذكرًا لا في التوراة أو الموارد اليهودية الأخرى ولا في الموارد اليونانية أو اللاتينية أو السريانية، ويظهر أنه تقسيم عربي خالص نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادوا قبل الإسلام فلم تبق منهم غير ذكريات، والعرب الباقين وهم إما من عدنان وإما من قحطان[352]، أما عن أشهر تلك القبائل العربية البائدة "فجماع العرب البائدة في عرف أكثر أهل الأخبار هم: عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجاسم وعبيل وعبد ضخم وجرهم الأولى والعمالقة وحضورا؛ هؤلاء هم مادة العرب البائدة وخامها، وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق في نظر أهل الأخبار[353]".

---

[350] لم نجد وسيلة للتذكير بتلك المعارف الأساسية أفضل من تقديم هذه النقول المتفرقة التى نقلناها بنصها عن صاحب (المفصل) فهي تغنى عن الكثير، وفيها الكفاية لبيان ما نستهدفه من وراء هذه التمهيد الضروري.

[351] المرجع السابق، ج1، ص 294.

[352] المرجع السابق، ص 295.

[353] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

وعن أنسابهم وطريقة صنع تلك السلاسل؛ فأما عاد فإنهم من نسل "عاد بن عوص بن إرم". وأما ثمود فمن نسل "ثمود بن غاثر بن إرم". وأما طسم فمن نسل "طسم بن لاوذ". وأما جديس فمن نسل "جديس بن غاثر بن إرم" في رواية أو من نسل "جديس بن لاوذ بن سام" على رواية أخرى. وأما "أميم" فإنهم من نسل "أميم بن لاوذ بن سام". وأما "جاسم" فمن نسل "جاسم"، وهو من العماليق أبناء "عمليق"، فهم إذن من نسل "لاوذ بن سام". وأما "عبيل" فإنهم من نسل "عبيل بن عوص بن إرم". وأما "عبد ضخم" فمن نسل "عبد ضخم" من نسل "لاوذ"، وقد جعلوا من صُلْب "أبناء إرم" في رواية أخرى. وأما "جرهم الأولى" فمن نسل "عابر"، وهم غير جرهم الثانية الذين هم من القحطانيين. وأما العمالقة فإنهم أبناء "عمليق بن لاوذ"، وأما "حضورا" فإنهم كانوا بالرّس، وهلكوا. وعلى هذا فنرى مما تقدم أن أهل الأخبار قد رجعوا بنسب العرب البائدة إما إلى (إرم) وإما إلى (لاوذ) باستثناء (جرهم الأولى) الذين ألحق بعض النسابين نسبهم بـ (عابر)، وهذه الأسماء هي أسماء توراتية، وردت في التوراة وأخذها أهل الأخبار من منابع ترجع إلى أهل الكتاب، وربطوا بينها وبين القبائل المذكورة وكونوا منها الطبقة الأولى من طبقات العرب[354].

أما عن أقدم تلك الأقوام العربية في ظن الإخباريين: "ورغم أن سلاسل النسب المختلقة تلك تجعل بعض الأقوام أقدم من عاد إلا أن الإخباريين يقدمون عادًا على غيرهم، ويبدأون بهم وهم عندهم أقدم هذه الأقوام، ويضربون بهم المثل في القدم، ومثلهم في ذلك مثل إخباريي العبرانيين الذين عدوا العمالقة أول الشعوب، ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد، أو من ورود اسم عاد في القرآن الكريم في سورة الفجر، ثم مجيء اسم ثمود بعدها في الترتيب؛ فلورودهما في القرآن الكريم قدما على بقية الأقوام[355]".

أما عن صحة تلك المرويات الإخبارية العربية بعامة، سواء أكانت ذات مصدر سماعي جاهلي أو كانت محدثة زائفة صنعت بعد الإسلام، وعما إذا كانت تلك القبائل قد وجدت حقًّا، أم أنها كانت مجرد أسماء لقبائل أسطورية لأسلاف أسطوريين: "فقد

---

(354) المفصل ج1، ص 296.

(355) المرجع نفسه، ص 299. قدموا عادًا وثمود على ما سواهما من الأمم، لأن القرآن لم يذكر سوى عاد وثمود من بين جميع تلك القبائل البائدة، ثم قدموا عادًا على ثمود؛ لأن القرآن قد نص على ذلك بوضوح كما جاء على لسان صالح نبى ثمود، وهو يذكر قومه بأن الله قد جعلهم خلفاء من بعد عاد على ما جاء فى الآية (74) من سورة الأعراف.

شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الأقوام المؤلفة لهذه الطبقة، فعدها بعضهم من الأقوام الخرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة، وخاصة حين عجزوا عن العثور على أسماء مشابهة لها أو قريبة منها في اللغات القديمة أو في الكتب الكلاسيكية، وقد اتضح الآن أن في هذه الأحكام شيئًا من التسرع إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الأقوام، ومن الحصول على بعض المعلومات عنها، ومن حل رموز بعض كتاباتهم مثل الكتابات الثمودية، وقد اتضح أن بعض هذه الأقوام أو أكثرها قد عاشوا بعد المسيح، ولم يكونوا ممعنين في القدم على نحو ما تصور الرواة، ولعل هذا كان السبب في رسوخ أسمائهم في مخيلة الإخباريين[356]".

أما عن زمان وجود تلك القبائل في ضوء البحوث التاريخية الحديثة وسبب غيابهم من التوراة: "فأكثر هذه الأقوام أقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة؛ عاشت بعد الميلاد في الغالب، ولعل منها من عاش إلى عهد غير بعيد عن الإسلام، ثم إن التوراة والكتب اليهودية لم تهتم إلا بالشئون التي لها علاقة بالعبرانيين، وهي ليست كتبًا في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل. أما بقاء أخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة أهل الأخبار فلأنهم عاشوا بعد الميلاد، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام، ومع ذلك فقد أخذت أخبارهم طابع القصص والأساطير[357]".

أما ما يقوله التاريخ عن زمن عاد على وجه الخصوص ومكانهم فينقل صاحب المفصل عن فورستر: "إلى أن هؤلاء هم oaditae وهو اسم (قوم ذكرهم بطليموس) على أنهم كانوا يقيمون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب، ولعلّهم كانوا يقيمون عند موضع "بئر إرم"، وهي من الآبار القديمة في منطقة "حسمى" على مقربة من جبل يعرف بهذا الاسم في ديار جُذام بين أيلة وتيه بني إسرائيل. ولا يبعد هذا الموضع عن أماكن ثمود الذين ارتبط اسمهم باسم عاد. وقد أيَّد هذا الرأي "شبرنكر" وجماعة من المستشرقين، وهو أقرب الآراء إلى الصواب[358] ".

---

(356) المفصل، ج1 ص، و299.

(357) المرجع نفسه، ص300.

(358) المرجع نفسه، ص 301.

أما عن موضعهم في القرآن ورأيه فيما ذهب إليه المفسرون من تحديد مكانهم بالأحقاف:"فيفهم من القرآن الكريم أن مساكن "عاد" بالأحقاف، والأحقاف: الرمل بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر. وديارهم بالدوّ والدهناء وعالج ويبرين ووبار إلى عمان إلى حضرموت إلى اليمن. وقد اندفع أكثر الإخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحاري؛ لأنها أنسب المواضع التي تلائم مفهوم الأحقاف، فوضعوا من أجل ذلك قصصًا كثيرًا في البحث عن مواطن عاد وقبور عاد، ورووا في ذلك كثيرًا من قصص المغامرات التي تشبه قصص مغامرات لصوص البحر. وفي بعض الأخبار: أن "عادًا" لحقت بالشحر، فسكنت به، وعليه هلكوا بوادٍ يقال له "مغيث". فلحقتهم بعد "مهرة" بالشحر. وقد سبق أن قلت: إن oaditae الذين ذكرهم "بطلميوس" هم قوم "عاد"، وأنهم كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة "حسمي"، أي في أعالي الحجاز، وعلى مقربة من مناطق ثمود. وهو أقرب إلى الصواب؛ إذ اقترن ذكر عاد في القرآن بذكر *وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩* (الفَجۡر: 9)۞ "حسمى" أقرب إلى هذا الوصف من الرمال. ولم يعيّن القرآن موضع الأحقاف، وإنما عيَّنه المفسرون، ولا يحتم تفسيرهم تخصيص الأحقاف بهذا المكان؛ حيث جعلوا رمال "وبار" في جملة المناطق التي كانت لعاد. وقد ذهب "موريتس" إلى أن موضع "aramaua"الذي ورد عند "بطلميوس"، وهو "إرم"، أو "إرم ذات العماد". ويقال له الآن "رم". وقد أيد "موسل" رأي "موريتس" غير أنه لم يذهب إلى ما ذهب إليه من أنه "إرم". وقد أظهرت الحفريات التي قام بها "المعهد الفرنسي" في القدس، صحة هذا الرأي؛ إذ ورد في الكتابات "النبطية" التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في "رم" أن اسم الموضع هو "إرم". فيتضح من ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يُعرف أخيرًا بـ"رم" بدلا من "إرم". وفي سنة 1932 قام "هورسفيلد " من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل "رم"، ويقع على مسافة "25" ميلا إلى الشرق من العقبة، ويقع المكان الذي بحث فيه عند وادٍ، وعلى مقربة منه "عين ماء"، ووجد في جانب الجبل آثارًا جاهلية قديمة. وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات "سافينياك واكتشافات كليدن" على القول: إن هذا المكان هو موضع "إرم" الوارد ذكره في القرآن، الذي كان قد حلَّ به الخراب قبل الإسلام، فلم يبقَ

منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام - مصر- الحجاز [359]".

[359] المرجع السابق، ص 305 و306.

ثمود

"ويرد اسم ثمود في الكتب العربية مقرونًا باسم "عاد"، وبعد هذا الاسم في الغالب، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تأريخهم شيئًا، إنما روت عنهم قصصًا أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير، وقد وردت إشارات عنهم في الشعر الجاهلي[360] ".

يظهر من ورود ذكر "ثمود" في مواضع متعددة من القرآن، لترهيب "الكفار" من العاقبة التي آلت إليها حالة "ثمود" بعد أن استحبُّوا العمى على الهدى، واستمروا بطغواهم كما استمر طغيان "فرعون" وقوم "مدين" وغيرهم ممن ذكرناهم، أن الجاهليين كانوا يعلمون مصير ثمود ومصير عاد الذي كان من نوع مصير ثمود، وأنهم كانوا يعرفون منازلهم كالذي يظهر بجلاء من الآية:*وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ ۝٣٨* (العَنكَبُوت: 38) معرفة جيدة، ولم يعيّن القرآن الكريم موضع منازل "ثمود"، وإنما يظهر من آية: *وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩* (الفَجۡر:9)، أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية، أو في هضبات ذات صخور. وقد ذكر المفسرون أن معنى "جابوا الصخر" قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتًا، وأن "الواد" هو وادي القرى، فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن. وقد عين أكثر الرواة "الحجر" على أنه ديار ثمود، وهو قرية بوادي القرى. وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان والسيّاح، وذكروا أن بها بئرًا تسمى بئر "ثمود"، وقد نزل بها الرسول مع أصحابه في غزوة "تبوك". وقد ذكر المسعودي أن منازلهم كانت بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي، وديارهم بفج الناقة، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال، وأن رميمهم كانت في أيامه باقية، وآثارهم بادية، وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى. وقد استطاع المستشرقون التعرف إلى الثموديين من الكتابات والمؤلفات "الكلاسيكية"، فوجدوا اسم ثمود في النصوص الآشورية: وجدوه في نص من نصوص "سرجون الثاني"، مع أسماء شعوب أخرى سوف أتحدث عنها. وقد دعوا بـ "thamudi" "tamudi"، وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين وهذه الشعوب،

[360] المرجع السابق، ج1، ص 321 و322.

انتصر فيها الآشوريون، كما وجدوه في النصوص والكتابات الثمودية، وقد عُثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وفي النصوص "الكلاسيكية" حيث عرفوا باسم "thamudenoi" "thamudeni"، ولقد وصف مؤلف كتاب "الطواف حول البحر الإريتري" مواضع الثموديين، مستندًا إلى مورد آخر، أخذ منه، أقدم عهدًا منه، فذكر أن الثموديين كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل، لا يصلح لسير السفن، وليست فيه خلجان تستطيع أن تأوي إليه القوارب فتحتمي بها من الرياح، ولا ميناء تتمكن من الرسو فيه، ولا موضع أو جزر عنده تقبل إليه القوارب الهاربة من الأخطار، فيظهر من وصف هذا المؤلف أن مواطن ثمود كانت في الحجاز على ساحل البحر الأحمر. ويظهر من جغرافية "بطلميوس" إذن، أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار"عاد"، ليس بينها وبين ديار عاد " إلا ديار "سره كيني" وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن. وفي هذا تأييد للروايات العربية القائلة إن ديار ثمود كانت على مقربة من ديار عاد. فإذا كانت "الحجر" وما والاها هي مواطن ثمود وجب أن تكون ديار "عاد" على مقربة من هذه المواضع [361].

أما عن زمن ثمود والتاريخ لهم (فيعود إلى ما قبل الميلاد بزمان. وقد ذكرت قبل قليل أنهم كانوا في جملة الشعوب التي حاربت الآشوريين في عهد "سرجون الثاني"، وقد ذُكر هذا الملك في النصوص التأريخية التي سجلها، أنه تغلب عليهم، وأنه أجلاهم من مواطنهم إلى "السامرة"، ولم يكن أولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة، بل لا بد أن يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم عدة قرون. وقد عرفت المنطقة التي حارب بها قوم ثمود والشعوب الأخرى الآشوريين باسم "بري bari" ، ويظهر أنها تعني لفظة "بر"، و"برية" العربية، أي "البادية" فحرفت إلى "بري" وفق الآشوري. ويرى بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم "ثمود" كان في القرن الخامس للميلاد؛ حيث ورد أن قومًا منهم كانوا فرسانًا في جيش الروم. وقد كان الثموديون يقطنون بعد الميلاد في مواطنهم المذكورة في أعالي الحجاز في "دومة الجندل" و"الحجر" وفي غرب "تيماء". وقد ذكر أنهم كانوا يمتلكون في منتصف القرن الثاني للميلاد حَرّتَيْ "العوارض" و"الأرحاء". ويرى "دوتي" أن "الحجر" التي سكن بها قوم ثمود، هي

(361) "المفصل"، ج1، ص 324 و325.

موضع "الخريبة" في الزمن الحاضر، لا "مدائن صالح" التي هي في نظره "حجر" النبط. وتقع "مدائن صالح"، وهي عاصمة النبط، على مسافة عشرة أميال من موضع "الخريبة". ولم يرد في الموارد العربية الإسلامية، ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام، أو في الإسلام، ([362])).

أما عن مصير قوم ثمود: (ويرى "برو" أن ثمود أُصيبوا بكارثة عظيمة، من ثوران براكين أو هزَّات أرضية، بدليل ورود كلمة "رجفة" وكلمة "صيحة" في القرآن الكريم، وذلك محتمل جدًّا؛ لأن البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحِرَار. ويشبه مصير "عاد" و "ثمود" مصير "سدوم " وعمورة "جمورة" "كمورة " "وبقية مدن الدائرة في عمق السديم التي تقع على رأي كثير من علماء التوراة في جنوب البحر الميت، فقد لاقت هذه المدن، وهي خمس على سهل "دائرة الأردن" المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود؛ حيث أرسل الله عليهم عذابًا "فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض". وأصحاب هذه المدن هم: "قوم" " لوت ([363])).

رابعا: متابعون ومؤولون.

كما هو واضح فقد أطلنا النقل عن صاحب (المفصل)؛ لأنه في الحقيقة الكتاب العمدة عن تاريخ العرب قبل الإسلام؛ ولأنه قد حوى معظم ما جاء في كتب التاريخ الحديثة عن تلك القبائل، وسوف نجد أن من جاء بعد صاحبه من المؤرخين العرب فلا يكاد أكثرهم يفعل في الأغلب شيئًا سوى أن يلخص بعض ما جاء في هذا الكتاب عن قصص عاد وثمود وسواهم من أمم العرب البائدة، ولكننا سنذكر رغم ذلك طرفا من أقوال هؤلاء المؤرخين؛ لأنهم إلى جانب اشتمال كتبهم على بعض التفاصيل لتلك المعارف التاريخية التي اختصرها صاحب المفصل والتي هي بالأساس نتيجة دراسات المستشرقين والمؤرخين الغربيين، ومما استخرجوه من ذكر لتلك القبائل في المصادر الإغريقية والرومانية، وما كشفته دراساتهم الرائدة لتاريخ عرب ما قبل الإسلام ([364])،

([362])المرجع السابق، ص 325 و326.

([363])المرجع السابق، ج1، ص 332.

([364])عن مجهودات هؤلاء العلماء المغامرين خاصة "كريستنسن هافن" و"توماس أرنود" و"يوسف هالفى" و"إدوارد جلازر" وغيرهم في اقتحام اليمن منذ القرن السابع عشر وإلى أوائل القرن العشرين وما لاقوه من صعوبات بالغة كان

فقد كان أيضًا لبعض هؤلاء المؤرخين رأى في تلك المعارف التاريخية، وسنرى كيف حاولوا إيجاد سبيل للخروج من تلك الورطة التي يحدثها وضع تلك الكتابات مع ما جاء في القرآن الكريم عن قصة عاد وثمود، خاصة من جانب زمن حضورهم في التاريخ العربي، فكما رأينا فقد جاءت هذه الأبحاث التاريخية الحديثة بما يفيد وجود بعض من تلك القبائل العربية حقا، ولكنهم يقولون بوضوح بأنهم قد جاءوا في زمن أقرب بكثير من تلك الفترة الزمنية السحيقة التي وضعهم القرآن بها؛ أي في الفترة الفاصلة بين زمن الطوفان وقبل إبراهيم؛ أي قبل زمن البعثة المحمدية بما يقرب من ثلاثة آلاف عام!

لذا، فمن يحاول أن يلقي نظرة على ما تقوله كتب التاريخ الحديثة عن تاريخ عاد وثمود فسيجد أن كثيرًا من هؤلاء المؤرخين المحدثين رغم ظهور كل تلك الحقائق التاريخية، التي تتعارض بشكل جلي مع ما جاء في القرآن الكريم عن قوم عاد سواء عن موضعهم، والأهم منه عن زمن حضورهم في التاريخ العربي القديم، فإننا لا نجد أحدًا منهم من يجهر بهذه الحقيقة الواضحة؛ وإنما نجدهم بين أحد رجلين: أما أولهما فيتجاهل ببساطة تامة تلك المشكلة من أساسها فلا يشير من قريب أو من بعيد إلى التوافق أو التعارض، وهذا أضعف الإيمان مثلما رأينا عند صاحب المفصل، وبين من يؤولون الآيات القرآنية بشكل واضح التعسف على نحو يسمح لهم بالتوفيق بين النص القرآني والكشوف الأثرية الحديثة كما سنرى في بعض الأمثلة من هؤلاء المتابعين أو المتأولين، وعلى هذا فسوف نورد مثالين من كل طائفة، ولنبدأ أولا بطائفة المتابعين لصاحب المفصل سواء فيما اعتمدوا عليه من إشارات تاريخية، وأيضًا في قبولهم الواضح لمخالفة ما جاءت به النصوص التاريخية عما جاء عن زمان حضور عاد وثمود في القرآن الكريم.

وإليك من بين هؤلاء المؤرخين الذين آثروا السلامة وعرضوا في كتبهم ما وثقوا منه وآمنوا بصحته بشأن أخبار عاد وثمود غير حافلين بما يؤمنون به، وما أورده القرآن بشأن زمانهم ومكانهم، هذا المؤرخ الذي راح يدمج بين نتائج الكشوف التاريخية والأثرية التي ينقلها واستشهاده في الوقت ذاته بما جاء في القرآن عن بعض جوانب

من نتائجها كشف اللثام عن تلك الحضارات العربية في اليمن وممالكها المتعاقبة، انظر فصل "تاريخ العلم ونظرة حول المادة"، كتبه الأستاذ ديتلف نيلسن في مقدمة كتاب: "التاريخ العربي القديم" الذي ألفه بالاشتراك مع آخرين، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية - 1958 م.

قصتي عاد وثمود، وذلك نحو عجيب لا يدرى معه القارئ؛ هل هذا المؤرخ يتابع رواية القرآن ويؤيدها أم يأتي بما يدحضها ويفندها، أم أنه يتأنس فحسب ببعض ما جاء في القرآن كما لو كان القرآن وثيقة تاريخية يأخذ منها ويرد، فنراه على سبيل المثال يورد ما شاع بين العرب عن قدم عاد حيث كان قدمهم عند العرب مضرب الأمثال، وكيف اعتادوا على أن ينسبوا إليها كل ما استعظموا شأنه، وجهلوا أصله من أطلال القصور والآبار وبقايا الصخور والأشجار القديمة أيضًا، وأما عن مصادرهم في إيراد تلك التفاصيل التي حشوا بها كتبهم فقد (اعتمد أولئك الرواة والإخباريون في بعض ما ذكروه عن قوم عاد على ما جاء عنهم في القرآن الكريم، كما اعتمدوا على تفسير كتبة التوراة ومن تأثروا بهم[365]).

أما عن مكان قوم عاد فقد انتهى إلى أن القرآن وقد أبهم مكانهم بأن جعله في منطقة الأحقاف؛ الأمر الذي جعل المفسرين يختلفون بشأنه، ثم خلص إلى أنه لا ضرورة تلزم أحدًا بقول واحد من بين تلك الأقوال المتضاربة متابعًا في ذلك صاحب المفصل، لكننا نراه بعدها يعود فيربط بين ما جاء في القرآن من تشابه بين (عاد) و(إرم) ليرجح أن هذا الارتباط يشير إلى قوم عاشوا في القرن الثاني الميلادي، وفي شمال جزيرة العرب بالقرب من ديار ثمود!

"وربط القرآن الكريم بين قوم عاد وبين إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، فاعتبر بعض المفسرين والمؤرخين إرم هذه مدينة عظيمة وعينوها بالإسكندرية تارة ودمشق تارة أخرى, واعتبرها بعض آخر قبيلة قوية، وكان من هذا البعض الأخير المؤرخ ابن خلدون الذي وجه إلى أصحاب الرأي الأول نقدًا لاذعًا. وجعل ياقوت إرم جبلًا عظيمًا في ديار جذام قرب العقبة تنمو عليه الكروم وأشجار تشبه أشجار الصنوبر. وذكر الرحالة القزويني أن قوم عاد عاشوا على هذا الجبل الذي أصبح من منازل طي، وكانت توجد عنده بقايا تماثيل كثيرة ومنازل عدة. وأدت الكشوف الأثرية الحديثة إلى الكشف عن بقايا عمران متسع فوق وحول جبل إرم هذا بالفعل شرقي العقبة، ومنها معبد أقيم فوق الجبل ترجع بعض نصوصه إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، وأعداد من التماثيل ومن النصب التي تذكر اللات والعزى. وقد لا تتيسر نسبة هذه الآثار إلى قوم عاد بصورة مؤكدة. لو لا أن هناك أدلة أخرى تزكي نسبة هؤلاء القوم، قوم عاد إلى

[365]"تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة" عبدالعزيزصالح، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 137.

شمال شبه الجزيرة العربية أكثر من جنوبها، ومنها أن القرآن الكريم جمع بين عاد وثمود، وثمود شمالية فيما هو شائع، وجعل مواقع عاد قريبة من أهل الحجاز حين نزول القرآن فقال:*وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ ﴿٣٨﴾* (العَنكَبُوت: 38) وقال:*وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٍ ﴿٧٤﴾* (الأَعۡرَاف: 74).

وربط بعض الشعراء المبكرين بين عاد وثمود، وأطلقوا على ثمود اسم عاد الثانية أخذًا بقول القرآن الكريم:*وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾* (النَّجۡم: 50)، ولم يعترض عليهم معترض.

هذا وقد ذكر الجغرافي بطليموس السكندري في القرن الثاني الميلادي اسمين في شمال الحجاز يمكن الربط بينهما وبين قوم عاد، وهما اسم شعب Oaditae الذي يتشابه مع اسم عاد، واسم Aramaua الذي يتشابه مع إرم، ورم، وأرام، وكلها أسماء تعاقبت لمسمى واحد[366]".

أما عن قوم ثمود فيقول: (توافر للثموديين حظ كبير من الشهرة بين المؤرخين المسلمين نظرًا لما ذكره القرآن الكريم عنهم. ولمعرفتهم بجزء من أرضهم، وبقاء بعض آثارهم حتى بداية العصور الإسلامية (وما بعدها). وكما سلك القرآن الكريم ثمود مع عاد. سلكه كذلك مع قوم لوط وأصحاب الأيكة وسماهم الأحزاب. ووصف الثموديين بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد ربما بمعنى الذين قطعوا صخر الجبال ونحتوا فيه مقابرهم أو بنوا به بيوتهم. وذكر القرآن الكريم العذاب الذي نزل بهم جزاء كفرهم بدعوة نبيهم صالح عليه السلام في قوله:* فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾*(الأَعۡرَاف: 78) وقوله:*إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾* (القَمَر: 31).

أشارت النصوص الآشورية إلى قدامى الثموديين باسم ثمودي منذ أواخر القرن الثامن ق. م وعدَّتهم من أهل البرية، وذكرت أنهم وجيرانهم من الأعراب لم يألفوا الخضوع للملوك ولا للحكام. وليس ما يمنع من أن يكون أوائل جماعات الثموديين قد ظهروا قبل القرن الثامن ق. م. بكثير، ولكنهم كانوا يزالون على حال متواضعة من

---
[366] المرجع السابق، ص 138.

البداوة، بحيث تجاهلهم فيما بعد كتبة قصص التوراة، وتجاوزوا عن ذكرهم فيما ذكروا بعض أسماء القبائل التي جاورتهم في البادية مثل قبيلة (خايابا) وقبيلة (عيفة) اللتين ذكرتهما النصوص الآشورية مع الثموديين.

واتفق المؤرخون المسلمون على أن أهم ديار ثمود كانت بوادي القرى فيما بين الحجاز وبين الشام، ورووا أن النبي مر بجيشه على خرائب ديارهم في الحجر ونهى عن دخولها ربما لتأكيد كره الكافرين، أو لأنه توجس أن تكون آبارها وعيونها قد سممت بفعل فاعل للإيقاع بالمسلمين الذين كانوا قد عانوا شدة حرارة الصحراء في طريقهم إليها. كما تناقلوا القصص عن ناقة النبي صالح عليه السلام ومكان خروجه ومكان محلها ... إلخ.

لسنا على بينة من العهود التي تزايد الثموديون خلالها في شمال الحجاز أو العهد الذي بعث إليهم فيه النبي صالح عليه السلام. ولكن يمكن إيجاز ما عرف عنهم تاريخيًّا في أنهم تألفوا من قبائل وعشائر متعددة، وأنهم لم يكونوا دولة مستقرة واضحة المعالم، وأنهم حين انتشروا في شمال الحجاز وسيطروا على بعض أجزائه في وادي القرى بخاصة كانت مدينة الحجر من أهم الحواضر التي عاشوا فيها، وهي مدينة ظنها بعض المؤرخين القدامى مدائن صالح الحالية نظرًا لكثرة آثارها المنحوتة في الجبال، ووضوح التدمير الذي لحق بها، وارتباط اسمها باسم النبي صالح. ولكن كثرة من الباحثين المحدثين حددوها ببلدة الخريبة التي تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال، وقد أصاب آثارها هي الأخرى خراب كبير. وبنوا رأيهم على غلبة النصوص الثمودية التي عثر عليها فيها، فيما رجحوا عدَّ مدائن صالح من مناطق الأنباط على أساس غلبة الآثار والنصوص النبطية فيها وإن تضمنت إلى جانبها نصوصًا ثمودية قليلة.

ساعد الثموديون على الاستمرار الحضاري أنهم اتصلوا في شمال الحجاز بطوائف متحضرة قديمة فانتفعوا بحضارتها ومنها طوائف ددان ولحيان التي أحاطت ببلدة الخريبة، وعندما امتدوا إلى الشمال أكثر انتفعوا ببعض حضارات جنوب فلسطين كما جاوروا امتداد الحضارة المصرية في شبه جزيرة سيناء. وعندما امتد نشاطهم إلى الجنوب اتصلوا ببعض الجماعات المتحضرة في أنحاء اليمن. وأصبحت نصوص الثموديين هي الشاهد الحي على مدى انتشارهم، وهي نصوص قصيرة سريعة، ولكنها كثيرة تدل على كثرة من كانوا يعرفون الكتابة بينهم لأغراض التجارة. وقد وجدت

نماذجها خارج وادي القرى في تبوك والطائف وفي قلب نجد وشمالها وفي شبه جزيرة سيناء، وفي مناطق متفرقة من شرق الأردن، وفي شرق دمشق، وفي أطراف اليمن أيضًا، وكل ذلك مما يدل على سعة انتشار قوافلهم وكثرة اتصالاتهم التجارية لا سيما في العهود المتأخرة في الزمن نسبيًّا فيما قبل الميلاد بقليل وفيما بعده بقليل أيضًا [367].

إننا نعتقد أن النبي قد نهى أصحابه عن دخول تلك الأرض التي أهلك الله أصحابها لسبب آخر غيرما افترضه هذا المؤرخ؛ فلم يكن الأمر لتأكيد كره الكافرين، ولا لخشيته من أن تكون الآبار قد سممت من قبل أعدائه! بل لما نص عليه الحديث بجلاء من خشية النبي عاقبة الاقتراب من تلك الأرض التي حلت عليها اللعنة الإلهية منذ قديم الزمان كما جاء في الصحيحين: (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم[368])، أما لماذا كان النبي يتخوف على أصحابه المؤمنين من أن يصيبهم ما أصاب قوم ثمود؟ فيكفي لنعلم على أي نحو كان النبي يتخوف من الدعاء باللعن، والاقتراب من أي شيء تمت لعنته أن نقرأ هذه الأحاديث، ولننظر بعدها في مصدر تلك الخشية النبوية: (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فهو كقتله ولعن المؤمن كقتله[369])، (عن عمران بن حصينٍ رضي الله عنه قال بينما رسولُ الله في بعضِ أسْفارِه، وامْرأَةٌ مِنَ الأنْصارِ على ناقَةٍ، فَضَجِرَتْ فلعَنَتْها، فسمعَ ذلك رسولُ الله فقال: "خُذوا ما علَيْها ودَعوها فإنَّها مَلْعونَةٌ!". قال عمران: فكأنِّي أراها الآن تَمْشي في الناسِ ما يَعْرِضُ لها أحَدٌ [370])، (وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: سارَ رَجلٌ مع النبيِّ فلعنَ بعيرَه، فقال النبيُّ : يا عبدَ الله! لا تَسِرْ معنا على بَعيرٍ ملْعونٍ [371])، والأوضح من هذا كله ما جاء في سورة إبراهيم من توبيخ الله للكافرين على ما كان من سكناهم في مساكن الأمم التي أهلكها في الدنيا:*وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥* (إِبْرَاهِيم: 45)،

[367] المرجع السابق، ص 140.

[368] انظر الحديث في صحيح مسلم رقم (7389)، وفي صحيح البخاري رقم (433).

[369] انظر الحديث في صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني برقم (710).

[370] انظر الحديث في صحيح الترغيب والترهيب برقم (2794).

[371] السابق برقم (2795).

(عن قتادة، قوله:*وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴿٤٥﴾. يقول: سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم[372]).

أما أساس تلك الخشية النبوية فنرجح أنها ترجع إلى مؤثرات يهودية لا تبعد كثيرًا عما أورده الإصحاح السادس عشر من سفر العدد؛ حيث حذر موسى جماعة الرب من الاقتراب من قورح وجماعته قائلا: "اعْتَزِلُوا عَنْ خِيَامِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْبُغَاةِ، وَلاَ تَمَسُّوا شَيْئًا مِمَّا لَهُمْ لِئَلاَّ تَهْلِكُوا بِجَمِيعِ خَطَايَاهُمْ" (عدد 16: 26)، أو إلى ما جاء في سفر التثنية من تدمير مدن المرتدين وتحريقها والنهي عن تعميرها إلى الأبد: "تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاُ إِلى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ" (تثنية 12: 16)، أو ربما كان يرجع ذلك لسبب مباشر لا نعلمه.

وبعد أن قرأت قارئي الكريم ما كتبه هذا المؤرخ فهل خرجت بشيء يدل على قبوله أو رفضه لما أوردته كتب التاريخ عن عاد وثمود في مقابل ما أورده القرآن عنهما؟ الحقيقة الواضحة، إن الرجل يكتفي كما اكتفى به من قبل صاحب (المفصل) من وضع الشواهد التاريخية التي تثبت وجودهم، وغير آبه بتوافق ما تقوله مع القرآن أو تناقضه، ودون أن يرى ضرورة للتوقف عن تلك التناقضات، ومحاولة بيانها أو رفعها، هذا هو كل شيء!

أما إذا أردت مثالا آخر مختصرًا لمن يتابع صاحب المفصل ويعتمد على معارفه، ويخلص إلى ما خلص إليه، فإليك هذا المثال الموجز: (أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مر بنا في الحجر (مدائن صالح) وحولها، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين، وفي القرآن الكريم *فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين* وقد خلفوا كثيرًا من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني[373])، وكما ترى فلم يأبه مؤرخ آداب العربية الجليل بوجود عاد أو عدم وجودها من أساسه، وهو يعدد لقارئه أخبار أهل العربية قبل الإسلام، بل اكتفي بالوقوف برهةً فحسب عند من كان له حضور مادي من عرب ما قبل الإسلام وهم الثموديون، وأما ما ليس ثم برهان على وجوده عنده

(372)"تفسير الطبري"، ج17، ص37، تحقيق شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2000م.

(373)"العصر الجاهلي" شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، ص 33.

سوى أخبار القصاص والإخباريين ونصوص القرآن فقد تجاهله، ومضى في سبيله لتاريخ الشعر العربي متتبعًا عصوره من مهلهل التغلبي إلى أحمد شوقي، مؤثرًا السلامة التي لابد منها؛ لكي ينهض بما نذر حياته من أجله، ودون التعرض لتلك القضايا، التي كان الرجل يوقن أن الاقتراب منها كانت ستثير عليه حربًا لم يرَ من ضرورة لها.

عباس العقاد

"فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادًا وثمود، وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة، ولا يعاب على النفي الجزاف. فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادًا وثمود مذكورتان في تاريخ بطليموس، وأن اسم عاد مقرون باسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها (أدراميت)، ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد --- وعثر المنقب موزيل التشيكي صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود (374)".

يمكن لمن شاء أن يضيف إلى هؤلاء المتابعين الأستاذ عباس العقاد؛ حيث نراه كما رأينا يشن غارة شعواء على من تسرع من المستشرقين، وبادر بنفي وجود عاد وثمود، وعدهما مجرد أسماء ملفقة لقبائل أسطورية، اخترعت اختراعًا كأسلاف لقبائل العرب، لكنه كما ترى يكتفي بما جاء عنهما في الوثائق اليونانية - الرومانية دون أن يشير إلى أن هذا وإن أثبت وجودهم كقبائل عاشت حقا في التاريخ العربي القديم إلا أنه مع ذلك لا يتوافق مطلقًا مع ما ذكره القرآن عن قدمهما الشديد؛ أي قبل تلك الفترة التي يقنع الأستاذ العقاد بحضورهم فيها بألفي سنة على الأقل! أما لماذا سكتت التوراة عن ذكر هؤلاء، فيرى العقاد: "وما لم يذكره العبرانيون في كتبهم عن النبوءات في بلاد العرب أكثر مما ذكروه فإنما عناهم في سجلاتهم أن يذكروا التزكية والتأييد، ولا يذهبوا مذهب الاستقصاء في تسجيل جميع النبوءات التي سمعوا بها. وقد يكون هنالك ما لم يسمعوا به ولم يكن مما يرتضونه لو أنهم سمعوه. فليس سكوتهم عن هود وصالح وذي الكفل الذين ذكرهم القرآن الكريم بحجة خلو البلاد العربية من الأنبياء غير من ذكروه،

(374)"مطلع النور" العقاد، المجلد الأول، موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، نوفمبر 1970م، ص 803.

وما كانت قبائل عاد وثمود لتخلو من رسل الدين، وقد قام هؤلاء الرسل بالدعوة في مدين وتيماء قبل الدعوة الموسوية، وإنما أعرض العبرانيون عن ذكرهم؛ لأنهم جعلوا مصيرهم بعد قيام مملكتهم مرتهنًا بمصير بيت المقدس، وسكتوا قصدًا عن (الجنوب) بعد أن كانت قبلتهم كلها إليه [375]" .

ما قاله المرحوم العقاد هو أمر صحيح ولا غبار عليه، فليس هناك بطبيعة الحال من كتاب مهما بلغ من الشمول ومن الإحاطة بحيث يأتي على ذكر جميع سابقيه ومعاصريه، فما بالنا بكتاب لا ينتظر من مدونيه أن يهتموا بغيرهم، فضلا عن أن يكتبوا عنهم بأي قدر من الإنصاف؛ فليس في الكتاب المقدس كله جماعة بشرية واحدة يتكلم عنها مؤلفو تلك الكتب بمحبة أو بإعجاب. ولكن كل ذلك سيكون صحيحًا بشرط أن يكونوا سابقين عليهم، أو من المعاصرين لهم، أما كيف يتكلم مؤلف كتاب عن جماعة بشرية لم يكن الله قد خلقها بعدُ في عصره، بل أغلب الظن كما يقول المؤرخون أنها قد وجدت بعد فراغه من كتابه؟ أم كيف يتحدث كتاب عن جماعة بشرية صغيرة وجدت وفنيت كما يقول القرآن قبل ألف عام من كتابة التوراة، فهذا هو المحال بعينه. ولكنه موقف يمكن تفهمه من الرجل؛ فقد كان يكفيه من الإشارات ما يعضد ويدعم ثبوت الظاهرة الروحية في عمومها، وفي القلب منها ظاهرة الإسلام، ولم يكن ليتوقف طويلا عند تلك التساؤلات التي نطرحها؛ لأنه كان من بين من يرى أن القرآن الكريم لا يسوق القصص إلا لجلب العظة والاعتبار، ولا ينتظر منه دقة المعارف التاريخية كما سنرى عند عرضنا لآراء أصحاب هذا الاتجاه من الباحثين في خاتمة فصل يوسف، وعلى كل حال فليس من بين ما تستهدفه هذه الصفحات أن تنكر وجود عاد أو ثمود، أو ربما غيرهما من الأقوام العربية البائدة، ولا تنكر أيضًا احتمال وجود من حمل تلك الأسماء، سواء أكانوا حكماء صالحين، أو حتى أنبياء بمفاهيم تلك الفترة، إنما ما تنكره وتجهر به هو أن يكونوا على افتراض وجودهما قد قالا بشيء ما عزاه القرآن إليهما من مفاهيم، وما نسبه إلى أقوامهما من وقائع وأحداث.

المؤولون

[375]"الثقافة العربية أسبق من ثقافة العبرانيين" العقاد، ص 84.

أما من بين المؤولين الكثيرين للشواهد التاريخية لكي نستقيم مع ما أتى به القرآن عن تاريخية عاد وثمود، خاصة من جانب زمنهما سوف نختار أولا: ما جاء في كتب هذا المؤرخ ذائع الصيت، الذي لا يجلى لنا منهجه في دراسة التاريخ الحضاري أكثر من قراءة تحسره الصادق عن عزوف الباحثين والمؤرخين عن اعتماد القرآن الكريم كمرجع أول في تاريخ الجماعة البشرية معلنًا بثقة تامة: "أن ميدان البحث في التاريخ القديم إنما قد خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الإطلاق [376]".

أما لماذا يعد القرآن الكريم أصح المصادر وأصدقها؟ فالإجابة كما هو متوقع من مؤمن راسخ الإيمان: "لاريب في أن القرآن الكريم كمصدر تاريخي إنما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق؛ فهو موثوق السند، ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله *الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد*؛ ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية لم تلتبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع [377]".

أما عن صحة سند القرآن وسلامة وصوله إلينا، ووثاقة نسبته إلى النبي محمد فهذا ما لا يجادل في صحته أحد، وأما كونه مصدرًا تاريخيًّا تستقى منه أخبار الأمم والشعوب، وأنه يترجم عن الله بشكل حرفي، فهذا ما جاء هذا الكتاب كمحاولة متواضعة لتقديم تصور آخر عن الوحي الإلهي يرجو له صاحبه أن يكون معقولا مفهومًا، ولكن على كل حال فلا غرابة أن نجد مؤرخًا هذه منطلقاته في دراسة التاريخ الحضاري، ألا يتردد في تعليق الحكم أو تأويل جميع ما يجده متعارضًا مع ما جاء به القرآن الكريم لأنه يصدر عن قريب مما قاله ابن رشد في مجاله من أن (الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له)، وعلى هذا سوف نختار من بين تأويلاته الكثيرة كلها ما جاء منها فحسب عن زمن عاد وثمود الشرق الأدنى انطلاقًا من القرآن! وإليك ما قاله في تلك النقطة، وسنترك للقارئ إن شاء أن يرجع إلى سواها في دراساته الضافية عن تاريخ وحضارات: "ولا شك أن الحديث عن تحديد عصر لقوم عاد إنما هو أمر بالغ الصعوبة؛ فالقصة كما قلنا قرآنية صرفة، وليس في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة

---

[376]"دراسات تاريخية من القرآن الكريم" محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1988م، ص 7.

[377]المرجع السابق، ص 5.

إشارة صريحة إلى ذلك، والآثار صامتة تمامًا في هذا المجال، وليس هناك أي نوع من الوثائق التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في الوصول إلى نتيجة يظن أنها الصواب أو حتى قريبًا من الصواب؛ ومن ثم فإن المحاولة لا تعدو أن تكون حدسًا من غير يقين. على أننا ربما نستطيع أن نحدد ذلك العصر بالألفية الثانية قبل الميلاد على وجه التقريب ذلك لأن القرآن الكريم إنما يذكر عادًا بعد[378] ثمود، وهي دون شك أوضح تاريخًا من عاد، إلى جانب أنه إنما يذكر عادا كذلك بعد قوم لوط. أما ثمود فهي واحدة من القبائل العربية التي جاء ذكرها في الكتابات الآشورية على أنها كانت تعيش في شمال شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأما قوم لوط فقد كانوا معاصرين للخليل عليه السلام وهو الذي حددنا لعهده من قبل كما جاء في كتابنا إسرائيل بالفترة (1940- 1765 ق. م) ومن ثم فإننا ربما نستطيع أن نقول إن عادًا كانت في الفترة بين عهد إبراهيم الخليل وعهد ثمود، ومن ثم فلربما إذا ضعنا قوم عاد في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد لما تجاوزنا الصواب بكثير، على أن الأمر قد يختلف كثيرًا إذا ما كان صحيحًا ما ذهب إليه بعض الباحثين كما أشرنا من قبل من الربط بين (إرم) و (آرام)، وأن إرم إنما تتصل بالآراميين؛ وبمعنى آخر هناك صلة بين قوم عاد والآراميين عن طريق (عاد إرم)، فإن كان ذلك كذلك فإن قوم عاد إنما يرجعون إلى ما قبل ظهور الآراميين في العراق القديم في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد كما أشرنا من قبل، وهذا يتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين المفسرين والإسلاميين من أن عادًا إنما أتت قبل إبراهيم؛ أي قبل القرن العشرين قبل الميلاد وإذا صدقت وجهة النظر هذه فإننا نستطيع أن ندعمها بعدة أدلة: منها تلك الآية القرآنية التي جعلتهم خلفاء لقوم نوح *أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾* (الأَعْرَاف: 69)، *أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ

[378] كذا في النص ولعله خطأ مطبعي.

وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩*(إِبۡرَاهِيم: 9)، * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١*(غَافِر: 31)...، ومنها ورود قصة هود بعد قصة نوح في كثير من المرات في القرآن الكريم، وهذا فضلا عن ذكر عاد وثمود بين قوم نوح وقوم إبراهيم *أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩*(إِبۡرَاهِيم: 9) وقد اتخذ البعض من هذه الآية الكريمة والتي قبلها دليلا على أن هذه الأقوام سبقت عهد موسى؛ أي القرن الثالث عشر قبل الميلاد على أساس أن الخطاب هنا موجه إلى قوم موسى [379]".

كما ترى فلم يبال الرجل بزمن حضور عاد في التاريخ، فسواء لديه أحضرت عاد قبل مولد المسيح بخمسة عشر قرنا إن كانت بعد إبراهيم، أو قبل الميلاد بعشرين قرنًا على أقل تقدير إن كانت قبل زمن إبراهيم؛ فالرجل من ناحية لا يشك فيما أثبته الله في القرآن من صحيح التاريخ، ولا يزعجه ما سيسوقه بنفسه بعد تلك المقدمة من ذكر المؤرخين لبعض الشواهد التاريخية التي إن أثبتت وجود قوم عاد فهي تقول بوضوح من تأخر زمانهم بقرون وقرون على أقل تقدير لما جاء في القرآن بشأن زمانهم، بل إنه يستطيع أن يدعم كلتا الرؤيتين بنصوص القرآن وبأقوال المفسرين! ولكنه فيما يبدو قد افترض أن ليس كل البشر بل ليس كل المؤمنين يكفيهم ما يكفي راسخي الإيمان من أمثاله؛ لذا فقد أعمل عقله لرفع هذا التناقض عبر إحياء ما سبقه إليه المؤرخون والمفسرون المسلمون بقرون؛ حيث نراه يقول بما افترضوه بوجود عاد أولى وعاد آخرة، وإن جاء افتراضهم ذاك لأسباب مختلفة عما اضطر إليه المؤرخون المحدثون كما نجد عنده وعند لاحقه، وعلى هذا التأويل العجيب فليس هناك من مشكلة؛ لأنه إذا كان القول الأول صحيحًا، فالقرآن إنما يتكلم عن عاد الأولى، وإن تأخر بها الزمان كل

---

[379] "دراسات تاريخية من القرآن الكريم"، ص 259 وما بعدها.

تلك القرون، فالقرآن إنما يشير إلى عاد الآخرة فحسب!! وليس هذا كل ما استطاعه الرجل؛ فقد حاول أن يؤخر حضور قوم عاد في التاريخ معتمدا على تلك المرات القليلة التي تأخر فيها ذكر قوم عاد بين بقية الأقوام، رغم أنه يلاحظ بنفسه أن هذا التقديم لا يلزم عنه ما يريدنا أن نعتقده من إمكان تأخر زمن عاد عن زمن ثمود!

ولنقف برهةً عند هذه النقطة لأنها تحضر عند كثير من الباحثين المحدثين الذين يحرجهم ما يجدونه من تعارض بين ما يوردونه وما جاء في القرآن، ونراهم يحومون حولها كثيرًا.

متى حضرت عاد في التاريخ القرآني؟

من يقرأ نصوص القرآن عن عاد وثمود فلن يسعه سوى الموافقة على ما استخرجه قدامى المفسرين من حضور عاد ومن بعدها ثمود بعد قوم نوح مباشرة: أولا لأن ظاهر القرآن يقول بهذا، وعلى نحو لا يقبل الشك أو التأويل، ولأنهم كانوا ينطلقون كذلك مما شاع عند أهل الأخبار من سبق العرب العاربة من أهل الجنوب على إخوانهم عرب الشمال الذين يرجعون نسبتهم ونسبة لغتهم إلى أبي العرب إسماعيل، والأهم من ذلك كله أنهم ينطلقون مع صريح القرآن في حصر النبوة في أبناء إبراهيم؛ لذا فلم نجد أحدًا منهم يجعل هودًا أو صالحًا من أبناء إبراهيم، وسوف نرجع إلى تلك النقطة بعد قليل، أما عن ترتيب حضور تلك الأمم في القرآن، فمن يتأمل نصوص القرآن فلن يشك في أن عادًا وثمود قد جاءا قبل زمن إبراهيم بزمن يطول أو يقصر؛ حيث جاء هذا الترتيب متواترًا في عموم سور القرآن، وسنرى أن بعض تلك الاختلافات لا تعني شيئًا، بل سيجد قارئها أنها لا تدل في مواضعها على ترتيب الأمم؛ بل سيجدها مفهومة في مكانها من تلك السور، وإليك بعضًا من صور الترتيب (الطبيعية) : فنجد أولا في سورة الأعراف قصة آدم ثم بعدها قصة نوح فهود ومن بعده صالح فلوط وشعيب، ثم تنتهي بقصة موسى وهارون مع فرعون، وفي سورة هود نجد الترتيب ذاته؛ حيث نجد نوحًا أولا، ثم يأتي من بعده هود فصالح فإبراهيم فلوط فشعيب، أما سورة الشعراء فهي إن بدأت بقصة موسى ليعقبه إبراهيم لكنها تعود لتورد لنا الترتيب الصحيح ثانية؛ حيث نجد قصة نوح فعاد فثمود فقوم لوط ليأتي بعد ذلك قوم شعيب، وهذا ما نجده أيضًا في سورة القمر؛ حيث نجد قوم نوح فعاد فثمود فقوم لوط فقوم فرعون. وأما ما جاء في

القرآن من ترتيب مختلف عن هذا الأصل فسيجد القارئ المدقق تعليلا واضحًا لذلك الاختلاف؛ إذ سيجد أن سياق تلك السور التي لا تحفل بالترتيب التاريخي لا يخرج سياقها وخطابها عن ملمحين اثنين لا ثالث لهما. أما أولهما فيجده في مقام تحذير وإخافة المكذبين من مصير كمصير تلك الأمم، وأما الثاني فهو مقام دعوة الله لنبيه محمد للسير على درب الأنبياء والتأسي بهم، وكلا المقامين كما هو واضح لا ضرورة فيهما للترتيب التاريخي في شيء، ولنبدأ بالأول: *فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ٥٩* (الذَّارِيَات: 59).

فمثلاً نجد في سورة الذاريات ترتيبًا مختلفًا لحضور الأنبياء؛ حيث يبدأ القرآن بقصة إبراهيم وأضيافه المباركين، ثم يذكر طرفًا من قصة موسى وفرعون، ثم يرجع إلى قوم عاد ومنها ثمود، ويكر راجعًا بعد هذا كله إلى قصة قوم نوح ولا شيء أيسر من تفسير هذا؛ لأن سورة الذاريات لا تستهدف سوى إنذار الكافرين من أهل مكة بعقوبة مماثلة لما حدث لتلك الأمم السابقة؛ أي أن المقام هنا هو حشد أسماء الأمم الهالكة السابقة، ووضعها تحت أنظار المتوعَدين، فماذا يفيد التقديم أو التأخير مع غاية كهذه الغاية؟!

والمثال الثاني: *كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨* (الحَاقَّة: 4-8).

أما سورة الحاقة فتأتي فيها ثمود قبل عاد ثم يذكر القرآن قوم فرعون ومن قبله من الأمم الهالكة، ويخص من بينها قرى لوط، ومن يتأمل هذا الترتيب فلن يجده غريبًا في شيء؛ لأن سياق السورة لا يعني هنا بترتيب تلك الأمم وفق تسلسلها الزمني بل المقصود هو أن يحذر قريشًا، متوقعًا لهم مصيرًا لن يختلف في شيء عن مصائر تلك الأمم السابقة، فهل يعقل أن يقول أحد إن عادًا قد جاءت بعد ثمود، والقرآن يقول بأن صالحًا قد أنذر قومه وخوفهم من مصير كمصير عاد الهالكين؟

أما عن الملمح الثاني فيكفي هذا المثال:*وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾* (الأَنْعَام: 83-90).

كما ترى فقد حشد القرآن أسماء الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا أقوامهم برسالة الله الواحدة عبر التاريخ، ثم تطلب الآية الأخيرة من النبي محمد أن يحذو حذوهم، وأن يتأسى ويقتدى بهم، فهل من لزومٍ هنا لترتيب الأنبياء وفق حضورهم في التاريخ كما أورده القرآن؟!

*ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا

رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدًا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠* (الأَنبِيَاء1-10).

من بين السور القرآنية التي تجمع بين المقصدين جميعًا: سورة (الأنبياء)؛ إذ نجد في البداية شيئًا عن موسى وهارون، ثم إشارة إلى سبق إبراهيم له، ثم لوط، ثم يأتي بخبر مهلك قوم نوح، وبعده يقص علينا شيئًا من قصة داود وسليمان، ثم يأتي في عجالة على ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل، ثم يذكر في سرعة خاطفة قصة يونس، ثم قصة زكريا ويحيى، وتختتم بذكر مريم وابنها، ثم تنتهي السورة بهذا التعقيب المهيب:*قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢*(الأَنبِيَاء: 108–112).

كما ترى، فقد جاءت تلك السورة لتصف ما لاقاه النبي في جهاده قومه ودعوتهم إلى طريق الله القويم؛ لذا فهي تجمع بين التخويف بذكر الهالكين، وتعرض في الوقت عينه أمثلة لهدى الأنبياء، فهل ترى أن سورة هذا مقامها ومقصدها تحفل بأي ترتيب؟ وفي هذ كفاية. ولننتقل إلى المؤول الثاني، وسنقف عنده وقفة أطول؛ لأنه أورد أسباب ما اعتقده سابقة من التفرقة بين عاد الأولى والآخرة، وزاد عليها فاكتفينا بما قاله.

محاولة للتوفيق!

من بين هذه الطائفة الأخيرة التي وجدت بغيتها في التأويل نجد هذا المؤرخ الذي يجعل أيضًا من بين مصادره القرآن الكريم في التعرف إلى تاريخ الأمم والشعوب العربية القديمة قبل أن يدخل إلى قوم عاد؛ حيث نجده يقول أيضا بما سبق أن قاله المفسرون المسلمون من التفرقة بين عاد الأولى وعاد الآخرة، وسنعرض لك أسباب

اعتقاده لتلك التفرقة؛ لأنها هي الأسباب ذاتها التي اعتمد عليها سابقه في القول بوجود عاد أولى وعاد آخره!

"وفيما يخص عاد، فيشير القرآن الكريم إلى عاد الأولى التي وجدت ثم اندثرت، وإلى عاد أخرى اندثرت كذلك. ونحن نستطيع أن نتتبع الإشارة هذه ونستكمل بها ما جاء في مصادر أخرى، فعاد الأولى التي أرسل الله إليها هودا عليه السلام كانت موجودة في جنوب شبه الجزيرة العربية حسبما نستنتج من ارتباط اسمها بالأحقاف، وهي منطقة صحراوية تقع في الجزيرة العربية الجنوبية، كذلك يشير القرآن الكريم في موضعين آخرين إلى وجود آخر لعاد في فترة غير بعيدة قبل نزوله، وفي أحد هذين الموضعين إلى منطقة تنطبق أوصافها على القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة العربية كمكان لإقامتهم. وإذن، فنحن أمام وجودين لقوم عاد في مكانين مختلفين؛ أحدهما في الجنوب عند الأحقاف، والآخر في الشمال الغربي، وفي زمانين مختلفين أحدهما لا نعرفه على وجه التحديد، والآخر في وقت غير بعيد قبل نزول القرآن[380]).

أما عن أدلته على تلك التفرقة المتعسفة، فنراه يشير إلى تلك الآية من خواتيم سورة النجم التي تقول إن الله قد أهلك عادًا الأولى؛ وعليه فلا بد من أن هناك عادًا أخرى! وسوف نعرض لك لاحقًا آراء المفسرين حول تلك الآية وما تدل عليه ليقول بأنه إلى عاد الأخيرة تلك يشير القرآن عندما خصص مكانهم بالأحقاف؛ لأنه رغم ما يذكره عن علماء اللغة الذين يقولون إن الأحقاف هي الكثبان الرملية وهو لفظ عام كما ترى، ولا يحدد شيئًا إلا أنه يرى "أن الإشارة إليها على طريقة التخصيص في الآية الكريمة تجعل المراد بها هو المكان المسمى بالأحقاف تحديدًا، وهو يقع في القسم الجنوبي الغربي من الربع الخالي في جنوب شبه الجزيرة [381]".

أما شاهده الثاني لتلك التفرقة القديمة - الجديدة فيعثر عليه من إشارة الآية: *وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨* (العَنكَبُوت: 38)، التي تجعل لقوم عاد مساكن باقية؛ فهي على هذا تشير إلى أن عادًا الآخرة كانت تسكن في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية،

---

(380)"العرب في العصور القديمة" لطفي عبد الوهاب، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، ص 162.

(381)المرجع السابق، هامش ص 162.

معتمدًا على أن سورة الأعراف:*وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤* (الأَعۡرَاف: 74) تقول بأن قوم عاد كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، التي يفسرها بالأضرحة المنحوتة في الجبال[382]!!

ثم نراه، بعد أن فرغ، من تقديم ما عدَّه براهين كافية لتلك الفرضية المحزنة يرجع إلى الكتاب الكلاسيكيين لكي يورد ما سجله بعضهم عمن يعدهم قوم عاد الثانية! "ونحن في الواقع نستطيع أن نستكمل هاتين الإشارتين إلى حد كبير من مصادر الكتاب الكلاسيكيين؛ إذ نجد ذكرًا لقوم عاد يظهر في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي على الخريطة التي رسمها جغرافي يوناني من مصر هو بطليموس كلاوديوس كتب بين (121، 151م) الذي عرفه الجغرافيون العرب باسم بطليموس القلوذي. ويظهر قوم عاد في هذه الخريطة تحت اسم OADITAE في شمال شبه الجزيرة العربية في المنطقة الواقعة إلى شرق خليج العقبة، وهي المنطقة التي ينطبق عليها الوصف الذي جاء في القرآن الكريم، والذي كان التجار العرب في الواقع يمرون به جيئة وذهابًا في خط القوافل الذي يصل شبه الجزيرة العربية بالمنطقة السورية". ومعنى هذا أن عادًا الثانية قد وُجدت بشكل ظاهر يلفت نظر هذا الجغرافي ابتداء من النصف الأول من القرن الثاني على الأقل، حتى أصبحت تشكل قومًا ملحوظين منذ أوائل القرن الأول من النصف الثاني، يسترعي وجودهم نظر عالم جغرافي مثل بطليموس كلاوديوس وهو يضع خريطة للمنطقة، وخاصة إذا كان هؤلاء يشغلون منطقة تمر بها خطوط القوافل التجارية الواصلة من شبه الجزيرة إلى المنطقة السورية، وهي المنطقة التي وضعهم فيها هذا العالم الجغرافي بالفعل. ولنا كذلك أن نقول: إن هذا الازدهار قد استمر فترة ربما امتدت ثلاثة أو أربعة قرون، ثم اندثرت هذه المستوطنات العادية الشمالية لأسباب تتعلق بالعوامل الطبيعية أو بالمنافسات التجارية وما يصحبها من غارات "كما سنرى في أثناء الحديث على ثمود" أو لأسباب أخرى، بحيث لم يعد لها ولا لقوم عاد وجود

[382] هامش ص 162، لم يكن القرآن ليعني بالبيوت الأضرحة، بل كان يعني بها القصورالفارهة التي يسكنونها، لا قبورهم التي يدفنون فيها، وهو ما سوف نراه عند عرضنا للآيات القرآنية التي تتكلم عن هذا، ولعل النبي عدَّ ما رآه منها بيوتًا!

ظاهر عند نزول القرآن الذي يشير إلى عاد على أنهم قوم قد اندثروا أو اندثرت أماكن إقامتهم قبل ذلك بقليل[383].

ثم يخلص بعد أن يقتفي أول ذكر لهم في تلك المدونات ليخبرنا بتاريخ اختفاء عاد الأولى: "ويبقى أمامنا تحديد الفترة التي اختفت فيها عاد الأولى. وهنا نلجأ مرة ثانية إلى الكتاب الكلاسيكيين، وفي هذا المجال لا نجد ذكرًا لقوم عاد فيما تركه لنا الكاتب الموسوعي الروماني بلينيوس في أواسط القرن الثاني الميلادي (23/54-79م) رغم أن هذا الكاتب تعرض باستفاضة لشبه جزيرة العرب، وحرص على أن يذكر في عرضه المستفيض أكبر عدد من الأماكن والأقوام الموجودة في شبه الجزيرة، بل لقد ذكر عددًا من المواقع كان موجودًا ثم اندثر قبل زمنه، وهو يجد في حرصه هذا نقطة اعتداد علمي يذكر القارئ بها. فإذا توغلنا قليلاً في الماضي إلى أوائل القرن الأول الميلادي والنصف الأخير من القرن الأول ق. م. لا نجد ذكرًا لهؤلاء القوم في كتابات الجغرافي اليوناني إسترابون "63/ ق. م -21م على الأقل" رغم اهتمامه بوجه خاص بالقسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة وذكره اثنين من الأقوام الموجودة بها. فإذا تابعنا التوغل في الماضي نجد أن قوم عاد لا يظهرون في كتابات أرتميدوس في أواخر القرن الأول ق. م. "ظهرت بعض كتاباته في 104-101 ق. م" أو في كتابات الجغرافي اليوناني إراتوسثنيس، عرفه الجغرافيون العرب باسم إراتسطين الذي عاش بين 275 و194 ق. م. ومن ثم نستطيع أن نقول: إنه بدأ يكتب منذ أوائل القرن الثاني ق. م.6. وهكذا نستطيع أن نستنتج من هذه المقارنة بين القرآن الكريم وما ذكره الكتاب الكلاسيكيون أن عادًا الأولى كانت قد اختفت من جنوب شبه الجزيرة العربية ابتداء من النصف الأول من القرن الثاني ق. م على الأقل [384]".

أما عن وجود مكانين مختلفين لعاد الأولى وعاد الثانية فتفسير ذلك عنده يرجع إلى: "الهجرات التي عرفها عرب الجنوب إلى شمال شبه الجزيرة، وهي هجرات قد تكون بسبب تغير مناخ المنطقة نحو الجفاف بشكل تدريجي ابتدأت آثاره تظهر بوضوح منذ القرن الثالث ق. م. كما يذهب بعض الباحثين, أو قد تكون لها أسباب أخرى [385]".

---

[383] المرجع السابق ص166.

[384] المرجع نفسه ص 163- 164.

[385] المرجع السابق، ص 164.

"وفي ضوء هذا كله يبدو أمرا متفقا مع الظروف التي سادت شبه الجزيرة العربية أن تفترض أن قوم عاد قد هاجرت منهم جاليات أقامت لها مستوطنات في شمال شبه الجزيرة، ثم تعرض القوم الأصليون في الجنوب إلى ظروف الجفاف وظروف مناخية أخرى مصاحبة مثل الأعاصير المدارية العنيفة التي تعرفها المنطقة الاستوائية، والتي قد تستمر أيامًا عددية متوالية تدمر فيها مناطق بأكملها وتغطيها بالرمال إذا كانت أرض هذه المناطق أرضًا رملية. ولنا أن نتصور أن مستوطنات عاد في القسم الشمالي من شبه الجزيرة، التي ابتدأت قليلة وبسيطة في عدد سكانها، لم تلبث أن ازدهرت وتزايد عدد سكانها[386]".

ثمود

إذا كنا نستطيع أن نتابع أوضاع قوم عاد من خلال آيات القرآن الكريم مستكملين الحديث من خلال المصادر الكلاسيكية، فالشيء ذاته ينطبق على قوم ثمود. إن القرآن الكريم يشير في مواضع عدة إلى أرض الثموديين على أنها واحة غنية بالمياه الجوفية وما يترتب على ذلك من ثروة زراعية "جنات وعيون وزروع ونخل"، وهي إشارة نجدها كذلك عند الكاتب الكلاسيكي إراتوستثنيس الذي يقسم سكان المناطق الغربية "من شبه الجزيرة" المتاخمة لسواحل البحر الأحمر، فيصف المنطقة الشمالية منها "وهي المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها" بأنها منطقة بها قدر من الزراعة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المنطقة تمر بها خطوط القوافل التجارية المتجهة من شبه الجزيرة إلى المنطقة السورية، استطعنا أن ندرك ما يشير إليه القرآن الكريم من ثروة الثموديين "أو بالأحرى ثروة الطبقة الأرستقراطية الزراعية التجارية من الثموديين" التي تبدو في الإشارة إلى عدد القصور الذي أصبح ظاهرة تسترعي الانتباه، وإلى النشاط المعماري الذي جعلهم ينحتون في الجبال "بيوتًا" "وهي في الواقع أضرحة ومعابد تتخذ شكل البيوت فعلا ولا تزال قائمة حتى الآن في منطقة مدائن صالح - نبي ثمود". وقد اندثر الثموديون كقوم لهم كيانهم في فترة سبقت قيام الدعوة الإسلامية بفترة غير طويلة حسبما يتبين لنا من آيات الكتاب الكريم.

[386]المرجع نفسه، ص 165.

ونحن نستطيع في الواقع أن نتتبع الثموديين في عدد من المصادر الأخرى، فهم يظهرون في نقش آشوري يعود إلى حكم الملك سرجون في الشطر الأخير من القرن الثامن ق. م. "721-705 ق. م" على أنهم "أو أن قسمًا منهم" يسكنون في المنطقة الشمالية لشبه جزيرة العرب. ثم نجد عددًا من النقوش الثمودية منتشرة في عدد من مناطق شبه الجزيرة العربية وتعود إلى القرون الثلاثة من الخامس إلى الثالث ق. م. ثم نجد الثموديين بعد ذلك في كتابات بلينيوس في أواسط القرن الأول الميلادي تحت اسم tamudaei ثم على خريطة بطليموس كلاوديوس "القلوذي" في النصف الأول من القرن الثاني م. تحت اسم thamudenoi ومتعاصرين مع قوم عاد الذين يضعهم بطلميوس على خريطته إلى الشمال من الثموديين، ولمَّا كان القرآن الكريم يجعلهم "خلفاء من بعد عاد" ويشير إلى ما تبوأوه من مركز وثروة في منطقتهم، فبإمكاننا أن نستنتج من ذلك أن الثموديين استمروا بعد تعاصرهم مع العاديين فترة أخرى قبل أن يندثروا كقوم لهم سطوتهم أو مركزهم كأرستقراطية متحكمة في المنطقة الغنية التي كانوا يقيمون بها. ونحن لا نستطيع أن نضع وقتًا محددًا لاندثار الثموديين أو اختفائهم كقوم لهم عددهم وسطوتهم؛ إذ نحن نعود نسمع عنهم بعد بطليموس الجغرافي في كتابات الكلاسيكيين ابتداء من يوسيبيوس نحو "260-340م" وانتهاء ببروكوبيوس الذي توفي في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي "565م"، وصمت الكتاب الكلاسيكيون عن ذكر الثموديين طوال هذه الفترة التي تبلغ ثلاثة قرون تقريبًا لا يُثْبِتُ لنا بالضرورة شيئًا عن وجود هؤلاء القوم أو عدم وجودهم؛ إذ قد يكون هذا الصمت ناتجًا عن عدم اهتمام هؤلاء الكتاب بشكل خاص بذكر تفصيلي لأقوام المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية. ولكن الثابت هو أن الثموديين كانوا قد اندثروا قبل عهد الرسول وأن اندثارهم تم قبل ذلك بفترة غير طويلة. فقد كانت بقايا مساكنهم، حسبما يذكر القرآن الكريم لا تزال قائمة يستطيع أن يستشهد بها الرسول وهو في صدد محاجَّته للجاهليين وإقناعهم بالدعوة الوليدة [387]".

هذا ما توصل إليه هذا المؤرخ الذي حاول وسعه للتوفيق بين ما ساقه من شواهد تاريخية ساطعة تقول بتأخر زمن عاد بمئات السنين عما أورده القرآن الكريم عن قديم حضورهم في التاريخ العربي، والحقيقة الواضحة لمن يريد أن يرى هي أن عاد تلك

---

[387] المرجع السابق، ص 168.

التي يعدها هذان المؤرخان عادًا الآخرة إنما هي عاد الأولى والأخيرة أيضا، وهو ما يتوافق حقًّا مع المعقول من حضور كل تلك الروايات السماعية التي اختلطت فيها الحقيقة بالأساطير في ذاكرة العرب قبل الإسلام وبعده، فليس من المعقول أبدًا أن تعلق بذاكرة الإخباريين العرب تلك المعارف إن كان أصحابها قد عاشوا قبل ألوف السنين خاصة مع ما نعلمه من أمية العرب وجهلهم ما عرفته الأمم الأخرى من تدوين تاريخهم، حتى أمكن لهذا الباحث أن يقول بأنه: "ليس في تواريخ الأمم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الإسلام حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسلكه، وتناقض الأقوال فيه وبعكس ذلك تاريخهم بعد الإسلام؛ فإنهم لم يغادروا خبرًا من أخباره أو رواية أو واقعة إلا دونوها وفصلوها كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك، أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية وإقامة مجد الإسلام مكانها[388]".

لكن الرجل كما رأيت كان طموحًا؛ حيث أراد أن يجمع بين قول المؤرخين بوجود قوم عاد في القرن الثاني بعد الميلاد؛ لأنهم كانوا في زعمه عادًا الثانية، ثم يرجع اندثارهم إلى بعض العوامل الطبيعية أو الأعمال العدائية العنيفة من جماعات أخرى منافسة (أو لأسباب أخرى!) ثم يخرج علينا بهذه النتيجة المدوية: بأنه لم يعد لعاد من وجود ظاهر وقت تنزل القرآن حيث يزعم أنهم اندثروا قبل نزوله بمدة يسيرة!

إن قوله بأن أسبابًا وظروفًا طبيعية كانت وراء اندثار قوم عاد لا موضع له في ثنايا قصة القرآن عن عاد أولها أو آخرها؛ بل إننا نجد القرآن يقرر دائمًا بأن وراء مهلكهم عذابًا أرسله الله عليهم فبادوا من جراء تكذيبهم بمن أرسله الله فيهم من الأنبياء، وعلى هذا القرآن لم يتحدث إلا عن عاد واحدة، وهي التي بعث الله إليها نبيه هودًا، وأما لو افترضنا وجود عاد ثانية فلماذا خص القرآن إحداها بالذكر وصرح بوجود نبي فيها؟ وأما تلك الأخرى فلم يخصها القرآن بالذكر من بين مئات القبائل العربية إن لم يبعث الله فيها نبيًّا؟ وأين هو هذا النبي الآخر؟ أما ما حاوله بعض المفسرين قديمًا من أن يجمع عليهم العذابين معًا لهو تأويل غير سائغ؛ لأنه إذا كان الله يريد أن يهلكهم بالصواعق المدمرة أو بالصيحة المفنية، فما ضرورة أن يرسل عليهم ريحًا باردة كانت أم ساخنة لمدة سبع ليال وثمانية أيام متوالية؟!!

[388]"العرب قبل الإسلام" جورجي زيدان، الطبعة الثانية، مطبعة دار الهلال، 1922م، ج1، ص 9.

والحقيقة الواضحة التي يخرج بها كل قارئ للقرآن، إن عادًا قد سبقت ثمود؛ لأن القرآن ينص بوضوح على أن صالحًا نبي ثمود قد دعا قومه للاعتبار بما أنزله الله بقوم عاد، وأن الله قد استخلفهم في الأرض من بعدهم؛ لذا، ومن سوء حظ هؤلاء المؤولين أن القرآن الكريم دائمًا ما يقرن مهلك عاد بمهلك ثمود؛ لذا فإذا أمكن تفهم افتراض وجود عاد أولى وعاد آخره، فماذا يفعل هؤلاء بثمود؟ إلا لو شاءوا أن يقولوا بثمود أولى هلكت مع عاد الأولى، وثمود أخرى عاصرت عادًا الثانية، وهذا ما لم يدر بخلد أحد!

أما عن قوله بأن ثمود قد اندثروا قبل زمن النبوة بمدة يسيرة! فهذا هو العجيب الغريب؛ لأن القرآن الكريم وإن قال بوجود بقايا لبعض مساكنهم فهذا لا يعني أن اندثار الثموديين كان قبل عهد الرسول بمدة غير طويلة؛ لأنه يمكن لهذا النوع من المساكن أن يعيش ألوف السنين بعد رحيل أصحابها الهالكين، فقد كانت مساكن منحوتة في الجبال، هذا إذا تركنا جانبًا ما أصبح معلومًا من أن الحجر وما فيها لا يخص الثموديين في شيء، إنما هي من إبداع الأنباط!

من ناحية أخرى، فالنصوص القرآنية صريحة في مهلك عاد وثمود قبل زمن موسى بقرون وقرون كما سنرى في الصفحات القادمة؛ لذا فلا يسعنا ونحن نقرأ أمثال هؤلاء المؤرخين إلا أن نهتف متحسرين لصدق طه حسين حين قال: "إن من اللذيذ حقا أن تقرأ ما كتب (هيرودوت) في تاريخ اليونان، و(تيتوس ليفوس) في تاريخ الرومان، وما يكتب المحدثون الآن في تاريخ هاتين الأمتين، ولكنك لا تكاد تجد شيئًا من الفرق بين ما كان يتحدث به ابن إسحاق ويرويه الطبري من تاريخ العرب وآدابهم، وما يكتبه المؤرخون والأدباء عن العرب في هذا العصر ذلك؛ لأن الكثرة من هؤلاء المؤرخين والأدباء لم تتأثر بعد بهذا المنهج الحديث، ولم تستطع بعد أن تؤمن بشخصيتها، وأن تخلص هذه الشخصية من الأوهام والأساطير[389]".

ولكن، واأسفاه! فقد مر ما يقترب من القرن على ما قاله هذا الرائد الشجاع، وما زلنا لم نبتعد كثيرًا عن تلك الحالة المزرية التي نعاها هذا الرجل الباسل على كتَّاب جيله، وما نراه كان ليصدق أن مرور قرن من الزمان لن يكون كافيًا لتتغير تلك الحالة المعرفية المحزنة التي حارب من أجل تغييرها!

---

[389]"في الشعر الجاهلي" طه حسين، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ص58 .

خامسا: هل عرف النبي موسى قصة عاد وثمود؟

إذا كان حقًّا أن قوميَّ عاد وثمود قد عاشا قبل زمن إبراهيم وفق الرواية القرآنية، فليس من الغريب أبدًا أن يتوقع قارئ القرآن الكريم أن يجد أخبار تلك الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود وسواهم من أهل تلك القرون الكثيرة التي أهلكها الله قبل زمن إبراهيم على ألسنة الأنبياء، بدءًا من إبراهيم مرورًا بشعيب وأيضًا، وهذا هو مقصدنا، على لسان موسى، سواء وهو يخاطب قومه المتعنتين والعاصين لأوامره أو مخاطبًا المصريين المعاندين الكافرين من باب أولى، بل إن الغريب حقا هو ألا يجد القارئ ذلك حاضرًا في القرآن الكريم فهل أورد القرآن ما يدل على ذلك؟

إن القرآن قد فعل الاثنين معا، ولكن وبسبب من طبيعة الأداء القرآني، وبسبب من ظاهرة (الالتفات)؛ أي تحول الخطاب فجأة من مقام إلى آخر لمشترك عقلي ودلالي يجمع بين الملتفت عنه وبين الملتفت إليه؛ فقد جاءت تلك الإشارة القرآنية الأولى على نحو من الالتباس، سمح لمن شاء من المفسرين بأن يجعلها من كلام موسى وهذا هو الأصل، ويسمح لآخرين أيضًا ألا يجعلها من كلام موسى، بل يراها استئنافًا من الله، وهو يخاطب متوعدًا أهل مكة بتلك الأخبار على لسان نبيه محمد. فلنقرأ تلك الآيات:*وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ * قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤* (إبراهيم: 6–14).

من يتأمل هذه الآيات أولا، ثم يقلب بعدها في أقوال المفسرين لها فسوف يجد ويا للعجب أن هناك اتجاهين في فهمها، ففريق يسترسل مع سياق خطاب الآيات ويحملها على ظاهرها، والآخر تغلب عنده أمور ليست ذات علاقة وثيقة بالنص، بل تتعلق بمشكلات تخص أصحابها من المفسرين والمؤرخين، ولا تلزم أحدًا أو تضطره لأن يخالف ظاهر القرآن لتلك الأسباب، خاصة أنها في اعتقادنا أسباب واهية من أساسها كما سنرى، ولكن لننظر في أقوال المفسرين فيها فنجد من أمثلة الاتجاه الأول مفسرًا كالطبري: "قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل موسى لقومه: *يا قوم أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ۝٩*، يقول: خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم *قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ ۝٩*، وقوم نوح مُبيَّنٌ بهم عن "الذين"، و"عاد" معطوف

بها على "قوم نوح"* وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ *﴿٩﴾، يعني من بعد قوم نوح وعاد وثمود *لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴿٩﴾*، يقول: لا يحصي عَدَدهم ولا يعلَمُ مبلغهم إلا الله، [390]".

ومن الفريق الثاني، نجد مفسرًا كابن كثير حيث يقول: "قَالَ ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل، وَفِيمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ نَظَرٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ خَبَرٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّ قِصَّةَ عَادٍ وَثَمُودَ لَيْسَتْ فِي التَّوْرَاةِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ كلام موسى لقومه وقصصه عليهم، لا شَكَّ أَنْ تَكُونَ هَاتَانِ الْقِصَّتَانِ فِي التَّوْرَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [391]".

لكننا نرى أن ابن كثير يعود في موضع آخر فيقول بما سبق أن جادل ابن جرير فيه، لكنه يعود فيقبله مصحوبًا بتأويل معقول من وجهة نظره؛ إذ جعل غياب خبرهما في التوراة بسبب ما وقع فيها من التحريف بالزيادة والنقصان: "ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما، والظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدًا ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورًا في زمان موسى عليه السلام[392]".

أما إذا أردنا أن تعلم مجمل رأى عموم المفسرين فهذا النقل من الرازي يفي بالغرض: "ثُمَّ إِنَّهُ تعالى قَالَ: *أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ* وَذَكَرَ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خِطَابًا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُخَوِّفُهُمْ بِمِثْلِ هَلَاكِ مَنْ تَقَدَّمَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُخَاطَبَةً مِنَ اللَّهِ تعالى عَلَى لِسَانِ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ أَمْرَ الْقُرُونِ الْأُولَى، وَالْمَقْصُودُ إِنَّمَا هُوَ حُصُولُ الْعِبْرَةِ بِأَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَهَذَا الْمَقْصُودُ حَاصِلٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ إِلَّا أَنَّ الْأَكْثَرِينَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ ابْتِدَاءُ مُخَاطَبَةٍ لِقَوْمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [393]".

---

[390] راجع: تفسير الطبري "جامع البيان"، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج16، ص 529.

[391] "تفسير القرآن العظيم" ابن كثير، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى – 1419هـ، ج 4، ص 412 و413 .

[392] "قصص الأنبياء" لابن كثير، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى 2001م، ص 110.

[393] تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ، ج19، ص68.

ولكن إذا ما أسقطنا لبرهة من أذهاننا ما شجر بين المفسرين من خلاف بشأن تلك الآيات، وتأملناها مباشرة فلن نجد فيها شيئًا يحول بين ما يدل عليه ظاهرها، وأنها من كلام موسى، بل إننا نرى أنها تحمل ما يترجح به أنها من قول موسى.

ومما يرجح ذلك أيضًا أن تلك العبارة من تمام قول موسى أن الخطاب القرآني يأمر موسى بأن يذكر قومه (بأيام الله)، وهي كلمة يتردد معناها عند المفسرين بين أن يذكرهم موسى بنعم الله عليهم من إنجائهم من فرعون وسوء فعاله بهم، وأن يخوفهم بمصير المكذبين من الأمم الهالكة الذين تمردوا على رسل الله، فأي غرابة أن يذكر موسى بني إسرائيل مع ما قصه علينا القرآن بتمردهم على موسى وكثرة مخالفتهم له بمصير كمصير قوم عاد وثمود تمامًا كما فعل النبي، فهذه الآيات كما ترى وإن جاءت في ثنايا خطاب موسى لقومه إلا أنها لا تأتي بقصة جديدة أو تعبر عن موقف بعينه من تاريخ موسى مع قومه، وإنما تأتي كتلخيص لما أتى به الأنبياء أقوامهم من الترغيب في ثواب الله، وتخويفهم مغبة عصيان أوامره، وهي تأتي أيضًا كتلخيص عام لبيان استجابة عموم الأمم المكذبة الهالكة، وتورد لنا أهم ما قالوه لأنبيائهم لتخلص في النهاية إلى أن الله ينصر أنبياءه وأولياءه، ويكون الخسران عاقبة أمر المكذبين الجاحدين. وإذا تذكرنا أن القرآن لم يقص لنا شيئًا من أخبار تلك الأمم الكثيرة الهالكة قبل إبراهيم سوى ما أورده عن عاد وثمود، فما الغريب في أن يستشهد موسى القرآني بتلك الأمثلة القليلة التي أوردها القرآن الكريم: *فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾* (طه: 47–52)؟

ما وجه العجب إذن في معرفة موسى بقصص قوم نوح وعاد وثمود؟ بل ربما كان في سؤال فرعون لموسى عن القرون الأولى كما جاء في الآيات السابقة إنما كان سؤالا عن أهل تلك الفترة الممتدة بين نوح وإبراهيم، التي جهلت في ظن فرعون كل ما

جاء به موسى. وكما ترى، فلم يخبر موسى فرعون بشيء عن أهل تلك القرون، بل رد علمها إلى الله، ولسنا بحاجة إلى القول بأن موسى لم يقل إلا بما كان النبي محمد ليقوله إن سئل هو عن تلك الفترة وأهلها؛ وحيث لم يكن النبي محمد يعلم عنها شيئًا؛ لذا فقد خلا عقل موسى من أي معرفة بها؛ وإذن فلم يقل موسى إلا بما علمه النبي، ولم يجهل موسى كذلك إلا بما جهله النبي محمد!

أما غياب تلك القصة عن التوراة فليس بدليل على شيء عند من ينطلق من القرآن؛ فقد صمتت التوراة عن كثير من المرويات القرآنية، ولم ير المفسرون أن غيابها أو حضورها في التوراة يثبت أو ينفي شيئًا مما أورده القرآن.

الحقيقة التي لا نشك فيها هو أن هذا القول من تمام قول موسى لقومه كما ذهب إلى ذلك الطبري ومن وافقه، وإننا لنعجب أشد العجب من تردد مفسر في جلالة ابن كثير ومن تابعه من المفسرين؛ إذ لا ندري كيف فاته أن هذا القول ذاته أي التذكير بسوء مصير قوم نوح وعاد وثمود قد جاء صريحًا في القرآن الكريم على لسان رجل مصري مؤمن برسالة موسى، فكيف ساغ عنده أن تكون تلك المعارف حاضرة على لسان مؤمن متابع لموسى، ويتحدث بها في وجود موسى وقد جمعهما في القرآن مجلس فرعون، بينما نراه يستبعد أن تكون معرفة مصائر المكذبين كعاد وثمود من بين معارف النبي الذي ربما استقى ذاك التابع منه تلك المعارف والأخبار؟!

لذا، سنورد هنا باختصار قصة مؤمن آل فرعون؛ إذ إنها على ما تفيده في إيضاح جوانب أخرى عدة من طريقة فهم النبي لقصص وتاريخ الأمم السابقة، فهذه القصة كذلك نص واضح على اعتقاد النبي محمد في معرفة موسى، بل عامة المصريين بقصص مهلك قوم نوح وعاد وثمود.

سادسا: قصة مؤمن آل فرعون وقصص أخرى.

لا يعتقد المسلمون أن النظرة الإسلامية للتاريخ قد تم التوصل إليها عن طريق التأمل في حقائق التاريخ العملي، ولكن الطريقة التي يجب للناس أن ينظروا بها للتاريخ على ما هو متضمن في أثناء نزول القرآن وإذاعته على الناس؛ ولكي يؤكد القرآن ما انطبع فيه من اتجاه من التاريخ تجده يقدم أمثلة من التاريخ الحقيقي ليبين أن التاريخ

يتطابق مع ما جاء به تنزيله:*قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩*(النَّمل: 69)[394].

قصة مؤمن آل فرعون

*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٢٥ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ

[394]"التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي" آلبان .ج. ويدجرى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، الطبعة الثانية، ص 160.

لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾
أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ
سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ
ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ * وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى
ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ
ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾*(غافر: 23–46).

من بين القصص القرآني الذي يستحق التوقف عنده قصة مؤمن آل فرعون، وهي من القصص القرآني الذي لا يخفي مقصد القرآن من وراء إيرادها في تلك السورة المكية الباكرة؛ حيث تبدأ هذه القصة بإعلان أن الله قد أرسل موسى بالبينات إلى فرعون وحاشيته التي كان من بينها الوزير (هامان)، ونجد من بينهم المستشار (قارون) وهو وإن كان من قوم موسى كما تقول سورة القصص إلا أنه انحاز إلى المصريين فقربه فرعون مصر إليه، وجعله من بين خلصائه وكبار أتباعه، وذلك للإشارة إلى تسلط هذا

الملأ الغاشم على المصريين، وإلى أنهم كانوا هم من يقودون تلك الجموع الغفيرة من عامة المصريين، ويحرضونهم على الكفر والعصيان، وهذا هو المقصد الأساسي، فيما نعتقد، لإيراد تلك القصة القديمة في تلك الفترة الباكرة من الرسالة المحمدية؛ أي لبيان تأثير المترفين من الملأ في أتباعهم وإضلالهم إياهم.

ثم نجد في هذه القصة الملأ يصفون موسى بالساحر الكذاب، وهو نعت وصف به النبي محمد ومعه كثير من الأنبياء السابقين من أقوامهم كما هو معلوم، ولم يكتف فرعون بتجاهل تلك المعجزات الواضحات التي جاءه بها موسى، بل نراه يأمر جنوده بقتل الذكور من ذرية بني إسرائيل واستبقاء نسائهم، ثم نراه يطلب إلى ملئه أن يدعوه يقتل موسى، خشية أن يبدل دينهم وأن ينشر الفساد في الأرض، رغم ما نعلمه من أن فرعون قد أمر بقتل الذكور واستحياء الإناث قبل مولد موسى بكثير، حتى لقد عُدَّتْ نجاة موسى من تلك المقتلة من بين ما امتن الله به على عبده موسى كما تقول الآيات الأولى من سورة القصص:*طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾* (القَصَص: 1 – 9).

ثم نرى بعدها هذه المحاورة الإشارية في مجلس حكم فرعون؛ إذ نجد موسى يعتصم بالله من شرور فرعون المتكبر المتجبر الذي لا يؤمن بيوم الحساب، ثم ينقل

السياق إلى صوت أحد جلساء فرعون المؤمنين بموسى، ولكنه كان إلى تلك اللحظة يكتم إيمانه خشية بطش فرعون به، فنراه يخاطب المؤتمرين مستنكرًا أن يُقتَلَ رجلٌ بار لا لجريمة أتاها، بل لمجرد أن يقول ربي الله معضدًا ما يقوله بالبراهين الساطعة على صحة دعواه، مستخدمًا بما يذكرنا بـ (رهان باسكال [395]) على أفضل وجه له؛ إذ نراه يجعل المصريين يفكرون بافتراض أن يكون موسى إما كاذبًا أو صادقًا، فإذا كان صادقًا فسوف يربحون الدنيا والآخرة، وإن كان كاذبًا فلن يجري عليهم سوى ما سيجري على جميع البشر الفانين من ابتلاع هوة العدم لهم ولسواهم من الناس، ولن يخسروا من أتباعه شيئًا! على غرابة أن يقول الرجل المؤمن: وإن كان موسى صادقًا (يصبكم بعض الذي يعدكم)، فقد كنا ننتظر بأن يقول: إن كان صادقًا يصبكم كل ما يعدكم به، وليس بعض ما وعدتم به!

ثم نراه يعرض بفرعون وصلفه بقوله بأن الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب، لكن فرعون يحاول ألا يؤثر هذا الصوت الهادر في حضور مجلسه الذي يبدو واضحًا أنه قد فوجئ به بأن يقول لمخاطبيه إنه لم يدخر جهدًا في نصحهم، وأنه لا يقصد من وراء موقفه إلا هدايتهم إلى سبل الهداية والرشاد! ثم ينتقل الخطاب إلى صوت المؤمن الخفي فنراه يخاطب المصريين ناصحًا بألا يغتروا بقوتهم، ومذكرًا إياهم بأن تلك القوة لن تحميهم من بأس الله إن هم ظلوا على كفرهم وعنادهم، ثم يذكرهم بما يعرفونه من

---

[395] من الضروري أن نذكر هنا أن مثل هذا القول الذي أجراه القرآن على لسان المصري الصالح قد أصابنا تأمله بالحيرة البالغة؛ لكن تلك المقولة لا تشبه في شيء ما يسمى (رهان بسكال) إلا من جانب شكلي أو تعبيري فحسب، وأن الرجل كما قلنا كان يحفز المصريين على أن يفترضوا ولو برهة فحسب صدق موسى وصحة ما جاءهم به من الدين ما يوحي بشدة عنادهم وعنف إبائهم المتصلف لمجرد أن يسمعوه أو يعقلوا عنه، وإلا فإن القرآن لا يجعل من أمثال المؤمنين بهذا الموقف الديني مؤمنًا حقيقيًّا؛ لأن رهان باسكال هذا وتصويره الإيمان بأنه مغامرة أو مقامرة، لهو في الحقيقة تصور ديني سخيف، فهو لا يرضي المؤمن ولا يعجب الملحد، ولا نظن أن الله كما يتصوره المؤمنون التقليديون يقبل هذا الضرب من الإيمان، وإنما هو على أحسن الأحوال موقف عقلي بارد يتبناه كثير من الارتيابيين والمتشككين في وجود الله، والذين لا تشكل لديهم حجج الملحدين براهين كافية على نفي وجود الله، بل يكفي عندهم حضور الإمكانية الخالصة لوجود الله، تضاف إليها أشواق القلب البشري لترجح الكفة لمصلحة الإيمان، وهو ما يعقل صدوره مثلا عن رجل كأبي العلاء وأمثاله، إنما لا موضع لأمثال تلك المواقف الرخوة عند النبي محمد الذي لا يقبل سوى اليقين الكامل كما تقول بهذا مئات الآيات من القرآن!

يقول المعري:

قالَ المَنجّمُ والطّبيبُ كِلاهما: لا تُحشَرُ الأجسادُ؛ قلتُ: إليكما

إن صَحّ قولُكما، فلستُ بخاسرٍ، أو صَحّ قولي، فالخَسارُ عليكما!!

ولكن من ناحية أخرى، ألا يحق لنا أن نفترض أن هذه المقولة ربما كانت أثرًا من آثار تلك الحكاية التلمودية المجهولة التي افترضناها وتخلفت عنها لتظهر هنا في القرآن وينطق الرجل بهذه المقولة العجيبة التي لم نجد لها شبيهًا في القرآن، بل لا حاجة إلى القول بأنه يوجد في القرآن عشرات الآيات التي تدحضها وتنفيها؟!

أخبار الأمم الهالكة من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود ومن جاء بعدهم!! ثم يذكرهم بخشيته عليهم من أهوال يوم القيامة يوم يولون مدبرين ولا عاصم في ذلك اليوم إلا الله، ثم يذكرهم بأن الله قد أرسل إليهم من قبل رسوله يوسف بالبينات، لكنهم ارتابوا في صدق نبوته حتى إذا مات اعتقدوا بأن الله لن يوالي من بعده إرسال رسله وأنبيائه بالهداية، ولكن ها هو موسى يرسله الله إليهم معضدًا بالبينات فلماذا العناد والمكابرة؟ ثم نراه يواصل تعريضه وإن على نحو أوضح بفرعون، موصيًا إياهم بألا يتبعوا من قدر الله عليه الضلالة لما يعلمه من سوء طويته وفساد دخيلته، ثم نجد فرعون لا يلتفت إلى شيء مما قاله هذا المؤمن الباسل، فنراه يطلب من وزيره هامان أن يبني له سلمًا يرتقيه إلى السماء ليعاين بنفسه إله موسى مع ما يرجحه من كذبه وافترائه على الله.

ينتقل الخطاب بعد ذلك، إلى ذلك المؤمن الذي تماهى هذه المرة مع موسى، فنراه يستعير صوت موسى ليدعو قومه المصريين إلى اتباعه ليهديهم إلى سبيل الرشد والهداية، مفصلا ما علمه من موسى من حقائق الدعوة الدينية ومعالمها؛ فيهون عندهم من قيمة الحياة الدنيا وزخرفها، وأنها ليست إلا ظلا عابرا، وأن الحياة الحقيقية تبدأ هناك في الدار الآخرة، ويجلي لهم ببيان ناصع قاعدة ما ارتضاه الله في معاملة خلقه، وأنه تعالى بعدله لا يجازى السيئة إلا بمثلها، ويجازى أهل الإيمان والصلاح بما يليق بكرمه وعظيم فضله؛ حيث يدخلهم مستقر رحمته، وهناك يتنعمون أبد الأبيد بلا حساب، ثم نراه يلتفت إلى ما يقف خلف كل رافض لدعوته باتباعه العقائد الشركية الباطلة؛ حيث لا يقود اتباعها إلا إلى النار فيما هو يدعوهم إلى سبيل يقف في نهايته الله العزيز الغفار!

يختم هذا الخطاب الجليل بما يوحى بمعرفة الرجل الصالح بما نعرفه من تشبث المصريين بعقيدتهم الباطلة فيفوض أمره إلى الله؛ فقد أبلغهم كلمته الناصحة وأن الموعد الله؛ حيث سيعاينون هناك صحة ما قاله لهم في الدنيا، لكن وا أسفاه فلن ينفعهم ذاك العلم شيئًا؛ لأن أوان الإيمان يكون قد فات، وتعرض الآيات الأخيرة ما سيحدث يقينًا من دخول كفرة المصريين النار في الآخرة، وما سيحدث فيها من معاتبة المستضعفين لمن قادهم إلى هذا المصير من المتجبرين؛ إذ سيرون بأنهم لن يحملوا عنهم من عذابهم شيئًا، وكيف يحملون عنهم وجميعهم يلاقي عذاب الآخرة في تحريض قرآني واضح على أن يتحرر الضعفاء من سادتهم المتكبرين الذين لن يغنوا عنهم من الله شيئًا.

هذا هو تلخيص ما اشتملت عليه هذه القصة القرآنية الشائقة بشكل مجمل، ولكن لو اقتربنا قليلا منها فسنرى أنها قصة لا ضرورة لأن نقول لقارئها إنها لا تتعلق بدعوة موسى وعقيدته من قريب أو من بعيد، ولكن لنقف برهة أولا عند بعض ما جاء فيها من إشكالات قديمة جديدة.

قصة هامان

أثار حضور اسم هامان في القرآن إشكالات مزعجة منذ زمن بعيد، فقد كانت تلك الكلمة من بين ما أورده ناقدو القرآن لبيان زعمهم بخلط القرآن بين وزير لفرعون مصر زمن موسى، ووزير آخر حاقد على اليهود زمن الملك الفارسي (أحشويرش) حيث كاد عدو اليهود اللدود هذا أن يفلح في أن يقنع الملك الفارسي بإبادة جميع اليهود في الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، لولا أن تدخل الله على غيرعادته وحال بين وقوع هذه المذبحة الفارسية، مستخدمًا في ذلك فطنة عبده (موردخاي) الصالح، ومواهب أمة الرب (إستير) الفاتنة الشجاعة، قالبًا الطاولة على رأس الفتنة (هامان)، الذي كان مصيره أن عُلق على المشنقة ذاتها التي كان قد أعدها لشنق (موردخاي)، بل سيعلق مع هامان أولاده العشرة الذين قتلهم اليهود، بعد أن أصدر الملك الفارسي قراره بالصفح عن اليهود وتقريبهم، وإطلاق يد اليهود في رعيته ليقتلوا منهم ما شاءوا، ويكفي أن يقرأ القارئ الكريم هذا المقطع لكي يرى أي هذيان كريه يشيع في هذا السفر الذي يجب أن يدرس دراسة نفسية! "ثم اجتمع اليهود الذين في شوشن في اليوم الرابع عشر أيضًا من شهر آذار، وقتلوا في شوشن ثلاثمائة رجل، ولكنهم لم يمدوا يدهم إلى النهب وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا من أجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم <u>خمسة وسبعين ألفًا، ولكنهم</u> لم يمدوا أيديهم إلى النهب في اليوم الثالث عشر من شهر آذار، واستراحوا في اليوم الرابع عشر منه، وجعلوه يوم شرب وفرح!!" (إستير 9- 15-18) إلى آخر تلك الترهات السخيفة التي حشا بها كاتب سفر (إستير) هذا السفر، والذي يمكن قراءته رغم ذلك كقصة مسلية تثير الشفقة والعطف، لولا ما تفوح به أحداثه ولغته من روح عدوانية لا يخفي ما خلفها من حقد كاتب هذا السفر على ما أصاب الروح اليهودية من أذى الاضطهادومن إذلال المنافي الأليم، وتجربة الوقوع المتكرر في قبضة الإمبراطوريات الغاشمة، ولكن لا ينبغي أبدًا أن يقرأ

هذا السفر ككتاب يحوي أحداثًا تاريخية صحيحة، فلا ذكر في الوثائق الفارسية عن إستير المزعومة تلك، ولا عن موردخاى، ولا عن هامان نفسه، فضلا عما يحفل به من مبالغات سقيمة، ومن مصادفات عجيبة لا نجدها إلا عند الروائيين المبتدئين، وإنما يمكن القول بأن هذا السفر في بعض جوانبه هو المقابل المتأخر لقصة يوسف؛ فكما صعد يوسف العبد المشترى بعشرين من الفضة، وصار سيد مصر وأهلها لثمانين عامًا فقد صعدت أيضًا اليتيمة المتبناة إلى سدة العرش وعلا نجمها لتتحول من خليلة أو محظية عشرات أو مئات غيرها في البلاط الفارسي إلى ملكة لإمبراطورية فارس، التي كان الملك الفارسي مستعدًا ليعطيها سؤلها (ولو إلى نصف المملكة)، ولكنها اختارت الانتقام من أعداء شعبها حتى إن "كثيرين من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود قد وقع عليهم"!! فلا علينا إذن أن نقولها بوضوح بأن لا حقيقة تاريخية لهامان التوراتي، ولا لهامان القرآني من باب أولى!

أما بخصوص تلك المشكلة القرآنية مع هامان وتعارضه مع ما جاء في العهد القديم فإننا في الحقيقة لا نصدق ما قيل من عدِّ أن اسم هامان الفرعوني الذي أورده القرآن كان مجرد مشابهة لفظية مع اسم هامان الفارسي! ولا نعتقد أيضًا في أن مدافعًا عظيم الثقافة كعبد الرحمن بدوي قد أفلح أن يقنع أحدا، عندما نفى أي صلة بين هامان المصري ومقابله الفارسي؛ بأن جعل من اسم (هامان) القرآني تصحيفًا لاسم كاهن آمون ووزير فرعون[396]! بل يغلب على ظننا أن هذا الالتباس القرآني كان مرجعه إلى المرويات التلمودية التي كانت تنقل البشر من أزمنة إلى أخرى كما سنرى بعد قليل عند عرضنا لإحدى الخرافات التلمودية، وكيف كانت لا تبالي بالزمان ولا بالمكان؛ لأنها كانت تستهدف العظة والاعتبار لا التاريخ ووقائعه؛ لذلك فلا غرابة أن يتابع النبي قصة تلمودية بلغته، وكانت تحوي هذا الخلط، ويعتقد بصحة ما جاء فيها، وخاصة أننا نرجح أن النبي لم يكن يعلم قصة هامان الفارسي، ولا كان يعلم الكثير مما حوته الأسفار الأدبية اليهودية المتأخرة أصلاً؛ لأن من يستقرئ المعارف النبوية كما تتجلى في القرآن فلن

---

(396)انظر "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" عبد الرحمن بدوى، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ص191، ويمكننا القول إنه على افتراض وجود اسم يتشابه مع اسم هامان كما يقول بعض المدونين على الشبكة الدولية، فهذا لا يعني بالضرورة أن تلك القصة كما رواها القرآن قد وقعت حقا؛ لأننا لا نعلم في أي زمن قد وقعت، ونرتاب أشد الريبة في أن تكون تلك الوقائع على افتراض وقوعها أصلا قد وقعت على النحو الذى زعمته التوراة ووافقها عليه القرآن من شق البحر، ومن تلك الكوارث التي أنزلها الله بالمصريين، وما إلى ذلك من هذا اللغو الذي لا ينبغي أن يصدق شيء منه حتى يكون هناك من الشواهد التاريخية ما يؤيده.

يرى سوى أنها كانت تحوي عموم قصة بني إسرائيل وأحداثها الأساسية ملونة بالكثير والكثير من الحكايات التلمودية التي لا علاقة لها بقصص الأنبياء العبرانيين كما جاءت في العهد القديم، ولكن قبل الدخول إلى ما نقترحه من تفسير لتلك المشكلة فلننظر في قصة أخرى ذات ارتباط وثيق بها.

إيمان فرعون موسى

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ (يُونُس: 90–92).

هذا عن القرآن، أما التوراة فقد أوردت غرق المصريين جميعًا في سفر الخروج الإصحاح الرابع عشر على هذا النحو (فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: "مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ، فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إلى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إلى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ. فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ.)

أما الرواية التلمودية فقد حفلت بكل ما هو عجيب وغريب فلنقرأها منتبهين: (وهكذا غرق المصريون جميعا ولم ينج منهم إلا واحد فقط هو فرعون نفسه وعندما رفع بنو إسرائيل أصواتهم يترنمون بحمد الرب عند شاطئ البحر الأحمر، سمعهم فرعون وهو يغالب الأمواج التي أخذت تلقي به يمينًا ويسارًا، فأشار بإصبعه نحو السماء، ونادى قائلاً: آمنت بك يارب فأنت حق وعدل، وأنا وشعبي خطاه ظالمون، وها أنا أشهد الآن أنه لا إله في الكون إلا أنت، وعند ذلك أسرع جبريل فنزل إليه وطوقه بعنقه بسلسلة حديدية، ثم أمسك به في إحكام وقال له: أيها اللعين، كنت بالأمس تقول: ومن هو هذا الرب الذي يجب أن أسمع لصوته؟ والآن تقول الرب حق وعدل؟!! ثم أغرقه في أعماق البحر، وأخذ يعذبه فيها طوال خمسين يومًا لكي يريه قدرة الرب، ثم

عينه ملكًا على مدينة نينوى، ثم بعد قرون عديدة لما جاء يونس وتنبأ لأهل نينوى بالعذاب الذي سينالهم لكفرهم وعنادهم، كان فرعون نفسه وقد تملكه الخوف والفزع ولبس الجوخ والمسوح وافترش التراب هو الذي صاح وأعلن في نينوي مرسومًا ملكيًّا قائلاً: لا يذوقن رجل ولا بهيمة ولا حيوان ولا أي شيء، لا يأكلن أي منهم أي شيء ولا يشربن ولا قطرة ماء؛ لأنني أعلم أنه لا إله في الكون كله غير الرب، وجميع كلماته حق وصدق، وجميع أحكامه عدل وقسط، ولم يمت فرعون أبدًا ولن يموت مطلقًا، ولكنه يقف دائمًا على أبواب الجحيم، وكلما أتى ملك من ملوك الأمم ليلقى في الجحيم يبين له فرعون قدرة الرب قائلا: أيها الغبي الأحمق، لماذا لم تتخذ مما حدث لي وحل بي عبرة لك؟ لقد كفرتُ بالرب الإله العظيم فأنزل بي عشرًا من البلايا ورماني في قاع البحر، وأبقاني هناك خمسين يومًا، ثم أطلقني ورباني فلم أقدر إلا أن أؤمن به [397]).

كما ترى فقد اتفقت الروايتان القرآنية والتوراتية على هلاك جنود فرعون جميعًا، ولكن الرواية التوراتية، وإن لم تصرح بغرق فرعون إلا أنه من الواضح أنها تقول بغرقه مع الغارقين؛ لأنها تنص على عدم نجاة أي إنسان، ولكن سواء أغرق فرعون مع جنده، أم رجع إلى مصر وحيدًا كاسف البال بعد غرق جنوده أجمعين، فإن الرواية التوراتية، وقد اكتمل غرضها ببيان قوة الله ومعجزاته الخارقة فقد مضت لتقص علينا أفراح بني إسرائيل بعد العبور الميمون، وأسدلت الستار على فرعون، ولم تعد لذكره بعدها قط، ولكن مصير فرعون الغامض كان له نصيب في الروايتين التلمودية والقرآنية كما ترى؛ إذ اتفقتا على أن فرعون وقد أدركه الغرق ورأى عجائب الله فقد ثاب إلى رشده وأعلن إيمانه بالله! ثم تفترق الروايتان بعد ذلك فتختلفان حول مصيره الروحي، فبينما جاءت الرواية القرآنية لتقرر أن موعد التوبة كان قد فات؛ لذا فلم يقبل الله منه توبة لأنها جاءت بعد أوانها، ولتقرر أن إنجاءه لم يكن إلا ليكون عبرة لبني إسرائيل لكي يستيقنوا من هلاك عدوهم اللدود الذي سامهم وأسلافهم لقرون سوء العذاب.

---

(397)انظر "أساطير اليهود" ج3، ص 32-33.

لم يختلف أحد من المسلمين علي ما قرره صريح القرآن عن مصير فرعون موسى إلا ما نجده في بعض كتب الصوفية من عدِّ فرعون موسى مؤمنًا مسلمًا، وأن رحمة الله قد أدركته في النهاية، ولكن يغلب على ظننا أن تلك الاجتهادات إن صحت فهي تعود إلى أمور تخص رؤيتهم لله ولا علاقة لها بما معنا من مؤثرات. راجع في نفي تلك الاعتقادات عن الشيخ الأكبر ما كتبه الشعراني في: "اليواقيت والجواهر" مكتبة البابي الحلبي، ص 224.

أما الرواية التلمودية فهي رواية عجيبة غريبة حقا؛ إذ تقول بأن الله قد أرغم فرعون على الإيمان به بعدما جعله يعاين العجائب الإلهية، وبعد أن أسلمه الله للملاك جبريل الذي أذاقه مرير العذاب لخمسين يومًا فقط، وكانت فيما يبدو مدة كافية لتطهيره من جميع آثامه التي اقترفها في حق شعب الله الحبيب ثم تزيدنا وهذا هو المهم أن الله قد منح فرعون مصر بعد إيمانه حياة أبدية، وأعاد تجسده بعد تلك الحادثة ليظهر بعدها في الدنيا كملك صالح يحكم مدينة آشورية زمن يونان النبي، ثم ادخر له الله في الآخرة وظيفة الموبخ الملكي لسواه من الملوك الوثنيين الداخلين إلى جهنم لضعف معارفهم التاريخية، وعدم اتعاظهم بما أنزله الله به وبجنوده.

أما عن حسبان تلك الخرافة التلمودية المخجلة هي أساس حكاية القرآن في نجاة فرعون فهو أمر واضح ولا نشك فيه، ولم يكن أمام العلامة الطاهر بن عاشور ليحجم عن كتابة هذه الأسطر الحماسية والمتسرعة سوى أن يقع بصره على هذه القصة التلمودية التي قرأناها حيث يقول: "قَدْ جَاءَ ذِكْرُ غَرَقِ فِرْعَوْنَ فِي التَّوْرَاةِ فِي الإصحاح الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةِ الصَّرَاحَةِ وَالْإِغْلَاقِ. وَمِنْ دَقَائِقِ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَهِيَ عِبَارَةٌ لَمْ يَأْتِ مِثْلُهَا فِيمَا كُتِبَ مِنْ أَخْبَارِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّهَا لَمِنَ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ إذ كَانَتِ الْآيَةُ مُنْطَبِقَةً عَلَى الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْأَمْوَاجَ أَلْقَتْ جُثَّتَهُ عَلَى السَّاحِلِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ فَعَثَرَ عَلَيْهِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَتَقَصَّوْنَ آثَارَهُ مِمَّنْ بَقَوْا بَعْدَهُ بِمَدِينَةِ مصر لما استبطأوا رُجُوعَهُ وَرُجُوعَ جَيْشِهِ، فَرَفَعُوهُ إلى الْمَدِينَةِ وَكَانَ عِبْرَة لَهُم[398]".

اتفق المفسرون جميعًا على أن المتكلم في تلك الآية التي تخاطب فرعون إنما هو أحد الملائكة الذي كان يترجم عن صوت الله مخاطبًا فرعون وموبخًا له، ولسنا بحاجة إلى توقع أن يكون هذا الملاك هو ذاته الملاك جبريل كما في الرواية التلمودية، ولكن لا ضرورة للتوقع ومخاطره، فقد جاءنا هذا الحديث الصحيح ليكفينا عناء الحدس والتخمين، فهو ينقل لنا حرفيا ما قاله الملاك جبريل للنبي محمد مستعيدًا أمامه تلك الذكرى البعيدة التي جرت قبل مولد النبي محمد بقرابة ألفي سنة: "قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة [399]"،

[398]انظر "التحرير والتنوير" ج11، ص 281.

[399]انظر الحديث في السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني برقم (2015).

أما ما يستحق التخمين فهو سر عداء الملاك جبريل الشديد لفرعون، وكراهته أن تدركه رحمة الله؟ وما ضرّه لو تركه؟! وما ضرورة أن يضع جبريل أو غير جبريل الطين الأسود في فم فرعون ليسكته عن الجهر بالتوبة والإنابة إلى الله، كما لو أن الله لن يعلم ما يطوف في قلب الغريق المتجبر حتى لو فعل به جبريل الحانق ذلك؟!!!

أين هذا من مشكلة هامان؟

لا نملك إجابة ناجزة تطمئن إليها النفس بشكل كامل، ولكننا رغم ذلك نملك حدسًا نرجو له الصواب؛ لأننا لم نجد شيئًا فيما قرأناه من حلول لتلك المشكلة يستقيم مع ما نعرفه بل ما نراه يعد أمرًا بدهيًّا، وهو أن النبي لم يكن ليضطره شيء ليجعل من هامان أو غير هامان وزيرًا لفرعون، ويصرح باسمه في قصة من قصص القرآن إلا لو كان قد بلغه شيء من ذلك وهو ما سوف نفترضه متهيبين!

لأننا إذا تجاوزنا كل ما جاء في تلك القصة المسفة والتفتنا فحسب إلى ما فعلته إحدى تفاصيل الرواية التلمودية بفرعون، فلربما وجدنا فيها ما يمكن أن نعده حلا لمشكلة هامان القرآنية!

فهل من البعيد حقا أن يكون خلف قصة هامان القرآنية قصة تلمودية أخرى لم تصلنا، وفعلت الصنيع ذاته لكنها فعلته بطريقة معاكسة؟ أي أنها على خلاف صنيعها هنا بأن نقلت فرعون إلى ما بعد زمنه بقرون بعيدة، وجعلت منه ملكًا في زمان ومكان مختلفين، وأما تلك الرواية المفترضة فلعلها قذفت بهامان وزير أحشويرش متقدما عن زمانه بقرون، وجعلت منه وزير فرعون مصر، كما لو أنها كانت تريد أن تجعل منه مستشار الملوك الطغاة من معذبي شعب الرب، ومدبر المكائد الأزلي لبني إسرائيل منذ أقدم الأزمان؟! فهل هذا أمر غريب؟!

وهذا أمر ليس بغريب ولا بعجيب؛ لأننا نجد في التوراة نفسها شيئًا يشبه هذا على نحو ما، فكما يعلم كل قارئ لسفر التكوين أن إبراهيم قد أسلم امرأته لملك جرار أبيمالك، ناسيًا ما كان من توبيخ فرعون مصر اللاذع له من قبل على قلة مروءته وكذبه، وكما يعلم القارئ بالطبع فقد حفظ الله لإبراهيم امرأته من الدنس الملكي، وردها عليه سالمة مصونة من فراش هذا وذاك، ولكن هل يتذكر القارئ الكريم من بين كل ملوك الأرض

سيطلب من إسحاق بن إبراهيم المفضل الذي لم يكن قد ولد عندما ضم أبيمالك أمه العجوز الحسناء المئوية أن يعطيه امرأته؟ إنه أبيمالك ملك جرار ذاته وبشحمه ولحمه! ولأن الولد سر أبيه، فقد أعطى إسحاق لأبيمالك زوجته (رفقة) بعد أن أوصاها أن تقول لهذا الملك بعينه أنها أخته، وليست زوجته خشية أن يوقع به الرجل الأذى رغم ما نتوقعه من علم إسحاق بأن أبيمالك ومن قبله فرعون قد وبخا أباه إبراهيم على تلك الفعلة القبيحة، وأنه لم يكن ما يخشاه منهما، ولكن ويا للسآمة ويا للضجر! فبعد أن اكتشف الملك أن رفقة لم تكن سوى حليلة إسحاق بعد أن صادف ورأى أبيمالك إسحاقَ وهو يداعب رفقة مداعبة خشنة لا يفعلها رجل مع أخته، وعلم أبيمالك من تلك المداعبة أنها ليست ابنة أمه أو ابنة أبيه؛ فقد ردها إليه مع التقريع ذاته لتلك الأسرة التي كما كانت تتوارث الحظوة عند الرب، تتوارث في الوقت عينه قلة الرجولة وضعف المروءة.

هل ما قلناه هنا أمر معقول؟ إننا نراه أفضل كثيرًا من قول الشانئين المبغضين بجهل النبي بالأسماء والأزمان، وذلك لأن هذا الجهل المزعوم ما كان ليضير النبي في شيء، بل نرى أن هذا التفسير أفضل أيضًا من تلك الافتراضات الاعتذارية المتكلفة التي افترضها المدافعون عن القرآن؛ لأنها في الحقيقة لا تقنع أحدًا!

قصة قارون

أما قصة قارون القرآني فهي أوضح قليلا في تفسيرها من قصة هامان الذي لم نعرف عنه شيئًا من القرآن سوى اسمه، وإن كانت تشتمل أيضًا على بعض من معالم طريقة التعامل النبوي مع القصص الكتابي، ولهذا سنقف عندها برهةً.

لا خلاف على أن قارون القرآني كان هو بعينه (قورح) الكتاب المقدس، الذي جاء ذكره في سفر (العدد) ومعه الأخوان (داثان وأبيرام)؛ حيث كان هؤلاء الثلاثة هم زعماء ذلك التمرد الخطير على زعامة موسى، ولكن الله تدخل مباشرة مؤيدًا حق نبيه وعبده موسى في قيادة شعبه الحبيب، وأوحى إلى الأرض أن تنشق وتبتلع رءوس الفتنة الثلاثة هؤلاء، وتكفلت النار التي خرجت من عند الرب بأتباعهم المائتين والخمسين كما جاء في سفر العدد (الإصحاحان: 16، 26).

أما قارون القرآني الذي رأيناه جليس فرعون ومستشاره فقد أورد القرآن إشارات عدة إلى سوء مصيره، ثم جاءت قصته مرة واحدة في سورة القصص على هذا

النحو:*إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾*(القصص: 76–82).

أما قورح التلمودي فقد جاءت قصته في الأساطير التلمودية على نحو لا يشك معه القارئ أبدا في أنها كانت أساس قصة قارون القرآني، فمثلا إذا كانت التوراة لم تذكر لنا شيئًا عن علاقة قورح بفرعون كما فعل القرآن الذي جعل من قارون جليسًا لفرعون، ومن خاصة ملئه، فقد فعلت الرواية التلمودية هذا من قبل، وكانت هذه الحكاية التلمودية هي أيضًا مصدرًا لبعض التفاصيل التي جاءت عنه في القرآن مثل تلك المبالغة السخيفة في وصف ثراء قارون، وإن حاول القرآن أن يخفف من تلك المبالغة دون أن يفلح في جعلها رغم ذلك معقولة أو مقبولة؛ حيث جعل من مفاتح خزائن قارون ما تنوء بحملها العصبة أولو القوة!

وقد زاد المفسرون والشراح وأفاضوا في منحنا تفاصيل تلك المبالغة العجيبة في ثراء قارون وجسامة ثرائه كما يقول لنا هذا النقل من القرطبي، الذي يفيدنا أيضًا في

معرفة المسلمين ببعض أصداء تلك المرويات التلمودية وإن سمتها الإنجيل: "وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعُصْبَةُ هُنَا مَا بَيْنَ الْعِشْرِينَ إلى خَمْسَةَ عَشَرَ. وَعَنْهُ أَيْضًا: مَا بَيْنَ الْعَشْرَةِ إلى الْخَمْسَةَ عَشَرَ. وَعَنْهُ أَيْضًا: مِنْ عَشَرَةٍ إلى خَمْسَةٍ. ذَكَرَ الْأَوَّلَ الثَّعْلَبِيُّ، وَالثَّانِيَ الْقُشَيْرِيُّ وَالْمَاوَرْدِيُّ، وَالثَّالِثُ الْمَهْدَوِيُّ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالْحَكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا. السُّدِّيُّ مَا بَيْنَ الْعَشَرَةِ إلى الْأَرْبَعِينَ. وَقَالَهُ قَتَادَةُ أَيْضًا. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَرْبَعُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سَبْعُونَ. وَهُوَ قَوْلُ أَبِي صَالِحٍ إِنَّ الْعُصْبَةَ سَبْعُونَ رَجُلًا، ذَكَرَهُ الْمَاوَرْدِيُّ. وَالْأَوَّلُ ذَكَرَهُ عَنْهُ الثَّعْلَبِيُّ. وَقِيلَ: سِتُّونَ رَجُلًا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَالتِّسْعَةِ وَهُوَ النَّفَرُ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: عَشَرَةٌ لِقَوْلِ إِخْوَةِ يُوسُفَ "وَنَحْنُ عُصْبَةٌ" وَقَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقَالَ خَيْثَمَةُ: وَجَدْتُ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ قَارُونَ وَقْرُ سِتِّينَ بَغْلًا غَرَّاءَ محجلة، وأنها لتنوء بها من ثِقَلِهَا، وَمَا يَزِيدُ مِفْتَحٌ مِنْهَا عَلَى إِصْبَعٍ، لِكُلِّ مِفْتَحٍ مِنْهَا كَنْزُ مَالٍ، لَوْ قُسِمَ ذَلِكَ الْكَنْزُ عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ لَكَفَاهُمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتِ الْمَفَاتِيحُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ. وَقِيلَ: مِنْ جُلُودِ الْبَقَرِ لِتَخِفَّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحْمَلُ مَعَهُ إذا رَكِبَ عَلَى سَبْعِينَ بَغْلًا فِيمَا ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ. وَقِيلَ: عَلَى أَرْبَعِينَ بَغْلًا. وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ. وَعَنْهُ أَيْضًا: إِنَّ مَفَاتِحَهُ أَوْعِيَتُهُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ[400]". ولكن مبالغات المفسرين المسلمين تهون إلى جانب تلك المبالغة التلمودية السمجة كما يقول هذا النص: "وكان قورح خازن فرعون وكان لديه من الكنوز ما جعله يستخدم ثلاثمائة بغل أبيض لحمل مفاتيح خزائنه[401]".

أما عن مصدر تلك الثروة الأسطورية وكيف حصلها رجل عبري كان يعمل مستخدمًا لفرعون فإن الرواية التلمودية لا تتورع في جعله ناهبًا لخبيئة ملكية ظلت خافية على المصريين لقرون وقرون، وانتهبها هذا اللص العبراني، حتى إننا يمكننا أن نعده لص الآثار الأول في التاريخ! "وكان قورح قد اكتشف أحد المخابئ الثلاثة التي كان يوسف قد أخفي فيها كنوز فرعون في سني الجدب والمجاعة فاستولى على الكنوز وصار يتعالى على الناس[402]".

[400] "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1964 م، ج13، ص 313.

[401] "أساطير اليهود"، ج3، ص293.

[402] المرجع السابق، ج3، ص 293.

كما هي الحال دائما، فالثروة لا تكتفي إلا بأن تجمع إلى نفسها السلطة أيضًا؛ فلم يكتف قارون بتلك الثروة الخرافية، بل نَفِسَ على موسى زعامته، وحسده على مكانته، وطمح إلى التسلط على بنى إسرائيل كما تقول القصة التلمودية، ولكن القرآن لا يشير إلى شيء من هذا، بل جعل من قارون مجرد أمثولة لما تحدثه الثروة من بطر ومن طغيان، ورغم هذا فنرجو ألا نكون قد ذهبنا بعيدًا إذا قلنا إننا نحدس بأنه كان خلف تلك القصة الأمثولة أثر مما كان بين النبي وأغنياء مكة ومترفيهم الذين استعظموا أن يهب الله النبوة من بينهم لرجل فقير، ويترك أهل الشرف والغنى من قبيل ما حكته كتب السيرة من قول الوليد بن المغيرة حيث تعجب مندهشًا: "أينْزل عَلَى مُحَمَّدٍ وأترَك وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وسيدُها! ويُترك أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عُمير الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، وَنَحْنُ عَظِيمَا الْقَرْيَتَيْنِ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى فِيهِ، فِيمَا بَلَغَنِي:*وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢*(الزُّخْرُف: 31–32)، ولربما ما جاء عن قارون في القرآن من ادعائه أنه حصل ثروته بعلم عنده، كان صدى بعيدًا لما جاء في المرويات التلمودية عنه من أنه كان نبيًّا، وإن بالمعنى العام للنبوة عند العبرانيين، أي القدرة على النفاذ ببصره عبر غيوب المستقبل ورؤية ما فيه، لكن القرآن يجعل منه ما يشبه أن يكون كاهنًا مدعيًا:"وخاب ظنه وخدعته نبوته... فقد رأى بعين نبوته أنه سيكون من ذريته صموئيل النبي الذي هو أعظم شأنًا من موسى وهارون معًا، وظن أن الرب لن يسمح بهلاك جد نبي عظيم كصموئيل، لكنه لم يكن يعلم أن الرب سيهلكه بذنبه، وأن بنيه سيتوبون من بعده فيمنحهم الرب نعمته".

على الجملة، فقد جاءت الرواية القرآنية عن قارون ترجمة إسلامية محمدية لتلك القصة التلمودية الخرافية، وإن جاءت كالعادة في سياق قصصي مكثف يشع بالتأمل وحافل بالدلالات الأخلاقية الراقية، كما تقول بهذا الآيات الختامية الجليلة التي تعقب على تلك القصة، ودون أن يخفى على أحد بأن هذا الصوت المبارك كان هو ذاته من يترجم عن الرؤية المحمدية، وعن تصورها لله وللتاريخ على طول القرآن وعرضه،

ولكن معالم الرؤية المحمدية قد جاءت هذه المرة على ألسنة الراسخين في العلم من قوم قارون. ومن أوضح معالم الرؤية المحمدية فيها أن الله لا يحب الفرحين المختالين، واستحسانهم ذلك التوسط والاعتدال اللطيف بين رغائب الدنيا وما يقتضيه التطلع إلى الدار الآخرة، وكذلك ما نجده من وعظهم قارون بألا يغتر بقوته، وأن يتذكر مصائر أهل القرون الهالكة التي كان من بين أفرادها من كان أشد منه قوة وأعظم ثراء، ولا ضرورة لأن نكرر ما قلناه، من أن شيئًا من هذا كان ليجري على لسان أحد من قوم موسى ولا على لسان موسى التوراتي نفسه، فلم يكن موسى التوراة يصدر عن شيء من أمثال تلك المفاهيم الدينية الراقية، ولكن تلك المفاهيم قد حضرت تدريجيًّا إلى عقائد اليهود على هذا النحو أو ذاك، وأوصلها النبي محمد إلى تلك الذروة الشاهقة من المفاهيم السامية.

أصل قصة مؤمن آل فرعون

"لقد ذكرنا أن هناك قصصًا دينية كثيرة كانت شائعة بين جميع يهود المعمورة تتداولها الألسن ويتناقلها الخلف عن السلف دون أن تكون مدونة في مصنف أو مثبتة في كتاب، ولا شك أن يهود بلاد العرب كان لديهم من هذه القصص مثل ما كان لدى غيرهم، وكان كعب أحد أعلام اليهود في بلاد اليمن قبل اعتناقه الإسلام فهو بلا شك عارف بهذه القصص، واقف على دقائقها وتفاصيلها، وقد قص منها ما شاء أن يقص بعد أن اعتنق الإسلام فأثبتت في المراجع الإسلامية ولم تثبت في المراجع اليهودية، بل ضاعت هناك مع ضياع المراكز الدينية اليهودية في بلاد العرب [403]".

أما بطل هذه القصة مؤمن آل فرعون فلا نشك في أن خلفها قصة تلمودية لم تصلنا فما كان النبي، حاشاه، ليختلق قصة ليوردها في القرآن[404] بل كانت كما نعتقد

---

(403)"كعب الأحبار" إسرائيل ولفنسون أبو ذؤيب، مكتبة الشرق التعاونية، شعفاط القدس 1976م، ص 75 و76.

(404)يقول الأستاذ الجابري: "لا أثر لهذا الرجل المؤمن في التوراة، فعظته ليست مما يدخل في أفق التوراة، وقد سبق أن قلنا إن الحوار الذي يجريه القرآن في القصص وغيره يقصد به دلالته العامة التي تنطبق على وضعية النبي مع قريش ووضعيات الأنبياء عمومًا مع أقوامهم. هذا والجدير بالإشارة هنا أن كلام هذا الرجل الذي صاح في وجه فرعون وملئه: *أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله* يذكرنا بما حصل للنبي (ص) مع قريش حينما قام أبو بكر لمناصرته فقد خاطب قريشًا بمثل ذلك"، انظر : مدخل إلى القرآن ص 355 و356. وساق الأستاذ الجابري ما رواه كتاب السير عن تلك الحادثة المشهورة وخلاصتها أن بعض المشركين قد نالوا من النبي عليه السلام لما بلغهم عنه من سب آلهتهم وانتقاصها فجاء أبو بكر واستنقذه من بين أيدهم وهو يردد تلك الجملة.

قصة تلمودية بلغته، وكانت تحكي عن رجل مؤمن مزعوم من حاشية فرعون وقد قام في تلك القصة المجهولة بمثل هذا الصنيع؛ أي على نحو مقارب لما أورده القرآن، أما ما أضافه النبي إليها فهو لا يخفى على أحد، فقد أضاف إليها ما افترض صادقًا أنه جرى على لسان الرجل الصالح من ذكر مصير قوم نوح وعاد وثمود، وهو ما لم يكن ليحدث بداهة في القصة التلمودية المفترضة؛ لذا فيمكننا القول: إننا كما يمكن أن نرد بعض الروايات القرآنية إلى ما نعلمه من قصص التلمود التي بلغتنا وسجلت عند اليهود، فهذا المثال الذي معنا يصلح كذلك لأن تسترد المرويات التلمودية بعض ما ضاع منها إلى الأبد عبر استخراجه من القرآن ودراسته لمعرفة بعض ما كان شائعًا عند يهود العرب بشكل خاص (405).

أما عن المفردات الإسلامية في قصة مؤمن آل فرعون، فهي أوضح من أن يشار إليها، ولكننا سنعرض باختصار لما نعرف أن له أصلا قريبا في المرويات التلمودية، لكن النبي قد أوصل تلك المفاهيم إلى كمالها؛ حيث كان يوقن في نفسه أنه لم يكن يعبر بما جاء في القرآن إلا عن صحيح الاعتقاد الذي سبقه إليه جميع الأنبياء والمرسلين، ومن بينها ما جاء في هذه القصة من مفاهيم: فنجد في البداية موسى يستعيذ بالله من سوء فعال المتكبرين الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، وسنرى عند عرضنا لقصة يوسف كيف يستقيم هذا القول مع ما نعرفه من أن المصريين كانوا يؤمنون منذ أقدم العصور بالبعث والحساب وقبل أي أمة خلقها الله، ونرى هنا كذلك مفهومًا إسلاميًّا رائقًا، وهو أن الله

وما يظنه الأستاذ الجابري من اختلاق النبي لتلك القصة لتوظيفها في صراعه مع قومه هو قول غير صحيح، وتقدير غير سليم، إنما كل ما يمكن أن نخرج به من تلك القصة إن صحت هو أن النبي قد استفاد لا شعوريًّا من قول أبي بكر، وجعله من كلام عموم المؤمنين لتعضيد الأنبياء ومناصرتهم في وجه الكفار الجاحدين، ولا يبعد في ظل عدم معرفتنا بزمن وقوع تلك الحادثة، إن وقعت، أو زمن نزول السورة أن يكون أبو بكر هو من تمثل بقول المؤمن الصالح، لا أنه كان هو منشئ تلك العبارة التي يشير الجابري إلى استخدام النبي لها في قصة مؤمن آل فرعون، خاصة أنها من الناحية التعبيرية ليست مما يجري مثله بسهولة على ألسنة الناس! وأيضا أننا نجد رواية تقول بأن أبا بكر قد تمثل لهم بالآية كلها مما يترجح معه أن القصة القرآنية قد سبقت تلك الواقعة. راجع: ج1، ص 105، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2004م. ولنا عودة إلى رأى الأستاذ الجابري.

(405) ما نقوله عن هذه القصة يصلح أيضا لأن يقال عن قصة سحرة فرعون، وليس ببعيد أن يكون من بين ذلك أيضًا تلك الأحاديث النبوية العجيبة التي تقول بأن القبائل العشر المفقودة من بني إسرائيل قد مسخت وصارت ضبابًا أو فئرانًا، فلربما كان من خلف تلك الأحاديث قصص تلمودية متأخرة كانت تترجم عن عداء كتاب تلك الأساطير وهجائهم تلك القبائل اليهودية الضائعة، معتمدًا على ما شاع مثلا بارتدادها عن دينها وانصهارها في محيطها الجديد، وإلا فكيف فنيت تلك القبائل إلا بتخليها عن هذا الرابط الوحيد الذي كان يفصل بين العبرانيين وسواهم من شعوب تلك المنطقة؟ وسنعود إلى تلك القصص وأمثالها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

مصدر الهداية الروحية جميعها، وأنه لا سبيل إلى الرشاد إلا لمن قدر له الله الرشد والسداد، وأما من قضى الله عليه بالضلالة، فلن يجد له من دون الله وليًّا مرشدًا (الرعد 33)، (الزمر 23)، ونجد كذلك تفسيرًا لمراد الله في خلقه وعدله فيهم، وأن المرتابين الكاذبين لا نصيب لهم من هدى الله؛ لأن الله لا يهب هدايته إلا لمن يستحقها، فالله لا يهدى الظالمين (البقرة 285)، ولا يهدى القوم الفاسقين (التوبة 80)، والله لا يهدى كيد الخائنين (يوسف 52)، والله لا يهدى من هو كاذب كفار (الزمر 3) إلخ، ونجد كذلك ذكر الجنة والنار، ولا يخفى على أحد أنه ما من ذكر للجنة أو النار عند موسى، ونجد صفات الله كما يذكرها القرآن مثل أن الله: (بصير بالعباد) وأن الله هو: (العزيز الغفار)، ونجد بعض المفاهيم التاريخية الخاطئة مثل الاعتقاد بأن المصريين وإن كانوا يعبدون الله لكنهم كانوا يشركون معه آلهة أخرى مثلما كان يفعل عرب ما قبل الإسلام، ونجد المصريين كذلك يؤمنون بالرسالات الإلهية، ويقرون بأن الله قد أرسل فيهم نبيه يوسف، لكنهم لم يتابعوه مخلصين بل كانوا شاكين مرتابين، أو كما يقول بعض المفسرين من أن المصريين إنما تابعوا يوسف بألسنتهم مرائين له بسبب منصبه ووزارته كما فعل المنافقون في المدينة [406]!

ونجد أيضًا قانون الحساب الإلهي كما في القرآن من مجازاة السيئة بمثلها ومضاعفة الحسنات لمن يشاء، ونجد أيضا تقييمًا إسلاميًّا واضحًا لقيمة الحياة الدنيا وقليل غنائها، وأمثال ذلك المعنى لا يكاد يحصى في القرآن، وفي الأحاديث الصحيحة (النساء77)، (الأنعام 32)، (الرعد 26)، (القصص 60)، ونجد كذلك هذا الوصف لحال الكافرين في الآخرة، وكيف يفرون مذعورين مما يذكرنا بما صوره القرآن مرارًا عن حال الكافرين في الآخرة، لكنه يأتي هنا على لسان المصري الصالح، ونجد أخيرًا وصف حشود الكافرين الضالين بالأحزاب كما جاء مثله في (هود 17)، وفي الجملة فقد جاء على لسان هذا المصري الصالح جميع ما أتى به القرآن، وعلى كل حال، فهذا ما نعتقده عن نصيب تلك القصة من الصحة التاريخية.

أما من يريد أن يقرأ قصة مؤمن فرعون كقصة حقيقية حدثت حقا وصدقا على هذه الأرض، ومن أراد أن يصدق أن ذلك الرجل الذي أجرى القرآن على لسانه جميع مفردات عقيدة النبي محمد، وجعله يذّكر قومه المصريين بمصائر أقوام لم يوجدوا إلا

[406]"مختصر تفسير ابن كثير" الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1981 م، ج2، ص244.

بعد سقوط آخر أسرة فرعونية بزمن بعيد كان شخصًا حقيقيًّا؛ فليرجع إلى كتاب يقول صاحبه بمثل هذا[407]، ولسوف يجد هناك العجب العجاب من تفسير تاريخ المصريين ومعرفة عقائدهم بالرجوع إلى الطبري وإلى المؤرخين المسلمين، وسيعلم أن اسم فرعون مصر هو الوليد بن الريان، وأن خليفته كان مصعب بن الوليد بن الريان، وكيف تبنت الملكة نفرتاري موسى رضيعًا وربته، رضي الله عنها، في حجرها الملكي، ثم يستخرج لنا بعد مغامرات لا تنتهي اسم ذلك المؤمن الصالح؛ فإذا به الأمير (برامون) بن (خغ مواست) بن (آسيا بنت مزاحم!) ملكة مصر، وزوج فرعون وأم موسى بالتبني.. إلخ، فليرجع إليه من شاء، ولنرجع إلى مقصودنا.

سابعا: هل عرف المصريون حقا قصص نوح وعاد وثمود؟

من يقرأ كتب المفسرين والمؤرخين المسلمين فسيجد أنه لم يغب عن بعضهم دلالة ما بلغهم من غياب أي أثر لقوم عاد وثمود في التوراة، وكيف حاروا في تفسير هذا الغياب غير المفهوم؛ لأنهم كما أيقنوا بصحة تاريخ حضور عاد وثمود قبل إبراهيم أو على أضعف الإيمان قبل موسى، ومن ناحية أخرى فقد اعتقدوا موقنين في الوقت ذاته بأن موسى التوراة لم يكن يختلف في قليل ولا كثير عن موسى القرآن؛ فلماذا إذن لم يجرِ لهم ذكر على لسان موسى؟

لعل في هذا النقل عن صاحب المفصل ما يعبر عن تلك المشكلة عند هؤلاء الأقدمين وما يفسر غيابهم في الوقت ذاته عنده، وعند عامة المؤرخين المحدثين: "فقد أورد الطبري ملاحظة مهمة عن قوم عاد وعن رأى أهل الكتاب فيهم إذ قال (فأما أهل الكتاب فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود ولا لصالح في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم في قومه)، ويظهر من ذلك أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم علمهم عن عاد وثمود أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة، والواقع أن التوراة لا علم لها فيهم؛ فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية، تحدث بها الجاهليون، وليس لها ذكر في كتب يهود، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة، وأوجدوا لها صلة ونسبًا بأسماء أعيان وردت في التوراة، ولكن عملهم هذا لا يخفي بالطبع على من له وقوف على التوراة وأكثر هذه

[407] "مؤمن آل فرعون حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح" د. الشفيع الماحى أحمد، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1999م.

الأقوام أقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة؛ عاشت بعد الميلاد في الغالب، ولعل منها من عاش إلى عهد غير بعيد عن الإسلام، ثم إن التوراة والكتب اليهودية لم تهتم إلا بالشئون التي لها علاقة بالعبرانيين وهي ليست كتبًا في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل، أما بقاء أخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة أهل الأخبار فلأنهم عاشوا بعد الميلاد، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام ومع ذلك فقد أخذت أخبارهم طابع القصص والأساطير[408]".

الحقيقة الواضحة، كما نعتقدها، إن المصريين لم يعرفوا شيئًا قط عن قصة نوح وطوفانه، وذلك لسبب هو الغاية في الوضوح والبساطة، وهو كيف يعرف المصريون قصة أسطورية اقتبسها كاتب سفر التكوين من الأساطير العراقية القديمة، ودونت في العهد القديم بعد مئات السنين من زمن موسى؟ وحتى إذا ما افترضنا معرفة المصريين بتلك القصة فلا نشك أنهم كانوا سيتلقونها كطرفة مسلية لأن زمن حدوث هذا الطوفان المزعوم يكذبه تاريخ المصريين أنفسهم، الذي امتد متصلا دون انقطاع من قبل زمن الطوفان الأسطوري بمئات أو حتى بألوف السنين. أما عن معرفة المصريين بقصة عاد وثمود، فلنا من باب أولى أن نوقن بأنهم لم يعرفوها كذلك، وما كان لهم أن يعرفوها، وأنَّى لهم أن يعرفوا شيئًا عن قصة جاء أبطالها بعد زمن المصريين وزمن موسى بمئات السنين؟ فكما علمنا فلم تأت تلك القبائل العربية البائدة إلا قبيل الميلاد بعدة قرون أوربما بعده أيضًا، فكيف يعرفها المصريون من فم موسى أو رجل من أتباعه وموسى بدوره يردها إلى مئات السنين قبل وجوده.

أما عن تفسير وجودها في القرآن فالأمر بسيط للغاية لمن يريد أن يراه، فقد استلهم النبي قصة تلمودية عن رجل مؤمن من حاشية فرعون، ولكنه أضاف إليها ما استلزم صادقًا أن يكون من بين أقوال هذا الرجل المصري الصالح؛ فلم يكن معقولا عند النبي، وقد آمن كل الإيمان بمعرفة موسى وأتباعه بقصة نوح وعاد وثمود وسواهم من الأمم التي أهلكها الله بسبب جحودها وكفرها بأنبياء الله، ثم لا يجري على لسانه في هذا المقام، أي مقام التخويف والوعيد بعقاب الله، شيئا مما حدث لتلك الأمم السابقة.

على هذا، فلابد لنا من أن نقدر تلك السلسلة السببية الطويلة والمتينة، التي كانت عند النبي حقائق لا شك فيها، سواء ما كان منها عنده حقائق تاريخية أو ثوابت إيمانية،

[408]"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" ج1، ص300.

أو استنتاجات منطقية، وليس من قصة تجمع هذا كله خير من هذه القصة عن مؤمن آل فرعون، فقد آمن النبي إيمانًا جازمًا بوحدة الرسالات الإلهية منذ أن خلق الله الإنسان وكلفه بعمارة الأرض، وأيقن النبي بسبب تلك المرويات التلمودية أن جميع الأنبياء كانوا يعرفون ما يعرف، ويعتقدون ما يعتقد، وآمن النبي كذلك بنبوة هود وصالح كنبيين أرسلهما الله إلى تلك الأمتين العربيتين الهالكتين اللتين لم يجد لهما النبي موضعا في التاريخ إلا قبل زمن إبراهيم، ثم افترض النبي أن الله ما كان ليُضيع ويهدر دلالة (أيامه) في الناس والأمم سدى، فلا بد من ذكر تلك الوقائع على ألسنة الأنبياء اللاحقين على تلك القرون الهالكة بدءًا من إبراهيم وصولا إليه.

ولا نشك في أن النبي لو كان قد أطال ذكر سجال إبراهيم مع قومه لحذرهم إبراهيم صراحة من مصير أليم كمصير عاد وثمود، رغم أننا نؤمن بأن إبراهيم قد فعل ذلك أصلا كما سيأتي بيانه عند عرضنا لما جاء في صحف إبراهيم وموسى، ولا بد كذلك من ذكر مصير تلك الأمم بعامة وقصة قوم عاد وثمود على لسان موسى مباشرة، أو على لسان رجل مؤمن بموسى، ولو كان النبي محمد مؤرخا لقال: إني أفترض أن يكون شيء من هذا قد حدث، ولكن الروح النبوية لا تعرف أبدًا شيئًا اسمه الظن، بل إنها سرعان ما تحيل اعتقاداتها وفروضها المنطقية إلى حقائق شعورية، ثم تصفها بعد ذلك في يقين كامل.

أما عن اعتقاد النبي في معرفة موسى لجميع ما يعلمه هو، وكذلك ما نجده من مفردات الدعوة الإسلامية على ألسنة جميع الأنبياء فليس تفسيره بالأمر العسير، بل هو الغاية في البساطة والوضوح؛ إذ آمن النبي أنه لم يأت قومه إلا بما سبق أن جاء به الأنبياء والمرسلون جميعًا، وسوف نلقي نظرة على هذا الاعتقاد النبوي عبر عرضنا لما جاء في القرآن الكريم عن صحف إبراهيم وموسى.

ثامنا: صحف إبراهيم وموسى.

"أُصُولُ الدِّينِ كُلُّهَا مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ بِأَسْرِهَا، وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ كِتَابًا عَنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ *فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ* (الأَنْعَام: 90) وَلَيْسَ الْمُرَادُ فِي الْفُرُوعِ، لِأَنَّ فُرُوعَ دِينِهِ مُغَايِرَةٌ لِفُرُوعِ دِينِهِمْ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ[409]".

---

[409]"مفاتيح الغيب" للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ، ج29، ص 274.

سبق أن قلنا إننا لن نتكلم عن النبي إبراهيم وقصته في القرآن الكريم؛ لأن أغلب قصصه كما هو معلوم لا وجود لها في الكتاب المقدس، بل جاءت تلك القصص عن إبراهيم إلى القرآن من المرويات التلمودية المتأخرة، وكذلك لن نعرض قصة موسى لكثرتها سواء في القرآن المكي والمدني حتى حُق لمن قال :"كَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كله موسى [410]"، بل سنكتفي ببيان ما اعتقده النبي محمد عن هذين النبيين وأساس عقيدتهما في الله، بعرض ما أورده القرآن عن صحفهما، وما اشتملت عليه ففي ذلك الغناء والكفاية لما يستهدفه هذا الكتاب .

[410] الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1974م، ج1، ص 199.

نقطة البداية

وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ (طه: 133)

ربما كانت هذه الآية من أبكر الإشارات القرآنية التي أعلنت كفاية القرآن بذاته كمعجزة، وعدّه وحده برهانًا ساطعًا على صحة نبوة النبي محمد، ودليلا على صدق رسالته؛ فقد جاء القرآن مشتملا على زبدة تلك الصحف الإلهية الأولى وخلاصتها؛ لذا فهو البينة التي تغني عن كل بينة أو معجزة أخرى، فما هيئة تلك الصحف الأولى التي اعتقد النبي أنه أتى بخلاصتها الوافية وما الذي اشتملت عليه: "أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان[411]".

أما عن صورة تلك الصحف فقد جاءنا هذا الحديث النبوي السابق، الذي يغنينا إن صحت نسبته للنبي عما سواه، ويفيدنا بأن تلك الصحف كانت في اعتقاد النبي على غرار القرآن من حيث الشكل، وأنها كانت تنزلات إلهية خالصة، وأنها أنزلت أو ابتدأ تنزلها على الأنبياء السابقين في شهر رمضان كذلك، ما يرجع الاعتقاد بقداسة هذا الشهر العربي إلى أقدم العصور. وربما كان من المهم أن نلاحظ أن تلك الصحف الموسوية قد جاءت في سور التنزيل الأولى، وقبل الإشارة إلى التوراة؛ حيث خلا القرآن المكي تماما من أي ذكر للتوراة، عدا إشارة واحدة جاءت في سورة الأعراف، وكانت عن حضور التبشير بالرسول الخاتم في التوراة والإنجيل معًا، ما يوحي بأن تلك الصحف كانت لدى النبي شيئًا مختلفًا عن التوراة على نحو ما، أي بقدر ما يكون الاختلاف بين الإجمال والتفصيل. لذا، فمن المعقول أن نفترض بأن تلك الصحف الموسوية كانت تشتمل في اعتقاد النبي على أصول الاعتقاد الأساسية التي جاء بها إبراهيم وموسى، وأنها كانت تطابق ما كان النبي محمد يدعو إليه قومه في تلك الفترة المبكرة من دعوته، ثم جاءت التوراة فيما بعد بالتفاصيل التشريعية، وأما عن صحف إبراهيم فهي لم تتجاوز ذلك قط؛ إذ لم يكن إبراهيم نبي تشريع لجماعة إيمان كبيرة كموسى.

---

[411]"السلسلة الصحيحة" للألباني، رقم (1575)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1995م - ج4، ص 104.

أما عن مضمون تلك الصحف الإلهية القديمة فلدينا من القرآن ما يكفي وزيادة لمعرفة ما اشتملت عليه تلك الصحف الإلهية القديمة؛ فمن بين آخر الإشارات القرآنية إلى مصدر متابعات النبي فيما جاء به تأتي (صحف إبراهيم وموسى) وقد جاءت مضامين تلك الصحف مجملة كما في هذا الموضع من سورة البقرة: *قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦* (البَقَرَةِ: ١٣٦)◉ ومثله ما جاء في سورة آل عمران: *قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤* (آل عِمۡرَان:84).

أما تفصيل ما حوته تلك الصحف فقد جاءت في سور النجم والأعلى والعنكبوت، وهن من أوائل ما نزل من القرآن، ولنبدأ أولا بسورة النجم: *أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥*.

"ثنا سعيد، عن قتادة، قوله *هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾* (النَّجم: 56) حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال إنما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بما بعث الرسل قبله(412)".

وبالنسبة إلى هذه الآيات السابقة من سورة النجم فإنه يغلب على ظننا أن هذه الآيات جميعها تنقل بالحرف أو بالمعنى ما جاء في صحف إبراهيم وموسى إلى قوله تعالى: *فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾*، حيث يلتفت الخطاب بعد ذلك إلى النبي محمد، ولو صح هذا ولا نرى شيئًا من القرآن يناقضه، بل بمثله قال كثير من أكابر المفسرين، لاتسع لنا المجال لنتعرف إلى أي إرث من المفاهيم الاعتقادية السامية ظن النبي محمد أنه ينطلق منها، ويكملها اعتمادًا على المرويات التلمودية المتأخرة التي نسبت إليهما وإلى غيرهما من الأنبياء جميع العقائد والمفاهيم الدينية التي اعتقدها اليهود المتأخرون قبيل زمن المسيح وبعده بقرون عدة.

وفق ما تنص عليه هذه الآيات السابقة، فقد كان إبراهيم وموسى إذن يؤمنان بما آمن به النبي محمد من المسئولية الشخصية الكاملة للإنسان عن أفعاله، وأنه ليس له إلا ما سعاه وقدمه من أعمال، ثم سيكون الجزاء في الآخرة وفاقًا لما قدمه المرء في الدنيا خيرًا كان أم شرًا، وأن إلى الله وحده المآب والمرجع والمصير، وأن جميع الأفعال حلوها ومرها من قضاء الله ووفق تقديره؛ فبيده سبحانه الحياة والموت، ومن تقديره السعادة والشقاوة، والغنى والفقر، وأنه رب النجوم كلها، ما عُبد منها، وما لم يُعبد، وليس من الغريب في شيء أن يعرف إبراهيم وموسى ما كان من مصائر قوم نوح وعاد وثمود، خاصة إذا تذكرنا ما سبق أن قلناه من أن القرآن يجعل موسى يعرف مصير قوم عاد وثمود كما جاء في سورة إبراهيم، وما نص عليه القرآن بوضوح أكبر من أن المصريين كانوا يعرفون قصصهم جميعًا كما جاء في سورة غافر كما أوضحنا في الصفحات السابقة، وأما إبراهيم وقد جاء في الترتيب الزمني بعد عاد وثمود بمدة يسيرة؛ فلابد من أنه كان يعرف أخبارهم، وما حاق بهم، دع عنك قرى (المؤتفكات) فقد استشير إبراهيم بشأنهم، وجادل الله في مهلك قوم لوط؛ لذلك فلا غرابة أبدًا أن تأتي تلك الآيات كلها على لسان إبراهيم وموسى.

(412)"جامع البيان في تأويل القرآن" لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2000 م، ج22، ص 556 .

سورة الأعلى

"ثم بين أن الأصول العامة التي جاءت في هذه الشريعة هي بعينها التي جاءت في جميع الشرائع السماوية فقال *إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾* أي إن ما أوحى به إلى نبيه من أمر ونهى ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره، وتتعدد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يأت إلا بما جاء في صحفهم، وإنما هو مذكّر أو محي لما مات من شرائعهم[413]".

إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ختمت سورة الأعلى بهاتين الآيتين دون أن نعلم منها يقينا هل أن جميع ما جاء في السورة من تلك الصحف أم أن المقصود به هاتان الآيتان منها خاصة: *بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾* (الأَعۡلَى: 16–17).

إذا كان بعض المفسرين يظن أنها تشير إلى هاتين الآيتين فقط؛ لأن مطلع السورة خطاب مباشر إلى النبي، فإننا نرى أن السورة كلها تورد بالمعنى جميع ما اعتقد النبي أنه كان حاضرًا في تلك الصحف الإلهية القديمة التي نسبها إلى موسى وإبراهيم، ومن ينظر فيما أورده القرآن الكريم على لسان موسى في مجادلته لفرعون لوجد المعاني ذاتها التي جاءت في سورة طه: *قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ

(413)"تفسير المراغي"، محمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1946 م، ج30، ص 129.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾* (طه: 49–55).

وسواء أكان هذا أم ذاك فيكفي هنا أن نعرف بأن هذا الملمح القرآني الخالص من حسبان الآخرة هي الدار الباقية، وأنه يجب على العاقل أن يؤثر ما يبقى على ما يمر ويفنى، قد رده القرآن إلى ذلك الإرث النبوي القديم مما أوحاه الله إلى إبراهيم وموسى، ولسنا بحاجة إلى ذكر أن إبراهيم وموسى لم يجر على لسانيهما ذكر الآخرة أصلا .

سورة العنكبوت

* وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ

ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾*(العَنكَبُوت: 16–26).

"والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل لقومه يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله (فما كان جواب قومه) والله أعلم[414]".

وهو ما يمكن إلحاقه بمجمل تعاليم إبراهيم هذه الآيات السابقة من سورة العنكبوت، وإذا صح عدًّ جميع تلك الآيات من أقوال إبراهيم، وهذا ما رجحه كثير من المفسرين، ويدل عليه سياق الآيات؛ لأننا نجد في ختامها رد قوم إبراهيم على كلامه وجوابهم عليه؛ لذا فمن غير المقبول أن يتوسط كلام إبراهيم ورد قومه عليه بكلام مقحم بينهما، إذن لو صح هذا ونراه صحيحا، لوجدنا أن النبي يمنح معالم دعوته كاملة لإبراهيم. فهنا نجد الدعوة إلى تقوى الله وعبادته، وأن الأوثان ما هي إلا إفك مفترى، وأنها لا تملك لعابديها الضالين نفعًا ولا ضرًّا، وأنه يجب على الخلائق أن يلتمسوا عند الله وحده الرزق، ولا يستحق الشكر سوى الله، وإليه وحده المآب والمرجع، وأنهم إن كذبوه فقد سبقتهم إلى ذلك أمم كثيرة، في إشارة واضحة إلى تلك القرون الغابرة بينه وبين أخيه نوح، وأن الرسول، أي رسول، لا غاية له سوى إبلاغ رسالة الله إلى الناس، ثم يمضي إبراهيم مثل النبي محمد تمامًا في تأملاته عن البدء والإنشاء، وما يدل عليه من أن البعث والنشور من ميسور قدرة الله التي لا يحدها حد، ومن الدعوة إلى السير في الأرض للتعرف إلى مظاهر قدرة الله، وأن الله يرحم من يرحم من عباده بلطفه ورحمته، ويعذب من يشاء من عباده بعدله وحكمته، وأن البشر لن يُعجزوا الله، وليس لهم من دونه مهرب ولا منجى، وأن الكافرين بآيات الله ولقائه ليس لهم نصيب من رحمة الله ومأواهم النار؛ حيث يلقون هناك ما يستحقونه من أليم العذاب، ثم نجد في ختام الآيات ما نعرف منه أن لوطًا كان من المصدقين بجميع ما أتى به إبراهيم قبل أن يهبه الله الحكمة والنبوة، والأهم من ذلك أننا نجد إبراهيم يحذر قومه من أنهم سوف يتحاجون في النار ويلعن بعضهم بعضًا مما يذكرنا بعشرات الآيات القرآنية التي تصور حال أهل النار وهم يتخاصمون ويتلاعنون فيها.

---

[414] تفسير ابن كثير، ص 1432.

على هذا، فيمكن لمن يقرأ هذه المقاطع الثلاثة من سور القرآن الكريم أن يجد فيها حقا خلاصة وافية لجميع ما أتى به القرآن، ولن نثقل على القارئ الكريم بإيراد مقابلاتها القرآنية فهي تتردد على طول القرآن وعرضه، ولكن وياللعجب فقد تمت نسبة كل هذا وبسخاء بالغ إلى نبيين قديمين لم يقولا شيئًا من هذا قط، ومن يطالع جميع أقوالهما في الكتاب المقدس لعلم أنهما ما كانا ليقولا أبدًا شيئًا من هذا الكلام في رفعته وجلالته، ولنا أن نقول هنا شبيه ما قلناه عن رسالة سليمان إلى ملكة سبأ، ورسائل النبي إلى ملوك وكبراء عصره، بأن النبي محمدا قد أعطى لإبراهيم وموسى ما اعتقد صادقا أنه تابعهم عليه!!

ما إذن صحف إبراهيم وموسى؟

الإجابة الواضحة، إننا لا نعلم شيئًا قاطعًا عن طبيعة ما كانت عليه هذه الصحف التي كانت تنسب إلى إبراهيم وموسى في زمن النبي محمد، ولكن ليس ببعيد أنها كانت رسائل منحولة نسبها كاتبها إلى إبراهيم وإلى موسى؛ لأنه ليس من المعقول أو المقبول أبدًا أن ينسب النبي إليهما شيئًا لم يكن موجودًا، سواء أعرف بما فيه واطلع عليه سماعًا أو قراءة عليه، أو لم يعرف عنه سوى اسمه. أما ما نعلمه ولا نشك فيه فهو أنه لا علاقة بين إبراهيم وموسى كما يتجليان في العهد القديم وما نسبه إليهما كاتب تلك الرسائل إن صح ظننا، فضلا عما أسبغه عليهما القرآن الكريم من أمثال تلك المضامين الاعتقادية الرفيعة.

لن يحتاج القارئ الكريم لكي يتثبت من هذا إلا إلى أن يقرأ الأسفار الأولى من العهد القديم، وأن يقرأ سورة واحدة من سور القرآن الكريم، حتى يتبين له الفارق البعيد في القضايا والمفاهيم الجوهرية في جميع ما يمكن أن يسمى دينًا، ولنكتفِ بذكر بعض ما جاء عنهما في القرآن من اعتقادات ومفاهيم؛ فإذا كان القرآن يجعل من إله موسى وإبراهيم إلهًا وربًّا للعالمين، فإن إله العبرانيين لم يكن يومًا ربًّا للعالمين، وإنما كان ربهم وحدهم دون سواهم من العالمين! ولا ينبغي أن يضيع القارئ وقته في البحث عن أقل إشارة في العهد القديم تقول بأن إله العبرانيين حدث أن اهتم ولو مرة واحدة بشئون الشعوب الأخرى، بل لقد خص هذا الإله العبرانيين وحدهم بمحبته وعدله، مبغضًا جميع أعدائهم، ومظهرًا في ذلك قدرًا عظيمًا من العنف الإجرامي، ومن التعطش للدماء، بل لقد حبذ كل مكيدة، وأوصى بكل إبادة، واسترذل كل شفقة. والخلاصة: إنه كان إلهًا

محليًّا عصبيًّا ضيق الأفق، فكان إله الجنود هذا في عيون عابديه إنما هو أقرب إلى صورة جنرال قومي مجنون، كل ما كان يبتغيه هو أن يغرس شعبه في أرض كنعان بعد أن يطرد منها أصحابها الحقيقيين، وأن ينصرهم على أعدائهم إن أرادوا أن ينازعوهم فيها، ويتشبثوا بأرضهم أو يخرجوهم منها، بوصفهم غزاة يريدون أن يأخذوا ما ليس لهم.

يكفي أن يتذكر القارئ تركيز هذا الإله المتهوس على قطعة الأرض الصغيرة القاحلة من هذا الكوكب، وألا ينسى أننا نتكلم عن عدة عشرات الألوف من البشر خصهم هذا الإله من بين ملايين البشر بكل ما خصهم به، ويكفي أن يقرأ جميع تلك الوصايا التي أوصاهم بها هذا الرب المحلي ليعلم أنها ما كانت أبدًا لتعكس شيئًا مما سماه إله القرآن ربَّ العالمين!

أيضًا إذا كان القرآن يجعل من إبراهيم وموسى نبيين من أنبياء الله، بل من أجل وأعظم أنبياء الله، فإن العبرانيين وإن عرفوا النبوة والأنبياء، فإنها لم تكن عندهم قط على ما جعله منها الإسلام؛ أي رسالة هداية وتعليم وبلاغ إلى العقل والضمير، وإنما كانت شيئًا دون ذلك بكثير كما سنرى.

إذا كان القرآن الكريم يجعل من موسى وإبراهيم يقرران على ذلك النحو الجليل المسئولية الشخصية للإنسان عن أعماله وأفعاله، وأنه سوف يحاسب على الصغير والكبير، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فإن العبرانيين وإن عرفوا الحساب والجزاء لكنهم عرفوه على نحو آخر تمامًا؛ أما أوله فهو أن الحساب كله هنا في هذه الحياة الدنيا، فليس من إشارة واحدة إلى آخره، وثانيها أنهم كانوا يؤمنون بالرب الغيور والنار الآكلة؛ حيث كان الأبناء يؤاخذون بذنب الآباء، وتوقع العقوبة بالخلف البعيد انتقامًا متأخرًا عن جنايات وآثام الآباء والأسلاف.

بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧(الأَعۡلَى: 16–17).

أما عن هذه الوصية الدينية التقوية التي تلخصها هذه الآية السابقة، والتي تحض على إيثار ما يبقى على ما يفنى ويذهب، فإن هذه النصيحة ليس لها من وجود في تعاليم إبراهيم، ولا أثر لها في دعوة موسى، بل ما كان لها أن توجد، وكيف توجد وليس من ذكر للآخرة أصلا عند إبراهيم ولا عند موسى؟!

يكفي أن يعود القارئ الكريم إلى الإصحاحين الثامن والعشرين، والتاسع والعشرين من سفر(التثنية) ليعلم مصداق هذا، وسيجد هناك أوفى تفصيل ربما في الكتاب المقدس كله لما تعاقد عليه الرب مع شعبه الحبيب من أن يؤمنوا به دون سواه من آلهة الشعوب الأخرى، وقد فصل هذان الإصحاحان ما وعد به الله شعبه إن أطاع تلك الوصية، وسيسمع بأذنيه زمجرة وعيد رب الجنود لشعبه إذا خالفوا وصيته، وساروا وراء آلهة الشعوب الأخرى وتركوه وحيدًا بلا عابدين.

أما عن الوعود الدنيوية فسيجد منها الكثير والكثير، بل سيجد هناك كل ما يمكن أن يغري إنسانًا هذه الدنيا هي منتهى آماله، وليس عنده بعدها من رجاء في شيء سوى ما ينتظره من الفناء والعدم، فقد وعد الرب من يتمسك بعبادته أن يبارك ثمرة بطنه وثمرة أرضه وثمرة بهائمه، وأن يبارك في سلته وفي معجنه وأن يملأ خزائنه، ويعطى مطر أرضه في حينه، ويجعل الرب أعداءه منهزمين أمامه، ويجعله مستعليًا على جميع قبائل الأرض ويبارك كل فعل يفعله (فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض) إلخ، أما من يخالف تلك الوصية، أواه، فهناك مئات اللعنات التي ستصب على رأسه وتحيط به أينما سار، فيكون ملعونًا في المدينة، وملعونًا في الحقل، وستحل اللعنة على ثمرة بطنه وثمرة أرضه، وسيرسل عليه الله جميع نقمه وسخطه، وسيضربه الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف والبواسير والجرب والجنون والعمى وحيرة القلب(415)، والأهم من ذلك أن يسلبه الله سريعًا نعمة الوجود العابر: "فتهلك وتفنى سريعًا من أجل سوء أفعالك إذ تركتني"، أما إذا سارت الجماعة كلها بعيدًا عن طريق الرب فهناك يسلط الله عليها الأمم الأخرى فتستذلها وتستعبدها: "ويردك الرب إلى مصر في سفن في الطريق التي قلتُ لك لا تعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيدًا وإماء، وليس من يشتري" هل هذا هو كل شيء؟ نعم هذا هو كل شيء!

أما ما كان يتوقعه القارئ من وعود نعيم الآخرة والتخويف من عذابها حسيًّا كان أو روحيًّا فإنه لم يحن الوقت بعد لظهور هذا المفهوم في الكتاب المقدس، وأن العبرانيين كانوا في هذا كغيرهم من الأمم جميعًا ما عدا المصريين لا يعرفون شيئًا سوى هذا

(415)هذا يذكرنا بما استنزله رؤساء الطائفة اليهودية على رأس إسبينوزا بعد أن غادر تلك النحلة البغيضة إلى غير رجعة، كاشفًا عن تناقضات العهد القديم. انظر نص قرار (الحرم) في كتاب: "قضايا وشخصيات يهودية"، جعفر هادي حسن، العارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، يناير 2011م، ص 272.

العالم، وما فيه من مباهج وأفراح، أو مصائب وكوارث، وأما العالم الآخر فليس عندهم جميعًا سوى مكان كئيب بغيض لا يجلب تخيله وتذكره لقلوب الأحياء سوى القتامة والأسى والكروب، لكن لا مهرب ولا منجى منه في النهاية، فهو مصير البشر جميعًا، صالحين كانوا أو طالحين، فهل يعني هذا أن النبي قد نسب إليهما ما يعلم أنه ليس لهما؟ كلا وحاشاه! بل الحقيقة إن النبي قد اعتقد صادقًا كل الصدق أنهما كانا يدينان بمثل تلك المفاهيم السامية التي بلغته مما شاع عنهما من الأدبيات والقصص التلمودية المتأخرة التي نسبت إليهما ما ليس لهما، لكنه فوق هذا قد سما بها عاليًا مما وجده في نفسه، حتى صارت إلى ما صارت إليه في القرآن الكريم.

المبحث الثاني

اولا: هود وقومه في القرآن الكريم.

ثانيا: النبي محمد وخصومه من خلف قناع هود ومعارضيه.

ثالثا: الرسالات الإلهية في القرآن بين العموم وبين الخصوص.

رابعا: أين إذن ذهبت عاد وثمود؟!.

خامسا: قوم عاد عند المفسرين والمحدثين.

سادسا: هل كان هود وصالح نبيين افتراضيين؟ .

سابعا: قصة صالح في القرآن الكريم.

ثامنا: قصة لقمان.

اولا: هود وقومه في القرآن الكريم.

أورد القرآن الكريم قصة هود مع قومه في ثماني عشرة سورة، وهى: الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الحج، الفرقان، الشعراء، العنكبوت، ص، غافر، فصلت، الأحقاف، ق، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الفجر، وجميعها كما ترى تنتمي إلى القرآن المكي ما عدا إشارة عامة عابرة جاءت في سورة التوبة. أما أطول المشاهد التي تستوفي قصة هود مع قومه فقد جاءت في ستة مواضع منها سنتوقف عندها قليلا لنستخرج منها معالم دعوة هود وأركان عقيدته في الله، وسنشير بعدها إلى دلالة تلك الإلماعات السريعة التي جاء معظمها في سور القرآن الباكرة بعد الفراغ من السور الأساسية.

من يتأمل في هذا الحضور الكبير لهود وقومه في القرآن، فلن يخفي عليه أنه كان يعبر عن كبير أهميته في سياق الدعوة الإسلامية الباكرة ربما أكثر قليلا من قرينه صالح، فقد احتفى النبي محمد كثيرًا بسابقه النبي العربي هود، ومنحه سورة سميت باسمه، رغم أن هودًا لم يكن فيها سوى نبي من بين الأنبياء الذين ملأت قصصهم صفحات تلك السورة، وسمى سورة أخرى بموضع قومه: (الأحقاف)، رغم ما اكتنف

هذا الموضع الذي سميت به تلك السورة من غموض وإبهام، واختصار قصته في تلك السورة، ولنبدأ بسورة الأعراف.

هود في سورة الأعراف

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ (الأَعْرَاف: 65–72).

يلاحظ في البداية أن القرآن الكريم يقدم هودًا كنبي ورسول من قوم عاد وإليهم، اتساقًا مع التصور القرآني العتيد عن ابتعاث الأنبياء في أقوامهم خاصة، ثم أخذ يفصل لنا قصته مع قومه: فنجد هودًا في البداية نبيًّا يدعو قومه إلى تقوى الله وعبادته وحده، وخلع ما كانوا يعبدون من دونه من الأنداد والشركاء، ونجد كالعادة أن (الملأ)؛ أي الأغنياء المتبطرين ذوي النعمة هم من يقودون المعارضة، ويتولون كبرها؛ فيصفون هودًا بالسفاهة ويتهمونه بالكذب في دعواه النبوة، ونجد هودًا ينفي عن نفسه السفاهة، بل يقدم إليهم نفسه كرسول من الله (رب العالمين)، وأن مهمته لا تعدو إبلاغ ما يريده الله من عباده، وأنه لهم (ناصح أمين)، ثم يذكرهم بأنه لا وجه للعجب في أن يصطفي

الله وفق حكمته البالغة رجلا من بين الناس ليرسله إليهم بكلامه ورسالته، ما يوحى بأن قومه كانوا يتعجبون من دعوى النبوة ذاتها، وسنرى أنهم كانوا مثل سواهم من الأمم المكذبة، إنما يريدون أن يرسل الله إليهم ملكًا من الملائكة لا رجلا من بين الناس، ونجده يذكرهم بفضل الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وهي إشارة قرآنية واضحة في أن عادًا كانت أول أمة أشركت بالله بعد قوم نوح، وأن الله قد خصهم من بين الأمم حولهم ببسطة في الجسم، كما سيخص الله (طالوتًا) بتلك الهبة على من حوله من آحاد الناس في عصره.

وعلى هذا، فلا بد من أنهم كانوا عمالقة أشداء، ونجد الملأ يعودون لرفض دعوته لهم لتوحيد الله والتبرؤ من تلك الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها إلى جانبه، متذرعين بأنهم يتابعون آباءهم الأقدمين في عبادتها والتزلف إليها، ثم نعلم من ردهم أن هودًا قد أنذرهم من قبل بعذاب من الله إن لم يستجيبوا لدعوته، لكننا نراهم هنا يستخفون بوعيده ويستعجلونه العذاب إن كان صادقًا، ثم نجد هودًا وقد يأس من إيمانهم يعلنهم بأن عذاب الله لن يتأخرعنهم كثيرًا ما داموا يجادلونه في تلك الآلهة الزائفة التي لا حقيقة لها، فما عليهم إذن سوى أن ينتظروا ما سيحل بهم قريبًا، وأنه سينتظر معهم لكنه سينتظر دونهم فضل الله وطمعه في إنجائه ومن معه من المؤمنين.

قصة هود في سورة هود

*وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ
ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا
تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى

وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ
أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم
مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ
قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾*هُود: (50–60).

يتابع هود في هذه السورة ما بدأه في سورة الأعراف من دعوة قومه إلى عبادة الله وتوحيده ويزيدهم: أنه لا يسألهم أجرًا على رسالته، فهو لا يلتمس الأجر إلا من الله فاطره وخالقه، ثم يدعوهم مثل سلفه نوح إلى التوبة والاستغفار، فعاقبتهما سعة الرزق من إرسال السماء بالمطر ومضاعفة الله نعمائه عليهم من القوة وعظيم البأس، محذرًا إياهم من التولي والإعراض عن دعوته، لكنهم يكررون رفضهم لما دعاهم إليه؛ متعللين في تمسكهم بعقائد الآباء بغياب أي معجزة تدل على صدق رسالته، ثم يصفونه كما يبدو بالجنون [416]؛ إذ فسر ذلك المرض قديمًا بأنه المرض الإلهي[417] من جراء خروجه على عقائد الآباء، ثم نرى هودًا يتحداهم ويتمسك بعبادة الله وحده، ويستخف بوعيدهم له؛ فهم لن يستطيعوا أن يوقعوا به ضرًا، ولا أن يجلبوا له نفعًا، فهم في قبضة الله الذي يأخذ بناصية كل شيء، ولا يقع شيء إلا بإذنه، ووفق تقديره ومشيئته.

[416]"يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها"، انظر تفسير ابن كثير، ج4، ص 285. وانظر أيضًا تفسير أبي السعود المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص 217.

[417]عن اعتقاد أهل الحضارات القديمة في الجنون كعقوبة إلهية، راجع إن شئت كتاب "موجز تاريخ الجنون" روي بورتر، ترجمة ناصر مصطفى، دار كلمة، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث- 2012م، ص 19 وما بعدها.
ومن الواضح أن كلمة جنون نفسها تعني المرض العقلي الذى تتسبب فيه الجن، بل إننا نجد كلمة الجن والجنون تجمعهما كلمة (جنة).

هود في سورة الأحقاف

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ (الأَحۡقَاف: 21–28).

تفتتح هذه الآيات من سورة الأحقاف ببيان مهم، يصف لباب دعوة هود ومعه جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى أهل القرى في تلك الفترة المعاصرة لهود، وأنهم جميعًا من سبق منهم هودًا أو من لحق به ما جاءوا جميعًا إلا لدعوة الخلائق لعبادة الله، وتخويف أقوامهم من عذاب الله إن عصوه، لكننا نجد قومه يتمسكون بعبادة أصنامهم، ويستعجلونه العذاب إن كان صادقًا، ثم تصف الآيات التي معنا لحظة إرسال الله عليهم عذابه؛ حيث جاءهم على هيئة سحاب يملأ الآفاق فظنوه مطرًا، لكنها كانت ريحًا عظيمة تدمر كل ما أمامها؛ فلم يتبق من قوم عاد سوى مساكنهم المهجورة من بعد مهلكهم، ما يفيدنا في اعتقاد النبي ومعاصريه في نسبة بعض المساكن المهجورة إلى قوم عاد، ولا يعنينا هنا إن كانت تلك المساكن لهم حقًّا أم لسواهم، بل يكفينا ما شاع من نسبة تلك الآثار

إليهم لنعلم أنها كانت لقوم عاشوا قبل الإسلام بمدة ليست بالبعيدة، والأهم من ذلك أنها نص واضح على هلكة عاد التامة: "فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها-- (418)"، ثم يلتفت الخطاب إلى أهل مكة لتذكرتهم بألا يغتروا بما لديهم؛ فقد كان قوم عاد أعظم منهم فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئا.

هود في سورة الشعراء

* كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم
بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾* (الشُّعَرَاء: 123–140).

أما سورة الشعراء فستطلعنا بعد تأكيدها ما سبق ورأيناه في السور السابقة من تكذيب قوم عاد لنبيهم ومن دعوته إياهم إلى تقوى الله، وما إلى ذلك من عموم مفردات الدعوة الإلهية، وتطلعنا على ملمح لعله كان هو قوام المرويات الإخبارية التي ملأت أسماع العرب قبل الإسلام عن قوم عاد، وهو ما اشتهروا به من قوة الأجساد، وعظيم ما شيدوه من جليل البناء، ولكننا نرى هنا هذين الملمحين معًا؛ حيث نجد هودًا ينعى على قومه ساخرًا إسرافَهم في بناء تلك القصور المشيدة الفارهة دونما حاجة إليها أو

(418)تفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2000م، ج22، ص 129، ولا ندري هل رأى النبي بنفسه تلك الآثار في رحلة من رحلاته إلى اليمن أم كان يقول بما بلغه من وجود تلك الآثار؟!

ضرورة لها، كما لو كانوا خالدين لا يذوقون الموت، وينهاهم أيضًا عن بطشهم بمن حولهم من الناس، ما يطلعنا على قوة بأسهم وتجبرهم على من حولهم، ودونما حاجة إلى ذكر أسماء المبطوش بهم؛ فلم يكن النبي يعرف عنهم في الحقيقة شيئًا؛ لذا فقد اكتفي بما يشي بأنهم ولا بد قد طغوا وبطشوا بمن هم أقل منهم قوة وكفى!

وتفيدنا تلك الآيات أيضا على ما كان عليه قوم عاد من نعم الله، فقد أعطاهم الله ما شاءوا من الأنعام والبنين، فعاشوا في حدائق غناء تسقيها العيون، ولكنهم لم ينسبوا الفضل إلى صاحبه، بل ردوا دعوة نبيهم الذي أنذرهم عذاب الله وسطوته، قائلين: إنهم لن يسمعوا له قولا، وإن ما جاء به من الوعد أو الوعيد وفق إحدى القراءتين الصحيحتين[419] ليس إلا اختلاق الأولين مثلما جاء نظيره في القرآن على لسان كفار مكة: *إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١*.

هود في سورة (المؤمنون)

* ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ
بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ

[419] راجع في توجيه القراءتين لآية *إن هذا إلا خلق الأولين* كتاب: "طلائع البشر في توجيه القراءات العشر" للشيخ محمد الصادق قمحاوي، دار العقيدة، الطبعة الأولى 2006م، ص 150.

ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾* (المُؤۡمِنُون: 31–42).

مما اتفق عليه المفسرون أو كادوا أن المخاطبين بتلك الآيات هم قوم هود، رغم أن الآيات كما ترى لم تنص على ذكر عاد أو هود، ولكنهم استشهدوا بمجيء هؤلاء الأقوام بعد قوم نوح، وهو ما اتفقوا عليه جميعا إلا من شذ عنهم.

ومن بين المؤلفين المحدثين الذين قالوا إن قوم هود ليسوا المقصودين بتلك الآيات، صاحب كتاب (القصص القرآني والتاريخ)، وقد أربك قوله هذا عالمًا بقدر الشيخ محمد الغزالي، فلنقرأ قول الشيخ الغزالي أولا: "والدكتور رشدي جدير بالثقة فيما يذكر من آراء، وأسوق هذا المثل لأوضح ما أعني في سورة المؤمنون سرد لقصة نوح، وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم، ثم قال الله بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان: *ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾*◉ من القرن الناشئ؟ ومن رسولهم؟ كنت أفهم من السياق أن المقصود عاد ونبيهم هود؛ لأن الله سبحانه يقول في سورة الأعراف والكلام موجه لعاد قوم هود *وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ ﴿٦٩﴾* ولكني رأيت الدكتور المؤلف يقول إن القرن الناشئ هم ثمود فعدت إلى التفاسير فوجدت أن الرأيين مذكوران معًا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد، فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت بالدليل على أن ثمود أهلكت بالصيحة في سور القرآن الأخرى، وأن جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد في سورة المؤمنين فيقول: *فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾* (المُؤۡمِنُون: 41) فقلت: رأى الدكتور أرجح جزاه الله خيرًا عما بذل وحقق، وأعانه على إتمام كتابه هذا بروح من عنده [420]".

---

(420) انظر الصفحة (د) من مقدمة المرحوم الشيخ الغزالي لكتاب: "قصص الأنبياء والتاريخ" للدكتور رشدي البدراوي.

والحقيقة التي نعتقدها أن الشيخ الغزالي قد ترك الرأي الراجح إلى المرجوح، وأن ما أورده المؤلف ليس بدليل؛ لأننا نعتقد مع ابن كثير وغيره أنه لا تعارض من المنظور النبوي أن يجمع الله على بعض المكذبين أنواعًا من العقوبات كما تعددت أنواع العقوبات على قوم شعيب مثلا.

أضف إلى ذلك أن تلك الأقوال التي أثبتتها سورة المؤمنون على لسان قوم هود، قد جاء ما يؤيدها في سورة الشعراء، ولم نعثر على شبيه لها من بين ما أورده القرآن على لسان قوم صالح، وفضلا عن أننا لا نفهم حكمة أن يقفز سياق القص القرآني إلى قوم صالح دون أن يذكر قوم هود، ولا خلاف على سبق زمانهم لزمن ثمود؟ بل الأحرى أن يذكر القرآن الكريم مصير فاتحة المكذبين الهالكين بعد الطوفان؛ وهم قوم عاد، ثم يقول إن من جاء بعدهم قالوا بمثل ما قاله هؤلاء الأولون.

أضف إلى ذلك أننا نعتقد بأن الصيحة ليست شكلا محددا من أنواع العقوبات الإلهية، بل هي تنصرف إلى ما يصحب عذاب الله من دويٍّ إيقاع العذاب، مثلما جاء في سورة الحجر *فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣* (الحِجْر: 73) عن مهلك قوم لوط؛ فمن المعلوم أن الله قد أهلك قوم لوط بأن قلب مدنهم وجعل عاليها سافلها، وعلى هذا فلم تكن الصيحة هي سبب هلاكهم، كما أن سورة فصلت تقول إن الله قد أهلك عادا وثمود بالصواعق.

وعلى هذا، فليست الصيحة سوى وصف عام يأتي مع أنواع العقوبات، ويمكن لمن شاء أن يقول بأن الطريقة المثلى لوصف هلاك الشعوب والأمم المكذبة في القرآن كانت هي الصيحة، إلا لو جاء أثر سماعي يقول بشكل آخر من أشكال الهلاك كما في طوفان نوح وإغراق قوم فرعون، وخسف الله الأرض بقارون، وهي كما هو معلوم من المرويات اليهودية، أما عن إهلاك قوم عاد بالريح فمن المعلوم أن خلفها إخبارية عربية؛ لذا نراها تحضر بالأساس في القرآن كوصف لمهلك قوم عاد كما في سورة القمر *إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩*(القَمَر: 19)، وسورة فصلت *فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ

وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾* (فُصِّلَت: 16)◉ وسورة الحاقة *وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾* (الحَاقَّة: 6 – 7)، والأحقاف *فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾* (الأَحۡقَاف: 24)، ولكن الصيحة تأتي معها بسبب ضغط حضورها على الوعي النبوي كتسمية رسمية لمهلك الأمم الجاحدة وكفى.

وهذه الآيات تتابع ما جاء في بقية قصص هود من دعوته قومه إلى عبادة الله، ولكنها تزيد على ما سبق أن علمناه بما احتج به المترفون من قومه؛ حيث استنكفوا أن يرسل الله إليهم بشرًا يأكل ويشرب كغيره من الناس، ثم تُجْلِي لنا مظهرًا مهمًّا من مظاهر اعتقادهم، وهو أنهم كانوا كافرين بالآخرة، فلا بعث ولا نشور ولا ثواب ولا عقاب رغم إيمانهم بالله[421]، ثم يصفون نبيهم هودًا بأنه لا يعدو أن يكون متقولا، كاذبًا على الله، ثم نجد هودًا يطلب نصرة الله بعد أن كذبوه، فأرسل الله عليهم الصيحة فجعلهم غثاء وقطع دابرهم.

عاد وثمود في سورة فصلت

* فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ

---

(421)من الملاحظ أن النبي لم يستقم عنده أن يجتمع في عقيدة شركية يتنازعها عدة أرباب مفهوم الإيمان بالآخرة، ولا ندرى ما الذي جعل النبي يستبعد إمكان الإيمان بالآخرة مع الاعتقاد بتعدد الأرباب؟ ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك لم يكن سوى أثر من آثار قياسه الأمم السابقة على ما كانت عليه عرب الجاهلية قبيل الإسلام، وهذا القياس هو ما سيجعله ينفي عن المصريين الاعتقاد في الآخرة كما سنرى في سورة يوسف.

ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾* (فُصِّلَت: 13–18).

ليس من بين مواضع ذكر القرآن لقصة قوم عاد أفضل من هذا الموضع لنختم به ما اخترنا أن نعرضه من قصصهم في القرآن الكريم؛ لأن هذه الآيات على قصرها تلخص قصة عاد وثمود أجمل تلخيص وأوفاه؛ حيث نجد الصوت الإلهي الجليل يأمر عبده ونبيه محمدًا أن ينذر قومه، إن استمروا في إعراضهم عن الحق الذي جاءهم به، مصيرًا كمصير من كانوا يعرفون من قوم عاد وثمود، ثم تقرر الآيات أن تلك القبيلتين قد أرسل الله إليهما رسله، مثلما أرسل إلى سابقيهم ومعاصريهم ومن جاء بعدهم، ولم تأت تلك الرسل جميعًا إلا برسالة واحدة يقع في القلب منها دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده، ثم تختصر الآيات إظهار ما قاله أقوام الرسل لأنبيائهم من أنهم لن يتبعوا بشرًا مثلهم، وأن الله لو شاء لأرسل إليهم ملكًا من السماء، ثم تفصل الآيات ما كان من قوم عاد الذين اغتروا بقوتهم، ونسوا أن خالقهم هو أشد منهم قوة، فأرسل الله عليهم ريحًا باردة فأذاقهم بأسه في الدنيا، قبل أن يردوا عذاب الله المقيم في الآخرة، وأما ثمود فقد كان ذنبهم كما يبدو من ظاهر القرآن أشد وأعظم؛ إذ أعطاهم الله ما على مثله بل على أقل منه يؤمن البشر، وهي تلك الناقة العجيبة التي حكى القرآن في غير موضع قصتها، ولكن استحبوا العماية على الهداية، فأرسل الله عليهم صواعقه، وأنجى الله المؤمنين كما سينجي المؤمنين دائمًا بعد مهلك الكافرين الجاحدين.

ثانيا: النبي محمد وخصومه من خلف قناع هود ومعارضيه.

لن نخوض فيما شغل به المفسرون أنفسهم من التفرقة بين عاد الأولى وعاد الآخرة، ولا يعنينا في شيء تحقيق موضع قوم هود، مكتفين بما اكتفى به القرآن من أن مكانهم كان في (الأحقاف)، متابعين في ذلك من قال منهم إن الأحقاف تقع بأرض اليمن،

ولن نثقل هذه الصفحات لعرض ذلك السجال العبثي بين من بالغ من المفسرين في مقدار أجسام قوم (عاد) ومن رد منهم ذلك الشطط، واكتفى بما رآه أقرب إلى العقل والمعقول، فهذا كله لا يعنينا في شيء، فليست هذه الصفحات إلا لبيان تصور النبي محمد عن وحدة الرسالات الإلهية عبر التاريخ، واستخراج صورة النبي محمد وعقائد أهل عصره من خلف تلك القصص التي آمن النبي بصحتها تمام الإيمان قبل أن يطلب من غيره تصديقها والإيمان بها.

لذا، فمن ينظر في البداية إلى ما نسبه القرآن الكريم إلى قوم عاد من قبيح الفعال فسيجدها في الجملة استنتاجات معقولة ومفهومة لا يستغرب صدروها من عقل ذكي تقي، كان يفسر الأمور كلها تفسيرًا دينيًّا خالصًا؛ فهل من الغريب مثلا مع اعتقاد النبي الجازم في جمع قوم عاد بين الكفر وقوة الأبدان أن يفترض النبي أنهم ما استخدموا قوتهم البدنية تلك إلا في الطغيان، وفي التجبر على الخلائق؟ وإذا شاع بين العرب كذلك أن أهل تلك القبيلة كانوا من البنائين العظام، فهل من الغريب في شيء أن يرجع النبي بواعثهم ومقاصدهم إلى ما يتناسب مع قوم طغاة كافرين، فيردها إلى التطلع إلى الخلود في الدنيا، وإلى عبث المترفين اللاهين الغافلين؟ وفي كلمة واحدة لم ينطق النبي محمد أخاه هودًا إلا بما قال ليقوله هو نفسه إن كانت تلك الفعال المستقبحة فاشية ذائعة في قومه.

لن نتكلم هنا عن شيء من مفردات العقيدة الإسلامية، فقد مر على القارئ الكريم عبر تلك النماذج القرآنية التي أوردناها أن جميع ما جاء به النبي محمد قومه من الدعوة إلى توحيد الله ومن خشيته وتقواه، ومن النهي عن اتخاذ الأنداد والشركاء، وأن الله هو رب العالمين، ومن ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب، فكل هذا وسواه قد سبقه إليه هود وسبقهما معًا من قبل نوح إليه، وأصبح واضحًا أن قوم هود أيضًا كانوا يعرفون ويعتقدون في جميع ما يعرفه ويعتقده قوم النبي محمد رغم تلك القرون التي تفصل بين عصريهما. أما ما نحتاج إليه هنا فليس سوى الإشارة إلى بعض الملامح المحمدية بالغة الخصوصية التي ظلت تسطع من خلف صوت هود، وسنختار من بينها ثلاثة ملامح رئيسية: أولها نفسيًّا باطنيًّا، وثانيها تعبيريًّا، وثالثها مفاهيميًّا، حتى يستبين لنا أنها لا تعبر عن صورة ذهنية مجردة لنبي من عموم الأنبياء، وقد أرسله الله فيمن أرسل بتلك الرسالة الإلهية الواحدة، بل إنها كانت تترجم عن السمات الشخصية للنبي محمد دون

سواه من الأنبياء، وهو ما لايسهل أبدًا أن يتشابه فيه البشر حتى لو افترضنا أن تشابهت عقائدهم الدينية بجميع مفرداتها رغم ما يفصل بينهم من بعيد الزمان، ووسيع المكان .

أما عن الملمح النفسي، فمن يتأمل في هذا الجانب الذي كادت تطبق عليه المرويات الإخبارية العربية من تولع قوم عاد بالبناء وسكنى القصور الفارهة، ويقف عند تنديد القرآن الشديد به فسيجده يعبر بوضوح عن ملمح ساطع من الملامح المحمدية الخالصة التي تتجلى من خلف قناع هود؛ فهي تشير إلى نفور النبي محمد الشديد من الإفراط في تشييد أبنية دار الفناء، ومن يطالع كتب السيرة النبوية ويقرأ المدونات الحديثية فسيجد فيها ما يعلم منه كم كان النبي شديد الزهد في مظاهر البناء على وجه الخصوص؛ فلم يتقبَّل النبي للمؤمن الصالح أن يبني لنفسه بيتًا أو حتى مسجدًا لله إلا بمقدار الحاجة إلى ذلك؛ لغلبة روح التطلع إلى الآخرة عنده، ومن يقرأ مع أوردته كتب السيرة في وصف أبيات النبي ومسجده لراعه فرط بساطتها وضيق حجراتها وانخفاض أسقفها، بل لقد عد النبي التطاول في البنيان من علامات الساعة وبرهانًا على غياب روح التقوى، ونراه يوصي في بناء مسجده الشريف بأن يكون بناء مقتصدًا بسيطًا كعريش موسى(422)، بل لقد سرت تلك الروح النبوية حتى استقرت عند الصالحين من أتباعه حتى: "عدت زخرفة المساجد من قبيل البدع التي أنكرها السلف الصالح (423)".

بل إننا نجد هذا الحديث الذي يصلح لأن يكون تطبيقًا متطرفًا لهذا النفور النبوي من إعمار دار الفناء؛ لأنه عليه السلام كان دائم التطلع إلى دار البقاء، وكان يهيب بأتباعه أن يحذوا حذوه في هذا: (فعن عبد الله بن عَمْرٍو "قال مَرَّ بي النبيُّ وأنا أُطَيِّنُ حائطًا لي أنَا وأمِّي، فقال: ما هذا عبدَ الله؟ فقلتُ: يا رسولَ الله! وهي، فنحنُ نُصْلِحُه فقال "الأمْرُ أسْرَعُ مِنْ ذلك.. وفي رواية مَرَّ علينا رسولُ الله ونحنُ نُعالِجُ خُصًّا لنَا وهي، فقال"ما هذا؟ فقلْنا: خُصٌّ لنا وهي، فنحنُ نُصْلِحُه. فقال"ما أَرى الأمْرَ إلا أَعْجَل مِنْ ذلِكَ"(424)).

90- انظر الحديث في ج2، ص 178 من كتاب السلسلة الصحيحة للألباني برقم 616.

91- "الاعتصام" أبو إسحق الشاطبي، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م، ج 2، ص 633.

93- راجع سند هذا الحديث برقم 3343 "صحيح الترغيب والترهيب" للشيخ ناصر الألباني، مكتَبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 2000 م، ج3، ص306.

ومن بين الصيغ التعبيرية التي جاءت على لسان هود القرآني وجاء مقابلها مرارًا على لسان النبي محمد هذا التعبير الذي أجراه القرآن على لسان هود، وهو يصف لنا أن جميع الخلائق تحت قهر الله وسلطانه: *إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾* (هُود: 56)، وتخصيص الناصية دون سواها من أماكن الجسد كما هو معلوم تعبير عربي خالص، وذلك: (لأن العرب كانت تستعمل ذلك في وصفها من وصفته بالذلة والخضوع، فتقول: "ما ناصية فلان إلا بيد فلان"، أي: أنه له مطيع يصرفه كيف شاء. وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه، جزُّوا ناصيته، ليعتدّوا بذلك عليه فخرًا عند المفاخرة، فخاطبهم الله بما يعرفون في كلامهم، والمعنى ما ذكرت [425]).

وقد جاء هذا الاستعمال كثيرًا في أحاديث النبي الصحيحة، ومنها هذا الدعاء الجميل: (عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: (اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر[426]).

[425]"تفسير الطبري" تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى 2001م، ج12، ص 449.

[426]انظر الحديث برقم 2408 في: "مشكاة المصابيح" تحقيق الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة - 1985م، ج2، ص744.

الاستخلاف في الأرض

الأكثر من ذلك أننا نجد على لسان هود معلمًا من أهم معالم الرؤية المحمدية وهو مفهوم الاستخلاف في الأرض، فلنقف عنده قليلا لكبير أهميته:*وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠* (البَقَرَةِ: 30).*إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢* (الأَحْزَاب: 72).

من جديد المفاهيم التي أتى بها الإسلام مفهوم (الاستخلاف في الأرض)، وهو مفهوم أساسي يرتكز على صميم الرؤية الإسلامية لغاية الخلق ومغزاها، وهو مفهوم قديم للغاية في الإسلام؛ حيث نجده يظهر في العقل الإلهي قبل أن يخلق الله البشر، ومداره تعلق مشيئة الله بإيجاد مخلوق عاقل يقوم على رعاية العلاقات الأساسية الثلاث كلها؛ أي علاقة الإنسان بالله، وعلاقته بغيره من البشر، وعلاقته بالطبيعة من حوله، فعلاقته بالله لا بد من أن تأتي طواعية واختيارًا، ودون إكراه أو إجبار، سواء أجاءه الإكراه بسبب من طبيعة خلقته مثل عالم الملائكة، أو غياب لهذا الإدراك مثل عالمي الحيوان والجمادات، وعلاقته بغيره من الناس تقوم على التعاون والتكافل وروح البر، وعلاقته بالطبيعة المسخرة له تقوم على حسن الرعاية لها والتناغم معها وتعمير الأرض واستعمارها، وستأتي الشرائع الإلهية كلها في المفهوم الإسلامي مؤسسة على هذا المقصد الكلي الجليل من خلق الإنسان، ولن يجد من يبحث عن سند للفكرة السياسية في الإسلام أقوى من هذا المفهوم، ولن يجد كذلك من يبحث عن صفات المخلوق البشري الأساسية من المنظور القرآني أوضح من هذا المفهوم، فلابد مع وجود هذا المفهوم من حضور جميع مظاهر الحرية الإنسانية والمسئولية العامة شخصية كانت أم اجتماعية، بل ليس من إضاءة لطبيعة العلاقة بين الإنسان والله فردًا كان أم جماعة بشرية أوضح من هذا المفهوم المركزي الشامل؛ لذا فلا غرابة أن يحضر في التصور الإسلامي ما

يلزم عن هذا، وهو مفهوم: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كواجب إلهي، بل حق لازم من حقوق الأفراد الذين يعيشون داخل هذا التصور الاعتقادي المتماسك.

لكن القرآن كالعادة يجعل من هذين المفهومين المتقدمين ميراثًا عقديًّا عامًّا يصدر عنه جميع الأنبياء السابقين، سواء أكانوا أنبياء ذوي شرائع مفصلة مثل موسى، ومن جاء بعده أو كانوا من الأنبياء السابقين على إبراهيم، الذين اقتصرت رسالتهم على الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والحض على التقوى والكف عن الشرور والآثام التي كانت منتشرة بينهم مثل هود وصالح، ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذا القول من التخويف باستبدال أمة أخرى بها يتضمن في داخله عقيدة قرآنية أخرى، وهي الاعتقاد في تتابع الرسالات الإلهية، ووحدتها حتى تخرج إلى النور تلك الأمة الواحدة التي يريدها الله، وتحقق ما ابتغاه عندما خلق الإنسان في هذه الدنيا.

ومن ذلك قول هود مخاطبًا قومه:*فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾* (هُود: ﴿٥٧﴾)، *أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾* (الأَعۡرَاف: ﴿٦٩﴾)، وسيرى كل قارئ للقران كيف جاء هذا المفهوم على ألسنة كثير من الأنبياء كما جاء مثلا على لسان موسى يخاطب قومه: *قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾* (الأَعۡرَاف: 129)، وما جاء كخطاب من الله لعبده ونبيه داود: *يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾* (ص: 26)، وغير هذا كثير، ولكن لا خلاف على أن مرد جميع تلك الأقوال

هو ما جاء في القرآن مرارًا؛ حيث خاطب الله قوم النبي محمد ومعهم أمته بمثل هذا، ومن أمثلة ذلك: *وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣* (الأَنْعَام: 133).

وقل مثل ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: *وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤* (آل عِمْرَان:104)، *كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠* (آل عِمْرَان: 110)، *لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥* (آل عِمْرَان: 113–115)، *يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧* (لُقْمَان: 17).

ملامح ملأ مكة من خلف ملأ كل العصور

*صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ

هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦* (ص: 1-16).

هذا عن بعض ملامح النبي الخاصة، وأما عن ملامح معارضيه من أهل عصره فتظهر جلية من خلف خصوم هود وأهل عصره من قوم عاد، ومن يقارن بين ما أجراه القرآن على ألسنة الملأ من قوم عاد، وما احتجوا به على نبيهم هود فسيجده يترجم بوجه عام عن الملأ في كل العصور، وعن الملأ المكي بصفة خاصة، ومن يقرأ تلك الآيات السابقة من سورة (ص) لوجدها تصلح تماما لوصف استجابة الملأ الكافرين في كل العصور فلنقرأ تلك الاعتراضات التي جوبه بها هود من ملئه، وسنورد مقابلها من أقوال الملأ المكي لبيان أن تلك الأقوال التي افترض النبي صدورها عن كفار الأمم السابقة ما كانت إلا ترجمة حرفية لما قاله أهل مكة لنبيهم محمد، والحقيقة التي نعتقدها أنه لم يكن النبي ليُنطِقَ هؤلاء الكافرين سوى لاعتقاده الصادق في وحدة استجابة الكافرين في كل زمان ومكان، وليس كما يزعم بعض الباحثين المحدثين من أن النبي، حاشاه، كان يضع تلك الكلمات على ألسنتهم لكي يخاطب من ورائهم قومه من أهل مكة.

فمن بين أول الاعتراضات التي احتج بها الملأ العادي على نبيهم هود، واتخذوها حجة على كذب دعواه هو أنه بشر مثلهم حيث قالوا :*مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤* (المُؤۡمِنُون: 33–34)، وقد أزال هود استغرابهم من بشريته، وكونه بشرا مثلهم يشابههم في البشرية ويشاركهم الطعام والشراب بقوله: *أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ

ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ ﴿٦٩﴾* (الأَعْرَاف: 69)، وقد أوضحت سورة فصلت أنهم كانوا يطالبون هودًا بأن ينزل الله عليهم من السماء ملكًا من الملائكة: *إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾* (فُصِّلَت: 14)، وهو ذاته ما قاله الملأ المكي للنبي عليه السلام، فقد حكى القرآن تعجبهم من اصطفاء الله رجلا من بينهم كما في هذه الآية وأمثالها كثير في القرآن: *أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾*(يُونُس: 2)، ولقد جادلهم النبي كذلك بأن جميع الأنبياء قبله ما كانوا إلا بشرًا من البشر * وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾*(الفُرْقَان: 7)، *وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾* (الفُرْقَان: 20).

من بين ما احتج به قوم هود أنه لم يأتهم بمعجزة تدل على صدق نبوته ورسالته *قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾*(هُود: 53) وهي آية لا لبس فيها لبيان أن الله لم يعط هودًا ما أعطى سواه من الأنبياء من معجزات تؤيد صدق رسالتهم، ولكن بعض الباحثين المحدثين يحاول الالتفات على هذا التصريح القرآني الناصع فيقول: "وقد تكون مع هود عليه السلام معجزة مادية كبرى كمعجزات باقي الأنبياء، ولكن الآيات لم تذكرها؛ لأنها لم تفصل كل جزئيات قصص الأنبياء، وقد لا تكون مع هود عليه السلام معجزة مادية، ولكنه اكتفى بالآية الربانية الكبرى، وهي نجاة نوح والمؤمنين معه في السفينة لما غمر الماء

كل شيء؛ حيث جعل الله سفينة نوح آية وعبرة وعظة للناس وقوم عاد هم أول قوم وجدوا بعد نجاة نوح كما سبق أن قلنا، فكان حادث السفينة قريبًا من ذاكرتهم حيًّا ساخنًا مؤثرًا في كيانهم فاكتفي به آية ومعجزة وبينة والله أعلم [427]".

لسنا بحاجة إلى بيان تهافت هذا الرأي العجيب؛ إذ ليس من المعقول أن يستدل نبي على صحة دعواه لمكذبيه ومتهميه بالاختلاق والجنون بمعجزة أو آية نبي آخر سبقه بمئات السنين، وهذا إن أمكن أن يسمى ذلك الطوفان بالمعجزة على المعنى الصحيح، فلم يكن الطوفان سوى عقوبة إلهية، والمعجزة كما يقول المتكلمون: "هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدع للنبوة تصديقًا له[428]"، فضلا عن أنه ليس من برهان على أن حادثة الطوفان كانت حاضرة في ذاكرة هؤلاء الكافرين، ولو كانت حاضرة فكيف يكفرون إن كانوا من المصدقين بوقوعها كعقوبة أوقعها الله بأمثالهم من الكافرين؟! ولعل ما دعا هذا الباحث إلى التماس معجزة لهود هو هذا الحديث الشهير الذي يشير ظاهره إلى أن الأنبياء جميعًا قد أيدهم الله بالمعجزات، وسنقف عنده في موضع لاحق، ولكن لنكتفي بقراءته هنا، والقول بأنه مجرد مثال واحد من بين عشرات الأمثلة التي نجدها في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية الصحيحة، والتي تترجم عن ذلك التولع المحمدي بالتعميم لا أكثر ولا أقل: "ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة[429]".

لكن ما يعنينا الآن هو أن النبي محمدا لم يأت قومه بمعجزة مثل هود رغم مطالبة قومه له بتقديم بينة على صدق دعواه، وهو ما أورده القرآن كثيرًا، ومن ذلك:*وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧* (الرَّعۡد:7)۞ *وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠* (العَنكَبُوت: 50).

---

[427]"القصص القرآني" الخالدي، ج1، ص 243.

- [427]لمعرفة المزيد عن دلالة المعجزة ومعناها يرجع إلى كتاب:"غاية المرام في علم الكلام" الآمدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ج1، ص 335 ومابعدها.

[429]"صحيح الجامع الصغير وزياداته" للألباني، برقم 5681، المكتب الإسلامي، ج2، ص991.

سلم النبي محمد في البداية بأن الله لحكمة يعلمها لم يشأ أن يجري على يديه أمثال تلك الخوارق والمعجزات التي أيد بها رسله السابقين، وأنه سبحانه لو شاء لفعل، مُقلِّلا في البداية من أهمية المعجزة وجدواها، فماذا فعلت كل تلك المعجزات الباهرات سوى أنها جلبت الدمار على الجاحدين الكافرين؟ مثل هذه الآية من سورة يونس وسواها كثير: *قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾* (يُونُس: 101)، *قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾* (المَائدَة: 114–115).

بعد ذلك صار القرآن نفسه حلا بديعا لتلك المشكلة التي لا نقول إنها أزعجت النبي لطلب الناس لها منه وإلحاحهم عليه فيها، بل لأنه أراح وجدانه الباطني العميق المتلمس لليقين والتثبت الذاتي من صحة رسالته وصحة نبوته، فقد كان النبي أشد على نفسه من سواه في هذه الناحية؛ لصدقه الذاتي الكامل وخشيته من عظيم حرمة الله في قلبه المؤمن من أن يفتري على الله.

كما اتهم قوم عاد هودًا بالسفاهة والجنون، فقد اتهموه كذلك بالكذب والافتراء على الله: *إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾* (المُؤۡمِنُون: 38)، وهو عين ما اتهم به أهل مكة رسولهم محمدًا؛ فقد اتهموه بالجنون كما قلنا في قصة نوح وكذلك الافتراء على الله كما اخبرنا القرآن: *أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾* (سَبَإ: 8)◉ وكذا *أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾* (السَّجۡدَة: 3).

نجد كذلك عجبهم من دعوتهم إلى الإيمان بالله وحده والكفر بتلك الآلهة المدعاة التي كانوا يعبدونها إلى جانبه: *قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ۝٧٠*(الأَعۡرَاف: 70) وهو ذاته ما أورده القرآن على لسان الملأ المكي في سورة ص *أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥* (ص: 5).

وإذا كان قوم عاد قد رفضوا دعوة هود لهم للإيمان بالبعث بعد الموت، ومجيء اليوم الآخر وعدُّوا الدنيا هي كل شيء، وأن من مات فقد مضى وانقضى أمره إلى غير رجعة، وهذا هو خلق الأولين حيث ماتوا وصاروا ترابًا فقالوا:*أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ۝٣٥ * هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٣٧* (المُؤۡمِنُون: 35–37) وقريبًا منه ما جاء في سورة الشعراء *قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨* (الشُّعَرَاء: 136–138)، وهو ذاته ما قالته العرب للنبي محمد *وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤* (الجَاثِيَة: 24)، ومثله في سورة سبأ *وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧* (سَبَإ: 7).

من بين أوجه الاتفاق والمشابهة التي لا ينبغي أن تغفل ما جاء على ألسنة كثير من أقوام الأنبياء لتحذيرهم مغبة عصيان آلهتهم الوثنية وإخافتهم من أنها قد توقع بهم الأذى، ومن ذلك ما رأيناه مما جاء على لسان قوم هود *إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ۝٥٤* (هُود: 54) وهو وصف كما يتضمن معنى أنهم يفسرون جنون هود بأنه عقوبة أنزلتها به آلهتهم فهو يشير أيضًا إلى ما كان يخوف به الوثنيون أنبياءهم،

الذين عدُّوهم في المقابل مارقين كافرين، من عقوبة الآلهة كما جاء مثلا على لسان فرعون موبخًا موسى: *وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾* (الشُّعَرَاء: 19)، لذا فمن الواضح أن تلك التخوفات كانت من المشترك العام الذي جُوبِه به كثير من الأنبياء؛ حيث نجد هودا يقبل تحديهم *إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾* (هُود: 54–57)، وهو شبيه بموقف نوح كما جاء في يونس *وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾*(يُونُس: 71)، ومثله ما جاء على لسان إبراهيم كما جاء في الأنعام *وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾* (الأَنْعَام: 80–82). إن هذا كله ما هو إلا رجع الصدى لما قاله قوم محمد له مما قصه علينا القرآن: *أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾*(الزُّمَر: 36)، "ويخوفونك بالذين من دونه

وذلك أنهم خوفوا النبي مضرة الأوثان، وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون[430]".

بل إننا نجد في كتب السيرة كثيرًا من الأخبار التي تدل على هذا، فقد حكى أن أبا طالب وعمات النبي قد غضبوا منه أشد الغضب؛ لأنه أبى أن يشاركهم عيدًا من أعياد (بوانة) وقالوا له "إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتباب آلهتنا[431]"، فما بالنا بمن يسبهم، وينهى عن عبادتهم، وسواء أصح هذا الأثر أو وضعه كتاب السير بآخرة؛ لبيان عصمة الله نبيه من السجود لصنم، أو تعظيم أوثانهم في الجاهلية، فهو يكفي للدلالة على ما شاع عند عرب ما قبل البعثة من أن آلهتهم تضر وتنفع، وهو اعتقاد فنَّده القرآن مرارًا، وقل مثل ذلك عما روته كتب السيرة أيضا عن إحدى عتيقات أبي بكر، وتدعى زنيرة: "وزِنّيرة، وَأُصِيبَ بصرُ ها حِينَ أَعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا أذهب بصرَ ها إلَّا اللاتُ والعزَّى؛ فَقَالَتْ: كذَبوا وبيتِ اللَّهِ مَا تضرُّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَا تنفعان، فرد اللهُ بصرَ ها[432]".

كما طلب الملأ العادي من نبيهم إيقاع العذاب بهم بعد أن أنذرهم عذاب الله إن استمروا على كفرهم، وأخبرهم بشفقته وخوفه عليهم، ولكنهم بدلا أن يقبلوا دعوته ويتجنبوا ما خوفهم به طلبوا منه ساخرين الإسراع بإيقاع العذاب بهم وتقديم ما يعدهم به من الهلاك *قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣* (الأَحْقَاف: 22–23)◉ *قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي

[430]تفسير الخازن "لباب التأويل في معاني التنزيل"، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ، ج4، ص 58.

[431]"السيرة الحلبية"، ج1، ص 179، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية - 1427هـ. وانظر أيضا "الخصائص الكبرى" للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص151.

[432]"السيرة النبوية" لابن هشام، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ج1، ص 278.

مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾*(الأَعۡرَاف: 70–72)◉ وهو ذاته ما طلبه الملأ المكي الكافر من النبي: *وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾* (الأَنفَال: 32).

عقائد الأمم والشعوب في القرآن

أما من يريد أن يعرف شيئًا عن المعتقدات الدينية لجميع الأمم الهالكة في القرآن، فلن يجد عندهم من عقيدة دينية سوى ما كان يعبده العرب قبيل الإسلام؛ أي عقيدة الإيمان بالله كربٍ أعلى لكن كانت تزاحمه في عبادته وتوحيده آلهة أخرى زائفة، مفتراة تتجسد في صورة أصنام معبودة، وهذا ما عبرت عنه بصورة مجملة هذه الآية من سورة يوسف: *وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾* (يُوسُف: 106)، ولن يجد قارئ القرآن الكريم من أثر لأى تصور اعتقادي آخر خلا ذلك في القرآن الكريم كله، فقوم هود كانوا يدينون بتلك العقيدة :*فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾* (الأَحۡقَاف: 28)، وكذلك كانت عقيدة قوم إبراهيم:*وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾* (الأَنۡعَام: 74)، *أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾* (الصَّافَّات: 86–87)، وإلى مثل تلك العقيدة التجسيدية اشتاق بنو إسرائيل بعد أن عبروا البحر، دون أن تبتل أقدامهم؛ حيث طلبوا من موسى أن يأذن لهم في اتخاذ إله قريب المنال يرونه بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم، ولكن هذا لا يعني أنهم يكفرون بالله أو يكفون عن عبادته: *وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾* (الأَعۡرَاف:

138)، ومن مثل تلك العقيدة الشركية هرب الفتية المؤمنون ليعتصموا بالكهف حتى يجعل الله لهم مخرجًا: *هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾* (الكَهْف: 15)، ومن ضلال هذا التصور الاعتقادي خرج مؤمن أهل القرية: *ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾* (يس: 23–24).

ليس هذا الاعتقاد بطبيعة الحال إلا صدى من اعتقاد النبي في أن الأمم كافة ما عبدت منذ أن دخل الشرك العالم قبل زمن نوح إلا بمثل ما وجده في عصره، ووجد عليه قومه: *وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾*(مَرْيَم: 81)، *أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾* (الأَنبِيَاء: 24)، *وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾* (الفُرْقَان: 3).

دلال الأغنياء على الله

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ (سَبَإ: 34–35).

إلى جانب ما رأيناه من إنكار عموم الكافرين البعث والنشور يطالعنا ملمح مشترك جديد من ملامح الطغيان عند بعض آحادهم الذين يدلّون بما أولاهم الله من نعم، حتى إنهم يرون في تلك النعم ما يجعلهم يعتقدون بإيثار الله لهم، وأنه على افتراض بعثهم، فما كان ليعذبهم في الآخرة وقد خصهم في الدنيا بالمال والأولاد من دون الناس، وهي استجابة جعلها القرآن من بين الاستجابات الإنسانية الشائعة في بنى البشر إلا من عصمه الله بالإيمان كما في هذه الآية من سورة فصلت: *وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٠* (فُصِّلَت: 50)، ومثلها: *وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ* (أي: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إليَّ ربي، كما أحسن إليَّ في هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين[433]، ولكن القرآن يفترض حضور هذه الاستجابة عند قوم عاد مثل ما حكاه القرآن عنهم *وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨* (الشُّعَرَاء: 138)، ونظيره ما قاله بعض العرب *إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩* (الصَّافَّات: 59).

يبدو أن أساس هذا القانون القرآني كان كلمة حقيقية قالها للنبي رجل من خصوم دعوته الأغنياء، فجعل منها القرآن الكريم كالعادة استجابة عامة يمكن أن تتوقع من أمثالهم في كل زمان ومكان، لا فارق بين أن تجيء في قصة يسوقها القرآن الكريم كأمثولة رمزية فحسب مثل قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، أو أن ترد على ألسنة الكافرين من ملأ الأمم الغابرة كما رأينا، فهم في هذا سواء: *وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ

[433]"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ج7، ص 186.

ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾* (الكهف: 35–36).

لذا، فهل من العجيب بعد كل هذا أن يتوقع النبي أن ينزل الله بقومه مثل ما أنزله بقوم هود أو صالح أو شعيب من الهلاك بالصيحة؛ حيث نجد مثلا في سورة ص: *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾* (ص: 12–15) وكذلك ما جاء في سورة يس: *مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾* (يس: 49–50).

آلهة قوم عاد

على الرغم مما نقرره اعتمادًا على ما ذكرناه في الصفحات السابقة من أن قصة عاد القرآنية إنما هي قصة مخيالية خالصة، ولا علاقة بينها وبين قصة قبيلة عاد العربية تلك التي عاشت قبيل الإسلام، وأن هذه القصة كغيرها من قصص القرآن الكريم إنما تترجم عن عقيدة النبي محمد ومعالم شريعته من خلف صوت هود كما افترضه النبي، وأنها تعكس فحسب ما افترضه النبي أيضًا عن قوم هود، وبما اعتقده صادقًا من أنهم كانوا بلا ريب كأهل مكة ومن حولها، وأن ما أجراه القرآن الكريم على ألسنتهم، إنما كان يعكس أصوات مشركي العرب، وسجال النبي معهم، ولا يعكس شيئًا عما قاله قوم عاد لنبيهم على افتراض أن وجد هذا أو ذاك، ومع ذلك فيمكننا أن نستخرج من القصة القرآنية بعض اعتقادات النبي محمد عن موطن تلك القبيلة العربية البائدة وما اعتقده عن عقيدة أهلها الدينية.

أما عن زمانها فقد أصبح واضحًا أن النبي كان يرجع بزمانهم إلى ما قبل زمن إبراهيم، وأنهم كانوا أول أمة أضلها الشيطان بعد زمن نوح. ولكن قبل أن نقدم للقارئ

الكريم ما نرجحه عن اعتقاد النبي في آلهة قوم عاد فلربما يحسن بنا أن نقول أولا كلمة مختصرة عن مشكلة أصنام قوم نوح لوثاقة ارتباطهما معًا فيما نقترحه لتفسير تلك المشكلة القديمة الجديدة، فمن المعلوم أن القرآن الكريم قد نص كما رأينا على أن قوم نوح كانوا يعبدون تلك الأصنام التي جاءت أسماؤها في سورة نوح: *قَالَ نُوحُ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾* (نُوح: 21–24).

وكما نعلم فقد أثار حضور تلك الأسماء مشكلات متراكبة عند القدماء والمحدثين، وكان من أهمها مشكلة التوفيق بين معقولية أن تكون تلك الأصنام حقا لقوم نوح، وأن تكون تلك الأصنام بعينها أسماء لآلهة عربية كانت معروفة عند معاصري النبي، وبينهما كل تلك الألوف من السنين، فضلا عن اعتقاد النبي وعموم المسلمين في عمومية الطوفان الذي كان ينتظر من مثله أن يطيح بكل أثر مادي لجيل ما قبل الطوفان، وأن يذهب قبل كل شيء بتلك الأصنام التي ما جاء الطوفان إلا ليدمرها ويهلك عابديها.

فأما عن معرفة معاصري النبي بتلك الأصنام فهو أمر واضح، ولا يحتاج إلى بيان؛ فقد حفلت كتب السيرة والتاريخ بما يدل على ذلك، خاصة أننا نجد من بين الأصنام التي أرسل النبي أصحابه لتحطيمها بعض تلك الأصنام التي حملت الأسماء ذاتها التي عبدها قوم نوح: "وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل، فكان ود لكلب وهو بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمذحج، ولقبائِل من اليمن، ونسر لذي الكلاع بأرض حمير، ويعوق لهمذان[434]".

أما كيف عبدت الأصنام النوحية فلعل هذا النقل القادم يبين لنا ما اعتقده المسلمون الأولون عن كيفية ذلك، متأثرين بلا ريب بما شاع من مرويات لا نشك بصحة نسبتها إلى النبي وإلى أصحابه.

"فإن من المهم جدا أن يتعلم المسلم كيف طرأ الشرك على المؤمنين بعد أن كانوا موحدين؟ لقد ورد عن جماعة من السلف روايات كثيرة في تفسير قول الله سبحانه في

(434)"المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، ص98.

قوم نوح (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرًا) أن هؤلاء الخمسة، ودا ومن ذكر معه، كانوا عبادًا صالحين فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن يعكفوا على قبورهم، ثم أوحى إلى الذين جاءوا من بعدهم أن يتخذوا لهم أصنامًا، وزين لهم ذلك بأنه ادعى لهم على أن يذكروهم فيقتدوا بأعمالهم الصالحة، ثم أوحى إلى الجيل الثالث أن يعبدوهم من دون الله تعالى وأوهمهم أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك، فأرسل الله لهم نوحًا عليه السلام آمرًا لهم أن يعبدوا الله تعالى وحده، فلم يستجيبوا له إلا قليلا منهم. وقد حكى الله عز وجل قصته معهم في سورة نوح قال: وكان أول ما عبد غير الله في الأرض ود الذي سموه بود[435]".

وأما كيف بلغت تلك الأصنام النوحية بلاد العرب فقد اخترع الرواة لتفسير ذلك قصة بالغة السقم، وهي الغاية في السخف، ولقد جاءت تلك القصة بروايات شتى في كتب الأصنام وتاريخ مكة، وتناقلها المفسرون والمؤرخون، وسنختار لك من بينها هذه الرواية: "وكان عمرو بن ربيعة وهو خزاعة كاهنا له رئي من الجن، وكان عمرو يكنى أبا ثمامة فأتاه رئيه فقال: أجب أبا ثمامة، فقال: لبيك من تهامة، فقال له: ارحل بلا ملالة، قال له: جير ولا إقامة، قال: ائت صف جدة، تجد فيها أصنامًا معدة، فأورد بها تهامة ولا تهب، ثم ادع العرب إلى إجابتها تجب . فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، وهي الأصنام التي عبدت على عهد إدريس ونوح، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفي عليها الرمل فواراها، واستثارها عمرو وحملها إلى تهامة وحضر الموسم فدعا العرب إلى عبادتها فأجابوه، فأخذ عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن كلب ودًا فنصبه بدومة الجندل وكان لقضاعة، وأخذ الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة سواعًا فكان برهاط تعبده مضر، وأخذ أنعم بن عمرو المرادي يغوث فكان بأكمة من اليمن يقال لها مذحج تعبده [436]".

لسنا بحاجة إلى القول بأن تلك الرواية التفسيرية الأسطورية إنما هي رواية إسلامية متأخرة، وقد جاءت لتفسر كيف وجدت تلك الأصنام طريقها إلى بلاد العرب

---

[435] "تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد" للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ص 90.

[436]"المنمق في أخبار قريش" محمد بن حبيب البغدادي، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1985 م، ص327 .

رغم أن الطوفان قد أطاح بالكافرين من قوم نوح وأصنامهم، وغني عن القول إن عرب الجاهلية ما كانوا يعرفون شيئا عن هذا الطوفان الكوني الذي عمَّ العالم بأسره، وما كانوا ليقبلوا كذلك هذا التفسير الإسلامي المحقر لنشأة أصنامهم التي كانوا يقدسونها أعظم التقديس، ولكن صانع هذه الرواية وهو مسلم متأخر قد تابع التفسير المحمدي عن نشأة الأصنام ودخولها إلى عالم البشر بمكيدة من الشيطان، وقبل منه أيضا أن تلك الأصنام العربية الجنوبية كانت لقوم نوح حقا، ثم بعد ذلك عزا إلى الشيطان الذي ابتدعها، أو إلى أحد أتباعه مهمة استخراجها ثانية، وإذاعتها في بلاد العرب؛ حيث عبدت من دون الله قرونا وقرونا قبل بعثة النبي!

آلهة قوم عاد عند المفسرين والمؤرخين القدامى

أما من يقرا قصة قوم عاد وثمود وأهل مدين وسواهم من الأمم الهالكة في القرآن الكريم فسيجد أن القرآن لم يذكرعن تلك الأمم سوى أنهم كانوا يعبدون الأصنام ويتخذونها أربابًا من دون الله، دون أن يذكر لنا شيئًا عن أسماء تلك الآلهة التي عبدتها تلك الشعوب، وعلى الجملة فلم يذكر القرآن من بين أسماء المعبودات الوثنية كلها سوى أصنام قوم نوح الخمسة وآلهة العرب الكبرى الثلاث: *أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾* (النَّجْم: 19)، ويضاف إلى ذلك اسم الإله (بعل) الذي دعا النبي إلياس قومه بالكف عن عبادته في سورة الصافات *أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾* (الصافات: 125).

ولكن من يطالع كتب التاريخ والتفسير الإسلاميين فسيجد بعض أسماء تلك الأصنام حاضرة مع نسبتها إلى هذه القبيلة أو تلك، ولا ندرى من أين أتوا بها؟! ولكنهم اتفقوا أو كادوا على أن عادا كانت تعبد ثلاثة أصنام رئيسية وهي (صمود) و(صداء) و(الهباء)، ومن ذلك ما قاله هذا المفسر: "أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ، هَذَا إِنْكَارٌ مِنْهُ لِمُخَاصَمَتِهِمْ لَهُ فِيمَا لَا يَنْبَغِي فِيهِ الْخِصَامُ، وَهُوَ ذِكْرُ أَلْفَاظٍ لَيْسَ تَحْتَهَا

مَدْلُولٌ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، فَصَارَتِ الْمُنَازَعَةُ بَاطِلَةً بِذَلِكَ، وَمَعْنَى سَمَّيْتُمُوها سَمَّيْتُمْ بِهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ أَيْ أَحْدَثْتُمُوهَا قَرِيبًا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ، وَهِيَ صَمُودُ وَصُدَاءُ وَالْهَبَاءُ [437]".

لسنا بحاجة إلى القول بأن تلك الأسماء على شيوعها في كتب التاريخ والتفسير إنما هي أسماء ملفقة؛ لأنها تعتمد بالأساس على تلك الرواية الإخبارية الهشة عن قصة استسقاء وفد قوم عاد بالكعبة، وقصة تلكؤهم المضحك شهرًا حيث ظلوا يشربون فيه الخمر ويستمعون إلى غناء جارتي (معاوية بن بكر) ناسين لمدة شهر كامل أن قومهم الممحلين يهلكون جوعًا وعطشًا إلى آخر ما جاء في تلك القصة، التى يغلب على ظننا أنها قصة زائفة موضوعة، خاصة بعد أن صارت إلى ما صارت إليه في كتب المؤرخين والمفسرين والقصاص مثلما جاء في كتاب التيجان وأمثاله؛ حيث تجد أشعار العربية المتأخرة، وتجد اسم نبي عاد هود، وتجد مفردات القصة القرآنية كاملة[438]؛ مما لا نشك معه أن صانعها كان يكمل قصته، ويوسعها ناظرًا إلى قصة هود في القرآن الكريم، وحتى لو افترضنا جدلا أن تلك القصة ذات أساس جاهلي صحيح، وأن تلك الآلهة التي ذكرت في ثناياها كانت تنتمي حقًا إلى قوم عاد فهي على أفضل الأحوال إنما كانت تنتمي إلى قوم عاد المتأخرين؛ أي هؤلاء الذين ربما قد عاشوا حقا قبل الإسلام بعدة قرون، وبلغ مسامعَ الإخباريين العرب شيءٌ عنهم وعن عقائدهم، وأما قوم عاد القرآنيون الذين عاشوا وفق اعتقاد النبي قبل نوح، فلربما كانوا يعبدون شيئًا آخر سنجازف بطرحه على القارئ الكريم!

---

[437] "البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دارالفكر، بيروت، الطبعة 1420 هـ- ج5، ص 89. وانظر أيضا لتلك الأسماء: ج2، ص 204 من تفسير البغوي المسمى "معالم التنزيل في تفسيرالقرآن"، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ. ويضيف إليهم صاحب المنار صنمًا آخر سماه "الهتار"، راجع "تفسير المنار" الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، ج18، ص 209.

[438] "التيجَان في مُلوك حِمْيَر"، ص 362.

هل آلهة قوم عاد هم أساس اعتقاد النبي في آلهة قوم نوح؟

ولو افترضنا أن أحدا قد سألنا عن أمر واحد كنا نتوقعه، وأخلفت القصص القرآنية ظننا فيه، لكانت هناك إجابة واحدة تأتى قبل سواها؛ وهي كيف لم يجعل القرآن تلك الآلهة التي نسبها إلى قوم نوح من نصيب قوم عاد بدلا من قوم نوح؟!

وذلك لأنه وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر لنا شيئا عن عقيدة قوم عاد سوى أنهم كانوا مشركين بالله، بل على ذلك الضرب من الشرك عينه الذي كان عند عرب ما قبل الإسلام، ورغم أن القرآن قد خلا من ذكر أسماء أصنام قوم عاد، لكننا نرجح رغم ذلك كله بأن النبي كان يعتقد أن قوم عاد إنما كانوا يعبدون آلهة قوم نوح بذاتها؛ أي كانوا يعبدون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرًا! لماذا؟

السبب بسيط للغاية وهو أنه كما يمكننا أن نعتمد على الفروض لاستخراج ما نظنه الحقيقة، فإننا يمكننا أيضًا أن نعتمد هذه المرة على الحقيقة التي نعلمها الآن يقينًا لاستخراج تلك الافتراضات الغائرة والقارة في الذات المحمدية، التى سرعان ما كانت تتحول تلك الافتراضات لديها إلى حقائق شعورية كاملة، ثم يأتي من بعد ذلك انفعال النبوة المخيالي الصادق ليكسو تلك الفروض لحمًا ودمًا!

وكما علمنا فقد جاء في القرآن أن قوم نوح كانوا يعبدون: ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، ومن المعلوم أن تلك الأسماء الخمسة كانت أسماء لآلهة وثنية عربية جنوبية، وجدت على تفاوت زمني واسع في الحضارات اليمانية المتعاقبة، وانتشرت عبادة بعضها من هناك في أنحاء الجزيرة، واستمرت عبادة أكثرها إلى ما قبل الإسلام بقليل، واستمرت عبادة بعضها الآخر حتى أطاح بها الإسلام من بين ما أطاح به من أصنام العرب وأوثانهم، وهذا ما قالت به الكتب التاريخية الإسلامية القديمة، وأيدته الكشوف الأثرية واللغوية الحديثة بعد أن استطاع العلماء المحدثون قراءة نقوش ما خلفه أهل اليمن، والتعرف إلى بعض معالم حياتهم الدينية والدنيوية، ومن بينها أسماء تلك الآلهة العربية الجنوبية التي عزاها القرآن لقوم نوح، وسنكتفي بمثالين فقط من بين تلك المعبودات الخمسة وهما الإلهان (ود) و(نسر).

فقد أصبحنا نعرف مثلا أن "الإله ود من آلهة معين[439]، وأن عبادته ظلت معروفة في الجاهلية إلى وقت ظهور الإسلام، وقد تحدث عنه ابن الكلبى في كتابه

[439]"المفصل" ج2، ص 113.

(الأصنام)، وذكر أن قبيلة كلب كانت تتعبد له بدومة الجندل[440]"، وصرنا نعرف أيضًا أن نسرًا هو نشر في العبرانية، وهو صنم من أصنام اللحيانيين كذلك، ويجب أن يكون من أصنام العرب الشماليين لورود اسمه في الموارد العبرانية والسريانية على أنه اسم إله عربي، وأشير في التلمود إلى صنم ذكر أن العرب كانوا يعبدونه اسمه (نشرا) ونشرا هو نسر، وقد ورد اسم الصنم نسر عند السبئيين كذلك، وكان من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين، وقد عبد خاصة في جزيرة العرب [441]"، "كذلك عرف عرب شبه الجزيرة عبادة نسر وهو أيضًا من عبادات الجنوب، وعبادات أخرى مثل عبادات سواع ويغوث ويعوق وبعل[442]"، و"حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله:*وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾* هي آلهة كانت تكون باليمن[443]".

وهذا الذي قاله الضحاك هو ما يتوافق مع ما جاء في (أصنام الكتابات) نقصد بها الأصنام التي عرفنا خبرها وأمرها من الكتابات الجاهلية، أي من الكتابات المدونة بلهجات عربية في الغالب، وقد كتبت ودونت قبل الإسلام، وذلك تمييزًا لها عن الأصنام التي أخذنا علمنا بها من روايات أهل الأخبار في الغالب، وقد دونت في الإسلام[444]، وإليك بعض ما جاء فيها عن آلهة العرب القدماء: "ويرمز إلى الإله القمر بلفظ ود عند المعينيين وهو الإله الرئيس عندهم [445]"، "وقد وردت في الكتابات نعوت للآلهة من قبيل ما يسمى بالأسماء الحسنى أو أسماء الله الحسنى في الإسلام. وهي صفات وصفت بها الأصنام والتصقت بها حتى صارت في منزلة الأسماء بالنسبة لتلك الآلهة. وهي تفيد المؤرخ كثيرًا؛ إذ إنها تعينه في فهم طبيعة تلك الآلهة، وفي فهم رأي الناس عنها في ذلك الوقت[446]"، من الأسماء الحسنى للقمر [447]، "وقد ورد اسم (ودّ) في النصوص

[440]المرجع السابق، ج2، ص 115.
[441]المرجع السابق، ج6، ص 264.
[442]"العرب في العصور القديمة" لطفي عبدالوهاب، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، ص 172.
[443]تفسير الطبري، ج23، ص 640، طبعة شاكر، الرسالة.
[444]"أصنام الكتابات " د. جواد علي، الطبعة الأولى لشركة الوراق للنشر المحدودة، 2007م، بغداد، ص8.
[445]المرجع السابق ص12.
[446]السابق ص9 .
[447]السابق ص12.

المعينية التي عثر عليها في ددن أي الديدان وفي النصوص الثمودية؛ إذ كان من الآلهة المعبودة عند قوم ثمود كذلك. وفي أحد النصوص الثمودية كتابة دونها أحد المؤمنين الفانين في حب ودّ، معناها: أموت على دين ودّ، بدين ودّ أمت، وفي كتابة أخري/ يا إلهي، احفظ لي ديني، يا ودّ أيده [448]"، "ولابد لمن يدخل المعبد من تطهير جسمه ومن لبس ملابس نظيفة، وإلا عُد آثمًا. وعلى من اتصل بامرأة أن يغسل جسمه، وأن يطهر نفسه قبل دخوله المعبد، ولذلك فقد كان الكهنة المتكلمون باسم الآلهة يعللون عدم ملاءمة الجواب للسؤال، بعدم تقيد السائل بالنظافة وبدخوله نجسًا إلى المعبد[449]"، "ومن بين الآلهة إله عرف بذي سموي، أي رب السماء، وهو إله ظهر اسمه قبل الميلاد بقليل. وقد بقي اسمه متألقًا في سماء اليمن، يقدم إليه الناس النذور والقرابين إلى ما بعد الميلاد. ويرى بعض الباحثين أن عبادته تدل على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبيين؛ إذ تدعو إلى عبادة إله واحد، هو رب السماء [450]"، "ونقرأ في النصوص العربية الجنوبية اسم إله جديد، هو الإله (رحمنن) أي الرحمن . وهو إله يرجع بعض المستشرقين أصله إلى دخول اليهودية إلى اليمن وانتشارها هناك . وهذا الإله هو الإله (رحمنه) (رحمنا) في نصوص تدمر [451]"، "ونسر هو اسم صنم من الأصنام التي عرفها أهل الأخبار. وقد زعموا أنه أحد أصنام نوح الخمسة، وأن عورو بن لحي جاء به إلى حمير، فأشاع عبادته بينهم [452]"، "وورد اسم الإله يعوق أي الصنم يعوق المشهور في نص متأخر يعود عهده إلى ما بعد الميلاد، وورد معه اسم: رحمنن بعل سمن، أي الرحمن رب السماء. وقد أرخ النص بشهر ذ داون، ذي دوأن لسنة 574 من التاريخ الحميري. المقابلة لسنة 459 للميلاد[453]"، والإله ودّ هو إله معروف عند الثموديين كما سبق أن ذكرت. وقد تودد إليه عباده والمؤمنون به، فذكروه في كتاباتهم، ورمزوا إليه بصورة حية، كما رمز إليه العرب الجنوبيون بصورة رأس ثور، وقد تعبر صورة الحية عن الروح التي في بدن الإنسان[454]، وورد (عرر ذ غبت)، أي عرر ذو

---

[448] السابق ص15.
[449] السابق ص27.
[450] السابق ص30.
[451] السابق ص31.
[452] السابق ص33-34.
[453] السابق ص34.
[454] السابق ص39.

غابة، والعرر والعر، الجرب، وهو مرض جلدي معروف. فكأن صاحب الكتابة أراد بها أن الإله ذو غابة يرسل هذا المرض إلى مخالفيه، ومن يعارض أحكامه أو يعتدي على غيره [455]، وأما ود فهو إله عام له شهرة عند العرب، وقد عمت عبادته كل جزيرة العرب . والظاهر أنه كان من الآلهة العربية القديمة وقد بقي معبودًا حتى الإسلام وهو من الأصنام المذكورة في القرآن[456].

لذا، فمن الواضح أن النبي كان يعتقد في أن قوم عاد كانوا يعيشون أو على أقل تقدير جاءوا من اليمن كما يقول بهذا ظاهر القرآن، وكما يقول بهذا جل المفسرين القدامى، ومن سار على دربهم من المتمسكين بظاهر النص القرآني إلى يومنا هذا غير متناسين ما يلزم من التفرقة الضرورية بين اعتقاد النبي وعرب الجزيرة قبيل الإسلام عن موطن قوم عاد، وما يثبته العلم الحديث عن مكانهم وزمانهم، فليس هذا الاتفاق أو الاختلاف مما يهمنا في شيء، ولأن النبي كان يعلم بأسماء تلك الآلهة الجنوبية التي كانت شائعة في عصره، وكان يعتقد كما اعتقد العرب أجمعين بأن بلاد اليمن كانت هي أصل العرب وأساس العربية مذ خلقها الله، وأن ساكنيها من تلك القبائل البائدة قد جاءوا بعيد زمن نوح، وقبل مولد إبراهيم بأمد بعيد، فما الغريب إذن أن يعتقد النبي أن أسماء تلك الآلهة القديمة إنما كانت هي أسماء آلهة قوم نوح ذاتها التي أوحى الشيطان إلى قوم نوح بعبادتها، وقد ابتعثها الشيطان ثانية بعد فناء الجيل الأول من المؤمنين الصالحين الذين نجوا مع نوح، فعبدها قوم هود ثم ابتعثهم الشيطان كرة ثالثة لذرية هؤلاء الناجين من قوم هود بعد نسيان عقيدتهم الأولى وانتكاسهم إلى الوثنية، ومن هناك عرف النبي بأسمائهم، ولكنه أرجع ما وجده في الطبقة الأخيرة من نسل قوم عاد إلى أول الطبقات، التى أخذوها بدورهم من أقدم الأسلاف؛ أي من قوم نوح الكافرين؟!

وهذا التفسير إن صح فهو إلى جانب أنه يفسر لنا عربية تلك الأسماء النوحية، فلربما يفسر لنا أيضا هذا اللغز المحير، وهو لماذا كان النبي يظن أن تلك الآلهة التي عرفها في عصره كانت آلهة قوم نوح الكافرين.

---

(455) السابق ص41.

(456) السابق ص41.

سواء أصح هذا الحدس الذي نعتقده أو جانبه الصواب، فهذا ما استطعنا أن نخرج به بعد التأمل الطويل في مشكلة أسماء قوم نوح، ولسنا بحاجة إلى القول بأننا نعتقد اعتقادًا جازمًا بأن تلك القفزة إن حدثت لم تكن لتحدث يقينًا في الإدراك النبوي بطريقة واعية، بل نعتقد أن تلك الأسماء قد طفت بغتة على سطح العقل النبوي، وجرت على لسان النبي وهو يستلهم في أعماقه قصة ما جرى بين نوح وقومه، ولكن تلك الاستلهامات خرجت محملة بما كان يقر في ذهنه من معرفة راسخة لأسماء آلهة عرب جنوب الجزيرة، مع اعتقاده الجازم بشديد قدمها عن أي آلهة أخرى في جزيرة العرب؛ وذلك لأن النبي اعتقد أن عقيدة الشرك كانت عقيدة دخيلة على أهل مكة، ومن حولها بعد التوحيد القديم الذي جاء به إبراهيم، واستمر في أبناء إسماعيل حتى جلب إلى العرب (عمرو بن لحي) ما جلبه إليهم من الأصنام في إحدى سفراته إلى بلاد الشام. وربما لم يحل بين النبي بأن يقول إن أصنام قوم نوح المعبودة كانت: اللات والعزى أو مناة أو هبل، إلا بسبب ما كان معلومًا عنده وعند غيره من حداثة تلك الأصنام، وأنها قد جلبت في وقت متأخر كما قلنا على يد عمرو بن لحي الخزاعي في إحدى سفراته إلى بلاد الشام، ربما في أوائل القرن الرابع الميلادي، ولكي يتوافق من ناحية أخرى مع ما اعتقده النبي من قدم التوحيد الإبراهيمي عند أهل الحجاز.

هذه الطريقة في التفكير إن بدت عجيبة غريبة فإنها في الحقيقة لا عجب ولا غرابة فيها؛ لأنها تتأسس على لبنات اعتقادية صلدة لم يكن النبي ليشك فيها قط، وكيف يشك فيها وقد أقام نظامه وتصوره الروحي والتاريخي على أساس منها؟

فقد آمن النبي كما علمنا بأن العقيدة الإلهية قد تنزلت من السماء تامة كاملة مع آدم، واستمرت هكذا في بنيه من بعده حتى انتسخ العلم، وقدم العهد بالنبوة والأنبياء، فأوحى الشيطان إلى بعض قوم نوح بعد ذلك بعبادة هؤلاء الأسلاف الصالحين فعبدوها معتمدًا في ذلك كما رأينا على مروية تلمودية تقول بمثل هذا، وإذا علمنا أن المفسرين الذين تابعوا القرآن على تلك الطريقة قد أرجعوا الأمر أيضا إلى الشيطان، فماذا كان أمام الشيطان سوى أن يذكر قوم عاد وقد طال عليهم الأمد بدعوة هود بأسماء تلك الآلهة الأولى التي عُبدت بإيحائه منذ أقدم الأزمان؟

على القارئ الكريم لكي يسهُل عليه أن يتصور تلك الطريقة في تفسير الظواهر الدينية أن يتذكر حقيقة واحدة، لا أنفع منها في هذا المقام، وهي أن الاعتقاد في الشيطان

ودوره كان شيئًا جديًا، بل كان شيئًا بالغ الجدية في تلك الأزمنة القديمة، ولم يكن أهل تلك الأزمنة ليشكوا في وجوده، بل ما كانت بعض الأفعال الغريبة عندهم لتحدث في العالم إلا من خلاله، وبوحي منه؛ لأنه إذا كان من الميسور على القارئ المعاصر أن يعتقد بأن تعدد الآلهة كان شيئًا طبيعيًّا، ثم سما الناس إلى توحيد الله بعد أطوار وأطوار من التنزيه والارتقاء، فماذا كان يستطيع من كان يعتقد خلاف هذا، بل كان يعتقد اعتقادًا راسخًا بأن التوحيد الخالص كان حجر الزاوية في دعوة الأنبياء جميعا مذ خلق الله الإنسان الأول، إلا أن يعتقد في دورة لا تنتهي من النكوص والارتكاس إلى وهدات الشرك؟ وأوكل الله تلك المهمة إلى المغوي الأثيم الذي أناط الله به هذا الدور البغيض!

العودة إلى الشرك

لا يَذْهَبُ اللَّيْلُ والنَّهارُ حتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ والْعُزَّى، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أنْزَلَ اللَّهُ: *هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ* (الصف: 9) أنَّ ذلكَ تامًّا، قالَ: إنَّه سَيَكونُ مِن ذلكَ ما شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَن في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ، فَيَبْقَى مَن لا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إلى دِينِ آبائِهِم(457)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ) . وَذُو الْخَلَصَةِ: طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ(458)، "لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد القبائل من أمتي الأوثان (459)، "على أننا لو فرضنا أن الأرض قد طهرت من أدران الشركيات والوثنيات على اختلاف أنواعها فلا يجوز لنا أن نبيح اتخاذ الوسائل التي يخشى أن تؤدي إلى الشرك؛ لأننا لا نأمن أن تؤدي هذه الوسائل ببعض المسلمين إلى الشرك، بل نحن نقطع بأن الشرك سيقع في هذه الأمة في آخر الزمان إن لم يكن قد وقع الآن(460)".

---

(457) انظر: ج1، ص31، من "السلسلة الصحيحة" للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى- 1995م.

(458) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. أخرجه البخاري برقم 6699. انظر تخريج الألباني لمشكاة المصابيح للتبريزي، برقم 5518، ج3 ص 1527، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م.

(459) "صحيح الجامع الصغير وزياداته" الألباني، ج1، ص 365 برقم 1773.

(460) الألباني "تحذير الساجد"، ص 90. بل إننا نجد أحد كبار المفسرين وفقهاء أهل الحديث يقول إن يعوق ونسرا قد عبدا في قريته التي ولد ونشأ بها! "من عجيب ما يدعو إليه الشيطان أن يعوق ونسرا عبدا في القرن الرابع عشر في

أما كيف تبنى النبي هذا التصور؟ فكل ما هنالك هو أن النبي قد أبّد تلك الحكاية التلمودية عن إغواء الشيطان للبشر ودفعهم إلى الشرك، وجعل من تلك الحكاية التلمودية العابرة تفسيرًا أبديًّا لكل سقوط عن التوحيد ورجوع إلى الشرك، ولا أدل على تصديق النبي الكامل في صحة هذا التفسير من أنه قد تخوف صادقًا كل الصدق وهو على فراش موته من أن تنتكس أمته إلى الشرك وبوحى من الشيطان أيضًا، ومتسللاً إليهم كذلك من الثغرة القديمة ذاتها؛ وهي الغلو في تمجيد الصالحين وتقديسهم، وسوف نرى في القسم الثاني من هذا الكتاب أن النبي قد تنبأ بأن بعض الآلهة العربية التي دمرها بنفسه سوف تعبد ثانية في نهاية الزمان، ولن يعبدها من بين العرب جميعًا إلا الذين كانوا عابديها في عصره، كما يتضح من الأحاديث السابقة وأشباهها كثير كما سنرى.

على هذا، فنحن نعتقد أن النبي كان يعتقد بأن تلك الآلهة التي عبدها قوم عاد إنما كانت هي أسماء آلهة قوم نوح؛ لأن آلهة قوم عاد وقد بلغته أسماؤها كانت في اعتقاده أقدم الآلهة التي عبدها أهل الأرض بعد الطوفان، ولا ينبغي لأحد أن يتوقف عند تلك القصة السخيفة التي زعمت أن الشيطان قد كشف لوليه عنها، فليس من ضرورة لها، ولم يكن النبي بحاجة إلى الاعتقاد بأن تلك الآلهة كانت هي أعيان آلهة قوم نوح التي ذهب بها الطوفان، بل كان يكفي أن يبتعث الشيطان أسماءها لتتجسد ثانية في أصنام جديدة اتخذها قوم عاد بعد ارتكاسهم الي الوثنية، تمامًا كما سيوحي الشيطان إلى العرب في آخر الزمان بعبادة اللات والعزى وذي الخلصة رغم أن أعيان تلك الآلهة العربية قد دمرها النبي، إما بنفسه كما في آلهة الكعبة وأصنامها، أو أرسل سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها، ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره، وبعث رجالا من أصحابه إلى القبائل، فهدموا أصنامها(461)، فقد أرسل مثلا صاحبه جرير بن عبد الله البجلي لتدمير ذي الخلصة الذي كانت تعبده قبيلة خثعم ودوس وبجيلة(462)، في سابقة

قرية ليوه حيث كانوا يستسقون بهما"، "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة 2003م، ج5، ص 443.

(461)"السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية عشرة 1425 هـ- ص 461.

(462)عن ذي الخلصة راجع كتاب "معجم المعالِم الجغرافية في السيرة النبوِية"عاتق بن غيث الحربي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1982 م، ص 113.

هي الأعظم في تاريخ الأديان كلها؛ حيث لم يفلح نبي من الأنبياء في دحر الوثنية كما أفلح محمد، ومع ذلك لم يجد النبي مشكلة في التنبؤ بعودة العقيدة الوثنية ثانية إلى بلاد العرب في نهاية الزمان، وقال إن العرب سوف يعبدون الآلهة ذاتها التي دمرها في حياته، ما يقطع بأن أسماء تلك الآلهة العربية هي التي سوف تستعاد لتعبد مرة أخرى في هيئة أصنام وأوثان جديدة، وليس من الضروري أبدًا أن يخلق الشيطان للعرب تلك الأصنام بعد كسرها وتدميرها.

إذا صدق تفسيرنا بأن النبوءات المحمدية لأحداث نهاية الزمان ما هي في جوهرها إلا تعبير يلخصه هذا القانون النبوي الصارم عن استدارة الزمان وملخصه: "إن الحاضر ليس إلا الماضي، وليس المستقبل سوى استعادة الحاضر!"، فما وجه العجب إذن فيما نقدمه؟

ثالثا: الرسالات الإلهية في القرآن بين العموم وبين الخصوص.

قبل أن نشرع في محاولة الإجابة عن هذا السؤال المهم: عن مدى توافق زمني عاد وثمود كما جاء في القرآن وما يقرره التاريخ من تأخر زمانيهما كثيرا عن تلك الفترة التي قال بها القرآن، ونحاول أن نفسر ما دعا النبي إلى ذلك، فلربما يحسن بنا أولا أن نستحضر في أذهاننا إجابة القرآن الكريم عن السؤال المهم عن عموم الرسالات الإلهية وخصوصها لأهميته البالغة في هذا المقام.

فمن بين الأسئلة التي تثيرها الرؤية القرآنية لمفهوم الوحي والهداية الإلهية للبشر، هذا السؤال الذي يفرض نفسه على كل من يتدبر القرآن الكريم، وهو عن التوفيق بين الآيات القرآنية التي قررت على نحو لا لبس فيه إرسال الله رسلا إلى جميع الأمم والشعوب، وقبول النبي في الوقت عينه للتصور اليهودي - المسيحي باختصاص إبراهيم وبنيه من بعده بالنبوة، فكيف يمكن التوفيق بين هذين التصورين المتعارضين؟ وهل هما حقا متعارضان؟

فلنقرأ أولا بعض الآيات القرآنية التي تقرر هذا العموم:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

(النَّحل: 36)، *إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤* (فَاطِر: 24)، ولا خلاف بين المفسرين قدماء ومحدثين على ما يدل عليه ظاهر هذه الآيات من استغراق الرسالات الإلهية لجميع الأمم والشعوب التي خلقها الله: *وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أَيْ وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ الله تعالى إِلَيْهِمُ النُّذُرَ، وَأَزَاحَ عَنْهُمُ الْعِلَلَ، كَمَا قَالَ تعالى:* إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧* (الرَّعْد: 7) وَكَمَا قَالَ تعالى: *وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ٣٦* (النَّحل: 36)، وَالآيات فِي هَذَا كَثِيرَةٌ[463]، "أقول: وهذه الآية أصل في الدلالة على أن كل الأمم قد أرسل لها رسل، لا كما يظن بعض الناس أن الرسل محصورون في منطقتنا أو فيما هو قريب منها، إلا أننا لا نصف أحدًا بالرسالة إلا من ثبتت بالنص رسالتهم[464]".

أما الآيات التي تنص على تخصيص ذرية إبراهيم بالنبوة وحصرها فيهم فكثيرة، ومنها: *وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦* (الحَدِيد: 26)، *وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧* (العَنكَبُوت: 27)، وعن معنى هذه الآية يقول ابن كثير: *وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ ٢٧*، هذه خِلْعَة سَنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إمامًا، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم ، إلا هو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في

[462]"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير- محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - 1419 هـ- ج6 ص 481.

[463]"الأساس في التفسير" سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة 1424 هـ، ج8، ص4593.

الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم؛ ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام [465]".

إن القراءة المدققة تطلعنا على أنه ما من تعارض بينهما؛ فمن المنظور القرآني إن رسالات الله لم تنقطع قط بعد الرسالة الأولى التي جاء بها نوح؛ فقد خرج من ذرية نوح وحده دون بقية المؤمنين الناجين جميع الأنبياء والمرسلين؛ إذ سيخرج من نسل نوح أنبياء العرب مثل هود وصالح، وسيأتي بعد ذلك إبراهيم من نسل أحد أبنائه، وستبقى في ذريته وحده النبوة والكتاب، وهذا التصور النبوي كما هو واضح يتابع التصور العنصري البغيض للتوراة وكاتبيها في اختصاص نسل إبراهيم بهذا الدور، رغم أن التوراة سوف تضيق دائرة النبوة وتتخصص أكثر فأكثر في خط واحد، فمن بين أبناء إبراهيم ستكون في إسحاق وحده دون بقية أبنائه، ومن ابني إسحاق ستمتد عبر يعقوب وحده، حتى تستقر أخيرا في بيت داود!

متى إذن أرسل الله أنبياءه إلى جميع الأمم؟

"وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم نبي مكلم. قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضع عشر جمًا غفيرًا. وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا[466]".

ربما يحق لنا أن نستخلص من قراءتنا المباشرة للقرآن بأن جميع الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأمم الأخرى الذي اعتقد النبي أنها حتمًا قد تلقت جميعها رسالات الله كانوا في تلك الفترة الفاصلة بين نوح وإبراهيم. وهذا الفهم الذي نعتقده ربما يسهم في تقديم حل مقبول لفهم كيف أفلح النبي في التعامل مع تلك المشكلة العويصة التي واجهت العقل النبوي؛ فقد آمن النبي كما علمنا بأن رعاية الله لم تستثن شعبًا واحدًا من شعوب الأرض، ومن ناحية أخرى فقد تابع التصور اليهودي وإن أوسعه قليلا في اختصاص السلالة

[464]"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999م، ج6، ص 275.

[465]انظر سند الحديث في تحقيق الألباني لكتاب "مشكاة المصابيح" برقم 5737.

الإبراهيمية بالنبوة والأنبياء. ومن الصحيح أيضا القول بأن القرآن لم يخبرنا عن أي من تلك الأمم التي أرسلت إليها الرسالات، ولم يخبرنا بشيء عن أسماء هؤلاء الأنبياء، ولكن من يقرأ ما جاء في الخطاب الإلهي أو على ألسنة الأنبياء، فسوف يعرف أن العدد الأكبر من تلك الجموع الحاشدة من الأنبياء، وقد بلغ بهم النبي محمد عشرات الآلاف كما يدل على ذلك هذا الحديث السابق، قد أرسلوا إلى أقوامهم في تلك الفترة دون سواها.

ومما ساعد النبي على قدرته على الجمع بين عموم الرسالات وخصوصها في الوقت ذاته، هو ضيق معرفته عليه السلام بتاريخ العالم واتساعه، فمن ينظر في تاريخ الجماعات البشرية سواء في العهد القديم أو في القرآن الكريم، فلن يجدها تخرج عن هذه المنطقة العربية، فقد كانت الجماعة البشرية عند كتبة العهد القديم، وعند النبي محمد هم سكان هذا الجزء من العالم فحسب يضاف إليها مصر في الزمن القديم لارتباطها بأحداث التاريخ اليهودي، وفارس والروم في عصر النبي، وربما الهند أيضا لتاريخ تواصلها التجاري من قديم الأزمان مع العرب، ولا نشك في أن النبي لم يكن ليعلم شيئا قط عن سكان أوروبا، أو الأجزاء النائية من آسيا قارة الأنبياء، أما سكان ما سماه الأوروبيون (بالعالم الجديد) أي سكان الأمريكتين وأستراليا ومئات الجزر في المحيطين، فلم يكن النبي أو سواه يعرف عنهم شيئًا حتى بعد رحيله بما يقارب الألف عام.

وعندما يتكلم القرآن عن: *وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾* فلا ينبغي أن يظن أحد بأن القرآن كان يعنى جميع الأمم والشعوب التي تفرعت إليها الجماعة البشرية، وأنه قد جاءها نبي من قبل الله يبلغها ما يريده لها من رشاد، وما يكلفها به من توحيده وعبادته؛ فلم يكن النبي يعرف بوجود تلك الأمم البعيدة عن موطنه، وإن عرف بوجودها فلم يكن يعلم أي شيء عن علومها ومعارفها وفلسفاتها وأديانها. وعلى هذا، فتلك الآية وإن دل ظاهرها على استغراق الأمم والشعوب كافة، فالمراد بها تلك المسيرة الزمنية القصيرة من آدم إلى محمد؛ أي المدة التي لا تتخطى عدة آلاف قليلة من السنوات، وأن المقصود بالأمم هي تلك الشعوب التي سكنت هذا الجزء من العالم القريب من بلاد النبي، وعرف بوجودها بهذا القدر أو ذاك. فلم يكن النبي ليعتقد مثلا في قدم الجماعة البشرية إلى تلك الملايين من السنين، وكان ليصدق بوجود أديان عظمى يفوق عدد معتقديها أتباع الأديان الكتابية الثلاثة، ولا موضع فيها لمفهوم النبوة ولا الأنبياء؛ مثل منظومة الأديان الآسيوية الكبرى كالهندوسية أو البوذية أو الكونفوشيوسية أو الشنتوية، بل ظن

بأن جميعهم كانوا على نحو قريب مما عرف، واعتقد جازمًا متابعا في ذلك التصور اليهودي المسيحي أن الله لم يمنح هدايته إلا لسكان تلك البقعة الصغيرة من الأرض، وضن على الهنود والصينيين واليابان وسكان الأمريكتين قبل كولومبس بأي هداية إلا لو صدقنا تلك الجملة التي يرددها المسلمون التى كما يعوزها الذكاء، فهي يعوزها الذوق السليم من أن الله قد أبلغهم ما أراد، ولكنهم نسوا كما يقول أحد المشايخ الموقرين.

ربما أصبح الآن من الميسور للقارئ أن يتوقع اعتقاد النبي بأن جميع تلك الأمم التي أرسل الله إليها كل هؤلاء الأنبياء قد جحدوا أنبياء الله وعصوا رسله، ولم تخرج تلك الشعوب عن أمم قد عجل الله لهم العقوبة والعذاب في الدنيا فبادوا، وهم الكثرة الغالبة كما يظهر من إشارات القرآن العديدة إلى كثرة القرون الهالكة بعد نوح، أو أرجئوا لحكمة يعلمها الله لعذاب الآخرة، ومن نسل هؤلاء تلك الأمم التي عاصرت النبي أو سمع شيئًا من أخبارها: *وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾* (الإِسۡرَاء: 17)، *وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾* (مَرۡيَم: 98)، *وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾* (القَصَص: 43).

لذا، فعلى المسلم الذي يريد أن ينطلق من مسلمات النبي وتسلسله المنطقي لمسيرة الرسالات الإلهية وحضورها بين جميع الأمم الأخرى خارج بنى إسرائيل والعرب مثل الهنود والصينيين والمصريين والفرس والروم وسواهم، أن يعتقد في إرسال الله أنبياءه إلى تلك الأمم في تلك الفترة دون سواها! وعلى هذا، فلماذا إذن أوغل النبي بعاد وثمود بعيدا هكذا في التاريخ؟

في البداية، علينا أن نقرر بأن الكثيرين قد لاحظوا من قبل هذا التعارض الصارخ بين ما جاء به القرآن الكريم عن زمني عاد وثمود، وما قرره التاريخ من حضورهما في زمن أقرب بكثير إلى زمن البعثة النبوية، مثلما رأينا عند صاحب المفصل الذي آثر أن لا يتوقف عند تلك المشكلة، وراح يتابع تفصيله لتاريخ العرب قبل الإسلام، وهناك من توقف عندها من أصحاب الأديان الأخرى قديمًا وحديثًا، ولم تكن تعنيهم تلك القضية في شيء سوى الاعتماد عليها كبرهان واضح لبيان جهل النبي التاريخ، ويتخذها حجة

على هدم نبوته، ولكننا لم نجد أحدًا فيما نعرف قد حاول أن يتلمس إجابة معقولة عن هذا السؤال المشروع: لماذا فعل النبي محمد هذا؟ وأي ضرورات ذاتية ألجأته إلى ذلك؟

لكن من يستقرئ التصور النبوي عن التاريخ، فسوف يجد أن النبي لم يكن ليضع تلك الأقوام العربية القديمة إلا في هذا الموضع دون سواه، ولأسباب بدت له معقولة للغاية خلف هذا الترتيب؛ أما أولها: فقد جاءه من سطوة تأثير المرويات العربية الجاهلية، التى بالغت كثيرًا في قدم عاد وثمود حتى جعلتهما أول العرب قاطبة، ولم يكن لدى النبي ما يجعله يخالفها في هذا الجانب، بل ربما كان في شيوع القول بشديد قدمهما ما يتوافق مع رؤيته الدينية؛ فكما رأينا فقد تابع النبي التصور الكتابي عن اختصاص إبراهيم وذريته من بعده بالنبوة، وما كان النبي ليجعل تلك الأقوام البائدة الهالكة من ذرية إبراهيم، فكان في الاعتقاد بسبقهم عليه حلا مريحا لتلك المشكلة؛ لأنها تجمع له بين الاعتقاد في نبوة هود وصالح لكونهما من ذرية نوح، ولا تتعارض في الوقت ذاته مع التصور الكتابي المحزن عن اختصاص بني إبراهيم بالنبوة الذي آمن النبي بصحته تمام الإيمان .

يضاف إلى ذلك سبب آخر، وهو الاعتقاد المحمدي الراسخ في هلكتهم التامة، ويبدو من استقراء قصص القرآن الكريم أن الهلاك العام للأمم لم يكن بعد بعثة موسى وإنزال التوراة، فكان في شيوع القول باندثار تلك الأمم الكامل في قصص الجاهليين سندًا إضافيًّا عنده لتقدمهم على زمن موسى كما تدل على ذلك هذه الآية: *وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾* (القَصَص: 43)، وكذلك يؤيده هذا الحديث: "ما أهلك الله قومًا ولا قرنًا ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء، غير أهل القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى:*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *﴿٤٣﴾[467]"، وفي تفسير هذه الآية السابقة من سورة القصص التى أشار إليها الحديث يقول ابن كثير:

[466]انظر تخريج الألباني لهذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم 2258.

"يُخْبِرُ تعالى عَمَّا أَنْعَمُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ، عَلَيْهِ مِنْ ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه. وقوله تعالى: *مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ الله من المشركين*، كما قال تعالى: *وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً[468]*.

لذا، فمن يقرأ هذه الآيات القرآنية الجامعة فسوف يجدها تطبيقًا مختلفًا لهذا الاختصاص كما عالجه النبي، وبما أحدثه فيه من تطوير *وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾* (الأَنْعَام: 83–90).

من ينظر في أقوال المفسرين لتلك الآيات فسوف يجدهم، وقد توقفوا طويلا أمام تلك المشكلة الهينة اليسيرة؛ وهي كيف يمكن عدُّ لوط من ذرية إبراهيم، ومن المعلوم للجميع أنه ابن أخيه؟! فحاول الطبري مثلا أن يجعل عود الضمير إلى نوح لكي يخرج لوطًا، ومعه يونس من نسل إبراهيم لكنهم لم يتوقفوا عند مشكلة أكبر منها؛ وهي عدُّ

[467]"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير ج 6، ص 215.

القرآن أيوب من نسل إبراهيم، ولم يكن لدى النبي من خيار آخر فما دام أيوب نبيًّا، وقد جاء في اعتقاده بعد إبراهيم فلابد وأنه من ذرية إبراهيم علم النبي شيئا عن نسبه أو لم يعلم، وافق ذلك التوراة أو خالفها؛ فالنبي يمضي متسقًا مع القاعدة التي انطلق من تسليمه بصحتها مثلما فعل مع هود وصالح، وهكذا فيمكن القول على الإجمال إن تصور النبي في النهاية قد جاء متسقًا مع رؤيته لتاريخ النبوات والدعوات الإلهية دون النظر إلى الصحة التاريخية لهذا التصور من عدمه؛ لأنه فيما نعتقد تصور غير صحيح ولكن هكذا افترض النبي في البداية، وكان افتراضه الأخير مؤسسًا على افتراضه الأول، هذا كل ما هنالك.

ولربما أضاءت لنا طريقة معالجة النبي لتلك القضية شيئًا عن طريقة تفكير النبي الخاص والمستقل إلى حد ما عن المسلمات الكتابية التي إن آمن بها على الإجمال فإنه كان يتلمس أحيانًا حلولا ذاتية لبعض مشكلاتها، خاصة أن تلك المشكلات لم تكن لتواجه العقل اليهودى - المسيحى، الذي اكتفى بابتلاع ذلك التصور العنصري البائس عن التفضيل الإلهي لبني إسرائيل وكفى.

هذا الاستخلاص إن صح فهو مهم للغاية لهذه الدراسة عن القصص القرآني؛ فقد سبق أن قلنا إن النبي قد انطلق في رسمه لتاريخ الأنبياء الأقدمين من اعتقاده الكامل في تشابه مفردات أهل العصور القديمة مع تصورات أهل عصره من العرب، وأرجعنا ذلك بالأساس إلى متابعة النبي وتصديقه التام لما أوردته المرويات والقصص التلمودية عن تاريخ الأنبياء القدامى، وقد منحتهم قصص التلمود جميع ما بلغته اليهودية المتأخرة من مفاهيم وتصورات عن الله، ولكننا لم نجده وحده تفسيرًا معقولا يكفي لاعتقاده في كل تلك المشابهة التي تنكرها البداهة، ولكن التأمل في هذه تلك الفترة التي معنا واعتقاد النبي في إرسال الله رسلا إلى جميع الأمم قبل إبراهيم، ربما يشكل أساسًا تفسيريًّا معقولا لهذا التصور الغريب. لذا، يمكن القول إن النبي قد اعتمد على حضور هؤلاء الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأمم كافة في تلك الفترة في منحه أحفاد تلك الأمم بعض المفردات الدينية مثل الملائكة للمصريين كما سنرى في قصة يوسف وغيرها[469].

(469) لذا يمكن القول مثلا إن تفسير الأستاذ سيد قطب لمعرفة المصريين للملائكة في قصة يوسف وغيرها وإرجاعه ذلك إلى تسلل بعض المؤثرات التوحيدية هو في العموم تفسير صحيح، ونقصد بصحته أنه يتوافق مع التصور التاريخي للنبي، وإن كنا نظن أن الأستاذ قطب يرجعها إلى حضور إبراهيم وزيارته مصر كما جاء في التوراة، وإن لم يشر القرآن إلى ذلك، وإن جاءت الأحاديث الصحيحة بشيء منه لكننا على خلاف ذلك نرجعها إلى اعتقاد النبي في إرسال الله رسلا

ولعلنا نجد أيضا في تلك النقطة ما يشكل أساس التصور المحمدي الراسخ عن حضور بعض المؤمنين الموحدين في كثير من الأمم الغابرة، ويصبح التفسير المعقول لوجود أمثال هؤلاء عنده هو متابعتهم للبقية الباقية من إرث النبوة القديم الذي شمل الأمم والشعوب كافة؛ إذ كان موحدو تلك الأمم الغابرة عنده يمثلون المقابل الأممي القديم لحنفاء عرب الجاهلية المتأخرين الذين عرفهم النبي بنفسه، وأرجع عقيدتهم الصحيحة تلك إلى أنهم ظلوا على بقية باقية من إرث أبيهم إبراهيم. وكما قبل النبي من هؤلاء الموحدين العرب التوحيد المحض، وجعله كافيًا لنجاتهم، كما يظهر من الأحاديث التي تحسن الظن بل تقطع بحسن المصير لزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل الأسدي، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، ولسواهم أيضا مثلما قيل إن صح عن رأيه في خالد بن سنان العبسي، كما أوردته كتب السيرة النبوية، ولنتوقف قليلا عند أهل الفترة التي نقل النبي من بين إرثها القولي القليل هذه الحكمة: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إذا لَمْ تَسْتَحى فاصنعْ مَا شئْتَ"[470].

أهل الفترة

مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ (الإِسْرَاء: 15–17)، *وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾* (الزُّخْرُف: 28). فَالمَعْنَى: جَعَلَ إِبْرَاهِيمُ قَوْلَهُ: *إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢٧﴾* (الزُّخْرُف: 26–27) شِعَارًا لِعَقِبِهِ، أَيْ جَعَلَهَا هِيَ وَمَا يُرَادِفُهَا قَوْلاً بَاقِيًا فِي عَقِبِهِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، فَلَا يَخْلُو عَقِبُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ مُوَحِّدِينَ لِلَّهِ نَابِذِينَ

إلى المصريين وغير المصريين قبل زمن إبراهيم بقرون عدة، وأنهم أشاعوا بين أهل تلك الأمم جميع مفردات الدعوة الإلهية من توحيد الله وعقيدة البعث والحساب والجنة والنار والملائكة والشياطين، وما إلى ذلك أما الحقيقة الواضحة فهي أن تلك المعارف قد نسبت إلى المصريين عن طريق الخرافات التلمودية، ومن ثم ظهرت في القرآن الكريم .

[470]رواه البخاري.

لِلْأَصْنَامِ. وَأَشْعَرَ حَرْفُ الظَّرْفِيَّةِ بِأَنَّ هَاتِهِ الْكَلِمَةَ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَ عَقِبِ إِبْرَاهِيمَ دُونَ أَنْ تَعُمَّ الْعَقِبَ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالْعَقِبِ مَجْمُوعُ أَعْقَابِهِ فَإِنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ لَمْ تَنْقَطِعْ مِنَ الْيَهُودِ وَانْقَطَعَتْ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ أَنْ تَقَلَّدُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ إِلَّا مَنْ تَهَوَّدَ مِنْهُمْ أَوْ تَنَصَّرَ، وَإِنْ أُرِيدَ مِنْ كُلِّ عَقِبٍ فَإِنَّ الْعَرَبَ لم يَخْلُ مِنْ قَائِمٍ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ مِثْلَ الْمُتَنَصِّرِينَ مِنْهُمْ كَالْقَبَائِلِ الْمُتَنَصِّرَةِ وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، وَمِثْلَ الْمُتَحَنِّفِينَ كَزَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وَأُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ(471)".

إذن ربما كان من اعتقاد النبي بحضور الأنبياء في جميع أمم في تلك الفترة الباكرة من حياة البشر أنه كان ينطلق من افتراض أن جزءًا أساسيًّا من ميراث النبوة القديم ذاك ظل حاضرًا أبدًا في نسل تلك الأمم، مهما تأخر زمنهم عن هؤلاء الأنبياء، ولذا فلم يكن من الغريب مثلا أن نجد بين كثير من الأمم الكافرة بعض المؤمنين؛ لأنهم كانوا يتابعون هذا الإرث النبوي القديم، وأعانتهم عليه فطرهم السليمة، وأما هذه الآية من سورة الإسراء: *وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝* فأغلب الظن أنها تعني بالعذاب نزول العقوبة العامة بأهل الجيل كله، فلابد من أن يسبقها رسول يرسل ويكذب، وأما مصائر آحاد الناس فإنما يثابون إن ظلوا على توحيد الله فحسب، ويعاقبون إن تنكروا لهذا الأمر الواحد، الذي لا نجاة بدونه، وهذا يفسر لنا حكم النبي الجازم بالهلاك لمن مات في أهل الفترة، ومن بينهم أحب الناس إلى قلبه مثل أمه وأبيه وعمه أبى طالب، وما نجده من شدة في الحكم على مصائر بعض من أدركه من كرام العرب، وأهل النجدة منهم كما في هذا الحديث: "وفي رواية أخرى: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يقري الضيف ويصل الرحم ويفك العاني ويحسن الجوار، فأثنيت عليه، هل نفعه ذلك؟ قال: فذكره(472)".

فهنا نرى أن النبي لم يقبل من عبد الله بن جدعان التيمي وهو سيد من سادات مكة قبيل البعثة - تلك المكارم كلها؛ لأنها كانت غير مؤسسة على الإيمان بالله وتوحيده ، بخلاف من آمن به من أصحابه الذين فعلوا ذات الصنيع الجميل في الجاهلية مثل قوله عليه السلام لحكيم بن حزام وقد سأله عن بعض الأفعال الطيبة التي كان يتحنث بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم هل يؤجر عليها ؟ فقال له : (أسلمت على ما

(471)"التحرير والتنوير" ج25، ص 194.

(472)"السلسلة الصحيحة" للشيخ الألباني، برقم 249، ج1، ص 497.

أسلفت من خير[473])، بل إننا نجد تسامحًا عجيبًا مع بعض المسرفين على أنفسهم كما يتجلى من هذا الحديث: "كان رجل ممن كان قبلكم لم يعمل خيرًا قط إلا التوحيد فلما احتضر قال لأهله: انظروا: إذا أنا مت أن يحرقوه حتى يدعوه حممًا، ثم اطحنوه، ثم اذروه في يوم ريح، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فلما مات فعلوا ذلك به فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، فإذا هو قائم في قبضة الله فقال الله عز وجل: يا بن آدم ما حملك على ما فعلت؟ قال: أي رب من مخافتك. وفي رواية: من خشيتك وأنت أعلم قال: فغفر له بها ولم يعمل خيرًا قط إلا التوحيد[474]".

لكن يبدو من مجموع الأحاديث التي تنسب إلى النبي بشأن مصير أهل الفترة، أن النبي لم يكن مطمئنا إلى تلك القاعدة بشكل كامل؛ لذا نجد أحاديث من هذا القبيل: "أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة؛ فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا و سلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها[475]".

لو صح هذا الحديث الأخير لكان حلا نبويًّا موفقا لتلك المشكلة التي لم يكن النبي فيما يبدو مطمئنًا بشكل كامل إلى أي من الجوابين فيها: أي من الحسم الكامل بدخول جميع من لم يمت على التوحيد في النار، أو القول بنجاتهم جميعًا رغم كفرهم؛ لأن الله لم يقم عليهم حجته بإرسال الرسل، وهو حديث يبدو لنا متوافقًا مع طريقة التفكير النبوي فهو مخرج على كل حال.

(473)"السلسلة الصحيحة" للألباني، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، 1995م ج1، ص 377.

(473)"السلسلة الصحيحة" للألباني، الحديث رقم 3048.

(475)"صحيح الجامع" للألباني، رقم 881.

ختم النبوة أيضا!

ربما كان إعلان النبي نفسه رسولا لجميع البشرية أثرا من آثار قبوله لهذه الفكرة؛ فقد كان من الضروري عنده أن تشمل الرحمة الإلهية جميع البشر من جديد، بعد أن انقطعت الرسالات طويلا عن كثير من الأمم والشعوب، وطال انحصارها في بني إسرائيل، وإذا كانت النبوة قد تقاسمها من المنظور القرآني ابنا إبراهيم، إسحاق وإسماعيل، فمن إسحاق سيكون الأنبياء العبرانيون، ومن الفرع الآخر سيكون شعيب، وسيخرج من ذلك الفرع الإسماعيلي النبي محمد ليكون نبيًّا لجميع البشر وخاتمًا لهم كما لو كان نوحًا جديدًا للبشرية. وسيكون إعلانه اكتمال رسالته ختمًا للنبوة، وبيانًا في الوقت عن نهاية العالم القريبة بعد نجاح دعوته، واعتقاده في دخول جميع البشر سريعًا تحت راية الدين الأخير، سواء أكان ذلك بالإيمان الكامل وقبول ما جاء به، أو بالانصياع الراغم لأحكام شريعته التي هي الطوفان الأخير؛ فمن يؤمن بها فقد نجا، ومن كفر به وبرسالته فقد سوف يلحق بمن غرق مع الغارقين.

هكذا، إذن، ستكتمل دائرة الرسالات الإلهية برسولين لجميع البشر، كان أولهما نوح وآخرهما محمد، وستكون أمة محمد الموحدة لله هي المقابل الجديد للأمة الواحدة التي كانت البشرية عليها قبل ظهور الشرك، وما كانت تلك الرسالات كلها إلا لكى تخرج تلك الأمة، وأما قد أتت خير أمة أخرجت للناس، فماذا بعد ذلك إلا نذر النهاية القريبة لتجربة الخليقة الإنسانية، وإسدال الستار على حضور الإنسان في العالم؟! كما سنرى في القسم الثاني من هذا الكتاب.

رابعا: أين إذن ذهبت عاد وثمود؟!.

" نصرت بالصبا و أهلكت عاد بالدبور"[476]

يستفاد من مجموع الروايات الإخبارية العربية عن مصير عاد وثمود، وأيده على نحو ما ما جاء في بعض كتب التاريخ الحديثة يضاف إليه ما جاء بشأن مصيرهما في القرآن الكريم، على حدوث كارثة عنيفة حلت بساحة عاد ووقع مثلها لثمود، وإلا فما معنى تخصيصهما بهذه الأخبار الفاجعة من بين مئات أو ألوف القبائل العربية التي عاشت وفنيت في جزيرة العرب التى سكنها هذا الجنس العريق من الساميين قبل ألوف

---

[475]أخرجه البخاري برقم (1035) ومسلم برقم (900). انظر الأحاديث الصحيحة للألباني (62). وراجع إسناد هذا الحديث في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزياداته" الألباني، المكتب الإسلامي برقم 6762، ج2، ص 1154.

السنين؟ ما يرجح معه اشتمال تلك المرويات على نواة لخبر حقيقي صحيح، ولكننا لا ندرى عنه في الحقيقة شيئًا كثيرًا، لكنه كان بلا ريب سببًا كافيًا لاختفائهما كشعبين وانقطاع أثرهما في التاريخ العربي القديم، ودون أن يعنى هذا أبدًا أن تلك النهاية العنيفة لهاتين القبيلتين العربيتين كانت بسبب من كفرهما وتمردهما على رسالات الله وجحودهما أنبياءه؛ فالأسباب الطبيعية كانت تكفي وحدها وزيادة.

أما عن سبب هلاكهما، فلربما كان ذلك مثلا بسبب مجاعة شديدة أحدثها انحباس المطر عنهم لسنين متتالية؛ لذا فلا عجب إن حدث هذا أن يتبدد أفرادها، وأن يذوبوا تدريجيا في غمار قبائل أخرى أوفر عددًا بأن ينتسبوا إليها كأفراد في رابطة (الولاء) العربية؛ وأن يحملوا أسماء قبائل من يعيشون في جوارهم وكنفهم، ولكن هذا يوحى بقلة عدد تلك القبيلة المتحضرة أو شبه المتحضرة؛ وذلك لأن القبائل البدوية دائمًا ما تتجاوز أمثال تلك المحن التي لا تنفك عن نمط العيش هذا بالهجرة والانتقال السريع من أماكن الجدب والندرة إلى أماكن الخصب والوفرة؛ ومن ثم يستمرون بالعيش، خاصة لو كانت قبيلة عظيمة العدد شديدة البأس فتستطيع أن تجد لها بقوة أسياف رجالها موضعًا بين القبائل الأخرى التي تستقر بجانبها، كما حدث مثلا للقبائل اليمنية التي هاجرت إلى شمال الجزيرة بعد تصدع سد مأرب وقبله أيضا؛ إذ استطاعوا بسبب من قوتهم أن يكونوا سادة أنفسهم في موطنهم الجديد.

من يدرى؟! فلربما تعرضت عاد وثمود لكارثة مفاجئة أودت بهم جميعًا مثل ثوران بركان مدمر كما حدث لمدينة بومبي الرومانية عام 79 م، أو تكون قبيلة عاد قد تعرضت حقا لعاصفة رملية عاتية دامت أياما متوالية فطمرت قصورهم ودفنوا تحت الرمال، على صعوبة تصور ذلك مع ما نسبه إليهم القرآن من منجزات معمارية هائلة، بحيث يختفون تمامًا ودون أن يعثر على أثر واحد من تلك الآثار الجليلة لنعرف منه ما كانوا عليه قبل تعرضهم لتلك النازلة، ولكنه على صعوبته أمر ممكن الاحتمال على كل حال، والأرجح أن تلك القبيلة العربية المنكودة لقيت حتفها بشيء قريب مما قاله الإخباريون، وأثبته القرآن الكريم، والأكثر ترجيحًا أنه كان لديهم شيء ما من تلك الإنشاءات التى كانت عظيمة حقا بمقاييس العرب فحسب، لكن المبالغات قد ذهبت بعيدًا في وصف جلال تلك الأبنية المعمارية، لا لشيء سوى لأن العرب الأقدمين لم يروا ما شيدته الأمم الأخرى من عظيم الآثار؛ فبالغوا كثيرًا في عظمتها ومهابتها، وتابعهم

القرآن على ذلك حتى جعل ما شيدوه مما لم يخلق الله مثله في البلاد كما تقول سورة الفجر *إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧* (الفَجۡر:7)[477].

أما عن اختفائهم الفجائي من مسرح التاريخ فهو أمر لا غرابة فيه أيضا؛ فمن يقرأ تاريخ العالم القديم فسوف يرى أمثلة كثيرة لمثل تلك الاختفاءات الفجائية لشعوب بأكملها لا لقبيلة بدوية صغيرة كانت تعيش في الصحراء، بغض النظر عن الأسباب بالغة التنوع لإحداث هذه النتيجة، ومن ذلك الاجتياح الشامل لأرضها من أمة عنيفة محاربة فتحتل ديارها كما حدث مثلا مع مملكة (ميتاني)، ومن اختفائها الفجائي من على صفحات التاريخ بعد الفتح الآشوري لتلك البلاد في القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبا على يد (شالمنصار الأول) ملك آشور، وكذلك مثل ما يقال عن المصير الغامض لقبائل اليهود العشر التي هُجرت عنوة بعد الغزو الآشوري سنة 722 ق م، وكذا اختفاء دولة الحثيين نتيجة هجرة الشعوب الإيجية المعروفة في النصوص المصرية القديمة باسم شعوب البحر في نحو القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلخ، فأمثال تلك الأسباب وغيرها كانت أكثر من كافية لأن تفقد استقلالها وتنتهي كجماعة حضارية خاصة، ودون أن يعنى ذلك بالطبع انقطاع نسلها وفناءها الكامل من الوجود.

فلا علينا إذن سوى أن نوقن قبل كل شيء في شيوع الاعتقاد باختفاء تلك القبيلتين تمامًا من الوجود قبل زمن البعثة النبوية بقرنين أو عدة قرون تعد على أصابع اليد الواحدة، سواء لمن شاء أن يؤمن بوجود تلك القبائل من أساسه أم لا، رغم ما صرنا نعرفه الآن بعد أن تسرع كثير من الدارسين الغربيين في عدِّهم مجرد قبائل أسطورية من أن تلك القبائل قد وجدت حقا، ولكن بعد مدة بعيدة عن تلك الحقبة السحيقة التي نسبهم القرآن الكريم إليها، ولذلك فلا موضع لقول من يخالف صريح ما أتى به القرآن الكريم من هلكة عاد وثمود التامة مثل هذا الباحث الجليل الذي كتب يقول: "وربما كان المقصود بلفظ بائد هو عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين المسلمين لتاريخ ما قبل الإسلام[478]".

---

(477)لا عجب في تلك المبالغات أيضا، فقد بالغ العبرانيون من قبل في وصف جلال وأبهة هيكل الملك سليمان، وأسرفوا في تعظيمه وتفخيمه كما لو كان أعجوبة معمارية لا نظير لها في العالم كله، ولكن القارئ يعلم أنه كان بناءً تافها صغير القيمة إذا قورن مع أي منشأة متوسطة من إنشاء حضارات البنائين العظام مثل المصريين والبابليين والصينيين وغيرهم!

(477)"دراسات تاريخية من القرآن الكريم" د. محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1988م، ص 240.

ولا ندرى كيف يستقيم هذا القول مع ما قرره صريح القرآن في غير آية بأن عادًا وثمود قد فنيا بالكلية، ولم يبق منهما باقية كما في هذين المثالين اللذين يغنيان عن سواهما[479]، *وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾*(الذَّارِيَات: 41 – 45)، *كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾*(الحَاقَّة: 4-8).

لا ندرى كذلك كيف يسوغ مثل هذا التأويل الغريب، مع ما أطبق عليه المفسرون عند شرحهم لتلك الآيات الأخيرة من سورة الحاقة على سبيل المثال؛ فهي تنص بجلاء لا مزيد عليه على اعتقاد العرب قبيل البعثة في اختفاء تلك القبيلتين تمامًا من الوجود، فليس من المعقول أن يصرح القرآن بهذا عن قوم يُعرف لهم وجود قليل أو كثير في عصره، ثم يعدم من معارضيه أو متابعيه من يقول للنبي: نعم هناك من ينتسب إلى هذه القبيلة أو إلى تلك، وإذا ألقينا نظرة خاطفة على ما قال به المفسرون: لوجدنا أنهم قد أجمعوا قاطبة على غياب كل أثر لهاتين القبيلتين من الوجود زمن البعثة المحمدية كما يتضح من تفسيرهم لهذه الآيات، و"قوله: *فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾- يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء. وقيل: عُنِي بذلك: فهل ترى منهم باقيًا. وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من البصريين يقول:

---

[479] انظر أيضًا الآية (41) من سورة المؤمنين، وسورة القمر (19-20)، وسورة الأحقاف (24-25) .

معنى ذلك: فهل ترى لهم من بقية، ويقول: مجازها مجاز الطاغية مصدر[480]"، "فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ من بقية أو نفس باقية، أو بقاء[481]"،

"فهل ترى لهم من باقية أي من نسلهم، لا شيء إذ هلكوا كلهم أجمعون[482]"، (فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟) ..لا! فليس لهم من باقية!!! ذلك شأن عاد وثمود.. وهو شأن غيرهما من المكذبين[483]، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟ أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خَلَفًا[484].

هل حدثت تلك القصص حقا؟

أما لمن شاء أن يتساءل: هل كان من الممكن أن تحدث تلك القصص حقا على سطح كوكبنا، وضمن ذلك المخطط الزمني الافتراضي الذي وضعها فيه النبي محمد؟ فالإجابة الحاسمة عندنا هي: كلا! فهذا مستحيل، ولن نعتمد هذه المرة على غياب الشواهد التاريخية والأثرية التي تثبت وجود تلك الأمم أم لا في ذلك العصر السحيق؛ أي قبل ما يقرب من ثلاثين قرنا قبل مولد النبي محمد، بل يمكننا أن نعتمد مطمئنين هذه المرة على تناقض تلك الرواية من داخلها، ودعونا نتساءل: هل كانت تلك المدة القصيرة التي تفصل بين نوح وإبراهيم تتسع لشيء من هذا؟

فكما سبق أن قلنا في معرض تعقيبنا على ما أورده كاتب سفر التكوين من أن البشر جميعهم قد خرجوا من نسل أولاد نوح الثلاثة، ولم تمض عنده سوى تلك المدة اليسيرة من الزمان حتى رأينا أحفاد نوح يملأون الأرض، وينتشرون في جميع أقطارها، ويؤسسون إمبراطوريات عظيمة، ويتكلمون بلغات عدة متباينة، وكل هذا قد حدث عنده في غضون عدة مئات قليلة من السنين، وقلنا في موضعه إن هذا أمر غير معقول ولا مقبول!

---

[479]"جامع البيان في تأويل القرآن" لأبي جعفر الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420 هـ - 2000 م، ج23، ص 575.

[480]"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، المحقق: محمد عبد الرحمن، الطبعة الأولى - 1418 هـ، ج5، ص 239.

[481]"أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" لأبي بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة، 1424هـ/2003م، ج5، ص 421.

[482]"في ظلال القرآن" سيد قطب، دار الشروق، ج6، ص 3678.

[484]تفسير ابن كثير، ج8، ص209، تحقيق سامي سلامة.

ويصح أن يقال مثله هنا وأكثر على ما أورده القرآن من أحداث ووقائع يستلزم حدوثها أضعاف تلك المدة التي منحها النبي محمد لتلك الأحداث.

عشرة قرون !

"كان بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ، وبين نوحٍ وإبراهيم عشرةُ قرونٍ[485]".

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ (الزُّخْرُف: 23).

آمن النبي ضمنيًّا بأن طائفة من نسل أولاد الناجين مع نوح في سفينته قد هاجر إلى بلاد العرب، وعاشوا هناك على الإيمان لمدة لا ندري أطالت أم قصرت، ثم مضت بعدها مدة من الزمان كانت كافية لأن ينتكس أحفاد هؤلاء المؤمنين إلى الشرك والوثنية، وصاروا يعبدون إلى جانب الله آلهة أخرى، ثم تمضي بعد ذلك مدة أخرى تكفي لكى يقول القرآن على ألسنة بعض الكافرين من قوم عاد لنبيهم هود: بأنهم كانوا يتابعون ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، ثم يقضى هود في دعوته ما شاء له الله أن يقضى حتى ينزل الله بقومه شديد العذاب فيقضوا أجمعين، إلا ثلة قليلة من أتباع هود ينجيهم الله بفضل إيمانهم، ليعيشوا بعدها ما شاء لهم الله أن يعيشوا على الإيمان، ولا شك في أنها كانت مدة غير قليلة، وقد نظروا بأم أعينهم ما فعله الله في قومهم الكافرين، ثم نجد أعقابهم أو جماعة أخرى قريبة من منازلهم ينتكسون ثانية إلى الوثنية؛ فيرسل الله لهم نبيه صالحًا ليدعوهم إلى التوحيد الذي هجروه إلى التعدد والإشراك، لكنهم لا يقبلون دعوة نبيهم محتجين بأنهم يتابعون ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، فضلا عن رفضهم لمتابعة نبيه صالح رغم تلك المعجزة الخارقة التي كانوا يرونها أمام أعينهم صباح مساء، ثم يصبر عليهم صالح طويلا، كما يصبر كالعادة جميع الأنبياء، وبعدها ينزل الله بهم جميعًا عذابه الماحق ولا ينجو من بينهم سوى صالح وقليل من أتباعهم المؤمنين، فهل تصدق أيها القارئ الكريم أن هذا كله قد حدث في مدة زمنية قدرها حديث صحيح النسبة إلى النبي محمد بعشرة أجيال؟!!

[485]راجع إسناد الحديث في "السلسلة الصحيحة" للشيخ الألباني، ج7، ص 852 برقم (3289).

الحقيقة الواضحة إنه حتى على افتراض وجود هؤلاء الأقوام في تلك الفترة البعيدة من تاريخ البشر، رغم أن هذا غير صحيح تاريخيًّا، فإن تلك الأحداث كلها كانت لتحتاج إلى ثلاثين أو أربعين قرنًا من الزمان لتحدث، لا لعشرة أجيال من البشر يمكن أن يعيشوا في عدة مئات من السنين!

أما لماذا فعل النبي ذلك، وما الذي اضطره إلى الإلقاء بهم بعيدا هكذا إلى تلك الأزمنة السحيقة، فهذا ما فسرناه قبل قليل، ولكننا نقولها هنا مجملة بأن النبي كان متعجلا في الفراغ من شأن هاتين القبيلتين؛ إذ آمن بيقين كامل أن وحى الله وهدايته قد أدركتهما قبل أن يظهر إبراهيم، ويختص الله ذريته بالنبوة والكتاب؛ ولذلك فلم يأبه النبي لما يستلزمه هذا من زمن طويل، طويل، أما كيف غفل النبي عن شيء كهذا؟ وكيف ساغ لدى هذا العقل الجليل أن يعتقد في أن تقع تلك الأحداث كلها في تلك المدة اليسيرة؟ فالإجابة الواضحة: ليس هناك تعارض في أن يتمتع إنسان عظيم العقل بقوة إدراكية هائلة، ويقع في الوقت نفسه في الخطأ وسوء التقدير، فقوة العقل لا تجعل من شخص مهما عظمت عبقريته معصوما من الانجراف إلى الأخطاء، وخاصة لو لم يكن يتحرك ذهنيًّا بحرية كافية لإعمال العقل، بل كان مضطرا في نفسه ربما لقبول هذا الذي يصعب قبوله، ولكنه لم يكن مستعدًا قط لأن يخالف ما اعتقد أنه من ثوابت التاريخ، ومن مقررات الإيمان.

ولا برهان على هذا أوضح من أن يتذكر القارئ الكريم كيف غفل عشرات الأذكياء من المفسرين والمؤرخين والمحدثين عن التأمل في قصر سلسلة نسب هود وصالح، وكيف كانت عندهم جميعًا مجرد عدة آباء ثم لا يتساءل أيٌّ منهم: كيف حدث كل هذا الذي قلناه ولا يفصل بين هود وصالح وبين جد البشر نوح سوى تلك الأسماء القليلة التي لا تتجاوز سبعة آباء؟!!

وإليك بعضا من الأمثلة التي تحفل بها كتب التفسير ومدونات التاريخ والأنساب، فمثلا هذا ابن سعد يجعل بين هود ونوح ستة آباء، بل يجعل بين صالح ونوح سبعة آباء: "هُودُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخُلُودِ بْنِ عَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. ثُمَّ صَالِحُ بْنُ آسِفَ بْنِ كَمَاشِجَ بْنِ أَرْوَمِ بْنِ ثَمُودَ بْنِ جَاثِرِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ [486]"، وهذا مفسر

---

[485]"الطبقات الكبرى" ابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادرعطا، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1410 هـ - 1990 م، ج1، ص46 .

كابن كثير يجعل من هود حفيدًا مباشرًا لسام بن نوح: "هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ هُودُ بْنُ شَالَخَ بْنِ أَرْفَخْشَذَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ[487]"، وهذا الشوكاني يصل نسب هود بأبي البشر مباشرة عبر هذه السلسلة بالغة القصر!: "هود بن عَابِر بن سالخ بن أرفخشد ابْن سَام بن نوح بن لمك بن متوشلح بن أَخْنُوخ بن لود بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شِيث بن آدم وحواء سَلام الله عَلَيْهِمَا [488]"، وإليك أخيرا ما اعتقده ابن عساكر، وهي لا تزيد كثيرًا على ما سبقها: "هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو- إدريس- بن يارد بن مهلائيل بن قتبان ابن أنوش بن شيث بن آدم نبي الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال بعض النسابين إن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح[489]".

فهل تجد أحدًا من بين هؤلاء المفسرين والمؤرخين قد توقف للحظة ليتساءل عن قصر أعمدة تلك الأنساب، لكى يدخل الشرك إلى العالم مرتين بعد التوحيد الأول؟

أما الناظرون في القصص القرآني من المحدثين فسوف تجد كثيرًا من أمثال هذا المؤلف الذي يكتفي بأن يسوق لقارئه ظاهر الآيات دون أن يجد شيئًا غريبًا فيما نعده سؤالاً جديرًا بأن يقف عنده كل متأمل لقصص القرآن، بل تراه يخط هذه الكلمات التالية ويمضى لحال سبيله!

"يدل سياق قصة عاد في القرآن على أنهم كانوا بعد قوم نوح، فبعد أن نزل نوح عليه السلام وأتباعه المؤمنون على جبل الجودي عاشوا فترة مؤمنين بالله موحدين له، ثم تفرقوا في الأرض، وتوفي نوح عليه السلام وتشعبت عنهم الشعوب والقبائل، وكان منهم قبيلة توجهت نحو الجنوب، فأقامت جنوب الجزيرة العربية في منطقة الأحقاف وهذه القبيلة هي قبيلة (عاد)، وكانت هذه القبيلة في أيامها الأولى على الإيمان بالله وتوحيده؛ لأنهم ذرية مؤمنة للقوم المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام، ولا ندرى كم استمروا على الإيمان بالله وتوحيده، ولا متى استحوذت عليهم الشياطين واجتالتهم

---

[486]"قصص الأنبياء" ابن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1388 هـ - 1968 م، ج1، ص 120.

[487]"البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" الشوكاني، دارالمعرفة، بيروت 1990م، ج1، ص 479.

[488]"تاريخ دمشق" لابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995م، ج 74، ص 80.

إلى الشرك؛ لأن القرآن سكت عن هذه المسألة، كل ما عرفناه عن عاد في القرآن أنهم كفروا بالله وأشركوا به، فبعث الله لهم أخاهم هودًا عليه السلام[490]".

والعجيب أن هذا المؤلف الذي حاول كما رأينا في فصل نوح أن يجعل بين نوح وآدم سبعة آلاف سنة متورطا في خطأ حسابي غريب، سنراه يتكرر بعد قليل عند مؤلف آخر، لكننا نراه هنا يوافق على قصر المدة التي تفصل بين نوح وإبراهيم، بل على أقصر منها "فهناك فترة بين آدم ونوح، وهناك فترة أقصر بين نوح عليه السلام وقوم هود[491]".

أما من لاحظ ذلك من المحدثين فلم يجد شيئًا ليقوله سوى أنه افترض فروضًا لا برهان عليها من القرآن أو من السنة الصحيحة فضلا عن العلم أو التاريخ، لكنه يقبل في النهاية ما لم يكن أمامه سوى أن يقبله منذ البداية كما فعل هذا المؤلف المعاصر؛ إذ يقول: "وابن سام الخامس هو آرام أو إرم وهود وصالح من نسله، وبالطبع فإن سام وأبناءه كانوا على دين أبيهم نوح موحدين، ويعبدون الله ولكن الأحفاد سرعان ما تناسوا عبادة الله، وداخلهم الشرك واتخذوا أصنامًا وعبدوها[492]".

أما كيف استقام عنده أن يهجر الأحفاد عقيدة الآباء في سبعة أجيال، فنراه يسوق لنا في قطعة واحدة ما يعوزه المنطق، بل يتورط كسابقه في هذا الخطأ الحسابي الفاحش: "ولو نظرنا إلى شجرة النسب (شكل 34) وفيها ذكر نسب الأنبياء الثلاثة: هود وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وهم من نسل سام بن نوح، فيمكننا أن نقول إنها أقرب إلى الصحة لأنها تتفق مع سياق الحوادث التاريخية؛ فبين سام وهود على شجرة النسب سبعة أجيال، ولو افترضنا أن الجيل في ذلك الوقت كان نحو 100 سنة، كان بين سام وهود 700 سنة، وهي مدة تكفي لارتحال القبائل من شمال العراق إلى المكان الذي عاش به قوم هود، كذلك هي مدة تكفي لأن يضل الناس وتتسرب إليهم عبادة الأصنام[493]".

وإننا لنعجب أولا: من غياب تلك المعرفة الأولية التي أصبحت مما يعلمه كل أحد في عصرنا من أن تلك المجتمعات القديمة؛ أي التي عاشت منذ خمسة آلاف عام ما كانت لتعيش أبدًا هذه الأعمار، أي قرابة القرن فضلا عن الأعمار الخرافية التي منحها

---

[490] الخالدي، ص 222.

[491] الخالدي، ج 1 ص 244.

[492] "قصص الأنبياء والتاريخ" د. رشدي البدراوي، الطبعة الثالثة 2009م، مطابع المجلد العربي، ج1، ص 133.

[493] المرجع السابق، ص 134 .

كاتب سفر التكوين للآباء الأسطوريين للجنس البشري قبل نوح، فمن المعلوم أن طول أعمار تلك الأجيال القديمة كانت مجرد خرافة شائعة، بددتها إلى غيررجعة الدراسات والكشوف التاريخية الحديثة التى أوضحت أن أعمار أهل الحضارات القديمة جميعًا كانت قصيرة بشكل محزن ما عدا آحادا هنا وهناك[494]، ولسنا بحاجة إلى تذكير القارئ الكريم بما هو معلوم من أن معدل وفيات الأطفال كان حتى منتصف القرن التاسع عشر مرتفعًا بدرجة تثير الأسى، حتى كانت فرصة الطفل لكى يبلغ العامين لم تكن تتخطى 25%، وتستوي في ذلك أعلى الطبقات وأحطها، وكانت فرصة هذا الطفل الذي نجا لكى يصل إلى مرحلة البلوغ لم تكن تزيد أيضا على تلك النسبة المحزنة ذاتها، ولم يحدث قط إلا في القرن العشرين بسبب تقدم المعارف الطبية والرعاية الصحية، فقد"أصبح العمر المتوقع لمعظم الناس في المجتمعات الحديثة بين 70 إلى 80 سنة، أما عن كبار السن في المجتمعات القديمة فقد كان عددهم قليلا، وكان للشيخوخة قيمة الندرة؛ ولهذا السبب وحده مُنحوا مركزًا مرموقًا؛ ولأنهم عاشوا أكثر من غيرهم فقد كانوا يعرفون معلومات أكثر (عادة)، ومن هنا كان دورهم الهام كخزنة معلومات المجتمع[495]".

أما ما يثير دهشتنا أكثر فهو من أين أتى المؤلف بطول أعمار أبناء نوح إلى تلك المدة؟ وماذا كان يفيده أن يطيلها؟ وذلك لأننا حتى لو افترضنا بأن أعمار آحاد البشر في تلك الفترة كانت بذلك الطول، أي قرنا كاملا من الزمان، فهذا لا يلزم منه أبدا أن يكون بين الابن وجده السابع سبعمائة سنة، ولم يكن هذا المؤلف بحاجة إلى الرياضيات لينجو من التورط في هذا الخطأ العجيب؛ فقد رأينا بعض المعمرين في زماننا يعيش ليرى بأم عينيه خمسة أو ستة أجيال من نسله، ولمَّا يقترب من المائة، ولكن هذا الخطأ المتكرر ينتج للأسف من فرضية أن الرجل ينجب ابنه قبل أن يموت مباشرة، والحقيقة البدهية

---

[494]ومما يزيد من عجبنا أن المؤلف لم يكن واعظا أو عالما دينيا، كل بضاعته كتب التفسير والحديث وعلما أصول الحديث والفقه بل كان أستاذًا في كلية الطب، ويبدو من كتابه أن لديه إلمامًا حسنًا بالتاريخ الحضاري العام، ولكنه كما رأيت راح يفترض ما لا يعلمه التاريخ ولا يثبته علم الإنسان!

[495]"بنو الإنسان" بيتر فارب، ترجمة زهير الكرمي، عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1983م، ص 338.

ومن بين القائلين بحضور هود وصالح قبل زمن إبراهيم مؤلف كتاب "أديان العرب في الجاهلية" محمد نعمان الجارم، ص 6، الطبعة الأولى 1923م، مطبعة السعادة.

أنه يجب أن تحسب أعمار الأجيال بداية من النضج الجنسي للأفراد، وليست من متوسط ما يقضيه الرجل من أيام في هذه الدنيا!

أما الأعجب من ذلك فهو أننا لا ندري كيف فات هؤلاء الحاسبين أن طول الأعمار تعسر من مهمتهم، ولا تيسرها؟ وذلك لأن الرجل إذا عاش طويلا، فقد تتعاصر الأجيال العشرة كلها في مائتي سنة على الأكثر، رغم أن ما يستهدفه هؤلاء أساسًا هو أن يباعدوا ما استطاعوا بين الأجداد المؤمنين وحفدتهم الكافرين؛ لكي يتاح بغيابهم ما يريدون أن يصلوا إليه من القول بذهاب الإيمان برحيل الآباء الصالحين؛ وإلا فإذا عاش نبي أو رجل صالح مثلا مائتي سنة أو أكثر فسيرى بعينيه عشرة من أجيال ذريته قبل موته، فمتى إذن سينهض الشيطان بمهمته في حياة النبي الذي لا يزال حيًّا يرزق؟ وأين هذا مع ما يستهدفونه؟!

وزد على ذلك أن هودًا لم يكن كما يقول ظاهر القرآن أول رسول أرسله الله بعد نوح؛ لأننا نجد سورة الأحقاف تقول بهذا، وما كانت النذر لتأتى إلا لتحذير أقوامهما من خطيئة الإشراك بالله :*وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١* (الأَحْقَاف: 21).

وزد على ذلك أننا نعتقد متابعين في ذلك ظاهر القرآن ومعنا كثير من المفسرين من أن ثمود قد نشأت من ذرية قوم عاد المؤمنين، ولكنهم كفروا بعد ذلك بالله وأشركوا به، ولو صح هذا ونراه صحيحًا لزاد ذلك من تخيل صعوبة تلك الطريقة التي عالج النبي بها تلك المشكلة.

وعلى هذا؛ فيمكننا القول إن هذا الذي فعله النبي لم يكن سوى حل نظري ألجأته إليه ضرورات ما اعتقده من سبق عاد وثمود على زمن إبراهيم، لكنه جاء كما رأينا حلا يعوزه المنطق، ونقولها بوضوح: إننا مع تبجلينا الكامل للنبي ولعظيم مواهبه الروحية والعقلية، فإننا لا نتردد في وصف ما جاء به سوى بأنه قول غير صحيح، وتقدير غير سليم.

خامسا: قوم عاد عند المفسرين والمحدثين.

رغم أن هذه الصفحات تستهدف بالأساس أن تقدم منظورًا تفسيريًّا واضحًا للقصص القرآني ومعتمدة على النص القرآني دون سواه، فإنه يحسن بنا أن نشير باختصار إلى بعض ما جاء عن قصتي عاد وهود في الأحاديث النبوية الصحيحة، ولو لمجرد الاستئناس بأمثال تلك المرويات التي وجدت طريقها إلى كتب الحديث، وأصبحت تحتمل الصحة إلى حد ما أكثر من سواها، لما لها من أهمية في إضاءة ما يقف خلف تلك القصة القرآنية من قصص العرب وحكاياتهم قبل الإسلام؛ ولكي تضيء لنا بعض أسباب ما سنفترضه بعد الفراغ من تلك المقدمة.

فمثلا نجد في البداية هذا الحديث الذي يحرك المشاعر حقا: "عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا عصَفتِ الرِّيحُ قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأَعوذُ بكَ من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسِلَتْ به، وإذا تخيَّلتِ السَّماءُ تغيَّر لونُهُ ودخَل، وخرَج وأقبَل، وأدبَر، فإذا مطَرتْ سُرِّيَ عنه، فسأَلْتُهُ عائشةُ، فقال: لعلَّهُ كما قال قومُ عادٍ: *فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا*[496].

وهذا الحديث يدلنا مع ما نرجحه من صحته على اعتقاد النبي الكامل في صدق ما قيل بشان مهلك قوم عاد بعاتي الرياح، متأثرًا بما شاع قديمًا بين العرب عن مصيرهم الفاجع بعاصفة هوجاء باردة، دامت أياما طويلة فقضوا بسببها، بل انفعاله الصادق بما استلهمه باطنه عن تلك القصة وأصحابها مصدقًا قبل كل أحد بما افترضه عن كفرهم بنبي أرسله الله إليهم، وكيف كان قوم عاد سادرين في غيهم وغافلين، وحتى اللحظة الأخيرة عن مراد الله فيهم، حتى لقد ظنوا سحب العذاب الماحق سحائب رحمة ممطرة.

وإليك أيضًا هذا الحديث الذي يحكى ما نظنه أقرب القصص لما كان يعرفه العرب قبل الإسلام عن تلك القبيلة وزمنها ومصيرها عدا تلك الحكاية الملفقة عن نزول الوفد بضيفهم الكريم: (عن أبي وائل عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ الْبَكْرِيِّ، قَالَ: خَرَجْتُ أَشْكُو الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجَةً، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا الْمَسْجِدُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ تَخْفِقُ، وَبِلَالٌ مُتَقَلِّدٌ السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ

---

(495) متفق عليه.

النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَجْهًا، قَالَ: فَجَلَسْتُ، قَالَ: فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ - أَوْ قَالَ: رَحْلَهُ - فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ، فَسَلَّمْتُ فَقَالَ: "هَلْ كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ شَيْءٌ؟" قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَكَانَتْ لَنَا الدَّبْرَةُ عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا، فَسَأَلَتْنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ، وَهَا هِيَ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلَتْ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ حَاجِزًا، فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ، فَحَمِيَتِ الْعَجُوزُ، وَاسْتَوْفَزَتْ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِلَى أَيْنَ تَضْطَرُّ مُضَرَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّمَا مَثَلِي، مَا قَالَ الْأَوَّلُ: مِعْزَاةُ حَمَلَتْ حَتْفَهَا، حَمَلْتُ هَذِهِ، وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا أَعُوذُ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ قَالَ: "هِيهْ، وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟" وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَسْتَطْعِمُهُ، قُلْتُ: إِنَّ عَادًا قَحَطُوا فَبَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ، يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ جَارِيَتَانِ يُقَالُ لَهُمَا: الْجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ جِبَالَ تِهَامَةَ، فَنَادَى: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِئْ إِلَى مَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيَهُ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتَ مُسْقِيَهُ، فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ مِنْهَا: اخْتَرْ، فَأَوْمَأَ إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ، فَنُودِيَ مِنْهَا: خُذْهَا رَمَادًا رِمْدِدًا وَلَا تُبْقِ مِنْ عَادٍ أَحَدًا، قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بُعِثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ، إِلَّا قَدْرَ مَا يَجْرِي فِي خَاتِمِي هَذَا، حَتَّى هَلَكُوا، قَالَ أَبُو وَائِلٍ :وَصَدَقَ قَالَ: " فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ، قَالُوا: لَا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ" (497)).

هذا الحديث على دلالته العامة من شيوع قصة قوم عاد بين معاصري النبي، فهو إلى جانب ذلك يشير إلى قرب زمن تلك الواقعة وذلك من حضور أسماء أبطالها المعروفين وعربية أسمائهم، وكذلك ما نجده من حضور شعيرة الاستسقاء، وهي إن كانت شعيرة قديمة نجدها في كثير من الأديان موحدة كانت أو وثنية، فإنها ووفق تلك الصيغة فلا نشك في قربها الشديد من زمن الجاهلية العربية المتأخر؛ إذ يلحظ أن الدعاء موجه فيها إلى إله واحد هو من يدعى وحده في تلك الشدة، فلا يعقل معها أنها كانت قبل زمن النبي بثلاثة آلاف سنة على الأقل، بل إنها تعكس بوضوح مرحلة الإله الأعظم الذي يعلو على من بجانبه من الآلهة الصغرى، التى حضرت كوسائط وشفعاء بينه وبين عابديها وعابديه، وهو ما كان يعبر بدقه عن العقيدة الشركية للعرب قبيل الإسلام، فضلا

(496)"الصحيح من أحاديث السيرة النبوية" أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، 1432 هـ - 2011 م، ج1، ص442.

عن أنها تذكر مكة وحرمها المقدس ما دعا أحد الشارحين الكبار لمتون الأحاديث النبوية للتفرقة بين عاد تلك التي يذكر قصتها هذا الحديث، وعاد (الأولى) قوم هود القرآني، حتى إن جرَّه ذلك إلى هذا الافتراض الجامح للخروج من تلك المشكلة التي أرقت عقله، وبثت فيه الحيرة بين تصديقه الجازم بقصة عاد القرآني، وما حوته هذه الرواية من إشارات توحى بقرب زمن تلك القصة التي آمن بصحة سندها: "وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ فِي قِصَّةِ عَادٍ الْأَخِيرَةِ لِذِكْرِ مَكَّةَ فِيهِ وَإِنَّمَا بُنِيَتْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَسْكَنَ هَاجَرَ وَإِسْمَاعِيلَ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فَالَّذِينَ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ هُمْ عَادٌ الْأَخِيرَةُ وَيَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تعالى أَخَا عَادٍ نَبِيٌّ آخَرُ غَيْرُ هود وَالله أعلم[498]".

وما قاله هذا الشارح المتأخر يتأسس على فرضية افترضها من قبل ابن كثير في تاريخه، يتابع فيها الطبري وسواه؛ حيث نراه يقول بعد أن أورد تلك القصة الحديثية ذاتها: "وَهَكَذَا أَوْرَدَ هَذَا الْحَدِيثَ وَهَذِهِ الْقِصَّةَ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَابْنِ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا السِّيَاقُ لِإِهْلَاكِ عَادٍ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وغيره ذكر لمكة، ولم تُبْنَ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ حِينَ أَسْكَنَ فِيهَا هَاجَرَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ فَنَزَلَتْ جُرْهُمٌ عِنْدَهُمْ كَمَا سَيَأْتِي وَعَادٌ الْأُولَى قَبْلَ الْخَلِيلِ وَفِيهِ ذِكْرُ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ وَشِعْرُهُ، وَهُوَ مِنَ الشِّعْرِ الْمُتَأَخِّرِ عَنْ زَمَانِ عَادٍ الْأُولَى، لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْمُتَقَدِّمِينَ[499]".

وكما يبدو فإن هذا المفسر، وقد أمعن النظر طويلا، في معالم القصة القرآنية في جميع سور القرآن عن قوم عاد ثم خلص إلى هذا الاستنتاج من أن قصة عاد التي تذكرها سورة الأحقاف إنما هي وحدها عن عاد الآخرة: "فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْقِصَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ خَبَرًا عَنْ قَوْمِ عَادٍ الثَّانِيَةِ وَتَكُونُ بَقِيَّةُ السِّيَاقَاتِ فِي الْقُرْآنِ خَبَرًا عَنْ عَادٍ الْأُولَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بالصَّواب [500]".

أما ما دعا هؤلاء المفسرين والشراح إلى فرضية كهذه، فهو أنهم وجدوا في بعض ملامح قصة عاد كما روتها سورة الأحقاف، وكذلك ما جاء في هذه القصة الحديثية التي

---

[497]"فتح الباري شرح صحيح البخاري" أحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني، ج8، ص 579، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي.

[498]"البداية والنهاية"، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1408هـ - 1988 م، ج1، ص 147.

[499]المرجع السابق، ج1 ، ص 149.

آمنوا بصحة سندها ما يذكرهم بما قاله الإخباريون العرب عن قوم عاد، مع ما تحمله من الإشارات الواضحات على أنها تنتمى إلى ما قبل الإسلام بمدة ليست بالبعيدة جدا.

أما ما نعتقده فهو أن القرآن الكريم إنما يتكلم عن قصة واحدة لتلك القبيلة العربية التي عاشت وفنيت قبل زمن إبراهيم كما اعتقد النبي، ولكن بعض ملامح القصة العربية كما عرفها العرب جاءت لتسطع خلف تعبيرات تلك السورة، سورة الأحقاف، على نحو أوضح من سواها من السور القرآنية الأخرى مثل مجيء العذاب في الغيوم على خلاف قصة عاد المخيالية التي سيطرت على ما سواها، وقوام تلك القصة هي دعوة هود لقومه وتكذيبهم له، وإرسال الله عليهم ريح العذاب تسبقها الصيحة. ومما أغرى المفسرين كذلك بتلك التفرقة بين طبقتين من تلك القبيلة التي خص الله أولها وآخرها بالهلاك! هو ظاهر دلالة تلك الآية القرآنية من سورة النجم (الآية 50)، التى تقول إن الله قد أهلك (عادا الأولى)، وأيضًا أن قصة سورة الأحقاف لا تذكر اسم هود كنبي إلى تلك القبيلة، بل اكتفت بأن جعلته (أخا عاد)؛ أي إنه رجل من قوم عاد، ما جعل القول في وجود نبي آخر غير هود في ظنهم ممكنا، أضف إلى ذلك تردد القرآن بين أن الله قد أهلك عادا بالريح، وأنه أهلكهم بالصيحة.

لكن من ينظر في أقوال المفسرين فلن يجد ما يجعله يأخذ تلك الفرضية العجيبة على محمل الجد؛ لأن الدلالة الظاهرة لتلك الآية لا تحتمل في الحقيقة شيئًا من هذا، واليك بعضًا مما قاله المفسرون، سواء قدماء أو محدثون، عن معنى تلك الآية التي ساقت كثيرًا من المفسرين إلى ذلك الوهم: *وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولى* القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح عليه والسلام. وقيل "عاد الأولى" قوم هود وعاد الأخرى إرم".(501)

أما الطبري فسنراه يوغل في افتراضات عجيبة، فلم يكتفِ بأن فرق بين عاد أولى موغلة في القدم، وعاد متأخرة ينتمى إليها بعض أهل عاد الذين نجوا بأن كانوا بين سكان مكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم، وانما أهلكهم الله بعد هلاك أسلافهم بزمن طويل، ولكن ليس بسبب من كفرهم وإشراكهم بالله بل بسبب تدابرهم وطغيانهم! ولا ندرى إلامَ استند الطبري على تلك الفرضية العجيبة؛ لأننا لم نجد لها برهانا ولو ضعيفا

(500)"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، ج5، ص 162 .

من النصوص القرآنية التي ترجع كلها سبب مهلك قوم عاد إلى تكذيب نبيهم هود، وليس من أثر يوحي بأن الله أهلكهم جزاء بغيهم وتصارعهم.

والحقيقة التي يعرفها كل أحد هي أن تلك الأقوام البائدة كانوا وثنيين كغيرهم فلم يخصهم القرآن بالهلاك والتدمير إن لم يبعث الله فيه رسولاً منهم؟ ولماذا خصهم الله من بين جميع تلك القبائل بعذابه لهذا السبب، وقد كانوا جميعا يتظالمون، ويجور قويهم على ضعيفهم؟

"وقوله: *وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥* يعني تعالى ذكره بعاد الأولى: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وإياهم عنى بقوله *أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦*---- وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى، لأن بني لُقَيم بن هزَّال بن هزل بن عَبِيل بن ضِدّ بن عاد الأكبر، كانوا أيام أرسل الله على عاد الأكبر عذابه سكانًا بمكة مع إخوانهم من العمالقة، ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة، ثم هلكوا بعد. وكان هلاك عاد الآخرة ببغي بعضهم على بعض، فتفانوا بالقتل فيما حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، فيما ذكرنا قيل لعاد الأكبر الذي أهلك الله ذرّيته بالريح: عاد الأولى؛ لأنها أُهلكت قبل عاد الآخرة. وكان ابن زيد يقول: إنما قيل لعاد الأولى لأنها أوّل الأمم هلاكا[502]".

أما القرطبي فيقول: *وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥* سَمَّاهَا الْأُولَى لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قِبَلِ ثَمُودَ. وَقِيلَ: إِنَّ ثَمُودَ مِنْ قِبَلِ عَادٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قِيلَ لَهَا عَادٌ الْأُولَى لِأَنَّهَا أَوَّلُ أُمَّةٍ أُهْلِكَتْ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هُمَا عَادَانِ فَالْأُولَى أُهْلِكَتْ بِالرِّيحِ الصَّرْصَرِ، ثُمَّ كَانَتِ الْأُخْرَى فَأُهْلِكَتْ بِالصَّيْحَةِ. وَقِيلَ: عَادٌ الْأُولَى هُوَ عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَعَادٌ الثَّانِيَةُ مِنْ وَلَدِ عَادٍ الأولى، والمعنى متقارب. وقيل: إن عاد الْآخِرَةَ الْجَبَّارُونَ وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ[503].

(502) تفسير الطبري، ج22 ص 552 و553، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

(502)"الجامع لأحكام القرآن" القرطبي، ج17، ص 120، تحقيق: أحمد البردون وإبراهيم أطفيش، دارالكتب المصرية، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964م.

قدم القرطبي كما رأينا تفسيرا معقولا، ثم يحشد بعدها في خمسة أسطر أقوالا متباينة متخالفة، ودون أن يعقب عليها بكلمة مثل من يقول بأن ثمود كانت قبل عاد! أو أن أهل عاد الآخرة وهم الجبارون كانوا قوم هود، لكن أولى تلك الآراء بالقبول هو ما نسبه إلى ابن زيد من أنها سميت بعاد الأولى؛ لأنها كانت أول أمة أهلكها الله بعد الطوفان.

وإليك أخيرًا هذا المفسر الحديث: *وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾* وهي قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى هي إرم بن سام بن نوح كما قال: *أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ* وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم، وأعتاهم على الله ورسوله، فأهلكهم عاد الأولى *بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ .سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوما* أي متتابعة. وقال المبرد: وعاد الأخرى هي ثمود، وقيل عاد الأخرى من ولد(504).

إذا تأملنا تلك الفرضيات وحاولنا أن نفهم ما الذي اضطر هؤلاء المفسرين، وشراح الحديث إليها وإلى أمثالها، لما وجدنا لها سببًا سوى أنها كانت بسبب من اضطراب وتعارض ما جاءت به مضامين بعض الروايات الحديثية نفسها مع ما جاء به القرآن عن قدم زمان تلك القبيلة العربية البائدة وإيغال النبي بزمانها إلى ذلك المدى السحيق، ما جعل القول بوجود طبقتين تنتميان للقبيلة ذاتها وهلكتا، ويا للعجب بالطريقة ذاتها، ولكنَّ بينهما ألفي سنة على الأقل، وهذا الافتراض على كل حال من بين ما اعتقده الإخباريون جميعًا: "وذهب الإخباريون إلى وجود طبقتين لقوم عاد هما: عاد الأولى، وعاد الثانية، وكانت عاد الأولى في زعم أهل الأخبار من أعظم الأمم بطشًا وقوة، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الألف، منهم: رفد، ورمل، وصد، والعبود. والظاهر أن فكرة وجود طبقتين لعاد قد نشأت عند الإخباريين من الآية: *وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى*، فتصوّروا وجود عاد ثانية، قالوا إنها ظهرت بعد هلاك عاد الأولى(505).

أما عن محاولة بعض المفسرين التفرقة بين ما سموه بعاد الأولى وعاد الآخرة فلا نعتقد أنه كان خلف تلك المحاولة للتفرقة بين القبيلين إلا سعيهم للتوفيق بين الزمنين

---

(504) تفسير المراغي، ج27 ص 68، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر- الطبعة الأولى، 1946 م.

(505) المفصل، ج1، ص 301.

البعيدين عن عاد الأولى التي جاءت في القرآن، وبين بعض الأخبار السماعية عن قبيلة عاد الحقيقية، التى عاشت قبل الإسلام بعدة قرون وبلغهم من أخبارها على قلته الصحيح والزائف، ولكنها بكل تأكيد تتعلق بأخبار تلك القبيلة العربية التي عاشت واندثرت ككثير غيرها من القبائل العربية لأسباب طبيعية، ففي تلك الأخبار نجد كما رأينا ذكر مكة، ونجد الاستسقاء بالحرم وبركته، ونجد شخصا يملأ تاريخ عرب الجاهلية مثل بكر بن معاوية(506)، بل قبل هذا كله نجد اللغة العربية كما يعرفها عرب ما قبل البعثة؛ ففي تلك الفترة السحيقة التي وضع فيها النبي محمد هودا وقومه لم يكن ثمة وجود للعربية في طورها المتأخر، الذي كان يتكلمها أبطال تلك القصة، ولا كان قريبًا منه، ولم يكن من وجود لمكة بالطبع، ولا لأي شيء مما كان العرب يجدونه في بلادهم في القرون القليلة قبل مولد النبي محمد، وإذا تذكرنا ندرة الأخبار وتضاربها المريع عن شخصيات بالغة الأهمية في تاريخ عرب شمال الجزيرة مثل: قصى بن كلاب، بل كثير ممن أتى بعده من أشراف العرب في الجاهلية، وجهلهم شبه الكامل بالأنباط على قربهم منهم زمانًا ومكانًا، لعجبنا من أن يجهل العرب هذا التاريخ القريب بشخصياته وقبائله ويعرفون أي شيء عن قوم عاشوا واندثروا قبل آلاف السنين.

لذا، فمن البدهي القول بأن عادا الأخيرة هذه لا علاقة لها من قريب أو بعيد بقوم عاد التى يقول القرآن إنها وجدت وفنيت قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل من مولد الرسول، فهؤلاء أقوام لم يوجدوا قط، وإن تأسست ملامح القصة القرآنية عليها إلى حد كبير على أساس أن الرواية القرآنية ما هي في الحقيقة سوى خليط مخيالي مبدع، أُسس قالبه وإطاره على بعض أصداء المرويات الإخبارية العربية التى كانت شائعة قبيل عصر النبي محمد، وكانت تعكس قصة لا ندرى مقدار نصيبها من الصحة، ولكنها بلا شك كانت مؤسسة على حادثة حقيقية عن مهلك تلك القبيلة العربية القديمة واندثارها، وأخذ مضمونه من الدمج المخيالي الخلاب الذي أبدعه النبي محمد بإلحاق عاد ونبيها هود ضمن التاريخ الرسالي إلى العرب، وما استلزمه ذلك من منح هود معالم الدعوة

(505)يسمى أحيانا معاوية بن بكر، ولم نفلح في العثور على خبر يقين عنه سوى روايات متضاربة، وسواء أكان شخصية وهمية أم شخصًا حقيقيًّا، لكنه كان بلا ريب يعيش في زمن أقرب كثيرًا مما ظنه الرواة، وذلك لأننا نجد مؤرخًا كالخطيب البغدادي يقول عن أمه أنها (كلهدة بنت الخيبري رجل من عاد)، وأن خاله (هو جلهة الخيبري)، وأين خيبر من عاد ؟!! راجع "تاريخ الأنبياء" للخطيب البغدادي، تحقيق آسيا كليبان البارح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان- ص 52.

الإلهية ومفرداتها كاملة، وما استتبعه من تحويل تلك الروايات العربية عن مهلك عاد واندثارها إلى عقوبات إلهية أنزلها الله بقوم عاد من جراء جحودهم وتكذيبهم.

أنبياء العرب والتوراة!

من بين أسباب حيرة المفسرين عن تاريخ عاد وثمود عجبهم كذلك من غياب أي ذكر لهم في كتب اليهود التي عالجت تلك الفترة الزمنية التي صدقوا بأن عادا وثمود قد عاشتا فيها مثلما اندهش هذا المفسر والمؤرخ الجليل: "فأما أهل التوراة فيزعمون أنه لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه، ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وثمود وأمورهم بعض ما قيل ما يعلم به من ظن خلاف ما قلنا في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك[507]".

لن يفيدنا هنا التحسر شيئًا، والقول (بأن ليته فعل!!) إذن لعلمنا على الأقل ما شاع في القرن الثاني بعد الهجرة من تلك الأشعار الجاهلية، وما ترويه من أخبار العرب البائدة، رغم أننا لا نجد في الحقيقة أي علاقة واضحة بين غياب ذكر لعاد وثمود وأضرابهما في التوراة، وشيوع تلك القصص العربية عند عرب ما قبل الإسلام وحضورها في أشعارهم وأمثالهم! ولكن الطبري رغم ذلك قد ساق أشعارًا لبعضهم لا يحتاج من يقرا أولها حتى يعلم أنها برمتها أشعار منحولة مكذوبة؛ فقد جاءت في لغة لا تشبه لغة أهل الجاهلية في شيء، بل هي إلى لغة تلك الأشعار المعزوة زورًا إلى مرثد الغنوي في ثنايا قصة وفد عاد، وذهابهم إلى مكة للاستسقاء، وهي مقطوعة مكذوبة؛ لأننا نراها تدمج بين قصة وافد عاد التي شاعت في الموروث العربي قبيل الإسلام، وأوردتها كتب السيرة والأحاديث، وقصة عاد القرآنية رغم قول الطبري إن ذلك الوفد من عاد الآخرة أي من نسل قريبة العهد بالإسلام فليرجع إليها من شاء[508].

ومن ذلك

(عصـــت عــاد رســـولـهـم *** فأمسوا عطاشا ما تبلهم سماء

---

[506]تاريخ الطبري، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار المعارف، ص 232.

[507]المرجع السابق، ص 224.

وســـير وفـدهم شـــهرا ليســـقوا *** فأردفهم مع العطش العماء

بـكـفـرهـم بـربـهـم جـهـارًا على آثار عادهم العفاء [509]

وقد حاول العلامة جواد على أن يجمع ما استطاع من أشعار العرب الجاهليين التي ذكرت تلك القصة فيقول: "وبالإضافة إلى المواضع التي أشير فيها إلى (عاد) في القرآن الكريم، فقد أشير إليهم في الأدب الجاهلي كذلك، في شعر طرفة، وفي شعر النابغة، وفي شعر زهير، وفي شعر الهذليين، وفي شعر طفيل بن عوف الغنوي، وفي شعر متمم بن نويرة شقيق (مالك بن نويرة) وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، وفي شعر أمية بن أبى الصَّلْت وهو ممن عاش في أيام الرسول، كذلك وفي شعر غيرهم من الشعراء الجاهليين المخضرمين، وورد في شعر لزهير بن أبى سلمى (أحمر عاد) وضرب المثل بشؤم أحمر عاد، فقيل: أشام من أحمر عاد، وجعل الشاعر (أبو خداش الهذلي) (كليب وائل) كأحمر عاد في الشؤم، وذلك بسبب الحرب التي هاجت بين بكر وتغلب وقد نص (ابن قتيبة الدينوري) على أن المراد من أحمر عاد (أحمر ثمود) الذي عقر الناقة.

ويدل ورود خبر "عاد" في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي على أن القصة كانت شائعة بين عرب الجاهلية معروفة عندهم، وأنهم كانوا يتصوّرون أن قوم "عاد" كانوا من أقدم الأقوام، ولذلك ضُرب بقدمهم المثل حتى إنهم كانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا بقدمه إلى عاد، فيقولون إنه "عادي"، وإذا رأوا أثرًا قديمًا أو أطلالا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها، قالوا إنها عاديّة، أي من أيام عاد، وإذا رأوا بناءً قديمًا لا يعرفون صاحبه، قالوا إنه بناء عادي. وقد تحدث "المسعودي" عن أشجار عادية، أي قديمة جدا. ولهذا السبب رأى "ولهوزن" أن كلمة "عاد" لم تكن اسم علم في الأصل، بل كان يراد بها القدم، وأن كلمة "عادي" تعني منذ عهد قديم جدًّا، وكذلك كلمة "من عاد" أو "من العاد"، أو من "عهد عاد". وأن المعنى هو الذي حمل الناس على وضع تلك الأساطير عن أيام عاد [510]".

---

(508) راجع بقيتها في المرجع السابق/ ص224.

(509) المفصل، ج1، ص 308.

سادسا: هل كان هود وصالح نبيين افتراضيين؟

من يقرأ إذن ما رواه الإخباريونَ العرب وما نسبوه إلى شعراء الجاهلية من أشعار أتت على ذكر هاتين القبيلتين، فسيجد هناك بعض الأنباء المتفرقة التي لا تعرفنا الكثير عنهما، لكن وهذا هو المهم لم يكن من بين ما قاله الجاهليون قط بأنه كان لهاتين القبيلتين نبيان بعثا فيهما بالتوحيد، وما إلى ذلك مما عزاه إليهما القرآن الكريم، بل إننا لانكاد نتصور أن يعتقد عرب الجاهلية في نبوة نبيين من أهل تلك القبائل البائدة التي لم يكونوا يعرفون عنهما إلا أقل القليل، ثم لا يعرفون شيئًا ذا بالٍ عن مدين وشعيب أو حتى عن إبراهيم و إسماعيل، وقد جاءوا في اعتقادهم بعد عاد وثمود بزمن بعيد، وكذلك لم يذكر لنا الجاهليون شيئًا عن مصير هذين الشعبين سوى أنهما، كما يبدو من مجموع أخبارهما، قد أصيبا بالصواعق المدمرة، أو الرياح العاتية، أو ثوران بركان مدمر قضى عليهم ، وبعد أن بحثنا عن دلالة غياب اسم هذين النبيين العربيين لقوم عاد وثمود؛ حيث لم نعثر لهما أيضًا على أثر في الموروث الجاهلي، وعلى افتراض وجود اسميهما، فلربما كانا اسمين لحكيمين اشتهرا بالحكمة مثل ما شاع في الجاهلية المتأخرة عن لقمان وحكمته، وهذا ما نرجحه بقوة، فهل من المعقول أن نقول إنهما اسمان من إبداع النبي، وقد تم منحهما لنبيين افتراضيين؟

ربما كان من الضروري أن نشير أولا إلى الفارق بين ما سميناه (النبي الافتراضي) كما اقترحنا من قبل لتسمية لبعض الأنبياء الذين جاءوا في القرآن الكريم، وفي بعض الأحاديث الصحيحة، و(النبي المخيالي)، فهما تسميتان على ما بينهما من تداخل دلالي، لكن الفارق بينهما ليس بالقليل؛ فالنبي المخيالي هو إشارة إلى مجموع أنبياء القرآن الذين منحهم النبي محمد معالم دعوته وأركان عقيدته دون أن يكون هذا النبي أو ذاك من الأنبياء قد قال شيئًا مما عزاه إليه النبي، أو اعتقد في شيء من تلك العقيدة الجليلة المنسوبة إليه، مع الاعتقاد في الوقت ذاته بوجودهم التاريخي بهذا القدر أو ذاك مثل داود وسليمان والمسيح وربما إبراهيم وموسى، أما النبي الافتراضي فهو نبي لم يوجد قط، ولكن النبي محمد قد استلزم وجوده لتفسير حدثٍ ما من الحوادث، أو لملء فجوة تاريخية مثل هذين النبيين العربيين لقبيلتي عاد وثمود.

أما لماذا فعل النبي ذلك؟ كان النبي متسقًا للغاية مع تصوره عن الله ومع قراءته الخاصة لوقائع وأحداث التاريخ البشرى، هذا التاريخ الذي علمه من مصادره، وأيضا

كما اعتقده أي بوصفه تاريخًا للرسالات الإلهية فحسب؛ فإذا كان النبي وقد علم مثل غيره من العرب بوجود شعبين عربيين حلت بهما كارثة طبيعية شديدة فبادا وطويت صفحتهما من التاريخ العربي، وصارا أحاديث تروى، فمن الطبيعي أن يرجع النبي تلك الكارثة التي وقعت لهما إلى أنها عقوبة من الله لكونهما كفارًا استحقا بكفرهما تلك العقوبة، وما كانا ليكونا كفارًا بداهة حتى يرسل الله أولا إليهما نبيًّا من أنبيائه، فيدعوهما إلى الإيمان، ولكنهما يعرضان عنه، ومن الطبيعي كذلك أن يكون هذان النبيان في دعوتهما مثل جميع الأنبياء السابقين واللاحقين؛ فتشتمل دعوتهما على معالم الدعوات الإلهية جميعًا؛ أي من الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك والشركاء، والحض على التقوى والصلاح.. إلخ، ومن الطبيعي كذلك عنده أن يتولى كبر معارضة المرسلين الملأ من المترفين، كما أنهما يسوقان لتبرير كفرهما وجحودهما الحجج ذاتها التي ستتكرر عبر التاريخ بدءًا من ملأ نوح وحتى ملأ مكة القرشي دونما اهتمام بالخمسين قرنًا التي تفصل بين ملأ نوح وملأ مكة. ولا ضرورة للإشارة إلى أن هودًا كان في قومه كما كان نوح من قبله، وكما سيكون جميع الأنبياء في أقوامهم بعد ذلك حتى نصل إلى النبي محمد، فجميعهم ما جاءوا إلا لكي يردوا أممهم المشركة إلى ما كانت عليه قبل من عبادة الله وتوحيده، ولم يكن أمام النبي كما قلنا سوى الاعتقاد الجازم في حدوث تلك السلسلة التي لا تنتهي من الإيمان الذي يعقبه الكفر، فهذا الحل على غرابته كان لازمًا لديه لتفسير حضور الأوثان الدائم في العصور القديمة كلها، فبدلاً من عدِّ الشرك وتعدد الآلهة مرحلةً طبيعيةً في تدرج البشر، وفهمهم لمعنى الألوهة، فقد كان في الاعتقاد الخاطئ بسبق التوحيد، وحضور الأنبياء الداعين إليه في كل العصور، ما يجعل القول بالانتكاسات الدائمة والسريعة أمرًا ضروريًّا، فهو في النهاية تفسير صحيح لسؤال خاطئ، أو تفسير معقول لمشكلة وهمية غير معقولة.

إذا تذكرنا كيف فسر النبي حدثًا تاريخيًّا لا شك فيه أنه سبق مولده بفترة ليست بالبعيدة جدًّا، وهو ما جاء في القرآن عن سيل العرم الذي اجتاح سد مأرب عاصمة سبأ، وما نتج عنه من آثار وخيمة لسكان تلك المنطقة؛ حيث دمرت بساتينهم المزدهرة، التى كانوا يزرعونها بما يجمعون خلف السدود من مياه الأمطار الموسمية الغزيرة، وما نتج عنه من تفرق سكان تلك البلاد في أنحاء الجزيرة العربية، لدلنا ذلك على طريقة تفسير النبي لكل واقعة من تلك الوقائع الكبرى في تاريخ الجماعات البشرية التي علم بوجودها:

لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ (سَبَأ: 15–21)، :(فَأَعْرَضُوا) (يَعْنِي عَنْ أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُسْلِمِين [511]).

حيث نجد النبي محمدا كما ترى لا يتردد في إرجاع سبب تلك الواقعة المفجعة إلا إلى عصيان قوم سبأ لله وجحودهم نعماءه، فكان أن أرسل عليهم سيل العرم، ومزقهم كل ممزق، ولم يجد النبي صعوبة في أن يتخيل ويصف في يقين كامل ما كان من بطر هؤلاء الجاحدين لأنعم الله، وطلبهم العجيب أن يباعد الله بين أسفارهم، وظلمهم لأنفسهم، وكل هذا وليس من رسول قد أرسل اليهم، وربما لأنهم كانوا في اعتقاده ذرية بعيدة لهؤلاء الذين أسلموا مع ملكتهم الأريبة على يد سليمان، وأذعنوا طواعية لله رب العالمين مما أورده القرآن عنهم في سورة النمل، معتمدًا في ذلك على أسطورة تلمودية متأخرة؛ لذا فلم يكونوا يحتاجون إلى استبقاء تلك النعم الإلهية السابغة سوى البقاء على الإيمان القديم، لكنهم غيروا وبدلوا فأنزل الله بهم ما أنزل من العقوبة.

ولعل ما أورده القرآن كذلك عن قوم تبع الحميري شبيه بهذا، فلم يكن سوى تفسير ديني خالص لاضمحلال عرب الجنوب بعد أن كانوا وفق المرويات العربية التي ملأت

[510]"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبى، ج14 ، ص 285.

مسامع قريش عن عظمة أهل الجنوب في العصور الغابرة من أعظم الشعوب وأكثرها رخاء التى هي بالتأكيد أصداء ترجع إلى ما كان لهم من حضارات متعاقبة كانت بحق أرقى بكثير مما بلغه عرب الشمال قبيل البعثة من تحضر، ولعل هذه الآية الجامعة من سورة الأنفال تعبر عن هذا القانون التاريخي الصارم عند النبي: *ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾* (الأَنفَال: 53) ومثلها ما جاء في سورة الرعد *لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾* (الرَّعْد: 11).

وأما عن هذين الاسمين (هود وصالح) واعتقادنا أنهما من مبتكرات النبي؛ لأننا لم نجد لهما أثرًا فيما طالعناه من أشعار الجاهلية وأخبارها، ولم نجد أحدًا تسمى به من المسلمين الأولين، ولم نجده كذلك في أسماء آبائهم وأجدادهم، بل لم نجده أيضا فيما أوردته كتب التاريخ عن أسماء الثموديين كما جاءت في نقوشهم العديدة.

"وشاعت بين الثموديين أسماء عربية خالصة مثل: سعد وقيس ومالك ووائل وزيد وأوس وعاصم وعمر وعقرب وواسط وكعب وحارثة، وسعدة ومسكة وسهرة وهانئة ... إلخ[512]"، وأما كل ما وجدناه فقد كان اسم صالح من بين الآلهة "وأما آلهة الصفويين، فهي (اللت) (لت) (هلت) و(دين) و(ديان).... وصالح [513]"، "ورحيم مثل رحمن، أي الرحمن، لعلهما اسمان من أسماء الله الحسنى في الأصل، ثم صارا اسمين علمين. وينطبق هذا القول على لفظة (صالح) الواردة في نصوص الصفويين[514]".

وإذا صح هذا فهو لا يشكل في الحقيقة مشكلة كبيرة؛ لأن من يستطيع بعجيب مخياله أن يخلق شخصية كاملة فلن يصعب عليه أن يمنحها اسمًا مناسبًا، والحقيقة أن النبي قد أعطاهما اسمين عربيين خالصين وجميلين أيضًا، فأما أحدهما (هود) فيدل اسمه

---

(511)"تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة"، د. عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 140.
(513)"أصنام الكتابات" د. جواد علي، ص47-48.
(514)المرجع السابق، ص49.

على ما كان عليه من الإنابة والرجوع الدائم إلى الله، وأما الآخر (صالح) فيدل على التقوى والصلاح، ولعل هذا يدل على أنهما في اعتقاد النبي قد ولدا في بيتين من تلك البقية الباقية على الإيمان القويم الذي جاء به نوح!

ولعل ما فعله النبي محمد في هذا الشأن لهو شيء شبيه على نحوٍ ما بما يمكن أن يسمى (بالجدول الدوري للتاريخ الإلهي)، فهناك أماكن معلومة ولبناتٌ موجودة علمها النبي واستيقن وجودها، وهناك أماكن شاغرة للبناتٍ تاريخية مفقودة، ولا بد من حضور ما يملأها حتى تستقيم لديه معالم المسيرة الإلهية، ولا غرابة في أن تتشابه تلك اللبنات في جوانبها الأساسية والعميقة، وتختلف في بعض الملامح التفصيلية التي تأتى دائمًا من المرويات السماعية سواء أجاءته تلك التفاصيل من التراث الكتابي كما بلغ مسامع النبي أو من موروثه العربي الخالص كما هي الحال فيما بين أيدينا من قصص عاد وثمود ومدين وأهل سبأ وسواهم، فلم يكونوا جميعًا سوى أمثلة تطبيقية لهذا القانون الذي لا يتخلف والذي اعتقد النبي جازمًا في صحته.

سابعا: قصة صالح في القرآن الكريم.

* وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾* (الإِسۡرَاء: 59).

جاءت قصة صالح نبي ثمود كالعادة موزعة بين سور القرآن، وقد أتت بين إشارات سريعة ومقتضبة، ومشاهد مفصلة مطولة. وأهم تلك المشاهد كلها ما جاء عنه وعن قومه في سور: الأعراف، هود، الشعراء، النمل، القمر. وهي لا تخرج عن قصة توأمه هود في شيء؛ لذا سنكتفي بعرض الآيات القرآنية التي تعرض قصته، فهي تكفي وحدها للبرهان على تطابقها مع قصة هود من حيث معالم الدعوة الدينية، وأركان العقيدة

الإلهية، وكذا ما كان من استجابة من أرسل فيهم ذلك النبي العربي، وما لقيه به قومه من التكذيب والتسفيه، بل فيما اشتهروا به أيضًا من مظاهر وأنشطة الحياة، وفي جملة واحدة فقوم صالح هم قوم هود، ولا يختلفون عنهم في شيء عدا قصة الناقة وعقرها؛ لذلك فلن نتوقف للتعليق على ما جاء في قصته إلا عند ما تنفرد به تلك السورة أو تلك من ملامح لم يرد مثلها عند سابقه هود، رغم اعتقادنا الراسخ بأن هودًا وإن سبق صالحًا في الزمان المحمدي لكن ملامحه هو وقومه قد تشكلت على مثال خلفه صالح وقومه لا العكس؛ وذلك لأن قصة صالح تشتمل على تفاصيل دقيقة تجعلنا نوقن أنها تعكس مرويات سماعية أكثر بكثير مما بلغ النبي عن هود وقومه.

ولنبدأ أولا بعرض بعض الملامح العامة مع مقابلها من دعوة النبي محمد كلما أمكن ذلك.

صالح في سورة الأعراف

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ (الأَعْرَاف: 73–79).

لا تمنحنا آيات سورة الأعراف زيادة على ما ستأتي به السور الأخرى التي سنوردها، سوى نصها على ذكر اسم (صالح) لأول مرة، وتقريرها الواضح على مجيء ثمود بعد مهلك قوم عاد، ويبدو أن ثمود كما ورثوا من (عاد) لغتهم العربية، فقد ورثوا منهم أيضًا قدرتهم المعمارية، بل ربما زادوا وتفوقوا عليهم، وورثوا عنهم كذلك الإسراف في اتخاذ القصور ونحت الجبال، وكذا الإفساد في الأرض، فهم على هذا كأسلافهم الكافرين من قوم (عاد) ولا يختلفون عنهم في شيء كما قلنا.

أما عن مكانهم فقد نص القرآن على أن مساكنهم كانت في أرض (الحجر)، ما يعضد قول القائلين من المحدثين بأن عادا وثمود إنما كانتا تعيشان في شمال الجزيرة العربية، ولا تفصل بينهما إلا تلك المسافة القليلة بين الحجر والأحقاف الشامية التي في شمال الجزيرة، وهي مسافة على قربها كانت ضرورية فيما نعتقد لكراهة البقاء في موطن الأسلاف المعذبين، وهو ملمح محمدي رأيناه جليًّا في تخوفه على أتباعه من دخول منازل قوم ثمود مرجعه من تبوك.

أما عن زمانهم، من المنظور القرآني، فلم يكن من مدة تفصل بين عاد وثمود إلا ما يقتضيه النكوص إلى عبادة الأصنام والأوثان، ولا ينبغي للقارئ الكريم أن يستهول تلك المدة التي تفصل بين أناس موحدين وهؤلاء الكافرين الذين يرددون أقوال الملأ العادي الكافر ذاتها، والذي هو بدوره يردد أقوال ملأ نوح ذاتها، فلم يكن هؤلاء في الحقيقة كما قلنا سوى أطياف ملأ مكة، ولكن النبي قد افترض أن معارضي الدعوات الإلهية لم يكونوا إلا مثل قومه، ولم يقولوا إلا بمثل ما قاله قومه له.

أما عن المدة الشاسعة التي يستلزمها تحول أخلاف جماعة مؤمنة قليلة العدد نجت من عذاب الله الماحق الذي حل بأسلافهم الكافرين، ثم يعيشون مدة جيل أو أجيال على الإيمان، ثم يتسلل إليهم فساد الاعتقاد فيرتدون إلى عبادة الأوثان من زمن بعيد حتى يقولوا بعدها لنبي جديد أرسله الله إليهم ليدعوهم إلى التوحيد المهجور بأنهم يتابعون ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، فكل هذا لا يلتفت إليه القرآن الكريم كما رأينا، ولا يتوقف عنده المفسرون قدماء كانوا أو محدثين حتى إننا نجد شارحين حديثين يتجاهلان كل هذا ليقولا بأن قوم ثمود كانوا من نسل قوم عاد أنفسهم غير آبهين بما يستلزمه ذلك من مضاعفة المدة التي يستلزمها النكوص مرتين إلى الشرك بعد التوحيد الخالص، وكل هذا في تلك الفترة القصيرة بين نوح وزمن إبراهيم!

"لما دمر الله قوم عاد بالريح الصرصر العاتية وأنجى هودًا عليه السلام والمؤمنين الذين آمنوا معه، عاش هود مع أتباعه المؤمنين ما قدر الله له أن يعيش، وأقام هود مع أتباعه المؤمنين في مكان لا ندرى عنه شيئًا لأن النصوص لم تخبرنا عنه ومات هود عليه السلام، ولا ندرى أين دفن، ومات ذلك الجيل من أتباعه المؤمنين، وكانوا مؤمنين صالحين ونشأت أجيال جديدة، وتدسس الشرك والكفر إليهم وتمكن الشيطان من إغوائهم والاستحواذ عليهم، وأمرهم أن يعبدوا غير الله فنفذوا أمره وانقادوا له، ونشأت من هذه الأجيال الجديدة قبيلة ثمود. وكان ثمود قومًا مشركين بالله عابدين للآلهة والأصنام فبعث الله لهم أخاهم صالحًا عليه الصلاة والسلام[515]".

"وجاء قوم ثمود من نسل الناجين من قوم عاد؛ ولذلك عرفوا باسم عاد الثانية تمييزًا لهم عن أسلافهم (عاد الأولى) وسكنوا في منطقة الحجر، وعاش فيها قوم ثمود عيشة هنية على التوحيد الخالص لله تعالى ثم جاءت الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فأشركوا بالله، وعادوا إلى عبادة الأصنام والأوثان؛ لذلك بعث الله تعالى إليهم من بينهم نبيه صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام ذلك الدين القائم على التوحيد الخالص لله تعالى والالتزام بمكارم الأخلاق، والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها،وإقامة عدل الله فيها ---[516]" .

صالح في سورة هود

*وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا

[515]"القصص القرآني" صلاح الدين الخالدي، ج1، ص 269.

[516]"آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم" زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2013م ، ص 209.

تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾* (هُود: 61–68).

كما ترى، فصالح يدعو قومه إلى ما دعا إليه هود وبقية الأنبياء من عبادة الله وحده، ويذكرهم بقدرة الله وبفضله عليهم، مضمنًا في جملة واحدة عقيدتين قرآنيتين خالصتين وهما: خلق الإنسان من مادة الأرض وعقيدة الاستخلاف في الأرض؛ فالله هو الذي أنشأهم من الأرض: (أي ابتدأ خلقهم من الأرض التي خلق منها أباهم آدم (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) أَيْ: جَعَلَكُمْ عُمَّارا تُعَمِّرُونَهَا وَتَسْتَغِلُّونَها[517]، وهذا الاعتقاد بأن الطين هوة المادة التي خلق الله الإنسان منها، إنما هو اعتقاد أساسه التوراة التي أخذته بدورها من مصدر أبعد وأبعد، ولكنه علي كل حال نظير ما قاله النبي محمد لقومه في سورة النجم: *إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾* (النَّجم:32)، *وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾* (نُوح: 17–18).

ونجده يذكرهم كذلك باستخلافهم في الأرض لكى يعمروها ما يذكرنا بعقيدة الاستخلاف القرآنية التي جعلها النبي من بين تصورات الأنبياء السابقين عن غاية الخليقة وهدفه، ثم نجد صالحًا يصف الله بأنه (القريب المجيب) مثلما جاء في القرآن عن الله القريب برحمته من عباده والمجيب لمن يدعوه من عباده: *وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾* (البَقَرَة:

[517] تفسير ابن كثير، ج4، ص 331، طبعة سامي سلامة.

186)، وكذا *قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠* (سَبَإ: 50).

ثم تصف لنا الآيات ما كان من ارتياب ثمود وشكهم في صدق دعواه، مثلما ارتاب قوم النبي محمد فيه وفي صدق ما جاء به: *وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ۝١١٠* (هُود: 110)، وهو ارتياب اشترك فيه جميع من أرسل الله إليهم أنبياءه كما حكى موسى لقومه، كما رأينا، في سورة إبراهيم *أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩* (إِبۡرَاهِيم: 9).

صالح في سورة النمل

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ (النَّمل: 45–53).

أما سورة النمل فهي تتفرد ببعض الملامح التي لا نجدها في سواها، وأهمها تلك الإشارة الواضحة إلى انقسام المجتمع الثمودي بين أتباع الدعوة الجديدة وخصومها، ما يوحى بتعاظم أعداد المؤمنين بدعوة النبي محمد وقت نزول سورة النمل، وما أشاعه ذلك من جدال عظيم بين الفريقين، وهو ما عبر عنه القرآن مرارًا ومن ذلك: *وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾* (مَرۡيَم: 73)، *مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾* (هُود: 24).

ونجد كذلك صدى بعض ما قاله بعض أهل مكة للنبي مما حكاه عنهم القرآن من استعجالهم العذاب: *وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾* (الرَّعۡد:6).

ثم نجد ملمحًا عربيًّا خلف تلك القصة التي يحكيها القرآن عن تآمر قوم صالح لقتله وائتمارهم على حياته وحياة أسرته معه، ولكنهم لما كانوا يخشون انتقام عشيرته فنجدهم يتواصون بأن يقتلوا صالحًا، ثم إنهم يقسمون بالله لولي دمه أنهم ما قتلوه ولا علموا شيئًا عن مقتله، وهو ما سنجده كذلك عند شعيب وقومه.

إن تلك التفصيلة الدقيقة عن عدد الرهط المفسدين، والذين هموا بقتل صالح تثير فينا العجب والحيرة، فمن ناحية ليس من اليسير التصديق بوجود أساس سماعي لتلك التفصيلة؛ إذ يغلب على ظننا أن قصة محاولة اغتيال صالح هي من افتراض النبي مثلها في ذلك مثل ما سنجده عند قوم شعيب، ومن قبلهما قوم نوح، لكننا لا نجد ما يفسر لنا ضرورة هذا الرقم من بين الأعداد كلها؛ لأننا دائمًا ما نجد المخيال النبوي لا يفعل شيئًا سوى أن يملأ الفراغات بالفروض العامة المنطقية والمعقولة، أما أمثال تلك التفاصيل فهو في الحقيقة أمر يبعث على الحيرة؛ لذا فليس أمامنا سوى الاعتماد على هذه القصة تحديدًا من بين محاولات الأقوام القرآنية لقتل أنبيائهم؛ لكى يرجح أنها ذات أساس سماعي، وأن جميع القصص الأخرى قد صيغت على منوالها، وسنرجع إلى تلك النقطة بعد قليل.

صالح في سورة الشعراء

* كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾
ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟

نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾* (الشُّعَرَاء: 141–159).

لا تزيد سورة الشعراء عما جاء في السور السابقة سوى أنها تصف لنا ما كان من نعم الله رب العالمين على ثمود؛ حيث نجد صالحًا كسابقه هود يشتد في توبيخهم على ركونهم إلى الدنيا كما لو كانوا خالدين فيها، مستمرئين ما خولهم الله من متاع الدنيا؛ حيث كانوا يعيشون في رغد كأسلافهم من قوم عاد، ونجدهم كالعادة يصفون صالحًا بأنه مسحور، وأنه ليس إلا بشرًا مثلهم، ويطالبونه بآية إن كان صادقًا فيعطيهم الله ما طلبوا لكنهم يعقرونها فيأخذهم عذاب الله!

إننا لم نستطع قط مجرد تصور أناس كهؤلاء الذين يحكي لنا عنهم القرآن، وما كان من إصرارهم على الكفر بعد أمثال تلك المعجزات، فهل يعقل حقا أن يتجاهل مجتمع بأكمله دعوة نبي يؤيده الله بمثل تلك المعجزة المذهلة؛ وهي أن يخرج لهم ناقة من الصخر فلا يؤمن به إلا قلة قليلة، ويكفر أكثرهم؟! ومن الواضح أن النبي كان يعجب في نفسه أشد العجب من كفر من كان يرى بعينيه أمثال تلك المعجزات الباهرات، ويظل بعدها على جحوده فلا يؤمن بالمرسلين مثل ما أيد الله به صالحًا، وبما أظهره الله بعد ذلك لفرعون وقومه من معجزات على يد موسى، فلم يجد النبي من حل لذلك سوى أن يرد هذا الأمر العجيب إلى أنهم استيقنوا في أنفسهم صدق الأنبياء، وإن كذبوهم بألسنتهم، وهو في الحقيقة أمر إن أمكن تصوره من ملتاث من آحاد الناس، فليس من اليسير تصديق حصوله من جماعة بشرية كبيرة يظل أغلب أفرادها لا يبرحون التكذيب والمكابرة مع كل تلك المعجزات، بل يجترئ بعضهم على تلك الأعجوبة الإلهية فيعقرها ويوافقه ويرضى بفعله بقية أفراد تلك القبيلة من المخبلين المأفونين، كما تعبر عن تلك الدهشة نصوص القرآن الكريم: *وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾*الإِسۡرَاء: 59)، * وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ

كَانُواْ قَوۡمَا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةَ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمَا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾*(النَّمل: 12–14).

صالح في سورة القمر

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ (القَمَر: 23–31).

لا تضيف سورة القمر سوى ملمحين، أولهما عن صالح، وآخر عن تفصيل علاقتهم بالناقة.

أما الملمح الأول فهو إن جاء مكررًا لما سبق أن قاله مرارًا المكذبون المعاندون من أنفتهم من أن يرسل الله إليهم رسولا من البشر، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق، إلا أن هذه الآيات تضيف ملمحًا جديدًا؛ فهي تقول إنه على فرض قبولهم لبشرية الرسل فلا أقل عندهم من أن يختار الله سيدًا من ساداتهم ليرسله إليهم، وليس رجلا من آحاد الناس مثل صالح الذي يبدو من قولهم له في سورة هود *قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴿٦٢﴾* أي إنهم كانوا يأملون أن يحتل بينهم مكانة لا بأس بها، ولكنه لم يكن في أعينهم من بين السادات المبجلين الذين إن أراد الله أن يصطفي رجلا فمن المنتظر أن يصطفيه من بين هؤلاء الأكابر!

ولسنا بحاجة إلى القول إن هذا الذي قاله قوم صالح، إنما كان يترجم بوضوح عن مكانة النبي محمد بين قومه، فهو إن كان ينتمى إلى أسرة شريفة النسب، وعشيرة مبجلة داخل قبيلته وخارجها لكنه كان على شرفه الذي لا ينكر سليل أسرة فقيرة لا مال لها، فأين هو من سادات قريش المستأثرين بالنعمة ذوى الثراء؟ ولكنه كان مرشحًا على كل

حال بسبب من شرف أسرته ورجاحة عقله، وما أصابه من ثراء ليس بالقليل بعد زواجه من خديجة أن يكون من بين وجهاء مكة وأصحاب الرأي فيها.

ومما يعضد هذا أن قوم صالح كانوا يعجبون من دعوى صالح أن الله قد اصطفاه من بينهم بالنبوة، وخصه دونهم بالرسالة: *أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾*(القَمَر: 25)، ولا ينبغي أن يغيب عنا ما تدل عليه كلمة (الذكر[518])، فهذه الكلمة إن دلت في العموم علي معنى النبوة والوحي، لكنها تشير إلى عظم مكانة النبوة وتعظيمهم لجلال قدر الأنبياء؛ أي إنهم كانوا يدخرون تلك المنزلة لرجل من أهل المكانة في المجتمع الثمودي، وهو نظير ما قاله المشركون للنبي محمد *أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾* (ص: 8–9)، ومثله: *وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾* (الزُّخْرُف: 31–32)، أي إنهم كانوا يتوقعون إذا أراد الله أن يختار رجلاً من

[518]ولا ينبغي أن تغيب عنا أيضًا دلالة كلمة (الذكر) ذاتها، بمعني الوحي والمخاطبة الإلهية كما لو كانت تكاد تنطق بكلمة القرآن! *وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾* (الحِجر6: 9)، *وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾* (النَّحل43: 44)، *وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾* (الأَنبياء: 105)، *يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾(الفُرقَان 28: 29) ، *إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾(يس: 11)، *وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾* (القَلَم51: 52).

بين الناس فما ينبغي إلا أن يكون رجلاً من أشرافهم مثل الوليد بن المغيرة سيد مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي سيد الطائف وأضرابهما مثلما قلنا في موضع سابق.

التطير من الرسل والمرسلين

من الملامح الخاصة التي تعكس المفاهيم الاعتقادية لعرب الجاهلية زمن البعثة المحمدية، حضور التطير مما جاء به الرسل، والتشاؤم من دعوة المرسلين؛ حيث نجد هذه العقيدة أول ما نجدها في القرآن الكريم هنا على لسان قوم صالح؛ حيث *قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾* (النَّمل: 47)، وسنجد التطير بعد ذلك أيضا عند المصريين القدماء فقد تطيروا مما جاءهم به موسى:*فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾* (الأَعۡرَاف: 131)، وسنجدها كذلك عن أهل قرية صاحب يس؛ إذ تطير أصحاب تلك القرية - المتخيلة كما نعتقد- من الرسل: *قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾* (يس: 18)، وظل هذا الاعتقاد حاضرًا عند منافقي المدينة حيث كانوا يتشاءمون من حضور النبي لبلدتهم، ويرجعون ما يصيبهم من نكبات إلى وجود النبي الكريم بين ظهرانيهم كما تنص هذه الآية: *وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾* (النِّسَاء: 78).

والتطير كما هو معروف ضرب قديم من التشاؤم أو التفاؤل يرجع اسمه إلى زجر الطيور ومراقبة حركاتها فإن تيامنت، دل تيامنها على فأل، وإن تياسرت، دل على شؤم. فهي إذن تشمل التيمن والتشاؤم، إلا أنها خصصت بالتشاؤم فيما بعد. وقد أرجعها بعض الباحثين إلى عقيدة خرافية أخرى فيقول: (ولا بد أن يكون للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيورًا بعد مفارقتها الأجساد، فقد كان من المتعارف عليه عند كثير من الشعوب

القديمة أن بعض فصائل الطيور هي أرواح الموتى بعد مفارقتها الأجساد، وإنها لذلك تعي وتفهم، وأن في استطاعة بعض الناس فهم منطقها وتكليمها، ومن هنا ظهرت فكرة "منطق الطير"، وقد كان "سليمان" يحادث الطير. فإذا كانت الطير على هذه الصفة، ففي حركاتها وسكناتها منطق لمن لا يحسن منطقها، يشير إلى ما يجب على الإنسان أن يفعله أو يتركه من أعمال [519]).

وسواء أصح هذا التفسير أم لم يصح فليس من شك في أن التطير كان ذا شأن عظيم في حياة عرب الجاهلية، فذكر أنهم كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لحاجة، فإن رأي الطير طار عن يمينه تيمن به واستمر، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع، وربما كانوا يهيجون الطير ليطير فيعيدون ذلك، أما عن نصيب النبي من هذا الاعتقاد النفسي فليس من اليسير القطع برأي حاسم في هذا لكثرة الأحاديث التي جاءتنا عن موقفه من هذا الشعور وتناقضها، ولكن يجب علينا أن نشير أولا إلى حقيقتين لا ينبغي أن تغيبا عن القارئ الكريم، أما الأولى فهى صعوبة أن يفلت أي إنسان مهما عظم شأنه من أفق معارف عصره تمامًا فيتجاوزها دون أن يتلبس بشيء منها مهما بدت تلك المعارف غريبة عجيبة لمن جاء بعده مثل أهل زماننا.

أما الحقيقة الأخرى فهي تتجلى واضحة لكل من يقرأ سيرة النبي؛ حيث سيرى أنه كان عليه السلام ذاتًا مفعمة بالحيوية، ولم تكن ذاتًا خاملة هامدة، بل كانت ذاتًا متوفزة، شديدة التأثر بما حولها من مسموع ومرئي ومشموم؛ لذا فلا عجب أن تثير هذه الذات ما يدخل عليها من مؤثرات فتهيج فيها روح الاستبشار والحبور أو الكراهة والنفور، وخاصة في تلك الظروف المتوترة العصيبة التي كان يعيشها النبي في المدينة، فقد كانت تحدق بعظيم آماله ومطامحه مخاطر شديدة من كل جانب؛ لذا فقد كان باطنه شديد التحفز والانتباه لكل ما يجري حوله ويترجم ما يجده من مظاهر التفاؤل أو نذر التشاؤم.

أما عما جاءنا بشان موقف النبي من الطيرة فنجد في البداية أن النبي كان "يعجبه التيمن في ترجله وتنعله وطهوره وفي شأنه كله"[520] ، و"كان يعجبه إذا خرج لحاجته

[519] المفصل، ج12، ص365، طبعة دار الساقي.

[520] متفق عليه، انظر الحديث في "إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل" الألباني، برقم (93)، المكتب الإسلامي، بيروت، إشراف: زهير الشاويش، الطبعة الثانية - 1985م.

أن يسمع: يا راشد! يا نجيح"[521]، أما عن الطيرة كما شاعت بين قومه، فقد ردها النبي وهاجمها بوصفها عقيدة شركية فلا يقع شيء إلا بإذن الله، ووفق تقديره كما يدلنا عليه هذا الحديث: "من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك"[522].

أما عن تعليله لما يتفق أحيانًا من حدوث المكروه مع تلك الإشارات، فقد أعطى النبي لذلك تفسيرًا لا نجده غريبًا مع طريقة تفكيره عليه السلام أي من وصف الاعتقادات الشعبية داخل بنائه الديني كما سنرى في تفسيره لحديث (كان نبي يخط)، وكما في هذا الحديث القادم الذي كما يصلح لبيان التصور المحمدي عن أقدار الله التي لا يفلت منها شيء فإن شطر الحديث الآخر يشير أيضًا إلى ما نستهدفه من بيان أن حركة الطير وما تدل عليه تجري أيضًا وفق قدر الله: عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّاهُ، حَدِّثِينِي بِشَيْءٍ سَمِعْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الطَّيْرُ يَجْرِي بِقَدَرٍ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ [523]". وأوضح منه هذا الحديث "عن سعد بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا هامة ولا عدوى ولا طيرة وإن تكن الطيرة في شيء ففي الفرس والمرأة والدار [524]".

إن النبي ينفي حقيقة الهامة والعدوى والطيرة؛ أي أنه لا ينفي تأثيرها نفسه، بل ينفي ما شاع عند قومه بوقوعها اتفاقًا فهي تحدث حقا لكن داخل تقدير الله، وسوف نقف عند هذه النقطة عند عرضنا للقصص في الحديث النبوي، ولكن ما يعنينا هنا أن النبي كان يتفاءل ويكره الأسماء القبيحة فيغيرها، ونراه يتردد بين نفيها التام وإعادة تفسيرها ضمن عقيدته الراقية في الله، ولكن ما يعنينا من هذا كله فهو العرب كانوا يتطيرون ويتشاءمون، وأما النبي فقد كان يتفاءل أي يعجبه الفال الحسن، ولكنه لم يستسلم لمظاهر التطير وبواعث التشاؤم، وقرر في وضوح وجلاء أن أكثر الناس يتشاءمون إلا من عصمه الله وقليل ما هم! "الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل[525]".

---

[521]"صحيح الجامع الصغير وزياداته" للألباني برقم (4978)، المكتب الإسلامي.

[522]صحيح الجامع برقم (6264)، (الصحيحة برقم 1065).

[523]"التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه" للألباني، برقم (5794) دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، 2003 م، الصحيحة برقم (860).

[524]"انظر السلسلة الصحيحة" برقم (789).

[525]"انظر الحديث في السلسلة الصحيحة للألباني" برقم (429).

لذلك فليس من الغريب إذن أن يعتقد النبي في حضور التطير عند الأقوام الكافرة لوجوده عند قومه، وهل من الغريب أيضا أن يرد الأنبياء السابقون هذا الاعتقاد على أقوامهم كما فعل هو؟

"اجتمعت قريش يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتّت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ما يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: اثبت يا أبا الوليد، فأتاه فقال: يا محمَّد، أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، يا رجل إن كان بك حاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجنك عشرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فرغت؟" قال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(*حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ۝٣* (فُصِّلَت: 1-3)

حتى بلغ *فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣* (فُصِّلَت: 13)

فقال عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: "لا" فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، فقالوا: فهل أجابك؟ قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال. غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال؟ قال: لا والله، ما فهمت شيئًا مما قال، غير ذكر الصاعقة![526]".

أما عن التطير من الرسل في القرآن، فلربما كان أساس هذا الاعتقاد النبوي في حضوره على ألسنة المكذبين للرسل في الأمم كافة ما جاءت به كتب السيرة من قول

[526]"الجامع الصحيح للسيرة النبوية" د. سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت الطبعة الأولى، 2009 م، ج4، ص 1010. ولمزيد من الروايات عن تلك المفاوضة انظر: ج1 ص، 140 من كتاب "الموسوعة في صحيح السيرة النبوية" أبو إبراهيم، محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة، مطابع الصفا، مكة، الطبعة الأولى، 1423 هـ.

عتبة بن ربيعة للنبي ما رأيناه في النص السابق، لكن النبي جعل منه كعادته قولا يمكن صدوره من جميع معارضي الأنبياء في كل العصور، مفترضًا حضور هذا الشعور النفسي في ثقافة الأمم القديمة كافة اعتمادًا على وجوده في الثقافة العربية.

وعلى هذا، فعلى الرغم من أن الباحثين يقررون بوجود هذا الاعتقاد عند كثير من الأمم كاليونان والرومان والفرس وغيرهم، فإن ما يعنينا هنا هو أن نقول بأنه سواء أوجد هذا المفهوم عند تلك الأمم التي نسبه إليه القرآن أو لم يوجد، وهو ما يقع إثباته أو نفيه على عاتق المؤرخين والآثاريين، فلا ينبغي أن يتخذ أحد من حضور تلك الاعتقادات الثقافية في القرآن الكريم أساسًا للقول بوجودها عند تلك الأمم القديمة خاصة عند المصريين القدماء كما يفعل بعض الباحثين، معتمدين على ما ورد في القرآن الكريم من قصص عن تلك الحضارات، ويستخرجون من قراءة القرآن معارف ينسبونها إلى تلك الأمم دون برهان سوى أنها وردت في القرآن الكريم، فهذا ليس من العلم في شيء، بل يجب أن نعلم بحضور تلك الاعتقادات، أساسا، في عقائد العرب وثقافتهم وقت البعثة النبوية، وافتراض النبي حضورها عند جميع الأمم السابقة لاعتقاده الراسخ في وحدة الثقافة البشرية في جميع العصور ليس إلا.

التآمر على حياة الأنبياء

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ (غَافِر:5).

من بين أهم الاستجابات المنطقية التي افترض النبي صدورها عن الأمم الجاحدة كذلك سعيهم لقتل أنبيائهم، أو إيقاع شديد الأذى بهم، وليس من الغريب أبدا أن يفترض النبي سعي الكافرين لقتل من ينكرون آلهتهم، ويصفون بالضلال آباءهم وأجدادهم، وهو ما عبرت عنه بوضوح هذه الآية السابقة، وحتى لمن شاء أن يقول بأن هذه الكلمة (لِيَأْخُذُوهُ) غير صريحة في الدلالة على القتل، بل تشير إلى مطلق الإيذاء، فإننا رغم هذا نعتقد أن الدلالة السياقية ربما ترشح أن المقصود هنا هو القتل دون سواه، وهذا مافهمه المفسرون منها: (وقوله:*وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ ۝٥) يقول تعالى ذكره: وهمت كل أمة من هذه الأمم المكذّبة رسلها، المتحزّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أرسل إليهم ليأخذوه فيقتلوه [527]"، "أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله [528]".

**

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧* (البَقَرَة: 87).

* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١* (البَقَرَة:91).

---

[527] تفسير الطبري، ج21، ص 353، تحقيق شاكر، ط1 2000م.

[528] تفسير ابن كثير، ج7، ص 129، تحقيق سامي سلامة، ط2 1999م.

وربما كان من بين الأسباب التي دعت النبي إلى إطلاق وتعميم هذا الظن ما علمه النبي من وقوع القتل على بعض أنبياء العهد القديم وسجله القرآن مرارًا، مهاجمًا بني إسرائيل لقتلهم أنبياءهم بغير حق، رغم أننا لا نعلم يقينًا من هؤلاء الأنبياء الذين عناهم النبي بأنهم قد قتلوا على يد بني إسرائيل لأنهم جاءوهم بما لاتهوى أنفسهم؟ وهو الأمر الذي أحار كثيرًا من المفسرين؛ لذا نجدهم عند تفسيرهم لأمثال تلك الآيات ما بين مفسر يفسر الآية بإبهام شديد مثل عموم المفسرين، فنراه لا يزيد شيئًا على شرح ظاهر الآية، وأما من أراد منهم التفصيل فسنجده يأتي بالعجيب الغريب مثل ما قاله البغي وسواه:

(وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) أَيْ: قَتَلْتُمْ مِثْلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَشَعْيَا، وَسَائِرِ مَنْ قتلوا مِنَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[529]. ولا ندري من أين أتى البغوي بمقتل زكريا أو يحيى؛ فلم يذكر القرآن شيئًا عن هذا، فضلا عن أن القرآن لم يذكر لنا شيئًا قط عن مقتل أشعياء [530] أو عن حياته.

ويحق لمن يغيب عنه هذا المظهر من مظاهر التفكير المحمدي الذي يميل إلى التعميم والإطلاق أن يتعجب من هذا التعميم المحمدي الذي يقول إن (كل أمة) قد همت برسولها؛ لأنه إن أمكن القبول بأن بعض الأنبياء قد تعرضوا لمثل ما هم المشركون به من قتل النبي في فترة متأخرة من المرحلة المكية، فهذا التعميم العجيب الذي خلا القرآن ما يؤيده يثير الدهشة والحيرة، فمن خلال ما أورده القرآن نفسه عن حياة كثير من الأنبياء لا نجد ما يتسق مع هذا التعميم، فعلى حين أن القرآن قد حكى عن تعرض إبراهيم وموسى ونوح وهود وصالح للوعيد بالقتل، وتعرض شعيب لمثل هذا على نحو واضح، فضلا عن أن المسيح الذي لا ندري أقتل حقا كما ترجح الشهادات القريبة من عصره أم أنه نجا كما يؤكد القرآن، فقد خلا القرآن من أي إشارة عن سواهم مثل: إدريس وإسماعيل وسليمان وداود وزكريا ويعقوب ويوسف وإسحاق وأيوب، ما يجعلنا نرجح تخصيص

---

[529]تفسير البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ، ج1، ص 141.

[530]ليس هناك أي إشارة في القرآن تصرح بقتل يحيى، فضلا عن أن تقول إن من قتله كانوا هم الرومان، ولأسباب سياسية لا علاقة لها بالدين، وقل مثل ذلك عن محاولة صلب المسيح إلى الرومان، وأن دور اليهود لم يكن سوى الوشاية به والحكم بإدانته من مجلس ديني، أما من حكم عليهم وأنفذ فيه الحكم (أو حاول إنفاذه) فهم الرومان، لكن ظاهر الآيات يقول إن اليهود هم من حاولوا أن يقتلوه بأنفسهم لكن الله أنقذه من بين أيديهم.

هذه الآية بأنها تعني أنبياء الدعوات الذين أرسلوا في الأمم المكذبة الجاحدة دون بقية أنبياء بني إسرائيل الذين لم يلاقوا معارضة أو ينالهم أذى ممن أرسلهم الله إليهم.

وعلى كل حال، فهذه الآية كما هو واضح ليست إلا مثالا من أمثال تلك التعميمات التي أطلقها النبي، ولا نظن أنها تعبر عن أن النبي قد انطلق مما حدث له مع المشركين وقد هموا بقتله وسحبه على جميع الأنبياء السابقين؛ أي أنه افترض أنهم ولابد قد تعرضوا مثله لمحاولات القتل على يد المكذبين من أقوامهم سواء أكان ذلك غيلة، أو قتلا على رءوس الأشهاد؛ لأن هذه الآية التي صدرنا بها هذه الكلمة قد جاءت في سورة مكية مبكرة، وربما في وقت أبكر من زمان هم المشركون بقتله، ما يدل على أن هذا التعميم قد جاء بمجرد توجسه أو ما بلغه من إشارات لا تجعله بعيدًا عن القتل غيلة أو علانية على يد المشركين الغاضبين من دعوته، ومما قد يجره عليهم من متاعب إن نجح في دعوته، ونرجو ألا نذهب بعيدًا إذا قلنا إن أول ما يمكن أن يكون أساسا سماعيا لقتل نبي، كانت مروية إخبارية بلغت النبي كانت عن ثمود ونبيهم صالح، لكنه افترضها في قصة نوح من قبله وقصة شعيب من بعده.

ناقة صالح

أما عن أصل ما نعتقده يقينًا من وجود أساس سماعي لقصة تلك الناقة العجيبة في خرافات العرب قبل الإسلام، فإننا لم نجد من أثر صريح لتلك القصة، وأما ما وجدناه يتعلق بها، فلربما صلح لأن يكون إشارة عن موطن تلك الأسطورة لا أكثر ولا أقل.

فمن بين أقوى الملامح التاريخية التي عثرنا عليها، ووجدنا أنها تقترب إلى حد كبير مع ملامح قصة صالح الثمودي كما جاءت في القرآن الكريم ما افترضه بعض الباحثين من إرجاع أصل الثموديين إلى عرب بني قيدار: "الذين ظهروا لأول مرة في القرن السابع وأنزل بهم ملك بابل نبوخذ نصر الهزيمة كما جاء في سفر إرميا: (هكذا قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار وحرروا أبناء المشرق" (إرميا 49:29)، وهؤلاء القيداريون مهما تكن مواطنهم في البداية فقد امتدوا إلى ديدان، واستولوا على أيدوم، ولعلهم هم الذين ساعدوا قمبيز على زحفه على مصر، وفي أيام نحميا كانت دولتهم تمتد جنوبًا حتى لاخيش وتل الخليفة وتل الفرعة وعين جدي إلا أن حدودهم خلال القرون لم تكن ثابتة، وإنما كان نفوذهم يتقلص أو يمتد حسب الظروف المحيطة بهم، ولكن الحجر

كان داخلا في منطقتهم فهل يمكن أن نوحد بين بني قيدار وأصحاب الحجر الذين ذكرهم القرآن الكريم؟ قد يصح هذا لو استطعنا أن نثبت أن بنى قيدار هم أنفسهم ثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن، وهذا ليس بالأمر السهل، ولكن إذا تذكرنا أن اسم عاقر الناقة ناقة صالح كان اسمه عند المفسرين (قدار) (وهو صورة أخرى من قيدار) لم نبعد كثيرًا في الظن إذا افترضنا أن روايات المفسرين وضعت اسم الشخص موضع اسم القبيلة، وأن الذين عقروا الناقة هم بنو قدار (أو قيدار)، وأن هؤلاء الناس هم فرع من ثمود لا أعني أنهم فرع بالنسب، وإنما كانوا وحدة من حلف كبير اسمه ثمود، وهذا الحلف كانت وحداته تتغير مع الزمن، فبعد الحلف الذي أخذته الصيحة في الحجر تظهر ثمود في الأخبار التاريخية مرة أخرى أو مرات حتى لنجد إشارات إليها في النقوش النبطية واليونانية الواصلة إلينا من القرن الثاني بعد الميلاد [531]".

بناء على هذا، فيكفي أن نجد هنا في تاريخ الأنباط جميع المعالم الأساسية لقصة ثمود القرآنية؛ حيث نجد اسم عاقر ناقة صالح، وكذا جميع ما نسبه القرآن إلى الثموديين من نحت الجبال واتخاذها قصورًا أو بيوتًا أو مقابر، وكذا ما أثبتته المدونات عن نهايتهم العنيفة السريعة وهو ما سماه القرآن بالصاعقة، وأيضًا ما جاء عن مهارتهم في تخزين المياه، وما نتج عنه من إنشاء البساتين والحدائق النضرة، مضافًا إلى ذلك ما نص القرآن الكريم مرارًا على أن منزل هؤلاء كان في الحجر، وما كان من نهي النبي أصحابه، وقد أسرعوا لمشاهدة ما خلفه هؤلاء الغابرون من أبنية مهجورة مدهشة بها، في طريق عودته من تبوك عام تسع من الهجرة ، فكل هذا يكفي وزيادة لكي نعلم أن قصة الناقة وفصليها كانت مما شاع بين العرب عن أهل تلك القبيلة العربية البائدة، وكان ينتمي إلى عالم الأنباط الذين جهل عرب الشمال كل شيء عنهم سوى ما تسرب وشاع من تلك الأساطير، ولم يكن الباقي سوى تفسير ديني لما شاع عن تلك القصة وأهلها، ومن يدري فلعل الأيام تسعدنا بما يكشف اللثام عن تلك الحقيقة الغائبة.

ثامنا: قصة لقمان.

[531]"تاريخ دولة الأنباط" إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى 1987م، ص21.

من القصص القرآني الذي يرتكز على التراث العربي القديم أيضا قصة "لقمان الحكيم" فهو ينتمي عند أغلب المفسرين والمؤرخين إلى قوم عاد من العرب البائدة أي إلى ما شاع بين العرب من أن تلك القبائل العربية قد بادت وهلكت من قديم الزمان، ولم يتخلف لنا شيء عنهم سوى ما تركوه بعدهم من أبنية مهجورة مطمورة تسفي عليها الرمال، إلى جانب بعض الحكايات التي ظل الإخباريون والرواة يتناقلونها شفاهة، حتى وجدت مستقرها في كتب المؤرخين والمفسرين.

وكما ورد ذكر بعض وصايا لقمان الحكيم في القرآن الكريم، فقد سبق أن جاءتنا بعض أخباره ووصاياه، على نحو بالغ الاضطراب، في المأثورات الجاهلية، سواء ما جاء عنه في الشعر الجاهلي أو في روايات القصاص والإخباريين، أو في كتب الأمثال والحكمة، فقد ضربوا به المثل في الحكمة، وفي طول العمر، وأن الله قد منحه عمرًا مديدًا يعادل أعمار سبعة أنسر يعقب بعضها بعضًا، وكان آخر تلك النسور نسرًا يسمى لبدا إلى ما جاء في تلك الكتب من الأخبار التي لا نعرف صحيحها من باطلها، لكنها تفيد شيئًا واحدًا وهو أنه كان معروفًا مشهورًا بالحكمة والفطنة؛ لأنه الجانب الذي أجمعت عليه الأقوال كلها تقريبًا.

أما عن نسب لقمان فيتردد نسبه بين صناع سلاسل الأنساب بين كونه عربيًّا صلبية من العرب البائدة، وأنه كان حفيدًا من أحفاد نوح، وجدًّا من أجداد إبراهيم، وهناك من بين أهل الأخبار من يفرق بين لقمان العادي القديم هذا، ولقمان آخر أحدث عهدًا، وإن باعدوا في مكانه وأغربوا في زمانه؛ فقد جعله بعض المفسرين حكيمًا نوبيًّا، وجعله بعضهم قاضيًا من قضاة بني إسرائيل، وما إلى ذلك من أخبار لا ندري من أين أتوا بها، لكن ما نعلمه يقينًا فهو أن مصادر هذا القصص الذي تحكي أخبار قوم عاد إنما يرجع أقلها إلى الجاهليين قبيل الإسلام، وأما أغلبه فقد قام بوضعه الرواة والقصاص المولعون بالعجائب خاصة مسلمة اليهود كشرح مداهن لما جاء موجزًا عنهم في القرآن الكريم[532].

على كل حال، فلا خلاف على أنه قد شاع ذكر لقمان وحكمته بين عرب الجاهلية قبيل الإسلام حتى إننا نجد من يقول بأن حكمة لقمان ووصاياه كانت مدونة مكتوبة، يعرفها ويهتدي بها طلاب الحكمة الدينية والأخلاقية من الجاهليين، فقد حكى ابن هشام

[532] عن لقمان واضطراب المفسرين والرواة في نسبه راجع "المفصل"، ج1، ص 314.

عند عرضه للاختلاف في إسلام سيد الأوس (سويد بن الصامت) ما كان من أمر صحيفته، وكيف ساوى بينها سويد وبين ما عرضه عليه النبي من تعاليم الإسلام : (فَتَصَدّى لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ سَمِعَ بِهِ فَدَعَاهُ إلى اللهِ وَإِلى الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ سُوَيْدٌ: فَلَعَلّ الّذِي مَعَك مِثْلُ الّذِي مَعِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا الّذِي مَعَك؟ قَالَ مَجَلّةُ لُقْمَانَ، يَعْنِي حِكْمَةَ لُقْمَانَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اعْرِضْهَا عَلَيّ فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ؟ فَقَالَ لَهُ إنّ هَذَا لَكَلَامٌ حَسَنٌ وَالّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى عَلَيَّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ. فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إلى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ وَقَالَ إنّ هَذَا لَقَوْلٌ حَسَنٌ. ثُمّ انْصَرَفَ عَنْهُ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلَتْهُ الْخَزْرَجُ، فَإِنّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ لَيَقُولُونَ إنّا لَنَرَاهُ قَدْ قُتِلَ وَهُوَ مُسْلِمٌ. وَكَانَ قَتْلُهُ قَبْلَ يَوْمِ بُعَاثٍ [533]".

وإذا صح لقاء النبي بسويد[534]، وصح أيضًا ما استخرجه السهيلي من دلالة اشتقاق اسم صحيفته بقوله: "وَذَكَرَ مَجَلّةَ لُقْمَانَ وَهِيَ الصّحِيفَةُ وَكَأَنّهَا مَفْعَلَةٌ مِنْ الْجَلَالِ وَالْجَلَالَةِ [535]" لكان هذا برهانًا واضحًا على قيمة تلك المنتخبات من الحكمة العربية الذائعة قبيل الإسلام التي نسبت إلى لقمان دون سواه من حكماء عرب الجاهلية المتأخرة، وهم كثيرون، إلا أنه يغلب على ما جاءنا عنهم طابع الحكمة العملية وآداب السلوك وخلت، أو كادت، من التعاليم الدينية عدا من تأثر منهم بالأديان الكتابية، ويغلب على ظننا أن تلك الكلمة قد انتقلت إلى العربية من العبرية؛ حيث نجد أن أصلها (مجلّاه) وتعني لفيفة التوراة[536]، أما (مجلة لقمان) فلا نشك في أنها كانت تحوي شيئًا عن الدين وشئونه؛ لأن سويدا لم يشر إلى صحيفة لقمان إلا بعد أن أطلعه النبي على معالم دعوته، فلابد من أنه قد وجد فيما سمعه من النبي ما يذكره بمضمون تلك الصحيفة التي نسبت إلى لقمان، أو شيئًا قريبًا منه.

---

[533]"السيرة النبوية" لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، 1955م، ج1، ص 427.

[534]عن لقاء النبي بسويد انظر "السِّيرةُ النَّبويَّةُ الصَّحيْحَةُ.. مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ" د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، 1994 م، ج1، ص 195 .

[535]"الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام" السهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 2000م، ج4، ص 40.

[536]"التلمودالبابلي"، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، 2011م، المجلد الثامن، ص 191.

وسواء أكان لقمان حكيمًا ينتمي إلى قوم عاد، كما يزعم الإخباريون، أو كان حكيمًا حنيفيًّا عربيًّا متأخرًا عاش قبيل الإسلام بمدة يسيرة، وهو ما نرجحه، فليس هذا مما يعيننا في شيء؛ إذ يكفينا أن نعلم كيف سيظهر هذا الرجل الصالح في القرآن الكريم!

قصة لقمان كما أوردها القرآن الكريم

*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ
لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ
وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ
فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا
تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن
صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾* (لُقْمَان: 12–19).

من يقرأ هذه الوصايا والعقائد المتضمنة في قصة لقمان كما أوردها القرآن فسوف يجد المفاهيم والعقائد الإسلامية ذاتها التي يجدها في سائر القرآن الكريم، فالشكر يجب أن يقدم إلى الله وحده، والذي هو غني عن شكر الشاكرين، بل النفع يرجع إلى العبد الشاكر، وإلا فالله هو الغني الحميد، ونجد من باب أولى الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية، والخروج من الشرك الذي هو (ظلم عظيم)، وهنا لا نجد كالعادة كما قلنا أي تصور ديني آخر، بل ذلك الضرب من الشرك عينه الذي شاع عند العرب قبيل الإسلام، والذي كان يعكر صفو التوحيد الخالص كما أتى به الأنبياء فلم يذكر لنا القرآن الكريم

كما قلنا أي تصورات دينية أخرى عبر التاريخ كله سوى التوحيد الخالص عند الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وما يقابله من التوحيد المشوب بالشرك؛ أي حضور الآلهة الشفعاء عن المشركين الكافرين، وعبادة بعض مظاهر الطبيعة، ونادرًا ما نجد صوتًا إلحاديًّا يكاد يجحد وجود الله، وينكر البعث والنشور، ويرد الحياة إلى العلل الطبيعية.

ثم تعترض داخل سياق الوصايا آيتان لا نعلم إن كان القول فيهما موصولا للقمان يخاطب بهما ابنه فيصبح المعنى: (ووصينا الإنسان على لسان لقمان) أم أن هاتين الآيتين من ظواهر الالتفات والانتقال من سياق القصة، كما يحدث كثيرًا في القرآن، ثم يعود إلى استكمالها بعد انقطاع قصير[537]؟ ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن تلك الآيتين لو كانتا حقا من كلام لقمان وهو ما نرجحه لجعلت منه نبيًّا، بل رسولاً، وليس مجرد حكيم صالح.

أما موضع تلك الآية في سياق القصة التي يحكيها رجل عاش قبل بعثة الرسول بزمن بعيد كما يقول المفسرون على قدر من الإبهام والقلق، فلا نفهم تمامًا ما دلالة الإشارة إلى مدة الرضاع، التي ستتقرر فيما بعد في القرآن المدني كجزء من التشريع الإسلامي، ولكن الآية على كل حال تحمل معنى حسنا، ومن اليسير إدراجها ضمن معنى القصة؛ إذ تفيد تثمين وتقدير ما تكبده الوالدان ودور الأم خاصة من عناء الحمل ورعاية الصغير، ومن ثم فلا أولى من الوالدين بالشكر بعد الله، وأنه إلى الله المرجع والمآب، فهي على هذا تصلح لأن تكون تمهيدًا لطيفًا إلى ما سيعقبها من النهي عن الشرك بالله حتى لو جاء هذا المطلب من أحق الناس بالبر، وأولاهم بالطاعة: وهما الوالدان، فهنا لا ينبغي أن يطيع الإنسان إنسانًا في معصية لله، فما بالنا بالمعصية العظمى التي لا يغفرها الله على خلاف غيرها من الذنوب والمعاصي، ولكن الآية إن نهت عن طاعتهما في هذا الموطن خاصة، فهي تدعو من يسمعها إلى أن يرفق بهما ويبرهما ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويمضي متبعًا سبيل المؤمنين، والموعد الله؛ حيث يقضى بين العباد ما يشير إلى البعث والمعاد بأصرح عبارة.

---

(537)ممن رجح أن تكون تلك الآيات على لسان لقمان مع القول بنبوته الأستاذ الطاهر بن عاشور، راجع "التحرير والتنوير" الدار التونسية للنشر، تونس - 1985م، ج21، ص 156. وراجع أيضا تفسير الطبري؛ حيث قطع بأن هاتين الآيتين مما أوحاه الله إلى لقمان، تفسير الطبري، ج20، ص 139.

لكن من ناحية أخرى، فالقول بنسبة هاتين الآيتين إلى كلام لقمان كحكيم سوف يأتي بما لا يستقيم ظاهره؛ إذ كيف تأتي آية تأمر برفض الإصغاء إلى الوالدين إن دعيا ابنهما إلى الشرك في مقام وصية نبي أو حكيم عارف يدعو ابنه هو إلى التوحيد؟ ولكن يمكن حملها كذلك إن كانت من كلام لقمان على أنها نصيحة عامة تخاطب كل من يسمعها، ولا تختص بمن يتلقاها أول مرة، بدلالة أن الخطاب هنا لعموم الإنسان، وليست موجهة من الأب لابنه، والأقرب من هذا كله أن تكون جزءًا من تعاليم دعوة نبي من عموم الأنبياء، ولو صح هذا فلا سؤال ولا إجابة، ومثلها هذه الآية التي تخاطب النبي محمدا، وليس من المتصور بطبيعة الحال أن يشرك نبي بالله ويدعو مع الله إلها آخر: *فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣* (الشُّعَرَاء: 213).

وسواء أصلحت تلك التفسيرات أم لا، فالذي لا شك فيه أن هناك تداخلا بين صوتين متمايزين في الخطاب ذاته، ولكن ربما كان لهذا التداخل بين الصوتين ما يبرره إن صح ما جاء عن سبب نزول هاتين الآيتين كما جاء في هذا الحديث، وفيه يقول الصحابي بأن الله قد أنزل تلك الآية في شأنه، وإن أوردها القرآن على لسان لقمان، ولم يجد هذا الصحابي ما يدعو للعجب في هذا، فجميع ما جاء في القرآن هو عنده كلام الله، سواء جاء على لسان الله مباشرة يخاطب به نبيه محمدا، أو يخاطب غيره من الأنبياء، أم جاء على لسان رجل حكيم صالح ما دام القرآن قد صدق عليه وأجازه: (عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تعالى: كَانَتْ أُمِّي حَلَفَتْ، أَنْ لَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، حَتَّى أُفَارِقَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:*وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ١٥* (لُقْمَان: 15). وَالثَّانِيَةُ: أَنِّي كُنْتُ أَخَذْتُ سَيْفًا أَعْجَبَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَبْ لِي هَذَا. فَنَزَلَتْ: *يسألونك عن الأنفال* . وَالثَّالِثَةُ: أَنِّي مَرِضْتُ فَأَتَانِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْسِمَ مَالِي، أَفَأُوصِي بِالنِّصْفِ؟ فَقَالَ: "لَا". فَقُلْتُ:

الثُّلُثُ؟ فَسَكَتَ، فَكَانَ الثُّلُثُ بَعْدَهُ جَائِزًا. وَالرَّابِعَةُ: إِنِّي شَرِبْتُ الْخَمْرَ مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَضَرَبَ رجل منهم أَنْفِي بلحيِ جملٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ فَأَنْزَلَ عز وجل تحريم الخمر[538]).

وسواء أصحت تلك الرواية أم لم تصح، فمن اليسير لقارئ هذه القصة القرآنية أن يستشعر خلف تلك الوصايا ما يعكس الدعوة الإسلامية في تلك الفترة بشكل عام، بل ربما كان في خلفيتها بعض الأحداث المحددة من الصراعات الأسرية والتصدعات الأليمة في المجتمع المكي[539] من جراء الاستجابة للدعوة المحمدية أو رفضها.

---

[538]راجع الحديث برقم (24-18) في كتاب "صحيح الأدب المفرد" للبخاري، وقد حقق أحاديثه وعلق عليه الشيخ ناصر الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1997 م.

[539]رغم أن الخوض في مكية السور القرآنية أو مدنيتها لا يهم في شيء ما تستهدفه هذه الصفحات عن قصة لقمان في القرآن الكريم فإننا سنقف وقفة قصيرة عند من يقول بمدنيتها؛ لأننا نرى أن هذه السورة برمتها تنتمي قلبًا وقالبًا إلي القرآن المكي، وتحمل جميع خصائصه علي خلاف ما أورده صاحب أشهر مؤلف غربي عن تاريخ القرآن في هذه الأسطر التي لم نجد كثيرًا سطورًا بقدرها تحوي كل تلك الأخطاء الفاحشة وهي مثال على عشرات غيرها في هذا الكتاب رغم ما يحويه من استنتاجات قيمة ومفيدة يقول نولدكه: (يعد بعضهم سورة لقمان مدنية بسبب ذكر الزكاة فيها. الآيتان 13-14 واللتان تتناولان والدين أحمقين تكادان تكونان في المكان الصحيح، ولعله كان من الأفضل وجودهما خلف الآية (18-19) كنقيض لتعاليم لقمان لولده وهي تنتمي على الأرجح إلى الفترة المدنية شأنها في ذلك شأن سورة الحج، فقارن ما ورد أعلاه عن هذه الآية. والاحتمال شديد بأن جزءًا من النص قد سقط قبل الآية (15-16)؛ إذ يصعب أن تتخلى (إنها) عن مصدر تتعلق به. ونلاحظ حالات مشابهة نتجت من تعديلات في النص. أما المقطع المختص بلقمان فقد يكون بأسره أضيف لاحقًا فالآية (19\20) يسهل إلحاقها بالآية (10\11)، أما الآيات 26\27- 28\29) فيقال إنها كسواها موجهة ضد يهود المدينة فهي لذلك قد نزلت هناك) "تاريخ القرآن" تيودور نولدكه، نقله إلى العربية د. جورج تامر وآخرون، الطبعة الأولى، بيروت 2004م، دار نشر جورج المز، هيلدسهايم، زوريخ، نيويورك، ص 141.

إننا نعجب من مدقق واسع الإحاطة بالقرآن الكريم مثل نولدكه، كيف يقول إن هذه القصة مدنية؟!! وإنه ما كان لقصة لقمان أو لغيرها من قصص العرب أن تجد لها موضعًا في القرآن المدني؛ حيث كانت هناك قضايا أخرى تشغل مستلهم القرآن، وما يستلزم ذلك من حضور قصص أخرى غير التي معنا، أما عن تسرع كثير من الدارسين واعتبارهم أن كل سورة تذكر فيها الزكاة هي سورة مدنية فهو أمر يدعو للدهشة؛ لأن الزكاة قد ذكرت مرارًا في سور أخرى من سور القرآن التي لا يشك أحد أبدًا في مكيتها الكاملة مثل هذه الآية من سورة فصلت التي تصف الكافرين *قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧* (فُصِّلَت 6: 7) وهذه الآية المقابلة لها في سورة لقمان التي تصف حال المؤمنين: *الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤* (لُقۡمَان1: 4)، ومثلها ما جاء في سورة (المؤمنون): * قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ (المُؤۡمِنُون1: 4)، وكذلك هذه الآية التي تقرر أن الزكاة كانت من بين شرائع الأنبياء السابقين *وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣* (الأَنبِيَاء: 73).

ولا نحتاج إلى القول إن كلمة الزكاة هنا تأتي بمعناها العام، ولا تعني ما سيفصله النبي عليه السلام لأتباعه في المدينة من أنصبة الزكوات ومقاديرها، بل هي لا تعني هنا في القرآن المكي سوى ما تصف به الكافرين من قبض أيديهم عن

ثم تستطرد الآيات لتأتي بمعنى قرآني خالص عن علم الله المحيط والشامل، وأن الله لا يخفى عليه شيء وإن دق؛ فالله لطيف خبير، وهو ما نجد له أشباه ونظائر في القرآن الكريم مثل *وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩* (الأَنْعَام: 59) ومثله كثير.

ثم تأتي بعض معالم الشريعة الإسلامية الأساسية حتى تلك الفترة، فهنا نجد الدعوة لإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المكاره وإن اشتدت، فهي خلائق أولي العزم من المؤمنين الصالحين بما يذكرنا بما جاء مثاله في القرآن من الاعتصام بالصبر الجميل، والفزع إلى الصلاة إن حزب الإنسان أمر أو نزلت به مصيبة.

إعطاء الفقراء شيئًا من فضول أموالهم، وما تصف به المؤمنين من حضور مظاهر البذل والتكافل والبر دون أي تفصيل، فلم يكن قد أتي بالطبع موضع التفصيل وهو ما عبرت عنه أمثال هذه الآيات: *وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥* (المَعَارِج24: 25) ، *وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩* (الذَّارِيَات:19).

وعلى هذا، فلم تكن الزكاة مفهومًا غائبًا عن النبي في مكة وعرفه في المدينة، بل كان من بين أهم معالم الشريعة التي أيقن النبي بوجودها في شرائع الأنبياء السابقين، كل ما هنالك أنها حضرت كما لو كانت تقابل الصدقات رغم تمايزها عنها بانها كانت حقا معلومًا، وسيفصل هذا الحق في المدينة عبر عشرات من الأحاديث المحمدية الصحيحة.

أما ما أشار إليه نولدكه عن موضع آيتي الوصية المعترضة وتفضيله لو كانتا قد جاءتا عقب الفراغ من القصة، أو زعمه بأن القصة كلها قد ألحقت في المدينة، أو أن السورة يمكن قراءتها دون قصة لقمان فهذا كله لغو لا طائل تحته! أما ما يزعمه من وجود آيات مفقودة قبل قول لقمان: *يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل* فهو السخف بعينه لأن هذه الآية ليست بيانا عاما لإحاطة علم الله، بل هي ذات ارتباط وثيق بتلك الوصية السابقة عن الشرك؛ إذ نراها تحذر من أن يتسلل إلى القلب ميل صغير أو كبير مما قد يقوله الوالدان لابنهما يجعله يميل عن التوحيد؛ لأن الله يعلم الصغير وإن دق فلا شيء يخفى على الله، فضلا عن مظاهر الشرك المتعددة ومساربه الخفية حتى تضخمت إلى غير حد أبواب هذا المبحث في كتب العقيدة الإسلامية، ولربما كانت هذه الآية دليلا على اتساع معنى الشرك على ما ستفصله أمثال هذا الحديث (الشرك في أمتي اخفي من دبيب النمل على الصفا)، انظر "صحيح الجامع الصغير وزياداته" الألباني، برقم (3730).

أما من يقرأ الآيات الأربع 26-30 التي ينقل (نولدكه) أن بعضهم رآها تتعلق بسجال النبي مع يهود المدينة فلن يسعه سوى العجب من هذا السخف، فليس هناك أي إشارة تتعلق باليهود، ولا تحوي هذه الآيات الأربع شيئًا يشبه ما ساجل الرسول اليهود بشأنه، ولكنها الأوهام التي لا يقف خلفها شيء أكثر من العجمة وافتقاد الشعور بالعربية وطرق أدائها.

أخيرًا، تأتي هذه الوصايا بالنهي عن التكبر والعجب والخيلاء؛ فالله لا يحب المزهوين بأنفسهم بل يحب المتطامنين المتخشعين، فيجب على الإنسان أن يمشي على الأرض هونًا، وأن يخفض من صوته، وفي خواتيم سورة الفرقان شيء قريب من هذا.

أين وصايا لقمان الحقيقي؟

لربما كان في بعض تلك الوصايا القرآنية التي جاءت على لسان لقمان ما تصح نسبته حقا إلى لقمان الحكيم العربي، خاصة تلك الوصايا الأخيرة ذات الطابع السلوكي كما في وصاياه لولده بالتواضع، والنهي عن الصلف، والتكبر على الناس، ومن دعوته إياه للحديث بخفيض الصوت، ونهيه له عن العجب والخيلاء، فهذا ما نجد له شبيهًا في وصايا حكماء العرب قبل الإسلام، وأما بقية تلك الوصايا القرآنية الجليلة فلا نراها إلا مما منحه النبي للقمان كما منح غيره من الأنبياء كثيرًا من تعاليمه وعقيدته، لكن سواء أصح هذا أم لا، فيمكن لقارئ القرآن أن يجد تلك الوصايا السلوكية اللطيفة في القرآن الكريم حتى لو أسقطنا من القرآن جميع ما جاء عن لقمان في تلك السورة ما يطلعنا على أي إرث أخلاقي كريم كان يقف خلف ما استحسنه النبي من إرث الجاهلية العربية وآدابها الأخلاقية؛ فلم يكن النبي يصدر مطلقا عن فراغ في أي شيء مما جاء به، بل كان يقف حتى خلف تعاليمه الأخلاقية ذخيرة لا تنضب من آداب الحكمة العربية التي تلخصها آداب المروءة والنجدة والكياسة ومكارم الأخلاق، ولكنه أعاد وصفها داخل نسيج روحي جليل وظللتها مقاصد وغايات أخروية تثير الرهبة في عروة لا تنفصم بين منافع الدنيا وأشواق الآخرة.

هل كان لقمان نبيا أم حكيما صالحا؟

يمكننا أن نقول هنا كلمة عابرة عما نعتقده في شأن ذلك الخلاف القديم عن نبوة لقمان، وما ترجح عند عموم المفسرين بعدم نبوته؛ لأننا نميل إلى عدِّه نبيًّا من الأنبياء، وكان يتابع في صلاته ومعالم عقيدته رسولاً عربيًّا قديمًا كإسماعيل أو شعيب؛ لأننا لا نجد ذكرًا للصلاة قبل إبراهيم بل نجدها عند هذين النبيين العربيين، وعلى الرغم من القرآن الكريم، وإن لم يصرح بنبوته، ولم يذكره بعد هذه السورة في عداد الأنبياء بل لم

يعد القرآن لذكر لقمان بعد هذا الموضع قط، فإننا بعد استقرائنا لمعنى الحكمة، وما في معناها في القرآن الكريم نميل إلى أن النبي كان يعد لقمانًا نبيًّا من الأنبياء.

فالحكمة من المنظور القرآني هبة وعطية من الله، بل هي أعظم النعم *يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾* (البَقَرَة: 269)، ولم يهبها الله في القرآن إلا للأنبياء، فقد أعطاها الله لمحمد *ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾* (الإِسْرَاء: 39)، ومنحها الله لداود *وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾* ص: 20 - 21)، وكذلك ليوسف *وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾* (يُوسُف: 22)، وجاء بها عيسى: *وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴿٦٣﴾*(الزُّخْرُف: 63)، وموسى كذلك: *فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾* (الشُّعَرَاء: 21)، وإبراهيم: *رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾* (الشُّعَرَاء: 83).

رغم أنه من الصحيح القول بأن النبوة يلزم عنها الحكمة، ولا يلزم أن تقترن الحكمة بالنبوة؛ فكل نبي حكيم وليس كل حكيم نبيًّا، وهذا في العموم قول صحيح، ولكننا نرجح أن يكون لقمان نبيًّا بالمعنى العام للنبوة أي أنه كان يتلقى عن الله بأي صورة من صور الوحي التي فصلها القرآن، ولم يكن حكيمًا يقول من عقله فيخطئ ويصيب دون هدي من الله؛ لأننا نجد لاعتقادنا هذا قرينتين جاءت أولاهما في القرآن الكريم، ويمكن أن تستنبط الثانية من صحيح الأحاديث، وهما ترجحان على نحو ما أن الحكمة في القرآن إنما تعني النبوة أو بعض أهم مظاهرها.

أما القرينة الأولى فهذه القصة القرآنية عن موسى: *وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾* (القَصَص: 14 - 17).

ففي الآية الأخيرة من هذه القصة ما يجعلنا نرجح بأن الحكم والحكمة والنبوة شيء واحد؛ إذ نجد موسى، بعد أن تورط خطأ في قتل المصري، يدعو الله أن يغفر له هذه الخطيئة فأعطاه الله سؤله، وامتنانًا من موسى لله على هذا الفضل الإلهي بغفران خطيئته يتعهد موسى لربه ألا ينصر بعدها مجرمًا أبدا حتى لو كان من أقرب الأقربين، وهنا نتساءل: كيف علم موسى أن الله قد أناله ما أراد، وأن الله قد أنعم عليه بالغفران، ومن المعلوم أنه تلقى رسالته والتقى الله منصرفه من مدين؛ أي بعد زمن تلك الواقعة بعشر سنين؟ فلا بد والحال هذه أن الحُكم، أي الحكمة، كانت تحمل معنى قريبًا من النبوة؛ أي القدرة على التواصل مع الله، والتلقي الشعوري عنه، فلم يكن موسى القرآن قبل الرسالة يعرف الله ويستغفره فحسب، بل كان يجد في نفسه شيئًا من مظاهر النبوة، وإن على نحو غامض مثل ما معنا من شعوره ببرد الغفران، وما غشى قلبه من السكينة بعد أن سمع الله دعاءه الحار في أن يغفر له خطيئته، وأما الرسالة التي سيتلقاها موسى بعد ذلك، فكان مدارها الإبلاغ والتكليف بالذهاب إلى فرعون لاستنقاذ بني إسرائيل من قبضته، ودعوته إلى الله إن شاء، أما إن رفض الإيمان فلا أقل من أن يطلق له بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين!

أما السند الآخر فهو هذا الحديث: (عَن ابْن مَسْعُود قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بظُلْم *شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: يَا رَسُول الله: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَيْسَ ذَاكَ إِنَّمَا

هُوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: (يَا بني لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟) فِي رِوَايَةٍ: "لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَان لِابْنِهِ". مُتَّفق عَلَيْهِ[540]).

مما يعضد هذا الرأي أننا نجد في هذا الحديث الصحيح كيف أن النبي قد فسر آية من القرآن الكريم، وقد التبس معناها على أصحابه، بل أصابهم من ظاهر معناها كرب شديد بما جاء على لسان لقمان، وما كان النبي في اعتقادنا ليفسر كلمة الله التي أوحاها الله إليه معتمدًا على حكمة رجل لا يتلقى عن الله، بل يستقى من عقله مهما اشتهر بالحكمة، فلقمان على هذا نبي فيما نعتقد، ولعل حضوره العابر في هذه السورة التي سماها النبي باسمه أو سميت فيما بعد جاء كمثال على جموع الأنبياء الذين اختصهم الله بالهداية دون أن يكلفهم بالتبليغ، ولن نتكلم هنا عن مدى معقولية أن ينتقى الله رجلا لكى يهديه وحده، ولا يكلفه بهداية الناس من حوله، فهذا خارج مقصودنا.

[540]متفق عليه. راجع الحديث برقم (5131) في كتاب "مشكاة المصابيح"، ولي الدين التبريزي، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م.

خاتمة

سواء أكان لقمان نبيًّا أم كان حكيمًا عربيًّا صالحًا، فليست قصة لقمان ووصاياه كما أوردها القرآن الكريم مجرد مناسبة لبث المفاهيم الدعوية التي أتى بها النبي كما يقول أحدهم، بل كانت في اعتقادنا مجرد إطار قديم فارغ تقريبًا سرعان ما سيملأه النبي بالمضمون الجديد، ولم يكن هذا المضمون الجديد - القديم في الوقت نفسه سوى ما اعتقد النبي أنه من ثوابت الاعتقاد، ومن مقررات الأخلاق في كل العصور، وليس من الضروري أن نقول هنا إن هذا الصوت، سواء أكان صوت نبي عاش قبل زمن الرسول بمدة طويلة جدا مثل النبي هود، أو كان صوت حكيم عربي عاش قريبًا من زمن البعثة المحمدية، كما نرجح في حالة لقمان ما كان ليجمعه أي تشابه مع تلك المفاهيم الراقية التي أتى بها الإسلام خاصة في جانب العقيدة في الله، وما ينبغي له، فضلا عن أن تكون مطابقة لما جاء به الإسلام، بل كان يكفي النبي في اعتقادنا أن يعرف باسم هذا النبي أو الحكيم الصالح، ويعرف شيئًا عن تعاليمه ووصاياه قلت أو كثرت، ثم إذا ما قرر دمجه في التاريخ الرسالي لأسبابه الخاصة حتى يمنحه بعدها، وعلى الفور، جميع أركان عقيدته في الله، وعلى رأسها التوحيد، وجزءًا من منظومته الأخلاقية ووصاياه، ولا ندري في الحقيقة ماذا كان بإمكان النبي أن يفعل سوى ذلك في ظل اقتناعه التام بوحدة العقيدة في كل العصور؟ بل ولا عجب أن تظلل دعوة كل من استلهم النبي دعوتهم من الأنبياء والمرسلين الظلال ذاتها التي كانت تلون عقيدة النبي وأحواله النفسية، بل بعض مظاهر سياق دعوته ومشكلات أصحابه، فقد كان كل هذا يخرج في دفقة إلهاميه صادقة، بحيث يستحيل بعدها الفصل الواضح بين عناصر ما كان موجودًا، وما صار إليه خطاب الأنبياء كما أوردهم القرآن بعد انصهارهم جميعًا داخل تلك الرؤية الدينية المركبة والمتماسكة.

إذن، فمن يتأمل في ملامح هؤلاء الأنبياء الذين أتينا على ذكرهم، ومن سوف نذكرهم في الفصلين القادمين، فسيجدهم وقد خرجوا من القالب ذاته محملين برؤية صانعه الإدراكية، بل ملامحه وخلائقه النفسية سواء أجاءته أصول مادة هذا القالب من المرويات الكتابية، أو من حكايات الإخباريين وقصاص العرب، وهذا يكشف لنا حجم الحماقة الشديدة عند من يرى أن النبي محمدا كان مجرد ناقل للمرويات الكتابية،

مستخدما إياها في تلفيق ديانة كان يعلم في قرارة نفسه أنها عقيدة زائفة، ولكنه استثمر تلك المعارف التي جمعها كحاطب ليل لنيل مآربه من ورائها.

أما تلك الفرية الأولى من غمط قدر النبي وتصويره كناقل لما بلغه من مرويات أهل الكتاب وحكايات العرب، فأقل ما يوصف به من يروجها ويلوكها أنه يجهل أول شيء ينبغي لمثله أن يفقهه، وهو القرآن الكريم نفسه! وأنه كان يكفي النبي أقل القليل من المرويات الكتابية، مثلما كفاه ما شاع بين العرب عن هود وصالح، وما كان أقل ذلك فيما نعتقد، ومع ذلك فقد جاءا كجميع الأنبياء الذين عرف النبي الكثير من أخبارهم قياسًا بهؤلاء الأنبياء العرب القدامى، فعدا بعض الملامح السماعية من هذه وتلك مثل قوة قوم عاد البدنية، ومباني ثمود المعمارية الهائلة، وعمر نوح الطويل وقصة طوفانه، وأحلام يوسف وقصة بيعه عبدًا في مصر وصعود نجمه بعد ذلك حتى جعل على خزائن الأرض، فسنجد خلف تلك التفصيلات ملامح الشخص ذاته ورؤيته الدينية، ولا شيء يفسر هذا فيما نعتقد سوى ما اقترحناه من اعتقاد النبي في وحدة الرسالات الإلهية في جميع العصور، وتشابه المفردات الثقافية والمعرفية لجميع الأمم مع معتقدات أهل عصره؛ فلم يكن الأنبياء جميعًا إلا نسخة منه، ولم يكن أهل تلك الأمم سوى نسخة من أهل عصره.

وأما عن بواعثه عليه السلام، فإننا نجد - من خلف شدة اعتقاد النبي الجازم في بداية دعوته، من أن قومه سوف يلاقون حتمًا مثل ما لاقاه السابقون الهالكون من الأمم الأولى - برهانًا واضحًا على وضاعة اعتقاد من يزعم بأن بواعث النبي للتطلع للنبوة لم تكن استجابة صادقة لتجربة روحية عميقة امتلأ منها كل كيانه، ووجهت بواعثه كلها، وإنما كانت عند هؤلاء الحمقى إما مجرد تمويه مخادع لطلبه السلطة والملك، ورغبته في تحقيق أحلام جده قصي بن كلاب كما يقول أحدهم[541]! أو كانت كذبًا متعمدًا استباحه النبي لنفسه مضطرًا لنفع الناس من حوله؛ لأنه لم يكن أمامه من سبيل غير ذلك، كما يهرف آخر[542]!!

---

[541]"الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية" سيد علي القمني، مكتبة مدبولي الصغير، الطبعة الرابعة 1996م، ص 51 وما بعدها.

[542]"الشخصية المحمدية" معروف الرصافي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ألمانيا 2002 م، ص 43 وما بعدها .

أما ما نعتقده مخلصين فهو أن بواعث ذات كريمة في جلالة ذات النبي، التي كانت تنطوي على كل تلك الخشية المؤثرة من الله، وكانت تستشعر وجوده الوهاب سبحانه في كل حالاتها ما كان ليصلح أو يليق معها أن ترد بواعثها إلى مثل تلك البواعث القميئة التي لا يتصور أصحابها باعثًا في نفوس أعظم نماذج جنسنا البشري كله أكبر مما يجدونه من بواعث في أنفسهم الصغيرة التافهة، وسوف نرجع إلى هذه النقطة في فصل خاص بحياته عليه السلام.

يجب ألا نغادر هذا الفصل إلا قبل أن نقول كلمة موجزة عن بعض ما خرجنا به في موضعه، وقد يساء فهم دلالته عند بعض القراء المتعجلين، وحسبنا أن نقول هنا بإيجاز واختصار: إنه لا ينبغي أبدا أن يفهم أحد من قولنا بأن هودًا وصالحًا كانا نبيين افتراضيين، وأن سواهما من أنبياء القرآن ما كانوا سوى أنبياء مخياليين، بأن هذا يعني أننا نقول بشيء يشبه من قريب أو من بعيد القول بنفي النبوة عن العرب الأقدمين، سواء أكانوا ممن ذكرهم القرآن الكريم أو ممن لم يذكرهم، فضلا عن أن نتورط في حماقة نفي النبوة ذاتها، التي هي في اعتقادنا استجابة طبيعية اختص الله بها من شاءت إرادته أن يبلغ من خلالهم ما يريده لعباده جميعا من معرفته، ورفع أنظار العالمين الناظرين تحت أقدامهم، إلى سماء رفعة التطلع له، وشرف السعي الدائم إليه.

ولا ينبغي كذلك لأحد أن يتوهم بأننا نرد اعتقاد النبي في إرسال الله رسلا إلى الناس عبر التاريخ البشري كله، وأنه قد وُجِد حقا عدد عظيم من الأنبياء الذين تلقوا في قلوبهم رسالة الله كما فهمها كل منهم في تلك الفترة البعيدة، فهذا أمر لا نشك فيه، بل إننا لنعجب ممن يعجب من وجوده في تلك المنطقة بالذات، والتي حضر فيها هذا النمط الخاص من أنماط التواصل مع الله أكثر من سواها؛ أي عبر ظاهرة الوحي والتلقي الشعوري المباشر عن الله، وعرفت من ثم عالم النبوة والأنبياء ربما أكثر من سواها من الأمم بما في ذلك العبرانيون قبل موسى ومن بعده أيضًا، ولكنها تبددت، وربما لن نعلم عنها وعن أصحابها شيئًا أبدًا!

بل إننا لنأسف أشد الأسف على ضياع هذا الإرث العربي الروحي الزاخر، ولو حدث وكنا قد عثرنا على شيء من هذا لكان بيانًا واضحًا على مقدار الرقي العقلي عند تلك الشعوب العربية التي عاشت وفنيت دون أن تخلف وراءها أثرًا عن استلهامات أنبيائها ووحيهم بسبب غياب التدوين وغلبة الأمية على أكثر شعوبها وقبائلها، والأكثر

من ذلك أنها كانت ستبين لنا الفارق البعيد بين قامات هؤلاء الأنبياء، والتي لا نشك في أنها قد اختلفت فيما بينها اختلافًا بعيدًا؛ أي بمقدار ما تختلف قامات الملهمين الروحية، وقوة شعورهم بالله من ناحية، وأيضًا وقبل كل شيء بمقدار اختلاف مدى معرفتهم بالعالم من حولهم؛ حيث كنا سنراهم يترجمون عن تصورات بالغة التنوع والاختلاف عن تصورهم لله، ويترجمون عن إحساسهم به مع ما يجمع بينهم بلا ريب مما لابد من توقع وجوده من أمثال جميع تلك الاستجابات الروحية العميقة والصادقة وما كانت ستكشفه عمن يقف خلفها من أرواح ذوات تقية، كانت تجيش نفوسها بالتوق إلى الله والرغبة العارمة في التواصل معه، مثلما تاقت أرواح أخرى في ثقافات أخرى وبأشكال أخرى للتواصل مع النبع الأعظم مستجيبين لهذا الشعور الغائر في كل ذات إنسانية لا تتنكر لذاتها.

أما ما لا نتردد في إنكاره وجحوده فهو شيء واحد فحسب؛ وهو أن يصدق أحد بأن هؤلاء الأنبياء الأقدمين كانت رسالتهم هي الرسالة المحمدية ذاتها، أو كانت على نحو قريب منها، وإننا لنعجب أشد العجب من أن يستمر التصديق بشيء من هذا السخف إلى يومنا هذا؛ فلم تكن هناك قط في البدء رسالة إلهية واحدة كاملة، وقد جاء الأنبياء جميعًا ليبلغوها إلى الناس، فهذا أمر ينبغي ألا يفكر به أحد؛ لأنه يقف في مقابل هذا التصور غير التاريخي والبائس جميع ما أصبح يعرفه البشر في عصرنا، ولنا عودة إلى تلك القضية في موضعها.

ولننتقل إلى نبي آخر من أنبياء القرآن الكريم.

الفصل الثالث
قصة لوط بين التوراة والقرآن

المبحث الأول :

لوط التوراتي.

المبحث الثاني:

لوط القرآني.

المبحث الثالث:

الاتفاق والاختلاف بين الروايتين.

أولا: ملامح القصة القديمة خلف الرواية القرآنية.

ثانيا: الفروق بين الروايتين وأسبابها.

ثالثا: ظواهر قرآنية:

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين)

لماذا هلكت امرأة لوط ؟!

لوط وقومه.

المبحث الأول
لوط التوراتي

(1)

ربما يحقُّ لقارئ هذه الصفحات أن يقول إنه كان يحسُن بنا أن نقدم قصة النبي إبراهيم في التوراة والقرآن بدلاً من قصة ابن أخيه لوط؛ وذلك لأهمية إبراهيم البالغة، التي لا تقارن مكانته بمكانة أي نبي آخر عند أهل الديانات الكتابية الثلاث؛ إذ بحضوره يبدأ التاريخ الحقيقي لتلك الأديان، وهو يحتل فيها جميعًا موقع الرجل الثاني بعد مؤسسيها: موسى والمسيح ومحمد، وهذا كله صحيح ولا خلاف عليه. ولكن لأن المرويات القرآنية عن قصة إبراهيم تأتي في أغلبها من خارج التوراة، وليس لنا من اطلاع مباشر على تلك المرويات من ناحية، والأهم من ذلك أننا لا نعرف يقينا مدى سبق بعض تلك المرويات للقرآن أو تأخر زمانها عنه، وعلى هذا فقد آثرنا أن نقتصر فيما نقدمه من قصص القرآن الكريم على ما له شبيه ونظير في العهد القديم، ولذا سنقدم هنا قصة لوط؛ لأنها على النقيض تمامًا من قصة إبراهيم، بل إنها لتعد أكثر القصص القرآني مشابهة بالقصة التوراتية - التلمودية.

ولمَّا كان تاريخ لوط لا ينفك عن تاريخ عمه إبراهيم البطرك الأكبر، بل كان تاريخه مجرد حاشية لا أهمية لها إلى جانب المتن العظيم لحياة إبراهيم ومناماته، ولن تُفهم سيرة لوط كاملة إلا من خلال ارتباط أحداثها بحياة عمه إبراهيم وسيرته؛ لذا سنحاول أن نوجز في صفحات قليلة مشترك تاريخ إبراهيم ولوط، ونعني بها تلك الأحداث التي شارك فيها لوط عمه إبراهيم حتى لو لم يذكر اسمه في تلك الأحداث، أو نشعر بوجوده فيها، بل يكفينا فقط أن نتذكر بأن لوطًا كان حاضرًا فيها، وشكلت تلك الأحداث جزءًا من سيرته وتاريخه.

(2)
من أور إلى حاران

"وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط، وكان أبرام ابن خمس و سبعين سنة لما خرج من حاران" (تك: 12- 1-4)

في مقابل التصور التلمودي والقرآني من بعده اللذين جعلا من إبراهيم ثائرًا دينيًّا على عقيدة قومه، وخصمًا لا يلين للعقيدة الوثنية الراسخة في بيئته، ومغاضبًا صعب المراس لعابديها من أهل بيته، حتى هموا أن يرجموه أو يحرقوه. نجد الرواية التوراتية يغيب عنها أي باعث ديني واضح بشأن أمر الله لإبراهيم بالخروج من أور، والذهاب إلى كنعان؛ فلا نجد هناك سوى ما يبدو اصطفاء اعتباطيًّا لرجل لا يكاد يتميز حتى الآن بتصور ديني يميزه عن غيره، بل حتى إننا لا نجد ضرورة يقضي بها النص لافتراض أن إبراهيم كان يعيش حياة دينية تختلف عن حياة آبائه وأجداده، الذين كانوا لا يختلفون بدورهم في شيء عن جيرانهم؛ فلم نسمع ولو مرة واحدة بأن إبراهيم قد احتج على عبادة الآلهة الأخرى، سواء في بيئته الأولى، أو حتى بعد هجرته إلى أرض كنعان، أو نراه يدعو أحدًا لعبادة إلهه، بل نراه يحني رأسه، ويقبل مباركة (ملكي صادق) كاهن شاليم، ويرتضيه كاهنًا يقدم له العشور، ما يدل ربما على حضور تيار توحيدي، أو قريب من التوحيد، كما كان يفهمه أهل ذلك الزمان، وكان يتشاركه الكثير من أذكياء تلك الفترة. ومن ناحية أخرى، فلنا أن نكون واثقين بأن إبراهيم الذي تشدد في تزويج ابنه المفضل إسحاق من قرابته، وليس من بنات جيرانه الكنعانيين، إنما كان ذلك لأسباب عشائرية، أو ربما طقسية، ولا علاقة لها بالدين؛ لأن أهله لم يكونوا على عقيدته كما يريد أن يوهمنا كاتب التوراة حتى يفضلهم على غيرهم، ولم نره من ناحية أخرى يأبه لزواج ابنه إسماعيل ممن شاء له هواه.

لكن على كل حال، فقد استجاب إبراهيم لدعوة الرب إياه للخروج، وانطلق ومعه زوجته سارة وأبوه تارح، وابن أخيه لوط في اتجاه كنعان، ولكنهم مكثوا أولا في حاران، ما شاء لهم الله أن يمكثوا، حتى إذا رحل تارح عن مائتين وخمس من السنين، انطلق

إبراهيم مغادرًا حاران، وهو في الخامسة والسبعين من عمره إلى الأرض التي وعده الله بها.

(3)

لوط يتغرب مع إبراهيم وينزل معه إلى مصر

"فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هوذا امرأتك خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته، و كل ما كان له" (تك: 12-18-20).

أقام إبراهيم مدة في منطقة شكيم، ثم ارتحل منها إلى بيت إيل، وغادر بعدها متجهًا إلى الجنوب، ثم اضطر فجأة إلى مغادرة تلك المنطقة بسبب تلك المجاعة، وهي حيلة ونغمة ستتكرر كثيرًا فيما بعد لتبرير كثير من النقلات الفجائية وغير المنطقية في حياة الآباء، التي ضربت الأرض فنزل، ومن معه إلى مصر حيث كما يزعم كاتب التوراة التقى إبراهيم فرعون مصر بشحمه ولحمه في واقعة تعد من أكثر أكاذيب كاتب سفر التكوين جموحًا وتطرفًا، وسوف نقف لاحقًا عند تلك القصة عند تعرضنا للرواية الحديثية التي تعتمد على هذه الرواية، ولو لم يأتنا ذلك الحديث الصحيح، الذي يتابع فيه النبي محمد تلك الرواية التوراتية البائسة عن أخذ المصريين لساراي زوج إبراهيم، ورغبة فرعون مصر في اتخاذها زوجة له، لما توقفنا عندها لحظة واحدة لا هنا ولا هناك؛ فالبلاط الفرعوني الذي يعج بالحسناوات الشابات من الأميرات المصريات، ونساء الطبقات العالية من أهل مصر، وسواهن من الأميرات الأجنبيات كان في غنى عن امرأة إبراهيم العجوز الفانية، فضلا عن أنه ملك من أعاظم ملوك الدنيا وهي سوقة. ومن ناحية أخرى، فمن يعرف أي مكانة سامية كان يمنحها المصريون لزوجة فرعون لأصابه الذهول من فرط حماقة تلك الرواية التوراتية الخرفة، واستخفافها بمكانة فرعون والمصريين؛ فرأس الدولة المصرية الذي كان هو التجسيد الحي للآلهة لم يكن ليتصرف كشيخ قبيلة بدوي داعر يتربص رجاله بالقوافل التجارية، وعابري السبيل؛ لكي يجلبوا إلى خيمة شيخ العشيرة كل مساء بما يروقه من النساء.

لذا، فليس من المستبعد أبدًا أن تكون تلك القصة قد حدثت على ذلك النحو أو على شيء قريب منه مع إبراهيم أو إسحاق أو كليهما، ولكن هناك وفي مكانها الطبيعي؛ أي في أرض كنعان مع أبيمالك وأمثال أبيمالك، ثم رأى كاتب التوراة أنها تصلح أيضًا مع

من هو أعظم منه، وهو فرعون مصر، وهذا الذي قلناه من استبعاد بل استحالة وقوع تلك القصة السخيفة قريب مما قاله من قبل مؤمن شجاع واختصاصي جليل في شئون العهد القديم ومشكلاته التي لا تنتهي: "تبدو قصة إبراهيم في مصر، وكأنها صيغت على غرار الروايات التي في تكوين 20 و 26 من 1 إلى 11، وتصديق هذه الروايات ممكن؛ ذلك أن أبيمالك رئيس محلي يتمتع بمقام شبيه بمقام إبراهيم وإسحاق، ومن الصعب أن نتصور أن فرعون القوي عامل إبراهيم، الإنسان العامي والغريب، على قدم المساواة، يبدو أن تكوين 13 من 3:5 استمراره المنطقي لـ 8 : 12، ما يشير إلى أن قصة إبراهيم في مصر وعودته 9 : 12 13 إضافة لاحقة[543]".

ولا ينبغي أن يزعج القارئ الكريم نفسه في إيجاد أسباب معقولة لاختلاق تلك الحكاية البلهاء وأمثالها كثير في التوراة فلربما لم يكن هناك من ضرورة لها سوى رغبة الكاتب التوراتي في تقديم تفسير ما لثروة إبراهيم وغناه العظيم، فلم يجد سببًا ذلك سوى إرجاع ثروته المتعاظمة من العبيد والإماء والبقر والغنم والجمال إلا إلى عطايا ملك مصر، ومن بعد ذلك إلى إغداق سيد قبيلة محلية في أرض كنعان، حتى ولو جاءت ثروته من هذا الباب القبيح، مثله في ذلك مثل ما نجده في الحكايات الشعبية عن اتفاق زوج وامرأته على الإيقاع بطالبي المتعة، فتغوى المرأة الرجل وتستدرجه إلى البيت، وفي اللحظة المناسبة يخرج الزوج المختبئ من مكمنه فيسرع من كان معها إلى الفرار بما استطاع من ملابسه مخلفًا وراءه حافظة نقوده، ورغم اختلاف أبطال هذه المسرحية عن تلك، ولكنها في النهاية مثلها مجرد قصة بذيئة، ربما لم يوردها كاتب التوراة إلا ليعرف كذلك قراءه بحضور الله في حياة إبراهيم، حتى إن جاء على تلك الصورة المنكرة، ولكي يشرح سبب غنى إبراهيم فلم يجد سوى عطايا فرعون وأبيمالك تعويضًا له عن زوجته العجوز الحسناء.

إننا نظن بأن تلك الحادثة قد وقعت حقا لإبراهيم مع أبيمالك فقط؛ فقد خاف الرجل أو طمع، وأعطى امرأته لسيد جرار، ونظن بأن سارة التي كانت في عامها التسعين أو ما يقاربه كما يزعم كاتب التكوين، أو التي كانت أصغر بكثير من ذلك فيما نعتقد، لكن كاتب التكوين قد رفع من عمرها لبيان أن ولادتها لابنها إسحاق كانت ولادة إعجازية، قد قضت عند الرجل الفلسطيني مدة طويلة لا تقل عن عدة أشهر؛ لأننا نجد ما يشير إلى

[543]"مدخل إلى العهد القديم" الأب بولس نديم الطرزي، تعريب: نقولا أبو مراد، ج1، ص 104.

ذلك عند كاتب القصة: "فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إلى اللهِ، فشفى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ" (تك 20: 17-18)، مما لا يستقيم معه أن نصدق بأن ما قضته سارة في فراش الرجل الغريب كانت ليلة أو أيامًا قليلة؛ وإلا فكيف علم الرجل بأن نساءه وجواريه قد كففن عن الحمل والإنجاب؟!

أما حادثة فرعون وسارة، أو أبيمالك ورفقة، فلا نشك في أنهما قصتان منحولتان، فأما قصة سارة وفرعون فسنقف عندها في الفصل الأخير، وأما قصة أبيمالك مع رفقة فهي في ظننا مظهر من مظاهر نضوب الإبداع القصصي عند كاتب التكوين، لا أكثر ولا أقل؛ حيث لم يجد الكاتب شيئًا ليقوله عن إسحاق فأعاد ما حدث مع أبيه ذاته معه، بل مع الأشخاص ذاته بأعيانهم؛ لأننا لا نصدق ما قيل في تفسير ذلك؛ أي بأننا أمام شخصين مختلفين كانا يحملان الاسم ذاته؛ أي أن هناك أبيمالك الأول الذي سطا على سارة من إبراهيم، وأبيمالك الثاني الذي كما ورث عن أبيه اسمه، فقد ورث عنه أيضًا نقيصة التطلع لنساء النازلين بأرضه. ولا برهان لدينا على تعجل كاتب حياة إسحق ورغبته في طي صفحته سريعًا من أنه نسى تمامًا الإشارة إلى موت رفقة دون نساء الآباء البطاركة جميعًا، وأغفل ذلك تمامًا.

أما ما يدعونا إلى عدم الاعتقاد في صحة التفرقة بين الشخصين، فهو أننا نجد الأسماء نفسها تحضر في الوقائع نفسها التي حدثت مع إبراهيم، ونراها تتكرر مع إسحاق مثل حضور اسم (فيكول) رئيس جيش ملك جرار، ثم نراه هو ذاته مع إسحاق حيث عقدت في حضوره معاهدة بين إبراهيم وأبيمالك، ونجده حاضرًا لتوقيع المعاهدة نفسها بين أبيمالك وبين إسحاق؛ لذا فلا ينبغي أن يزعج القارئ الكريم نفسه بمحاولة إيجاد مسوغات أخلاقية لقصص لا علاقة لها بالأخلاق وأهلها، بل يصح أن ننفض أيدينا من تلك القصص وأصحابها، خاصة أننا نجد عبارة في هذا السفر بالغة القبح يفهم منها بأن الرجل كان يخطط سابقا لاستغلال زوجته الحسناء أينما حل: "وَحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِي اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قُولِي عَنِّي: هُوَ أَخِي"(تك 20: 13)، وأوضح منها هذه الآية التي تجمع لإبراهيم بين الخوف الجبان والطمع الوضيع: "قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ" (تك 12 : 13).

فنوافق إذن على ما قاله بعضهم: "ولا نجد في هذه القصص الثلاث التي نسبتها التوراة إلى إبراهيم وإسحاق تعقيبا أوجز ولا أوضح من القول بأن ما تنطوي عليه من إيحاء ضمني بإباحة استخدام الزوجة اتقاء لضرر متوهم، أو ابتغاء لكسب مرجو، قد أفسح منذ أقدم العصور أمام اليهود مجالا فريدا لتطبيق القاعدة اللاأخلاقية الغاية تبرر الواسطة (الوسيلة) أيا كانت الغاية وكانت الواسطة[544]".

ما يعنينا من كل هذه القصة، هو أن لوطًا بطل قصتنا كان شاهدًا وحاضرًا، بل كان مشاركًا بالتواطؤ في تلك القصة المحزنة، وما كان لهذه القصة من تأثير سيئ في لوط، فسيظهر لنا جليًّا عند حصار بيته بعد ذلك بسنين طويلة، بل لم يستح مؤلف إحدى القصص التلمودية المتأخرة من التلفظ بهذه القولة العوراء: "ومع أن لوطًا مدين بنجاته لإبراهيم؛ فقد كانت نجاته كذلك مكافأة له على عدم خيانة إبراهيم في مصر عندما تظاهر بأنه أخو سارة[545]".

إذا كان من المنطقي أن نقول ما قلناه بأن إبراهيم كان قدوة سيئة لابن أخيه الذي كان يشاهده دون أن نسمع له صوتًا على صفحات التوراة، فإن أنصار إبراهيم وما أكثرهم لم يجدوا حرجًا في قلب تلك الصورة، وإرجاع ذلك الأداء الإنساني البائس لإبراهيم من النزول في البداية إلى مصر، دون إذن واضح من الله، أو تدبير أموره فيها بتلك بالأكاذيب الرخيصة الوضيعة إلى ما سماه بعضهم: (تأثير لوط السيئ) عليه دون أن يقدموا برهانًا على هذا الذي يقترحونه، مكتفين بسوء ظنهم في لوط المسكين، وهو سوء ظن من الطبيعي أن يخرج به كل قارئ لسيرته في التوراة، بسبب رغبة كاتبها في تشويهه وتبشيع صورته فيقول أحدهم: "إن ذلك الفشل الذي مني به إبراهيم في نزوله إلى مصر قد يعزى إلى مدى أبعد مما نعرفه. فقد يعزى إلى تأثير لوط السيئ عليه، فمن يدري لعل إبراهيم لم يكن يخطر بباله أن ينزل إلى مصر لو أنه ترك لنفسه، وفي هذه الحالة ربما كنا نجد فصلا جديدا في الكتاب المقدس عن بطولة الإيمان الذي استند إلى مواعيد الله، وثبت أمام هذه المجاعة المخيفة منتظرًا إلى أن يأمره الله بالتحرك، أو يجعل له البقاء في مكانه ممكنًا[546]".

---

[544] صبري جرجس، نقلا عن كتاب "قصص التوراة في ضوء النقد الأدبي"، المجلس الأعلى للثقافة، سعيد عطية علي مطاوع 2007م، ص 48.

[545] "أساطير اليهود"، ج1، ص233.

[546] "حياة إبراهيم"، ماير، ترجمة القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، ص 40.

أما الحقيقة التي نعتقدها فهو أن مقتضى الإنصاف يحتم على كل من يقرأ سيرة إبراهيم ولوط في العهد القديم أن يقول إن لوطًا وإن تمتع بالجوانب المضيئة في حياة إبراهيم من الكرم والنجدة والرعاية، ولكنه كذلك وأسفاه قد تشرب جانبًا من الجزء المعتم من شخصية عمه الجليل مثل: غياب النخوة والجبن وضعف الغيرة الجنسية.

(4)

لوط يفترق عن إبراهيم

"فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي، قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر، حينما تجيء إلى صوغر فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن، وارتحل لوط شرقًا فاعتزل الواحد عن الآخر، إبرام سكن في أرض كنعان، ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم، وكان أهل سدوم أشرارًا وخطاة لدى الرب جدًا" (تك: 13-10-13).

إذا كنت سيدي القارئ ممن يظنون أن جميع حدود الممالك والبلدان قد استقرت تحت أقدام ساكنيها من الأمم والشعوب؛ لأن أهلها قد امتلكوها بأحد هذين الحقين الأساسيين؛ أي أن أسلافهم الأولين قد أدركهم الوعي وهم يسكنون تلك الأرض، أو قد امتلكوها بحق الفتح والغزو، فلك أن تعلم بأن ملكية تلك البقعة الجرداء من أرض كوكبنا قد امتلكها العبرانيون عن طريق فريد وعجيب حقا؛ فلم يمتلكوها بالوجود القديم فيها، ولا بحق الفتح، ولا بالشراء، ولا بالهبة، ولا بالوراثة، ولا بأي طريق آخر مما يعرفه الناس، وإنما امتلكوها بحق الحلم، وادعوا ملكيتها بالحق الإلهي مشرعين في وجه العالم صك الرؤيا المنامية الصادقة، وستصبح تلك الأرض التي كان يمرح أهلها فوقها غافلين حقا لإبراهيم ونسله من بعده، وحتى قبل أن تطأها قدم الجد المبارك الموعود بها بعشرات السنين، وقبل أن يغادر أحفاده أرض عبوديتهم في مصر لينازعوا أهلها على امتلاك جزء صغير منها بأكثر من أربعة قرون، فهل يعقل هذا؟!

الأعجب أن هذا قد حدث؛ فقد عاد إبراهيم وزوجته وابن أخيه لوط من مصر مشيعين من كبار رجالها، ومثقلين بعطايا فرعونها، راجعين إلى الجنوب حيث مكثوا فيها قليلا، ثم رجعوا بعدها إلى بيت إيل، وفي تلك المنطقة افترق الرجلان بسبب كثرة

أملاكهما[547]، وتعدد مشاجرات رعاتهما، وإذا كنا حتى الآن لم نشعر بوجود لوط رغم أنه كان موجودا، وحيًّا يرزق، ولكننا سنراه الآن يقف مع عمه إبراهيم على مرتفعات بيت إيل، ويتطلعان إلى جهاتها الأربع، ويتقاسمان ما لا يملكان، كملكين أوروبيين استعماريين عتيدين من القرن الثامن عشر يفترشان أمامهما خريطة ملونة، ويقتسمان بينهما أراضي شعوب أخرى دون أن يطرف لهما جفن، أو يأبها لحقيقة أن لتلك الأرض شعوبًا تسكنها من ألوف السنين، ولكن ما أهمية تلك الشعوب إن كان الله مالك الأرض كلها والسموات، قد شاءت إرادته أن يسحبها من تحت أقدامهم، واهبًا هذه الأرض لإبراهيم ولنسله من بعده ملكًا أبديًّا؟!

ولحسن حظ شعوب هذه المنطقة المنكودة، بسبب وفرة القداسة، فإن الله لم يصادق على هذا التقسيم الاستعماري الجديد، ولو إكرامًا لإبراهيم، وإلا لصار لدينا وعدان إلهيان بدلا من ذلك الوعد الواحد، الذي أسال أنهارًا من الدماء، وبحارًا من مداد أحبار الكاتبين للبرهنة على صدق هذا الوعد العجيب وحقيقته الكاملة، أو للتدليل على كذبه واختلاقه، وإذا كنت سيدي القارئ ممن يرتابون في شرعية الأحلام والرؤى المنامية وكفايتها لادعاء ملكية أرض مسكونة، فهناك مئات الملايين من الناس يتوزعون على ثلاثة أديان ممن لا يزالون يصدقون إلى يومنا هذا بهذا الهراء التافه، الذي كان سببًا في القرن العشرين لآخر ظاهرة احتلال على سطح كوكبنا، وهل هناك ما يثير الغيظ والكمد أكثر من هذه النغمة الواثقة من صحة هذا الوعد المشئوم بعد مرور أربعة آلاف سنة على هذا الحلم المزعوم؟ "فلوط كان لابد أن يستأذن أهل سدوم لكي يحل بينهم؛ لأنه لم يكن يملك شيئًا من الأرض، أما إبراهيم فقد أعطيت له كل الأرض دون أن يطلب شيئًا بما في ذلك تلك أرض النضرة التي وضع لوط قلبه عليها. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض[548]".

على كل حال، فقد اختار لوط الشَّرِهُ أن يذهب إلى أرض دائرة الأردن، التي كانت تشبه جنة عدن، ويبدو أن لوطًا قد تحول إلى مزارع بعد أن اختار سدوم موطنًا

[547]إذا كنا قد علمنا مصدر ثروة إبراهيم، وإن جاءت من تلك الطريق الشائنة القبيحة، فإننا لم نعلم كيف حصل لوط ثروته تلك؛ لأنه يبدو في هذا النص كما لو كان يمتلك ثروة تضارع ثروة عمه إبراهيم! فيا لها من حيرة! فهل نحسن الظن فنقول إنها كانت نفحة سخية من إبراهيم الجواد الكريم، أم يا ترى ندع أنفسنا تجوس في أودية الشر فنحدس بأن لوطًا كان يملك امرأة حسناء كامرأة عمه إبراهيم؟!

[548]"حياة إبراهيم"، ص 47.

لإقامته لمعرفته بخصب أرضها وسهولة الري فيها. أما إبراهيم الرجل البار القنوع، فسكن في أرض كنعان القاحلة، وأقام سنين عدة عند (بلوطات ممرا)، ولم يدخل لوط سدومًا وحده، بل دخلها يقينًا مع أسرته، فمن المعقول أن نصدق بأن لوطًا قد تزوج زمن إقامته مع عمه في مصر؛ لأنه جاءنا خبر عن مصرية زوجته في كتب التكوين المنحولة "وأخذ لنفسه زوجة من بنات مصر وخيمت معه[549]"، وأما الترجوم فقد جعلها من بنات السدوميين: "ونزلت الشمس على الأرض حين دخل لوط إلى صوغر، فأنزل كلام الرب على سدوم وعلى عمورة كبريتًا ونارًا من أمام الرب، من السماوات فدمر هذه المدينة وكل السهل وجميع سكان المدينة ونبات الأرض، وبما أن امرأة لوط من بنات السدوميين، نظرت إلى الوراء لترى ما يكون من نهاية بيت أبيها فصارت عمود ملح إلى يوم يقوم فيه الموتى[550]".

ولأننا، وعلى الرغم من أن كاتب التوراة لم يجد ضرورة لتسجيل واقعة زواجه، لكننا سنجد لوطًا بعد سنوات قليلة ربًّا لأسرة كبيرة، وكان له كما يبدو بنات متزوجات من أهل المدينة، وكذلك ابنتان تصلحان للزواج منذ زمن بعيد، وسنجد من بين نعوت ابنتيه له بعد النجاة أنه (قد شاخ) فلم يكن الرجل يصغر عمه إبراهيم إلا بعدد قليل من السنوات؛ أي أن الرجل قد دخل مدينة الشر، وقد قارب السبعين أو دونها بقليل.

---

(549)"التوراة كتابات ما بين العهدين" تحقيق أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو، ترجمة موسى ديب الخورى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى 1998م، ج1، ص 502.

(550)الترجوم ص 76.

(5)
لوط أسيرًا

"وَحَدَثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ، وَكَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، أَنَّ هؤُلاَءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنْآبَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشِمْئِيبَرَ مَلِكِ صَبُويِيمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوغَرُ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إلى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ. اِثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكَدَرْلَعَوْمَرَ، وَالسَّنَةَ الثَّالِثَةَ عَشَرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ. وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشَرْةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ، وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إلى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إلى عَيْنِ مِشْفَاطَ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلاَدِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُّونَ تَامَارَ. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِيمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ. مَعَ كَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، وَأَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ. أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَعَ خَمْسَةٍ. وَعُمْقُ السِّدِّيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إلى الْجَبَلِ. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا. وَأَخَذُوا لُوطاً ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إذ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ . فَأَتَى مَنْ نَجَا وَأَخْبَرَ أَبْرَامَ الْعِبْرَانِيَّ. وَكَانَ سَاكِنًا عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الأَمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَانِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبْرَامَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إلى دَانَ. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إلى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شَمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطاً أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ، بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ كَسْرَةِ كَدَرْلَعَوْمَرَ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ مَعَهُ إلى عُمْقِ شَوَى، الَّذِي هُوَ عُمْقُ الْمَلِكِ. وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ. وَبَارَكَهُ وَقَالَ: مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ".

ليست الحياة المدينية خيرًا كلها، فقد نشبت حرب لم يردها لوط، ولم يردها معه الألوف من سكان مدينته المترفين، والمنغمسين إلى آذانهم في الفسق، وعلى كل حال

وكما هو متوقع فقد حاربت مدينته وهزمت شر هزيمة، وهل من العجيب أن تهزم مدينة تشيع فيها أمثال تلك الفواحش، وعلى هذا النطاق الفسيح حتى إن رجالها جميعًا من الحدث إلى الشيخ الكبير قد جاءوا ليعرفوا رجلين غريبين مرا بها؟! وبعد تلك الهزيمة الساحقة المتوقعة، أخذ لوط مع الآلاف أسيرًا، واستاق المنتصرون أمامهم مواشيه، وانتهبوا أملاكه ونساءه، وكذا فعلوا بجميع سكان المدينة، ولكن ما كان للوط أن يقلق أبدًا، ولديه عم كعمه الجنرال إبراهيم.

""فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ، وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُه فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ، وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ، بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ كَسْرَةِ كَدَرْلَعَوْمَرَ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ مَعَهُ إِلَى عُمْقِ شَوَى، الَّذِي هُوَ عُمْقُ الْمَلِكِ وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ"وَبَارَكَهُ وَقَالَ: مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" (تك: 14 -14-19).

هنا حدثت معركة لا ندري كيف لم تدرس حتى الآن في الأكاديميات العسكرية العظمى إلى جانب معركة (كاتاي) لهانبيال، ومعركة (جوجميلا) للإسكندر الكبير، أو معركة (أوسترليتز) لنابليون الأول؛ ألا وهي معركة تحرير النبي إبراهيم لابن أخيه المنكود، وتخليصه من قبضة الملك (كدرلعومر) ملك عيلام! القوي، وحلفائه من الملوك الثلاثة؟!

فلمن شاء أن يصدق بأن رجلا عجوزا كإبراهيم، ولا شأن له بالحرب وفنونها يستطيع أن يجمع على عجل جماعة من رعاة مواشيه، وكانوا (318) عبدًا، وربما لم يمسك أكثرهم سيفًا طيلة حياته، ومعهم ثلاثة من أصدقاء إبراهيم، ثم يباغت بهم جيشًا كثيفًا قد استطاع بهيبته فقط أن يفرض الجزية على ملوك خمس مدن لاثني عشر عامًا متواصلة، وعندما حاولوا أن يخرجوا عن سلطانه ويتمردوا عليه، فقد استطاع أن يسحق جيوش الملوك الخمسة في معركة واحدة هائلة، ويرجع مثقلاً بالغنائم والأسلاب؛ فلمن شاء أن يعتقد في ذلك فليصدق ما شاء له هواه، فهذا ما أخبرنا به كاتب سفر التكوين عن تلك المعركة التي صار التصديق بوقوعها من مقتضيات الإيمان بصحة الوحي الإلهي عند كثير من المؤمنين المتمسكين بنصال الحرف.

أما نحن فلا نصدق مطلقًا بوقوع تلك المعركة من أساسها، بل لا يبعد في ظننا أنه لم يوجد قط ملك اسمه (كدرلعومر)، وإنما هي معركة خيالية لم يخترعها كاتب التوراة إلا لكي يضفي على إبراهيم شجاعة لم نرَ لها من أثر طيلة حياته التي امتدت قرابة القرنين، بل وجدنا بدلا عنها جزعًا وهلعًا قبيحين لا يليقان برجل من آحاد الناس، فضلاً عن أن يكون رجلا باسلا مقداما يُغير بليلٍ على جيش ملك محارب تربو أعداد جيشه المحترف على أقل تقدير على عشرين أو ثلاثين ضعف قواته غير المدربة، ثم يطارده إبراهيم إلى مشارف دمشق، ليعود بعدها مكللا بالغار وليتلقى البركات الدنيوية من ملك سدوم الذاهل من السعادة، وأيضًا من الاستخذاء من بسالة هذا الراعي العجوز، وليتلقى إبراهيم كذلك التطويبات الإلهية من (ملكي صادق) كاهن الله العلي، وبعد تلك الشجاعة النادرة أظهر إبراهيم فضيلة أعظم منها؛ وهي تعففه المترفع عن المغانم الهائلة التي استرجعها من بين أسنان جيوش الملوك الأربعة، فهل سيرة إبراهيم تدعو من يقرأها أن يصدق أنه فعل ذلك حقا؟!

هل يستقيم عند عاقل أن مثل هذا المقاتل المغوار وبعد مدة قصيرة جدا من تلك الواقعة سوف يسلم امرأته ثانية بعد أن ينكرها كزوجة، ويوصيها مرة أخرى أن تقول بأنه أخوها لملك محلى لا يبلغ في قوته معشار قوة (كلدلعومر) وهو (أبيمالك) ملك جرار، ودونما خطر جدى ماثل، وإنما فقط تحسبًا من قلبه المثقوب المنخوب لأي أذى قد يهدد حياته؟!

هذا عن شجاعته، وأما عن تعففه فقد رأيناه يقبل من فرعون هباته بعد أن طأطأ رأسه أمام توبيخ الفرعون له على ضعف نخوته وكذبه، وسنراه يقبل من أبيمالك هباته أيضًا على أخذه لامرأته وضمها إلى حريمه، وليس من الضروري لأحد أن يؤمن بأن الله كان يحرس له امرأته المستلقية في الفراش الغريب، وكنا ننتظر من رجل شريف أن يسترد امرأته حتى لو غُلب عليها ودون كلمة شكر، فضلا عن أن يقبل عطية أبدًا ممن سطا على امرأته، ولكن إبراهيم كان أقل من هذا وذاك، فمن أين تأتيه الشجاعة؟ ومن أين يجيئه التعفف؟!

يمكننا أن نضيف إلى الأسباب المحتملة لاختلاق تلك المعركة؛ أنه ربما كان كاتب التوراة يزهو على أعدائه المؤابيين والعمونيين بما كان لأبيهم إبراهيم من فضل ومنة على جد هؤلاء الأعداء الألداء؛ حيث استنقذه من الأسر ورد عليه أمواله وممتلكاته،

وهي ممتلكات لم يتمتع بها لوط طويلا على كل حال؛ إذ سيدمرها الرب بنفسه بعد قليل مع تدمير سدوم وأخواتها.

(6)
لوط في سدوم

(فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إلى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إلى الأَرْضِ. وَقَالَ: "يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إلى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا". فَقَالاَ: "لاَ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ". فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ .

وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إلى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: "أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا". فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إلى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ وَقَالَ: "لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي". فَقَالُوا: "ابْعُدْ إلى هُنَاكَ". ثُمَّ قَالُوا: "جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا". فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ، فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إلى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى، مِنَ الصَّغِيرِ إلى الْكَبِيرِ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ.

سرعان ماعادت الحياة في سدوم وما حولها سيرتها الأولى، وعاد أهلها يستأنفون حياتهم بعد تجربة الأسر التي لم تخلف فيما يبدو أثرًا في أهلها ونمط حياتهم؛ حيث عاش لوط في سدوم يستثمر فيها أمواله ويصاهر أهلها، ويرى بعض الشراح أنه كان قاضيًا أو محلفًا في محكمتها(551)، ولم ير الرجل من بين مهامه قط أن يكافح ما شاع في تلك المدينة من رذائل وموبقات أخلاقية، فليس هذا من شأن رجل عملي مثله، ولكن أما وقد سعت الرذيلة بقدميها السوداوين إلى باب بيته، وتريد أن تحقر شخصه المبجل بإهانة أضيافه، وتهدر مكانته في المدينة التي رسخ أقدامه فيها، وهو الغريب عنها، بشق الأنفس؟ فكلا وألف كلا!

---

(551)"التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، التعريب والجمع التصويري والمونتاج والأعمال الفنية لشركة ماستر ميديا، القاهرة، ص 14.

فها هو أولاً يحاول، كما يفعل أي تاجر ناجح، ألا يدفع شيئًا سوى الكلمات: (لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي)، ثم خطا لوط الأريب بعدها بسرعة خطوة أخرى؛ فلا بد من أن يدافع عن كيانه في هذه المدينة مهما غلا الثمن، وهنا يتذكر أن لديه فتاتين عذراوين تساويان الكثير، فهو يلوح بهما للجموع الشبقة والمهتاجة: (هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم؟ وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئًا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي)، وعندما تلقى لوط أقذع كلمات سمعتها إذناه في حياته كلها: (فقالوا أبعد إلى هناك، ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكمًا الآن نفعل بك شرًا أكثر منهما).

وعندما رفض الرجال عرضه المَشين لابنته، وأسقط في يد الرجل فلم يحر ماذا يقول أو ماذا عليه بعدها أن يفعل، ولكن وكما هو معروف؛ فعندما تنتهي إرادة البشر تبدأ إرادة الله!

ففي تلك اللحظة بدأ الملاكان، اللذان كانا حتى تلك اللحظة يصغيان للحوار فاغري الفم، عملهما؛ إذ وجدا أن تلك الجموع قد تمادت أكثر مما يجب: (فألحوا على الرجل لوط جدا وتقدموا ليكسروا الباب، فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطًا إليهما إلى البيت وأغلقا الباب، وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب) لتبدأ النهاية لمدن الساحل الخمس وأهلها الفاسقين!!

(7)
هل عرض لوط التوراتي ابنتيه حقًا ؟

"ولم تكن نخوة لوط كما ينبغي أن تكون؛ فمن المفترض أن الرجل يخاطر بحياته من أجل شرف زوجته وبناته، ولكن لوطًا كان مستعدًا للتضحية بشرف بناته وهو ما عوقب عليه بقسوة فيما بعد [(552)]"، "كانت القبيلة تقوم بحماية ضيفها . ولذلك كاد لوط أن يعطي ابنتيه لأهل سدوم لكي ينقذ ضيفيه [(553)]".

عندما يقرأ إنسان قصة ما، وتشتمل تلك القصة على حدث غريب، سواء أجاءته الغرابة من مخالفته للطبيعة البشرية، كأن يقتل رجل أولاده، أو جاءته الغرابة من

---

(552)"الأساطير اليهودية" ج2 ، ص 231.

(553)"شرح سفر التكوين" الأب أنطونيوس فكري، ص 14.

تعارضه مع ما استقرت عليه الأعراف والقيم الأساسية من أمور، مثل أن يعرض الرجل بناته على رجال مدينة كاملة ليحمي ضيفين لا يعرف اسميهما، فله أن يتساءل أولا: هل حدث ذلك حقا؟ وله أيضًا إذا ما تواترت شواهد كافية على تأكيده، أو ترجيح حدوثه أن يتساءل ثانية: لماذا حدث ذلك؟

أما عرض لوط ابنتيه في القصة التوراتية فقد كان مع عظيم الأسف عرضًا جديًّا على نحو لا لبس فيه، فقد استعمل الرجل تعبيرًا مخزيًا لإغراء أهل المدينة الفاسقة بقبول عرضه؛ إذ وصف لهم ابنتيه بأنهما (لم تعرفا رجلا).

ولا أدل على أن هذا العرض، بالغ الوضاعة والقسوة، كان عرضًا جديًّا، وكان الرجل يرجو له القبول من خصومه من أن له مشابهًا مأساويًّا في (سفر القضاة) حيث حدث أن نزل رجل (لاوى) وزوجته في ضيافة رجل غريب عن أهل مدينة جبعة، وما إن علم رجال تلك المدينة بوجود هذا الضيف حتى أحاطوا بمنزل مضيفه، وطالبوه أن يخرج إليهم ضيفه (ليعرفوه).

لقد حاول صاحب البيت أن يسترضي الجموع الشبقة، ويقدم إليهم ابنته العذراء ومعها زوجة الضيف، ويتركوا الرجل بسلام فأبوا، ولكن الضيف فاجأ المضيف الذي لم يكن أقل ارتباكًا من لوط سدوم وفتح الباب بسرعة، وألقى إلى الحشود المهتاجة سريته المذعورة التي قبلوها بعد تمنع قليل وتناوبوها حتى مطلع الشمس فماتت المسكينة على عتبة الباب؛ حيث كان الرجلان خلفه ينتظران أن تنقضي الليلة، وأن يستردا المرأة كما لو كان يستردان كساءً أعاراه للجيران لليلة أو بعض ليلة، وليس ذلك فحسب، بل قام زوجها الوغد الأثيم بتقطيعها إلى أجزاء، وأرسلها إلى كل الأسباط ليعلن لهم وحشية هؤلاء الأشرار، ما أدى إلى حدوث حرب أدت إلى شبه إبادة لسبط بنيامين. فلنقرأ: "وفيما هم يطيبون قلوبهم إذا برجال المدينة، رجال بليعال، أحاطوا بالبيت قارعين الباب، وكلموا الرجل صاحب البيت الشيخ قائلين: أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه. فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم: لا يا إخوتي، لا تفعلوا شرًّا بعدما دخل هذا الرجل بيتي، لا تفعلوا هذه القباحة هوذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأذلوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم، وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح، فلم يرد الرجال أن يسمعوا له فأمسك الرجل سريته وأخرجها إليهم خارجًا فعرفوها، وتعللوا بها الليل كله إلى الصباح وعند طلوع الفجر أطلقوها" (قضاة 19 : 22-25).

ليس من الضروري الإشارة إلى أن هذه القصة هي ذاتها قصة لوط وأهل سدوم باستثناء حضور الملائكة؛ ففيهما معًا نجد رجلا غريبًا يستضيف غرباء عن أهل المدينة، ونجد أن سكان المدينة بكاملها في الحالتين يريدان (أن يعرفا رجلين) اثنين كما في قصة لوط، أو رجلا واحدا كما في قصة اللاوي وسريته، ونجد في كلتيهما العرض الشنيع ذاته بأن يعرض رجل على الجموع المهتاجة امرأتين لجميع سكان المدينة الذين حضروا جميعهم من الحدث إلى الكبير، وهو أمر لا يكاد أن يتخيل حدوثه خارج أسوار المشافي العقلية، وبين نزلائها الدائمين.

والأهم من ذلك أن كليهما يقدمان تبريرًا لاعلاقة له بالأخلاق بمعناها الصحيح؛ إذ إن المسألة كلها عند لوط: (لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي)، وعند رجل جبعة: (بعدما دخل هذا الرجل بيتي).

أما من يستبشع أن يقدم أب ابنته أو ابنتيه للغوغاء الفاسقة، لكي يحمي ضيفه النازل ببيته فليس عليه سوى أن يتذكر واحدة من أهم فضائل التفكير التاريخي: وهي حقيقة تقول إن لكل زمان مقاييسه الأخلاقية، وإن هذه المقاييس قد تبلغ من التباين والاختلاف حدًّا بعيدًا، وحتى لا يكاد يُصدق بوجودها فضلا عن أن تُستساغ وتتابع في أزمنة تاريخية أخرى.

فهناك مثلا ما لا يحصى من الشهادات على أن بعض القبائل الإفريقية، وأخرى في حوض الأمازون كانت لا تجد غضاضة بل كانت تستحسن أن يقدم الرجل زوجته أو إحدى زوجاته للضيف النازل ببيته، كي لا يقضي ضيفه ليلته وحيدًا، مسهدًا، فيما تشهر الخناجر وتراق الدماء في أماكن أخرى من العالم؛ لأن عينا قد اجترأت وتطلعت إلى امرأة رجل آخر، فهنا لابد لنا من أن نعلم بأننا نتحدث عن منظومة قيم أخرى أُسست خارج المجرى الرئيسي لثقافتنا الإنسانية، أو بالأحرى تعبر عن مرحلة موغلة في القدم من مراحل تطورنا الأخلاقي مثلما يعلمنا هذا الشارح: (وفي اهتمام الرجل الشيخ بالعرف السائد عن كرم الضيافة كان مستعدا أن يحطم قانونًا، يبدو بالنسبة إلى القارئ الحديث أكثر أهمية لأقصى درجة، وهو العناية بالضعفاء، وحماية عديمي الحيلة ---- وكانت أنوثة المرأة في العالم القديم ينظر إليها بالاستخفاف، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى تعاليم الديانة اليهودية، ويرجع الفضل في تمتع النساء بمركزهن الحالي إلى الاستنارة التي جاءت من خلال الإيمان المسيحي... لقد كان الرجل الشيخ مستعدا أن

يضحى بابنته العذراء، وبسرية اللاوي ليشبع شهوات المحاصرين الفاسدة بدلاً من تعريض ضيفه الرئيسي لأي ضرر[554]).

أما إذا وجدت سيدي القارئ أن هذا التفسير أشد مما يجب، وأكثر صراحة مما ينبغي، وأردت تفسيرًا مسيحيًّا متعاطفًا، ولايخرج في الوقت ذاته عن الحقيقة، فلن نجد لك أفضل من هذا: "كيف يستطيع أب أن يسلم بناته ليغتصبهن مثل هذا الجمع الثائر من الغوغاء الفاسدين لمجرد حماية اثنين من الغرباء؟ لعل لوطًا كان يخطط لحماية البنات والضيوف مؤملا أن أصهاره (19-14) سينقذوهن، أو أن هؤلاء الرجال الشواذ لا يبالون بالبنات وينصرفون، ومع أن العادة في تلك الأيام كانت حماية الضيوف بأي ثمن إلا أن ذلك العرض الفظيع يكشف لنا عن المدى العميق الذي امتزجت فيه الخطية بحياة لوط، فقد أصبح متحجرًا أمام الشر في مدينة شريرة. ومهما كانت دوافع لوط فإننا نرى أمامنا صورة لشر سدوم المريع، الشر العظيم الذي رأى معه أن يهلك كل المدينة[555]".

(8)
الملائكة في طريقها إلى سدوم

هذا هو المشترك الأخير في قصة إبراهيم ولوط؛ إذ بعدها ستخرج قصة لوط من ظلال سيرة إبراهيم، ولن نعود بعدها لإبراهيم، ولكن لما كان هذا المشهد، أي مشهد مرور هؤلاء الأضياف السماويين الثلاثة بإبراهيم، وهم في طريقهم لسدوم، يعد مشهدًا بالغ الأهمية؛ لأن به وفي كلتا الروايتين، قد تقرر مصير مدن لوط بعد الجدال الإبراهيمي الحاد مع الله بشأن مصيرها؛ ولأنه يحوي مشتركًا ثانيًا؛ وهو استضافة إبراهيم لهؤلاء المتنكرين الثلاثة في واحد من أكثر تجليات التجسد الإلهي فجاجة في العهد القديم، فلنقف إذن قليلا عن هاتين النقطتين ولنتساءل:

هل أكل أهل السماء الطعام؟

(وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز

---

(554)"التفسير الحديث للكتاب المقدس - العهد القديم - القضاة" أرثر كندال، ترجمة: بهيج يوسف، الطبعة الأولى، دار الثقافة بالقاهرة 1991م، ص 197.

(555)"التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، ص 50.

عبدك، ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون؛ لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا: هكذا تفعل كما تكلمت، فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة، وقال: اسرعي بثلاث كيلات دقيقًا سميذًا، اعجني واصنعي خبز ملة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصًا وجيدًا وأعطاه للغلام فاسرع ليعمله، ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم، وإذ كان هو واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا" (تك: 18-1-8).

يعلم الجميع أهمية إكرام وفادة الضيف في تقاليد الشعوب البدوية، وخاصة بدو هذه المنطقة من العالم، وها نحن مع أشهر تجليات الكرم البشري في التاريخ الديني كله، حتى لقد اعتقد النبي محمد أنها الاستضافة الحقة الأولى في تاريخ البشر! إذ عندما مر ثلاثة رجال بخيمة إبراهيم فقد أكرم الرجل وفادتهم؛ حيث ظنهم مجرد رجال عابرين، لكنه بعد ذلك اكتشف أنه في حضرة الرب ذاته، ومعه مرافقان جليلان من كبار الملائكة؛ حيث كانوا في طريقهم لجولة تفقدية لمدن الأردن، ولا يعنينا هنا سوى ما تشتمل عليه تلك الروايات الدينية المختلفة من تصوير لمراحل تطور الفكر الديني، فنجد لدينا ثلاث روايات **أولاها**: الرواية التوراتية التي لم تجد حرجًا في أن تروى ببساطة شديدة كيف رحب إبراهيم بأضيافه الثلاثة، وكيف بادر مسرعًا إلى إعداد وليمة حافلة قوامها اللحم والخبز والزبد واللبن، وكيف أكل الرجال الثلاثة وشبعوا مثلما سيحدث عندما نزولهم أضيافًا على لوط.

ثم نجد بعدها نقلة كبيرة في التلمود، تجعل من فعل أكلهم هذا توهمًا وخداعًا بصريا، ولا حقيقة له وهي بكل تأكيد خطوة طيبة على طريق التنزيه، والأكثر من ذلك أنها قطعت بأن الزائرين الثلاثة كانوا جميعهم من الملائكة، ولم يكن الرب، ومعه اثنان من كبار رجاله كما يقول النص التوراتي: "وخدم إبراهيم ضيوفه بنفسه، ورأى أن الرجال الثلاثة قد أكلوا، لكن ذلك كان مجرد خداع بصري. ففي الحقيقة لم يأكل الملائكة الثلاثة شيئًا، ولم يتمتع بالوليمة إلا إبراهيم وأصدقاؤه الثلاثة: عائر وأشكول وممرا وابنه إسماعيل، فيما التهمت نار إلهية أنصبة (اللحم) التي وضعت أمام الملائكة[556]".

"وتجلى كلام الرب لإبراهيم في سهل الروية حين كان جالسًا على باب خيمته في عز النهار وهو يستدفئ من دم الختان في حر النهار. رفع عينيه فرأى أن ثلاثة

[556]"أساطير اليهود" ج1، ص222.

ملائكة، في شبه رجال يقفون قربه. رآهم فأسرع للقائهم من باب الخيمة وسلم عليهم كعادة الأرض....... ثم أسرع إبراهيم إلى الحظيرة، فأخذ عجلا رخصًا وأعطاه لخادمه الذي أسرع وهيأه. وأخذ زبدة وحليبًا والعجل الذي هيئ ووضعها أمامهم. أما هو فوقف قربهم تحت الشجرة، وظهروا كأنهم يأكلون ويشربون(557)".

أما الرواية الثانية فهي **الرواية المسيحية**، وهي، كما في النص السابق، إن وافقت الرواية التوراتية على حدوث الأكل والشرب والاتكاء في ظلال الأشجار ريثما يُعد الغذاء، فقد حفظت نظريًّا للرب في الوقت ذاته ما يليق به من كمالات الإله، وأما السبيل إلى رفع هذا التعارض؟ فقد كان الحل بالغ البساطة والدهاء: لله أن يفعل ما يشاء! رغم أن بولس الرسول يقول في (عبرانيين 13: 2) إنهم ملائكة: "من السهل على اللامحدود أن يفعل أي شيء يريده في أي مكان أو زمان، وأن يظهر بأي صورة يريدها في أي مكان، وهذا لا يؤثر على وجوده المطلق في كل مكان... وعندما يظهر الله للبشر فإنه يظهر في صورة تتناسب مع طبيعتنا المادية، ويتعامل معنا أيضًا بما يتناسب مع طبيعتنا المادية؛ لذلك عندما ظهر الله والملائكة لإبراهيم أكلوا وشربوا، ولكن بطريقة سرية معجزية؛ فالموقف كله مليء بالمعجزات(558)" .

أما **الرواية الثالثة فهي رواية القرآن**، ونجد حسما لتلك القضية عبر التأكيد الساطع على أن أيدي الملائكة لم تقرب الطعام، ولم تمسه بل لقد استخرج النبي محمد من انقباض أيدي الملائكة عن الطعام شيئًا من محليات ثقافته العربية، وهو ملمح لا نجد مقابلا له في الرواية التوراتية، وهو أن إبراهيم قد ارتاع وتوجس خيفة؛ لأن من تقاليد العرب أنهم كانوا إذا انتووا شرًّا بأحد فلا يُطعمونه ولا يأكلون من طعامه تعظيمًا لحرمة الضيف: *وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠* (هُود: 69–70).

(557)ترجوم نيوفيتي، سفر التكوين، ترجمة الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، الطبعة الأولى 2002م، ص71، انظر أيضًا: التلمود البابلي، مجموعة من المترجمين، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، الأردن - 2011م، ج2، ص 307.

(558)"أصعب الآيات في سفرالتكوين" القس عزت شاكر، ص 277.

عن قتادة: "فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة"، وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه يحدّث نفسه بشرٍّ. حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرَهم)، قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم، ظنوا أنه لم يأت بخير، وأنه يحدّث نفسه بشرٍّ، ثم حدَّثوه عند ذلك بما جاءوا.[559]، "خاف أن يريدوا به مكروهًا لامتناعهم من طعامه، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه، وإلا خافوه [560]".

ومن البدهي أن يغيب مثل هذا الملمح عن الروايات الثلاث؛ لأنه يتأسس أولا على امتناع الضيوف الظاهر عن تناول الطعام، وثانيها : أنه ربما كان جزءًا خاصًّا من تقاليد المروءة العربية.

(9)
الملائكة تدمر سدوم وأخواتها

(وَقَالَ الرَّجُلاَنِ لِلُوطٍ: "مَنْ لَكَ أَيْضًا ههُنَا؟ أَصْهَارَكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلَّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ، لأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ، إذ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ". فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الآخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: "قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هذَا الْمَكَانِ، لأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ". فَكَانَ كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ. ولمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: "قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلَكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ". ولمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إلى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: "اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إلى وَرَائِكَ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إلى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلَكَ". فَقَالَ لَهُمَا لُوطٌ: "لاَ يَا سَيِّدُ. هُوَذَا عَبْدُكَ قَدْ وَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، وَعَظَّمْتَ لُطْفَكَ الَّذِي صَنَعْتَ إِلَيَّ بِاسْتِبْقَاءِ نَفْسِي، وَأَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَهْرُبَ إلى الْجَبَلِ لَعَلَّ الشَّرَّ يُدْرِكُنِي فَأَمُوتَ. "هُوَذَا الْمَدِينَةُ هذِهِ قَرِيبَةٌ لِلْهَرَبِ إِلَيْهَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ. أَهْرُبُ إلى هُنَاكَ. أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِيرَةً؟ فَتَحْيَا نَفْسِي". فَقَالَ لَهُ: "إِنِّي قَدْ رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هذَا الأَمْرِ أَيْضًا، أَنْ لاَ أَقْلِبَ الْمَدِينَةَ الَّتِي

[559] تفسير الطبري، ج15، ص 387.

[560] "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" لابن عجيبة، ج2، ص 542.

تَكَلَّمْتَ عَنْهَا.أَسْرِعِ اهْرُبْ إلى هُنَاكَ لأَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا حَتَّى تَجِيءَ إلى هُنَاكَ". لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُ الْمَدِينَةِ "صُوغَرَ".

وَإذ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إلى صُوغَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ. وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ. (تك 15-19-26).

من يقرأ سياق تلك الآيات التي تصف إخراج الملائكة للوط، وجرّه عنوة إلى خارج المدينة، يغلب على ظنه بأن الملكين لم يكونا يعلمان شيئًا عن تلك المفاوضات الانفرادية الشاقة التي جرت بين الله وإبراهيم، حيث قرر الله في نهايتها وبعد لأي موافقته على عدم تدمير المدينة وأخواتها، إن وجد بها عشرة أشخاص من الأبرار، لكننا نجد الملكين هنا يخبران لوطًا بكل وضوح أن الله قد أرسلهما لتدمير المدينة ومن فيها، ودعواه إلى الإسراع في إخراج أصهاره وبنيه وبناته المتزوجات وامرأته وابنتيه العازبتين، بل جميع من له في المدينة من أصدقاء وخلان، وكل هذا كان سيتجاوز بالطبع العشرة بكثير لو استجابوا جميعًا أو بعضهم لنداء لوط لهم وغادروا معه.

لكن وعلى افتراض علم الملكين بتلك الوعود الإلهية فما كان هذا ليغير شيئًا من هذا القدر اليوناني المحتوم على تلك المدن المنذورة للفناء، فلم يجد واأسفاه ملاكا الرب عشرة أبرار في جميع تلك المدن، حتى لو كانوا عشرة أبرار من مستوى ورتبة بر لوط وابنتيه التقيتين، فقررا تدمير تلك المدينة وأخواتها، فيالها من مدن ملعونة تستحق التدمير حقا!

(10)
لوط السكران يزني بابنتيه!

وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: "أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً". فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: "إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً". فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ "مُوآبَ"، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلى الْيَوْمِ. وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ "بِنْ عَمِّي"، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلى الْيَوْمِ. (تك 19-35-38).

سينهي لوط جليل مآثره في هذه الحياة الدنيا بفعلين متعاقبين، اقترف أولهما واعيًا مفيقًا، وارتكب الآخر وهو سكران لا يدري ما يفعل، فقد عَبَّ الرجل أولا من الخمر حتى فقد رشده، ولا يستطيع أحد أن يأخذ على الرجل بأن يتعزى بالخمر المباحة في هذا الموقف العصيب؛ فقد الرجل المحزون في ليلة واحدة امرأته وبناته وأصهاره وثروته وجميع من يعرف ونجا، وما كاد ينجو، من تلك التجربة المروعة التي لا تحدث في كل ألفية مرتين، ولكن ما يستحق العجب هو من أين جاء لوط بالخمر في هذا المكان الذي لا وحش فيه ولا أنيس؟!

لكن من يقرأ الوصف اللاهث والمحموم لإخراج الملكين له ولابنتيه، لعجب أشد العجب من أن يكون الرجل المذعور قد تذكر أن يأخذ معه، ولو قربة ماء قراح أو بضعة أرغفة من الخبز، لكنه يدهش بأن لوطًا قد اصطحب معه، بينما كان يجري مرتعبًا وتفوح من حوله رائحة الكبريت والنار، قربة خمر كبيرة كانت كافية لأن يسكر منها على الأقل لليلتين متعاقبتين، وضاجع فيهما مخمورًا ابنتيه العذراوين، وهما اللتان حاول أن يغوي بهما رجال مدينة كاملة، ملوحًا لهم بتلك المزية، وهي أنهما عذراوان (ولم تعرفا رجلاً)، ولكن ها هما أخيرًا تعرفان معه ودون سواه، ودون أن يدري أيضًا، تجربة الرجل الأول.

ولأننا بفضل من الله لا تنقصنا فضيلة التعاطف مع النساء، فسوف نقدم للقارئ الكريم هذا المقطع شديد العطف والرقة على هاتيك الفتاتين المسكينتين؛ لأننا نراه تفسيرًا أكثر حكمة ممن أراد أن يجعل منهما امرأتين تريدان المحافظة على الجنس البشري كله من الانقراض، رغم أن النص التوراتي يقول بذلك بوضوح كامل، بل يقترح أنهما فقط كانتا تريدان المحافظة على نسل الأسرة الخاص، ولو جاءتا به من هذا الطريق البغيض: "وفي ختام هذه المأساة الأليمة لتدمير سدوم، نجد امرأتين تضطران إلى الحفاظ على وجود نسل للأسرة، فلم يكن دافعهما الشهوة بل اليأس؛ لأنهما خشيتا ألا تتزوجا أبدًا فاستعداد لوط للتساهل ورفضه للتصرف السليم وصلا إلى الذروة، فكان يجب عليه أن يجد زوجين لابنتيه قبل ذلك بزمن، فلم تكن عائلة إبراهيم بعيدة جدا، وها البنتان تنزلقان إلى ارتكاب الفحشاء مع أبيهما مظهرتين موافقتهما على الأخلاقيات التي تعلمتاها في سدوم، وعندما نيأس من الحصول على ما نشعر بأننا يجب أن نحصل عليه نكون أكثر عرضة لأن نخطئ[561]".

(11)
موت لوط

"وبعد موت سارة بعام مات لوط، وكان عمره مائة واثنين وأربعين عامًا وتزوج ولداه (مؤاب وعمون) زوجتين كنعانيتين وأنجب مؤاب ولدًا، وأنجب عمون ستة أبناء وقد تكاثرت ذرية الاثنين كثيرًا جدا[562]".

كان زنا لوط بابنتيه هو آخر ما فعله على صفحات الكتاب المقدس، بعدها سيختفي لوط سيئ الحظ، رغم بقائه حيًّا، كما تقول المرويات التلمودية بعد تلك الحادثة لأكثر من خمسين عامًا، ربما دون أن يعلم، أنه سيترك خلفه، ومن أحشاء ابنتيه شعبين من بين ألد أعداء شعب الرب، وكذلك سيخلد التاريخ أبد الدهر مجد ابنتيه الرائعتين لما أظهرتاه من اهتمام بالغ باستمرار الحياة على سطح كوكبنا، حتى لو اضطرهما ذلك إلى معاشرة الأب العجوز المخمور، ولم يكن ذلك عمليًّا بالأمر الميسور، وهي مهارة ستنتقل إلى حفيدة إحداهما بعد قرون؛ وهي راعوث المؤابية، جدة السيد المسيح، فلهما المجد!

---

(561)"التفسير التطبيقي"، ص 51.

(562)"أساطير اليهود"، ج1، ص 264.

(12)
هل حدثت قصة لوط حقا؟

"وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى جِيلِ لُوطٍ، الَّذِينَ مَقَتَهُمْ لِكِبْرِيَائِهِمْ" (سفر يشوع بن سيراخ 16-9)

"انعكست علاقات إسرائيل ويهوذا مع جيرانهما الشرقيين أيضًا بشكل واضح في قصص الآباء. كانت علاقتهما مع مملكتي عمون ومؤاب خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في أغلب الأحيان علاقات عدائية. في الواقع لقد سيطرت إسرائيل على مؤاب في أوائل القرن التاسع ق - م؛ لذا فإن الاستخفاف والتحقير الذي نلاحظه في عرض شجرة نسب أجداد أولئك الجيران الشرقيين له مغزى كبير ومضحك بالوقت نفسه. فيخبرنا سفر التكوين (30/19-38) (يلاحظ أنه نص يهوى) بأن هذه الأمم ولدت نتيجة علاقة زنا بين المحارم؛ حيث يذكر بعد أن دمر الله مدينتي سدوم وعمورة لجأ لوط وابنتاه إلى مغارة في أحد التلال، ولمَّا لم تكن البنتان قادرتين على أن تجدا زوجًا مناسبًا في هذا المكان المنعزل، قامت كل واحدة منهما بتقديم الخمر لأبيها حتى سكر فضاجعتاه لتلدا ابنين: مؤاب وعمون. ولا شك في أن أي يهوذوي (أي فرد من أهالي يهوذا) في القرن السابع ق - م لا يمكنه عندما ينظر عبر البحر الميت إلى المملكتين المعاديتين اللتين تقعان شرقه أن يخفي اغتباطه لسماع مثل هذه القصة الفاضحة عن نسب أجدادهما [563]".

"وإن سدوم وعمورة لم يدمرها خبث بني الإنسان، بل دمرتها القوى الجيولوجية البطيئة، وأكبر الظن أن هذه القوى هي انخفاض أرضهما في البحر الميت [564]".

لا شيء يدعو من يقرأ هذه القصة السخيفة لأن يعتقد في صحتها أو على أقل تقدير في دقتها، لما حفلت به من أحداث تاريخية وكونية يصعب تصديق وقوعها على هذا النحو الذي رويت به بل يجدها قصة تحمل في داخلها كل أسباب الوضع والاختلاق.

فمن ناحية، نجدها أساسًا تؤصل لنسب تحقيري لشعبين من أشد أعداء شعب الرب وهما: المؤابيون والعمونيون، بأن تجعلهما نتاج سفاح القربى؛ أي من زنا لوط

(563)"التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها"، إسرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان، ترجمة: سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثانية 2006م، ص 70.

(564)رأى ينسبه ديورانت إلى دافنشي، انظر قصة الحضارة، ج14، ص94.

السكير بابنتيه، ولسنا بحاجة إلى بيان سخف تلك الاعتقادات التي تملأ الكتاب المقدس عن إرجاع نسب شعوب بأكملها لرجل واحد، ولكن كانت تلك الأوهام جزءًا من اعتقادات البشر جميعًا في العالم القديم، وكان كاتب سفر التكوين مولعًا بهذا الاعتقاد أشد الولع كما رأينا في فصل نوح، ونجد كذلك أن تلك القصة تحمل المعلومات الأولى المفصلة نسبيًّا عن الجيران الذين عاش إبراهيم في كنفهم، فكان من الطبيعي أن تقدم صورة سلبية عن سكان تلك المنطقة بشكل خاص.

ولا يبعد أن يكون من بين أسباب ابتكار هذا النوع من العقوبة هو أنها كانت مؤسسة على ما شاع في أزمنة التدوين من حكايات شفاهية، لا يبعد أن تكون صحيحة بهذا القدر أو ذاك، عن وجود قديم لشعوب سكنت تلك المنطقة، ولكنهم بادوا بفعل أحداث طبيعية عنيفة، وأن تلك المدن القديمة قد تعرضت لنهايات فاجعة بسبب الزلازل المدمرة، أو البراكين الثائرة، فربط كاتب السفر بين تلك النهايات الطبيعية السماعية، وتلك القصة الخرافية مستثمرًا تلك الشائعات.

(13)
لماذا تأسس تدمير تلك المدن على تلك الخطيئة دون سواها؟

"لا تضاجع ذكرًا مضاجعة امرأة إنه رجس" (لاويين 18: 22)، "إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة، فقد فعلا رجسا كلاهما، إنهما يقتلان ودمهما عليهما" (لاويين 20:13) ، "لا تكن زانية .. ولا يكن مأبون من بني إسرائيل" (تث 23:17).

أما السبب الأكثر معقولية من كل ذلك فيما نعتقد فهو أن هذه القصة ربما تكون قد اختلقت لسبب أكثر عملية، وهو التحذير واستبشاع تلك الآفة التي كانت منتشرة وقت التدوين أو قريبًا من زمنه؛ لأن من يقرأ وفرة الوصايا التي تنص على تحريم وإدانة هذا السلوك الجنسي، لعلم من وفرتها ومن شدتها كذلك أنها تنهي عن سلوك جنسي كان شائعًا إلى درجة كبيرة بين أفراد الشعب اليهودي، خاصة بعد تكوين المملكة اليهودية الموحدة، وبعد انقسامها بوقت طويل، فنجد مثلا أن (طائفة المأبونين)؛ أي المخنثين من الرجال كانت حاضرة على نطاق كبير، ما يوحي بأنهم كانوا يشكلون هاجسًا أخلاقيًّا لعامة المتدينين، فضلا عن الأنبياء المتأخرين لتلك الفترة، ورغم أن الكتاب المقدس

يخالف بين كلمة (المأبونين) وكلمة أخرى قريبة منها وهي (مضاجعو الذكور)، فإننا نظن أنه يعنى بالمأبونين (اللوطيين السلبيين)، في مقابل (مضاجعي الذكور) أي الرجال الإيجابيين، ومن يتصفح العهد القديم فسيجد حضورًا كبيرًا لطائفة المأبونين، فقد وجدوا أيام رحبعام بن سليمان حيث عُدَّ وجودهم دليلا على التحلل الأخلاقي في عهد هذا الملك (1مل 14: 24)، وكذلك نجد من بين أفعال الملك آسا (وهو ملك من ملوك يهوذا حكم من سنة 912 إلى سنة 871 ق.م.) إنه أزال المأبونين (1 ملوك 15: 12) واستمر وجودهم في عهد يهوشافاط الذي يصف سفر الملوك الأول أن من بين إنجازات هذا الملك أنه أباد المأبونين (مل 22: 46)، وأما يوشيا الملك الصالح الذي عثر في عهده في أثناء ترميم الهيكل على ما عُدَّ أساس سفر التثنية، وأصول المواد التشريعية في العقيدة اليهودية التي نصت مرارًا على تجريم هذا الفعل ذاته، فقد كان على هذا الملك أن يهدم بيوتهم التي كانت كما يقول الكتاب المقدس (عند بيت الرب)!! (2 مل 23: 7).

(14)
صورة لوط الباقية

"وما لم يكن يعلمه (إبراهيم) هو أنه حتى المؤمنين في هذه المدن الآثمة، وإن كانوا أفضل من الباقين، كانوا أبعد ما يكونون عن الهدى[565]".

من يقرأ قصة لوط في التوراة، فلن يغيب عنه ما أراده له كاتب قصته أو راسم لوحته من قسمات دميمة وقبيحة؛ حيث بدا الرجل فيها طامعًا شرهًا كما يتضح من اختياره لأراضي رعيه، مشئومًا سيئ الطالع، كما يظهر من أسره وإهانته، قليل النخوة وقاسيًا كما يتضح من عرضه الحقير لابنتيه، مزعجًا تافهًا، كما يتجلى من جدله السخيف مع الملكين في أثناء هربه، ملعونًا وجالبًا للعنة بسبب سكره وزناه بابنتيه!

وكما كان لوط في حياته قريبًا بغيضًا لا يجلب لقرابته إلا المشكلات والأكدار، فسيصير ابناه النغلان كذلك من بعده غُصة في حلق شعب الرب، وفي المقابل فكما كان إبراهيم كريمًا حليمًا عطوفًا على لوط المسكين، فسيكون على موسى أن ينهض بوحي

(565)"الأساطير"، ج1، ص229.

من الله طبعًا! بدور إبراهيم في رعاية هؤلاء الأقرباء الثقلاء؛ فنراه يوصى شعب إسرائيل بعدم ضم أراضيهما رغم سوء فعالهما، وشدة عداوتهما. (فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لاَ تُعَادِ مُوآبَ وَلاَ تُثِرْ عَلَيْهِمْ حَرْبًا، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِهِمْ مِيرَاثًا، لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُ "عَارَ" مِيرَاثا) (سفر التثنية 2: 9)، (فَمَتَى قَرُبْتَ إلى تُجَاهِ بَنِي عَمُّونَ، لاَ تُعَادِهِمْ وَلاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ مِيرَاثًا، لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُهَا مِيرَاثًا) (سفر التثنية 2-19).

ولكن لكل شيء نهاية حتى حلم الرب على هذين الشعبين اللعينين، فقد سدرا في غيهما حتى نفد صبر الرب فغير رأيه، وعاد فأورثهما لشعبه، وبذلك محيت صفحتهما من الوجود!

(قَدْ سَمِعْتُ تَعْيِيرَ مُوآبَ وَتَجَادِيفَ بَنِي عَمُّونَ الَّتِي بِهَا عَيَّرُوا شَعْبِي، وَتَعَظَّمُوا عَلَى تُخُمِهِمْ، فَلِذلِكَ حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ، إِنَّ مُوآبَ تَكُونُ كَسَدُومَ وَبَنِي عَمُّونَ كَعَمُورَةَ، مِلْكَ الْقَرِيصِ، وَحُفْرَةَ مِلْحٍ، وَخَرَابًا إلى الأَبَدِ. تَنْهَبُهُمْ بَقِيَّةُ شَعْبِي، وَبَقِيَّةُ أُمَّتِي تَمْتَلِكُهُمْ هذَا لَهُمْ عِوَضُ تَكَبُّرِهِمْ، لأَنَّهُمْ عَيَّرُوا وَتَعَظَّمُوا عَلَى شَعْبِ رَبِّ الْجُنُودِ) (سفر صفنيا 2-9).

لوط في العهد الجديد

(وَإِذ رَمَّدَ مَدِينَتَيْ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، حَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالانْقِلاَبِ، وَاضِعًا عِبْرَةً لِلْعَتِيدِينَ أَنْ يَفْجُرُوا، وَأَنْقَذَ لُوطًا الْبَارَّ، مَغْلُوبًا مِنْ سِيرَةِ الأَرْدِيَاءِ فِي الدَّعَارَةِ.إذ كَانَ الْبَارُّ، بِالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، يُعَذِّبُ يَوْمًا فَيَوْمًا نَفْسَهُ الْبَارَّةَ بِالأَفْعَالِ الأَثِيمَةِ) (2 بطرس 1: 6-8).

ولكن إذا كانت قد اختفت تركة لوط المادية بضياع نسله، وتبدد نسل بنيه إلى الأبد، فما زال الرجل رغم ذلك خالدًا بحضوره داخل متن مقدس، حتى إن بدت صورته فيه على ذلك النحو القاتم المقيت الذي رأيناه.

ولكن صورة لوط التوراتي قد تلقت تحسنًا ملحوظًا مع ظهور المسيحية، وما شاع في أدبياتها الدينية الباكرة من تمجيد لرجال العهد القديم، وحسن الظن بهم، فصار لوط مثلا عند القديس بطرس (رجلاً بارًّا) كانت تتعذب نفسه التقية كل يوم من شيوع الفاحشة التي أوقعه فيها سوء اختياره، فهو إن كان قد استخفه الطمع الدنيوي واختار جوار

الآثمين الخاطئين، وهو ما يستحق الملامة عليه، لكنه كان في النهاية رجلا تقيًّا ينطوي على ذات تحب الله بجماع قلبها، وتكره الإثم والآثمين (2 بطرس: 2-7).

"ومع هذا الشر العظيم الذي كان ساكنًا في وسطهم لم يتغير هو عن صلاحه، ولم ينقص من فضيلته حتى لا يحتج محتج بسكناه مع قوم شريرين ويقول: إن سكنه معهم أفسده فليس الأمر كذلك، بل رخاوته وقلة تحرزه هي أفسدته، بل وقد كان لوط مع سلامته من فسادهم يعظهم وينهاهم عن ذلك الفساد حسب الإمكان[566]".

وهي كما ترى نقلة بعيدة ما كان الرجل ذاته ليصدق أن يقال عن سلوكه مثل هذا التأويل المتعاطف إلى حد التدليل.

لوط في الإسلام

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ (الأَنبِيَاء: 74–75).

ورغم تلك الدفعة الإيجابية لصورة لوط ومكانته في التاريخ الديني، فإن الأفضل لم يكن قد أتى بعد؛ إذ بعد ستة قرون من تلك الدفعة السخية جاء الإسلام، وبلغت صورة لوط الذروة التي لا ارتقاء بعدها لمرتقى، عندما ضمه النبي محمد إلى صفوف الأنبياء وأعطاه دورهم ومكانتهم، ومحا بجميل حسن ظنه جميع ما قد يعلق بعقل قارئ سيرته في الكتاب المقدس، فلم يجد النبي محمد في كل سيرة لوط ما يستحق الملام، ما عدا أنه في لحظة كربه غفل لبرهة، نعم مجرد برهة عن حضور الله وقدرته التي لا حد لها، والتمس قوة أبناء الفناء لنصرته فاستحق منه هذا العتاب بالغ الرقة والتهذيب: "رحم الله لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله بعده نبيا إلا وهو في ثروة من قومه[567]". فياله من رجل مجدود، محظوظ!

[566]"تفسير لسفر التكوين" منسوب إلى القديس إفرام السرياني، قدم له ونشره الأب يوحنا ثابت، منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس، 1982م، ص 135.

[567]أخرجه الترمذي برقم 3116، وانظر الأحاديث الصحيحة رقم 139.

المبحث الثاني
لوط القرآني

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ (الحج: 42–44).

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ (ص: 12–15).

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ (ق: 12–14).

(1)
من هم قوم لوط؟

قبل أن نتكلم عن لوط القرآني، فلننقل كلمة مختصرة عن قومه في حدود ما أورده عنهم القرآن الكريم، وما شاع بين المسلمين الأولين من أخبار عن أهل تلك المدن الهالكة.

أما عن موضع قوم لوط فقد أخبرنا القرآن مرارًا بمكانهم، ودونما تحديد دقيق لموضعهم، وذلك في سياق خطاب القرآن لقريش، محذرًا لهم من مصير هؤلاء الذين يعرفون قصتهم، ويمرون على مواضعهم بالليل والنهار كما في هذين المثالين، وسواهما كثير: *وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا

يَرۡجُونَ نُشُورٗا ۝٤٠* (الفُرْقان: 40)، *إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٣٥* (العَنكَبُوت: 34–35).

حاول الجغرافيون المسلمون أن يخبرونا بشيء عن تلك المنطقة وأهلها، فلم يجدوا الشيء الكثير ليقولوه عنها، سوى ما تناثر إلى مسامعهم من الحكايات التي تعتمد في أساسها البعيد على الأساطير اليهودية، ومن ذلك ما أورده هذا الجغرافي الشهير عن سدوم وأهلها، فيقول عن المدينة: (سَدُومُ: فعول من السّدم، وهو الندم مع غمٍّ، قال أبو منصور: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم، وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمفسد: إنّما هو سذوم، بالذال المعجمة، قال: والدال خطأ، قال الأزهري: وهو الصحيح وهو أعجميٌّ، وقال الشاعر:

كذلك قوم لوط حين أضحوا *** كعصف في سدومهم رميم

وهذا يدلُّ على أنه اسم البلد لا اسم القاضي، إلا أن قاضيها يضرب به المثل فيقال: أجور من قاضي سدوم. وذكر الميداني في كتاب الأمثال أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم، وكان من جوره أنه حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحد أخذ منه أربعة دراهم[568])، ونراه يقول أيضًا عن أصل تسمية مدينة عمان: (إن عمان هي مدينة دقيانوس، وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد، والله أعلم، وقد قيل غير ذلك، وذكر عن بعض اليهود أنه قرأ في بعض كتب الله: أن لوطًا، عليه السلام، لما خرج بأهله من سدوم هاربًا من قومه التفتت امرأته فصارت صبار ملح، وصار إلى زغر ولم ينج غيره، وأخيه وابنتيه، وتوهم بنتاه أن الله قد أهلك عالمه فتشاورتا بأن تقيما نسلا من أبيهما وعمهما فأسقتاهما نبيذًا وضاجعت كل واحدة منهما واحدًا فحبلتا، ولم يعلم الرجلان بشيء من ذلك، وولدت الواحدة ابنًا فسمته عمّان أي أنه من عم، وولدت الأخرى ولدا فسمته مآب أي أنه من أب، فلما كبرا وصارا رجلين بنى كل واحد منهما مدينة بالشام وسماها باسمه، وهما متقاربتان في برية الشام، وهذا كما تراه ونقلته كما وجدته، والله أعلم بحقه من باطله[569]).

[568]"معجم البلدان" لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 1995 م، ج3، ص200.

[569]المرجع السابق 4، ص 151.

وقد أوردنا نص ياقوت على طوله لنبين ما جاء فيه من تأثير المرويات التلمودية عن جور قضاتها، وأيضًا وهو الأهم لما يتضمنه من حكاية لم نجد شبيهًا لها فيما قرأناه من القصص التلمودية؛ أي من وجود أخ للوط، كان من بين الناجين، وأنه قد شارك أخاه في إنسال إحدى ابنتي أخيه، ما يوحي بوجود مرويات تلمودية متعددة لتلك القصة، وكانت شائعة في تلك الفترة، ولا نجد لها الآن أثرًا.

أهل تلك البلاد

لا نعلم من القرآن شيئًا ذا بال عن ذلك المجتمع، فلا نعرف شيئًا عن تجارته أو زراعته، وهل كانوا في نعمة ورفاه مثل ما حكاه القرآن عن قوم عاد وثمود، أم كانوا في ضيق وشدة، وإن رجح لدينا اعتقاد النبي في أن كل الأمم المكذبة جميعًا كانت في يسر ونعمة، بل لا نكاد نعرف لهم أي آفات أخلاقية أخرى سوى تلك الآفات الجنسية من معاشرة الذكور واقتراف المنكرات في الأندية، كما أننا لا نعلم شيئًا مؤكدًا عن معنى (قطع السبيل) وما دلالته؟ وهل كان يعنى التربص بالرجال العابرين، أم قطع السبيل للسرقة، أم هما معًا؛ إذ بين هذين المعنيين دار المفسرون القدماء والمحدثون مثلما يقول هذا الباحث: "ولا نعرف من أين جاء هؤلاء القوم، ولا ما اسمهم ولا أصلهم، ولا أسماء القرى التي سكنوها، ولا المنطقة التي كانوا فيها... كل ما نعرفه من خلال أحاديث القرآن عن هؤلاء القوم أنهم كانوا يرتكبون فواحش كثيرة من أسوئها وأقبحها فاحشة إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ولم تكن هذه الفاحشة موجودة فيمن كانوا قبلهم[570]".

ظل المسلمون عبر القرون التالية لا يعرفون شيئًا عن تلك المدن وأهلها إلا من خلال ما سمعوه من أهل الكتاب، وما جادت به خيالاتهم فجعلوا من سدوم هي المدينة الرئيس، وأما المدن الأربعة الأخرى فقد جعلوها كقرى لاحقة بها، وأما عن عدد سكانها فلم يكن في تصورهم بالقليل كما نقرأ عند هذا المؤرخ: "فَلَمَّا كَانَ الصُّبْح قلبت الْمَلَائِكَة سدوم وَقرأَهَا الْخمس بِمن فِيهَا وَكَانَ فِيهَا أَرْبَعمِائَة ألف وَقيل أَرْبَعَة آلَاف ألف فَرفعُوا الْمَدَائِن كلهَا حَتَّى سمع أهل السَّمَاء[571]...".

---

[570]الخالدي، ج1، ص 478.

[571]"الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ج1، ص71.

على الإجمال فكما علمنا كيف كانت صورة قوم لوط في التوراة وفي المرويات التلمودية بشعة قبيحة، فقد سرت تلك الصورة القبيحة البشعة عن قوم لوط من اليهود إلى المسلمين، فصارت إلى أقبح وأبشع، فحملوا عليهم من الأوزار ما فعلوا وما لم يفعلوا مثلما يعبر عنه هذا الأثر المنسوب إلى الصحابي ابن عباس: "وروي عن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضًا، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنرد والشطرنج، ويلبسون المصبغات. ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويطرّفون أصابعهم بالحنّاء، وتتشبه الرجال بلباس النساء، والنساء بلباس الرجال، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسّحاق[572]"، "فَأَرْسلهُ الله إلى أهل سدوم الْقَرْيَة الَّتِي قيل فِيهَا أجور من قَاضِي سدوم، وَكَانُوا أهل كفر وفاحشة فَقَالَ لَهُم لوط: أتقطعون السَّبِيل وتأتون فِي ناديكم الْمُنكر وَكَانَ قطعهم السَّبِيل إِتْيَان الْفَاحِشَة بِمن ورد عَلَيْهِم إذا مر عَلَيْهِم الْمَار أمسكوه وفعلوا بِهِ اللواط وَفِي ناديهم الْمُنكر نِكَاح بَعضهم بَعْضًا وَعَن عَائِشَة كَانُوا يتحابقون فِي الْمجَالِس وَعَن ابْن عَبَّاس الْمُنكر هُوَ الْحَذف بالعصى وَالرَّمْي بالبنادق والفرقعة[573]".

(2)
لوط في القرآن الكريم

جاء ذكر لوط كما رأينا في إشارات خاطفة في أوائل السور المكية لتخويف قريش ومن حولها بما حل بقوم لوط من الدمار، شأنهم في ذلك شأن بقية الأمم الأخرى المكذبة الهالكة، ثم جاء ذكر لوط مفصلا في عدة سور قرآنية، وسنختار من بينها أوفاها وأشملها؛ إذ جاءت قصة لوط وما جرى بينه وبين من عدَّهم القرآن (قومه) في سور كثيرة سنكتفي ببعض منها؛ لأنها في جوهرها قصة واحدة، ويمكن لأي من السور التي أوردتها أن تستوفيها، ولا تكاد تضيف إليها السور الأخرى إلا ملامح، وتفاصيل قليلة للغاية.

---

(572)نقلا عن: "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية 1418 هـ، ج 20، ص 231.

(573)"سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي" عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 م، ج1، ص 182.

هذه المقاطع كلها لا تخرج كما قلنا عن مشهدين أساسيين متداخلين يصف أولهما: حجاج لوط وجداله مع قومه، وجهاده الدءوب في التنفير وتبشيع تلك الآفة الأخلاقية الفاشية في قومه وجواب قومه عليه، وهو ما تعبر عنه سورتا الشعراء والعنكبوت، ومنهما أساسًا سنخرج بمفردات العقيدة الدينية عند لوط، وأما السور الأخرى فهي تركز أساسًا على وصف حضور ملائكة العذاب متجسدين في هيئة رجال من البشر، واستضافة لوط لهم، ووصف مراودة أهل المدينة، ودفاع لوط عنهم، ثم ما كان من إيقاع العذاب بهؤلاء الفاسقين وإنجاء الله للوط ومن آمن معه من أهل بيته، وهو ما ركزت عليه سورتا هود والحجر، ومنهما سنعرف كيف صيغت تلك القصة ولماذا؟ ولنبدأ بسورة العنكبوت.

(3)
لوط في سورة العنكبوت

* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى
ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ
إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ
لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ

أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾* (العَنكَبُوت: 26–35).

يعلن القرآن في هذه السورة لوطًا نبيًّا متابعًا لإبراهيم في هجرته إلى الله، وكذلك في أركان عقيدته مما يفسر لنا ضمنيًّا غياب بعض الملامح الأساسية التي خلت منها دعوة لوط من الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ومن تأكيد عقيدة البعث والنشور، والتبشير بالجنة والتحذير والنار، وهو أمر لا يكاد يكون له نظير في قصص الأنبياء الأساسيين الذين حكى القرآن لنا شيئًا من أخبارهم، ولكن ما من مشكلة في ذلك، فلنا أن نجزم مطمئنين بأن جميع أركان دعوة إبراهيم وعقيدته، كانت هي ذاتها أركان دعوة لوط ورسالته، ولعل السبب في ذلك هو أن القرآن يجعل من قوام دعوة لوط ورسالته هي النهي عن تلك الشرور التي شاعت في قومه، سواء ما كان منها شائع في أقوام أخرى من قطع السبيل، أو ما ابتكره قومه مثل تلك الفاحشة التي عدَّ القرآن قوم لوط هم أول من ابتدعها من العالمين.

في البدء، نجد لوطًا يحذر قومه من مغبة إسرافهم على أنفسهم في اتباع الشهوات الجسدية حتى إنهم قد ابتكروا تلك الفاحشة التي لم يعرفها العالم من قبلهم، ونجد جواب قومه له الذي نفهم منه أن لوطًا كان قد حذرهم مرارًا قبل ذلك من عذاب الله، ولكنهم كانوا لا يصدقون لوطًا، بل يشاركون جميع الأمم الهالكة السابقة من استعجال العذاب وتكذيب من أرسله الله إليهم.

ثم تحكى الآيات شبيه ما أوردته التوراة من إرسال الله ملائكة لينفذوا القدر الإلهي المحتوم بتلك القرى الفاسقة، ومرورهم قبل ذلك بإبراهيم لتبشيره بالولد المنتظر، وإعلانه بما قرره الله من تدمير قوم لوط، وتحكي لنا الآيات في لمحة خاطفة جدل إبراهيم مع الملائكة، لتنتقل بعدها الآيات لتصف لنا دخول الملائكة مدينة لوط، وما كان من ضيق لوط وحيرته بين الحفاظ على كرامة أضيافه، وضعفه أمامهم، ما ستجليه بشكل أوضح سورة هود، ثم تصف لنا الآيات إهلاك الله لأهل تلك القرى، وإنجاء الله لوطًا وأهله، عدا امرأته التي حاق بها ما حاق بقومه، وتشير الآيات في ختام القصة ما جاءت من أجله؛ أي من الإنذار والوعيد لأهل مكة بأن تعلن أن موضع تلك القرى الهالكة ظلت باقية كعلامة وبينة لمن يريد الاتعاظ والاعتبار.

(4)
لوط في سورة الشعراء

*كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ
بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم
مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي
ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٤* (الشُّعَرَاء: 160–174).

لا تضيف سورة الشعراء سوى بعض الملامح منها: تأكيد رسالة لوط التي هي في جوهرها مثل رسالة جميع من سبقه ومن لحقه من الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسها دعوة أقوامهم إلى تقوى الله وطاعته، عبر الإصغاء إلى تعاليم نبيه الذي أرسله إليهم، وتأكيد أنه لا يبغي على دعوته أجرًا، وإنما يلتمس لوط الجزاء من الله رب العالمين. وتنص الآيات على أن قومه قد كذبوه فيما دعاهم إليهم من جميع مفردات تلك الدعوة الإلهية، وتضيف أيضًا ضجرهم من نهى لوط لهم وتوعدهم له بالإخراج من المدينة إن لم يصمت عن زجرهم ويكف عن توبيخهم، وهذا ما سيفعله له الله على كل حال قبل إهلاكهم وتدميرهم، ثم تنتهي الآيات كذلك بالغرض الأصلي للقصة كلها، وهو تحذير قريش من عذاب الله وتخويفهم من مصير المعاندين المكذبين.

(5)
مفردات العقيدة الدينية عند النبي لوط

في مقابل صورة لوط التوراتي، التي بدت كما رأينا مزرية ومثيرة للرثاء، فإننا سنجد أن القرآن الكريم قد جعل من لوط نبيًّا ورسولا من الله إلى الناس، ومنحه جميع ما ينبغي للأنبياء والمرسلين من قدر ومن كرامة فهو (رسول أمين) (الشعراء 162) وقد آتاه الله حكما وعلما، وممن أدخله الله في رحمته، وأنه من الصالحين (الأنبياء 74-75)، ولقد دعا لوط قومه مثل جميع الأنبياء إلى تقوى الله (الحجر69)، وأعلنهم أنه لا يبتغي على دعوته أجرا إلا من الله (الشعراء 164)، وحذرهم من عقاب الله إن لم يرعووا، ويكفوا عن تلك الموبقات (القمر 36) وهو كالعادة ينطلق مثل جميع الأنبياء السابقين واللاحقين من ذلك التصور الجليل عن الله، وهو أنه رب العالمين (الشعراء 164).

ولا علينا إذن، إن اعتقدنا جازمين، بأن مفردات عقيدة لوط الدينية لابد من أنها قد اشتملت على جميع مفردات العقيدة الأزلية من توحيد، وبعث، وقيامة، وثواب، وعقاب، وجنة، ونار، وملائكة، وجن، حتى لو لم يصرح لنا القرآن بشيء من هذا؛ وإلا فبم أرسله الله؟

فقد كان لوط مؤمنًا متابعًا لعقيدة عمه إبراهيم التي اشتملت على كل هذا، وأما هو فقد استغرق كفاح تلك الآفة التي شاعت في قومه جميع جهده، حتى بدا لنا على صفحات القرآن كمناهض متحمس للمثلية الجنسية، أكثر منه نبيًّا بعث برسالة شاملة من الله إلى الناس، ولكن هذا لا يعني أنه لم يبشر بجميع أركان العقيدة الإلهية كما بشر بها جميع الأنبياء، ومن البدهي أن قوم لوط لم يكونوا مجرد مؤمنين فاسقين وجاء لوط لمحاربة تلك الآفة عندهم، بل كانوا كسواهم من الأمم الكافرة في الإشراك بالله وإنكار البعث والنشور، ولكنهم زادوا على هؤلاء بتلك الفاحشة.

(6)
لوط في سورة هود

*وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ
يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣* (هُود: 77–83).

تمتاز سورة هود بأنها تدخل مباشرة لوصف إرسال الله ملائكته لإنزال العذاب بقوم لوط، فهنا نجد لوطًا يضيق باستضافة هؤلاء الرجال الغرباء؛ لما يعلمه من تولع قومه بالرجال واشتهائهم، ولم يتأخر قوم لوط عن تأكيد مخاوفه كلها، فقد جاءوا مسرعين ليطلبوا منه أن يخرج إليهم أضيافه ليفعلوا بهم تلك الفاحشة المنكرة، وهنا يقدم لوط القرآني، مثل نظيره التوراتي عرضًا إجراميًّا بشعًا، ولكن سرعان ما سيرفضه أهل المدينة الملتاثون، فما كان من لوط إلا أن أعلن تحسره وتأففه من عجزه وهوانه عن حماية من دخلوا تحت سقف بيته، وهنا يكشف الأضياف للوط عن أنفسهم، ويخبرونه بأنهم ليسوا بشرًا، بل هم ملائكة الله، وقد جاءوا ليوقعوا بقومه شديد العذاب الذي كثيرا ما أنذرهم به ولم يصدقوه، ودعوه إلى السكينة، وأن لا يُراع، وأن ينسل بأهله ليلا دون أن يلتفت خلفه هو ومن معه؛ لأن موعد العذاب سيأتي مع بزوغ شمس النهار القريب، مع التفاتة ختامية لأهل مكة تحذرهم من مصير مشابه لهؤلاء الكافرين الغابرين.

(7)
لوط في سورة الحجر

*فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ

مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾* (الحِجْر: 61–79).

أما آيات هذه السورة فهي تقص علينا ما أوردته سورة هود ذاته من مضمون، ولكنها تختلف في عنها فقط في ترتيب الأحداث؛ إذ نراها تقدم ومن أول لحظة الملائكة، وهم يعلنون أنفسهم للوط ويخبرونه بأنهم رسل ربه، ويعلنونه بما أرسلوا به من إيقاع العذاب بقومه، ثم بعد ذلك تحكي لنا الآيات عن حضور قومه الغافلين عن كل هذا، ثم نجد لوطًا يستعطفهم ألا يفضحوه في أضيافه، وأن يتقوا الله، ثم يقدم، ويا للعجب، لقومه العرض نفسه من رغبته افتداء أضيافه ببناته، كما لو أنه يسمع شيئًا من الملائكة، ثم تعلق الآيات عما حدث لهم من حصول العذاب. ومن يقرأ بقية السور التي أوردت قصة لوط في القرآن الكريم فلن يجد في واحدة منها تكرارًا لأي من هذين الترتيبين المتخالفين، بل يجد دائمًا سوقًا للقصة دونما إشارة إلى تقديم كشف الملائكة أنفسها للوط، كما في سورة الحجر، أو تأخيره كما في سورة هود، وهذا الإغفال لبيان تلك النقطة هو ما فعلته سورة الشعراء *كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾

إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾* (الشُّعَرَاء: 160–175)، وسورة النمل *وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾* (النَّمل: 54–58)، وسورة العنكبوت *وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾*(العَنكَبُوت: 28–35)، وسورة القمر *كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ

رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾* (القَمَر: 33–38).

وقد لاحظ هذا الاختلاف من قبل في ترتيب القصتين باحث رائد، وهو المرحوم محمد خلف الله أحمد فيقول معلقًا على ذلك: "ويشعرنا هذا الصنيع بأن تسلسل هذه الأحداث لا يقوم على الترتيب الزمني، ولا على أساس من التسلسل المنطقي الذي كان من الممكن أن يكون ذلك؛ لأن العقل يجيز أن لوطًا وقد عرف أن ضيفه هم رسل ربه، وأنهم من الملائكة لا يخشى شيئًا، ولا يخاف عليهم من قومه، ومن هنا لا يعرض بناته لأذى أو مكروه، لكن القرآن خالف بين القصتين، وجرى على نهجين مختلفين في البناء والتركيب(574)".

وهذا الذي قاله الأستاذ خلف الله لا غبار عليه، لكن الأستاذ المرحوم خلف الله كان يُجري في تفسير هذا الاختلاف على نهجه، ووفق نظريته الزاعمة بأن القصة في القرآن الكريم إنما هي قصة فنية ولا علاقة لها بالتاريخ الواقعي للأحداث، وأن المقصود منها هو العظة والاعتبار، وأن القرآن قد أوقع ذلك الاختلاف في الترتيب: ليشعرنا بأن هذه قصة مستقلة، وتلك قصة مستقلة، وأن ترتيبه للأحداث يختلف باختلاف المقاصد حتى لو أدى هذا الاختلاف إلى إهمال أهم مقومات التاريخ، وهو الزمان. واستطرد: أن المراد من القصة في سورة هود هو تثبيت قلب النبي محمد عليه السلام؛ لذا عنى بما ينال لوطًا من أذى.. أما المقصد من قصة لوط في الحجر، فقد كان بيان ما ينزل بالمكذبين من أذى، ومن هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها، وتخبر لوطًا بما سيحل بالقوم من مصائب وما سينزل عليهم من عذاب، وهو إشارة إلى حماية الله للنبي وطلبه منه أن يعرض عن المشركين، وأنه سيكفيه هؤلاء، وأنهم سيعلمون عاقبة هذا الموقف ومغبة هذا الأمر(575)".

وهذا المخرج الطريف الذي جاء به الأستاذ خلف الله لهو مخرج جدير بالاهتمام حقا؛ إذ ليس من حل أبدع منه للتوفيق بين الاعتقاد الشائع في القرآن الكريم كوحي حرفي من الله، وما يستلزمه ذلك من غياب كل اضطراب للنص يوحي بأي مظهر من

(574)"الفن القصصي في القرآن الكريم"، ص 107.

(575)"الفن القصصي في القرآن الكريم"، ص 156، وما بعدها.

مظاهر حضور العوارض البشرية كالسهو والنسيان، فهذه الحلول وأشباهها إنما تكتسب أهميتها من تلك الزاوية الدفاعية، التي يحتاج إليها كل مؤمن يريد أن يجمع بين تصوره عن الوحي الإلهي المباشر لنصه المقدس، وإراحة عقله الذي يجد بين ثنايا تلك النصوص ما يزعجه، وسوف نناقش لاحقًا هذه الطريقة في تفسير القصص القرآني في ملحق خاص بهذا الكتاب، ولكن ما يجب علينا تأكيده هنا هو أن هذا الضرب من التفسيرات الاعتذارية الملتوية قد آن لها أن ترحل بسلام، لتخلى مكانها للتفسيرات المنطقية المباشرة ؛ لذا فمن يقرأ هاتين الروايتين القرآنيتين عن القصة ذاتها فله أن يتساءل في البداية: هل يمكن التوفيق بين هذين الترتيبين؟ الإجابة الواضحة: كلا.

لا ندري إذن لماذا كل تلك الفروض والتأويلات التي ما هي في النهاية إلا محاولة لتربيع الدائرة؛ أي محاولة لجعل غير المعقول معقولا، أو لنقلها ببساطة تامة لجعل الخطأ الطبيعي شيئًا مبررًا مقصودًا، ولم نجد سببًا واحدًا يجعل من حدوث السهو في القرآن الكريم شيئًا مستغربًا أو مستحيلا ما دمنا نصدر من تصور يرى بوضوح أن القرآن الكريم ما هو في النهاية سوى مجهود بشري يتحرك في فضاء خطة الله وتقديره، ولا نشك في أن النبي ما كان ليلتفت إلى شيء من تلك الفروق لو حدث أن نُبه إليها من قِبل أصحابه، وما كان ليرى في تلك الملاحظة سوى مسألة شكلية لا تعني شيئًا؛ لانشغال باطنه بالمغزى الأساسي من خلف القصة.

ونظن بأن الإيقاع اللاهث والسريع والمختصر لتلك القصة كان أيضًا من خلف عدم الاهتمام بهذا الترتيب، خاصة إذا ما تذكرنا أن تلك القصة ومعها جميع قصص القرآن إنما كانت تعبيرًا عن انفعال نفسي، وليس قصًّا واعيًا، بل كان الانشغال الباطني ينصب أساسًا للتعبيرعن مجيء الملائكة وإيقاع العذاب بالكافرين الفاسقين، وهو ما يعيدنا ثانية إلى أن الغرض البعيد لقصص القرآن الكريم كان حقا للعظة والاعتبار، ولكن هذا لا يعني أبدًا أن النبي لم يكن ينظر إلى تلك القصص كتاريخ حقيقي وقع حقا وصدقا على هذه الأرض، وعلى النحو الذي قصَّه علينا القرآن الكريم.

(8)
هذه القصة وضرورتها في القرآن الكريم

قد يعجب بعضنا عندما يقرأ قصة لوط مع قومه مرارًا في القرآن الكريم خاصة عندما يراها تتكرر هي بذاتها عبر القرآن كله ودون أدنى تغير، ويجد تلك القصة لا تخرج عن ملمحين أولهما هو استنكار الرجل الطهور لارتكاب قومه مجاهرين تلك الرذيلة وجواب قومه بالاستخفاف بوعيده واستعجاله العذاب. والملمح الآخر: قص ما جرى للوط عندما جاءته ملائكة العذاب متخذين هيئة رجال عابرين، ثم ما كان من تدمير الله لتلك القرى وإنجاء بيت لوط عدا امرأته التي قاسمت الهالكين مصيرهم.

وعدا تلك القصة بملمحيها فلن يجد القارئ أي حضور لمفردات الدعوة الدينية على خلاف ما وجدناه عند نوح وهود وصالح ويوسف، وكذا ما سنجده عند إبراهيم وموسى والمسيح وغيرهم.

ولا نعرف سببًا لكل هذا الحضور المستفيض للوط وقومه في القرآن رغم غياب أي ضرورة مباشرة لمقتضيات الدعوة الخاصة إلا لأن قومه كانوا من بين الأمم التي أهلكها الله واستأصل شأفتها، وهي نهاية كان النبي محمد يتوقعها لقومه إن استمروا في جحودهم وتكذيبه بما جاءهم به من الدين.

والعلة الأخرى، وهي مرتبطة بالأولى، وهي أن العرب لم يكونوا يعرفون قصتهم فحسب، مما أذاعه فيهم أهل الكتاب من قصص أنبيائهم، بل كان تجار العرب من قريش وغيرها يعرفون موطنهم كذلك، ويمرون عليه مصبحين وممسين في رحلتهم إلى الشام كل صيف كما يقول القرآن، وهذان السببان هما المشترك الجامع بين كل الأنبياء الأولين الذين ذكروا في القرآن المكي الباكر؛ حيث نجد أول ما نجد أخبار نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع المصريين وأهل الرس وقوم تُبّع، وأما ما سوى هؤلاء الأنبياء مثل: إبراهيم وداود وسليمان وأيوب ويوسف وإسماعيل والمسيح، فهم لا يحضرون إلا لمناسبات محددة يستلزمها سياق الدعوة، وعندما سيتراجع ظن النبي في هلاك قومه بسبب مظاهر النجاح الذي سيصيبه ومضى دعوته في طريقها الظافر، فسوف يختفي ذكر هؤلاء الأقوام المُدمرين وأخبار أنبيائهم، ويحل محلهم أخبار الأنبياء ذوى التشريع، الذين سيستلهم النبي من قصصهم وما جرى لهم مع أقوامهم هذه المرة ما ينفع دعوته ويفيد رسالته.

لذا، فلا غرابة أن نجد لوطًا هو أقل أنبياء القرآن ترجيعًا لصدى الصوت المحمدي الشريف، قياسًا بحضوره الكبير في القرآن، بسبب محدودية الإطار الذي حُبس صوته

فيه، ولم يغادره إلى غيره من معالم الرؤية الدينية التي تجلي الذات وتعكس تصورها الديني بشكل واضح مثل: قضية التوحيد والجدل في طبيعة الله وصفاته وعلاقته بالخلق.. إلخ، ولكننا نجد على كل حال انعكاسًا لبعض خلائق النبي محمد العامة مثل الدعوة إلى الإصغاء لصوت فطرة الله القارة في قلوب الخلائق، والتنفير من الخبائث، وتظهر أيضًا ملمحًا واضحًا من روح الاحتشام المتأدب كما يتجلى في السياقات الأدائية المهذبة لإعادة صياغته اللاشعورية لتلك القصة القديمة الفاحشة.

وقد كان من بين مقاصد تخصيص هذا الفصل القصير لقصة النبي لوط في القرآن الكريم أن نحاول أن نعرف دلالة حضور لوط الكبير في القرآن قياسًا بأنبياء آخرين كنا نتوقع أن يكون لهم حضور في القرآن أعظم من لوط مثل أبي العرب إسماعيل لأهميته لنبي عربي بعث برسالته إلى العرب، أو نبي عبراني تمتلئ سيرته بالعجائب والغرائب مثل إيليا، أو نبيين تمتلئ سيرة حياتهما بالمغزى والتأملات مثل أيوب ويونس، ولكن لأننا نعتقد أن هناك أمورا أخرى لا تقل أهمية أحيانًا عن قضية التوظيف المباشر على أهميتها مثل مدى معرفة النبي محمد قلة أو كثرة بأخبار هذا النبي أو ذاك من أنبياء الكتاب المقدس، وخاصة إذا ما تذكرنا أن معارف النبي كانت كما هو معلوم معارف سماعية، تتفاوت فيما بينها تفاوتًا شديدًا في غزارتها أو نزارتها، ولم تكن نتاج دراسة منظمة، بل كانت في جوهرها نتفًا سماعية من هنا وهناك، لكن هذه الشذرات المتناثرة استحالت داخل تلك الذات الخصيبة إلى شيء آخر تمامًا.

أما لمن لا يرى في القصص القرآني سوى مناسبة ينتهزها النبي لأغراض دعوته، فكيف له أن يفسر لنا كل هذا الحضور لقصة لوط وقومه في القرآن الكريم؟ فلو كان النبي يستعير ألسنة الأنبياء لمجرد أن يبث آراءه من خلال قصصهم كما يزعم الأستاذ الجابري فلأي غاية إذن أورد القرآن الكريم قصة لوط مرارًا وتكرارًا، وهي كما ترى لا تخرج عن استهجان واستنكار تلك الآفة الأخلاقية التي شاعت في المدينتين، التي لم يكن لها من وجود فيما نعلم في الواقع المكي؛ حيث نزلت جميع قصص لوط في القرآن الكريم؟

الحقيقة التي لا خلاف بشأنها هي أن المجتمع المكي المخاطب أساسًا بالتنزيل، بل عرب الجزيرة عامة، لم يكن من بين خطاياه الكثيرة شيوع تلك الآفة الأخلاقية الوبيلة، وهذا ما قال به المؤرخون المسلمون قديمًا وحديثا، ومن ذلك قول ابن كثير:

"والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفاسد، وكانت لا تعرف بين العرب قديما كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم. فلهذا قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: لَوْلَا أَنَّ الله عز وجل قص علينا قصة قَوْمَ لُوطٍ فِي الْقُرْآنِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ ذكرًا يعلو ذكرًا[576] "، ومثله ما قال به الشيخ رشيد رضا حيث قال:"وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُنَزِّهُ أَنْفُسَهَا عَنْ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ بِالْأَوْلَى، وَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا مِنْ تَشَاوُرِ الصَّحَابَةِ فِي الْعِقَابِ عَلَيْهَا كَانَ سَبَبُهُ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ وَجَدَ رَجُلًا فِي بَعْضِ ضَوَاحِي بِلَادِ الْعَرَبِ يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ. فَجَمَعَ لِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِذ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثَلٌ، فَأَشَارَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بِأَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ أَيْ بَعْدَ قَتْلِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فَوَافَقَهُ الصَّحَابَةُ وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلى خَالِدٍ بِذَلِكَ فَأَمْضَاهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضَوَاحِي بِلَادِ الْعَرَبِ مَا يَلِي بِلَادَ فَارِسٍ مِنْهَا إِذ كَانَ هُنَالِكَ، وَلَمْ نَعْلَمْ جِنْسَ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَعَاجِمِ. وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَوَّلُ مَنِ اتُّهِمَ بِالْأَمْرِ الْقَبِيحِ - تَعْنَى عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ - رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ فَأَمَرَ عُمَرُ بَعْضَ شَبَابِ قُرَيْشٍ أَلَّا يُجَالِسُوهُ. أَيْ لِمُجَرَّدِ التُّهْمَةِ[577]".

وإذا كانت معارفنا عن مكة وأهلها قليلة قياسًا بما سجله المؤرخون المسلمون عن مجتمع مدينة النبي بعد الهجرة، فرغم ذلك لم نجد شيئًا في السيرة النبوية يدل على حضور تلك الآفة في مجتمع المدينة، عدا ما أشارت إليه المصادر من وجود بعض (المخنثين) فيها، وذكروا من بينهم (ماتع) و(هيت)، وأوردت المصادر الحديثية الموثوقة أن النبي قد نهى أزواجه من أن يدخلن (هِيت) بيته عندما تبين للنبي أنه يعرف كيف يصف ما يعجب الرجال من النساء. (قَالَ البُخَارِيّ: حَدثنَا الحميدي، سمع سُفْيَان، حَدثنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي مخنث فَسمعهُ يَقُولُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ: أَرَأَيْتَ إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الطَّائِفَ غَدًا فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غَيْلَانَ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : "لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُنَّ". قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: الْمُخَنَّثُ هِيتٌ. وَالْمُرَادُ بِالْمُخَنَّثِ فِي عُرْفِ السَّلَفِ الَّذِي لَا هِمَّةَ لَهُ إِلى النِّسَاءِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الَّذِي يُؤْتَى، إذ لَوْ

[576]"البداية والنهاية" لابن كثير، دار الفكر1986 م، الجزء 9 ، ص 163.

[577]تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب1990 م، الجزء 8، ص 462.

كَانَ كَذَلِكَ لَوَجَبَ قَتْلُهُ حَتْمًا، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ، وَكَمَا قَتَلَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(578)".

بل إننا نخرج من تشدد النبي مع هذا الرجل ورفيقه ما يدل على شدة النبي وصرامته مع أمثال هؤلاء، رغم أنهم كانوا بعيدين عن مقارفة تلك الفاحشة كما يقول ابن كثير: "وقيل نفى صلى الله عليه وسلم كلًّا من ماتع وهيت إلى الحمى، فشكيا الحاجة، فأذن لهما أن ينزلا كل جمعة يسألان الناس ثم يرجعان إلى مكانهما، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلا المدينة فأخرجهما أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فلما توفي دخلا المدينة فأخرجهما عمر رضي الله تعالى عنه، فلما مات دخلا(579)"، و"أن النبي أتي بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء فقال النبي ما بال هذا؟ فقيل: يا رسول الله، يتشبه بالنساء، فأمر به فنفي إلى النقيع، فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ فقال: إني نهيت عن قتل المصلين(580) .

(9)
لماذا جاءت تلك القصة إذن؟

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ٧٩ (الحِجۡر:75–79)،*وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ٣٥* (العَنكَبُوت: 35).

دعا القرآن العرب كثيرًا كي يتعظوا بما كان يعتقد أنه من بقايا قوم لوط، رغم أننا لا نعرف إلامَ كان يشير بدقة، لكن ما لا نشك فيه هو وجود شيء ما كان ينسب إلى تلك الأقوام، إن حقيقة أو توهمًا، فهذا لا يعنينا في شيء، وإنما المقطوع به أنها كانت من جملة اعتقادات أهل ذلك الزمان، فمثلا يشير القرآن إلى ما سماه (بآية بينة)، وقد اختلف المفسرون في ذلك اختلافًا بعيدًا: *وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً ٣٥* (العَنكَبُوت:

(578)السيرة النبوية، من البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1976 م، ج3 ص، 660.

(579)"السيرة الحلبية - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون" علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية - 1427هـ، ج3، ص166.

(580) الألباني، صحيح أبي داود برقم 4928.

35) يعني: آثار منازلهم الخربة، وقال قتادة: هي الحجارة التي أبقاها الله فأدركها أوائل هذه الأمة. وقال مجاهد: هي الماء الأسود على وجه الأرض[581].

ولا ندري كذلك من أين أتى النبي بهذا الاعتقاد بوجود آثار يمكن أن يتعظ من مرآها المعتبرون؟ وهل كان ذلك شيئًا سماعيًّا شائعًا بوجود تلك الأشياء، واعتقد النبي في صحتها، أم كانت أشياء مادية رآها النبي بنفسه في سفرة من أسفاره القليلة إلى الشام مطلع شبابه؟ وإن كنا نميل إلى الرأي الأول من اعتقاد النبي سماعيًّا أي مما بلغه من كتب السابقين عن وجود تمثال ملح لامرأة لوط أو ما سوى ذلك من الاعتقادات التي كانت تملأ كتب اليهود.

(10)
وما هي من الظالمين ببعيد

أجمع المفسرون قديمًا وحديثًا على أن المقصود بهذه الآية *وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣* (هُود: 83) هم أهل مكة وما حولها مثلما يعبر عنهم هذا المفسر: "مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ معلّمة عنده وَما هِيَ أي تلك الحجارة مِنَ الظَّالِمِينَ أي بالشرك وغيره بِبَعِيدٍ فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها، وملابسون بها. وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة. وقيل: الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة، يمرون بها في أسفارهم إلى الشام،[582]".

لكن هناك من الباحثين المحدثين من رأى أنها إلى جانب احتمالها هذا التفسير فهو يقترح إلى جانبه تفسيرًا جديدًا لها حيث يقول: "الثاني، أن (هي) يعود على العقوبة التي أوقعها الله على قوم لوط؛ حيث جعل عالي بيوتهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، وهذه العقوبة ليست بعيدة عن الظالمين المجرمين الشاذين الذين يرتكبون ما كان يرتكب قوم لوط من شذوذ وانحراف. وعلى الاحتمال الثاني تطلب الآية قتل

[581]"الوسيط في تفسير القرآن المجيد" لأبي الحسن الواحدي، النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1994 م، ج3، ص 419.

[582]"محاسن التأويل" للقاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ، المحقق: محمد باسل عيون السود، ج6، ص122.

اللذين يمارسان اللواط كما قتل الله قوم لوط الشاذين ومما يؤيد الاحتمال الثاني عقوبة اللواطيين في الإسلام حيث أمر رسول الله بقتلهم[583]".

وفي هذا التفسير ما لا يخفى من التكلف والشطط، فلم يكن النبي في تلك المرحلة الباكرة من دعوته ليرجو أكثر من أن يهدي الله قومه ويقبلوا ما جاء به من التوحيد؛ لكي ينجوا من عذاب الله الواقع بهم لا محالة إن استمروا على عنادهم وتكذيبه، فضلا عن خلو قرآن تلك المرحلة جميعه من أي تشريعات أو عقوبات لممارسات كانت أكثر شيوعًا وخطورة مثل السرقة والزنا، بل لن نجد تحريمًا للربا إلا بعد الهجرة بزمن طويل. أضف إلى ذلك صعوبة القبول بأن يصاغ تشريع يتضمن تلك العقوبة الشديدة، ويأتي على كل هذا الإبهام والغموض حتى إنه ليخفى عن الصحابة عندما احتاجوا إليه، كما قيل في عهد أبي بكر كما سبق ورأينا. "روى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به[584]"، وأما عن العقوبة التي جاءت بها الأحاديث المنسوبة إلى النبي مثل هذا الحديث السابق، فنحن لا نستبعد أن تكون تلك الأحاديث التي أوصى فيها النبي بقتل الفاعل والمفعول به، بل حرق البهيمة إن كانت طرفًا في تلك الممارسات/ نقول لا نستبعد أن يكون النبي قد قال تلك الأحاديث أولا: لتناسبها مع مجمل الأحكام التشريعية في القرآن بوجه عام، وأيضًا لأنها تصدر عن المتابعة النبوية للتشريع اليهودي الذي يقضي بتلك العقوبات ذاتها، ولا يبعد أيضًا أن يكون هذا الحديث وأمثاله مختلقًا مكذوبًا على النبي؛ لأنه لو وجد هذا الحديث حقا لما احتاج الصحابة إلى التشاور في استخراج عقوبة لفاعلي تلك الممارسة القبيحة مع وجود هذا النص الصريح.

ويلاحظ كذلك في صيغة (من وجدتموه) ما يُشعر بندرة هذا الفعل كما لو أنه يقول: على افتراض حدوث من يقترف هذا الفعل فإليكم حكم فاعله. وعلى كل حال، فهذه الآفة الأخلاقية إن غاب مقابلها المباشر عند العرب، فقد كان في استنكارها وشدة النكير عليها إدانة لعموم مظاهر الفسق المكي مثل تلك الضروب من الأنكحة الفاسدة التي ألغاها الإسلام وحرمها.

[583]الخالدي، القصص القرآني، الجزء الأول، ص 527.

[584]أخرجه أبو داود 4462، والترمذي 1456، وابن ماجة 2561، وانظر الأحاديث الصحيحة رقم (139).

المبحث الثالث

الاتفاق والاختلاف بين الروايتين

أولا: ملامح القصة القديمة خلف الرواية القرآنية.

إذا كنا قد عرضنا القصص القرآني السابق من جانب التركيز على وحدة الصوت الذي يقف خلف صوت الأنبياء الأقدمين جميعًا لنستشف منه صوت النبي محمد ورؤيته وعالمه، فإن هذه القصة تمتاز بملمح خاص لا يكاد يتكرر في أي قصة أخرى من قصص القرآن، وهي حضورها في القرآن محتفظة بكثير من معالم المادة التوراتية (خامًا)، حتى إنها لتُلمح على الفور من خلف القصة القرآنية، وذلك لاستبقاء النبي محمد لتلك المادة دونما أسلمة مفاهيمها أو حتى تهذيبها على نحو كامل كما فعل في سواها من القصص الكتابي أولا؛ لأن تفصيلات تلك القصة لم تكن تعنيه في شيء، بل كانت تلك القصة في جملتها كافية للوفاء بما أراد منها لبيان ما شاع في تلك البيئة الفاسقة من فواحش وموبقات وكيف أهلكهم الله بذنوبهم.

مع ذلك، والحق يقال، إذا كانت القصة القديمة تبدو في موضعها كقصة فاضحة فاحشة فضلا عن ضعف مصداقيتها التاريخية، وهي عندنا إلى الأسطورة أقرب فإن القرآن الكريم قد حاول وسعه لتهذيبها بأن أطاح ببعض جوانبها بالغة الدمامة مثل سكر لوط وزناه بابنتيه، ولكن رغم ذلك ظلت هناك إشارات تشير إلى أصل القصة القديمة وتشاركها في بعض الجوانب غير المعقولة، فمن يقرأ القصة القرآنية إذن فسيجد أنها تتابع الرواية الأصلية في تفصيلات لا معنى لها داخل سياق القصة القرآنية، ولا يمكن للقارئ أن يستبين معناها إلا بالنظر إلى معناها في القصة القديمة، ولكن القصة القرآنية على كل حال أفضل في مغزاها وبواعثها، وألطف في وقائعها ولغتها من القصة الأصلية البذيئة الفاحشة، وسوف نعرض الآن لبعض من مشتركات الروايتين.

(1)
نطاق الفاحشة

"وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها فنادوا لوطا، وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة أخرجهما إلينا لنعرفهما" (تك 19-4-5).

نصت الرواية التوراتية دون لبس على أن جميع رجال سدوم كانوا من المنحرفين الشاذين، ونصت بوضوح على أنهم قد توافدوا جميعًا إلى منزل لوط واحتشدوا أمام باب بيته ليطالبوا الرجل بأن يخرج إليهم ضيفيه الجميلين (ليعرفوهما)، وقل مثل ذلك في تلك الرواية المستنسخة منها في سفر القضاة؛ إذ نراها تصف البنياميين، سكان جبعة، بأنهم كانوا جميعًا مثل أهل سدوم، وهذا ما نص عليه الشراح المسيحيون بوضوح: "إذ يبدو أن جميع سكان المدينة كانوا متورطين معًا، وليس فقط أقلية فاسقة منهم[585]"، فهل هذا معقول؟

لا خلاف على أن بعض المجتمعات في أطوار تحللها قد تسترسل وتنساق خلف إشباع رغباتها الجنسية فتنغمس في ممارسات ماجنة وداعرة، وقد تشيع فيها تلك الممارسات فتتعدى الطبقات المترفة إلى كثير من أفراد ما دونها من الطبقات، فكل هذا قد حدث والتاريخ يحدثنا عن شيوع ممارسات كهذه في الحضارات اليونانية والرومانية والأوروبية الحديثة، وشاعت على نطاق كبير وإن أضيق من تلك السابقة في كثير من المجتمعات الإسلامية كما قال بذلك المؤرخون المسلمون: "وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلي بها غالب الملوك والأمراء، والتجار والعوام والكتاب، والفقهاء والقضاة ونحوهم، إلا من عصم الله منهم[586]".

ولكن علينا ألا ننسى ما يقوله المؤرخون من أن جميع الحضارات التي شاع فيها هذا الضرب من السلوك الجنسي قبل الإسلام كانت رغم ذلك تعده سلوكًا محرمًا ومجرمًا: "ولكنه كان مباحًا بحكم العادة، واسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار[587]"، ولكن هل من المعقول أن يتم الأمر على هذا النطاق الواسع في مدن تجارية صغيرة،

[585]"التفسير الحديث للكتاب المقدس - سفر القضاة"، ص 196.
[586]"البداية والنهاية"، ج9، ص 184.
[587]"قصة الحضارة"، ج10، ص 316.

فتعم فيها تلك الفاحشة، وتستغرق جميع رجالها جميعًا بلا استثناء؟ وإذا استطاع أحد أن يتخيل مجتمعًا كاملا لا يفعل رجاله سوى الفراغ لإشباع شهواتهم فليفعل، فنحن لا نستطيع أن نشاركه مثل هذا الخيال البعيد، والحقيقة الواضحة إنها مبالغة غير مقبولة أبدًا!

(أليس منكم رجل رشيد؟)

تابع القرآن الرواية التوراتية، وقبل منها تلك المبالغة السخيفة في شيوع تلك الفاحشة حتى لقد تحسر نبي الله لوط وزفر يائسًا من أن يجد من بين جميع سكان المدينة الفاسقة كلها رجلا رشيدًا يتنزه عن تلك الفاحشة، لكن لوطًا لم يجد هذا الرجل من بين ألوف الرجال المأفونين، فهل يعقل هذا؟! بل ربما يكون القرآن زاد على تلك المبالغة بأن رجال تلك المدن لم يكونوا يقربون نساءهم بل كانوا يكتفون بالذكران، ويذرون النساء وهذا ما استخلصه بعض المفسرين من ظاهر قوله *إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾* (الأَعْرَاف: 81) ومثلها في سورة النمل *أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾* (النَّمل: 55)، "وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الرِّجَالَ كَانُوا قَدِ اسْتَغْنَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا[588]"، كَمَا نُقِلَ عَنْ نِسَاءِ قَوْمِ لُوطٍ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّمَا حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ حِينَ اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ وَالرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ: عَذَّبَ اللهُ نِسَاءَ قَوْمِ لُوطٍ بِعَمَلِ رِجَالِهِمْ؟ قَالَ اللهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ: اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ وَالرِّجَالُ بِالرِّجَالِ. أَبُو جَعْفَرٍ هُوَ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ الْبَاقِرُ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ هُوَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ[589]"، "وكأن نفوسهم الظامئة إلى الإثم لم ترو ها تلكم الذنوب وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجرام لم تكفها تلكم القبائح فابتدعوا فاحشة لم يسبقوا

(588)"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى 1419 هـ، ج3، ص399.

(589)تفسير المنار، ج8، ص 464.

إلى احترامها وتعاطوا محرمًا ما كان يدور بخلد أحد اقترافه فكانوا يأتون الذكرين من العالمين ويذرون ما خلق الله من النساء فلا يقربوهن[590]".

وهذا كله بعيد في الحقيقة عن التصديق؛ إذ نجد في القصتين أنهم كانوا يتزوجون النساء وينجبون الأطفال، وإن خلت الروايتان في الحقيقة من الإشارة إلى الأطفال فهل كان ذلك متعمدا لتجنب حرج إثارة التساؤل عن ذنب الأطفال، ولماذا يحرقهم الرب بالنار والكبريت؟ لكن ما يعنينا هنا هو تأكيد تأثير الرواية القديمة وكفى.

(2)
نبي بلا تابع واحد

مثلما فعلت التوراة التي لم تجعل لوطًا يفلح في إقناع رجل واحد بالكف عن تلك الرذيلة ربما عدا أصهاره الذين لم نعلم عنهم شيئًا، فكذلك فعل القرآن، بل ربما يكون قد مضى إلى أبعد من ذلك، فعلى الرغم من أن القرآن قد جعل من لوط نبيًّا ورسولا ذا دعوة إلى الله، فقد جعله، بسبب تأثير المتابعة للرواية اليهودية، من بين الأنبياء القلائل في القرآن، بل ربما كان النبي الوحيد من بين جميع أنبياء القرآن الذي يصرح بأنه لم يفلح خلال دعوته في أن يقنع رجلا واحدًا بدعوته خلال كامل المدة التي قضاها بين أهل تلك المدن، ولا عجب مع افتراض وتصديق شيوع تلك اللوثة أن يقول مفسر كابن كثير:"وذلك أن لوطًا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم[591]".

وما استخلصه ابن كثير وغيره من المفسرين من عدم استجابة أي رجل، بل ولا امرأة من قومه يؤيده ظاهر القرآن؛ إذ نجد كما في سورة الذاريات *فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾*(الذَّارِيَات: 36)۞ وكذلك:*إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾* (الحِجْر: 59–60)،: *إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا

---

(590)"قصص القرآن" محمد أحمد جاد المولى وآخرين، الطبعة الثانية 1939م، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ص71.
(591)"قصص الأنبياء" ابن كثير، ص 247.

إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤* (القَمَر: 34)، والأوضح من الجميع هو *فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ * (الحِجۡر: 65).

لعل النبي محمدا كان يستحضر صورة لوط، وهو يصف، مغتبطًا بما أصابه من توفيق، تفاوت حظوظ نجاح الأنبياء في دعوتهم إلى الله حتى إن بعضهم لم يؤمن به أحد كما في هذا الحديث "عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد------ [592]".

(3)
إبراهيم يجادل الله

"وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائمًا أمام الرب، فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم؟ حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟" (تك: 18-23-25).

من مشترك الروايتين أيضا ما جاء في كليهما من جدال إبراهيم بشأن هلاك مدن لوط، ولكن الروايتين تختلفان اختلافًا بعيدًا في وصف هذا الجدال وشدته، ففي الرواية التوراتية نجد أن الله وقد كشف عن نفسه لإبراهيم عقب الوليمة، وأبلغه بأنه قد قرر أن يهبط بنفسه ليرى صدق تلك التقارير المقذعة التي ترفعها إليه الملائكة ليل نهار عن سدوم وأفعال أهلها المنكرة، وها هو في طريقه ليتحقق بنفسه من ذلك، والويل لهم إن كان ما بلغه عنهم حقا! وهنا يدخل إبراهيم مع الرب في سجال ذكي استعمل فيه جميع المهارات التفاوضية من الملق والتبجيل، إلى الإخافة من سوء السمعة، إلى الضغط بالإلحاح الخالص حتى بلغ منه ما أراد، ووافق الرب على أن يعفو عن سكان تلك المدينة إن وجد فيها عشرة من الصالحين، أما لماذا لم يذهب إبراهيم خطوة بعد ذلك؟ فكان ذلك بسبب سعة اطلاع إبراهيم وسعة معارفه التاريخية عن أهل العصور السابقة: "لم يطلب إبراهيم أكثر من ذلك إذ كان يعلم أن ثمانية من المؤمنين، وهم نوح وزوجته وأبناؤه

[592]"صحيح الجامع الصغير وزياداته" للألباني حديث رقم - 1475 - 3999).

الثلاثة وزوجاتهم، لم يكونوا كافين لنجاة جيل الطوفان كما تمنى أن يصل عددهم عشرة؛ لوط وامرأته وبناته الأربع وأزواجهن[593]".

وعلى كل حال، فلم يكن ما انتزعه إبراهيم من الله بالشيء القليل؛ لذا فقد اكتفى بذلك وانتهت تلك المفاوضة الشاقة، بعدها مضى الرب لحال سبيله، وعاد إبراهيم إلى خيمته مغتبطًا مسرورًا.

إبراهيم القرآني يجادل الملائكة

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ (العَنكَبُوت: 31–32).

أما في القرآن فقد كان إبراهيم يجادل الملائكة الذين جاءوا لتنفيذ تلك المهمة وكانوا يجيبونه بلسان الله؛ لذا فلا غرابة أن يكون الجدال مختصرًا ولا تفصيل فيه، فضلا عن الفارق بين لغة الروايتين، وهو الفارق ذاته بين الفظاظة والجلافة، وبين التهذيب والتوقير. فهل يخفي الفارق بين تلك الجملة الشديدة التي ربما كانت أشد ما وُوجه به الرب: "حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلا؟"، وبين جدل إبراهيم القرآني واستعطافه لله أن يرفق بهم؟

مع ذلك، فقد أثارت تلك المجادلة المستغرب صدورها من نبي كريم تساؤلات المفسرين كما يعبر عنهم الإمام الرازي وقد أحسن كالعادة تلخيصها وبيانها وهو ما انبرى المفسرون المسلمون لتبديده ونفيه، محاولين أن يحملوه على أحسن المحامل: (فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ الْمُجَادَلَةُ إِنْ كَانَتْ مَعَ اللَّهِ تعالى فَهِيَ جَرَاءَةٌ عَلَى اللَّهِ، وَالْجَرَاءَةُ عَلَى اللَّهِ تعالى مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْمُجَادَلَةِ إِزَالَةُ ذَلِكَ الْحُكْمِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ رَاضِيًا بِقَضَاءِ اللَّهِ تعالى وَأَنَّهُ كُفْرٌ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُجَادَلَةُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فَهِيَ أَيْضًا عَجِيبَةٌ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْمُجَادَلَةِ أَنْ يَتْرُكُوا إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطٍ، فَإِنْ كَانَ قَدِ اعْتَقَدَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ يُجَادِلُونَ فِي هَذَا الْإِهْلَاكِ فَهَذَا سُوءُ ظَنٍّ بِهِمْ. وَإِنِ اعْتَقَدَ

[593] الأساطير ج 1ص229 .

فِيهِمْ أَنَّهُمْ بِأَمْرِ اللَّه جَاءُوا فَهَذِهِ الْمُجَادَلَةُ تَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ مِنْهُمْ مُخَالَفَةَ أَمْرِ اللَّه تعالى وَهَذَا مُنْكَرٌ[594]).

من يطالع أقوال المفسرين فسيرى أنهم مجمعون على أن تلك المجادلة ما كانت إلا استعطافًا من إبراهيم لله بأن ينظر قوم لوط، وأن يرفق بهم فمن الجائز أن يقلعوا عما انغمسوا فيه من الذنوب، وهو دفاع حسن ولا بأس به، لكن من يعلم ما أفاضته الرؤية الإسلامية عن الأنبياء وما ينبغي لهم من عظيم التأدب مع الله لوجد في تلك المجادلة رغم ذلك جرأة عظيمة من إبراهيم، ما كنا نظن أن النبي محمدا يفعلها بنفسه أو ينسبها إلى إبراهيم أو لسواه من الأنبياء، لولا تلك المتابعات للقصة القديمة، ورغم ما أحدثه فيها من تلطيف وتهذيب، ومع ذلك فقد جاءت الرواية القرآنية تحمل شيئًا من ظلال عنف الرواية القديمة وشدتها، ومن ذلك قول إبراهيم القرآني للملائكة: "إن فيها لوطًا!" هو تنبيه غير معقول، فما الذي كان يخشاه إبراهيم؟ هل كان يخشى أن تدمر الملائكة تلك المدينة دون أن يعلمهم الله بوجود لوط فيها؟

لا برهان أوضح على تحرج الذات المحمدية الواقفة خلف تلك القصة القرآنية من إنطاقها الصوت الإلهي الصارم والداعي لإبراهيم بالكف عن هذا الجدل: *يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦* (هُود: 76)، *فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥* (هُود: 74–75).

والأوضح منه هو ذلك العتاب الإلهي الرقيق لإبراهيم كما تعبر عنه الآية السابقة وهو عتاب يعبر بلا ريب عن ذات النبي محمد، وكيف أن نفسه لم تكن راضية عن هذا اللجاج الإبراهيمي الطويل، ومن خلال هذا العتاب نجدها، وقد كشفت عن نفسها وأبانت عن عظيم خشيتها لله، وما ينبغي للمؤمن معه من تسليم واسترسال مع قضائه، بل إننا نجد فيه ما يشبه الدهشة لصدور هذا الجدال من إبراهيم خاصة، فقد كان الرجل دائمًا هو المثال الأكمل لمن يسلم أمره لله في حله وفي ترحاله، بل في التضحية بابنه بمجرد إشارة منامية، فلمَ كل هذا الجدل والدفاع عن قوم سوء فاسقين؟!

[594]"مفاتيح الغيب" للفخر الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ، ج18، ص376.

الحقيقة التي لا نشك فيها، هذا القول: (إن فيها لوطًا)، بل كل جدل إبراهيم القرآني بشأن قوم لوط ما هو إلا ترجمة بعيدة لتلك الآثار التي علقت بالرواية القرآنية من أصلها القديم، ونكاد نقول إننا نجد من وراء هذا التنبيه الإبراهيمي للملائكة ظلا من خوف إبراهيم التوراتي أن يصيب لوطًا شيءٌ من العذاب لركونه إلى قومه واختلاطه بهم، وإن كان القرآن بطبيعة الحال لا يعقل أن يقصد شيئًا من ذلك، لكنها ظلال الصورة القديمة وهذا الذي شفّت عنه الرواية القرآنية دون أن تقصد هذا المعنى، هو الذي لم يجد الشراح المسيحيون حرجًا في الجهر به: "لاحظ كيف امتدت رحمة الله لإبراهيم إلى لوط وعائلته؛ لأن إبراهيم توسل من أجل لوط فرحمه الله وأنقذ لوطًا من النيران المدمرة التي اجتاحت سدوم[595]".

(4)

ولا يلتفت منكم

ومن بقايا القصة الأصلية القول بهلاك امرأة لوط دونما سبب واضح، والدعوة إلى عدم التلفت، وهذا التحذير الأخير لم نجد له شبيهًا عند وقوع العذاب بالأمم السابقة مثل قوم عاد أو ثمود؛ فلم يوصِ الله هودًا أو صالحًا ومن معهما من المؤمنين بعدم الالتفات خلفهما، وكذلك ما سيكون من عذاب قوم مدين وغيرهم من الأمم الهالكة، ولا نجد تفسيرًا داخليًّا لتلك التفصيلة، سوى أنها تردد وتعكس أصل تلك التفصيلة في القصة القديمة، دون أن توجد لها مقابلاً دلاليًّا جديدًا، ما يجعلها من المتابعات غير الموظفة في السياق الجديد، وسنخصص كلمة عن تلك النقطة لأهميتها بعد قليل.

[595] التفسير التطبيقي، ص 51.

(5)
العرض الشائن بين الروايتين

علمنا في موضع سابق أن عرض لوط التوراتي ابنتيه على السكان الفاسقين كان عرضًا جديًّا، فماذا عن العرض القرآني؟ وهل حقًّا عرض لوط القرآني بناته على الفاسقين؟

قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ (هُود: 78)، *قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١* (الحِجْر: 71).

أثار هذا العرض المستبشع في ظاهره اهتمام المفسرين المسلمين فانبروا يدفعون ما استطاعوا عن الآيات القرآنية تلك الظلال القبيحة التي يثيرها ظاهر النص، ومحاولين إيجاد تأويل سائغ يوافق الأخلاق الدينية، ولا يخاصم العربية وبيانها، وفيما أورده هذا المفسر الحديث زبدة هذه الآراء التي تتناثر في كتب التفسير قديمها وحديثها فلنكتفِ بها، ففيما أورده منها الغُنية والكفاية.

"ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره، فقال: قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ.. والمراد ببناته هنا: زوجاتهم ونساؤهم اللائي يصلحن للزواج، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه.

قال ابن كثير: قوله تعالى *قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ* يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، كما قال لهم في آية أخرى: *أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ. وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُون* قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كنَّ من أمته، وكل نبي أبو أمته... وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم، هن بناته وهو أب لهم... ومنهم من يرى أن المراد ببناته هنا: بناته من صلبه، وأنه عرض عليهم الزواج بهن.. ويضعف هذا الرأي أن لوطًا عليه السلام كان له بنتان أو ثلاث، كما جاء في بعض الروايات، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاث للزواج؟ ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، وقد رجحه الإمام الرازي بأن قال ما ملخصه: (وهذا القول عندي هو المختار، ويدل عليه وجوه. منها: أنه قال *هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ* وبناته اللاتي

من صلبه لا تكفي للجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل.. والمعنى: أن لوطًا عليه السلام عند ما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، قال لهم: برجاء ورفق يا قَوْمِ هؤلاء نساؤكم اللائي بمنزلة بناتي ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن، فهن أطهر لكم نفسيًا وحسيًا من التلوث[596]".

هذه المعاني التي دارت حولها آراء جموع المفسرين المسلمين تعتمد في الأساس على مقررات الأخلاق الإسلامية والعربية، بل الأخلاق الإنسانية العامة عند جميع البشر مذ غادر البشر تلك الحقبة المعتمة التي تخلف عنها ذاك المقياس الأخلاقي الشائه والذي سجله كاتب سفر التكوين؛ حيث كان يضحى فيه بالمرأة بنتًا، أو أمًا، أو زوجة فداءً للرجل، وعلاقته برجل مثله، أو حفظًا لكرامته الشخصية! ولكن هل هذا النص القرآني حقا يحتمل تلك التأويلات الجميلة ؟ اللهم لا!

أولا: لما يشتمل عليه النص من تعبيرات يصعب معها قبول تلك التأويلات، ومنها قول قوم لوط: (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق)، ولننظر أولا فيما خرج به المفسرون في تفسير تلك الآية: "قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال قوم لوط للوط: (لقد علمت)، يا لوط (ما لنا في بناتك من حق)، لأنهن لَسْنَ لنا أزواجًا، كما: حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: (قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق)، أي من أزواج (وإنك تعلم ما نريد، وقوله: (وإنك لتعلم ما نريد)، يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلم أنَّ حاجتنا في غير بناتك، وأن الذي نُريد هو ما تنهانَا عنه[597]"، فهنا نجد الإمام الطبري يسترسل مع الدلالات الظاهرة للنص، ويقصر الحديث في معنى (الحق) على معنى التزويج، الذي به يباح للرجل نكاح المرأة، وهذا معناه أنهم فهموا بأن معنى (بناتي) هنا هن بناته من صلبه لا من نسائهم كما تكلف بعض المفسرين للخروج من تلك المشكلة: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ - فَإِنَّهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ عَلَيْنَا فِي دِينِكَ، أَوْ يَعْنُونَ أَنَّ الْحَقَّ عِنْدَهُمْ نِكَاحُ الذُّكُورِ، مُسْتَشْهِدِينَ بِعِلْمِهِ بِهِ تَهَكُّمًا، أَوِ الْحَقُّ هُنَا الْحَاجَةُ وَالْأَرَبُ، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ عَلِمْتَ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَاجَةٍ أَوْ رَغْبَةٍ فِي تَزَوُّجِهِنَّ فَتَصْرِفَنَا بِعَرْضِهِنَّ عَلَيْنَا عَمَّا نُرِيدُهُ، أَوْ لَقَدْ عَلِمْتَ الَّذِي لَنَا فِي نِسَائِنَا اللَّوَاتِي تُسَمِّيهِنَّ

(596)"التفسير الوسيط للقرآن الكريم" محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى 1997م، ج7، ص 248.

(597)"جامع البيان في تأويل القرآن" لأبي جعفر الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج15، ص417.

بَنَاتَكَ مِنْ حَقٍّ الِاسْتِمْتَاعِ وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مَعَهُنَّ، فَلَا مَعْنَى لِعَرْضِكَ إِيَّاهُنَّ عَلَيْنَا لِصَرْفِنَا عَمَّا نُرِيدُهُ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالذُّكْرَانِ، وَأَنَّنَا لَا نُؤْثِرُ عَلَيْهِ شَيْئًا. أَيْ: تَعْرِفُ ذَلِكَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَا تَرْتَابُ فِيهِ، فَلِمَ تُحَاوِلُ صَدَّنَا عَنْهُ؟[598]).

وهذا مفسر حديث يكدس، رغم موفور علمه، مخارج لا برهان على واحدة منها؛ فأولا لم يكن اختلاف الملل من بين محرمات الزواج في تلك الفترة، وأيضًا ولا برهان على قصدهم لذلك التهكم البعيد، وأيضا لا شاهد في العربية يؤيد ما اختاره من أن كلمة (حق) تأتي بمعنى (الأرب والحاجة)، وكما ترى فالتأويل منصب أيضًا على أن قوم لوط قد فهموا من خطابه أن الرجل يعرض عليهم بناته هو وليس من نسائهم، وأما إذا كان المقصود نساءهم فقوله هو اللغو بعينه ولا حاجة إليه ولا نفع.

وربما يصح أن يضاف إلى تلك القرائن الصارفة لهذا التأويل حضور كلمة (هؤلاء) على لسان لوط، ولا ندري ما دلالة لفظة (هؤلاء) إلا بوصفها مستعملة على الحقيقة في إشارة الرجل المكروب لبناته وقت مخاطبته للرجال الفاسقين أمام عتبات بيته؛ إذ لا يعقل أن يكون قد أشار إلى نسائهم اللائي يصعب علينا تخيل أنهن قد جئن ليشاهدن رجالهن وهم يحاصرون بيت لوط، ويطالبونه بإخراج الرجال لهم (ليعرفوهم)!

وقد كنا نظن وقتا طويلا بأن عرض لوط بناته على تلك الجموع كان على سبيل التقريع والتوبيخ، فالرجل الصالح يخزي مخاطبيه بهذا العرض ليدل على عظيم حرمة الضيف حتى إنه ليُفدي أضيافه النازلين بساحة بيته بما يفدى به كل شيء، وهي الأعراض المصونة للبنات والنساء، ولكن الرجل على كل حال ما كان ليعرض على هؤلاء الفاسقين بناته عرضًا جادًّا يقصده ويعنيه، وإنما كانت زفرة مكروب لا يقصد من ورائها سوى التعبير عن الغضب والسخط وعظيم الاستنكار لما طلبوه. لكن وجود تعبير (هن أطهر لكم) يعود ليسد هذا المخرج؛ إذ لا يستقيم وجود هذا التعبير مع هذا التصرف في الفهم والتوسع في التأويل، فهو لا يصلح إلا لو كان المقصود من كلامه (نساءهم) لا بناته من صلبه، وإلا فأي طهرٍ في أن يترك الرجال أضيافه لكي يفسقوا ببنات الرجل المغلوب على أمره، وهكذا ندور في حلقة مفرغة؛ فإذا كان المقصود (ببناته) نساءهم فقولهم: (لقد علمت مالنا في بناتك من حق): تجعل منه قولا غير مفهوم، وإذا كان الرجل يقصد عرض بناته حقيقة أو لفظًا فجملة: (هن أطهر لكم) تجعل منه قولا غير معقول،

---

[598] "تفسير المنار" لرشيد رضا، ج12، ص 112.

فيا لها من حيرة! ولا يخفي ما في رد أهل المدينة من السخر والهزء بعرض الرجل بناته عليهم حقيقة أو لفظًا، فكأنهم عندما يقولون له: (لقد علمت مالنا في بناتك من حق)، ومن المعلوم أنهم لا يقصدون نساءهم؛ لأن لهم فيهن كل الحق ولا ضرورة ولا معنى لقول ابن كثير في تفسيرها:(لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) (يقولون، عليهم لعائن الله، لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا[599]).

ويتأمل دلالات كلمة (حق) واستخداماتها الحقيقية والمجازية، في حدود ما نعلم، ما وجد من بينها أنها تعني كلمة (أرب أو مقصد)، بل تعني استحقاقا وشرعية، وقد حاول المفسرون ما وسعهم أن يجدوا حلولا لتلك المشكلة متوسلين إلى ذلك بالثابت المعقول، وأيضًا بالظن غير المقبول، ومن ذلك مثلا ما أروده القرطبي في تفسير قوله تعالى هؤلاء بناتي فيما ينسبه إلى ابن عباس: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رُؤَسَاؤُهُمْ خَطَبُوا بَنَاتِهِ فَلَمْ يُجِبْهُمْ، وَأَرَادَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَنْ يَفْدِيَ أَضْيَافَهُ بِبَنَاتِهِ) أما لماذا قالوا له لقد علمت ما لنا في بناتك من حق؟ فقد (رُوِيَ أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ خَطَبُوا بَنَاتِهِ فَرَدَّهُمْ، وَكَانَتْ سُنَّتُهُمْ أَنَّ مَنْ رد في خطبة امرأة لم تحل أبدا[600]).

ولا ندري من أين أتى المفسرون بكل بتلك الظنون عن تقاليد قوم لم يكونوا يعرفون عنهم في الحقيقة شيئًا، بل إن هذه الفرضية الأخيرة لتذكرنا بما شاع من تقاليد العرب بأن من شبّب بامرأة فليس من سبيل إلى زواجه منها، نفيًا للريبة وقطعًا لألسنة الشانئين والمتقولين، مثلما قيل عن الشعراء العذريين عند العرب في العصر الإسلامي الباكر.

نحن لا نعلم أي فائدة من هذا الجدال كله، وفي تلك اللحظة العصيبة؟ فإن كان لوط يقصد بعرضه نساءهم فهم قد تركوهن خلفهم زاهدين فيهن، وما جاءوا إلا ليعرفوا أضيافه؟ وإن كانوا يخبرونه بعزوفهم عن النساء وحبهم للرجال فهذا ما يعلمه لوط حق العلم؟ فأي نفع من هذا الجدال العقيم؟! ولربما كان القول بسخرية كلا الطرفين من الآخر حلًّا موفقًا، ففي نفيهم أي حق لهم في بناته ما يدل على إعلانهم الصفيق بأن لهم الحق

[599]تفسير ابن كثير، ص 251.

[600]تفسير القرطبي، ج9، ص 77.

في معرفة أضيافه، فهم يسخرون من لوط إذن بإعلان إصرارهم على تفضيل الرجال حتى لو قدم لوط لهم هذا العرض الشديد على نفسه، ولكن الموقف العصيب لا يتحمل في الحقيقة شيئًا من هذا.

ما المخرج إذن؟

التفسير الواضح لتلك المشكلة هيّن وميسور بشرط أن نتذكر ونحن نقرأ القصة القرآنية بأن المعنى المقصود في القصة القديمة، هو أن الرجل كان يقصد حرفيًّا أن يغوي الرجال ببناته لكي ينقذ أضيافه، فقد كانوا لديه أهم بكثير من تلك البنات اللاتي لم يكنَّ يساوين شيئًا عند أهل تلك الأزمنة البائدة، ولا خلاف على أن القرآن الكريم ما كان ليوافق على المعنى الحقيقي القبيح الذي ينطوي عليه النص القديم، ولكن المشكلة جاءت من أن القرآن لم يأتِ بمفتاحٍ أو بتأويل جديد لهذا القول، وإنما اكتفي بترديد ألفاظ القصة القديمة، دون أن ينتبه إلى أنها قد تورطه في استدعاء معنى قبيح لا يوافق عليه، بل يأباه أشد الإباء، ولعل هذه الحيرة التي يكابدها من يقرأ النص القرآن الآن كانت تعكس صدى لحيرة النبي محمد ذاته أمام تلك القصة، فلم يكن النبي واقفًا على دلالة ترضيه وتقنعه من خلف تلك التفصيلة التي اشتملت عليها القصة القديمة، ومن الطبيعي أن العرض الجدي كما في الأصل ما كان ليقبله؛ فاكتفى بذكر الحكاية، وتركها على حالها! إنها إذن المتابعة حسنة الظن من النبي محمد، واعتقاده في قداسة نصوص لا قداسة لبعض محتوياتها من قريب أو بعيد، هذا كل ما هنالك.

ثانيا: الفروق بين الروايتين وأسبابها.

(لأن رجال سدوم كرهوا بعضهم بعضا؛ فقد دمرهم الرب المقدس تبارك في هذا العالم والعالم القادم (الحياة الأخرى)، كما هو منصوص؛ كان رجال سدوم أشرارًا وذوي خطايا ضد الرب إلى أبعد حد. أشرار تعني أنهم كرهوا بعضهم بعضا؛ ذوو خطايا"؛ أنهم انتهكوا الأخلاق؛ "ضد الرب" دنسوا العظيم؛ إلى أبعد حد أنهم أخطأوا بتعمد. من هنا نتعلم أنه لأنهم كرهوا بعضهم بعضا فقد دمرهم الرب المقدس تبارك من هذا العالم ومن الحياة الأخرى[601]).

---

[601]"التلمود البابلي" المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، 2011م، ج 20، ص 61.

كان ما قدمناه في الصفحات السابقة عن مشتركات القصتين القرآنية والتوراتية، وأما عن بعض الفروق بينهما، فلن نجد لبيانها أفضل من النظر في هذه القصيدة القصيرة المنسوبة إلى شاعر عربي مخضرم عاش جُل حياته في الجاهلية وأدرك النبي محمدا، لكنه لم يستجب لدعوته ولم يقر له بالنبوة إذ كان كما قيل يرجوها لنفسه.

إذن، فقد جاءت تلك القصة في ديوان الشاعر المتأله (أمية بن أبي الصَّلْت الثقفي) لتلخص تلك الاختلافات التي انفردت بها الرواية القرآنية عن القصة التوراتية، ورغم ارتيابنا الكامل في نسبة كثير من ذلك الشعر المنسوب إلى أمية، بل لا نشك في أن أكثر شعره منتحل وزائف، وأغلبه ما هو إلا ترجمة متأخرة لما جاء في القرآن الكريم من أخبار وقصص أهل الكتاب، ومع ذلك فحقيقة أن شهرة أمية وأهميته التي لا تقوم إلا على شعره الديني فقط تجعلنا نعتقد بأنه ليس من المعقول بأن يضيع شعره كله، ومن يدري فلعلها له حقا!

لذا، فسوف نورد هذه الأبيات التي تتضمن جميع عناصر القصة القرآنية وتفاصيلها على هذا النحو الذي يثير الدهشة والعجب، فدعونا نقرأ أولا تلك القصيدة:

ثم لوطا أخا سدوم أتاها *** إذ أتاها برشدها وهداها

راودوه عن ضيفه ثم قالوا *** قد نهيناك أن يقيم قِراها

عرض الشيخ عند ذاك بنات *** كظباء بأجرع ترعاها

غضب القوم عند ذاك وقالوا *** أيها الشيخ خطبة نأباها

أجمع القوم أمرهم وعجوز *** خيب الله سعيها ولحاها

أرسل الله عند ذاك عذابا *** جعل الأرض سفلها أعلاها

ورماها بحاصب ثم طين *** ذي جروف مسوّم إذ رماها[602]

من يقرأ هذه القصيدة فسوف يجدها تتضمن أولا الإشارة إلى نبوة لوط، وأنه قد جاء قومه بالرشد والهداية، وهو ملمح قرآني خالص، وكذلك نهى قومه إياه عن العالمين واستضافتهم، وتعرض أهل المدينة لأضيافه، وعرض الرجل عليهم بناته، والقول بأن

(602)انظر: "شرح ديوان أمية بن أبى الصَّلْت" منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، تعليق وشرح: سيف الدين الكاتب - أحمد عصام الكاتب، ص87. وعن شعر أمية وأسباب ارتياب عموم الباحثين في صحته انظر: جواد على "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج18، ص 324.

له بناتٍ لا بنتان فقط كما في التوراة، وغضب قومه الرافض لما عرضه عليهم، وعزمهم على الهجوم على الأضياف، ومشاركة امرأة لوط قومها في فسقهم، وأغلب الظن أن ذلك يعنى ما قاله المفسرون المسلمون من أنها كانت تتجسس على زوجها وتبلغ قومها أنه أضاف رجالا، وإرسال الله عليهم من العذاب بأن جعل عاليها سافلها، ثم حصبهم بعدها بحجارة مسومة .

على الرغم من أن وفرة مشتركات قصة أمية مع الرواية القرآنية تجعلنا نرتاب أشد الريبة في صحة نسبة تلك الأبيات إلى أمية، فضلا عن ضعف سبكها، ورقة ألفاظها، شأن كثير من المقاطع المنسوبة إلى هذا الشاعر، وخاصة في شعره الديني قياسًا بأشعاره في الموضوعات الأخرى كالمديح مثلاً، لكننا لا يعنينا الآن ما يثار من قديم بشأن عدِّ أمية بن أبي الصَّلْت وشعره من مصادر معارف النبي، وليس من سبب يدعونا لهذا الاعتقاد، فمن ناحية، لم يكن أمية يكبر النبي بكثير، ومن ناحية أخرى فلم يشتهر أمية بسعة اطلاع أو بمعرفة عميقة بالمصادر الكتابية معربة كانت أو بلغاتها العديدة، وإنما اشتهر عنه فحسب الإكثار من ذكر تلك الموضوعات العامة في شعره، والتي يكفي لتحصيلها بعض جلسات الاستماع المنتبه؛ لذا فالأحوط أن يقال إن تلك القصة، قصة لوط، قد استقاها النبي من المصدر ذاته الذي عرف منه جميع ما عرف من أخبار الأنبياء القدامى، ولا يبعد أن يكون كلاهما، النبي وأمية، قد استمدا معرفتهما من مصدر واحد كان متاحًا لهما ولغيرهما من أصحاب الفطر الدينية اليقظة، وسوف نقف عن تلك النقطة، أي المصادر، في فصل صغير نخصصه لحياة النبي، ولكن ما يهمنا الآن هو التساؤل: من أين أتت تلك الاختلافات بين الروايتين التوراتية والقرآنية؟ والإجابة الميسورة هو أن تلك الاختلافات قد بلغت النبي من المرويات التلمودية؛ إذ نجدها تتضمن مفردات القصة القرآنية كاملة.

(1)
النهي عن استضافة الغرباء

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ (الحِجْر: 70).

لم تشتمل الرواية التوراتية عن أهل سدوم شيئًا مما أورده القرآن عنهم من نهيهم لوطًا عن استضافة الغرباء مثل ما تعبر عنه تلك الآية السابقة، وهو معنى ظاهر قال به المفسرون جميعًا: (أولم ننهك عن العالمين: أي عن إجارتك لهم واستضافتك[603].)، وهو ذاته ما تقول به المرويات التلمودية: (ولأنه تربى في بيت إبراهيم، فقد تعلم منه لوط كرم الضيافة، وعندما رأى الملائكة أمامه في هيئة البشر ظنهم عابري سبيل، فدعاهم للوفود عليه والمبيت في منزله؛ ولأن إكرام الغرباء محرم في سدوم، وجزاؤه الموت لم يجرؤ على دعوتهم إلا في ظلام الليل [604]).

ولسنا بحاجة إلى بيان سخف الاعتقاد في وجود مثل هذا التشريع العجيب الذي يقضى بقتل من يكرم ضيفًا، أو من يأوي عابر سبيل في بيته لليلة، فهذه الترهات، إنما كانت جزءًا من حملة كانت، ولم تزل مستمرة حتى الآن، لشيطنة أهل تلك المدن التي لا نعرف عنهم أي شيء، هذا إن كانوا قد وجدوا أصلا، أوعلى أقل تقدير، قد وجدوا وفق تلك الصورة البشعة التي أشاعها وأذاعها عنهم العبرانيون، وألصقت بهم إلى الأبد.

(2)
خيانة امرأة لوط

لم تأت الرواية التوراتية أيضًا على ذكر امرأة لوط بخير أو شر، عدا أنها خالفت الأمر الإلهي الغامض بعدم الالتفات فهلكت، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن هلاكها لمثل هذا السبب لا يعني القول بصلاحها وعدم تقواها، بل كان هلاكها كما سنرى أقرب إلى خوف منوح وزوجته التقيين من أنهما سيهلكان؛ لأنهما اعتقدا بأنهما نظرا إلى الله، أو بالأحرى مثل إماتة الرب العبراني الغشوم لذلك الرجل الصالح الذي لمس تابوت العهد، ولقد كان التابوت كما هو معلوم بمنزلة الحضور الجسدي الاعتباري للرب؛ لذا فلم يكن

---

(603)"أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الخامسة، 1424هـ/2003م، ج3، ص89 .

(604)"أساطير اليهود"، ج1، ص230.

لأحد أن يقترب منه، وإلا فالموت هو العقوبة الوحيدة لأمثال تلك المخالفات، ويستوى في ذلك من تعمد الإثم أو من لم يقصد إلا فعل الخير مثلما فعل (عُزا) المسكين الذي لم يرد سوى أن يسند التابوت المبارك خشية أن يسقط، ولكن تلك النية الطيبة لم تشفع له لدى الرب الذي أماته في الحال:"مَدَّ عُزَّا يَدَهُ لِيُمْسِكَ التَّابُوتَ، لأَنَّ الثِّيرَانَ انْشَمَصَتْ. فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى عُزَّا وَضَرَبَهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَدَّ يَدَهُ إلى التَّابُوتِ، فَمَاتَ هُنَاكَ أَمَامَ اللهِ[605]".

وهي قسوة وصرامة من الرب كانت من الشدة حتى إنها لم ترضِ رجلا كداود، لم يشتهر قط برقة القلب، فاغتاظ من فعلة سيده التي كدر بها أفراح المحتفلين بعودة التابوت المبارك[606].

* إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠* (الحِجْر: 60).

أما القرآن فقد حكم على امرأة لوط بالهلاك لخيانتها زوجها، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بخيانتها هو مخالفتها لدينه وعدم قيامها بواجب أمانة بيته؛ إذ كانت عينًا لأعدائه عليه: (فَخَانَتَاهُمَا) قال: كانتا مخالفتين دين النبيّ، كافرتين بالله. حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني أَبو صخر، عن أَبي معاوية البجلي، قال: سألت سعيد بن جبير: ما كانت خيانة امرأة لوط وامرأة نوح؟ فقال: أما امرأة لوط، فإنها كانت تدلّ على الأضياف؛ وأما امرأة نوح فلا علم لي بها[607]"، "إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته وأخبرت قومها وقالت لهم في بيت لوط رجال ما رأيت مثلهم قط[608]".

ولا ينبغي أن نغادر هذه النقطة قبل أن نشير إلى إعجابنا الكامل بفطنة الإمام الزمخشري؛ لأنه استطاع أن يستخرج لنا من مجريات السورة القرآنية، وأسباب نزولها ما يدل على أن المراد هنا هو التشابه بين ما فعلته حفصة زوج النبي من إفشاء سره لصاحبتها، مع ما فعلته امرأة لوط من قبل من إفشاء أسرار زوجها لقومه: "والتعريض

(605)"سفر أخبار الأيام الأول" 12: 8-9.

(606)المرجع السابق، الآية 11.

(607)"جامع البيان في تأويل القرآن" لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج23، ص 498.

(607)"إتحاف الأخِصّا بفَضَائل المسجد الأقصى" شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، المنهاجي الأسيوطي، ج2، ص118.

(608)المرجع السابق، ج2، ص118.

بحفصة أرجح؛ لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره [609]؟.

وعلى كل حال، فهذا هو نفسه ما جاءت به الروايات التلمودية كما سنرى، التي تقول إنه وعلى الرغم من لطف لوط مع زوجته، فقد كانت امرأة شريرة، وكانت تتعلل بخلو بيتها من الملح، لكي تلج بيوت الجيران، وتفشى أسرار زوجها، وتذيع لهم أخباره، ومن الغريب أن هذا التفسير هو ذاته ما تمتلئ به كتب التفسير عند شرح معنى خيانة امرأة لوط لزوجها رغم اتساع دلالة كلمة (الخيانة) التي يمكن أن تفسر بعشرات التفسيرات، ما يوحى بأن تلك التفسيرات الإسلامية المتأخرة كان مصدرها مسلمة اليهود، وقد كانوا ينطلقون في أغلب معارفهم من التفسيرات التلمودية كما هو معروف، وإليك ما تقوله الرواية التلمودية: "ومع ذلك، فقد كانت هي ممن خانوه، فقد ذهبت إلى أحد جيرانه، واستعارت بعض الملح، وعندما سألها الجار إن كانت لم تشتر ملحًا يكفي في أثناء النهار؟ أجابته قائلة: كان عندنا ملح يكفي إلى أن أتانا بعض الضيوف؛ ولذلك فقد احتجنا إلى المزيد من أجلهم، وبهذه الطريقة ذاع في المدينة خبر الغرباء[610]".

وإذا بدت امرأة لوط هنا وكأنها لا تقصد الوشاية، فقد جاء في ترجوم آخر أنها تعمدت إفشاء حضور الرجلين إلى أهل المدينة، متعللة باقتراض الملح فكانت عاقبتها أنها صارت عمود ملح إلى يوم القيامة: "نظرت وراء الملاك... بالملح فأخبرت عن حضور التعيسين (أي الملاكين اللذين جاءا إلى بيت لوط في سدوم) فتحولت إلى عمود ملح. حين جاء الضيفان إلى بيت لوط، ذهبت امرأته إلى الجيران تطلب ملحًا، وفي نيتها أن تخبر بوصولهما[611]".

---

[609] "الكشاف" للزمخشري، ج4، ص 571، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407 هـ.

[610] "الأساطير اليهودية"، ج1، ص 231.

[611] ترجوم نيوفيتي، سفر التكوين، ترجمة الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، الطبعة الأولى 2002م.

(3)
إنذار لوط قومه بالعقاب الإلهي

قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ (الحِجْر: 63)، *وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾* (القَمَر:36).

إذا كانت التوراة قد خلت تمامًا من تهديد لوط قومه بالعذاب كما فعل القرآن، بل اكتفت بوصف استعطاف الرجل لهم، ومحاولاته التفاوض معهم على ترك أضيافه لحال سبيلهم، ودونما إشارة واحدة تقول من قريب أو بعيد إن الرجل نفسه كان يعتقد ولو في طيات ضميره بأن الله لن يدع هؤلاء الفاسقين يفلتون بفعلتهم، فضلا عن أن يجيبهم محذرًا من عقاب الله، فإن المرويات التلمودية المتأخرة قد حفلت بما خلت منه التوراة، وجعلت من لوط نذيرًا لتلك المدن، ووضعت على فمه ما يتناسب مع عدِّه نبيًّا مصلحًا، أو واعظًا صالحًا على أقل تقدير: "وحاول لوط الذي كان قد تم تعيينه كبيرًا للقضاة في اليوم ذاته الذي جاء فيه الملائكة أن يثبط الناس عما ينوون فعله قائلاً لهم:"يا إخوتي، لقد هلك جيل الطوفان بسبب خطايا كالتي تريدون ارتكابها الآن، وسوف تنالون نفس عقابهم، ولكنهم أجابوه قائلين: تنح عن طريقنا، فلو جاء إبراهيم بنفسه فلن نأبه به، أيمكنك أن تتجاهل قانونًا أقره أسلافك؟[612]"، و"ظل الرب يحذر الكفار طوال اثنين وخمسين عامًا، وجعل الجبال تهتز وترتعد، لكنهم لم يسمعوا صوت وعيده، وأصروا على خطيئاتهم؛ فحلت عليهم العقوبة التي استحقوها عن جدارة، فالرب يغفر كل خطيئة إلا حياة الشهوات، ولأن كل هؤلاء الخطاة كانوا يعيشون حياة الفاحشة فقد أحرقوا بالنار[613]".

[612] "أساطير اليهود"، ص 231.

[613] المرجع السابق، ص230.

(4)
قطع السبيل

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ (العَنكَبُوت: 29)، "وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، أى يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ[614]".

لم تتعرض التوراة أيضًا لما ورد في القرآن الكريم من اتهام أهل تلك المدن بقطع السبيل وانتهاب المارة ببلادهم، رغم أن تلك المدن كانت كما هو معروف مدنًا تجارية، ولا يتوافق نشاطها التجاري مع ذلك السلوك العدائي الكفيل بكساد التجارة وبوارها، بل على النقيض من ذلك، فلقد اشتهرت المدن التجارية عبر التاريخ كله بخلاف ذلك تماما، من الاحتفاء بالغرباء، وتسهيل وجودهم وإغوائهم بزيارتها، والتردد الدائم عليها، بل المكث فيها بالمحرم والمباح. ولكن هذا الاتهام الغريب يحضر في المرويات التلمودية على هذا النحو الفكاهي: "وإن مر بأرضهم تاجر غريب يحاصرونه كبيرهم وصغيرهم على السواء، ويسلبونه أيًا ما يكون معه، وكان كل منهم يخطف منه شيئًا حتى يجردوه في النهاية من كل ما معه، وإن احتج الغريب على أحدهم يقول له "إنه لم يأخذ منه إلا شيئًا يسيرًا لا يستحق عناء الكلام عنه)، وفي النهاية كانوا يطردونه من المدينة [615]".

ونجد في الرواية التلمودية السابقة ملمحًا سوف يتوسع فيه النبي محمد إلى أقصى الحدود، وهو تخويف كل نبي قومه من مصائر الأمم الهالكة، ولا شك في أن هذه الإضافة التلمودية ما كانت لتخطر في عقل كاتب التكوين، الذي لم يكن يفترض أن أهل سدوم كانوا يعرفون نوحًا أو يقرون بأسطورة الطوفان، فلم يجر ذكر لتلك الواقعة حتى على لسان إبراهيم، ولا حتى موسى خارج سفر التكوين، ما يرجح معه أن تلك الحكاية الطوفان قد كتبت بعد كتابة القصص المتأخرة عنها في الزمان، وأما النبي محمد فسيجعل من دأب كل رسول، ومن واجبه أيضا أن يحذر أمته التي بعث فيها من مصائر الأمم الهالكة جميعًا بدءًا من (هود) نبي عاد، وهو أول الأنبياء المذكورين في القرآن بعد الطوفان، الذي حذر قومه من مصير قوم نوح، وستكبر الكرة كلما مضت في طريقها

(614)"مختصر تفسير ابن كثير" للصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة 1981م، ج2، ص35.
(615)"الأساطير" ج1، ص 223.

بتوالي الأنبياء وتواتر الإفناء للأمم المكذبة، وصولا إلى تحذير النبي محمد قريشًا من مصائر الجميع.

وإذا كانت التوراة لم تجد ضرورة لبيان كفر مدن لوط، بل اكتفت بعرض فسقهم، فإن المرويات التلمودية قد فعلت ذلك، فقد جمعت لهم بين الكفر والفسق: "وكان سكان سدوم وعمورة والمدن الثلاث الأخرى في السهل خطاة وكافرين بالرب(616)"، "وكان أهل سدوم أشرارًا، الرجل تجاه رفيقه، ومذنبين أمام الرب: يكشفون عريهم، يسفكون الدم، يتعبدون للأصنام(617)"، "ويفسر ترجوم آخر، يكشفون عريهم من أجل الزنا بشكل عام، والزنا بين الذكر والذكر بشكل خاص(618)"، أما عن فسقهم ومجونهم فلا أوضح من هذا النقل: "وكان في بلدهم واد ممتد مترام يجتمعون فيه كل عام مع زوجاتهم وأطفالهم، وكل ما لهم في احتفال يستمر عدة أيام، ويحتوي على أفحش صنوف العربدة (619)".

ثالثا: ظواهر قرآنية:

(1)

مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠

* وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١* (الأَعۡرَاف: 8081)، *وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨* (العَنكَبُوت: 28).

قرر القرآن في غير موضع أن قوم لوط كانوا هم أول مجتمع بشري أدخل إلى العالم تلك الفاحشة الأخلاقية الغليظة، التي استحقوا من أجلها أساسًا التدمير والإهلاك،

---

(616)"الأساطير"، ج1، ص224.

(617)ترجوم نيوفيتي - سفر التكوين ترجمة الخوري بولس الفغالي، ص60.

(618)انظر هامش الصفحة في المرجع السابق ص60.

(619)"الأساطير"، ج1، ص 223.

وإلا فقد كان الكفر يغمر كل الأرض مشارقها ومغاربها، ولسنا بحاجة إلى تقرير ما يعرفه كل أحد من أن هذا السلوك الجنسي، وهو الموجود في الرئيسيات، وفي بعض ما دونها من عالم الحيوان، ما كان لينتظر إلى زمن لوط؛ أي قرابة عام ألف وسبعمائة قبل الميلاد حتى يظهر.

لا ندري يقينًا هل كان القرآن الكريم يقصد بأن قوم لوط هم أول من ابتدعوا تلك الفاحشة؛ أي أنها فاحشة لم يعرفها من قبلهم آحاد البشر، كما لم يعرف البشر مثلا جريمة القتل قبل ارتكاب أحد ابني آدم لتلك الجريمة، أم كان القرآن يقرر بأن تلك الفاحشة التي ربما عرفها آحاد الناس متفرقين لم تستشرِ، ولم تشع على نطاق واسع في أي مجتمع من المجتمعات البشرية قبلهم، ما استدعى التدخل الإلهي لاستئصاله وتدميره لارتكابه تلك الجريمة الأخلاقية المنكرة؟

لكن إذا تذكرنا في البداية أن النبي كان يعد المرويات الكتابية هي السجل الوحيد لمعارف وأخبار العصور القديمة وما حدث فيها، فمن الطبيعي أن نظن بأنه كان يتخذ من ظهور أي حادثة للمرة الأولى على صفحات هذا الكتاب، بمنزلة نقطة البدء لحضورها في تاريخ الجماعة البشرية كلها؛ لذا يمكننا أن نرجح بل نقطع بأن القرآن كان يقصد بأن أحدًا من بني البشر لم يعرف هذه الفاحشة قبل قوم لوط، معتمدين على عدة أمور أولها: أن ظاهر النص يقول بهذا؛ فدلالة تعبير (من أحد من العالمين) واضح بذاته في التعبير عن استغراق جميع البشر من قبلهم أفرادًا كانوا أو جماعات. وأيضًا لأنه، وعلى هذا النحو، فهمه المفسرون القدامى والمحدثون، فمثلا نجد ابن كثير يقول عن لوط: "فبعثه الله إلى أَهْلِ سَدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ إِتْيَانُ الذكور دون الإناث، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعْهَدُهُ وَلَا تَأْلَفُهُ وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سَدُومَ عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ[620]".

---

(620)تفسير ابن كثير، المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت الطبعة الأولى - 1419 هـ، ج3، ص339.

ويقول أيضًا عن قومه أنهم: (ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين[621]"، وكذلك الطبري: "وَكَانَتْ فَاحِشَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَأْتُونَهَا الَّتِي عَاقَبَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا: إِتْيَانُ الذُّكُورِ *مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾* (الأَعْرَاف: 80)، يَقُولُ: مَا سَبَقَكُمْ بِفِعْلِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ[622]"، وأيضًا يقول ابن عجيبة:"يقول الحق جلّ جلاله: وَأرسلنا لُوطًا إذ قالَ لِقَوْمِهِ واعظًا لهم: أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أي: اللواط توبيخًا وتقريعًا على تلك الفعلة المتناهية في القبح، ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أي: ما فعلها أحد قبلكم، وبخهم على أمرين: إتيان الفاحشة، واختراعها[623]".

بل لقد بالغ أحد المؤرخين المتأخرين في نفي هذا النزوع الجنسي من بين جملة النزوعات البشرية أساسًا قبل أن يبدعه قوم لوط جالبين إياه للبشر من عالم الحيوان فنجده يقول:

"وأمّا لوط فهو ابن أخي إبراهيم. وقيل: بل ابن أخته. وهو لوط بن هاران، بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم. وكان هؤلاء القوم يأتون الذّكران، وما سبقهم بها أحد من العالمين. وقيل: إنّما تعلّموا اللّواط من الحمير. فإنَّ الذكر يركب الذكر من الحمير. وذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أيضًا، أن هذه خاصية في الحمير[624]".

من ناحية أخرى، لدينا عدد غير قليل من الأحاديث الصحيحة التي تتخذ من ورود بعض الأفعال والسلوكيات في المرويات الكتابية سندًا لعدِّها أول الأفعال في تاريخ البشر كله، وعلى نحو لا خفاء فيه، وسنكتفي الآن بإيراد بعض الأمثلة على ذلك: "كان أول من ضيف الضيف إبراهيم، وهو أول من اختتن على رأس ثمانين سنة واختتن بالقدوم[625]"، "أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي

[621]"قصص الأنبياء" ابن كثير، مكتبة العلم، الطبعة الأولى 2001م، ص 180.

[622]"تفسير الطبري" تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2001 م، ج10، ص 304.

[623]"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي، المحقق أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، الطبعة 1419 هـ، القاهرة، ج2، ص 236.

[624]"كنز الدرر وجامع الغرر" أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، الناشر عيسى البابي الحلبي، 1994 م، ج2، ص 216.

[625]"سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1995 م، المجلد الثاني، رقم الحديث 727.

أثرها على سارة[626]"، "لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها[627]".

فكما نرى، فلقد جعل الحديث الأول من إبراهيم هو أول من استضاف الأضياف، بل هو أول من اختتن في الجنس البشري كله، ولنقف برهة عن هذا الاعتقاد النبوي ومدى صحته تاريخيا.

ختان إبراهيم

لا حاجة بنا إلى القول بأن شعيرة الختان أقدم بكل تأكيد من إبراهيم، ومن زمن إبراهيم، فهذه الشعيرة التي لا نعلم يقينًا أصلها البعيد؛ إذ هناك من يرجعها إلى "نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الإنسان إلى أربابه، وتعدُّ أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة. فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه، تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد، كما كان حلق الشعر كله، أو جزء منه نوعًا من أنواع التقرب إلى الآلهة [628]".

وهناك من لا يرى فيها سوى إجراء صحي كان سائدًا في بلدان المناطق الحارة: "وكان هذا الختان يعد قربانا ليهوه وعهدا بينه وبين عباده؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين، والأحباش، والفينيقيين، والسوريين، والعرب، يوحي بأنها كانت إجراء صحيا يحتمه الجو الذي يساعد على النضوج والاهتياج الجنسي المبكرين، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة"[629]، (ومن المحتمل في هذا الإطار أن لتأكيدات علماء الآثار بأن الختان كان ممارسة رعوية تخص جماعات سامية (بدوية) غربية (من الجزيرة العربية) أهمية استثنائية في سياق فهم مضمون أسطورة ختان إسماعيل وشرم أذن الناقة؛ إذ عثر علماء الآثار في موقع (تبة كورا) شمال العراق على نموذج صخري من عضو الذكورة مختونا، وهو يعود بحسب ما نقل هاري ساكز (عظمة بابل - 211)

---

[626]متفق عليه.

[627]"كتاب صحيح الجامع الصغير وزياداته" للألباني، المكتب الإسلامي، حديث رقم 5330.

[628]"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" دار الساقي، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م، ج8، ص244.

[629]"قصة الحضارة" وِل ديورانت، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان1988م، ج14، ص24.

إلى نحو 3000- 2500 ق م أي إلى ما قبل العهد الأسطوري لإبراهيم وموسى كما تحدثت عنه التوراة [630]".

وسواء أصح هذا التفسير أم ذاك أو غيرهما، فالختان يقينًا لا يبدأ في العالم مع إبراهيم كما اعتقد النبي، ولا يختص بالعبرانيين والعرب كما اعتقد المسلمون زمن البعثة النبوية كما يظهر من هذا الحديث الصحيح؛ حيث جعلوا من اعتقادهم الخاطئ هذا جزءًا من اعتقاد الأمم جميعًا "فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تَخْتَتِنُ إلا يَهُودَ[631]".

وعلى هذا، فما وجه الغرابة في أن يعتقد النبي في مثل هذا الاعتقاد؟ فإذا كان الختان خاصًّا باليهود، وكان أول من اختتن هو إبراهيم، فما المانع أن يكون هو أول الأفعال البشرية؟

بل إننا نعتقد بأن في التقرير النبوي الجازم على أن إبراهيم كان أول المختتنين ما يدل على متابعة النبي لخرافة يهودية أخرى، وهي أن رجال الله السابقين على إبراهيم كانوا يولدون مختتنين، ولكن بداية من إبراهيم فقد احتاج عموم الصالحين إلى من يقوم لهم بتلك الشعيرة[632]، وإن لم نعدم بعض الصالحين بعد إبراهيم، وقد ولدوا مختونين كيوسف ويعقوب، وسوف يتخلف من هذا الاعتقاد عن الختان الإلهي لرجاله المباركين ما شاع، ولم يثبت من أحاديث الشمائل النبوية أن النبي محمد نفسه قد (وُلد مختونًا مسرورًا).

وأما الحديث الثاني: فيجعل من هاجر أول امرأة اتخذت مِنطقًا؛ أي ما تشده المرأة على وسطها، وسوف نقف عنده عند عرضنا للقصص في الحديث النبوي.

ويتخذ الحديث الثالث من مخالفة بني إسرائيل لوصية موسى وادخارهم المن سببًا في إدخال عملية التحلل البكتيري إلى العالم، وما يستتبعه من خبث الطعام وفساده فلنقف قليلا عند هذا الحديث: (لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها).

إذا نظرنا إلى معنى هذا الحديث المنسوب إلى النبي الذي أوردته أكثر المتون الحديثية صحة لوجدناه يقرر، بجلاء لا لبس فيه، السبب الذي أدخل إلى العالم الطبيعي

---

[630]"شقيقات قريش" فاضل الربيعي، رياض الريس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، يونيو، 2002م، ص266.

[631]"منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري" لحمزة محمد قاسم، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية 1990 م، ج1، ص68.

[632]"أساطير اليهود" ج1، ص123.

هذه الظاهرة، وعلى هذا النحو فهم شراح الحديث القدامى كما سنرى وعدُّوه تفسيرًا معقولا، ولا غبار عليه، وتابعهم في ذلك المتأخرون الذين يصدرون عن الثقافة ذاتها، ودع عنك تلك المحاولات الخجلى لبعض المعاصرين، التي لا تقدم ولا تأخر، ولا تعبر إلا عن حرج هؤلاء أمام هذا التفسير النبوي المخالف لأبسط معارف ومقررات علم الأحياء الحديث.

لعل القارئ الحديث يجد مثل هذا التفسير النبوي عجيبًا حتى إنه ليتردد في نسبته إلى النبي أو يصدق في أن يصدر عنه أمثال تلك الأقوال، ولكن الحقيقة أن هناك تفسيرات أشد غرابة لظواهر طبيعية وعلمية أبسط كثيرًا وسادت عشرات القرون دون أن يجد أشد عقول أهل تلك الأزمنة فطنة وذكاء حرجًا في قبولها؛ فقد بدت لهم أمثال تلك التفسيرات معقولة ومقبولة، وعلى هذا فهم الشراح المسلمون هذا الحديث، ونقدم مثالين لأهم شارحين من شراح الأحاديث:

"قَوْله: (لم يخنز اللَّحْم)، بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة وَفتح النُّون وبالزاي، أَي: لم ينتن، وَيُقَال أَيْضا: خنز، بِكَسْر النُّون يخنز بِفَتْحِهَا من بَاب علم يعلم، وَالْأول من بَاب ضرب يضْرب، وَيُقَال أَيْضا: خزن يخزن على الْقلب مثل: جبذ وجذب. وَقَالَ ابْن سَيّده: خنز اللَّحْم وَالتَّمْر والجوز خنوزاً فَهُوَ خنز إذا فسد، وَعَن قَتَادَة: كَانَ الْمَنّ والسلوى يسْقط على بني إِسْرَائِيل من طُلُوع الْفجْر إلى طُلُوع الشَّمْس كسقوط الثَّلج، فَيُؤْخَذ مِنْهُ بِقدر مَا يُغني ذَلِك الْيَوْم إلاَّ يَوْم الْجُمُعَة فَإِنَّهُم يَأْخُذُونَ لَهُ وللسبت، فَإِن تعدوا إِلَى أَكثر من ذَلِك فسد مَا ادخروا، فَكَانَ ادخارهم فَسَادًا للأطعمة عَلَيْهِم وعَلى غَيرهم. وَقَالَ بَعضهم: لما نزلت الْمَائِدَة عَلَيْهِم أمروا أَن لَا يدخروا فادخروا، وَقيل: يحْتَمل أَن يكون من اعتدائهم فِي السبت، وَقيل: كَانَ سَببه أَنهم أمروا بترك ادخار السلوى فادخروه حَتَّى أنتن، فاستمر نَتن اللحوم من ذَلِك الْوَقْت، أَو لما صَار المَاء فِي أَفْوَاههم دَمًا وأنتنوا بذلك سرى ذَلِك النتن إِلَى اللَّحْم وَغَيره عُقُوبَة لَهُم[633]"، "قَوْلُهُ لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ يَخْنَزُ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الْخَاءِ وَكَسْرِ النُّونِ وَبِفَتْحِهَا أَيْضًا بَعْدَهَا زَايٌ أَيْ يُنْتِنُ وَالْخَنَزُ التَّغَيُّرُ وَالنَّتْنُ قِيلَ أَصْلُهُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ادَّخَرُوا لَحْمَ السَّلْوَى وَكَانُوا نُهُوا عَنْ ذَلِكَ فَعُوقِبُوا بِذَلِكَ حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ

[633] "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج15، ص211.

وَذَكَرَهُ غَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ وَقَالَ بَعضهم مَعْنَاهُ لَوْلَا أَن بني إِسْرَائِيلَ سَنُّوا ادِّخَارَ اللَّحْمِ حَتَّى أَنْتَنَ لَمَا ادُّخِرَ فَلَمْ يُنْتِنْ[634]".

وأما عن أصل هذا الحديث فسنجده في سفر الخروج؛ حيث يحكي لنا الإصحاح السادس عشر تنويعة من تلك النغمة التي سنسمعها مرارًا وتكرارًا عن تمرد شعب الرب على موسى وتذمرهم الذي لم ينقطع طيلة أربعين عامًا: فألقَوا اللَّومَ على موسى وهرونَ في البرِّيَّةِ وقالوا لهُما: "ليتَنا مُتْنا بيدِ الرّبِّ في أرضِ مِصْرَ. فهناكَ كُنَّا نجلِسُ عِندَ قُدورِ اللَّحمِ ونأكُلُ مِنَ الطَّعامِ حتى نشبَعَ، فلماذا أخرجتُمانا إلى هذِهِ البرِّيَّةِ لِتُميتا هذا الجمْعَ كلَّهُ بالجُّوعِ؟".

فأنزل عليهم من اصطفاهم دون كل البشر سقيط الندى، وجعله لهم كبديل عن خبز المصريين، وأباح لكل واحد أن يأخذ مقدار حاجته منه، ونهاهم أن يدخروا منه شيئًا عدا يوم الجمعة؛ فقد أباح لهم أن يأخذوا ما يكفيهم ليومين؛ بسبب شريعة السبت التي تحرم أن يحرك الإنسان ساكنًا في ذلك اليوم، ولكن وكما هو متوقع دائمًا وأبدًا فقد خالف الشعب تلك الوصية الهينة اليسيرة: (وقالَ لهُم موسى: "لا تُبقُوا شيئًا منهُ إلى الصَّباحِ". فلم يسمعوا لَه وأبقى منهُ بَعضُهُم إلى الصَّباحِ، فدوَّدَ وأنتَنَ. فغضِبَ علَيهِم موسى. وكانوا يلتقطونَهُ في كُلِّ صباحِ، كُلُّ واحدٍ على قَدْرِ حاجتِهِ، فإذا حميَتِ الشَّمسُ كانَ يذوبُ. ولمَّا كانَ اليومُ السَّادسُ التقطوا طَعامًا مُضاعفًا، غُمرَينِ لكُلِّ واحدٍ، فجاءَ جميعُ رؤساءِ الجماعَةِ وأخبروا موسى. فقالَ لهُم إنَّ الرّبَّ يقولُ: "غدًا يومُ عُطلَةٍ، سَبْتٌ مُقدَّسٌ لَه. ما تريدونَ أنْ تخبزوهُ فاَخبزوهُ، وما تُريدونَ أنْ تطبُخوهُ فاَطبُخوه. وكُلُّ ما فضِلَ اَحفظوهُ لكُم إلى الغدِ". فتركوهُ إلى الغدِ كما أمرَ موسى، فما أنتَنَ ولا كانَ فيهِ دودٌ).

من يتأمل هذا النص الذي كما نعتقد يشكل إلى حد ما الأساس التفسيري الواضح لهذا الحديث، فسيرى أن التوراة لم تقل أكثر من أن المن عندما ادخر دون مبرر سوى الحرص فإنه قد فسد فسادًا لايمكن تأويله إلا على كونه عقوبة إلهية؛ لأنه من غير المعقول في الحالة الطبيعية أن يتولد الدود من استبقاء الطعام ليوم أو بعض يوم،

---

(634)"فتح الباري شرح صحيح البخاري" أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، 1379، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، ج6، ص367.

والأوضح من ذلك أنه عندما كان الادخار مبررًا فلم يعرض له الفساد وإن طالت المدة، دون أن تنص التوراة على عدم فساد الطعام قبل تلك المخالفة كما ينص هذا الحديث. وعلى هذا فإذا كانت القصة التوراتية تخلو من هذا الاعتقاد فمن أين استقاه النبي؟ إنها القصص والمرويات التلمودية كما يظهر من هذا النص: "هكذا كان جيل أنوش أول من عبد الأصنام، ولم تتأخر عقوبة هذه الغباوة طويلا، فقد أمر الله البحر أن يتجاوز حدوده، ويغرق قطعة من الأرض، وكان ذلك أيضًا هو الزمن الذي تحولت فيه الجبال إلى صخور، وبدأت جثث الموتى تتعفن، وكذلك كانت هناك عقوبة أخرى لعبادة الأصنام، وهي أن ملامح الأجيال التالية لم تعد على مثال صورة الرب مثلما كانت ملامح آدم وشيث وأنوش، فقد أصبحت مثل ملامح القناطير والقرود وزال عن العفاريت خوفها من البشر[635]".

إذن، ربما كان هذا النقل هو مصدر الاعتقاد النبوي وإن جعلته المرويات التلمودية قبل زمن موسى بكثير، فقد أرجعت الخرافات اليهودية تلك العملية إلى عبادة جيل الطوفان للأصنام مع بقية العقوبات، مثل ظاهرة المد والجزر وتحول الجبال إلى صخور، ولعلهم يقصدون تحجر التراب والرمال وتحولهما إلى صخور، ولا ندري ما يضير الناس من تحول الجبال إلى صخور، وأيضا تغير صورة البشر وابتعادها عن جمال صورة الرب، وعلى هذا فليست القرابة التطورية بين البشر والقردة هي سبب تلك الملامح القريبة بين القردة والبشر، بل كان البشر قبل الطوفان يحملون ملامح الله نفسه، ولكنهم ومذ عوقبوا حتى صارت ملامحهم دميمة قبيحة ذات شبه بالقردة والقنطور، وهو تصور فيه من التجسيد ما يغني عن الإشارة إليه، وكذا اجتراء العفاريت على البشر بعد غادرتهم فيما يبدو بركة الصورة الإلهية.

لا يعنينا في هذا المقام سوى ما يجمع بين الحديث النبوي وتلك الخرافة اليهودية من عدِّ تلك الظاهرة عقابًا إلهيًّا للبشر، وأنها لم تكن موجودة قبل معصيتهم لله، وهو تفسير يعنى بداهة غياب التفسير العلمي الصحيح لتلك الظاهرة التي ظلت قرونا بعد زمان الرسول لغزًا لا حل له، فلم يكن النبي ولا غير النبي يعرف شيئًا عن دور الفيروسات والميكروبات والفطريات ودور الخمائر والانزيمات، ولا يعرفون شيئًا عن العوامل الكيميائية التي تحدث نتيجة التفاعل بين مكونات المادة الغذائية.

---

[635]"الأساطير"، ج1، ص 125.

وإذا تركنا مسألة فساد اللحم، ونظرنا إلى الشطر الآخر من الحديث الذي ينسب إلى حواء خيانة آدم وكيدها له، لوجدنا مفهومًا يهوديًّا- مسيحيًّا أصيلا، وهو ما يخالف التصور القرآني بشكل كامل؛ فالقرآن الكريم، بل الأحاديث الصحيحة، لا تذكر قط أي مسئولية لحواء في غواية آدم، ولا تعدها محرضة على العصيان، وحض آدم على الأكل من الشجرة، فيما تقول التوراة كل ذلك كما ينص سفر التكوين، ولا يعنينا من هذا الشطر شيء سوى ما يدل عليه اقتران هذا التفسير الخرافي مع هذا المفهوم اليهودي الخالص ما يدلنا على وحدة مصدر هذا الاعتقاد النبوي العجيب.

فلنا إذن، اعتمادًا على هذه الأحاديث وغيرها كثير، ما يبرر لو شئنا أن نقول إن القرآن كان يقرر أن هذا الفعل المشنوء لم يفعله أحد قط قبل قوم لوط، ومن ناحية أخرى فإن الظاهر من سياق الآيات التي يخاطب فيها لوط قومه توحي بوضوح أنه يقصد أن تلك الفاحشة لم يأتها أحد من البشر قبلهم، لما يشع فيها من دهش واستقباح شديدين، ولربما اعتقد النبي في أنها لو ظهرت قبلهم لعاقب الله تلك الأمة، ولأخبرنا خبرهم، لبشاعة تلك الفعلة، وهذا بدوره يسلمنا إلى نقطة البدء من جديد.

على كل حال، فهذا التقرير القرآني الجازم هو اعتقاد غير صحيح فلقد عرفت البشرية بالتأكيد هذا السلوك الجنسي الخاص سواء على مستوى الأفراد والجماعات قبل قوم لوط بزمن بعيد.

فقد جاء مثلا في النصوص المصرية القديمة أن الفرعون بيبي الثاني وهو آخر ملوك الدولة القديمة؛ أي قبل لوط بنحو ألف عام كان مغرمًا بأحد قواده[636]، ونجد في النصوص الفرعونية روحًا تتبرأ في المحاكمة أمام الإله أوزوريس، وتعلن:"لم أرتكب ذنبًا ضد الناس...، لم أضلل الرعية...، لم أرتكب إثمًا في دار الحق...، ما قسوت على فقير، ما حرضت عبدًا على سيده...، ما أمرضت "إنسانًا"، وما أبكيت إنسانًا...، لم أقتل ولم آمر بقتل...، لم آت اللواط[637]"، وكذلك حرمت التشريعات الآشورية اللواط، وعاقبت عليه فقد عثر في أطلال العاصمة آشور "قلعة الشرقاط الحالية" على لوحات تشريعية نسخت نصوصها "على لوحات من الصلصال" خلال عهد تيجلات بيليسر

[636]"معجم الحضارة المصرية القديمة" مجموعة مؤلفين، ترجمة أمين سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001 م، ص 314.

[637]"الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق" عبد العزيز صالح، مكتبة دار الزمان، القاهرة 1984م، ص339.

الأول في القرن الثاني عشر ق. م، ولكن ذهب ترجيح بعض الباحثين إلى رد أصول تشريعاتها إلى ما قبل عهده بزمن طويل، وربما إلى أواسط الألف الثاني ق. م2، ... وفيها:"وكافحت اللواط فقضت بنكح من يأتيه مع جاره وخصيه، وقضت على من يتهم جاره بأنه مأبون ثم لم يقم البينة على ادعائه، بخصيه وضربه خمسين عصا وتغريمه 60 مينه من الرصاص وتسخيره شهرًا في أعمال الملك[(638)]".

وعلى مستوى المجتمعات القديمة، فلقد عرفت دول المدن الرافدينية هذا السلوك على نطاق واسع بحيث يتخطى كونه فعلا فرديا، كما نقرأ في هذا النص: "إن فقرة من ملحمة جلجامش لتؤكد أن الجنسية المثلية (اللواط) لم تكن ممنوعة آنذاك، بل كانت على العكس مألوفة وشائعة؛ إذ نقرأ فيها دعوة كاهنة الحب (أمة المعبد) لإنكيدو الأسطوري ابن الطبيعة الذي كان نصفه إنسانًا ونصفه الآخر حيوانًا، تستحثه للمضي إلى أهل أوروك، أولئك الذين يشدون كواهلهم بفاخر الأحزمة، ويزهون دومًا بحلل الاحتفال؛ ففي أوروك يحتفل الناس في كل يوم بعيد حيث يهب الغلمان المخنثون الفرح والمتعة التي حلت بهم وباللذة يسرفون[(639)]".

فلا علينا أن نقول إنه نظرا لاعتماد النبي على المرويات الكتابية بوصفها تاريخ العالم أو تكاد، وأن أول ما يأتي فيها وإن لم تقل هي بذلك، فهو أول تلك الأفعال وأقدمها، فقد عدَّ القرآن أن ظهور تلك الفاحشة في قوم لوط هو مبدأ تلك الفاحشة، ونقطة ميلادها، لا لشيء سوى أنه لم يسبق أن جاءت تلك الفعلة قبل ذلك في المرويات الكتابية التي بلغته، والتي آمن النبي بإخلاص تام في قدسيتها وصحة مصدرها الإلهي.

نستطيع أن نقول إنه لم يخل مجتمع إنساني قديم أو حديث من تلك الظاهرة؛ لأن بواعث حضورها متعددة للغاية، سواء أجاءت من اضطرابات هرمونية لا دخل للإنسان فيها، أو من تجارب خاصة يتعرض لها بعض الأفراد في أثناء ما يسميه علماء النفس (فترة التوجه الجنسي)، أو بسبب الاسترسال في الفسق، وما يستتبعه من اللهاث المحموم لتجربة أحاسيس جنسية مغايرة، ويلاحظ أنها دائمًا ما تشيع على نطاق واسع في المجتمعات العبودية التي يكثر فيها الأرقاء؛ حيث يكون هؤلاء المساكين موضوعًا لتلك

(638)المرجع السابق، ص 501.

(639)"الجنس في العالم القديم" بول فريشاور، ترجمة فائق دحدوح، طبعة أولى 1999، ص 79.

الممارسات الجنسية الفجة رغمًا عنهم، وبدرجة أقل في المجتمعات الذكورية التي يفصل فيها بين الجنسين على نحو صارم شديد، ولربما كان في ضعف حضور هذا النوع من الممارسات الجنسية في بيئة بدوية ما ساعد النبي على استنكارها وإرجاعها إلى فساد طوية هؤلاء الأقوام الغابرين، وسنعود لتلك النقطة لاحقًا عند تعرضنا لمغزى كل هذا الحضور الكبير للوط في القصص القرآني الكريم.

(2)
لماذا هلكت امرأة لوط؟

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ (التَّحۡرِيم: 10).

كما علمنا من قبل بأن القرآن الكريم لم يحفل بذكر شيء قليل أو كثير عن مصائر المؤمنين الناجين من الدمار، فلم يكن من بين أغراضه التأريخ لمن نجا، بل المقصود هو إعلان نجاة المؤمنين، وتقرير هلاك الكافرين وكفى؛ لذا فلا غرابة ألا يذكر القرآن شيئًا عن مصير لوط بعد نجاته مع بقية أهله، عدا امرأته التي جعلها من بين الكافرين بدعوة زوجها ورسالته، فشاركت الهالكين مصيرهم، ولكن لما كنا نعلم بأن هذا التأسيس على قاعدة الإيمان والكفر لا موضع له داخل الرواية التوراتية، ما جعلنا نميل إلى إلحاق مصير امرأة لوط بالمتابعات القرآنية النادرة للقصص الكتابي الذي تحضر فيه واقعة أو تفصيلة من تفاصيل الحدث داخل سياق قصة قرآنية، ويغيب مضمون ومغزى دلالتها، فيكتفي القرآن بإيرادها دونما تبرير اكتفاءً بالمعنى والحكمة المفترضة في الأصل المنقول عنه، وسنحاول وسعنا أن نتبين السبب الحقيقي لهلاك تلك المرأة.

ولكن لما كانت التوراة بدورها لا تذكر لتلك المرأة ذنبًا واضحًا سوى أنها خالفت الأمر الإلهي بعدم الالتفات خلفها، فصارت عمود ملح هكذا فقط، وهو أمر ينطوي كما ترى على غموض والتباس شديدين، وهو ما أعطى الكتابين المقدسين التاليين الفرصة لإعطاء كليهما تفسيرًا يتلاءم كل مع رؤيته؛ فالقرآن بوصفه يركز على الخطيئة العظمى وهي الكفر، فقد عدَّها كافرة، والإنجيل حيث يركز على الخطيئة العظمى، وهي التعلق

بالعالم وإشاحة الوجه عن الملكوت فقد عدَّها مثالا للحمقى الذين يهلكهم التشبث بمتاع هذا العالم الزائل.

فبينما نجد القرآن لا يذكر امرأة لوط في أي موضع من مواضع القصة إلا بهذا الوصف الثابت؛ أي بأنها كانت من (الغابرين)؛ أي الباقين الهالكين، وهو وصف قد تكرر في القرآن سبع مرات، ولا شيء سوى ذلك عبر القرآن المكي كله، فلم نعلم عن تلك المرأة المجهولة شيئًا يفسر سبب هلاكها سوى ما يقرره القرآن، ضمنيًّا، من أن هلاكها كان من تقدير الله العادل، سواء أعلمنا السبب واضحًا أو جهلناه تمامًا، ما يوحي يقينًا بأن النبي محمدا لم يكن يعلم شيئًا مطلقًا عن سبب هلاكها، بل يدل أيضًا على أنه لم يأخذ على محمل الجد السبب الصوري لهلاكها كما جاء في التوراة، وهو مخالفتها لذلك الأمر الإلهي الغامض بعدم الالتفات؛ لذا فلا غرابة في أن يجتهد النبي محمد لملء هذا الفراغ، وتقديم سبب حقيقي لهلاكها، وليس من سبب يتوافق مع عقيدة النبي وانطلاقًا من تصوره سوى أن يكون هلاكها لموبقة الكفر وخيانة زوجها النبي في أمانة عقيدته، وهذا ما فعلته تلك الآية من سورة التحريم، وهي من السور المدنية المتأخرة، وأشركت معها في السياق ذاته امرأة نوح لما يشتركان فيه من غموض في تلك النقطة؛ أي خفاء سبب هلاكهما في سياق القصة الأصلية؛ حيث لم تذكر امرأة نوح فيها أصلا ثم إنهما يعرضان للمخاطبين بالقرآن كمثالين لمعنى جاءت تلك السورة المتأخرة لتأكيده خاصة مع ملابسات نزولها المعروفة من نشوز بعض نساء النبي عليه وإغضاب بعضهن له، حتى لقد هم النبي بتطليقهن جميعًا، فكان في استحضار هاتين المرأتين مثال صالح لتقرير تلك العقيدة القرآنية الراسخة: وهي أن الأنبياء لا يستطيعون لأقرب أقربائهم ضرًّا ولا نفعًا إن كان هؤلاء الأقربون قد ارتكبوا تلك الموبقة العظمى، وهي الإشراك أو الكفر بالله، وكذلك مخالفة أمر أزواجهم من الأنبياء، والخروج على أحكام شريعة الله التي جاءوا بها، وأيضًا لبيان أن الإيمان لا يأتي إلا لمن يستحقه؛ وإلا فقد كان أولى الناس به هم هؤلاء الأقربون، ومن أقرب إلى الرجل من امرأته؟ ولكن تلك المخالطة لا قيمة لها إن خلا القلب من نور الإيمان، كما أن مخالطة الكافرين قد لا تفضي بالضرورة إلى المتابعة لهم في كفرهم، مثلما كان من امرأة فرعون التي لم يضرها في شيء أن كانت زوجًا لأعتى أمثلة الكفر والطغيان والتأله في القرآن كله.

وسوف نعرض لأمثلة من أقوال المفسرين كنماذج لحيرة الناظرين في القرآن أمام تلك النقطة المبهمة؛ حيث أفاض المفسرون في شرح دلالة هذا النهي الإلهي للوط ومن معه بعدم الالتفات والمضي إلى حيث يؤمرون، وقد حاول المفسرون جاهدين إعطاء هذا النهي الغامض دلالة تتفق مع ما جاء في آية سورة التحريم من النص على كفرامرأة لوط، فمثلا نجد في تفسير الخازن ما يفيد بولائها لقومها الكافرين، وانتمائها الشعوري والعقدي لهم، وعلى هذا فليس الالتفات بذي قيمة في حد ذاته، بل لما يكشفه من خفايا القلوب:"وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يعني ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه ولا ينظر إلى خلفه إِلَّا امْرَأَتَكَ فإنها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى: إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ فقال لوط: متى يكون هذا العذاب قالوا إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ قال لوط إنه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟.. فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه إلا امرأته، فإنها لما سمعت هذه العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت وا قوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم[640]".

وهناك من فسر هذا الأمر الإلهي كنصيحة خالصة، ولاغاية من ورائها سوى الرأفة والرفق بالمؤمنين، كما لو أن تلك النصيحة الإلهية كانت على سبيل الاستحسان أو الندب لا الوجوب الذي يهلك من يخالفه، وهو تفسير بالغ الضعف والتهافت فمثله كمثل من ينصح إنسانًا بألا يتناول شيئًا قد يؤذيه، ولكنه عندما خالف نُصحه الرفيق قام بقتله:"ولا يلتفت منكم أحد لئلا تروا العذاب وهو نازل بهم فترق قلوبكم لهم، ولكن جدوا في المسير، وأسرعوا في الهجرة غير ملتفتين إلى من وراءكم، وامضوا حيث تؤمرون[641]".

ونجد هناك من فك الارتباط بين فعل الالتفات وهلاك المرأة، فالدعوة إلى عدم الالتفات كانت موجهة إلى نوح وبناته، وأما امرأته فلقد جرى القضاء الإلهي بهلاكها مع الهالكين، ولعلها لم تخرج مع لوط أصلا:*وَلا يَلْتَفِتْ مِنكمْ أَحَدٌ* أي لَا ينظر وراءه ولا يتخلف لمتاع أو لنحوه مما يشغلكم عن أنفسكم، واستثنيت امرأته، ووصفها الله تعالى

(640)تفسير الخازن "لباب التأويل في معانى التنزيل"، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، ج2، ص 497.

(641)"التفسير الواضح" محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة - 1413هـ، ج2، ص288.

في آية أخرى بقوله (... إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)، وإن العذاب نازل بها، كما هو نازل بهم، أي أن الحال والشأن يصيبها ما أصابهم، وعبر باسم الفاعل للدلالة على نزوله نزولا مؤكدًا بها، وقوله تعالى: (مَا أَصَابَهُمْ) في التعبير بالماضي والعذاب لم يقع بعد لتأكيد الوقوع كقوله تعالى: *أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ*[642]، وليس ببعيد أيضًا أن يكون أصل الاعتقاد القرآني الجازم بكفر امرأة لوط متابعة أخرى لقصة تلمودية قررت بوضوح كفرها بالله.

التفسير المسيحي لهلاك امرأة لوط

أما الإنجيل فيأتي على ذكر امرأة لوط وما أصابها في سياق أخروي مختلف تمامًا عن تبرير هلاكها أو حتى تفسيره، فلقد ذكر السيد المسيح امرأة لوط في معرض حديثه عن موعد مجيء ملكوت الله، فقال: "فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَنْ كَانَ عَلَى السَّطْحِ وَأَمْتِعَتُهُ فِي الْبَيْتِ فَلاَ يَنْزِلْ لِيَأْخُذَهَا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ كَذلِكَ لاَ يَرْجعْ إِلى الْوَرَاءِ. اذكروا امْرَأَةَ لُوطٍ! مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا" (إنجيل لوقا 17: 31-33)؛ أي أنه جعل منها مجرد أمثولة على هلاك المتعلقين بالعالم عبر الالتفات إليه، وعلى هذا جاءت التفسيرات المسيحية تنطلق من هذا التفسير المجازي، الذي لا علاقة له بالسبب الذي دعا كاتب التكوين لإهلاك تلك المرأة:"لقد كانت الوصية حازمة وقاطعة (لا تنظر إلى ورائك - لئلا تهلك)، وكانت امرأة لوط من أول من رأى معجزة إلهية من كل بنى البشر، فقد ضرب الملاكان أهل سدوم من الصغير إلى الكبير" (تك 19-11)، وهذا العمل المعجزي كان كفيلا بأن يجعل المرأة تعيد التفكير في حياتها ومصيرها وتدرك أن الأمر جد خطير، وأن التحذير تحذير سماوي، ولكننا نقرأ عن امرأة لوط "ونظرت امرأته من ورائه" (تك 19-26) وعبارة من ورائه تشير إلى أن هناك حوارًا كان دائرًا بينها وبين لوط، وأنه يحاول أن يقنعها ويثنيها عن التعلق بسدوم، والنظر إليها، ولكن يبدو أنها خاتلته، وهو مشغول في بعض الأمور ونظرت إلى سدوم، وواضح أنها نظرت نظرة متعمدة نحو سدوم نظرة تحسر على ما تركوه هناك من غنى ومتاع وماشية وممتلكات غير حاسبة حسن صنيع الرب معهم وإنقاذه لحياتهم من الهلاك الذي هو

[642]"زهرة التفاسير" للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ج7، ص 3736.

أفضل من كل كنوز العالم؛ لذلك كانت عقوبتها أنها تحولت إلى عمود ملح في الحال وهي في مكانها[643].

وهذا التفسير المسيحى لهلاك امرأة لوط، هو في الحقيقة مقنع للغاية، ولكن فقط من داخل الرؤية المسيحية؛ لذا فنقطة قوة هذا التفسير الجميل هي ذاتها نقطة ضعفه، وذلك لأن هذه الرؤية المعادية والمزدرية للعالم الدنيوي لم تعرفها الرؤية اليهودية، ولا تقر بها إن عرفتها، ومن عجب أن هذا الفارق الهائل بين الرؤيتين لا يحفل به الشراح المسيحيون للعهد القديم رغم أن الفارق بين التصورين اليهودي القديم والمسيحي عن الله والعالم والأخلاق ليس أقل من الفارق الذي يفصل بين أي من تلك الديانتين، والبوذية أو الطاوية.

لذا، فنحن إذ نقطع بخطأ التفسيرين الإسلامي والمسيحي لهلاك تلك المرأة فلم يتبق لنا سوى أن نحدس جاهدين للتعرف إلى سبب هلاكها بما يتوافق مع التصور اليهودي ذاته، خاصة أن التأويل المسيحي، لا موضع له في سياق الرؤية اليهودية للعالم، فلم تكن تلك الرؤية تهتم بالأخرويات من أساسها ولا تنطوي من باب أولى على شيء من تلك النزوعات الزهدية في أفراح وأشياء العالم الترابي، بحيث تدين من يتلبس بها كما الرؤية المسيحية، فلم يكن هناك غير هذا العالم على كل حال، ولا كانت تتمحور حول المفهوم التوحيدي كما جاء به الإسلام، فلم يكن لوط نبيًّا، ولا دعا هو ولا غيره من أنبياء العبرانيين إلى توحيد الله وعبادته كما يصورهم لنا القرآن الكريم.

لماذا هلكت امرأة لوط إذن؟

"مهما قالت لنا هذه القصة الغريبة فإنها بالتأكيد تخبرنا عن مدى احترام النساء في تلك الحضارة المتدنية بعنف، وعندما تحصل القصة فإن المساومة التي يضحى فيها لوط بعذرية بناته كانت غير ضرورية، لأن الملائكة نجحوا في طرد اللصوص بأن جعلوهم عميانًا بمعجزة فجائية، وبعدها فورًا حذروا لوطًا بأن عليه أن يرحل مع عائلته فورًا؛ لأن المدينة ستدمر وكل العائلة هربت باستثناء زوجته المنحوسة، التى حولها

[643]"أصعب الآيات"، ص291-292.

الرب لكومة ملح لأنها ارتكبت معصية، ربما نعدها بسيطة بالمقارنة بالعقوبة، التطلع للوراء لرؤية تلك الألعاب النارية[644]".

"لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش" (خروج 33-20)، (فقال منوح لامرأته: نموت موتا لأننا قد رأينا الله" (قضاة 13 : 22).

فمن يتأمل سياق تلك القصة إذن ويتذكر ولو لبرهة التصور اليهودي البدائي عن الله في مقابل التصورين اللاحقين له، فلن يسعه سوى الحدس بوجود دلالة أسطورية غائبة تسللت إليه من الثقافة الوثنية المحيطة به عن خطورة الالتفات والتحديق في أثناء غضب الآلهة، وحيث الموت هو عقوبة النظر إلى ما لا ينبغي أن تراه عيون الفانين من بنى البشر، ولحسن الحظ فهذا الذي غاب عن متن العهد القديم أسعفتنا به الشروح والحكايات التلمودية حيث نقرأ: "وعندما أخرج الملائكة لوطًا وأهله من المدينة أمرهم بالجري إنقاذًا لحياتهم، وبألا يلتفت منهم أحد خلفه لئلا يروا (الشكينة) التي نزلت لتهلك المدن، ولم تستطع زوجة لوط أن تتحكم في نفسها، فمن حبها الطبيعي لبناتها نظرت خلفها لترى إن كنَّ يتبعنها فتحولت إلى عمود من الملح[645]".

إنها إذن الشكينة وهي تعني في العبرية: سكن وتشير إلى لمعان أو مجد محضر الله الساكن في وسط شعبه، وقد استخدمها الترجوم ومعلمو اليهود في الإشارة إلى الله نفسه لأنهم كانوا لا يستسيغون أن ينسبوا إلى الله صورة أو عاطفة[646].

"الشخينا أو الحضرة الإلهية، وهي إحدى الأسماء التي تطلق على الله في عصر التلمود... ويشير هذا التعبير إلى ظهور الإله بمعجزة، أو إظهار مراده عن طريق نبوءة[647]".

إذن في اعتقادنا هذا هو السبب الحقيقي الذي من أجله هلكت امرأة لوط، وإذا لم يكن هذا هو السبب، فلا بد من سبب من الرتبة ذاتها، ولا حاجة بنا للتفسير الإسلامي عن مسألة الإيمان والكفر، فلم تكن تلك القضية بكل هذا الوضوح في التوراة، فضلا عن التفسير المسيحي الذي لا يقدم شيئًا ولا يؤخره، بل لربما كان الأمر أيسر من هذا كله،

---

[644]"وهم الإله" ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية، ص 240.

[645]"الأساطير اليهودية"، ج1، ص 232.

[646]"قاموس الكتاب المقدس"، ص 214.

[647]"التلمود البابلي" المجلد الأول، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، الطبعة الأولى 2011م، ص 139.

ويكون إهلاك امرأة لوط مجرد حيلة، أو ضرورة فنية لما يضمره الكاتب من أنسال لوط من ابنتيه، كما لو كان يريد أن يجمع المؤابيين والعمونيين بالعبرانيين عبر صلة تجمع بين القرابة الدموية الوطيدة من ناحية، وبين الخزي الأبدي بسبب من عار سفاح القربى من ناحية أخرى، وما كان هذا ليتحقق إلا لو تخلص من امرأة لوط وأبنائه، وكم كنا نتمنى أن نجد أصل هذه التفصيلة التي لا نشك في أن لها موضعًا في داخل حكاية أسطورية أخرى تنتمي إلى تلك المدة، وهي أسطورة تحول البشر إلى تماثيل من الملح؛ إذا ما خالفوا ما لا ينبغي مخالفته من وصايا الآلهة، فليبحث عنها من يشاء.

(3)
لوط وقومه

جعل القرآن الكريم من لوط رسولا بعثه الله إلى قومه كما كان الأنبياء جميعًا رسلاً من الله إلى أقوامهم اتساقًا مع القانون القرآني الشامل، الذي تعبر عنه هذه الآية الجامعة:*وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾* (إِبۡرَاهِيم:4).

أي إن الله لا يرسل إلى الناس إلا من يتكلم بلغتهم، ويعرف ثقافتهم وينتمي إليهم؛ فالنبي من قومه وإليهم، وليس لوط ببدع من الرسل، فلا بد من أن يجري عليه ما جرى على الأنبياء السابقين عليه واللاحقين به، وإلى هذا أشارت جميع الآيات التي أوردت قصته وأخباره ومن ذلك: *فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾* (هُود: 74)،*وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾* (الحَج: 43)، *كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾* (الشُّعَرَاء: 160)، *وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾* (ص: 13)، فهل كان لوط ينتمي حقًا إلى تلك المدن الفاسقة؟

من المعروف أن لوطًا لم يكن ينتمي إلى أهل تلك المدن التي عاش في جوارها، وبعثه الله إليها فلماذا سماهم القرآن قومه مع أن القرآن يقرر بجلاء متابعًا الرواية التوراتية في أن لوطًا كان طارئًا على تلك البلاد وغريبًا عن أهلها كما جاء في سورة

العنكبوت:*فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾* (العَنكَبُوت: 26)، وسواء أكان المقصود بالمهاجر إلى ربه هنا هو لوط أو إبراهيم، فكلاهما كما يذكرلنا القرآن قد غادر قومه وبلاده إلى بلد جديد، فلماذا جعل القرآن من أهل تلك المدن التي عاش لوط في إحداها وعلى مقربة منهن جميعًا أهله وقومه؟

لو لم يورد القرآن الكريم أن لوطًا كان مهاجرًا إلى تلك المنطقة، وغريبًا عن أهلها ما توقفنا عند تلك النقطة، ولو للحظة واحدة، ولما اعتبرناها سؤالا يستحق التوقف عنده، فلسنا نعتمد صحة رواية دينية أو تخطيئها احتكامًا إلى رواية دينية أخرى.

فمثلا نجد أن القرآن الكريم يذكر لنا أن أبوي يوسف قد خرا له سجَّدًا في نهاية السورة تحقيقًا لنبوءته في أولها، فليس لنا مثلا أن نخطئ الرواية القرآنية اعتمادًا على أن التوراة قد أوردت لنا ما يقطع بأن أم يوسف قد ماتت قبل زمن طويل من تحقق تلك النبوءة، وذلك لأن القرآن لم يذكر لنا شيئًا قط عن أم يوسف، فلا شيء في القرآن كله عن حياتها ولا عن موتها، بل لقد اقتضى اكتمال تحقق الرؤية اليوسفية التي على أساس من صدقها قامت نبوة يوسف ما يستلزم معه اعتقاد النبي محمد في أنها قد عاشت إلى أن شهدت بعينها تحقق رؤيا ابنها النبي الملهم من الله بصادق الرؤيا والأحلام، وأوضح من هذا المثال ما جاء في القرآن عن يونس وقومه.

قوم يونس

فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ (يُونُس: 98).

فكما ترى فإن القرآن يقول إن النبي يونس كان مرسلا من الله إلى (قومه)، فليس لنا أن نرد الرواية القرآنية ونصفها بالخطأ لتعارضها الجلي مع الرواية التوراتية التي تجعل من يونس نبيًّا عبرانيًّا أرسله الله برسالة خاصة إلى أهل نينوى، وكانت نينوى كما هو معروف مدينة أممية معادية لشعب الله، ولا ينتمي يونان إليهم من قريب أو من بعيد، وذلك لأن القرآن لم يذكر أي شيء من ذلك، فالعبرة إذن في الاتساق الداخلي للرواية الدينية وانسجامها مع قواعدها المقررة، وهذا ما يجعل من هذه النقطة، أي اعتبار أهل تلك المدن المدمرة قومًا للوط، تمثل إشكالية على نحو ما للناظر في القرآن الكريم.

لكن هل يمكن أن يكون هذا السؤال سؤالا زائفًا، وأنه يمكن الخروج من هذا الإشكال اللفظي بأن نتوسع فقط قليلا في دلالة كلمة (قوم الرجل) لتشمل الجماعة التي يسكن الرجل بينهم حتى لو كان غريبًا عنهم، نازحًا إليهم؟ وهذا التوسع لا يستقيم مع ما أوردته المعاجم العربية في معنى القوم؛ إذ حصرته على نحو واضح في معنيين اثنين، وهما رابطة الدم والعقيدة، فلسان العرب مثلا يقول: "وَقوم الرجل أَقَاربه عصبية وَمن يكونُونَ بمنزلتهم تبعًا لَهُ[648]"، وكذا لم نعثر على نص خارج القرآن يستعمل تلك الكلمة على هذا المعنى الواسع.

إذن، فإذا طبقنا ما تقول به المعاجم عن معنى قوم الرجل فلا نجدها تنطبق في شيء على قوم لوط، فلم يكن الرجل منهم عصبية ودمًا، ولا كانوا منه في شيء دينًا ومعتقدًا، وكذلك نرى القرآن يقدم لنا لوطًا وهو يشكو إلى ربه غياب قوة من قومه تحميه وتمنعه من أيدي الراغبين في اقتراف الفاحشة بضيفه؛ ما يفهم منه غياب أي أهل أو قرابة دموية له بين أهل تلك المدينة سوى القليل ممن جاء معه من أهله إلى تلك المدينة الغريبة.

إذن، فقد كان كل نبي من الأنبياء القدماء كما اعتقد النبي مؤبدًا هذا النمط من أنماط الولاء الاجتماعي في عصره، تحميه عشيرته الدموية من أعدائه وخصومه، سواء أكانوا من المؤمنين بدعوته، أو كانوا خصوما لها، كما حدث مثلا مع قوم شعيب: (ولولا رهطك لرجمناك)، ومثلما حمت النبي محمدا عشيرته، مؤمنهم وكافرهم، من بني هاشم، وحالت بين التعرض لحياته، وهي على كل حال شكاة استحق عليها لوط من النبي محمد عتابًا رقيقًا كما رأينا، لكن الأهم من ذلك العتاب هو تقرير النبي محمد بأن الله لم يرسل بعدها نبيًّا إلا وكان حسيبًا وسيطا في قومه: "رحم الله لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد، وما بعث الله بعده نبيا إلا وهو في ثروة من قومه[649]".

فما تفسير ذلك إذن؟

الواقع أن النبي انطلاقا من قاعدته الأصلية لمعنى النبوة والرسالة، التي لا موضع فيها لرجل غريب يدعو إلى دينه أغرابًا عنه، فقد كانت هي القاعدة الحاكمة التي ينطلق

[648]"المعجم الوسيط" مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ج2، ص 768.

[649]"صحيح الجامع الصغير" برقم 5812.

منها، وكان من تأثير الحضور الطاغي لتلك القاعدة الكلية، التي استقرت عميقًا جدًّا في ذات النبي بحيث أزاحت وهو تحت حالته الإلهامية تلك الاستثناءات من تلك القاعدة، فلا يلحظها في حالته تلك، حتى لو كانت معلومة لديه خارجها، أو ربما كان الأمر أيسر من ذلك؛ أي إن النبي قد أوضح أنهم ليسوا له بقرابة حقيقية، فهو يعلم أن المخاطبين بالقرآن سوف يدركون ما في استخدامه من التوسع وخروجه من الدلالة الأصلية لكلمة قوم التي يعرفونها إلى معنى المجاورة في السكنى، أو ربما كان السبب تعبيريًّا خالصًا؛ أي لغياب كلمة مفردة يسهل استخدامها في حالته، فاستعمل النبي الكلمة القديمة مع معرفته التامة بأنها لا تدل بدقة على علاقة لوط ومن بعث فيهم، أو ربما كان الغرض من استخدامها لبيان تحبب الرجل وتودده إلى أهل مدينته، فكأنه يقول لهم أنتم (مثل أهلي)، وأنتم عندي (كعشيرتي). وعلى كل حال، فهذه مسألة هينة يسيرة، ولا كبير أهمية لها، والأمر كذلك أهون بطبيعة الحال فيما توقف عنده المفسرون لبيان قوله: (كذبت قوم لوط المرسلين) إذ جاءت كلمة المرسلين في سياق سور الشعراء والحجر والصافات بصيغة الجمع، ولكن لما كان القرآن لا يحكي هناك عن أنبياء متعددين أرسلهم الله إلى أقوامهم، بل كان يعني نبيًّا واحدًا، كما معنا مثلا هنا في قصة لوط؛ لذا فقد انشغل المفسرون في شرح دلالة ذلك. والحقيقة إن الأمر أبسط من ذلك بكثير، فهذه الكلمة قد جاءت في سياق هذه السورة فقط بصيغة الجمع لمجرد مراعاة الفاصلة القرآنية النونية الحاضرة في تلك السور جميعًا، ولا شيء أكثر من ذلك؛ لذا فلا ضرورة لتلك التخريجات البعيدة مثل هذا الرأي الذي قال به ابن سيده الأندلسي: (في قوله تعالى: كذبت قوم نوح المرسلين إنما أنث على معنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال المرسلين، وإن كانوا كذبوا نوحًا وحده؛ لأن من كذب رسولا واحدا من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل، وجائز أن يكون كذبت جماعة الرسل[650].

والذي قاله هذا اللغوي الكبير ومعه كثير من المفسرين هو مفهوم قرآني خالص؛ أي مفهوم وحدة الرسالات الإلهية وتتابعها واشتراكها جميعًا في تقرير عقيدة دينية واحدة، تتكرر بحذافيرها في جميع العصور والأماكن، وهو في الحقيقة تفسير لا معنى له؛ لأنه يتأسس كما قلنا على مفهوم إسلامي خالص، وهو وحدة الرسالات الإلهية عبر التاريخ البشري كله، وهو مفهوم جميل، ولكنه متوهم وغير تاريخي كما سنرى.

---

[650]"لسان العرب" لابن منظور، دارالمعارف، ص 3787.

فهرست المراجع والمصادر

1- القرآن الكريم.

2- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار العاشر، 2013م، الطبعة الخامسة.

3- إبداعات النار: كاتى كوب وهارولد جولد وايت، ترجمة د. فتح الله الشيخ،عالم المعرفة الكويت،2001م.

4- إتحاف الأخِصّا بفَضَائل المسجد الأقصى: شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، المنهاجي الأسيوطي، تحقيق د. أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1982 - 1984م.

5- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي، تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، 1414.

6- الأدب اليهودي في المرحلة التلمودية، مصطفى عبد المعبود سيد منصور القاهرة، الطبعة الأولى،2005.

7- أديان العرب في الجاهلية، محمد نعمان الجارم، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1923م.

8- الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة.

9- الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها، ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، 2000م.

10- أصعب الآيات في سفر التكوين: القس عزت شاكر، الكنيسة الإنجيلية بمدينة نصر،2014 م.

11- أصنام الكتابات: جواد علي، الطبعة الأولى لشركة الوراق للنشر المحدودة،2007م، بغداد.

12- الأصنام: هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة،1995م.

13- الاعتصام: أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.

14- الأعمال الصوفية: محمد بن عبد الجبار النفري، راجعها وقدم لها سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا، بغداد، 2007م.
15- الارتباط الزمنى والعقائدي بين الأنبياء والرسل: د. الحاج محمد وصفى، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1997م.
16- أسئلة في العهد القديم الخلق والتطور آدم، الأساطير البابلية، مسار الخروج، الفتوحات: د. أوسم وصفي، الطبعة الأولى، 2014م.
17- أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم: د. كارم محمود عزيز، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، 2006م.
18- أساطير اليهود: لويس جنزبرج، المجلد الأول، ترجمة حسن حمدي السماحي، دار الكتاب العربي، دمشق القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م.
19- أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1994م.
20- الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد الغزالي، دار المنهاج.
21- الإنسان في القرآن الكريم: عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر، الطبعة الرابعة، 2005م.
22- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى - 1418هـ.
23- أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره: أحمد خالد شكري، عمران سميح نزال، الطبعة الأولى 2007م، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن.
24- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، 2003م.
25- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى 1993م.
26- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ابن عجيبة الحسني، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: 1419هـ.

27- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ.
28- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة.
29- البدء والتاريخ: ابن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
30- البدايات 14 مليار عام من تطور الكون: نيل تايسون، دونالد جولد سميث، ترجمة: محمد فتحي خضر، كلمات للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 2014م.
31- البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي، علي شيري، دار إحياء التراث العربي الطبعة الأولى 1988 م.
32- البداية والنهاية : ابن كثير الدمشقي، بيت الأفكار الدولية لبنان، تحقيق حسان عبد المنان، الجزء الأول 2004م.
33- البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى 2003م.
34- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، 1990م.
35- التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي: آلبان .ج. ويد، جرى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، الطبعة الثانية.
36- التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 م.
37- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه: ناصر الدين الألباني، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2003م.
38- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، إشراف زهير الشاويش، الطبعة الثانية، 1985م.
39- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان.

40- بنو الإنسان: بيتر فارب، ترجمة: زهير الكرمي، عالم المعرفة الكويت، يوليو 1983.
41- تاريخ الأنبياء: الخطيب البغدادي، تحقيق آسيا كليبان البارح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
42- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس: حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري، دار صادر، بيروت.
43- تاريخ دمشق: ابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
44- تاريخ دولة الأنباط: إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 1987م.
45- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة.
46- تعرف إلى العهد القديم مع الآباء والأنبياء: الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، طبعة أولى 1994م.
47- تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار: رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م الجزء 8.
48- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999م.
49- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معانى التنزيل: تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ.
50- - تفسير الطبري: تحقيق شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م.
51- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، 1418هـ.
52- تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2000م.
53- التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1996م.

54- التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها: إسرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان، ترجمة: سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، 2006م.
55- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ترجمة: حسن خالد، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1990م.
56- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك: جلال الدين السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر1969م.
57- الرحمن والشيطان الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية: فراس السواح، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سورية.
58- الإلهة ليليث ملكة الليل: د. صلاح رشيد الصالحي، بيت الحكمة، بغداد، الطبعة الأولى 2013م.
59- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م.
60- تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة: عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو المصرية.
61- تاريخ شعب الله القديم :الأب ديلي، ترجمة الأب: جرجس مارديني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1961م.
62- تاريخ الكتاب المقدس منذ عهد التكوين وحتى اليوم: ستيفن ميلر وروبرت هوبر، ترجمة: وليم وهبة، دار الثقافة، القاهرة، 2008م.
63- التاريخ العربي القديم: ديتلف نيلسن وآخرون، ترجمة: د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.
64- تاريخ ابن الوردي: دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
65- تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. وصلة تاريخ الطبري للقرطبي: دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية،1387هـ.
66- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، المكتبة التوفيقية.
67- تفسير البغوي: تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ.

68- التفسير الحديث للكتاب المقدس - العهد القديم – القضاة: آرثر كندال، ترجمة بهيج يوسف الطبعة الأولى، دار الثقافة بالقاهرة 1991م.
69- تفسير سفر التكوين: القس أنطونيوس فكرى.
70- تفسير لسفر التكوين منسوب إلى القديس إفرام السرياني، قدم له ونشره: الأب يوحنا ثابت، منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس 1982م.
71- تفسير القاسمي "محاسن التأويل"، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ.
72- تفسير الطبري: تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة الأولى، 2001م.
73- التفسير الواضح: محمدمحمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة، 1413هـ.
74- تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4.
75- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: التعريب والجمع التصويري والمونتاج والأعمال الفنية شركة ماستر ميديا – القاهرة.
76- التفسير الحديث للكتاب المقدس "سفر التكوين": ديريك كدنر، ترجمة القس بخيت متى، دار الثقافة، الطبعة الأولى.
77- تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن: تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1964م.
78- تفسير الزمخشري المسمى الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ.
79- تأويلات أهل السنة: لأبي منصور الماتريدي، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2005م.
80- تفسير المراغي: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأولى 1946م.
81- التلمود البابلي، المجلد الأول: المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، الطبعة الأولى، 2011م.

82- التلمود الذكر - الصلاة – الدعاء- تفسير الأحلام: د. ليلى أبو المجد، علاء تيسير أحمد، مكتبة مدبولي، 2012م.
83- التلمود - عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين حول الأخلاق الآداب الدين التقاليد القضاء: آ- كوهن، ترجمة جاك مارتي، نقلة إلى العربية: د. سليم طنوس، دار الخيال، بيروت، الطبعة الأولى 2005م.
84- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة الأولى، يناير 1998م.
85- التطور - مقدمة قصيرة جدا: برايان تشارلز وورث، ديبورا تشارلز وورث، ترجمة: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، 2016م.
86- التطور الحضاري للإنسان: جاكوب برونوفسكي، ترجمة: د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1987.
87- الترجمة التفسيرية للآباء اليسوعيين، دار المشرق، الطبعة الثالثة.
88- التوراة - كتابات ما بين العهدين - مخطوطات قمران - البحر الميت، حقق بإشراف: أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو، ترجمة وتقديم: موسى ديب الخورى، دار الطليعة الجديدة، الطبعة الأولى 1998م.
89- تيار دي شاردن - العلم والمسيح: ترجمة المطران عبده خليفة والأب جورج رحمة، المركز الرعوي للأبحاث والدراسات، دير مار روكز، لبنان، الطبعة الأولى 1994م.
90- التيجَان في مُلوك حِمْيَر: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (يرويه عن أسد بن موسى عن أبي إدريس ابن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه) تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الناشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة الأولى، 1347هـ.
91- الثقافة العربية أسبق من ثقافة العبرانيين: عباس محمود العقاد، المكتبة الثقافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، مكتبة النهضة المصرية.
92- جامع البيان في تأويل القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2000م.
93- الجامع الصحيح للسيرة النبوية: د. سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت الطبعة الأولى، 2009م.

94- الجنس في العالم القديم: بول فريشاور، ترجمة: فائق دحدوح، طبعة أولى، 1999.
95- الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: سيد علي القمني، مكتبة مدبولي الصغير، الطبعة الرابعة 1996م.
96- الحضارة الفينيقية: كونتنو، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1997م.
97- الحثيون: ا. د.جرني، ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.
98- حياة إبراهيم: ماير، ترجمة: القمص مرقس داود، مكتبة المحبة.
99- الحياة الروحية في بابل- الإنسان - المصير – الزمن: كلشكوف، ترجمة عدنان عاكف حمودي، الطبعة الأولى، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق،1995م.
100- خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل: كمال الصليبي، دار الساقي، الطبعة السادسة، 2006م.
101- الخصائص الكبرى: السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
102- الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي: د. سليمان حيتاتي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق الطبعة الأولى 1996م.
103- دراسات تاريخية من القرآن الكريم: د. محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1988م.
104- دفاع عن القرآن ضد منتقديه: عبد الرحمن بدوى، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للنشر والتوزيع.
105- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1405هـ.
106- رسالة التوحيد: الشيخ محمد عبده، دار الشروق، تحقيق: د. محمد عمارة، الطبعة الأولى 1994م.
107- رسالة في اللاهوت والسياسة: باروخ اسبينوزا، ترجمة: د. حسن حنفي، الطبعة الأولى، دار التنوير، بيروت، 2005م.

108- روح المعاني: الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
109- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: السهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 2000م.
110- زهرة التفاسير: محمد أحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
111- سحر الواقع: ريتشارد داوكنز، ترجمة: عنان علي الشهاوي، دار التنوير، لبنان، الطبعة الأولى،2013م.
112- السجع القرآني، دراسة أسلوبية: هدى عطية عبد الغفار، رسالة ماجستير غير منشورة،2001م.
113- سفر التكوين: ترجوم نيوفيتي، ترجمة الخوري بولس الفغالي، الرابطة الكتابية، الطبعة الأولى 2002م.
114- سفر التكوين في ميزان القرآن: د. صلاح الدين الخالدي، دار العلوم للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2004م
115- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.
116- السلوك في طبقات العلماء والملوك: بهاء الدين الجُنْدي اليمني، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1995م.
117- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م.
118- السنن القويم فى تفسير أسفار العهد القديم شرح سفر التكوين: القس وليم مارش، مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى، بيروت، 1973م.
119- سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، تحقيق الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405هـ/ 1985م.
120- السيرة النبوية: أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية عشرة، 1425هـ.

121- السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة.
122- السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2004 م.
123- السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَويَّةِ: د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، 1994م.
124- السيرة الحلبية، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية، 1427هـ.
125- الشخصية المحمدية: معروف الرصافي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، المانيا، 2002م.
126- شرح سفر التكوين - سفر البدايات: إعداد الراهب القس يوحنا المقاري، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية 2014م.
127- شرح النووي على مسلم المسمى: (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1392هـ.
128- شرح ديوان أمية بن أبى الصَّلْت، تعليق وشرح: سيف الدين الكاتب - أحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د- ت.
129- الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق: عبد العزيز صالح، مكتبة دار الزمان القاهرة 1984.
130- شقيقات قريش: فاضل الربيعي، رياض الريس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى يونيو،2002م.
131- صَحِيحُ الأَثَر وجَمَيلُ العبر من سيرة خير البشر: د. محمد بن صامل السُّلَميُّ، د. عبد الرحمن بن جميل قصَّاص- د. سعد بن موسى الموسى - د. خالد بن محمد الغيث، مكتبة روائع المملكة، جدة، الطبعة الأولى 2010م.
132- صحيح البخاري: تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
133- صحيح الترغيب والترهيب: الشيخ ناصر الألباني، مكتبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 2000م.

134- صحيح الجامع الصغير وزياداته: ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي.
135- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
136- صحيح وضعيف سنن الترمذي: محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 2002م.
137- الصَّحيحُ من أحاديث السّيرة النبوية: أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، 1432 هـ - 2011م.
138- صحيح الأدب المفرد: البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه الشيخ ناصر الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1997م.
139- ضعيف الأدب المفرد: الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1998م.
140- الطبقات الكبرى: ابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.
141- طلائع البشر في توجيه القراءات العشر: الشيخ محمد الصادق قمحاوي، دار العقيدة، الطبعة الأولى، 2006م.
142- الطوفان في المصادر السومرية - البابلية - الآشورية – العبرانية: فؤاد جميل، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى 2014م.
143- العالم من البدايات حتى 4000 قبل الميلاد: ايان تاتيرسول، ترجمة: د. حازم نهار، الطبعة الأولى، أبوظبي، هيئة أبو ظبى للتراث والثقافة- 2011م.
144- العرب في العصور القديمة: لطفي عبد الوهاب، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية.
145- العرب قبل الإسلام: جورجي زيدان، الطبعة الثانية، مطبعة الهلال، 1922م.
146- العرش وما رُوِي فيه: أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، تحقيق محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1998م.
147- العصر الجاهلي: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون.

148- عظات وعبر في قصص الأنبياء: الشيخ سعيد عبد العظيم، دار الإيمان، الإسكندرية، 2002م.
149- عمل اليوم والليلة: ابن السنى، دار الأرقم ابن أبى الأرقم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998م.
150- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: ابن سيد الناس، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
151- غاية المرام في علم الكلام: الآمدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
152- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام : الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1405.
153- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
154- الفولكلور في العهد القديم: جيمس فريزر، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، الطبعة الثانية دار المعارف، 1982م.
155- في الشعر الجاهلي: طه حسين، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.
156- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة الطبعة السابعة عشر - 1412هـ.
157- قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، الطبعة الثانية 1939م، مكتبة الاستقامة، القاهرة.
158- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث: صلاح الدين الخالدي، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م.
159- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، القاهرة، الطبعة الخامسة، 2013م.
160- المستطرف في كل فن مستظرف: الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ.
161- كيف كانت البدايات: تكوين، بوب اتلي، مجموعة دليل الدراسات التفسيرية، العهد القديم، الجزء الأول.

162- فتح القدير: الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت الطبعة الأولى، 1414 هـ.
163- فقه اللغات السامية :كارل بروكلمان، ترجمة: د. رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، 1977م.
164- الفن القصصي في القرآن الكريم: محمد خلف الله أحمد، سينا للنشر، الطبعة الأولى 1951، الطبعة الرابعة 1999م.
165- مغامرة الإسلام – الضمير والتاريخ في حضارة عالمية: مارشال هودجسون، ترجمة: أسامة غاوجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، المجلد الأول -2021م.
166- قاموس الكتاب المقدس: نخبة من الأساتذة واللاهوتيين ذوي الاختصاص، تحرير: بطرس عبد الملك وآخرون.
167- القرآن والتاريخ: د. رأفت عماري، إصدار معهد الأبحاث الدينية، الطبعة الأولى، 2014م.
168- قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
169- قصص الأنبياء والتاريخ: د. رشدي البدراوي، الطبعة الثالثة، 2009م.
170- قصص الأنبياء: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1388 هـ - 1968 م.
171- قصة الحضارة: وِل ديورانت، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين دار الجيل، بيروت، لبنان 1988م.
172- قصص التوراة في ضوء النقد الأدبي: سعيد عطية علي مطاوع، المجلس الأعلى للثقافة، 2007م.
173- قضايا وشخصيات يهودية: جعفر هادي حسن، العارف للمطبوعات، بيروت لبنان، الطبعة الأولي، يناير 2011م.
174- الأساطير العربية قبل الإسلام: د. محمد عبد المعيد خان القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر - 1937م.

175- الإنسان في الشعر الجاهلي: د. عبد الغنى أحمد زيتوني، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى،2001م.
176- الكتاب المقدس، الطبعة الثالثة، دار المشرق، بيروت، الرهبنة اليسوعية الترجمة التفسيرية -1994م.
177- كعب الأحبار: إسرائيل ولفنسون، مكتبة الشرق التعاونية شعفاط القدس 1976م.
178- كعب الأحبار وأثره في التفسير: د. خليل إسماعيل إلياس، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى،2007م.
179- النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام: لواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1992م، القاهرة.
180- كنز الدرر وجامع الغرر: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، الناشر: عيسى البابي الحلبي، 1994م.
181- مؤمن آل فرعون حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح: د. الشفيع الماحي أحمد، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1999م.
182- مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن: ابن الجوزي، تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي، الطبعة الأولى، 1995م.
183- محاسن التأويل: القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418 هـ.
184- محمد في مكة: مونتجومري وات، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.
185- محمد والقرآن: رودي باريت، ترجمة د. رضوان السيد، مؤسسة شرق غرب، ديوان المسار للنشر، دولة الإمارات العربية، الطبعة الأولى، 2009م.
186- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ.
187- المختصر في أخبار البشر: لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل شاهنشاه بن أيوب، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

188- مختصر تفسير ابن كثير: الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1981م.
189- المختصر في أخبار البشر: لأبي الفداء، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.
190- مدخل إلى التلمود: أدين شتاينسالتز، ترجمة: د. فيينا الشيخ، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ، دار الفرقد، 2006م.
191- مدخل إلى العهد القديم: الأب بولس نديم طرزي، تعريب: نيقولا أبو مراد، منشورات النور.
192- مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن: د. محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القلم، الكويت، 1984م.
193- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006م.
194- المرأة بين اليهودية والإسلام: د. ليلى إبراهيم أبو المجد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى،2007م .
195- مستقبل وهم: سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة، مارس 1998م.
196- المستدرك على الصحيحين: الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1990م.
197- مشكاة المصابيح: ولي الدين التبريزي، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م.
198- مصادر الشعر الجاهلي: ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة 1988م.
199- مصر والشرق الأدنى القديم: د. نجيب ميخائيل إبراهيم، المجلد الثالث، الطبعة الثانية 1964م.
200- مطلع النور: العقاد، المجلد الأول من كتاب (موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، نوفمبر 1970م.

201- معالم تاريخ الإنسانية: ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
202- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت الطبعة الثانية، 1995 م.
203- معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: عاتق بن غيث الحربي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1982م.
204- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ج2.
205- مفاتيح الغيب: الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.
206- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: دار الساقي الطبعة: الرابعة، 2001م
207- مقدمات العهد القديم ومناقشة الاعتراضات: د. وهيب جورجي كامل، رابطة خريجي الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس، القاهرة.
208- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: حمزة محمد قاسم، مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية، 1990م.
209- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية- 1990م.
210- من ألواح سومر: صمويل كريمر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثنى ببغداد، مؤسسة الخانجي، القاهرة.
211- من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم: د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولي، 2013م.
212- من كتب التوراة؟: ريتشارد اليوت فريدمان، ترجمة: عمرو زكريا، دار البيان، الطبعة الأولى 2003م.
213- من سومر إلى التوراة: د. فاضل عبد الواحد علي، الطبعة الثانية، سينا للنشر، 1996م.
214- المنمق في أخبار قريش: محمد بن حبيب البغدادي، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.

215- موجز تاريخ الجنون: روي بورتر، ترجمة ناصر مصطفى، دار كلمة، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، 2012م.
216- موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني فى العقيدة: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء، اليمن، الطبعة الأولى، 2010 م.
217- موسوعة تاريخ العالم: إصدار وليام لانجر، مكتبة النهضة المصرية.
218- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد القديم، الجزء الأول، سفر التكوين، إعداد مجموعة من كهنة وخدام الكنيسة، كنسية مار مرقص القبطية الأرثوذكسية، مصر الجديدة، القاهرة.
219- الموسوعة في صحيح السيرة النبوية: أبو إبراهيم، محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة، مطابع الصفا، مكة، الطبعة الأولى، 1423هـ.
220- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان - الأردن.
221- لسان العرب: ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة - 1414هـ.
222- النبوة والأنبياء في العهد القديم: الأب متى المسكين، دار مجلة مرقص، الطبعة الثالثة، 2014م.
223- نشأة علم التاريخ عند العرب: د. عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى – بيروت، سبتمبر 2005م.
224- نظرات في القرآن: محمد الغزالي، نهضة مصر، الطبعة السادسة، 2005م.
225- نبي الله إدريس بين المصرية القديمة واليهودية والإسلام: د. هدى درويش، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م.
226- هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة: أحمد غسان سبانو، الطبعة الرابعة، دمشق، 2010م.
227- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن الواحدي، النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الأولى 1994م.

228- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: للسمهودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى - 1419هـ.
229- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1990م.
230- وهم الإله: ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية.
231- اليواقيت والجواهر: عبد الوهاب الشعراني، مكتبة البابي الحلبي، د. ت.